

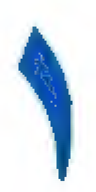
سلسلة
الرسائل
الجامعية
(١)

الدكتور عبد الله الفَيفي

شعر ابن مقبل

قلق المخضرم بين الجاهلي والإسلامي

دراسة تحليلية نقدية



(البيئة - الثقافة)



شعر ابن مقبل

قلق الخضرمة بين الجاهليّ والإسلاميّ

دراسة تحليلية نقدية

لوحة الغلاف مأخوذة عن : كتاب « قرية » الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية؛ للأستاذ الدكتور/ عبد الرحمن الطيب الأنصاري، وكتاب الخط العربي من خلال المخطوطات : ن. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

شعر ابن مقبل

قلق الخضرمة بين الجاهليّ والإسلاميّ

دراسة تحليليّة نقديّة

١

(البيئة - الثقافة)

الدكتور عبدالله بن أحمد الفَيفي

ⓒ عبدالله بن أحمد الفيفي ، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفيفي : عبدالله بن أحمد

شعر ابن مقبل : قلق الخضرمة بين الجاهلي والإسلامي : دراسة تحليلية نقدية .- الرياض.

٩٢٨ ص ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٠-٨٦٦-٣٤-٩٩٦٠

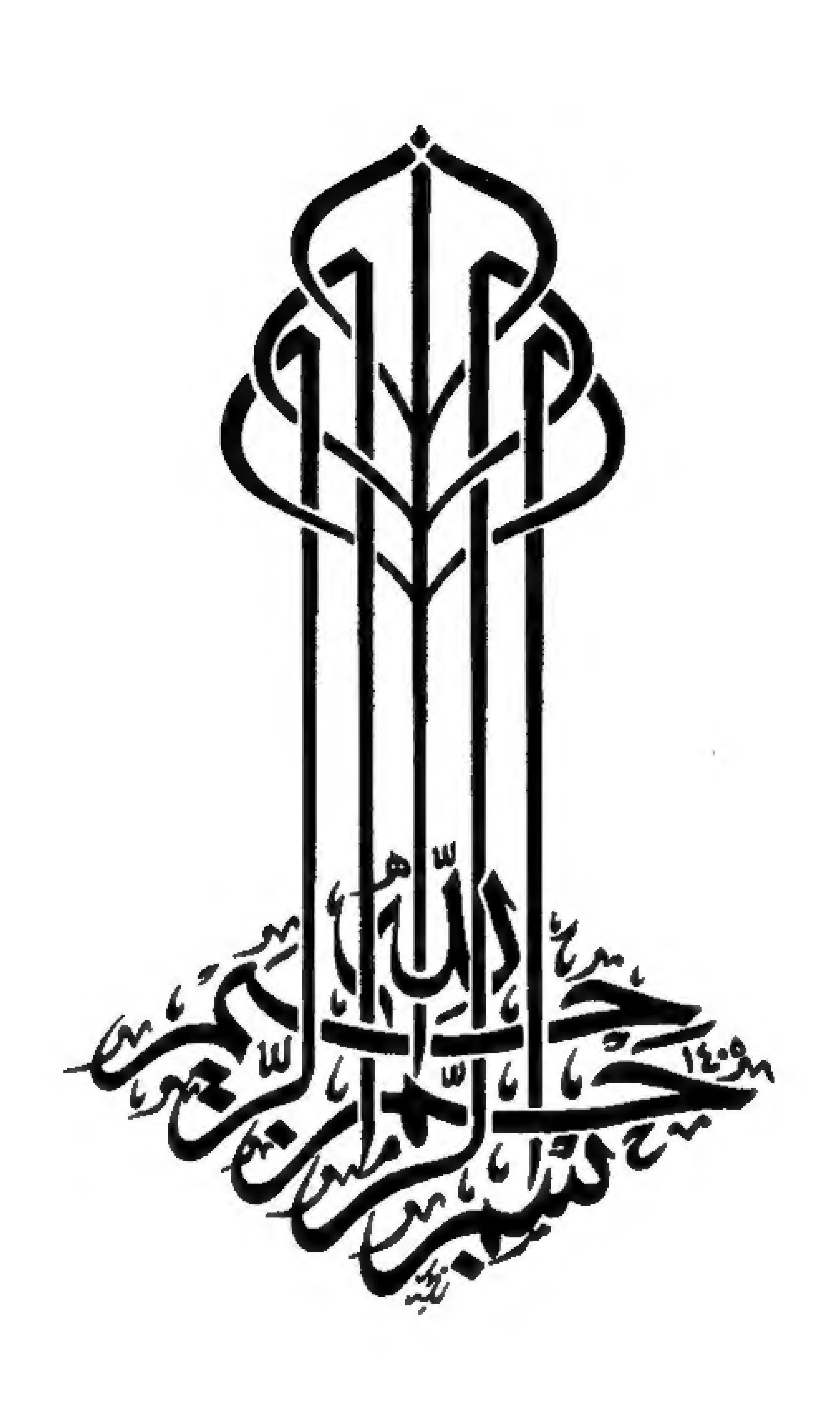
١- الشعر العربي - نقد - عصر صدر الإسلام ٢- ابن مقبل ، تميم بن أبي ، ت نحو ٢٥هـ أ - العنوان

ديوي ٨١١،٢٠٠٩ ١٩/٠٤٦٥

ردمك : ٠-٨٦٦-٣٤-٩٩٦٠ رقم الإيداع : ١٩/٠٤٦٥

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩م


بسم الله الرحمن الرحیم
۱۴۰۹

الإهداء

إلى أستاذي الأديب سلمان محمد ..

إلى صاحبتي الغالية خيرة سلمان ..

وإلى الأعزاء :

صبا

عمر

أسامة

رؤى

.. الذين أهدوني جميعاً كتابي هذا .

الرياض ١/٥/١٤٢٠هـ

قُدّم هذا الكتاب رسالة علمية لاستكمال متطلبات درجة الماجستير في قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة الملك سعود بالرياض ، في ٢٢/ ١١/ عام ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م ، وأجيز به صاحبه بتقدير عامّ (ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى).

كلمة لا بدّ منها

أن يَصدر عملٌ أُنجز قبل عقد من السنين أمر يطوّق صاحبه بهواجس من القلق والتردد، تردد إزاء الذات التي لم تعد كما كانت حين أنجزت العمل قبل عقد من الزمن، وقلق إزاء القارئ الذي تعتوره حالات التجدد ومطامح الآتي.

ولعل المؤلف يدرك الآن قبل غيره ما في عمله مما لم يكن ليدركه قبل، ويعي أنه لو استقبل من أمره ما استدبر لكانت له إليه مسالك أخرى، غير أن مراودة الاستدراك على الماضي أو إعادة النظر فيه - ولا سيما حينما يكون بهذا الحجم - ستعني الخوض في إنشاء راهن، ربما كان صرفه إلى مشروع جديد أجدى عليه وأيسر مأتى.

لذلك؛ ولأنه ما يزال يرى في هذا العمل جهداً حريًّا بأن يرى النور - من وجهة نظره على الأقل، ثم من وجهة نظر بعض أساتذته وزملائه الذي ما فتئوا يحسنون الظن بعمله فيحفزونه على إخراجه بين الحين والآخر - لذلك كله؛ ولأنه لا يعلم دراسة وافية ظهرت طيلة هذه السنوات عن شاعره هذا وشعره، فقد ترك إنجازه بصورته الأصلية التي تمّ بها، شاهداً على نفسه وعلى صاحبه في طور من أطواره، يقيناً بأنه يحوي وثيقة غنيّة بما تُمِدّ القارئ به عن عَلَم من أعلام تراثه العربي وديوان من دواوينه الخالدة، قمين بأن يرفد الناقد ببحث مرجعيّ، عسى أن يجد فيه ما يعبر منه إلى أفق وليد.

أمّا (نادي جازان الأدبي) فيدٌ امتدت بيضاء، بعد هذه السنين المحلات، التي كدت أعزو أمرها إلى طالع ابن مقبل الذي لاحقه في حياته ثم من بعده مضى يلاحق دارسيه. فلنادي جازان الأدبي منّا جميعاً التقدير كلّه على تبنّيه نشر هذا الكتاب.

المحتويات



الباب الأول

الفصل الأول

الفصل الثاني

الباب الثاني

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الباب الثالث

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الباب الرابع

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الباب الخامس

الفصل الأول

الفصل الثاني

○ ○ ○

□□□□□

المستدرك

□□□□□

تقديم

إن مشروعية هذه الدراسة لا تتأتى مما يحمله شعر (تميم بن أُبَيّ بن مقبل العجلاني) في التراث العربي من أهمية تاريخية وأدبية فحسب ، وإنما أيضاً لما تلفيه قد تواكلته به الطوالع السيئة قديماً وحديثاً ؛ فبالرغم من غزارة شعره وجودته ، واحتفاء كتب التراث به على اختلاف اختصاصاتها ، فقد ضاعت معظم جهود القدماء حول شعره ، وكذا لم يحظ بنصيبه من الدراسات الحديثة . وليس آكد لذلك من أنك كنت تحاصَر مرات كثيرة بالأسئلة : عمَّن يكون ابن مقبل هذا؟ ، حتى من بعض ذوي الاختصاص أحيانا . بل إن ما قام به القدماء من جمع شعره وصناعته هو اليوم في عداد المفقود، ولو لا بقاء مخطوطة ديوانه الفريدة في العالم ، التي أُعْثِر عليها محققاه في تركيا ، لضاع ديوانه أيضاً في ما ضاع .

وابن مقبل شاعر جاهلي إسلامي مخضرم ، عمّر مئة وعشرين سنة ، فعاش إلى نحو (٧٠هـ = ٦٨٩ - ٦٩٠م) . جعله (الجمحي) في الطبقة الخامسة من فحول الشعراء الجاهليين ، وهو معدود من مغلّبي (مضر) الذين قيل إنهم أشعر الناس . وقد عُني القدماء بجمع شعره وشرحه ، وأهمهم أولئك الذين سجّل لهم (ابن النديم) في (الفهرست) قيامهم عليه ، وهم : (أبو عمرو الشيباني - ٢٠٦هـ = ٨٢١م) ، و(الأصمعي - ٢١٦هـ = ٨٣١م) ، و(ابن السكيت - ٢٤٤هـ = ٨٥٨م) ، و(الطوسي - عاصَرَ ابن السكيت) ، و(السكري - ٢٧٥هـ = ٨٨٨م) . وكذلك شَرَحه (ابن المعلّى الأزدي - روى عن (ابن دريد - ٣٢١هـ = ٩٣٣م)) . وكان ديوانه ضمن الدواوين التي نقلها

(القالي - ٣٥٦ = ٩٦٧م) إلى (الأندلس) . وفي العصر الحديث حقّق ديوانه محققان هما: (د. عزة حسن)، فنُشر سنة (١٣٨١هـ=١٩٦٢م)، و(د. أحمد توريك: DR. A. I. TÜREK)، ونُشر سنة (١٩٦٧م) . ولكل منهما مقدمة تعرّف بالشاعر وشعره .

وقد اتجه منهاج الدراسة هذه إلى شعر ابن مقبل خاصة لعدد من الأسباب: أولها الإيمان بأن شعره هو الأساس الذي تنشأ عليه أهمية الدراسة ، وكل ما سوى شعره تنحصر أهميته في إلقاء الضوء على شعره ، ناهيك عن أن المعلومات عن حياته وأخباره قليلة وأحياناً مضطربة ولا يكاد الباحث يظفر منها بشيء مهمّ لدرس شعره . من أجل ذلك كله انحصر الحديث عن جوانب شخصيته ، وحياته ، ومجتمعه ، في مدخل الدراسة؛ لما يمثله هذا المدخل من بداية طبيعية وسياقٍ ضروريّ لجميع ما سيتلوه من بحث في شعره .

ولأن هذا العمل لا يستند على دراسات سبقت عن شعر ابن مقبل - لعدم توفّرها - نشأت ضرورة التحليل ؛ ليكون شعره هو المصدر الأول والرئيس للدرس . على أنها تنبغي الإشارة هنا إلى أن كون الدراسة تحليلية لا يعني تقييدها بمنهج التحليليين، أو بعض مفاهيم (مدرسة النقد الجديد) ، بحيث تعزل النص عن منشئه أو متلقيه ، وإنما هي تأخذ من ذلك بما يلائمها ويفضي بها إلى النتائج المتوخّاة .

وتتكوّن الدراسة بعد المدخل من خمسة أبواب : الأول - عن شعره بين الجاهلية والإسلام ، فيختص الفصل الأول منه بتقصّي آثار الجاهلية في شعره ، والثاني بآثار الإسلام؛ لتتمخض عن ذلك محاولة لفصل الجاهلي منه عن الإسلامي . أما الباب الثاني فقد اهتم بالبيئة من وجوهها المختلفة ، فانشطر إلى

شطرين : الطبيعة ، والحضارة، ففي الطبيعة: أربعة فصول عن : التضاريس ، والنبات، والحيوان، والمناخ والنجوم والكواكب . وفي الحضارة فصل واحد هو الخامس من هذا الباب ، وعُني بالتقنية العربية زمن الشاعر . ويرتكز البحث في هذا الباب على الأهمية الحيوية التي كانت للعرب من عناصر البيئة المتعددة، كما تظهر في شعر ابن مقبل، ثم رموز تلك العناصر عند الإنسان العربي إذ ذاك ، وما استمده الشاعر ووظّفه منها في رسم صوره الشعرية ، وأُتبع كل فصل من تلك الفصول بفهرس يقدّم للقارئ رسماً بيانياً بكل جزء من أجزاء البيئة ، ويَهدي الباحث في هذا المجال إلى كل ما يتصل بالبيئة في ديوان ابن مقبل بطبعتيه ، مع ما أضيف إلى الدراسة من مستدرك شعره. وكان من المتوخى في هذا الباب أن يسهم برصد المادة العلمية واللغوية الثرية التي حواها شعر ابن مقبل عن البيئة العربية، ومثّلت سياقه الوجودي/ الوجداني، لتضع بأيدي الدارسين حصيلة طيّبة، علّها تخصب بحوثاً مستقبلة في هذا المجال. ثم جاء الباب الثالث لتحليل موضوعات شعره ودراستها، وهو في فصول ثلاثة ، الأول : عن الشعر والماضي ، وفيه حديث الشاعر عن الماضي وذكرياته الشخصية أو العامة ، والثاني : عن الموقف الراهن ، وفيه مواقف الشاعر من طوارق الأحداث الراهنة ساعة إعرابه عن موقفه منها ، والثالث : عن استشرافاته وآماله في المستقبل . وكان الهدف من تأطير الدراسة الموضوعية في هذه الأطر الثلاثة (الاستئناس بشعره) لاستخلاص وثيقة شبه علمية تاريخية للشاعر وقومه ، بعيداً عن النهج التقليدي الدائر في فلك الأغراض الشعرية العامة ، التي تتماثل عند معظم الشعراء القدامى ، فلا تساعد دراستها على تبيّن خصوصية الشاعر أو اتخاذ شعره شاهداً عليه أو على عصره ، على أن الأغراض الشعرية تلك ستدخل ضمناً في هذا الباب .

أما الباب الرابع فللدراسة الفنية ، وهو من ثلاثة فصول ، الأول : يبحث بناء القصيدة لدى ابن مقبل، من حيث الهيكل الخارجي، والموسيقى الخارجية، وذُيّل بفهرس لقوافي شعره، يسهّل على القارئ والباحث من بعد الوصول إلى البيت في كلتا طبعتي الديوان ، وما في إحداهما مما ليس في الأخرى من شعره ، وما تمكّنت الدراسة من استدراكه منه ، مما ليس في طبعتيه هاتين . والفصل الثاني يبحث أسلوبه اللغوي مفرده ومركّبه ، والثالث يدرس المركّب الفني ، تتصدره وقفة على نظرية الخيال والتعريف به ، ليكون ذلك منطلقاً إلى معالجة الصورة الشعرية من مختلف توجهاتها في هذا الشعر .

ثم تخلص الدراسة في بابها الخامس إلى النقد والتقييم ، في فصلين ، الأول بعنوان «تاريخ التلقّي»، يتوخّى تقديم وثائق بقراءات شعر ابن مقبل والمواقف النقدية منه، بما تنطوي عليه من حمولها المنهجية وما لا تعدمه من آفاقها الاجتماعية - الثقافية، علّها تؤسس مادة درس مستقبلي في هذا الاتجاه أبعد غوراً وشمولا. وقد انتظمت مادة هذا الفصل تاريخياً لينتهي إلى العصر الحاضر، الذي كان مخطّطاً له أن يستقلّ بفصل ، غير أن البحث تكشّف عن ندرة وقفات المحدثين عند شعر هذا الشاعر، وانسياق معظمه وراء مقولات القدماء نفسها، مما لايستأهل فصلاً يقوم بذاته. أما الفصل الثاني من هذا الباب فهو نظرات نقدية في ضوء الدراسة التحليلية ، تستهدف في المقام الأول توثيق شعره ، والمدرسة (الاتجاه) التي من الممكن تصنيفه فيها، واستقراء (الأنا) و(النحن)، وقضايا (الحياة)، و(الحب)، و(الموت) في شعره، ثم القِيم الفنية، والمعرفية، لهذا الشعر.

ثم في الخاتمة أُجملتْ خلاصة الدراسة وأبرز نتائجها وتوصياتها .

وكان الباحث قد عثر في أثناء عمله على أبيات كثيرة منسوبة لابن مقبل أو له ولغيره من الشعراء ، مما أخلّ به ديوانه بطبعة (عزة حسن) ، ولكنه بعد الاطلاع في قت متأخر على طبعة (TÜREK) ألغى عدداً مما كان قد اجتمع له منها، لسبق (TÜREK) إلى إلحاقه بطبعته للديوان ، فتبقّى بعد ذلك تسعة وعشرون مستدركاً، بين بيت ومقطوعة، ألحق بالدراسة مخرّجاً محققاً مشروحاً، مع الإفادة منه خلال موضوعات الدرس .

وحيث إن الشعر المدروس أُنشئ بلغة ليست في متناول المتلقي في الغالب، فضلاً عما يحمله من الغريب أو النادر ، فقد دعت ضرورة إيصال الأطروحات للقارئ إلى شرح ألفاظ البيت الذي يحتاج إلى شرح عند الاستشهاد به أول مرة ، معيدين النظر في بعض ما قام (د. عزة حسن) بشرحه عند تحقيق الديوان ، كما أن كثرة أسماء البلدان في شعره ، وكونها مدار فهم المعنى أحياناً ، اقتضى تحديدها ، مع السعي إلى التوفيق بين تحديد القدماء وما يعرفه الناس اليوم .

وكانت البداية مع شعر ابن مقبل من خلال ديوانه بتحقيق (د . عزة حسن) ، وفي غضون ذلك كان البحث مستمراً عن طبعته الأخرى بتحقيق (توريك TÜREK)، ولكن العثور عليها لم يتم إلا بعد إنجاز ما يعادل ثلثي العمل تقريباً ، فحرصنا على مقابلة الطبعتين في الإشارة إلى الأبيات ، وتحقيق بعض رواياتها ؛ ليتمكن القارئ ، أيّاً ما كانت الطبعة التي تحت يده ، من الاهتداء إلى البيت المستشهد به . وانفردت تلك الطبعة بأبيات ليست في طبعة (د. عزة حسن) ، فشملتها الدراسة أيضا . وكان المحقق قد قدّم للديوان بمقدمة عن الشاعر وشعره باللغة التركية ، وملخص بالإنجليزية ، فلم نقف في الملخص على شيء سوى بعض ما كان قد تم التوصل إليه من قبل ، ولكن حب الاطلاع على المقدمة التركية ظل ملحّاً ، حتى تهيأ ذلك بعد أن أوشكت الدراسة على

الانتهاء ، والفضل يعود في ذلك إلى (د. مسعد الشامان) ، الذي قرأ تلك المقدمة ونقل إليّ فحوى أهم ما تضمنته شفهياً ، فله مني جزيل الثناء .

ولم ندع سبيلاً نلمس فيه مدداً لهذا العمل إلا سلكناه ، مجتهدين في الجمع بين القديم والحديث ما وسعنا ذلك ، ففي القديم أولينا اهتمامات خاصة بكتب من ذُكِرَ أنهم قاموا على صناعة شعر ابن مقبل وشرحه ما أمكن ذلك ، كالأصمعي ، وابن السكيت ، والسكري ، وغيرهم . وكانت تغذي شرح الأبيات وتفهّم دلالاتها المعاجم اللغوية ، وأهمها : (لسان ابن منظور) ، و(صحاح الجوهري) ، و(أساس الزمخشري) ، و(مجمل ابن فارس) ، و(قاموس الفيروزآبادي) ، وكذلك كتب اللغة والأدب المختلفة ، وفي مقدمتها كتب (ابن قتيبة) ، وأولها : (المعاني الكبير) . وتحديد المواطن الواردة في شعره استَمَدَّ من كتب القدماء : (معجمَ البكري) ، و(الحموي) خاصة ، ومن المحدثين : (صحيح ابن بليهد) ، وكتب (الجاسر) الجغرافية ، و(عالية نجد : لابن جنيدل) ، وغيرها . وفي تراجم الأعلام عوّلنا على كتب التراجم والأعلام المختلفة من قديمة وحديثة . ثم كانت لكل مبحث مصادره ومراجعه التي تخدمه ، مخطوطة كانت أم مطبوعة ، وقديمة كانت أم حديثة ، وقد أُثبت ذلك كله في قائمة مفصّلة في نهاية البحث .

وتجدر الإشارة هنا إلى بعض الاختصارات التي ستواجه القارئ في هذه الدراسة ، كـ :

- (ط. TÜREK) : وتعني (طبعة الديوان بتحقيق توريك) ، ومثلها : (ط. عزة حسن) .

- (م . ن) : اختصار (المصدر نفسه) ، أو (المؤلف نفسه) ، أو

(المكان نفسه) .

- (ب٢ ف١) مثلاً : الباب الثاني الفصل الأول .

وفي الإشارات إلى مواطن الأبيات من الديوان تُذكر الصفحة ورقم البيت، فما قبل علامة التقسيم (/) : فهو رقم الصفحة ، وما عقب هذه العلامة : فهو رقم البيت .

وبعد . . فإن العرفان بالفضل يملي عليّ أن أتقدم بجليل الشكر والتقدير إلى من صحبني هذه الرحلة مع ابن مقبل وشعره ، أستاذي (الدكتور / ناصر ابن سعد الرشيد) ، المشرف على هذه الرسالة ، الذي كان في علمه وحكمته نعم العون على إنجازها . والشكر أيضاً لعضوي مناقشة هذا البحث (الدكتور/ أحمد كمال زكي) و(الدكتور / مرزوق بن صنيتان بن تنباك) . كما أشكر جامعة الملك سعود ، ممثلة في قسم اللغة العربية وآدابها ، التي هيأت سبل البحث وأعانت عليه ، وإلى كل من أسدى إليّ معرفة أو توجيهاً تحية الوفاء والامتنان ، والله ولي التوفيق .

د. عبد الله بن أحمد بن علي الفَيفي

كلية الآداب – جامعة الملك سعود بالرياض

١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م

١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م

المدخل

تميم بن أُبَيّ بن مقبل العَجلاني

تميم بن أُبَيّ بن مقبل العَجلاني

أولاً - نسبه وسيرته

أ - ١ - نسبه :

تميم بن أُبَيّ بن مُقْبِل بن عوف بن حُنَيف بن قتيبة بن العَجْلان بن عبدالله ابن كعب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعَة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور ابن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان[١] .

وقد اختلفت المصادر في الأسماء الثلاثة الأولى كما يلي :

١ - « تميم بن أُبَيّ بن مقبل »[٢] .

---

(١) ابن الكلبي : الجمهرة : ٣٥٩ ، والجمحي : الطبقات : ١٤٣ ، وابن قتيبة : الشعراء : ٤٥٥ ، واليعقوبي . تاريخ اليعقوبي : ١/ ٣١٢ ، والقرشي : الجمهرة : ٢/ ٨٥٣ ، والمرزباني : أشعار النساء : ٢٦، والوزير المغربي : أدب الخواص : ١/ ٧٩ ، وابن حزم : الجمهرة : ٢/ ٢٨٨ ، والبكري : اللآلي : ٦٨ ، وابن ميمون : منتهى الطلب (مخطوط) : الورقة : ٢٨/ب ، والصفدي : الشعور بالعور (مخطوط) : الورقة : ٣٤/ب، والوافي : ١٠/ ٤١٦، والعسقلاني : الإصابة : ١/ ٣٧٧ ، والموصلي : الإسعاف (مخطوط) : الورقة : ٢٢٠/ب ، والبغدادي : الخزانة : ١/ ٢٣١ ، وشرح الأبيات : ٥/ ٩٧ ، والزبيدي : التاج : (عجل)، وأحمد أبو علي: المتنخل : ٣١١ ، والزركلي: الأعلام: ٢/ ٨٧ ، وعزة حسن : مقدمة ديوان ابن مقبل : ٥ ، و الأيوبي : معجم الشعراء : ٤٠٣ - ٤٠٤ ، وجواد علي : المفصل : ٩/ ١١٥ ، ٨٨٨ - ٨٩٠ ، والميمني : سمط اللآلي : ٦٨ ، وسزكين : تاريخ التراث العربي: م٢ ج٢ / ٢٤٢ ، وTÜREK : مقدمة ديوان ابن مقبل : 2 .

(٢) كابن الكلبي : الجمهرة : ٣٥٩ ، وأبي زيد الأنصاري : النوادر في اللغة : ٢٠٩ ، وابن حبيب : المحبّر : ٣٢٦، وابن قتيبة: الشعراء: ٤٥٥ ، والبلاذري: أنساب الأشراف : ٥/ ٣١٧ ، وابن سلمة : الملاهي : ٨٤ ، والأنباري: شرح المفضليات : ٨١٤، والطبري : تاريخ الرسل والملوك : ٤/ ٤٢٤ ، والقرشي : الجمهرة : ٢/ ٨٥٣ ، وابن دريد : الاشتقاق : ١٢ ، ٢٥ ، والجمهرة : ٢/ ٣٩٠ ، والأزهري : تهذيب اللغة : ٢/ ٣١٦ وغيرها ، والآمدي: الموازنة : ١/ ١٥٨ ، والمرزباني : أشعار النساء : ٢٦ ، والوزير المغربي : أدب الخواص : ١/ ٧٩ ، وابن حزم : الجمهرة : ٢/ ٢٨٨ ، والربعي : نظام الغريب : ٧٠ ، والبكري : اللآلي : ٦٨ ، ومعجم ما استعجم : ١٣١ ، وأبي محمد الحسن : خلق الإنسان : ١٢٤ ، والصقلي : تثقيف اللسان : ٤٢٧ ، والبطليوسي : الاقتضاب : ٣/ ٤٢٥ ، والتميمي : المسلسل : ٩٣، ٢٣٨، والجواليقي : شرح أدب الكاتب : ٣٠٣ ، وابن الشجري : الحماسة : ٣٤ ، ١٢٩، ونشوان الحميري : الحور العين : ١٣٣ ، وابن منقذ : المنازل : ٢/ ٢٧٤ ، وابن ميمون (مخطوط): الورقة : ٢٨/ب ، وابن الأثير : المرصع : ٣١٢ ، والحموي : البلدان : (ثأج) ، والصغاني : العباب : (حرف =

٢- « تميم بن مقبل »[1].

٣- « ابن مقبل »[2].

٤- وقد يرد : « تميم »[3] وحده أحياناً ، دون ذكر أبيه أو جدّه ، فيُستدل عليه من شعره .

وهذه الحالات الأربع التي يرد بها اسم الشاعر في المصادر المختلفة ذات

= الفاء) : ٦٦ وغيرها ، وابن مالك : شرح عمدة الحافظ : ٦٨٣ ، والقلقشندي : نهاية الأرب : ٦٧ ، والسيوطي: شرح الشواهد : ٦٦١ ، والبغدادي : الخزانة : ٢٣١/١ ، وشرح الأبيات : ٩٦/٥ - ٩٧ ، والزبيدي : التاج : (عجل) ، وأحمد أبي علي : ٣١١ ، والزركلي : ٨٧/٢ ، وسزكين : م٢ ج٢/٢٤٢ ، وTÜREK:2 ، وعزة حسن : ٥ ، والأيوبي ٤٠٣، والميمني : ذيل اللآلي ٩٧ ، وديوانه : ١ = (ط. TÜREK: ١) .

(١) كأبي عبيدة : الخيل : ١٦٦ ، والأصمعي : الأضداد : ٣٥ ، وابن السكيت : الأضداد . ١٨٨ ، والجاحظ : الحيوان: ١١٢/٧ ، والبخلاء : ١٧٩ ، وابن شبة : تاريخ المدينة : ١٠٤٩/٣ ، والبحتري : الحماسة : ٣٢٠ ، وثعلب : مجالس ثعلب : ٣٦٣/٨ ، وابن عبد ربه : العقد الفريد : ١٧/٣ ، والجرجاني : الوساطة : ٣٩٦ ، والثعالبي : المنتحل : ١٧٢ ، والمعري : رسالة الغفران : ٢٣٧ ، وابن عبد البر : بهجة المجالس : ٣٢٣/٢ ، وابن منظور: اللسان: (أظن) ، الصفدي : (المخطوط) : الورقة : ٣٤/ب ، والعسقلاني : ٣٧٧/١ ، والموصلي (مخطوط) : الورقة: ٢٢٠/أ - ٢٢٠/ب ، وجواد علي : ٨٨٩/٩ .

(٢) كسيبويه : الكتاب : ١٨٣/١ ، والمنقري : وقعة صفين : ٥٢٦ ، والأصمعي : فحولة الشعراء : ١٢ ، ١٧ ، والإبل : ٧٤ ، وأبي عبيد : الأمثال : ٢٥٩ ، والغريب المصنف (مخطوط) : الورقة : ٣/أ وغيرها ، وأبي تمام : الوحشيات : ١١٨ ، وابن السكيت: إصلاح المنطق : ٥/١ وغيرها ، والإبدال : ٦٢ ، والسجستاني : الأضداد : ٩٥ ، وابن قتيبة: الميسر : ٣١ ، والمعارف: ٥٨٧ ، والمعاني : ١٢٣٩ وغيرها ، وتأويل مشكل القرآن : ٥٨٥ ، والأنواء : ٦٣ ، وأبي حنيفة النبات : ١٤ وغيرها ، والمبرد الكامل : ٦٨٣ ، وابن المعتز : البديع ٦٩ وغيرها، والمجري : التعليقات : ٢٠٨/٢ - ٢٠٩ ، وابن أبي عون : التشبيهات : ١٠٠ ، والأنباري : الزاهر : ٢١٤/١ ، والهمداني : صفة جزيرة العرب : ٧٧ ، والشمشاطي : الأنوار : ٣٥١/١ ، وأبي الطيب اللغوي : الأضداد : ١٨/١ وغيرها ، والأصفهاني : الأغاني : ٦٩/٦ ، وأمالي القالي : ١٥/١ ، والأصفهاني : التنبيه . ٦٨ وغيرها ، والبصري : التنبيهات : ١٣٠ وغيرها ، والخالديين : الأشباه : ٢٠٥/١ ، والعسكري : التصحيف : ٧٨/١ وغيرها ، والمرزباني : الموشح : ١٤ ، والصاحب : المحيط في اللغة : ٣١٦/٢ ، والخطابي : غريب الحديث: ٣٠٧/١ ، وابن جني: الخصائص : ٨١/١، والمنصف : ١٤٠/٣ ، وابن فارس : المقاييس : ٣١٣/٥، والإتباع : ٣٦ ، والمجمل : (ذبّ)، والعسكري : الصناعتين : ١٢٧ ، والمعافري : الأفعال : ٧٨/١ ، والباقلاني : إعجاز القرآن : ١٣١ ، والثعالبي : ثمار القلوب : ٢١٨ ، والأسود الغندجاني: أسماء الخيل : ٢٥١ ، والمرتضى : أمالي المرتضى : ١٧٣/٢ وغيرها ، وابن برهان العكبري : شرح اللمع : ١٣٦/١ ، ٥٦٧/٢ ، وابن رشيق : العمدة : ١٠٨/١ ، والتبريزي : كنز الحفاظ : ١ وغيرها، والزمخشري : المستقصى ٣١٨/١ ، والعكبري : المشوف المعلم : ١٢٣/١ ، والصغاني : العباب : (حرف الفاء) : ١٧٧ وغيرها ، وابن هشام : مغني اللبيب : ٩١٢ ، والعبيدي : التذكرة السعدية : ٣٤٣ ، والسيوطي : المزهر : ٣٤١/١ وغيرها ، والفاسي شرح كفاية المتحفظ : ٣١٧ ، وديوانه : (٢/٢٦٥) = (ط. TÜREK : ٢/١٠٧) ، وشعر النجاشي : انظر : ب-٢-١ .

(٣) البكري : ما استعجم : ٣٣٣ ، وابن فارس : المقاييس : ٣٠٩/١ ، وابن مالك : ١٢٥ .

مدلول واحد ؛ لأن « تميم بن أُبَيّ بن مقبل » يصح أن يطلق عليه : « تميم بن مقبل » و« ابن مقبل » ، فيُنسب إلى جدِّه ، وذلك مألوف في التسميات [☆].

٥- أما الحالة الخامسة التي يرد بها اسمه في المصادر ، فهي أنه يأتي في بعضها : « تميم بن أبي مقبل » [١].

وإذا كانت الحالات الأربع الأولى التي يرد بها اسمه - وهي « تميم بن أبي ابن مقبل » ، و« تميم بن مقبل » ، و « ابن مقبل » ، و« تميم » - لا اختلاف بينها في الدلالة، فإن الخلاف ينحصر إذن في الحالة الخامسة ، وهي : « تميم بن أبي مقبل » .

وعند استقراء الكتب لمعرفة من ذكر : « تميم بن أبي بن مقبل » أو نحوه ، فإنه يُلاحظ أن من ذكروا ذلك هم الأكثرون ، وأن معظمهم من المتقدمين : كـ(الأصمعي) ، و (ابن السكيت) [☆٢]، و(ابن قتيبة) ، و(ابن دريد) وغيرهم ، في حين أن من ذكروا : « تميم بن أبي مقبل » ، على قلتهم ، معظمهم من المتأخرين ، وذلك يرجِّح أن حقيقة اسمه : « تميم بن أُبَيّ بن مقبل » .

ومما يؤكد هذا أن بعض من ذكروا : « تميم بن أبي مقبل » قد ورد عندهم في مواضع أخرى بصورته الصحيحة . ومن أولئك : (الجمحي) [٢]، حيث

(☆) مثلاً : محمد بن الحسن بن دريد ، نسب إلى جده فقيل : « ابن دريد » وعُرف بذلك ، وغيره كثير قديماً وحديثا . و(انظر : ابن الأثير : المرصع : ٣١٢) .

(١) كالجمحي . ١٤٣ (في الأصل وصححها المحقق) ، وابن حبيب : كُنى الشعراء ، ٢٨٩ ، واليعقوبي ، ١/ ٣١٢ (في الأصل وصححها المحقق) ، والهجري : ١/٨٦ ، ٢/٢٠٨ ، وتهذيب الأزهري : ١١/١٩ ، ١٤/١٤٧ وغيرها ، وابن النديم : الفهرست : ١١٧ ، ٢٢٤ ، وابن رشيق : ١/٧٦،١٠٧،١٧٠ (في الأصل وصححها المحقق) ، والجواليقي : شرح أدب الكاتب: ٣٠٣ ، والإشبيلي: فهرست ما رواه: ٣٩٧ ، والنويري: نهاية الأرب: ٣/٦٥، والصفدي : الوافي : ١٠/٤١٦ ، ومجموعة المعاني : ٨٦،١٤٥،١٩٤ .

(☆٢) والأصمعي وابن السكيت ممّن عملوا شعر ابن مقبل كما ذكر (ابن النديم : ٢٢٤) .

(٢) ١٤٣ ، ١٥٠ ، وقد نبه المحقق إلى أن هذا خطأ ظاهر في المخطوطتين اللتين اعتمد عليهما .

قال مرة : « تميم بن أبي بن مقبل » ، وأخرى : « تميم بن أبي مقبل » ، وكذلك (الأزهري)[1] .

وقد يذكر أحدهم : « تميم بن أبي مقبل »، ثم يذكر في موطن آخر : « ابن مقبل »[2] ، مما يدل على خطأ ما ذكره في المرة الأولى ، وإلا لقال في المرة الأخرى : « ابن أبي مقبل » لا « ابن مقبل »، ومن أولئك (ابن رشيق)[3] ، حيث كان ممن ورد عنده الاسم : « تميم بن أبي مقبل » ، ولكنه أورد في أواخر كتابه كلاماً على « الإخوة ومن لم يُعْرِق » قال فيه : « وبنو ابن مقبل وهم عشرة إخوة : تميم وفضالة. . . »[4] ، فقوله : « بنو ابن مقبل » يعني به « بني أُبَيّ بن مقبل » ، ولو صح أن اسم أَبي الشاعر هو (أبو مقبل) لكان ابن رشيق قال : «وبنو ابن أبي مقبل . . .» ، مثلما كان قد ذكر من قبل ، غير أن ما ذكره هنا يبطل ما ذكره هناك .

وهنالك أيضاً ما يؤكد صحة تسميته بـ« تميم بن أُبَيّ بن مقبل » وغلط ما سواها ، في بعض الكتب التي عَرَّفت بالشاعر ، ومن تلك الكتب (الخزانة) ، إذ يقول (البغدادي)[5] : «. . . وأما تميم. . . فهو ابن أُبَيّ بن مقبل ، وأُبَيّ بالتصغير وتشديد الياء ، بن عوف بن حنيف بن قتيبة بن العجلان. . .» . ويقول في (شرح أبيات المغني)[6] : « تميم بن أُبَيّ ، بضم الهمزة وفتح الموحدة وتشديد الياء. . . وبعضهم يغيّر اسم أبيه فيقول : « تميم أبي مقبل »، والصواب ما ذكرنا » .

---

(١) انظر : التهذيب : ٣١٦/٢ ، و١٤٧/١٤ .
(٢) انظر مثلاً : ابن رشيق : ٧٦/١ ، ثم ١٠٨/١ .
(٣) انظر : ٧٦/١ ، ١٠٧ ، ١٧٠ . (في الأصل المخطوط وصححها المحقق) .
(٤) م.ن : ٣٠٨/٢ .
(٥) ٢٣٢/١ .
(٦) ٩٧/٥ .

كما يقول (البكري)[1] : « وابن مقبل هو تميم بن أُبَيّ بن مقبل من بني العجلان. . . » .

ويقول (ابن الأثير)[2] - في الحديث عن الأبناء - : « . . . ابن مقبل : هو شاعر معروف مشهور واسمه : تميم بن أُبَيّ بن مقبل من [بني العجلان]. . . » .

وذكر (ابن قتيبة)[3] - بعد أن أورد شعراً لابن مقبل - أن (ابن الأعرابي) نسب تفسير كلمة من شعره إلى بعض ولد « أُبَيّ بن مقبل » .

كل هذا يدل على أن والد الشاعر هو : (أُبَيّ بن مقبل) ، وليس (أبا مقبل) ، ولا (مقبلاً) ، وإنما (مقبل) جدّ الشاعر ، ينسب إليه في كثير من الأحيان .

أما سبب هذا الاختلاف في اسم الشاعر ، فلعل شهرته بابن مقبل جعلت بعض المؤلفين يخطئون في سياقة اسمه كاملاً أحيانا .

وقد تكلم (ابن الأثير)[4] على شهرة شاعرنا « بابن مقبل » ، وجعله من « الأبناء » ، أي الذين اشتهروا بـ« ابن. . . » ، حتى إنه قال عنه : « ولا يُعرف إلا ببنوة أبيه » [☆] .

وبالإضافة لما سبق يظهر هذا التشابه بين رسم كلمتي : « أُبَيّ » و« أَبِيْ » ، مما يجعل احتمال تحريف النساخ لاسم الشاعر ممكناً ، وذلك عند سقوط كلمة

---

(١) اللآلي : ٦٨ .
(٢) المرصع : ٣١٢ .
(٣) انظر : المعاني : ٢٩٨ .
(٤) انظر : المرصع : ٣١٢ .
(☆) لعل ابن الأثير إنما أراد «ببنوة أبيه»: بنوة جدّه ؛ لأنه قد أورد من قبل ، في هذا السياق نفسه ، اسم الشاعر كاملاً : « تميم بن أبي بن مقبل » ، وشهرته (ابن مقبل) لا (ابن أُبَيّ) .

« ابن » التي بعد « أُبَيّ » . وليس الرسم فقط هو المتشابه بين هاتين الكلمتين ، بل نطقهما أيضاً متشابه ، وبخاصة حينما تنطق الأسماء الثلاثة جملة واحدة ، حيث قد يلتبس على السامع « تميم بن أُبَيّ بن مقبل » بـ«تميم بن أبي مقبل » ، ولتكرار صوت (الباء) علاقة بما يقع من ذلك الالتباس في الأسماء . فهذه مجتمعة هي العوامل التي أدت إلى حدوث التحريف في اسم الشاعر .

أما الخلاف المتعلق ببقية سلسلة نسبه فهو في : « حُنيف » ، و« قتيبة » ، و« العجلان » [☆] ؛ حيث يأتي في نسبه :

« عوف بن حنيف بن قتيبة بن العجلان » [١] .

أو « عوف بن حنيف بن العجلان » [٢] .

أو « عوف بن عجلان » [٣] .

والراجح أنه : « عوف بن حنيف بن قتيبة بن العجلان » ؛ لأن فيه زيادة على الحالتين الأخريين ، واحتمال خطأ من نقَص في نسبه أقوى من احتمال خطأ من زاد ، ثم إن من ذكروه بهذه الزيادة أكثر ممن ذكروه ناقصا .

أما « العجلان » فهو يأتي بألف ولام [٤] ، وبغير ألف ولام:

(☆) ما بعد العجلان ، مما يخص نسب قبيلته ، أُجّل الحديث في خلافاته إلى حين تناول قبيلته . (انظر : المدخل : ثانياً : أ - ١) .

(١) كالعسقلاني : ١/ ٣٧٧ ، والبغدادي : الخزانة : ١/ ٢٣١ ، والميمني : السمط : ٦٨ ، وأحمد أبي علي : ٣١١ ، والصفدي (مخطوط) : الورقة : ٣٤/ب ، والموصلي (مخطوط) : الورقة : ٢٢٠/ب .

(٢) كابن حزم : ٢/ ٢٨٨ ، والجمحي : ١٤٣ ، والأسود الغندجاني : فرحة الأديب : ١٧٠ ، وابن ميمون (مخطوط): الورقة : ٢٨/ب ، والوزير المغربي : أدب الخواص : ١/ ٧٩ ، والزبيدي : التاج : (عجل) ، واليعقوبي : ١/ ٣١٢ (في الأصل وأضاف المحقق « ابن قتيبة ») .

(٣) كالقرشي : ٢/ ٨٥٣ .

(٤) انظر : اليعقوبي : ١/ ٣١٢ ، وابن رشيق: ١/ ٥٢ ، والبغدادي : الخزانة : ١/ ٢٣١ ، والجمحي : ١٤٣ ، وابن حزم: ٢/ ٢٨٨ ، والعسقلاني : ١/ ٣٧٧ ، والوزير المغربي : أدب الخواص : ١/ ٧٩ ، والبكري : اللآلي : ٦٨ ، وابن ميمون (مخطوط) : الورقة : ٢٨/ب ، والموصلي (مخطوط) : الورقة : ٢٢٠/ب ، والزركلي : ٢/ ٨٧ .

« عجلان »[1] أحياناً، وكلاهما جائز، وإن كان الأول أكثر، قال (سيبويه)[2]:

«هذا باب ما يكون فيه الشيء غالباً عليه اسم يكون لكل من كان من أمته، أو كان في صفته، من الأسماء التي يدخلها الألف واللام وتكون نكرته الجامعة لما ذكرت [لك] من المعاني.

وذلك قولك فلان بن الصَّعِق، والصَّعِق في الأصل صفة تقع على كل من أصابه الصَّعَق، ولكنه غلب عليه حتى صار علماً بمنزلة زيد وعمرو.

....

وزعم الخليل رحمه الله أن الذين قالوا الحارث والحسن والعباس، إنما أرادوا أن يجعلوا الرجل هو الشيء بعينه، ولم يجعلوه سمي به، ولكنهم جعلوه كأنه وصف له غلب عليه. ومن قال حارث وعباس فهو يجريه مجرى زيد».

وما قاله سيبويه هنا ينطبق على « العجلان »، فهو إنما وُصف بالعجلان لتعجيله القِرى للضيفان [3]، ثم غلب عليه هذا الوصف حتى اشتهر به هو وبنوه من بعده، فصح أن يجيء بألف ولام وأن يجرد منهما على حد سواء.

ا - ٢ - كنيته:

كان (ابن مقبل) يكنى بـ« أبي كعب » [4]، ولم يأت في شعره أو في غيره من المصادر ما يدل على أن له ابناً اسمه كعب، غير أن رهطه (بني العجلان) –

---

(١) القرشي: ٢/٨٥٣، وابن رشيق: ١/٥٢، حيث ذكر في صفحة واحدة: « بني العجلان »، ثم روى بيت النجاشي في هجاء بن العجلان هكذا:

إذا الله عادى أهل لؤم ورقّة فعادى بني عجلان رهط ابن مقبلِ.

(٢) ٢/١٠٠ – ١٠١.

(٣) انظر: النهشلي: اختيار من كتاب الممتع: ٣١٠، والحصري: زهر الآداب: ١/٥٤، وابن رشيق: ١/٥٢، والزبيدي: التاج: (عجل).

(٤) انظر: العسقلاني: ١/٣٧٧، والبكري: اللآلي: ٦٨، وابن حبيب: كُنى الشعراء: ٢٨٩، والصفدي: (مخطوط): الورقة: ٣٤/ب، والوافي: ١٠/٤١٦، والزركلي: ٢/٨٧.

بعد أن هجاهم (النجاشي) بقوله :

وما سُمّي العَجْلان إلا لقولهم   خُذِ القَعْبَ فاحلب أيها العبد واعجَلِ-

كان أحدهم إذا سئل: « ممّن الرجل؟ » ، قال: « كعبي » ، منتسباً إلى « كعب بن ربيعة » ولا يقول : « عجلاني » ، حتى لا يعيّر به [(١)]. فربما كني الشاعر بـ« أبي كعب » ، لمراعاة هذا السبب .

ويرجّح هذا الاحتمال أن له كنية أخرى هي : « أبو الحُرّة » ، ذكرها (ابن دريد)[(٢)] ، وأتى اسم (حُرّة) في شعره ، حيث قال مثلاً [(٣)] :

يا حُرَّ أمسيتُ شيخاً قد وهَى بَصَري
والتاثَ [ما] دون يوم الوعد من عُمُري[(☆)]

وهو يكرر نداءها وشكواه لها في ما يتلو هذا البيت من القصيدة ، ومثل هذه الشكوى من الشيب والكبر يكون – عادة – مع الابن أو البنت لا مع الزوجة أو الحبيبة. وبالمقارنة بين خطابه ابنته وخطابه حبيبته ، فإنه ينفي لحبيبته أن يكون شيبه من كبر[(٤)]، ناهيك عن أن يشكو لها عجزه كما فعل في هذه القصيدة . ولهذا فإنه يُستبعد أن تكون (حُرَّة) هنا هي زوجة الشاعر أو حبيبته ، وإنما هي ابنته التي كني بها .

ولمّا كان العرب معروفين – غالباً – باعتزازهم بالذكور من أولادهم دون

---

(١) انظر : أبا تمام : نقائض جرير والأخطل : ١٢٩ – ١٣٠ ، والحصري : ١/٥٤ ، وابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة : ٢/١١٣ ، والنهشلي : ٣١٠ ، واليوسي : المحاضرات : ٧٣ – ٧٤ .

(٢) الاشتقاق : ١٢ .

(٣) ديوانه : (١/٧٢) = (ط. TÜREK : ١/٢٩) .

(☆) حُرّ : ترخيم حُرّة . التاث : اختلط . (انظر : الجوهري : الصحاح : (لوث)) . ويوم الوعد : لعله يعني به يوم الموت ، وذهب (عزة حسن) إلى أنه يريد بيوم الوعد هنا : يوم القيامة (!). والمعنى : أنه ضعف بصره وجسمه .

(٤) انظر : ب – ٤ .

الإناث، فقد كان ذِكْر (كعب) في شعره أولى عنده من ذِكْر (حُرَّة) ، ولكنه لم يذكره ، مما يقوّي الشك في بنوته له وإن كُني به [☆] .

ا - ٣ - نسبته :

وينسب (ابن مقبل) - غالباً - إلى (بني العجلان) ، فيقال: «العجلاني»[١]، وقد ينسب إلى جده (حُنَيْف) ، فيقال : « الحُنَيْفي » [٢]، أو إلى (عامر) ، فيقال : « العامري » [٣] .

ولا غرو فهو « عجلاني » ، « حنيفي » ، « عامري » ؛ عجلاني : نسبة إلى (العجلان بن عبدالله)، رهطه الأدنين، وقبيلته القريبة. حنيفي: نسبة إلى (حنيف بن قتيبة بن العجلان) أقرب جد نسب إليه . ثم عامري : نسبة إلى جده الأعلى ، وقومه وقبيلته الكبرى ، التي تحدّرت أعراق قبيلته الدنيا منها ، (عامر ابن صعصعة) .

ب - ٠ - سيرته :

عاش (ابن مقبل) - مخضرماً - في الجاهلية والإسلام [٤]، ولم ير (النبي ﷺ) [٥]، وقيل : عمّر مئة وعشرين سنة [٦] .

(☆) وقد يكون إغفال ذكره لأنه : خامل الذكر ، أو مات صغيرا .

(١) كالبلاذري : ٣١٧/٥ ، والإشبيلي : فهرست ما رواه : ٣٩٧ ، وابن دريد : الجمهرة : ١٠٨/١ ، ١١٣ ، ٢٢٣ وغيرها ، والجاحظ : الحيوان : ٢٥٣/٢ ، والمرزباني : أشعار النساء : ٢٦ ، والسيوطي : المزهر : ٤٨٢/٢ ، وابن منقذ : المنازل : ٢٧٤/٢ ، والمصري : ٢٣٧ ، والهجري : ٨٦/١ ، ٢٠٨/٢ ، وابن شبة : ١٠٤٩/٣ ، وابن برهان العكبري : ٥٦٧/٢ - ٥٦٨ ، والحموي : البلدان : (ثأج) ، والبغدادي شرح أبيات المغني : ٥/ ٢٣٧ ، وابن مالك : ١٢٥ .

(٢) الهجري : ٢٠٨/٢ .

(٣) كأضداد الأصمعي : ٣٥ ، وأضداد ابن السكيت : ١٨٨ ، والثعالبي : المنتحل : ١٧٢ ، وحماسة البحتري : ٣٣٠، والمقري : ٥٢٦ ، ونشوان الحميري : ١٣٣ ، وابن معصوم : أنوار الربيع : ٦١/٣ .

(٤) انظر: الجمحي : ١٥٠ ، وابن قتيبة : الشعراء : ٤٥٥ ، واليعقوبي : ٣١٢/١ ، والصفدي : (المخطوط) : الورقة : ٢٧/أ ، والبغدادي : الخزانة : ٢٣١/١ ، ٣٠٣/٧ ، وشرح أبيات المغني : ٩٧/٥ ، والعسقلاني : ٣٧٧/١ ، والبكري : اللآلي : ٦٨ ، والموصلي (مخطوط) : الورقة : ٢٢٠/ب .

(٥) انظر : العسقلاني : م. ن .

(٦) انظر : م. ن ، والبغدادي : الخزانة : ٢٣١/١ ، والموصلي (مخطوط) : الورقة : ٢٢٠/ب .

وفي شعره ما يؤكد إدراكه الإسلام ، بل تعميره فيه ، حيث يذكر أحداثاً وقعت في الإسلام، كمقتل (عثمان رضي الله عنه - ٣٥هـ = ٦٥٦م)[(١)]، ووقعة (صِفِّين: ٣٧هـ = ٦٥٧م)[(٢)]. بالإضافة إلى أخباره وأشعاره مع (النجاشي الشاعر)[(☆)]، و(عمر بن الخطاب رضي الله عنه - ٢٣هـ = ٦٤٤م)[(٣)]، ومع (الأخطل) [(☆٢)].

وكذلك خبره مع كل من : (النابغة الجعدي) [(☆٣)]، و(حميد بن ثور الهلالي)[(☆٤)]، و(العجير السلولي)[(☆٥)]، و(ليلى الأخيلية)[(☆٦)] [(٤)]، وغير هذا مما سيأتي في الصفحات التالية من البحث إن شاء الله .

---

(١) انظر : ديوانه : (١١-١/١٧ - ٢٧) = (ط . TÜREK : ٦ - ١/٨ - ٢٧) .

(٢) انظر : م. ن : (٣٤٤ - ٣٤٦/٢٧-٣٤) = (ط TÜREK : الملحق : ١٥٧ - ١٣٧/١٥٨ - ١٣٨ ، ١٣٤ ، ١٤١ - ١٤٣ ، ١٤٠ ، ١٣٦) .

(☆) قيس بن عمرو بن مالك ، من بني الحارث بن كعب ، من بني كهلان ، وكانت أمّه حبشية فنسب إليها ، هجّاء مخضرم ، من نجران . توفي نحو : (٤٠هـ = ٦٦٠م) . (انظر : الزركلي : ٥/ ٢٠٧)، و(بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (ترجمة / عبدالحليم النجار) : ١/ ١٧٣ - ١٧٤) ، و(فرّوخ : تاريخ الأدب العربي : ١/ ٣١٣ - ٣١٥) ، و(بدوي : الشعراء السود : ٨٣ - ٩٢) ، و(النعيمي : شعر النجاشي : (مجلة المجمع العلمي العراقي: م ١٣ ، (١٣٨٥هـ = ١٩٦٦م) : ص : ٩٥ - ١٢٧)) ، و(السوعي : أدب اليمن : ١/ ٤٠٧ - ٤١٣) .

(٣) انظر : ب - ٢ - ١ .

(☆٢) غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو ، أبو مالك ، من بني تغلب . وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل زمانهم : جرير ، والفرزدق ، والأخطل . نشأ على النصرانية . توفي (٩٠هـ = ٧٠٨م) . (انظر : الزركلي: ٥/ ١٢٣).

(☆٣) قيس بن عبدالله بن عُدَس بن ربيعة الجعدي العامري ، أبو ليلى. من المعمرين ، توفي نحو: (٥٠هـ = ٦٧٠م). (انظر : م. ن : ٥/٢٠٧) .

(☆٤) حميد بن ثور بن حزن الهلالي العامري ، أبو المثنى . شاعر مخضرم . توفي نحو : (٣٠هـ؟ = ٦٥٠م) ، وقيل : « أدرك عهد عبد الملك بن مروان » . (انظر : م. ن : ٢/ ٢٨٣) .

(☆٥) عُجَيْر بن عبد الله بن عبيدة بن كعب السلولي ، أبو الفرزدق ، وأبو الفيل . من شعراء الدولة الأموية . توفي نحو (٩٠هـ = ٧٠٨م) . (انظر : م. ن : ٤/ ٢١٧) .

(☆٦) ليلى بنت عبدالله بن الرحال بن شداد بن كعب ، الأخيلية ، من بني عامر بن صعصعة ، شاعرة ، اشتهرت بأخبارها مع (توبة بن الحُمَيِّر) . توفيت نحو : (٨٠هـ = ٧٠٠م) . (انظر : م. ن : ٥/ ٢٤٩) .

(٤) انظر : المرزباني : أشعار النساء : ٢٥ - ٢٦ .

ب - ١ - أسرته :

بالرغم من شح المصادر - المتهيئة - في حديثها عن حياة (ابن مقبل) ، فإنه من الممكن التماس بعض الشذرات المشتتة والمتكررة هنا وهناك ، لرسم بعض ملامح عن أسرته وحياته الخاصة .

فأما والده فلا نظفر بمعرفة عنه ، سوى أن اسمه (أُبَيّ بن مقبل) . وليست والدة الشاعر بأكثر حظاً من والده ، فقد انفرد (ابن رشيق)[١] بذكرها - فيمن عُوّل عليه في هذه الدراسة - إذ قال - بعد سرده أبناء أُبَيّ بن مقبل ، إخوة شاعرنا تميم -: « وأم تميم ابنة أمية بن أبي الصلت »، ولم يذكر اسمها أو شيئاً عنها . فكان الاتجاه إلى البحث عنها في ما جاء عن (أميّة)[☆] دون فائدة.

وانفرد ابن رشيق[٢] أيضاً بذكر إخوة الشاعر، حيث قال: «وبنو (ابن مقبل) وهم عشرة إخوة: تميم، وفضالة، وحيان، ورفاعة، وبرة، والمضاء، وأعقد، وعبدالله، وخفاف، وأبو الشمال». وهو يعني بـ«ابن مقبل» هنا (أُبَيّ بن مقبل)، والد تميم بن أبي بن مقبل[٢☆].

---

(١) ٢/٣٠٨ .

(☆) أمية بن عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن عنزة بن قَسِيّ ، وهو ثقيف ، بن منبه بن بكر بن هوازن ، ت ٥ هـ = ٦٢٦م . (انظر : الأصفهاني : الأغاني : ٤/١٢٣ - ١٣٧) ، و(ابن حزم : ٧٤) ، و(ابن قتيبة : الشعراء: ٤٥٩ - ٤٦٢) ، و(الزركلي : ٢/٢٣) ، و(سيف الدين الكاتب ، وأحمد عصام الكاتب : في مقدمتهما لشرح ديوان أمية بن أبي الصلت) ، و(بشير يموت : مقدمة ديوان أمية بن أبي الصلت) ، و(الحديثي : أمية بن أبي الصلت .. حياته وشعره : ٤٨) .
وفي (الأصفهاني : م. ن) : أن له أربعة بنين : عمرو ، وربيعة ، ووهب ، والقاسم ، ثم روى عن (ثعلب) أن أمية هرب بابنتيه إلى اليمن عندما بعث النبي (ﷺ) . ويستبعد أن تكون أم الشاعر المذكورة إحدى ابنتي أمية هاتين ؛ لأن عبارة الأغاني توحي بأنهما كانتا صغيرتين في ذلك الحين .

(٢) م. ن .

(٢☆) وقد ذهب (عزة حسن:٧)، وكذلك (TÜREK : 21) إلى أن هؤلاء الإخوة هم بنو (تميم بن أبي بن مقبل)، والأظهر أن «ابن مقبل»، الذي نسب إليه (ابن رشيق) هؤلاء العشرة الإخوة، هو: (أبي بن مقبل) وليس ابنه تميماً؛ وذلك لأنه قد ذكر فيهم من اسمه : «تميم»، ويستبعد أن يسمي (تميم) ابنه باسمه نفسه. وقد مرّ أن له كنيتين: (أبو كعب)، و(أبو الحرة)، وله ابنة اسمها (أم شريك)، سيرد ذكرها بعد قليل، ولم يشر ابن رشيق إلى أي منهم في أبناء ابن =

ويمكن القول: إن (تميماً) عاش في عائلة شعريّة، فـ (ابن رشيق)[1] جاء بهؤلاء الإخوة العشرة في الإخوة من الشعراء، بل أضاف قوله: «وفي أولاد إخوته [يعني تميماً] المذكورين آنفاً شعر». وحيث إنه جعل إخوة تميم هؤلاء في من لم يُغرِق من الشعراء - والمُغرِق عنده: «من تكرر الأمر فيه وفي أبيه وفي جدّه فصاعداً ولا يكون مُغرِقاً حتى يكون الثالث فما فوقه»[2] - فإن هذا يعني أن والد تميم قد يكون شاعراً أيضاً [☆]، وإذا كانت والدته (ابنة أمية بن أبي الصلت) كما قال آنفاً فربما كان لها أيضاً نصيب من الشعر، إرثاً عن والدها .

أما أولاد الشاعر فسبق القول: إنه كان يكنى بـ«أبي كعب»، و«أبي الحرّة»، فأما (كعب): فليس هناك دليل على بنوته له سوى أنه كان يكنى به،

= مقبل هؤلاء، وقد يقال: إن ابن رشيق لم يورد في كلامه إلا من كان شاعراً من هؤلاء الإخوة، وهذا صحيح، غير أنه لا ينفي رجحان ما تقدم، وبخاصة بعد أن ثبت أن اسم الشاعر هو: (تميم بن أبي بن مقبل)، وهذا يعني أن ابن رشيق قد أتى بـ«ابن مقبل» هنا على وجه الحقيقة في النسب، لا على نسبة تميم إلى جده، كما هي شهرته عند المؤلفين.

(١) م. ن.

(٢) م. ن.

(☆) يلاحظ أن ابن رشيق قد سمى (أبي بن مقبل): «ابن مقبل»، فيكون هناك اثنان يسميان بـ«ابن مقبل»: (أُبَيّ) وابنه (تميم)، واحتمال كون أُبَيّ شاعراً يجعلنا أمام شاعرين اسمهما: (ابن مقبل). هذا بالإضافة إلى إخوة تميم التسعة المذكورين أعلاه الذين قال: إنهم شعراء، وأولادهم كذلك، وربما عُرفوا بـ(ابن مقبل) أيضاً كما عُرف تميم، وهذا يؤدي إلى أن ما ينسب لابن مقبل في كتب التراث ربما كان لأحد هؤلاء المسمَّين بهذا الاسم، ومع أنه لم يُذكر عن أحد منهم شيء في ما توفر لهذا العمل من المصادر، ومع أن تميماً هو المشهور فيهم، وإذا قيل: «ابن مقبل» انصرف غالباً إلى تميم، فقد يكون هذا الاحتمال واردا. ولعل الدراسة تتمخض عن إجابة عن هذه المسألة، بتبيّن ملامح شعر تميم وشواهد توثيقه. على أننا لم نقف خلال البحث في التراث على من يشابه اسمُه اسم شاعرنا من الأعلام سوى: (تميم بن مقبل بن ميمون بن الذيال بن مقبل العيسي) أحد رجاز خراسان، له أرجوزة طويلة في الفخر وذكر قصة (الكرماني: ت ١٢٩هـ = ٧٤٧م) بخراسان، أيام (نصر بن سيار: ت ١٣١هـ = ٧٤٨م). (انظر: الصفدي: الوافي: ١٠/٤١٧)، و(الزركلي: ٢/ ١١٤، ٨/ ٢٣). وشاعر اسمه (محمد بن مقبل) ويقال له: (ابن مقبل)، ذكره (الأزدي: بدائع البداءة: ٢٢٢) في خبر جاء فيه أنه اجتمع محمد بن مقبل هذا و(محمد بن مجمع) و(أبو نصر الأشمتي) في بستان لابن مقبل، وفي البستان نرجس تميس به الريح، فكل قال في وصفه شعراً. وقد نسب هذا الخبر إلى «ابن أبي اليسر الرياضي» في كتابه (الأمثال) الذي جمعه للمعز بن تميم صاحب القاهرة»، وهو يعني (المعز لدين الله أبو تميم، معد بن إسماعيل الفاطمي: ٣١٩ - ٣٦٥هـ = ٩٣١ - ٩٧٥م) . (انظر: ابن خلكان: ٥/ ٢٢٤ - ٢٢٨)، و(الزركلي: ٧/ ٢٦٥). وهناك «(ابن مقبل) محمد مسند حلب بأخرة، وشيخ القراء بحمص، هو أبو بكر ابن أحمد»: (السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: ١١/ ٢٧٢). وهؤلاء بعيدو الالتباس بـ(ابن مقبل) المعني بهذه الدراسة كما هو واضح .

وربما لم يكن له ابن بهذا الاسم كما تقدم، وأما (الحُرّة) فهي - إلى جانب تكنّيه بها - قد جاءت في شعره، مما يرجح أنها ابنته، كما مرّ في الحديث عن «كنيته».

وله ابنة اسمها: (أُمّ شريك)، ذكرها (البكري)(١)، ونَسب إليها تفسيراً لبعض شعر أبيها.

وروى (ابن الأعرابي) حديثاً عن بعض ولد (ابن مقبل)، في تفسير كلمة من شعر والدهم: «قال ابن الأعرابي: ولم نزل نظن أن الجُون الحَمام... حتى حُدِّثْتُ عن بعض ولد ابن مقبل أن الجُون القناديل...»(٢).

وجاء الخبر السابق عند (ابن قتيبة)(٣)، ولكن التفسير هناك نُسب إلى: «بعض ولد أُبَيّ بن مقبل». وسواء أكانت هذه العناية بشعر (ابن مقبل) منسوبة إلى أولاده أم إلى إخوته، أم إليهم جميعاً، فقد عُلِم آنفاً أن إخوته كانوا شعراء، وكذلك بعض أبناء إخوته، وكان لابنته (أم شريك) تفسير لبعض شعره، وليس بعيداً أن يرد مثل هذا التفسير عن أي واحد من هذه الأسرة الشاعرة؛ لأن أسرة تعيش هذه البيئة الشعرية يتوقع من جميع أفرادها الشعر والرواية وتفسير غوامض الألفاظ، التي يدركون معانيها ودلالتها أكثر من سواهم؛ لاتصالهم المباشر بالقائل والبيئة، وإحاطتهم بملابسات القول عنده.

ومهما يكن فإن العودة إلى عبارة (ابن رشيق) السالفة، لتأمّل قوله: «وفي أولاد إخوته المذكورين آنفاً شعر»، توحي بل لعلها تدل على أن أولاده لا شعر فيهم، ولكنّ منهم - كما أشرنا - من عُنِي بالشعر، كأُمّ شريك(٤).

---

(١) انظر: ما استعجم: ١٣١.
(٢) ابن فارس: المقاييس: ١/ ٤٧٣.
(٣) انظر: المعاني: ٢٩٨.
(٤) مثلما لم تتحدث كتب التراث - التي وقفنا عليها - عن والدَي الشاعر وإخوته فإنها لم تفعل ذلك أيضاً مع أولاده، عدا النتف المذكورة فوق.

وأخبر (ابن حبيب)[1] أن (ابن مقبل) تزوج في الجاهلية بامرأة اسمها (دهماء) - وكثيراً ما يذكرها في شعره - فقال :

« وكانت العرب تَزَوّجُ نساء آبائها، وهو أشنع ما كانوا يفعلون، فيقال للذي يخلف على امرأة أبيه «الضيزن»[☆]. قال أوس ابن حجر :

والفارسية فيكم غير منكرة   فكلكم لأبيه ضيزن سلفُ

وكان الرجل إذا مات، قام أكبر ولده فألقى ثوبه على امرأة أبيه، فورث نكاحها. فإن لم يكن له حاجة فيها تزوجها بعض إخوته بمهر جديد وقد فرق الإسلام بين رجال ونساء آبائهم، وهم كثير».

ومن أولئك الذين فرّق الإسلام بينهم وبين نساء آبائهم، (تميم بن أبي بن مقبل)، وكانت (دهماء) امرأة أبيه تحته[2]، فأنزل الله تعالى :

﴿ولَا تَنكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إلا ما قد سَلَف إنه كان فاحِشَةً ومَقْتاً وسَاءَ سَبيلا﴾[3] [☆2].

«وكانت الورثة يرثون نكاح النساء كما يرثون المال . فأنزل الله جل وعز : ﴿يا أيّها الذين آمنُوا لا يَحِلُّ لكمْ أنْ تَرِثُوا النساءَ كَرْهاً ولا تَعْضُلُوهُنَّ﴾، فخلّوا سبيلهن»[4].

وقد قال (ابن منظور)[5] في شرح بيت (أوس بن حجر) المذكور :

---

(١) المحبر: ٣٢٥ - ٣٢٦. وانظر كذلك : الشهرستاني : الملل والنحل: ٣/ ٣١٧-٣٢٠ .

(☆) جاء في (ابن منظور: (ضزن)): «والضَّيْزَن: الشريك، وقيل: الشريك في المرأة. والضيزن. الذي يزاحم أباه على امرأته؛ قال أوس بن حجر: . . .».

(٢) انظر: ابن حبيب: م. ن: ٣٢٦-٣٢٧.

(٣) النساء : ٢٢ .

(☆٢) واسمه في الجاهلية زواج المقت ، ويسمى المولود عليه المقتي . (انظر : ابن منظور : (مقت)).

(٤) ابن حبيب : م. ن : ٣٢٧ .

(٥) (ضزن) .

«يقول: هم مثل المجوس يتزوّج الرجل منهم امرأة أبيه وامرأة ابنه». ولعل في بيت أوس هذا أكثر من تشبيه عادة «الضِّيزن» بالمجوسية؛ إذ هو صريح في نسبة هذا الزواج إلى العقيدة المجوسية التي تُحِلُّه، فهل يعني هذا أن ابن مقبل كان مجوسيّاً في جاهليته؟[1].

ومن يقرأ شعر (ابن مقبل) في (دهماء) يحسّ أنه كان كَلِفاً بهذه المرأة حدّ العشق، وبقي هذا العشق حتى بعد أن فرّق الإسلام بينهما، بل لعل ذلك التفريق أشعل أوار تعلّق الشاعر بها أكثر من ذي قبل، فظل يذكرها، ويتحسّر على عهدهما في الجاهلية، بمثل قوله[2]:

هل عاشق نال من دهماء حاجته ... في الجاهلية قبل الدِّين مرجومُ[☆]

وقوله أيضاً [3][☆2]:

لقد طالَ عن دَهْماءَ لَدِّي وعِذْرَتِي ... وكِتْمانُها أَكْنِي بأُمِّ فُلانِ

جعلتُ لجُهّال الرجال مَخاضَةً ... ولو شئتُ قد بَيَّنْتُها بِلِساني

وهذان البيتان من نقيضته لقصيدة (النجاشي الشاعر) في وقعة (صِفِّين :

(١) وانظر : ب١ ف١ : د-٤ .

(٢) ديوانه : (٣/٢٦٧) = (ط. TÜREK : ٣/١٠٨) .

(☆) «مرجوم» : (بالجيم) هي رواية (ابن حبيب: المحبّر: ٣٢٦)، ورواية الديوان، و(ابن ميمون (مخطوط): الورقة: ٣٠/أ)، و(الحموي: البلدان: (رعم)): «مرحوم»: (بالحاء). ورواية «مرحوم» (بالحاء) تعني أن الشاعر يَعُدّ ما فات في جاهليته ذنباً يطلب الرحمة عليه، أما رواية «مرجوم»: (بالجيم) فكأنه يستفهم استفهاماً إنكارياً، متأسفاً على الجاهلية، التي كانت تتيح له الاتصال بهذه المرأة، بل الزواج بها، دون أن يكون «مرجوماً»، كما أصبح كذلك بحكم الإسلام، وهذا متفق مع مذهب (ابن مقبل) في بكاء الجاهلية، الذي سنعرض له بعد قليل. هذا بالإضافة إلى أن (ابن حبيب) أورد البيت في مقام الاستشهاد بأقوال الشعراء الذين فرق الإسلام بينهم وبين أزواجهم، ومنهم «ابن مقبل». ولم يشر محققا الديوان إلى رواية «مرجوم»: (بالجيم) .

(٣) ديوانه: (٢٤٤/٢٥ - ٢٦) = (ط. TÜREK : للملحق ١٥٦/١٣٢ - ١٣٣) .

(☆٢) اللَّد: «الجدال والخصومة»: (أمالي المرتضى: ٢/ ١٧٣). والعذرة: الاعتذار بالحجة. «وقوله: مخاضة، يقول إنهم يخوضون في شعري ويطلبون معانيه، فلا يقفون عليه»: (م. ن). ولعل في بيتيه هذين تفسيراً صريحاً لما اعتاده الشاعر القديم من التكنية عن محبوبته بـ«أم فلان»؛ وذلك - أحياناً - لكتمان اسم المقصودة الحقيقي، لا كما توهّم بعض المعاصرين من أن الأسماء المصدرة بـ«أم» في الشعر القديم إنما هي رموز لسيدة الحكمة. (انظر: نصرت عبدالرحمن: الصورة الفنية: ١٥٠).

٣٧هـ = ٦٥٧م)، كما وردا في الديوان، وهذا يدل على أن الشاعر ظل يذكر (دهماء) حتى آخر حياته، ولم ينسها قط.

واستقراء الأماكن التي اقترن ذكرها بذكر دهماء يُظْهر أن معظم هذه الأماكن - إن لم تكن جميعها - أماكن في اليمن: كنجران، ومندد، وصخد، وشِسْعى، وعميرة، وغيرها. ويمكن أن يستنتج من هذا أن «دهماء» قد تكون يمانية(١).

ومما يدل على أنها يمانية قوله أيضاً (٢)(☆):

أمّا اليَماني منَ الحَيَّيْن فانْشَمَروا وكُلِّفَ القلبُ من دَهْماءَ ما كَلِفا

من هذا يمكن القول : إن (دهماء)، إذا كانت يمانية، فلعلها من (نجران) على وجه التحديد .

وفي أخباره يروي (ابن قتيبة)(٣) أنه :

«كان خرج في بعض أسفاره، فمرّ بمنزل عَصَر العُقَيْلي وقد جهده العطش فاستسقى، فخرج إليه ابنتاه بعُسٍّ (فيه لبن)، فرأتاه أعور كبيراً، فأبدتا له بعض الجفوة، وذكرتا هرمه وعوره، فغضب وجاز ولم يشرب، وبلغ أباهما الخبر، فتبعه ليرده، فلم يرجع، فقال له: ارجع ولك أعجبهما إليك، فرجع»(☆٢).

(١) انظر : ب٢ ف١ .
(٢) ديوانه: (٣/١٨١) = (ط. TÜREK : ٣/٧٣) .
(☆) انشمروا : أي تهيئوا للرحيل. (انظر: الجوهري: (شمر)). على أنه ينبغي التحفظ في معنى اليماني هنا، فـ(الأسود الغندجاني: فرحة الأديب: ١٧٠) يردّ على (ابن السيرافي) في تصوّره أن النسبة إلى اليمن في قول ابن مقبل - في بيت آخر - «طافتْ بأعلاقه خَوْد يمانية...» تعني بالضرورة أن هذه المرأة يمانية حقيقة، فيقول: «ولم يدر أن بني عامر ينسبون إلى اليمن؛ لأنهم كانوا ينزلون نجداً مما يلي اليمن...». على أن اقتران ذكر دهماء بتلك الأماكن اليمنية يقوّي احتمال أصلها اليمني .
(٣) الشعراء: ٤٥٥-٤٥٦ ، وانظر: الحموي: البلدان: (تأج)، والموصلي (مخطوط): الورقة: ٢٢٠/ب.
(☆٢) وفي (الحموي: البلدان: (تأج)): «تأج بالجيم، قال الغُوري: يهمز ولا يهمز، عين من البحرين، على ليالٍ، وقال محمد بن إدريس اليامي: تاج قرية بالبحرين، قال: ومرّ تميم بن أبي بن مقبل العجلاني بتاج على امرأتين...» وساق =

وقد قال في ذلك قصيدة طويلة منها[1][☆] :

قالتْ سُلَيْمَى ببطنِ القاعِ من سُرُحٍ : لاخيرَ في العَيش بعد الشَّيبِ والكِبَرِ
واستهزأتْ تِرْبُها مني. فقلتُ لها: ماذا تَعيبان مني يابْنَتي عَصَرِ؟
لولا الحياءُ ولو لا الدِّين عِبْتُكُما ببعض ما فيكما إذ عِبْتُما عَوَري
يا جارتيَّ على ثاجٍ طريقكما سَيْراً حثيثاً، ألمّا تعلما خَبَري

والخبر والأبيات يدلان دلالة واضحة على أن هذا الحادث وقع في شيخوخة (ابن مقبل)[☆٢]، وقوله: «لو لا الدِّين» يشير إلى أن ذلك كان في الإسلام، وذكره (سليمى) في هذه القصيدة وغيرها[2] يرجّح أن التي تزوجها من ابنتي عصر هي (سليمى)[3].

= الخبر المذكور.
ثم قال: «. . . فلما سمع أبوهما قوله، قال: ارجع معي إليهما، فرجع معه، فأخرجهما إليه، وقال: خُذ بيد أيتهما شئتَ، فاختار إحداهما، فزوّجه منها، ثم قال له: أقم عندي إلى العشي، فلما وردت إبله قسمها نصفين، فقال له: خذ أي النصفين شئتَ، فاختار ابن مقبل أحد النصفين فذهب به إلى أهله».

(١) ديوانه: (٧٦ - ١١/٧٧ - ١٣ ، ١٨) = (ط. TÜREK : ١١/٣١ - ١٣ ، ١٨).

(☆) القاع: «المستوي من الأرض»: (الجوهري: (قوع)). وسرح: ماء لبني العجلان. (سيأتي في: ثانياً: أ-٤). تربها: أختها ، والترب: اللِّدة المتقاربون في السن، وأكثر ما يكون ذلك في المؤنث. (انظر: ابن منظور: (ترب)). ببعض ما فيكما: أي بكل ما فيكما، فيما يقال، وبعض العرب تصل بـ(بعض) كما تصل بـ(ما)، ومن ذلك قوله تعالى: (غافر:٢٨): ﴿وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم﴾، يريد: الذي يعدكم، وقيل: كل الذي يعدكم، أي لا بعض دون بعض؛ لأن ذلك من فعل الكهان، وأما الرسل فلا يوجد عليهم وعد مكذوب. (انظر: ابن منظور: (بعض)). ثاج: ماء لبني الفَزَع من خثعم، ببيشة، وقيل: ثاج بناحية اليمامة، وقيل: قرية بالبحرين. (انظر: البكري: ما استعجم: ٣٣٣)، وقيل: ثاج عين من البحرين. (انظر: الحموي: البلدان: (ثاج)). وقال (ابن بليهد: صحيح الأخبار: ٣/ ١٢٥): «(ثاج) منهل في شرقي بلاد بني تميم وشمالي بلاد عبد القيس، وهو يحمل الاسم إلى هذا العهد، يعرفه جميع أهل نجد». ورجح (الجاسر: الشرقية: ١/ ٣١٢-٣١٣) أن ثاجاً ها هنا هي التي في بلاد الفزع من خثعم، بين بيشة وبلاد عسير. وعندي أن ثاجاً المقصودة في هذا البيت بالبحرين (الشرقية حالياً)؛ لأن هناك منازل (بني عُقَيل)، الذين تنتسب إليهم سليمى وأختها كما يبدو من قصتها مع ابن مقبل. (وانظر: كحّالة: معجم قبائل العرب: ٢/ ٨٠١).

(☆٢) قال عَصَر لابن مقبل: «خذ بيد أيتهما شئتَ»، كما في الهامش الآنف، مما يدل على ضعف بصره، وقد فُسِّر قوله: «عوري» في قصيدته بالعمى. (انظر: ب - ٤) .

(٢) انظر: ديوانه: (١/١٨٩ ، ١٣/٣٥٩) = (ط. TÜREK : (١/٧٧)، (لم يذكر)).

(٣) وانظر: عزة حسن: ٧ .

أما (سليمى بنت عصر العقيلي)، فيظهر من نسبتها أنها من (بني عُقَيْل)، ولعلهم: بنو «عُقَيْل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة»[1]، فهي تلتقي مع الشاعر في جَدِّه «كعب»، أي أنها تُعَدّ (ابنة عمه).

ولو ذهب القارئ يقارن بين زوجتي (ابن مقبل) هاتين: دهماء، وسليمى، ليعرف أيهما كانت أكثر قرباً لنفسه، لوجد نتيجة استقراء الديوان، وإحصاء عدد المرات التي ذكر فيها كل واحدة منهما، تشير إلى فرق شاسع بينهما؛ فبينما أتت «سليمى» في ديوانه (ثلاث مرات) فقط[2]، فإن «دهماء» قد جاءت (ثلاثاً وعشرين مرة)[3]، هذا غير المرات التي كان يكني عنها ولا يصرح باسمها[☆].

صحيح أن لتقدم علاقته بـ(دهماء) في الزمن، وتأخرها بالنسبة لـ(سُليمى)، أثراً في تفاوت تناولهما في شعره، غير أن ما يَبْرُزُ في تفوق «دهماء» على «سليمى» ليس عددَ المرات التي ذكرت فيها فحسب، بل حرارة العاطفة التي تصاحب ذلك الذكر أيضاً، ولا شك أن عامل السن له دوره في هذا التفوق .

---

(1) كحّالة: ٢/٨٠١ .

(2) انظر: ديوانه: (١١/٧٦)، (١/١٨٩)، وذيل ديوانه: (١٣/٣٥٩) = (ط. TÜREK : (١١/٣١)، (١/٧٧)، (لم يذكر)).

(3) انظر: م.ن: (١-٢/٤٠)، (٤-٥/٤١)، (٩-١٠/٤٣)، (١٣/٤٤)، (١/٤٨)، (٧،٩/٤٩)، (٣/١٤٢)، (٣/١٨١)، (٢٦٦-٢٦٧/١-٣)، (٢٤/٣٠٨)، (٣١١/٣٦-٣٧)، (٤/٣٣٧)، ٩-١٠/٤٣)، (١٣/٤٤)، (٣٤٣-٣٤٤/٢٤-٢٥)، وذيل ديوانه: (١/٣٥٨)، (١٢/٣٥٩) =(ط. TÜREK : (١٦-١٨/١-٢، ٤-٥، ٩-١٠، ١٣)، (١٩-٢٠/١،٧، ٩)،(٣/٥٨)، (٣/٧٣)، (١٠٨/١-٣)، (٢٤/١٢٥)، (١٢٦/٣٦-٣٧)، (٤/١٣٧)، والملحق: (١٥٦/لم يذكر، ١٣٢)، (٢٤/١٤٢)، (٢٦/١٤٢)).

(☆) وقد مرّ أنه كان يكني عنها «بأم فلان»، وفي شعره: «أم تميم»: ذيل ديوانه: (٧/٤١٠) = (ط TÜREK : الملحق: ١٦١/١٦٤)، و«أم حاجز»: ديوانه: (٢/٦١) = (ط. TÜREK : ٢/٢٥)، و«أم خشرم»: (١/٢٨١) = (ط. TÜREK : ١/١١٣)، و«أم سهم»: (١٨/٦٥) = (ط. TÜREK : ١٨/٢٧)، و«أم عاصم»: (٥٧/٣) = (ط. TÜREK : ٣/٢٣)، و«أم ذي الودع»: (١٢/٤٤) = (ط. TÜREK ١٧/١٢)، ويبدو أن معظم هذه الكنى - إن لم تكن جميعها - عنى بها دهماء.

ومن الأسماء التي يرددها كثيراً : (كبيشة)، حيث ذكرها (اثنتي عشرة مرة)[١]، وشعره فيها يدل على عاطفة متينة تربط بينهما، بل لقد صرح (ابن السيرافي)[٢]، في شرح أحد أبياته، بالقول: إن «كبيشة امرأته»[☆].

ويستنبط من خلال شعره ما يبعث على احتمال كونها من (بني سُليم)[٣].

و(ليلى)، ذكرها (ست مرات)[٤]، وتُرادف في شعره شكوى البعد والمسافات، ولعله قد اتخذ من هذا الاسم غطاء أيضاً على الاسم الصريح لحبيبته (دهماء)، كما اتخذ الكنى .

ومن أسماء النساء في شعره كذلك: «الجعفية ابنة مالك»[٥]، و«ابنة الرحال»[٦]، و«زينب»[٧]، و«طيبة»[٨]، و«عتيبة»[٩]، و«المازنية»[١٠]، و«ابنة المكتوم»[١١]، و«ميّة»[١٢][☆٢].

---

(١) انظر: ديوانه: (٣/١٤)، (٤/١٩)، (٢/٢٢)، (٤/٢٣)، (١/١٢٣)، (١/٢٠٧)، (١،٤/٢٥٥)، (٨/٢٥٦)، (١١/٢٥٧)، (١٩-٢٠(٢٥٩)، (٢١/٢٦٠)، وذيل ديوانه: (١/٤٠٨) = (ط. TÜREK : (٢/١٤)، (٣/١٩)، (٢/١٠)، (٤/١١)، (١/٤٩)، (١/٨٥)، ١٠٣-١٠٤/١،٤،٨)، (١١/١٠٥)، (١٠٥-١٠٦/١٩-٢١)، والملحق: (١٥٨/٢٦٠) .

(٢) شرح أبيات سيبويه: ٢/٤١٩ .

(☆) وأشار (ابن قتيبة: المعاني: ١١٥٣) إلى بيت آخر قائلاً: «وقال ابن مقبل لامرأته: . . .»، وذكر بيتاً هو في ديوانه من قصيدة توجه الشاعر بالخطاب فيها إلى كبيشة: (انظر: ديوانه: ٢٢-٣٩) = (ط. TÜREK : ١٠-١٦).

(٣) انظر: ذكر دار كبيشة: ب٣ ف١ : أ - ٣ .

(٤) انظر: ديوانه: (٥٤/٩١)، (٣٠-٣١/١٣٧)، (٣١٥-٣١٦/١-٣)، (٦/٣١٧)، (١١/٣١٩)، وذيل ديوانه: (٢/٣٦٩) = (ط. TÜREK: (٥٤/٣٦)، (٣٠-٣١/٥٥)، (١٢٨-١٣٠/١-٣،٦،١١)، والملحق: (١٤٦/٥٥)).

(٥) ديوانه: (١٠/٢١٨) = (ط. TÜREK: ١٠/٩٠) .

(٦) ذيل ديوانه: (٤/٤٠٢) = (ط. TÜREK: الملحق: ١١٩/١٥٤) .

(٧) ديوانه: (١/١) = (ط. TÜREK: ١/١) .

(٨) م. ن: (١٣/١٤٩) = (ط. TÜREK: ١٣/٦١) .

(٩) م. ن: (١/٢٢٥) = (ط. TÜREK: ١/٩٢) .

(١٠) م. ن: (١/١٦٧) = (ط. TÜREK: ١/٦٨) .

(١١) م. ن: (٩/١٨٢) = (ط. TÜREK: ٩/٧٤) .

(١٢) ذيل ديوانه: (٢/٤٠١) = (ط. TÜREK: الملحق: ١١٥/١٥٤) .

(☆٢) وقد قال (ابن رشيق: ٢/١٢١-١٢٢): «وللشعراء أسماء تخف على ألسنتهم وتحلو في أفواههم، فهم كثيراً ما يأتون =

ونقف أمام سؤال ساقه (الجاحظ)[1] في كلامه على ما امتحن به عِلْم (أحمد ابن عبدالوهاب)، وهو: «مَن قاتل امرأة ابن مقبل؟»[☆]، ومع أنه يقصد هذا الشاعر في أغلب الظن؛ لشهرته بابن مقبل، فإن سؤاله هذا يظل بلا إجابة رغم المحاولة .

أما علاقة الشاعر ببقية أسرته : بأبيه، وأمه، وإخوته، وأبنائه، فهي غير معروفة، إلا ما مضى من شكواه لابنته (الحُرَّة)، وندائها نداء ينمّ على قربها منه، وحدبها عليه، وعلى اعتماده عليها في تسهيل حاجاته، بعد أن بلغ من العمر عتيّاً، وفقد إبصاره .

ب - ٢ - اخباره :

لا يكاد الباحث يظفر من أخبار (ابن مقبل) إلا بالقليل :

ب - ٢ - ١ - ابن مقبل والنجاشي الحارثي واخوه :

لعل أشهر تحد هجائيّ لابن مقبل ورهطه هو ذلك الذي قاله (النجاشي الحارثي)[2] في أبيات بلغ أمرها (عمر بن الخطاب رضي الله عنه - ٢٣هـ = ٦٤٤م)، وكان أول من أشار إليها (الجمحي - ٢٣١هـ = ٨٤٥م)[3]، وكثيراً ما

= بها زوراً، نحو: ليلى، وهند، وسلمى، ودعد، ولبنى، وعفراء، وأروى، وريا، وفاطمة، ومية، وعُلوة، وعائشة، والرباب، وجمل، وزينب، ونعم، وأشباههن... وربما أتى الشعراء بالأسماء الكثيرة في القصيدة، إقامة للوزن، وتحلية للنسيب»، ومع أخذ هذا بعين الاعتداد في النظر إلى أسماء المرأة في شعر ابن مقبل، فإن كونه اتخذ هذه الأسماء، أو بعضها على الأقل، تقية كيلا يصرح باسم دهماء يبدو سبباً أقوى من غيره، وإلا لما أتى باسم كـ«أم خشرم» وهو ينشد الخفة والحلاوة!.

(١) الحيوان: ١/٣٠٨ .

(☆) لم نجد السؤال في (التربيع والتدوير) .

(٢) سبقت ترجمته: راجع: ب - ٠ - سيرته .

(٣) انظر: ١٥٠ .

تقترن بابن مقبل عند ذكره[١].

فيروى أن ابن مقبل استعدى (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) على النجاشي[☆]، فقال: يا أمير المؤمنين، هجاني فأَعْدني عليه![☆٢].

قال: يا نجاشي، ما قلت؟.

قال: يا أمير المؤمنين، قلتُ ما لا أرى عليّ فيه إثماً، وأنشد[٢][☆٣]:

إذا اللهُ عـادَى أهـلَ لُـؤمٍ ودِقَّـةٍ
فعادَى بني العجلان رهطَ ابن مقبلِ[☆٤]

---

(١) انظر: الجاحظ: البيان: ١/٢٣٩، ٤/٣٧، وابن قتيبة: الشعراء: ٣٣١، وثعلب: ٨/٣٦٣-٣٦٤، والظاهري: النصف الثاني من الزهرة: ٢٢٧-٢٢٨، والنهشلي: ٣٠٨-٣١٠، والرقام البصري: العفو والاعتذار: ٧٠-٧٢، وابن عبد ربه: ٥/٣١٨-٣١٩، والخالديين: ١/٣٥-٣٦، والعسكري: ديوان المعاني: ١/١٧٦-١٧٧، والمعري: ٢٤٧ (ولم يذكر الشعر)، والحصري: ١/٥٤-٥٥، وابن رشيق: ١/٥٢،٧٦،١٠٧، والبكري: فصل المقال: ١٦٧،٣١٠-٣١١، والصقلي: ٤٥٢-٤٥٤، وابن الشجري: ١٣١،١٣٢، والعلوي: النضرة: ٣٠٢-٣٠٣، وابن منظور: (عيف)، والقلقشندي: نهاية الأرب: ٦٧، والعسقلاني: ١/٣٧٧-٣٧٨، ٦/٤٩٣، والموصلي (مخطوط): الورقة: ٢٢٠/ب، والبغدادي: الخزانة: ١/٢٣١-٢٣٣، وشرح الأبيات: ٥/٩٧ (وفي الأخير: لم يذكر الشعر)، واليوسي: ٧٣-٧٤، وابن معصوم: ٣/٦١-٦٣، والزبيدي: التاج: (عجل).

(☆) وفيها عدا: (ثعلب)، و(البغدادي: م. ن)، و(العسقلاني)، و(الموصلي (مخطوط))، و(ابن معصوم)، جاء الخبر منسوباً إلى (بني العجلان) دون ذكر ابن مقبل. ونسبت الأبيات في (الخالديين: ٢/٣١٠) إلى النجاشي أو غيره، وفي (العلوي: م. ن)، و(القلقشندي) نسبت إلى (الحطيئة جرول بن أوس - نحو ٤٥هـ = ٦٦٥م)، وليست في ديوانه، وإنما هو لَبْس، حيث كانت للحطيئة قصة مشابهة مع (الزبرقان بن بدر)، وكان عند عرض هذه القضية على (عمر رضي الله عنه) محبوساً بسبب ما هجا به الزبرقان، وقيل: إن عمر استدعاه مع (حسان بن ثابت) للحكم على هجاء النجاشي، كما سيأتي.

(☆٢) قال (الخالديان: ١/٣٦): «وذكر أن بني العجلان استعدوا عمر بن الخطاب على الذي هجاهم بالشعر الذي ذكرناه، وقالوا: هجانا هجاء ما هُجيت العرب بأقبح منه. فقال لهم: أنشدوني ما قال فيكم، فأنشدوه:...»، وفي (العلوي: م. ن: ٣٠٢): «فقالوا: هجانا وشتمنا من أعراضنا».

(٢) البيت في المصادر السابقة، خلا: ابن منظور، والزبيدي، واليوسي، وهو في: الجمحي: ١٥٠، وأبي تمام: الوحشيات: ٢١٥، والنقائض: ١٢٩، وابن قتيبة: م. ن: ٤٥٥، وابن أبي الحديد: ٢/١١٣.

(☆٣) وقد عد (الخالديان: ١/٣٥) هذا البيت وما بعده من غريب الهجاء وبديعه، وفي (٢/١٩٨): «من محضّ الهجاء وشديده».

(☆٤) في (العسقلاني)، و(البغدادي: م.ن)، و(الموصلي (مخطوط))، و(ابن معصوم): «إذا الله جازى». والدقة: مصدر الدقيق، ومن معانيه: الرجل القليل الخير. (انظر: ابن منظور: (دقق))، وهو المعنى الظاهر هنا. ومنه قول (عمرو ابن الأهتم):
=

فقال (عمر): «إنما دعا، فإن كان مظلوماً استجيب له، وإن كان ظالماً لم يستجب له»، أو قال: «ما أرى بأساً؛ الله لا يعادي مسلماً»[1].

فقالوا: وقد قال أيضا [2]:

قُبَيِّلَةٌ لا يغدرون بذمةٍ ولا يظلمون الناسَ حَبَّةَ خَردلِ[☆]

فقال (عمر): «ليتني من هؤلاء، أو قال: ليت آل الخطاب كذلك، أو كلاماً يشبه هذا»[3][☆2]. قالوا فإنه قال[4]:

- مكارم يجعلن الفتى في أرومة يفاع، وبعض الوالدين دقيق

(الضبي: المفضليات: ١٢٧). وفي(ابن قتيبة: م.ن)، و(ابن رشيق: ١/ ٥٢)، و(ابن عبد ربه)، و(الحصري)، و(أبي تمام: النقائض: م.ن)، و(العسكري: م.ن)، و(الصقلي): «رقة»: (بالراء). والرقة: مصدر الرقيق، عامّ في كل شيء، فالرقة: ضعف الدين، أو المال، أو الحسب، أو غير هذا من سيء الصفات. (انظر: ابن منظور: (رقق)). و(ابن أبي الحديد): «قلة». و(ثعلب)، و(البغدادي: م.ن): «بذلة». و(العسقلاني)، و(الموصلي (مخطوط))، و(ابن معصوم): «بلمة». (العسقلاني)، و(البغدادي: م.ن)، و(الموصلي (مخطوط))، و(ابن معصوم): «فجازى». (ابن رشيق: ١/ ٥٢)، و(ابن عبد ربه): «بني عجلان».

(١) انظر: الرقام، والنهشلي، وابن معصوم.

(٢) البيت في مصادر الخبر السابقة خلا: ابن منظور، والزبيدي، وهو في أبي تمام: الوحشيات: ٢١٦، والنقائض: م.ن، وابن عبد ربه: ٣/ ١٧، والخالديين: ٢/ ١٩٨، ٣١٠، والحاتمي: الموضحة: ٣٤، وابن أبي الحديد: م.ن .

(☆) (ابن عبد ربه)، و(العسقلاني): «قبيلته». (ابن عبد ربه)، و(اليوسي): «لا يخفرون». وقد أخذ (الأخطل: ديوانه: ٥٤٦، ٥٥٨) هذا البيت واللذين بعده فقال:

قُبيِّلة، ما يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس مثقال درهمِ
ولا يردون الماء إلا عشية على طول أظماء ووجه ملطمِ

وقال:

تعاف الكلاب الضاريات لحومكم ويأكلن من أولاد سعدٍ ونهشلا

(٣) ابن رشيق: ١/ ٥٢، وانظر: الموصلي (مخطوط)، وابن معصوم .

(☆٢) وفي (ابن الشجري): «فقال: هذه صفة قوم صالحين ليتني كنت منهم...». (وانظر: العلوي: م ن: ٣٠٢)، وفي (الخالديين): «فقال: ليت الخطّاب وأهل بيته وجميع بني عدي بن كعب بهذه الصفة، لا يغدرون ولا يظلمون، ما أرى بأساء، هيه، فقالوا:...».

(٤) البيت في مصادر الخبر السابقة، خلا : ابن منظور، والزبيدي، وهو في أبي تمام: الوحشيات: ٢١٦، وأبي عبيد: الأمثال: ٢١٥، وابن قتيبة: المعاني: ٥٦٢، وابن عبد ربه: ٣/ ١٧، والخالديين: ٢/ ١٠، وابن أبي الحديد: م.ن.

ولا يردون الماء إلا عشيّةً إذا صدر الورادُ عن كل منهلِ(☆)

فقال عمر: «ما أَحَبَّ كل هذه الذلة»[1]، أو قال: «ذلك أقل لِلّكاك»، يعني الزحام[2]، أو قال: «ذلك أصفى للماء وأقل للزحام»[3]، أو قال: «فإن ذلك أجمّ لهم وأمكن»[4]، «وما على هؤلاء متى وردوا!»[5]. قالوا: فإنه قال[6]:

تعافُ الكلابُ الضارياتُ لحومَهُمْ وتأكل من كعبٍ وعوفٍ ونهشلِ(☆٢)

فقال (عمر): «أجن القوم موتاهم فلم يضيعوهم؛ وكفى ضياعاً من تأكل

(☆) (الموصلي (مخطوط)): «من كل». وعلّق (الخالديان) على هذا البيت والذي قبله بأنه «يريد أنهم لا يستطيعون أن يغدروا ولايظلموا أحدا، ولا يردون الماء حتى يصدر الناس عنه لضعفهم وذلتهم، وهذا مثل قول ابنتي شعيب لموسى عليهما السلام، وقد سألها عن وقوفها والناس يسقون، وقد قالتا له: ﴿لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾ فهؤلاء نساء وحقهن الضعف عن مقاومة الرجال». كما علّق (العسكري: م.ن) على هذا البيت بقوله: «وكانوا يتمدحون بتقديم الورد، وكان أعزهم أسبقهم إلى الماء بإبله».

(١) الظاهري: م.ن، وابن معصوم.

(٢) انظر: ابن قتيبة: م.ن، وابن رشيق، والعسكري: م.ن، والبكري: م.ن، والصقلي.

(٣) انظر: الرقام، والحصري، والبغدادي: م.ن، والنهشلي، وابن الشجري، والخالديين، والصقلي، والعلوي: م.ن: ٣٠٢.

(٤) ابن عبد ربه: ٣١٩/٥، وانظر: الخالديين.

(٥) ثعلب، والعسقلاني. وانظر: الموصلي (مخطوط)، وابن معصوم.

(٦) ليس في: الجاحظ: م.ن، وابن عبد ربه، والرقام، والخالديين، وابن أبي الحديد، والعسقلاني، والموصلي (مخطوط)، والزبيدي. وهو في : أبي تمام: الوحشيات: ٢١٦ .

(☆٢) (ابن معصوم: ٣/ ٦١): «الذئاب». (م.ن: ٣/ ٦٣): «السباع». (أبو تمام: الوحشيات)، و(الظاهري م.ن)، و(العسكري: م.ن)، و(البكري: م.ن)، و(النهشلي)، و(العلوي: م.ن: ٣٠٣): «ويأكلن». (أبو تمام: الوحشيات): «عوف وكعب بن نهشل». و(ثعلب)، و(ابن رشيق)، و(العلوي: م.ن: ٣٠٣)، و(ابن منظور)، و(البغدادي: م.ن)، و(ابن معصوم)، و(اليوسي): «كعب بن عوف ونهشل». و(الصقلي)، و(النهشلي): «كعب بن عوف بن نهشل». و(الحصري): «عوف بن كعب بن نهشل». و(ابن الشجري): «كعب،وعمرو، ونهشل». و(العسكري: م.ن): «عوف، وكعب، ونهشل». و(الظاهري: م.ن): «كعب، وعوف، ونهشل». و(ابن معصم): «أبناء كعب ونهشل».

ولعل الأرجح: «كعب، وعوف، ونهشل»؛ لأنها رواية (ابن قتيبة: م.ن) وهو من أقدم من ذكر البيت، ولعل النجاشي قصد (كعب بن عبدالله) جده، وبعوف إحدى قبائل الأزد اليمنية: كعوف بن الخزرج ، أو عوف بن الحارث، أو عوف بن عمرو، أو غيرهم ممن يلتقون مع النجاشي في الانتماء إلى الأزد القحطانية . وبنهشل. بني نهشل ابن عدي بن جناب بن هبل، من بني كلب بن وبرة القضاعيين القحطانيين، أو غيرهم. (انظر: الزركلي: ٨/ ٥٠، ٥/ ٢٣٠، وكحّالة: ٣/ ٩٩١). وهذا أنسب لمقام الهجاء والفخر بقومه .

الكلاب لحمه!»[١]. قالوا: وقد قال[٢]:

وما سُمِّي العجلانُ إلا لقيلهم
خُذِ القَعْبَ واحلب أيها العبدُ واعجلِ[☆]

فقال (عمر): «خير القوم خادمهم»، أو قال: «خير القوم أنفعهم لأهله. وكُلُّنا عبيدالله»[٣]. فقال (تميم): فسَلْه يا أمير المؤمنين عن قوله[٤]:

أولئك أولادُ الهجينِ وأسرةُ الـ ـلئيمِ ورَهْطُ العاجزِ المتذللِ[☆٢]

فقال (عمر): «أما هذا فلا أعذرك عليه»، فحبسه، وقيل: جلَده»[٥][☆٣].

---

(١) انظر: ابن قتيبة: م.ن، والبكري: م.ن، والعسكري: م.ن، وابن رشيق، والصقلي، والحصري، والعلوي: م.ن: ٣٠٣، والنهشلي، والبغدادي: م.ن.

(٢) ليس في: الجاحظ: م. ن، والخالديين، وابن منظور. وهو في: أبي تمام: الوحشيات: ٢١٦، والنقائض: م. ن، وابن فارس: المقاييس: ٤/٢٣٨، وابن أبي الحديد: م. ن.

(☆) (أبو تمام: الوحشيات: م. ن)، و(النقائض: م.ن)، و(الظاهري: م.ن)، و(البكري: م.ن)، و(ثعلب)، و(ابن رشيق)، و(ابن عبد ربه: ٥/٣١٩)، و(الصقلي)، و(ابن الشجري)، و(البغدادي: م. ن)، و(اليوسي): «لقومهم». و(الرقام)، و(الزبيدي): «بقوله». و(ابن فارس: م.ن)، و(الحصري)، و(ابن أبي الحديد)، و(النهشلي)، و(العسقلاني)، و(الموصلي (مخطوط))، و(ابن معصوم): «لقوله». (أبو تمام: النقائض: م.ن)، و(ابن فارس: م.ن): «خذ الصحن». وفيه، و(ثعلب)، و(الرقام)، و(ابن أبي الحديد): «فاحلب». (ثعلب): «فاعجل».

(٣) ثعلب، والعسقلاني. وانظر: العلوي: م.ن: ٣٠٣، والموصلي (مخطوط)، وابن معصوم.

(٤) البيت في: أبي تمام: الوحشيات: ٢١٦، والظاهري: م.ن، والنهشلي، وثعلب، والحصري، والعسقلاني، والبغدادي: م.ن، والموصلي (مخطوط)، وابن معصوم.

(☆٢) (أبو تمام: الوحشيات: م.ن): «إخوان الذليل»، و(النهشلي)، و(البغدادي: م.ن): «إخوان اللعين»، و(الحصري): «أخوال اللعين»، و(الظاهري: م.ن): «أخوال اليتيم»، و(ثعلب): «أولاد اللئيم». (البغدادي: م.ن): «وأسرة الهجين»، و(الموصلي (مخطوط)): «وامراة الليثم» (مهمل النقط تحت الياء مهمل الهمز): (تصحيف)، و(الظاهري: م.ن)، و(الحصري)، و(النهشلي): «وأسرة الهجين». (أبو تمام: م.ن)، و(الظاهري: م.ن): «رهط الخائن»، و(الحصري)، و(النهشلي)، و(البغدادي: م.ن): «رهط الواهن». (الظاهري: م.ن): «المتبدل».

(٥) البغدادي: م.ن. وانظر: الموصلي (مخطوط).

(☆٣) في (ابن معصوم): أنه قال هذا بعد البيت: «تعاف الكلاب...»، وفيه: «فسبه»، وذكر محققه أن في الأصل «نبسه». وواضح أنها «فحبسه»، سقطت (الحاء).

ويقال: إنهم قالوا: يا أمير المؤمنين، هجانا، فقال: ما أسمع ذلك(١)، فقالوا: فاسأل حسّان بن ثابت(☆)، فبعث إلى حسّان والحطيئة، وكان الحطيئة محبوساً عنده. فسألهما، فقال حسّان: ما هجاهم ولكن سَلَح عليهم، مثل قوله في شعر الحطيئة. «فلما حكم حسّان أنفذ عمر حكمه على (النجاشي)، كالمقلِّد من جهة الصناعة، ولم يكن حسّان - على علمه بالشعر - أبصر من عمر رضي الله عنه بوجه الحكم، وإن اعتلّ فيه بما اعتلّ»(٢)، فهدد عمرُ النجاشي وقال له: «إن عدتَ قطعتُ لسانك»(٣)(☆٢).

وهذا الخبر يدل على أن مهاجاة (النجاشي) و(ابن مقبل) كانت قائمة في عهد (عمر بن الخطاب رضي الله عنه)، وربما كانت قبل ذلك.

وقد ذهب (الجمحي)(٤) إلى أن النجاشي غلب ابن مقبل، مع أن الأخير كان أعلى منه منزلة في الشعر، ولم يبيّن ما إذا كان ابن مقبل قد ردّ على أبيات النجاشي السابقة أم لا، غير أن ديوانه قد حفظ لنا ثلاثة أبيات مستقلة، على وزن شعر النجاشي ورويّه، وهي في هجاء (بني الحارث بن كعب) رهط النجاشي، كما أن أبيات النجاشي في هجاء (بني العجلان) رهط ابن مقبل، وما

---

(١) انظر: ابن قتيبة: م.ن، والعسكري: م.ن، وابن رشيق، وابن الشجري، والنهشلي.

(☆) في (ابن الشجري): «فقالوا: ليس لك معرفة بالهجو يا أمير المؤمنين فابعث إلى حسان...». و(انظر: العلوي: م.ن: ٣٠٣).

(٢) ابن رشيق، وانظر: الصقلي.

(٣) العسكري: م.ن، والصقلي.

(☆٢) وقال (الخالديان): إن عمر قال: «...ما أرى بأساً ولا على قائل هذا الشعر عقوبة، ولم يُنْدِهم عليه. وعمر كان أعلم بالشعر من قائله، ولكنه أراد بهذا معنى». ومع أن شعر النجاشي هجاء موجع ما في ذلك شك، فإنه ينبغي هنا ملاحظة علاقة كلا هذين الحكمين بالمحكوم عليه، إذ كان النجاشي على عداء مع حسان وابنه (عبدالرحمن) - والظاهر أنه نشأ على إثر هذه الحكومة، أو أنها كانت من أسبابه - فكان حسان يعين ابنه على هجاء النجاشي. (انظر: ابن بكار الموفقيات: ٢٣١ فما بعدها). على حين كان الحطيئة قيسياً من قوم ابن مقبل، وكانت له قصة مهاجاة مع (الزبرقان بن بدر) مشابهة لما حدث بين النجاشي وبني العجلان، أودعه عمر بأسبابها السجن، وكان إذ حكّم يقضي فترة سجنه كما ذُكر فوق. (وانظر: الزركلي: ٢/١١٨).

(٤) انظر: ١٥٠.

نحسبها إلا بعض نقيضة ضائعة، يرد بها الشاعر على هجاء النجاشي، وتلك الأبيات هي[(١)(☆)]:

أَحارِ بنَ كعبٍ، ثم لا شيءَ بعده ... ولا قبله غيرَ الضلال المُضَلَّلِ
أَحارِ بنَ كعبٍ، بئس مارام جَدُّكم ... بكم إذ تَعَلَّقْتُمْ عِنانَ ابن مقبلِ
أَحارِ بنَ كعبٍ، إنما أنت قُنْفُذٌ ... بمَدْرَجَةٍ يأوي إلى شَرِّ مَعْقِلِ

والظاهر أن هذا الردّ كان بعد حكومة (عمر رضي الله عنه)، وإلا لكان (النجاشي) قد أثاره بدوره، بل لما جرؤ بنو العجلان أصلاً على الشكوى، وصاحبهم قد قال ما قال، ولو لم يشفهم قوله[(٢☆)].

ولكن ما سبب إحجام (ابن مقبل) عن الردّ المباشر على هجاء النجاشي؟. أغلب الظن أنه الخوف من الخليفة عمر رضي الله عنه؛ لأنه قد ردّ عليه فيما بعد بنقيضة، منها الأبيات الثلاثة السابقة، وكذا فعل في (صِفِّين) كما سيأتي.

ثم ينشئ النجاشي في (صِفِّين: ٣٧هـ = ٦٥٧م) قصيدة يذكر فيها فرار معاوية وبعض جنده، وقتلى (بني عامر) وغيرهم من (بني قيس عيلان)، وتحكيم الحكمين في (رمضان) من العام نفسه[(٢)]، ومنها قوله[(٣)]:

---

(١) ديوانه: (٢٦٥/١-٣) = (ط. TÜREK: ١٠٧/١-٣).

(☆) حار: ترخيم (حارث)، وهم الحارث بن كعب بن عمرو، من مذحج، من كهلان، كانوا بنجران. (انظر: الزركلي: ١٥٧/٢). جدكم: قد يعني به حظكم. والقنفذ: الحيوان المعروف، وهو على ما فيه من قباحة الخلقة ودناءة القدر، تشبّه به العرب النمام، فتقول: «ما هو إلا قنفذ ليل»؛ لأنه لا ينام في زعمهم، فيسمّى «الدراج»؛ لأنه يدرج ليلته جمعاء. والمدرجة: الطريق المعترضة في الأكمة، وقد يعني أنه قنفذ دراج، أي أنه نمام، كما قيل. والمعقل: الملجأ (انظر: ابن منظور: (درج)، و(قنفذ)). فكأن الشاعر يمثل هنا لانحطاط المهجوّين وسوء منقلبهم، مع قبح الأصل والصورة والخُلُق.

(٢☆) ومن الغريب أن (النعيمي: مجلة المجمع العلمي العراقي: م١٣: ص ٥٩) يذكر أن أبيات النجاشي كانت ردّاً على أبيات لابن مقبل، دون أن يورد سنداً لذلك.

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل: ١٦٢/٣.

(٣) المنقري: ٥٢٤، ٥٢٦.

وما قُتلتْ علكٌ ولَخمٌ وحِميرٌ ... وعيلان إلا يوم حرب عوانِ
وما دُفنت قَتْلَى قريش وعامر ... بصفِّين حتى حكُم الحكمانِ
فيا حَزَناً ألَّا أكون شهدتهم ... فأدهن من شحم العبيد سناني
وأمّا بنو نصر ففرّ شريدهم ... إلى الصلتان الخور والعجلانِ

فيجيبه ابن مقبل بنقيضة منها[1](☆):

[فقُلْ للحماس يترك الفخر إنما ... بنَى اللؤمُ بيتاً فوق كل يمانِ]
[أقَرَّتْ به نجران ثم حَبَوْنَنٌ ... فتثليث فالأرسان فالقَرظَانِ]
[أيا لهفتي ألّا تكون شهدتهم ... فتُسقى بكأسي ذِلَّة وهَوانِ]
[ولو كُنتَ جِرمَ الخُنفُساء شهدتَهم ... جُعِلْتَ قناةً غيرَ ذات سنانِ]
[ولو شهدتْ أمُّ النجاشي ضربنا ... بصِفِّين فدَّتْنا بكل يماني]
[وجاءتْ به حيّاكةٌ عَرَكِيَّةٌ ... تَنَازَعَها في طُهرها رجلانِ]

ويبدو أن (خديجاً) أخا (النجاشي) قد اشتبك هو الآخر في هجاء مع (ابن

---

(١) ديوانه: (٣٤٤-٣٤٦/٢٧-٢٨، ٣٠-٣٣) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٥٧-١٥٨/١٣٧-١٣٨، ١٤٠-١٤٣).

(☆) الحماس: هم بنو الحماس، حي من بني الحارث بن كعب، وهم رهط (النجاشي الشاعر) الأدنون. (انظر. ابن قتيبة: المعارف: ١٠٧)، و(ابن دريد: الاشتقاق: ٤٠٠). نجران: مدينة معروفة بالحجاز من شقّ اليمن. (انظر: البكري: ما استعجم: ١٢٩٨)، وهي المعروفة باسمها اليوم ضمن البلاد السعودية. وحبونن: واد معترض بين نجران وتثليث. (انظر: الهمداني: ١٦٦). وتثليث: واد عملاق شمال نجران على (٣٢٠ كيلاً) منها، وكان (لعمرو بن معديكرب) فيه حصن ونخل، وما يزال معروفاً باسمه. (انظر: البكري: م.ن: ٣٠٥)، و(الهمداني: ٢٥٣)، و(ابن ملحم: وادي تثليث (مجلة العرب، رجب - شعبان، ١٤٠٦هـ = آذار/نيسان (مارس/إبريل) ١٩٨٦م، ص ٨-٢١)). والأرسان: موضع قِبَل تثليث، من بلاد بني عُقَيل. (انظر: البكري: م.ن: ١٣٨). ويُعرف اليوم بـ(الرُّسَيْن)، وهو يرفد تثليث، على بعد (١٥ كيلاً) من مفيض وادي جاش إلى الجنوب، ويفصل بينهما جبل الربوض. (انظر: ابن ملحم: م.ن: ١٢). والقَرَظان: حصن بزبيد. (انظر: الحموي: البلدان: (قرظان))، و(الزبيدي: التاج: (قرظ))، ورُوي «القرظان»: (بطاء مهملة)، وقيل: هو موضع قِبَل تثليث. (انظر: البكري: م ن: ١٠٦٤)، وفي (الهجري: ١/٨٦): «كل هذه من دار (بني الحارث بن كعب)»، وفيه: «الأرصان». حرم الخنفساء: كأنه موضع. والحياكة: التي تمشي مشية الحِياكة، وهي مشية تبختر وتَثَبُّط، صفة مدح في النساء. عركية: فاجرة. (انظر: ابن منظور: (حيك)، و(عرك)).

مقبل)، لم نعثر إلا على أصدائه في قول ابن مقبل(١)(☆):

أبلغْ خَديجاً، فإني قد سمعتُ له ... بعضَ المَقالة يُهديها فتأتينا

مالَكَ تجري إلينا غير ذي رَسَنٍ ... وقد تكونُ إذا نُجريكَ تُغنينا

وقد بَرَيتَ قِداحاً أنت مرسلها، ... ونحن راموك، فانظر كيف ترمينا

فاقصدْ بذرعك، واعلم لو تجامعنا ... أنّا بنو الحرب نَسقيها وتَسقينا

حتى يقول(٢):

فلا تكونَنَّ كالنازي ببِطْنَتِه ... بين القَرينين حتى ظلّ مقرونا(☆٢)

ترى ما سبب هذا التهاجي؟. وإذا صح أن (دهماء) - حبيبة ابن مقبل وزوجه - يمانية من نجران، حسبما استنتج من قبل (ب- ١ - أسرته)، وربما كانت من (بني الحارث بن كعب) قوم (النجاشي)، فهل من علاقة بين ذلك وهذا التهاجي؟.

الحق أن الإجابة على هذا السؤال إجابة قاطعة مستندة على معطيات الأخبار القديمة متعذرة؛ وذلك لعدم اهتمام تلك الأخبار بهذه النقطة من حياة الشاعر، وشعر الشاعر نفسه لا يسعف بشيء من ذلك، حتى إنه لا يذكر اسم (النجاشي) صراحة في شعره، بل يذكر (أُمَّ النجاشي)، وأخاه (خديجاً) كما مرّ، وكذا النجاشي لم نجد في أشعاره تصريحاً باسم (ابن مقبل)، سوى قوله: «رهط

---

(١) ديوانه: (٣٣٠/٤٣-٤٦) = (ط. TÜREK: ١٣٤-١٣٥/٤٣-٤٦).

(☆) في (ابن قتيبة: الشعراء: ١/ ٣٣٣): «حُدَيج»: (بالحاء المهملة المضمومة، والدال المفتوحة) وفي (القرشي: ٢/ ٨٦٥): «أراك تجري». تغنّينا: تتعبنا. القداح: السهام. والذرع: الطاقة، وقوله: «فاقصد بذرعك» أي ارفق بنفسك. (انظر: الزمخشري: الأساس: (ذرع)).

(٢) ديوانه: (٣٣٤/٥٥) = (ط. TÜREK: ١٣٦/٥٥).

(☆٢) النازي: الواثب. وقوله: «النازي ببطنته»، أي المتبطر المغتر، يقال: «نزت به البطنة: أي أبطره الغنى»: (الزمخشري: الأساس: (بطن)). والقرينان: البعيران يشدان بحبل واحد، وهذا مثل للعرب، يضرب للجالب الحَيْن على نفسه، وأصله: أن يقرن بعيران بحبل، فيأتي بعير آخر ليس بمقرون فيعبث بهما، فينشب معهما في القَرَن، فلا يقدر أن يتخلص، فلا يأكل ولا يشرب إلا إذا أكل البعيران، حتى يخلّصه الراعي. (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ١٢٧)، و(القرشي: ٢/ ٨٦٤)، و(الزمخشري: المستقصى: ٢/ ١٧). يتهدد خديجاً ويحذره من التدخل بينه وبين أخيه.

ابن مقبل»، في هجائه السابق (بني العجلان)[1].

ولكنه يلاحظ في نقيضة ابن مقبل في صِفِّين تغزله بـ(دهماء) في جزء كبير منها، فهل يُعَدُّ ذلك مؤكِّداً على وجود علاقة بين موقفه مع النجاشي وهذه المرأة؟ . . ربما. إلا أن هناك سبباً يبدو أقوى من هذا السبب الاحتمالي، وذلك أنه كان لكل من الرجلين انتماؤه المختلف عن الآخر؛ فابن مقبل (قيسي) والنجاشي (يماني)، وخلاف هذين القبيلين قديم معروف، وكانت المناوشات، بين (بني الحارث بن كعب)، و(بني عامر) خاصة، قائمة منذ الجاهلية، وذلك في الغارات التي كان يشنها (عبد المدان) وابنه (يزيد) في جماعة بني الحارث على بني عامر، وكانت بينهما في الجاهلية أيام، منها على سبيل المثال: يوم (فيف الريح) وغيره[2].

أما بعد فتنة (عثمان رضي الله عنه - ٣٥هـ = ٦٥٦م) فإن هناك أمراً آخر يبدو سبب اختلافهما الأقوى، وهو أن كل واحد منهما كان ينتسب إلى حزب سياسي إسلامي يحارب الحزب الآخر، فبينما كان ابن مقبل عثمانيّاً أمويّاً[3]، كان النجاشي علويّاً هاشميّاً[4].

ب - ٢ - ٢ - ابن مقبل والأعور بن براء:

ومن أخبار (ابن مقبل) خبره مع (الأعور بن براء)[☆]، ونص الخبر كما

(١) انظر شعره: النعيمي (مجلة المجمع العلمي العراقي: م١٣: ص ٩٥-١٢٧)، والسوهي: ٢/٥٨٩-٦٢٣.
(٢) انظر: الأصفهاني: الأغاني: ١٢/١٦-١٩، وابن الأثير: الكامل: ١/٣٨٧).
(٣) انظر: ب - ٢ - ٤.
(٤) انظر: المنقري: ٥٨، ٣٧٢-٣٧٣، ٤٥٣-٤٥٤، ٥٢٤-٥٢٦ وغيرها، وابن الشجري: ٣٣-٣٤.
(☆) الأعور بن براء: من بني عبدالله بن كلاب، وسماه (الأخفش: الاختيارين: ١٨٣): «الأعور بن يزيد الكلابي»، وذهب محققه إلى احتمال التصحيف في اسم أبيه. وهو عبد، من شعراء بني أمية، وكان يناوئ الشيعة، له قصة مهاجاة فاحشة مع شاعرة عبدة اسمها: (أم زاجر). (انظر: البكري: ما استعجم: ١١٣٥)، و(ابن السيرافي: ١/٢٦٣-٢٦٥)، و(الأسود: فرحة الأديب: ٦٥-٦٧).

أورده (النهشلي)[1][☆]:

« وكان الأعور بن براء يهجو بني كعب بن ربيعة، فأتت بنو كعب تميم بن مقبل، فقالوا: ألا ترى ما يصنع الأعور بقومك؟ فقال: ما تشاءون؟ قالوا: نشاء أن تهجو بني فلان. قال: انصرفوا، فإذا أتاكم الشعر فارووا، واندفع وهو يقول:

[و] لستُ وإنْ شاحنتُ بعض عشيرتي ... لأذكر ما الكهلُ الكلابي ذاكرُ[☆٢]
فكم لي من أمٍّ لعبتُ بثديها ... كلابية عادتْ عليها الأواصرُ

فسمعت بذلك بنو كعب، فشتموه. وسمعت بنو كلاب، فركبوا إلى الأعور فنهوه عن بني كعب، وقالوا له: العجلاني خير منك؛ أتوه (بنو كعب) يأمرونه بهجاء بني كلاب فمدح بني كلاب. فقال الأعور[☆٣]:

[و] لستُ بشاتمٍ كعباً ولكن ... على كعبٍ وشاعرها السلامُ
ولستُ ببائعٍ قوماً بقومٍ ... هم الأنف المقدم والسنامُ

(١) ٣٥٠-٣٥١.

(☆) والخبر والأبيات ذكرها (ابن رشيق: ١/١٠٧-١٠٨) أيضاً، ولم يردا معاً عند غير هذين وقد وقع في خبر ابن رشيق اضطراب، نبه محقق كتاب (النهشلي) عليه، وأنحى باللائمة على الباحثين والدارسين - ومنهم (عزة حسن): محقق ديوان ابن مقبل - لاعتمادهم على نص ابن رشيق مع غموضه واضطرابه، دون ملاحظة ذلك. ونص ابن رشيق هو: «... وحدثنا أبو عبدالله محمد بن جعفر، قال: هجا الأعور بن براء بني كعب، ومدح قومه بني كلاب، فأتت بنو كعب تميم بن أبي [بن]مقبل يتنصرون عليه به، فقال: لا أهجوهم، ولكني أقول فارووا فقد جاءكم الشعر، وقال: ولست وإن شاحنت...[البيتين] فأتت الأعور بن براء بنو كعب فعنفوه ورجموا عليه، فقال: ولست بشاتم كعباً... [الأبيات الثلاثة]. فسالما، وكان سبب ذلك إغضاء ابن مقبل، وأعطاؤه المقادة هرباً من الهجاء، وقوم يرون ذلك منه أنفة». و(أبو عبدالله محمد بن جعفر)، الذي روى عنه ابن رشيق، هو: أبو عبدالله محمد بن جعفر التميمي القزاز، من أهل القيروان (٣٤٢-٤١٢هـ = ٩٥٣-١٠٢١م). (انظر: الزركلي: ٦/٧١-٧٢).

(☆٢) الواو في «ولست» من أول بيتي ابن مقبل وأبيات الأعور ساقطة من نص النهشلي، وهذه علة نادرة شاذة في الشعر العربي، تسمّى في علم العروض: (الخَرْم، أو الثَّلْم). (انظر: محمود مصطفى: أهدى سبيل: ٣٣-٣٤).

(☆٣) ذكر (الأخفش: الاختيارين: ١٨٣) هذه الأبيات مع بعض الاختلاف والزيادة في خمسة أبيات منسوبة للأعور بن يزيد الكلابي - كما تقدم آنفا - والأبيات هي:

«١- أضاء الصبح، في يمن وشام ... لذي عينين، وانقطع الكلامُ
٢- وقال الناس: إن بني كلاب ... هم الرأس المقدم، والسنامُ
٣- فلست بشاتم كعباً، ولكن ... على كعبٍ وشاعرها السلامُ
٤- فكانن في القبائل من قبيل ... أخوهم فوقهم، وهم كرامُ
٥- بناها الله فوق بني أبينا ... كما يبنى على الثبج السنامُ».

وكائن في المعاشر من قبيلٍ أخوهم فوقهم وهم كرامُ

ولم يقل الأعور بعدها شيئاً».

ولهذا الخبر دلالته على شخصية (ابن مقبل)؛ فهو قد آثر التعقّل على المشاحنة والتهاجي، وذلك حلم منه وفضل، وبخاصة أن (الأعور الكلابي) من (بني كلاب)، وهم بنو عمه وعم (بني كعب)[☆] قومه. ولا يُحْمَل إغضاؤه هذا على عجزه عن مجاراة الأعور في التهاجي، بل على حفاظه على القرابة وأواصر الرحم والأصل الواحد للقبيلتين، وإلا لتعرّض له، ولَثَلَب قومه، مثلما فعل مع (النجاشي الحارثي)، أو (الأخطل التغلبي) - كما سيأتي بعد سطور - ولكنه لم يفعل، على أنه قد عرف عنه تحاشيه للتهاجي والمناقضات عموماً، وهناك من عَدَّ ذلك منه عقلاً وحزماً وضرباً من أنفة السادات[1].

ب - ٢ - ٣ - مع عَصَر العُقَيلي وابنتيه :

وقد تقدم تفصيل هذا الخبر : (راجع : ب - ١) .

ب - ٢ - ٤ - عثمانيته :

روى (ابن شبة)[2] أن الشاعر قدم «المدينة وقد اشتد الطعن على عثمان رضي الله عنه، فسمعهم يذكرون أن علياً رضي الله عنه رأس ذلك الطعن، فدخل يوماً على عثمان رضي الله عنه، وعلي رضي الله عنه إلى جانبه متكئ على وسادة - وهو لا يعرف علياً - فسأل عن المتكئ، فأخبر أنه علي، فقال حين رجع إلى بلاده[3]:

(☆) بنو كلاب: هم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، وبنو كعب: هم بنو كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

(١) انظر: ابن رشيق: ١/١٠٧-١٠٨، ٢/١٦٧-١٦٨ .

(٢) ٣/١٠٤٩ .

(٣) البيتان مع بيتين آخرين مما أخل به ديوانه بطبعتيه. انظر: المستدرك: ملحق بالدراسة: نموذج ٤، و: ب١ ف٢: د-١ .

خرجنا وغادرنا ابن عفان مدنفاً   من السيف لا يسلك (إلى) السيف ضاربُهْ
وذو دائه مُسْتَحْجِنٌ بوساده   إذا شاء غاداه وغابتْ طبائبُهْ».

وتمدّح في شعره بقتل رجل اسمه (كليب) فقال[1][☆]:

دعاني كُليبٌ بالمدينة دعوةً   وأفناء قيسٍ شاهدون وخِنْدِفُ
فكان جوابي أنْ حَزَزْتُ أخاهم   جهاراً، وأنيابي من الحرب تَصْرِفُ
جَزيتُ ابن أروى بالمدينة قَرْضَهُ   وقلتُ لشُفّاع المدينة: أَوْجِفوا

و(ابن أروى): هو (عثمان رضي الله عنه) على الأرجح، مما يدل على مشاركة الشاعر الفعلية في فتنة عثمان وما بعدها[2].

ومما يؤكّد عثمانيته أيضاً قصيدته في رثاء عثمان (-٣٥هـ = ٦٥٦م)، ففيها صدق في العاطفة، وحنق على قاتليه، وتهديد ووعيد، ومنها[3][☆٢]:

ليَبْكِ بنو عثمان، مادام جِذْمُهم   عليه بأصلالٍ، تُعَرَّى وتُخْشَبُ
ليبكوا على خير البَرِيَّةِ كلها   تَخَوَّنَهُ رَيْبٌ من الدهر مُعْطِبُ

ثم يقف في صف الأمويين في وقعة (صِفِّين: ٣٧هـ = ٦٥٧م)، من خلال

---

(١) ديوانه: (١٩٦-١٩٧/ ٣٤-٣٥، ٣٩) = (ط. TÜREK: ٨١/ ٣٤-٣٥، ٣٩).

(☆) أفناء قيس: أحياء قيس عيلان، وخندف: أي قبائل خندف، وهم: بنو (الياس بن مضر)، وهم ثلاثة أفخاذ: مدركة، وطابخة، وقمعة. وسُمّوا خندفاً لأن أمهم اسمها: (خندف بنت حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة) فعُرف بنوها باسمها. (انظر: كحّالة: ١/ ٤٠). حززت: قطعت، أي أنه قتله. تصرف: تصوّت، وصرف الإنسان والبعير نابه وبنابه: حرّقه فسمعت له صوتاً، ويكون من الإنسان للغضب. (انظر. ابن منظور: (صرف)). شفاع: جمع شافع، وشفع عليّ بالعداوة، أي أعان عليّ وضارّني، ويكون أيضاً في الشفاعة الحسنة لطلب الخير للمشفوع له. (انظر: الفيروز آبادي: القاموس المحيط: (الشفع))، والبيت يحتمل كلا المعنيين.

(٢) انظر: الشنتمري: تحصيل عين الذهب: ٢/ ٣٠٢.

(٣) ديوانه: (١٣/ ٧-٨) = (ط. TÜREK: ٦/ ٧-٨).

(☆٢) جذمهم: أصلهم. تخشب: تطبع، وقيل: تصقل. (انظر: ابن منظور: (خشب)). ولو لا عصبيته لعثمان لما جعله «خير البرية كلها».

نقيضته لقصيدة (النجاشي) في تلك الوقعة[1]. ويورد (المعري)[2] إشارة مؤكّدة لعثمانيته ومعاداته للعلويين، إذ يقول عن حسابه الشديد: «وقيل لي: كنتَ في مَنْ قاتل (علي بن أبي طالب)».

ب - ٢ - ٥ - مرج راهط :

وكانت (قيس عيلان) على طاعة (ابن الزبير)، مخالفة (لمروان بن الحكم)، وآله، وقد حاربت مع (الضحّاك بن قيس) في يوم (مرج راهط)، سنة (٦٥ أو ٦٤هـ = ٦٨٤م)، فقُتلت منها مقتلة عظيمة، وكان من القتلى (همّام بن قبيصة العامري)[3]، فرثاه (ابن مقبل) بقصيدة مطلعها[4]:

يا جَدْعَ أَنْفِ قيس بعد همّام بعد المُذَبِّبِ عن أحسابها الحامي[5]

ب - ٢ - ٦ - ابن مقبل والأخطل :

وكانت بين ابن مقبل والأخطل مهاجاة، ضم ديوانه منها نقيضة وقصيدتين، ولعل السبب الرئيس فيها تلك الأيام التي كانت بين (قيس) و(تغلب)، وأغلبها في الإسلام، كيوم (ماكسين: ٧٠هـ = ٦٨٩-٦٩٠م) وغيره، وسيأتي الكلام على هذا التهاجي وتلك الأيام[☆].

---

(١) راجع: ب - ٢ - ١ .

(٢) رسالة الغفران: ٢٤٧ .

(٣) انظر: تاريخ الطبري: ٥/ ٥٣٥ فما بعدها، وابن الأثير: الكامل: ٣/ ٣٢٨ فما بعدها، وأبا تمام: النقائض: ١٥ فما بعدها، والأصفهاني: الأغاني: ١٩/ ١٣٩ فما بعدها.

(٤) ديوانه: (ط. TÜREK: الملحق: ١٥٣/ ١١١).

(٥) انظر: ابن الكلبي: الجمهرة: ٣٧٥، والبلاذري: ٥/ ١٢٦، والعسقلاني: ٥/ ٥٢٤ .

(☆) انظر: ديوانه: (١٠٧-١١٢/ ١-٢٦) = (ط. TÜREK: ٤١-٤٤/ ١-٢٦)، (٣١٢-٣١٤/ ١-١٨) = (ط. TÜREK: ١٢٦-١٢٨/ ١-١٨)، وذيل ديوانه: (٤١٤-٤١٥/ ١-٤) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٦٠/ ١٥٣-١٥٦)، و(المستدرك: في نهاية الدراسة : نموذج ٢٨). وفي (أبي تمام: النقائض: ٢٨-٣٨) قصيدة هجا الأخطل فيها قيساً بصفة عامة، وتعرض فيها (لبني العجلان)، غير أنه لم يصرح بذكر (ابن مقبل)، ويبدو أن ما نشأ بين هذين الشاعرين من التهاجي، لم يكن بسبب شخصيٍ بينهما، بل كان بسبب الأيام بين قيس وتغلب، وكان أغلبها =

ب - ٢ - ٧ - شعراء هوازن وليلى الأخيلية :

ويشير (المرزباني)[(١)(☆)] إشارة عجلى إلى حكومة جمعت شعراء هوازن، وهم: (النابغة الجعدي - نحو ٥٠هـ = ٦٧٠م)، و(حميد بن ثور الهلالي - نحو ٣٠هـ؟ = ٦٥٠م)، و(تميم بن أُبَيّ بن مقبل - نحو ٧٠هـ = ٦٨٩-٦٩٠م)[(٢)]، و(العجير السلولي - نحو ٩٠هـ = ٧٠٨م)، و(ليلى الأخيلية - نحو ٨٠هـ = ٧٠٠م)، فقدّمت عليهم عجيراً[(٣)]. ويستنتج أن ذلك كان قبل : (٣٠هـ = ٦٥٠م) .

ب - ٢ - ٨ - ابن مقبل وليلى الأخيلية :

وكان من نتائج حكومة (ليلى) الآنفة، وتقديمها عجيراً، أن هجاها (حميد ابن ثور)[(٤)]. ولعل ابن مقبل قد فعل ذلك أيضاً، فقد سجل ديوان (توبة بن الحمير)[(☆٢)] بيتاً لليلى موجّهاً لابن مقبل، هو[(٥)]:

دعاك فلا من أنفس القوم أنتمُ ... ولا نَسَبٌ من قيس عيلان يعرفُ[(٦)]

= في الإسلام. (انظر: ب١ ف٢: د-٤). ويرغم قلة أخبار ابن مقبل بوجه عام، فلعل ما تقدم يفسر عدم العثور على أخبار له مع الأخطل، إذ لم تكن له مع الأخطل أخبار شخصية أصلاً، أو لم تكن من الأهمية بحيث يعبأ بها الرواة والإخباريون، وقد يُستثنى من هذا ما يوحي به خبر ساقه (ثعلب: ٩/ ٤١٣) فحواه أن (عبد الملك بن مروان) سأل الأخطل عن أيّ الناس أشعر؟، فأجاب: بأنه ابن مقبل، ثم جاء في الخبر: «فقال ابن مقبل: إني لأرسل البيوت عوجاً فتأتي الرواة بها قد أقامتها»، فهل يفهم من هذا أن ابن مقبل كان حاضراً في أثناء الحوار بين عبد الملك والأخطل، كما يستشف من السياق؟. ليس هناك ما يوضح هذه النقطة. وحتى لو كان ذلك، فليس في خبر ثعلب هذا ما يدل على سبب شخصي لتهاجي هذين الشاعرين. (انظر نص الخبر بتمامه: ب٥ ف١ : أ-٥) .

(١) انظر: أشعار النساء: ٢٥-٢٦ .

(☆) نقل (الأصفهاني: الأغاني: ٨/ ٢٦٠-٢٦١) الخبر مختلفاً عما في (المرزباني)، ولم يذكر ابن مقبل .

(٢) انظر : ب - ٤ .

(٣) راجع ترجمة: النابغة، وحميد، والعجير، وليلى: ب - ١ .

(٤) انظر: ديوانه: ٦٢ .

(☆٢) توبة بن الحمير بن حزم بن كعب بن خفاجة العُقَيلي العامري، له قصة حب مع ليلى الأخيلية، (-٨٥هـ = ٧٠٤م) (انظر: الزركلي: ٢/ ٨٩-٩٠) .

(٥) انظر: ليلى الأخيلية: الديوان : ٨٩ .

(٦) انظر: ثانياً : ج - ٢ .

ب - ٢ - ٩ - ابن مقبل وعوف بن مالك :

قال في شعره[١] :

أَحَقّاً أتاني أنَّ عوف بن مالكٍ ... ببطن رَمَى يُهدي إليّ القوافيا[☆]

والبيت من قصيدة يتهدّد فيها شاعراً هجاه إن لم يكفّ عنه، وكأنه يقصد (عوف بن مالك) هذا، الذي لم يذكره في غير هذا الموضع، ولم يتضح من أمره في ما عداه شيء .

ب - ٣ - صفاته :

درج بعض القدماء[٢] على وصف (ابن مقبل)، كلما عرّفوا به، بالجفاء في الدِّين، ثم نقل ذلك الوصف عنهم من جاء بعدهم[٣] .

وللشاعر بيتان في ذكر الجاهلية والحنين إليها، ينشدونها عند وصفهم له بهذا الجفاء. قال (الجمحي)[٤] في طبقاته :

«وكان (ابن مقبل) جافياً في الدين، وكان في الإسلام يبكي أهلَ الجاهلية ويذكرها، فقيل له: تبكي أهل الجاهلية وأنت مسلم؟!، فقال[٥] :

ومالِيَ لا أبكي الدِّيار وأهلَها ... وقد زارها زوارُ عَكٍّ وحِمْيَرا

وجاء قطا الأجباب من كل جانبٍ ... فوَقَّع في أعطاننا ثم طَيَّرا».

---

(١) ذيل ديوانه: (١٤/٤١٢) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٦٥/١٦١) .

(☆) رمى : واد في أرض بني عامر، يُصرف ولا يصرف. (انظر: الحموي: البلدان: (رما))، و(ابن منظور: (رمي)). وفي (الحموي: (م.ن) و(بين رما)): «عوف بن عامر». وفي (م.ن: المشترك: ٨٠): «دماء مكان «رمى»، ولعله تصحيف.

(٢) انظر: الجمحي: ١٥٠، وابن رشيق: ١/٣٠٥ .

(٣) انظر: الصفدي: (المخطوط): الورقة: ٣٤/ب، والوافي: ١٠/٤١٦ .

(٤) ١٥٠ .

(٥) ديوانه: (٤٩/١٤١) = (ط. TÜREK: ٤٩/٥٧)، و(١٣/١٣٢) = (ط. TÜREK: ١٣/٥٣).

وذهب (ابن رشيق)[1] إلى أن الشاعر كان يكنّي ويمثّل في هذا عمّا أحدثه الإسلام .

ولئن صح حنين (ابن مقبل) للجاهلية، فلعل وصفه بالجفاء في الدين ينطوي على بعض المبالغة، مع الأخذ بأن (الجمحي) ربما بلغه من أمر الشاعر ما جعله يحكم بجفائه في الدّين وإن لم يذكره، غير أن ما استشهد به من شعره - وتابعه فيه المتأخرون عنه - يشير إلى أنه قد اتخذ من هذا الشعر مؤيّداً لما ذهب إليه من جفاء الشاعر في الدين. كما اتجه غيره إلى التحليل ليستنتج أن الشاعر إنما كان يكنّي ويمثّل عمّا أحدثه الإسلام[2] .

ثم أتى من بعد أولئك مَن ربط جفاءه في الدين بقضية تفريق الإسلام بينه وبين (دهماء)، وإنفاقه زهرة شبابه وعمره في الجاهلية[3] .

والحق أن التفريق بينه وبين دهماء عامل فعّال في ذلك الحنين إلى الجاهلية، وقد سبقت الإشارة إلى أن الشاعر ما فتئ يذكر دهماء حتى آخر حياته. وقضاؤه زهرة الشباب في الجاهلية عامل آخر لايقل عن سابقه. ولكن أيعد الحنين - في حد ذاته - دليلاً على الجفاء في الدين؟!.

إنه لمن الطبيعي أن يحنّ المرء إلى شبابه وعمره الزاهي، بل إن المرء ليحنّ إلى ذلك الماضي - أحياناً - وإن كان الحاضر خيراً منه وأجمل، وليس (ابن مقبل) بِدْعاً بين الشعراء المسلمين في ذكره الجاهلية والبكاء على أيامها . وإذا كان منهم من تحرّج من ذلك في أيام الإسلام الأولى فإن منهم من ذكره فيما بعد، وبخاصة

---

(١) انظر: ١/٣٠٥.
(٢) انظر: م. ن.
(٣) انظر: عزة حسن: ١١-١٤، وجواد علي: ٩/٨٩٠ .

في عهد بني أمية – الذي أدركه ابن مقبل[١] – وما البكاء على أطلال الديار سوى نمط من ذلك الحنين .

أما عشق الشاعر (دهماءَ) وتغنيه بذكرياته معها، برغم تفريق الإسلام بينهما، فليس بالدليل، وبخاصة أنه نشأ نشأة الأعرابيِّ المنطلق، ثم كبر على ذلك، وظل بعد إسلامه على أعرابيته؛ حتى إنه لم يُعرف عنه اتصال بحواضر الإسلام إذ ذاك[☆] . هذا إلى كونه ينطق بلسان شاعر، وليس كل ما يقوله وثيقة للحكم على شخصيته وسيرته .

ولو سُلِّم جدلاً بالاعتماد على شعره في الحكم بجفائه في الدين، فهو لم يصرّح بما يعتمد عليه في هذا الحكم. وإذا قيل بأنه إنما كَنَّى لأنه لا يستطيع التصريح في بيئة إسلامية، اقتضى الأمر وجود دلائل أخرى تثبت هذا القول، وذلك ما لم يأت به القدماء، والمتأخر أدنى بَعْدُ أَنْ لا يدركه[☆٢] .

ثم إن بيتيه اللذين أوردهما (الجمحي) وغيره، في معرض الحديث عن جفائه في الدِّين، قد جاءا في ديوانه بترتيب عكسيّ، فالبيت الأول عند الجمحي متأخر في الديوان عن البيت الآخر، وبينهما خمسة وثلاثون بيتا. وإذا صحّت رواية الديوان بهذا الترتيب، فإن السياق الذي ورد فيه كل واحد من هذين البيتين مهم، لا شك، في فهم مدلولهما، قال الشاعر[٢][☆٣] :

---

(١) انظر: ب – ٤ .

(☆) هذا ما يستنتج من خلال سيرته وشعره: و(انظر: عزة حسن: ٩)، و(ابن رشيق: ٢/ ١٥٢)، و(الباب الثاني والرابع) من هذا البحث.

(☆٢) على أن ارتباط زواجه بدهماء بعادة المجوس في الزواج بامرأة الأب، واستمراره في ذكرها بعد الإسلام، يمكن أن يكون من أسباب اتهامه بالجفاء في الدين. (راجع: ب – ١) .

(٢) ديوانه: (١٣٢-١٣٣/ ١١-١٤) = (ط. TÜREK: ٥٣/ ١١-١٤).

(☆٣) أجدِّي: أي أمن الجدّ؟. والركاء: وادٍ لبني العجلان. (انظر: الحموي: البلدان: (الركاء)). والموالي: جمع مولى، وهو: ابن العم، والناصر، والجار، وأيضاً المُعْتِق والمُعْتَق، (انظر: الجوهري: (ولي))، ويعني هنا أهله. وكائن: بمعنى كم في الخبر، ويراد بها التكثير. (انظر: م.ن: (كين)). تنكّر: أي أصبح منكراً ولم يعد معروفا. أتاه قطا –

أَجِدِّي [أرى] هذا الزمان تَغَيَّرَا ... وبطن الرُّكاء من مَوالِيَّ أَقْفَرا
وكائنْ ترى من منهلٍ باد أهله ... وعِيْدَ على معروفه، فتَنَكَّرا
أتاه قطا الأَجباب من كل جانبٍ ... فنَقَّرَ في أعطانه، ثم طَيَّرَا
فإِمّا تريني قد أطاعتْ جنيبتي ... وخُيِّطَ رأسي بعدما كان أَوْفَرا

ثم يمضي في ذكر شيخوخته والبكاء على شبابه .

وتدل أبيات هذه القصيدة على أن الشاعر قالها في شيخوخته(☆)، ويظهر من سياقها أنها في بكاء الماضي زماناً ومكانا. وهذا شأن كل امرئ شاخ وإن لم يكن شاعراً، وليس بمنكر منه ذلك، على أن الشاعر في هذا أولى بعدم الإنكار عليه من غيره. ولا يُعَدُّ هذا منه جفاء لعهده الحاضر أو رغبة عنه، مالم يصرّح بما يثبت عليه ذلك. وإذا كان قد قال هذا الشعر في شيخوخته، وقد عُلِم أنه كان من المعمرين، وأنه عاش إلى نحو (٧٠هـ = ٦٩٠م)[١]، فإن القول بأنه إنما كان يعني الجاهلية ويكنّي عمّا أحدثه الإسلام - بعد هذا الدهر الذي عاشه في ظله - افتراض ينقصه الدليل، فلِمَ لا يكون ما ذكره مرتبطاً بهذه الحقبة الإسلامية نفسها؟!.

ثم إن (الجمحي) أورد البيت الثاني، من البيتين اللذين ذكرهما، برواية

= الأجباب: أي أتى المنهل المذكور في البيت السابق، والقطا: طائر معروف. والأجباب: جمع جب، البئر التي لم تطو. (انظر: الجوهري: (جبب))، وهناك الجُبُّ: ماء لبني ضبينة، ذكره (لبيد) فقال: «وبنو ضبينة واردو الأجباب». (انظر: البكري: ماستعجم: ٣٦٣). والأعطان: مبارك الإبل عند الماء. (انظر: الجوهري: (عطن)) أطاعت جنيبتي: أي ضعفتُ ولان جانبي للشيخوخة. خيط رأسي: أي جعل الشيب فيه شبه الخيوط البيض. (انظر الزمخشري: الأساس: (خيط)). أوفر: كثير .

(☆) ويقول بعدها: (١٣٣/١٥-١٦) = (ط. TÜREK: ٥٣/١٥-١٦):

وأصبحتُ شيخاً أَقْصَرَ اليوم باطلي ... وأَدْنَيْتُ رَيْعانَ الصِّبا المُتَمَوِّرا
وقَلَّمتُ قُدّامي العصا أهتدي بها ... وأصبحَ كرّي للصَّبابة أعسرا

(١) انظر: ب - ٤ .

تختلف عما في ديوان الشاعر؛ فرواية (الجمحي)[١]:

وجاء قطا الأجباب من كل جانبٍ فوَقَّعَ في أعطاننا ثم طَيَّرَا

على حين أن رواية الديوان[٢]:

أتاه قطا الأجباب من كل جانبٍ فنَقَّرَ في أعطانه ثم طَيَّرَا

فالضمير في «أتاه» و«أعطانه» عائد على «المنهل»، الذي جاء في بيته السابق. وهذه الرواية تبدو أوفق وأنسب للسياق من رواية الجمحي، على أن روايته نفسها - حتى مع صحتها - لا تدل على حقيقة جفاء في الدِّين في هذا السياق.

ولعل البيت الأول - حسب رواية الجمحي[٣] - وهو قوله[٤]:

ومالِيَ لا أبكي الدِّيار وأهلَها وقد زارها زوارُ عَكٍّ وحِمْيَرَا[☆]

لعل هذا البيت - بالذات - هو ما جعل (ابن رشيق) يذهب إلى أن الشاعر كان يكنّي عما أحدثه الإسلام؛ لأن فيه بكاء لتلك الديار التي أصبح أهل اليمن يحلّونها، أو يزورونها - على الأقل - بعد أن كانت محميّة منهم في الجاهلية[☆٢]، كما أنّ بعد البيت السابق[٥]:

فإن بني قَينان أصبحَ سَرْبُهُمْ بجَرْعاء عبسٍ آمناً أنْ يُنَفَّرا[☆٣]

---

(١) ١٥٠ .
(٢) (١٣/١٣٢) = (ط. TÜREK: ١٣/٥٣) .
(٣) انظر: م. ن.
(٤) ديوانه: (٤٩/١٤١) = (ط. TÜREK: ٤٩/٥٧).
(☆) في ديوانه: «حلها رواده». وعكّ وحمير: من قبائل اليمن.
(☆٢) فالركاء مثلاً - الذي بكاه في أبياته السالفة، وهو من وديان قبيلته - هو اليوم (لآل عليان من قحطان). (انظر: ديار بني العجلان: ثانياً: أ - ٤).
(٥) ديوانه: (٥٠/١٤١) = (ط. TÜREK: ٥٠/٥٧).
(☆٣) في (ابن ميمون (مخطوط): الورقة: ٣٧/أ): «وإنه». سربهم: أي إبلهم. (انظر: الجوهري: (سرب)). جرعاء عبس: موضع، والجرعاء: الرملة المستوية لاتنبت شيئا. (انظر: م.ن: (جرع))، وعبس: ماء بنجد في ديار أسد.

فذِكْر الشاعر «بني قينان» في هذا البيت - وهم من قوم النجاشي[1] - يشير إلى أن ما قاله مرتبط بموقفه من النجاشي وقومه وما كان بينهما من الإحن والتهاجي، لا بموقفه من الإسلام.

وما أخبر به (الجمحي): من أن الشاعر أجاب بشعره المذكور، على من استنكر عليه بكاء الجاهلية، يدل على أنه ما كان يجد في نفسه غضاضة من هذا الشعر، ممّا يؤكد طبيعته البدوية الفطرية، التي لم تتثقّف بثقافة الحاضرة؛ بل هو يمضي على سجيته في التعبير دون تهذيب أو تشذيب، ومحاكمة تعبير البدويّ إلى ما يدركه الحضريّ يفضي إلى عدم الدقة في الحكم عليه .

ومهما يكن من أمر فإن نفي هذا الوصف عنه لا يقل صعوبة عن إثباته عليه؛ وذلك لقلة المعلومات التي وصلتنا عن حياته، وحتى لو صح اتخاذ شعره الإسلامي حَكَماً في هذه القضية، فإن الباحث لايجد فيه ما يمكن الاعتماد عليه اعتماداً جازماً في هذا الشأن[☆] .

أما صفاته الأخرى فلا يتبين مما جاء عنه شيء منها، سوى أنه قد ظل أعرابيّاً في الإسلام كما كان في الجاهلية[2]، وأوضحُ ما يدل على ذلك لغته

= (انظر: الحموي: البلدان: (عبس)). وهناك في غير هذا التحديد منهل يقال له: (العبسة)، وموضعها بين صفراء السرّ وبين عرض ابني شمام، وهو منهل ترده الأعراب، معروف عند جميع أهل نجد: (انظر: ابن بليهد. صحيح الأخبار: ٤/ ٢١٢).

(١) انظر: ابن قتيبة: المعارف: ١٠٧ .

(☆) قال (المعري: ٢٤٧) على لسان ابن مقبل: «والله ما دخلتُ من باب الفردوس ومعي كلمة من الشعر ولا الرجز؛ وذلك أني حُوسبتُ حساباً شديداً، وقيل لي: كنتَ في من قاتل (علي بن أبي طالب)». وفي هذا الكلام إشارة غير مباشرة إلى أنه قد تكون لموقفه من علي علاقة ما باتهامه بالجفاء في الدِّين. هذا بالإضافة إلى ما قيل من بقاء تخبيه (بدهماء)، برغم تفريق الإسلام بينهما؛ لكونها امرأة أبيه، تزوجها في الجاهلية، حسب الدِّين المجوسي، وقد سبق مناقشة ذلك. وكذلك ما اشتهر به من وصف للميسر مما سيأتي تفصيله. إلا أنّ هذه جميعها ليست - في الحقيقة - بمبررات كافية لإلقاء تهمة الجفاء في الدين عليه، وإلا لألقيت على غيره ممن كانت سهم مثل تلك المواقف. وكل ما يمكن قوله إن أخباره وشعره الإسلامي لا يبنئان عن قوة إيمان، تشبه ما عند بعض شعراء الصدر الأول للإسلام. ولهذا حديث آخر. (انظر: ب - مكانته من الإسلام).

(٢) انظر: ابن رشيق: ٢/ ١٥٢. وقد وصفه بجفاء الأعرابية، كما وصفه من قبل: بجفاء الدِّين. انظر: ٢/ ١٥٢ .

الشعرية التي تنتظم ديوانه بإيقاعٍ بدويّ جاهليّ لايكاد يحيد عنه، وكذلك ما يحفل به ذلك الشعر من أشكال البيئة البدوية وألوانها[(١)].

وقد مرّ أنه قد وُصف بالعقل والحزم والأنفة والسيادة. حتى عُلّل اجتنابه للجاجة التهاجي، بالتنزّه عنه والأنفة منه، مثلما فعل مع (الأعور بن براء الكلابي). وقال (ابن رشيق)[(٢)]: «كان العقلاء من الشعراء وذوو الحزم يتوعّدون بالهجاء، ويحذّرون من سوء الأحدوثة، ولا يمضون القول إلا لضرورة لايحسن السكوت معها»، واستشهد بقول (ابن مقبل)[(٣)(☆)]:

بني عامرٍ، ما تأمرون بشاعرٍ ... تَخَيَّرَ بابات الكتاب هِجائيا؟
أأعفو كما يعفو الكريمُ، فإنني ... أرى الشَّغْبَ فيما بيننا مُتَمادِيا
أم اغْمِضُ بين الجِلْدِ واللحم غَمْضَةً ... بمِبْرَدِ رُومِيٍّ يَقُطُّ النَّواصيا
فأمّا سُراقاتُ الهجاء فإنها ... كلامٌ تَهاداه اللئامُ تهاديا

وكان مديحه أقل من هجائه. وقد علل (عزة حسن)[(٤)] ذلك بعدم اتصاله

(١) انظر: الباب الثاني والباب الرابع.
(٢) ٢/١٦٧-١٦٨.
(٣) ذيل ديوانه: (٤١٠-٤١١/٨-١١) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٦١/١٦٦-١٦٩).
(☆) بابات الكتاب: سطوره، وقيل: وجوهه وطرقه، جمع بابة، وفي (تهذيب الأزهري: ١٥/ ٦١٢): «قال يعقوب بن السكيت وغيره: البابة عند العرب: الوجه الذي أريده ويصلح لي. وقال أبو العميثل: البابة: الخَصْلة. وقيل: بابات الكتاب: سطوره؛ بابة، وبابات، وأبواب، وأنشد لتميم بن مقبل: تخيّرَ بابات الكتاب هجائيا قال معناه: تخيّر هجائي من وجوه الكتاب». وفي (الجاحظ: الحيوان: ٧/ ١١٢)، و(ابن رشيق: ٢/ ١٦٧): «أيات الكتاب». ولعل معنى شطره الأخير - حسب رواية «بابات» - تخير هجائي بسطور مكتوبة، أمّا على رواية: «أيات»: فمن المحتمل أن البيت قيل في الإسلام، وأن الكتاب المقصود هنا هو القرآن الكريم، فكأن من هجاه قد هجاه بأمر ورد في القرآن ذمه، فأورد في هجائه له معنى أيات قرآنية في ذلك، كأن يكون مثلاً بزواج المقت الذي كان عليه في الجاهلية الشغب: تهييج الشر. (انظر: الجوهري: (شغب)). أغمض غمضة: أي أطعن طعنة. بمبرد رومي: أي بلسان يشبه في قوته ومضائه المبرد الرومي، أو أنه يتهدد من هجاه بقتاله حقيقة. يقطّ: يقطع. والنواصي جمع ناصية، وهي منبت الشعر في مقدم الرأس، ونواصي القوم: مجمع أشرافهم. (انظر: ابن منظور: (نصا)). أي بسلاح يقطع الرؤوس. سراقات: جمع سُراقة، وهي ما سرق. (انظر: الزمخشري: الأساس، وابن منظور: (سرق)).
(٤) انظر: ١٩.

بالرؤساء والأمراء في عصره، وذهب إلى احتمال كونه ميسورا. ولكن في سيرته وشعره بعض إشارات إلى اتصالاته بالرؤساء والأمراء[1]. وليس هناك ما يدل على أنه عاش ميسوراً، بل سيرته وشعره يشيران إلى عكس ذلك[☆]. على أن أقرب الأسباب لقلة مديحه هو نفسه السبب في قلة هجائه، أي ما اتصف به من الأنفة وعزة النفس.

وإذا جاز استخلاص بعض القيم الأخلاقية الاجتماعية من شعره، فقد كان - كغيره من الشعراء - يصف نفسه بالكرم، والحلم، والشجاعة، وغيرها من الشيم التي كان العربي يفتخر بها، ويردّدها تقليداً متعارفاً، لا فردية فيه بالضرورة، فيقول مثلا[2]:

... أنّي أُقَيِّدُ بالمَأثور راحلتي ... ولا أُبالي ولو كنا على سَفَرِ[☆2]

ويقول[3][☆3]:

فأَخلفْ وأَتلفْ إنما المالُ عارةٌ ... وكُلْهُ مع الدهر الذي هُوَ آكِلُهْ

[وأهونُ مَفْقودٍ وأيسرُ هالكٍ ... على الحَيِّ من لا يبلغُ الحَيَّ نائلُهْ]

ويقول[4]:

---

(1) انظر مثلاً: (١٠/٨-١١، و٢٩٩-٣٠٠/٤٤-٤٦) = (ط. TÜREK: ٥/٨-١١، و١٢١/٤٤-٤٦).

(☆) انظر: قوله مثلاً - (٢٤/٩) = (ط. TÜREK: ١١/٩) -:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما ... أموت، وأخرى أبتغي العيش أكدحُ

(2) ديوانه: (٧٨/١٩) = (ط. TÜREK: ٣٢/١٩).

(☆2) المأثور: السيف الذي في متنه أثر، وقيل: هو الذي يعمله الجن، وليس من الأثر الذي هو الفرند، وقيل: هو منه وأقيد: أي أذبح. «يقول: لا أبالي أن أرحل بعد أن أعقر ناقتي لأصحابي»: (ابن قتيبة: المعاني ١٠٧٩)، و(انظر ابن رشيق: ٢٧٨/١-٢٧٩)، و(ابن منظور: (أثر)).

(3) ديوانه: (٢٤٣-٢٤٤/٢٤-٢٥) = (ط. TÜREK: ٩٩/٢٣-٢٤).

(☆3) «عارة: أي معارة»: (المبرد: الكامل: ٦٦٣).

(4) ديوانه: (٨٠/٢٤) = (ط. TÜREK: ٣٢/٢٤).

ولا أقومُ إلى المَوْلَى فأشتُمُهُ ○ ولا يُخَدِّشُهُ نابي ولا ظُفُري[☆]

ويقول[١]:

خليلَيَّ لا تَسْتَعْجِلا، وانظرا غدا ○ عسى أن يكون المُكْثُ في الأمر أرشدا

ويقول[٢][☆٢]:

نبا ما نبا عنّي من الدهر ماجداً ○ أُكـارِمُ مـن آخـيتُـهُ وأُسامِحُ
وإنّي إذا مَلَّتْ ركابي مُناخها ○ رَكِبْتُ ولم تَعْجَزْ عليَّ المَنادحُ
وإنّي إذا ضَنَّ الرَّفودُ برِفْدِهِ ○ لَمُخْتَبِطٌ من تالد المال جارِحُ

وكان شديد الانتماء إلى أصله القيسي كما يدل على ذلك شعره[٣]. مع أنه لا يكاد يذكر قبيلته (بني العجلان). والظاهر أن هذا كان بسبب ما هجاهم به (النجاشي)، وربما كان هذا الهجاء قد قيل وشاع قبل عرضه على (عمر رضي الله عنه) بزمن.

أما صفاته الخَلْقية، فلا يحكى منها إلا أنه كان أعور، قال (ابن دريد)[٤]: «وعوران قيس خمسة شعراء عور: تميم بن أُبَيّ بن مقبل، والراعي، والشماخ، وابن أحمر، وحميد بن ثور». وقد أشار إلى عوره في قوله[٥]:

(☆) المولى: ابن العم، والناصر، والجار، وأيضاً المُعْتِق والمُعْتَق. (انظر: الجوهري: (ولي)). والمعنى أنه لايناله منه أذى.

(١) ديوانه: (١٨/٦٠) = (ط. TÜREK: ١٨/٢٤).

(٢) م. ن: (١٧/٤٥-١٩) = (ط. TÜREK: ١٧/١٨-١٩).

(☆٢) المنادح: المفاوز، (انظر: الجوهري: (ندح))، أي أنه رحّال. جارح: قاطع، «ومعنى البيت: إني إذا بخل الرفود برفده فإني لا أبخل، بل أكون مختبطاً لمَنْ سألني وأعطيه من تالد مالي: أي القديم»: (ابن منظور: (خبط)). والاختباط: إعطاء المال من غير آصرة قربى. (انظر: م. ن).

(٣) انظر: ب٣ ف٢: أ - ٣ .

(٤) الجمهرة: ٢/٣٩٠. وانظر: ابن قتيبة: المعارف: ٥٨٧، والمعري: ٢٣٧، والصفدي: (المخطوط): الورقة: ٢٧/أ، والوافي: ٤١٦/١٠، والجواليقي: شرح أدب الكاتب: ٣٥٥، وابن منظور: (عور): وفيه (الأعور الشني) بدل (الراعي)، والفيروز آبادي: (العور).

(٥) ديوانه: (١٣/٧٦) = (ط. TÜREK: ١٣/٣١) .

لو لا الحياء ولو لا الدِّين عِبْتُكُما ··· ببعض ما فيكما إذ عِبْتُما عَوَري

وقيل: العَوَر في هذا البيت بمعنى العمى، حيث كُفَّ بصره في الإسلام[1].

ب - ٤ - هرمه ووفاته :

تَقَدَّم أن (ابن مقبل) عمّر طويلا. وفي شعره ما يؤكّد أنه كان يعاني في أواخر حياته من الهرم والعجز، مع أنه ذكر مرة أنه شاب من غير كبر، حتى قال (أبو هلال العسكري)[2]: إن «أول من ذكر أنه شاب من غير كبر ابن مقبل»، واستشهد بقوله[3][☆]:

ما شِبْتُ من كِبَرٍ، ولكني امرؤٌ ··· قارعتُ حَدَّ نواجذ الدهرِ
فرأيتُها عُصْلاً مُوَقَّحَةً ··· عَزَّتْ، فما تُسطاعُ بالكَسْرِ
فلذاك صِرْتُ مع الشبيبة نازلاً ··· في غير منزلتي من العُمْرِ

ولكن هذه الأبيات جاءت في مخاطبة امرأة تنكَّرت شيبه؛ وقد يكون – حين قالها – قد شاب عن كِبَرٍ، إلا أنه أراد أن يحظى لدى صاحبته فادّعى غير الحقيقة. على أنه قال في مكان آخر[4][☆٢]:

(١) انظر: الصفدي: (المخطوط): الورقة: ٢٧/أ .
(٢) ديوان المعاني: ٢/ ١٦١ .
(٣) ذيل ديوانه: (٣٦٨/٣-٥) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٤٥-١٤٦/٤٦-٤٧، ٥١).
(☆) نواجذ: جمع ناجذ، وهو آخر الأضراس، (انظر: الجوهري: (نجذ))، شبه الدهر بوحش مفترس يصارعه. عصل: جمع أعصل، وناب أعصل: بيّن العَصَل، أي معوجّ شديد. (انظر: م. ن: (عصل)). موقّحة: صلبة، والموقح من الناس الذي أصابته البلايا فصار مجرّبا. (انظر: م. ن: (وقح)).
(٤) ديوانه: (٧٤-٧٥/٧-٨) = (ط. TÜREK: ٣٠/٧-٨) .
(☆٢) النُّقَر: جمع نُقْرة، وهي الإمكان بالقرب، يقال: أنقرك الصيد أي أمكنك. راميت شيبي: استعارة، أي كان يرميني بالبياض وأرميه بالخضاب والتغيير، فكأن الشيب كان يراميني وأنا أراميه ستين سنة فلما جاوزتها أسننت فتمكّن مني ورماني. (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ١٢١٨-١٢١٩)، و(ابن منظور: (نقر)). الفالية: المرأة التي تفلي الرأس. ومثله قبله: أي من الأمراض، التي راميتها ودفعتها عني بالدواء والعلاج. (انظر: ابن قتيبة: م. ن: ١٢١٩) وربما قصد بقوله: «ومثله قبله في سالف العمر»، أنه عاش أيضاً مثل العمر المذكور في البيت الأول، وهو ستون سنة، فيكون قد =

رامِيتُ شيبي، كلانا قائمٌ حِجَجاً ستين، ثم ارتمينا أقربَ الفُقَرِ
رامِيتُهُ منذ راع الشيبُ فاليتي ومثلُهُ قبله في سالف العُمُرِ

«يريد أنه كان ينتصف من الشيب، وجعله كالرامي له ستين. أراد ستين غلوة أو ستين ذراعا. يقول: كنت زماناً أرمي من بعيد، وهذا مَثَل للقوة، يريد تراخي ما بينه وبين المشيب، فلما بلغ ستين سنة قرب منه وضعف هو، فرماه الشيب من قرب وتمكن منه. وهذا مَثَل»[1]. أي أن الشيب غزاه قبل أوانه، ثم تمكّن منه تماماً في الستين. ويقول في القصيدة نفسها مصوّراً هرمه وضعفه[2]:

في الظَّهر والرأس حتى يَسْتَمِرَّ به قَصْرُ الهِجار وفي الساقين كالفَتَرِ[☆]

وذكر (الصفدي)[3] أن (ابن مقبل) كُفَّ بصره في الإسلام، حتى إنه فسر «العَوَر» في شعره بالعمى، إذ قال:

«... والعمى يسمى عَوَراً، قال تميم [أبو حُرّة ابن] مقبل[☆٢]، وهو[☆٣] شاعر فصيح نشأ في الجاهلية، وأدرك الإسلام فأسلم، وكُفَّ بصره في الإسلام[4]:

لو لا الحياء ولو لا الدِّين عِبْتُكُما ببعض ما فيكما إذ عِبْتُما عَوَري

= عاش مئة وعشرين سنة، كما قيل من قبل، وقد يكون القدماء بنوا قولهم بتعميره إلى مئة وعشرين على فهم هذين البيتين على هذا الوجه.

(١) الاشناندانی: معاني الشعر: ٥٨-٥٩ .

(٢) ديوانه: (١٠/٧٥) = (ط. TÜREK: ١٠/٣١).

(☆) يستمر به: أي يستحكم ويشتد، يعني الشيب والعجز. (انظر: الجوهري: (مرر)). والهجار: «حبل يشد في رسغ رجل البعير، ثم يشد إلى حقوه إن كان عرياناً، فإن كان مرحولاً شد في الحقب»: (م. ن: (هجر)). وقصر الهجار: أن لا يوسع في هجاره. والفتر: الفتور. يصور عجزه عن المشي.

(٣) (المخطوط): الورقة: ٢٧/ أ .

(☆٢) ورد اسم ابن مقبل في الأصل المخطوط هكذا: «تميم بن مُرَّةَ مُقبل»، ولعلها: «تميم أبو حُرَّة ابن مقبل».

(☆٣) في الأصل: «وهو وهو»، تكرار من الناسخ، أو قد يكون: «وهُوَهُوَ» لتعظيم شأنه.

(٤) ديوانه: (١٣/٧٦، ٥/٧٤) = (ط. TÜREK: ١٣/٣١، ٥/٣٠).

قد كنتُ أهدي ولا أُهدَى فعلَّمني   حُسْنُ المَقادة أني فاتني بَصَري».

ويؤكّد عماه أيضاً قوله في موضع آخر[(١)]:

وقَدَّمْتُ قُدّامي العصا أهتدي بها   وأصبح كرّي للصَّبابة أعسرا

فإذن قد ضعفت عينه الصحيحة في الإسلام، وصار بعد عوره مكفوفا. ويصف في أحد أبياته سقوط أسنانه وثَرَمَها، فيقول[(٢)]:

هزئتْ مَيَّةُ أنْ ضاحكتُها   فرأتْ عارض عَوْدٍ قد ثَرِمْ[(☆)]

ويذكر ما علا رأسه من شيب وصلع فيقول[(٣)]:

بل ما تَذَكَّرُ من كأسٍ شربتَ بها   وقد علا الرأسَ منكَ الشَّيبُ والصَّلَعُ

أما وفاته فليس من شيء يؤكّد تاريخها على وجه الدقة، غير أنه يستدلّ مما نسبه إليه (البلاذري) من شعر في هجاء (الأخطل) يوم (ماكسين)، ونقيضته لقصيدة الأخطل في ذلك اليوم، وإشارات شعره الأخرى إليه وإلى غيره من أيام (قيس) و(تغلب): في سنة (٧٠هـ = ٦٨٩-٦٩٠م)[(٤)]، أنه كان حيّاً إلى هذا التأريخ[(☆٢)].

وإذا صح ما أخبر به بعض القدماء من أنه عمّر مئة وعشرين سنة[(٥)]، وبما أنه ليس هناك ما يشير إلى أنه عاش بعد سنة (٧٠هـ)، فلعله قد ولد إذن نحو

---

(١) ديوانه: (١٦/١٣٣) = (ط. TÜREK: ١٦/٥٣).
(٢) ذيل ديوانه: (٢/٤٠١) = (ط. TÜREK: الملحق: ١١٥/١٥٤).
(☆) قال (المعافري: ٣/٦٢٦) شارحًا هذا البيت: «يريد: سقطت ثنيته، والعود: المسن من الناس والإبل»
(٣) ديوانه: (١٣/١٧١) = (ط. TÜREK: ١٣/٧٠).
(٤) انظر: ب١ ف٢: د - ٤.
(☆٢) ووجدت (TÜREK: مقدمة ديوان ابن مقبل: ١) قد توصّل إلى مثل هذا أيضا.
(٥) راجع: ب - ٠ - سيرته.

سنة (٥٠ ق.هـ. = نحو ٥٦٩ - ٥٧٠م). أي أنه أدرك الإسلام وهو في حوالى السابعة والثلاثين من عمره تقريبا .

ويستنتج من سكوت المصادر عن وفاته أنه قد مات حتف أنفه، بعد سنه الكبيرة، ودفن في بادية قومه التي أحبها ولازمها طيلة عمره.

ثانياً - قبيلته في الجاهلية والإسلام

١ - بنو العجلان

١ - ١ - النسب :

بنو العَجْلان بن عبدالله بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعَة بن معاوية ابن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان بن مُضَر بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان[١].

واختلفت المصادر في (العجلان)، فذهب فريق إلى أنه: «العجلان بن عبدالله»[٢]، وآخر إلى أنه: «العجلان بن كعب»، وأن (عبدالله) هو (العجلان) نفسه[٣]. بل إن منها ما ذهب إلى أن (العجلان) هو (كعب بن ربيعة بن عامر)[٤].

---

(١) انظر: ابن الكلبي: الجمهرة: ٣٥٩، والجمحي: ١٤٣: (وفيه: «ربيعة بن كعب»: (غلط)، وذكره صحيحاً في: ٥٨، ٣٧٩، ٤٩٨ وغيرها)، وابن حبيب: مختلف القبائل ومؤتلفها: ٣١٦، وابن قتيبة: المعارف: ٩٠، واليعقوبي: ٣١٢/١، والقرشي: ٨٥٣/٢، والمرزباني: أشعار النساء: ١١٠، والوزير المغربي: أدب الخواص: ٧٩/١، والإيناس: ٢٢٢، والأسود الغندجاني: القُرحة: ١٧٠، وابن حزم: ٤٨٣/٢، والبكري: اللآلي: ٦٨/١، وابن ميمون (مخطوط): الورقة: ٢٨/ب: (وفيه: «كعب بن عامر»)، والحموي: البلدان: (خليقة)، (وفيه: «كعب بن ربيعة بن عُقَيْل»)، والقلقشندي: نهاية الأرب: ٦٧، والعسقلاني: ٣٧٧/١، والبغدادي: الخزانة: ٢٣١/١، والزبيدي: التاج: (عجل)، وأحمد أبا علي: ٣١١، والزركلي: ٢٢٦/٤، والميمني: السمط: ٦٨/١، وكحّالة: ٧٥٨/٢.

(٢) انظر: ابن الكلبي: الجمهرة: ٣٥٩، والجمحي: ١٤٣، وابن حبيب: المختلف: ٣١٦، وابن قتيبة: المعارف: ٩٠، واليعقوبي: ٣١٢/١، والقرشي: ٨٥٣/٢، والمرزباني: أشعار النساء: ١١٠، والوزير المغربي: أدب الخواص ٧٩/١، والإيناس: ٢٢٢، وابن حزم: ٤٨٣/٢، والبكري: اللآلي: ٦٨/١، والقلقشندي نهاية الأرب ٦٧، والزركلي: ٢٢٦/٤، وكحّالة: ٧٥٨/٢.

(٣) انظر: المرزباني: أشعار النساء: ١١٠، والأسود الغندجاني: القُرحة: ١٧٠، والحصري: ٥٤/١، وابن ميمون (مخطوط): الورقة: ٢٨/ب، والحموي: البلدان: (الخليقة)، والعسقلاني: ٣٧٧/١، والبغدادي: الخزانة: ١/ ٢٣١، وأحمد أبا علي: ٣١١، والميمني: السمط: ٦٨/١، وعزة حسن: ٥، و TÜREK: 4 .

(٤) انظر: ابن فارس: المقاييس: ٢٣٨/٤.

ولقد كان القول الثاني (أن العجلان هو عبدالله بن كعب) مقبولاً، لا سيما أن فيه بيان اسم العجلان الأصلي، لولا أن (ابن الكلبي)[1] يقول: «ووَلَدَ عبدالله بن كعب: العجلانَ...»، و(ابن قتيبة)[2] يقول: «فأمّا (عبدالله بن كعب)، فمن ولده: بنو العجلان بن عبدالله بن كعب، رهط: ابن مقبل الشاعر»، وفي (اليعقوبي)[3]: «العجلان بن عبدالله بن كعب»، و(ابن حزم)[4] في حديثه عن هذه القبيلة وأصولها وأقاربها، يقول: «ووَلَد عبدالله بن كعب: نهم، والعجلان... وأما بنو العجلان بن عبدالله بن كعب...»، وفي (القلقشندي)[5]: « هم بنو العجلان بن عبدالله بن كعب »، إلى غير هذا، مما يدل على أن (العجلان) هو ابن (عبدالله بن كعب)، لا عبدالله نفسه، أضف إلى هذا أن مَن قالوا ببنوة العجلان لعبدالله هم - غالباً - الأقدمون أزمانا.

أما القول: إن العجلان هو كعب، فلعله غلط، أو سقط من أصل العبارة.

ا - ٢ - سبب التسمية :

روى (الحصري)[6] سبب تسمية (العجلان) بهذا الاسم، وفخر بنيه به، وقصة ذلك، حيث قال:

«وكان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم، ويتشرفون بهذا الوسم؛ إذ كان عبدالله بن كعب [كذا] جدهم إنما سُمِّي العجلان لتعجيله القِرَى للضيفان،

(١) الجمهرة : ٣٥٩ .
(٢) المعارف: ٨٩ - ٩٠ .
(٣) ٣١٢/١ .
(٤) ٢٨٨/٢ .
(٥) نهاية الأرب : ٦٧ .
(٦) ٥٤/١ وانظر : أبا تمام : النقائض : ١٢٩، والنهشلي: ٣١٠، وابن رشيق: ٥٢/١، واليوسي: ٧٣، والزبيدي. التاج: (عجل) .

وذلك أن حياً من طيئ نزلوا به، فبعث إليهم بقِراهم عبداً له، وقال له: اعجل عليهم، ففعل العبد، فأعتقه لعجلته، فقال القوم: ما ينبغي أن يسمَّى إلا العجلان؛ فسمي بذلك، فكان شرفاً لهم...».

أ - ٣ - إخوة العجلان وعمومته :

للعجلان أخ اسمه: (عمرو)، وهو (نهم)، وبنوه قبيلة، فلما وفد بنو نهم على (رسول الله ﷺ) قال لهم: «من أنتم؟»، فقالوا: (بنو نهم)، فقال: إنما نهم شيطان، أنتم (بنو عبدالله)»[(١)][(☆)]. و(ابن الكلبي)[(٢)] يذكر في (بني عبدالله بن كعب): (ربيعة بن عبدالله) أيضا.

وعمومة (العجلان)، إخوة (عبدالله بن كعب)، هم: عُقَيل، وقُشَير، ومعاوية، وهو الحَرِيش، وجَعدة، وحَبيب[(٣)][(☆٢)].

أ - ٤ - ديار بني العجلان :

يتحدث (البكري)[(٤)] عمّن كان بنجد عند مجيء الإسلام، فيقول: «نزل نجداً من العرب (بنو كعب بن ربيعة بن عامر)، ودارهم (الفَلَج) وما أحاط به من البادية». ومن بني كعب هؤلاء (بنو العجلان) كما تقدم. ويذكر (الأصفهاني)[(٥)]: أن جباية بني العجلان كانت إلى (اليمامة)، وكذلك كل

---

(١) ابن الكلبي: الجمهرة: ٣٥٩. وانظر: ابن حزم: ٢/٢٨٨.

(☆) ولعله عَنَى: «أنتم بنو عبدالله بن كعب»، وهذا يرجّح ما تقدم من أن (عبدالله) هو (أبو العجلان)، لا العجلان نفسه.

(٢) انظر: م. ن.

(٣) انظر: ابن الكلبي: م. ن: ٣٣٢، وابن قتيبة: المعارف: ٨٩ - ٩٠، وابن حزم: م. ن.

(☆٢) وبنو كل أولئك الإخوة الستة قبائل. (انظر: كحّالة: ٢/٧٣٣، ٨٠١، ٣/٩٥٤، ١/٢٦٧، ١٩٤، ٢٤٠).

(٤) ما استعجم: ٩٠.

(٥) انظر: بلاد العرب: ٣٢٦.

(قيس)، خلا (بني كلاب) فإن جبايتهم كانت إلى (المدينة). و(ابن حزم)[1] يخبرنا أن بني العجلان كانوا «قبيلة ضخمة...». ومن هنا يمكن تصوّر المواطن التي كانت بها ديارهم، ويستنتج أنها كانت واسعة تبعاً لضخامة القبيلة، وذلك ما سنتبينه فيما يلي.

ومن تلك الديار ما نَصَّ القدماء على نسبته لبني العجلان، ومنها ما قد يأتي في شعر (ابن مقبل)، فلا تمكن نسبته إليهم إلا بالاستناد إلى ما جاء في كتب الديار ومعاجم البلدان؛ ولا سيما أن ديوان الشاعر زاخر بأسماء الأماكن المختلفة، والقطع بأن اسماً من تلك الأسماء لمكان في ديار بني العجلان متعذّر، ما لم يُثبِت ذلك نَصٌّ أو تدلّ عليه قرينة من شعره.

فمن ديارهم من الجبال: (بَدْوَة). قال (الحموي)[2]: «بَدْوَة: جبل بنجد لبني العجلان»، واستشهد بشعر، منه قول ابن مقبل[3]:

ألا [يا] لقومي [للديـ]ـار ببَدْوَةٍ
وأنّى مِراح المرء، والشيبُ شاملُهْ[☆]

ويذكر (ابن جنيدل)[4] أن بدوتين: هضبتان حمراوان واقعتان في هضب (الدواسر)، يقال للواحدة: (بَدْوة) قديماً وحديثا، وهما متقاربتان، إحداهما: بدوة العليا أو الغربية، والأخرى: بدوة السفلى أو الشرقية، فيهما مياه للدواسر، ودارة مشهورة، وبدوة المذكورة في البيت قريبة من (الركاء)، الذي

---

(١) انظر: ٢/٢٨٨.
(٢) البلدان: (بدوة).
(٣) ديوانه: (٥/٢٣٩) = (ط. TÜREK: ٩٧/٤).
(☆) «يا لقومي»: رواية (الحموي: م. ن)، وفي ديوانه: «يالقوم». المراح: أي المرح.
(٤) انظر: ١/٢١٣ - ٢١٦.

سيأتي بعد قليل، وبدوة تابعة لإمارة الدواسر.

ومنها: (الجَناح). قال (البكري)(١): « (جَناح) جبل قِبَل ثَهْمَد... هكذا رواها (الأصمعي) و(ابن الأعرابي)، بفتح الجيم؛ ورواها (أبو عمرو) بضم الجيم: الجُناح... قال (يعقوب): وقال ابن الأعرابي أو غيره: الجُناح: جبل في أرض بني العجلان ». قال (ابن مقبل)(٢):

أمن رَسْمِ دارٍ بالجَناح عرفتَها إذا رامها سيلُ الحَوالبِ عَرَّدا(☆)

ولم يعرف (ابن بليهد)(٣) قرب تحديد (البكري) (لجناح) سوى جُبيل صغير يقال له: (جُنيح)، واقع بين (منعج) وجبل (أسواج)، ومنعج: هي بلاد دخنة.

ومنها: (عَماية)، (بفتح أوله، وتخفيف ثانيه، وبعد الألف ياء مثناة من تحت). «قال (أبو زياد الكلابي)(☆٢): عماية جبل بنجد في بلاد (بني كعب): للحَريش، وحقّ(☆٣)، والعجلان، وقُشَيْر، وعُقَيْل»(٤). أما سبب تسميته بعماية فقيل: لأنه لا يدخل فيه شيء إلا عمي ذكره وأثره، وهو مستدير، عرضه وطوله عشرة فراسخ على الأقل، وهي هضبات حمر مجتمعة متتابعة، وفيها: الأوشال، والآوى، والنمر، وأكثر شجر عماية (البان)، ومعه شجر كثير، وفيه

---

(١) مالستعجم: ٣٩٦ - ٣٩٧ .

(٢) ديوانه: (١/٥٦) = (ط. TÜREK: ١/٢٢).

(☆) الحوالب: روافد الوادي. (انظر: ابن منظور: (حلب)). عرّد: مال عنها. (وانظر: م. ن: (عرد)).

(٣) انظر: صحيح الأخبار: ١/٦٧.

(☆٢) أبو زياد: يزيد بن عبدالله بن الحُرّ بن هَمّام بن دهر بن ربيعة بن عمرو بن نُفاثة بن عبدالله بن كلاب بن ربيعة بن عامر ابن صعصعة. أعرابي، شاعر، له: (النوادر المشهور)، و(الفروق)، (والإبل)، و(خلق الإنسان). قدم (بغداد) في أيام (المهدي) وأقام بها (٤٠ سنة). توفي نحو (٢٠٠هـ = ٨١٥م). له ترجمة في: (ابن النديم: ٦٧)، و(البغدادي: الخزانة: ٦/٤٦٦)، و(الزركلي: ٨/١٨٤).

(☆٣) لعل حقّ: قبيلة من (بني زيد)، من عبدالله، من دارم بن مالك، من تميم. (انظر: ابن دريد: الاشتقاق: ١٤٤)

(٤) الحمودي: البلدان: (عماية).

قلال لا تنقطع[(١)].

و(عمايتان): تثنية السابقة. «... قال نصر: عمايتان جبلان: عماية العُلْيا، اختلطت فيها الحَرِيش، وقُشَيْر، والعَجْلان، وعماية القُصْيا، وهي لنهم: شرقيها كله، ولباهلة: جنوبيها، وللعجلان: غربيها»[(٢)]، وقيل سميت بهذا الاسم «لأن الناس يضلون فيها يسيرون فيها مرحلتين...»[(٣)].

وعمايتان: تعرفان الآن (بالحصاتين): (حصاة آل عليان)، وهي جنوباً، و(حصاة ابن حويل) شمالاً، وهي الموصوفة بالقصيا في كلام (الحموي)، وحصاة آل عليان هي العليا. وهما جبلان كبيران أحمران، يميل لونهما إلى البُنّي، متجاوران. حصاة آل عليان: تنسب إلى (آل عليان) أمراء القبيلة التي تسكنها من (آل الجمل قحطان)، وحصاة ابن حويل: تنسب إلى (ابن حويل) أمير القبيلة التي تسكنها من (آل روق قحطان). وهما قنن ومتون متصلة، مسالكها وعرة، وفيها غابات، يضل فيها السالك. وتقعان بعالية نجد، أيمن وادي (السرة)، يحفّ بهما من الجنوب الغربي وادي (الركاء)، ويقع (يذبل) - هضبة (صبحا) حديثا - منهما شمالا شرقيًا، بينهما بطن وادي السرة، وهما واقعتان جنوب غرب (القويعية)، تابعتان لإمارتها، وتبعد (عماية العليا/ حصاة آل عليان) عنها نحو (٢٤٠ كيلا)[(٤)].

ومن هضابهم: (مَرانة)، (بفتح الميم وبعد الألف نون). قال (البكري)[(٥)]: « كذلك فسر (أبو خالد العجلاني)[(٦)] قول (ابن مقبل)[(٧)]:

(١) انظر: م. ن.
(٢،٣)م. ن.
(٤) انظر: ابن جنيدل: ١/٣٧٧ - ٣٨٥، ٣/١١٣٩.
(٥) ما استعجم: ١٢٠٨.
(٦) انظر ترجمته: د - من أعلام بني العجلان .
(٧) ديوانه: (٦/٣١٧) = (ط. TÜREK: ٦/١٢٩).

يا دار سلمى خلاءً لا أُكَلِّفُها ... إلا المَرانة حتى تَعْرِفَ الدِّينا(☆)

قال (يعقوب) عن (أبي عمرو الشيباني): أخبرني بذلك أبو خالد العجلاني من رهط ابن مقبل دِنْيَة».

وكذلك قال (أبو منصور) فيما روى عنه (الحموي)[1] في معجمه، قال: «ومما يقوّي أن المرانة اسم موضع قول (لبيد):

لِمَن طَلَلٌ تضمّنه أُثالُ ... فسرحةُ فالمَرانةُ فالخيالُ».

ومن الأودية: (أُسُن). قيل: هو واد في بلاد (بني العجلان)، وقيل: هو من أرض (بني عامر) المتصلة بـ(اليمن)[2]. قال (ابن مقبل)[3]:

زار الخيالُ لدهماء الرُّكاب وقد ... نام الخَلِيُّ ببطن القاع من أُسُنِ(☆٢)

(☆) في ديوانه: «ليلى». وقيل: المرانة: اسم ناقة لابن مقبل كانت هادية للطريق، وقيل: هي امرأة، وقيل: العادة، وقيل غير ذلك، وذهب (الفارسي) إلى أن المرانة ناقته، وهو أجود ما فُسّر به. حتى تعرف الدِّين: أي العهد والأمر الذي كانت تعهده، وقيل غير ذلك. (انظر: ابن فارس: المقاييس: ٢/ ٣٢٠، ٥/ ٣١٤)، و(المجمل: (مرن))، و(الفارسي: المسائل البصريات: ١/ ٦١٦)، و(المعري: ٢٤٦ - ٢٤٧)، و(الجوهري، وابن منظور: (مرن))، و(الحموي : البلدان : (مرانة)) . وقال (الفارسي: م. ن) : «يقول : لا أطلبها إلا في هذه البلدة، حتى يُعْرف الدِّين الإسلام ، قال : قال لها : قبل أن تُسْلِم». أو لعل المعنى : إنني لا أكلف بلوغ دار ليلى إلا ناقتي (المرانة)، وهي متى بلغتها عرفتها لما كان لها فيها من عهد. (وانظر: عزة حسن). وإذا صح هذا فلا شاهد في البيت على هضبة المرانة.

(١) انظر: البلدان: (مرانة).

(٢) انظر: الحموي: البلدان: (أسن).

(٣) ديوانه: (٢٤/٣٠٨) = (ط. TÜREK: ٢٤/١٢٥).

(☆٢) القاع: «المستوي من الأرض»: (الجوهري: (قوع)). وذكر (البكري: ما استعجم: ١٤٩) أن (أسن): جبل في ديار (بني جعدة) بـ(نجران)، وقال (أبو حاتم) عن (الأصمعي): أسن: بلد باليمن، وأنشد البيت، وذهب (السبيعي: الذهاب والكور (مجلة العرب، جماديان ١٤٠٤هـ = شباط - آذار (فبراير/ مارس) ١٩٨٤م، ص: ١١١٧ - ١١١٨)) إلى أن (أسن) واقع في بطن (الذهاب)، الذي يقطعه الطريق من (رَنْية) إلى (بيشة)، وهو إلى بيشة أقرب، وقال: «لعل أسن الوارد ذكره هنا هو ما يعرف اليوم باسم (أبو ستون)، وهو جبل متوسط الحجم، يقع في بطن الذهاب، ويمتد من الغرب إلى الشرق فيه آكام حمر، تعلوه الرمال، وتحيطه في موضعه... ويقال: إنه الحد بين (الأكلبية) و(السبيعية) منذ القدم»، وعلق عليه صاحب (العرب) بأن مفهوم ما استشهد به من الشعر أن أسن ليس جبلاً، وأنه أرض، والعامة كثيراً ما يسمون الجبل ذا الثنايا البارزة (أبو ستون). (انظر: م. ن: ١١٢٢).

ومنها: (حَرْسان). «... قال (الزبير)[☆]: حرسان: وادي (بني العجلان)»[1][☆2].

ومنها: (الرَّكاء). قال (الحموي)[2]: «بوزن جمع الرَّكْوَة وهو سِقاء الماء، موضع عن (ابن دريد)، و(ابن فارس) يفتح الراء، وأنشد: إذا بالرَّكاء مجالس فُسَّح، وقيل: هو واد في ديار بني العجلان، وقال (ثعلب): الركا مقصور...»، واستشهد بشعر للراعي ذكر فيه الركا، ثم قال: «هو واد أكثر ابن مقبل من ذكره». ومن ذلك قوله[3]:

هل أنت مُحَيِّي الرَّبْعَ أم أنت سائلُهْ ... بحيث أحالتْ في الرَّكاء سوائلُهْ[☆3]

ومن كثرة ذكره في شعر ابن مقبل، وما يتحدث عنه من الذكريات التي كانت له فيه، يستنتج أنه كان مركز استيطان أهله، وأن إقامتهم فيه كانت أكثر من أي مكان آخر.

ولا يعرف اليوم إلا بـ(الرَّكا): (مفتوح الراء مقصورا)، وهو من أشهر أودية (العالية)، وأطولها وأوسعها وأكثرها روافد، يقع شمال (هضب الدواسر)، ويحفّ بـ(حصاة آل عليان) من الجنوب، وأعاليه في بلاد (عتيبة)، وأسافله - إلى جبل (طويق) - في بلاد (قحطان) و(الدواسر)، وبلاد قحطان

(☆) لعله: أبو عبدالله الزبير بن بكار القرشي الأسدي الزبيري، وكان من أعيان العلماء توفي (بمكة) ليلة الأحد لسبع - وقيل تسع - ليال بقين من ذي القعدة سنة (٢٥٦هـ = ٨٧٠م)، وعمره (٨٤) سنة. (انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٢/ ٣١١-٣١٢).

(١) البكري: ما استعجم: ٤٣٨.

(☆٢) قبل عبارة (البكري) هذه: «قال (أبو حاتم): قال (الأصمعي) مَرَّةً: حَرْسان: جبل في ديار بني عبس». ولعلهما مكانان مختلفان باسم واحد.

(٢) البلدان: (الركاء).

(٣) ديوانه: (١/٢٣٨) = (ط. TÜREK: ١/٩٧).

(☆٣) الربع: المنزل. سوائله: أي طرق مسيله، التي تسيل بالماء. (وانظر: ابن منظور: (سيل)). وفي بعض الروايات: «مسائله»، جمع مسيل.

شماله، وبلاد عتيبة مفترشة أعاليه[(١)].

ومنها: (يُرامِل). قال (الحموي)[(٢)]: «يُرامِل (بالضم وكسر الميم)، اسم وادٍ لأهل ابن مقبل». قال في شعره[(٣)]:

فكأنّ رَحْلي فوق أَحْقَبَ قارب   مما يَقيظُ بأظربٍ فيُرامِلِ[(☆)]

ومن مياههم: (أُنُس)[(٤)]. قال ابن مقبل[(٥)]:

قالت سُليمى ببطن القاع من أُنُسٍ:

لا خيرَ في العيش بعد الشيب والكِبَرِ![(☆٢)]

ومنها: (الحُصَيْص). «تصغير الحُصّ وهو الوَرْس، ماء (لبني عُقَيل) بنجد وفيه (للعجلان) و(قُشَيْر)، والغالب عليه عُقَيْل، قال ذلك (الأصمعي)»[(٦)].

ومنها: (الحُلَيْقَة). «قال (أبو زياد): من مياه بني عجلان الحُلَيْقَة، يردها طريق (اليمامة) إلى (مكة)، وعليها نخل، وهي من أرض (القَعاقِع)[(٧)]...»[(٨)].

---

(١) انظر: ابن جنيدل: ٢/٦١٨-٦٢١، ٣/١١٣٩.
(٢) البلدان: (يرامل).
(٣) ديوانه: (١٦/٢٢٠) = (ط. TÜREK: ١٦/٩٠).
(☆) الأحقب: حمار الوحش، سمي بذلك لبياض في حَقْويه. (انظر: الجوهري: (حقب)). والقارب: الحمار الذي يَقْرُب القَرَب، أي يعجل ليلة الوِرد. (انظر: ابن منظور: (قرب)). يقيظ: أي يقضي أيام القيظ من الصيف، والقيظ: صميم الصيف وشدة حره. (انظر: م. ن: (قيظ)). وأظرب: جمع ظرب، موضع يسمى بظِراب. (انظر: البكري: ما استعجم: ١٦٩).
(٤) انظر: ابن منظور: (أنس).
(٥) ديوانه: (١١/٧٦) = (ط. TÜREK: ١١/٣١).
(☆٢) «أنس»: رواية (ابن منظور: (م. ن)). وفي ديوانه: «شُرُح». وفي (الحموي: البلدان. (أسن))، و(ابن منظور: (أسن)): «أُسُن». وقد سبق تحديده، وهناك روايات أخرى.
(٦) الحموي: البلدان: (الحصيص). وانظر: الأصفهاني: بلاد العرب: ٤ - ٥.
(٧) القعاقع: سيرد ذكرها في نهاية هذا الموضوع.
(٨) الحموي: البلدان: (الحليقة).

وذكر (الحموي)[1]: أنه قرأ «بخط (الأزدي ابن المعلّى)[☆] في شعر (تميم بن أبي ابن مقبل العجلاني) وصيغته وجمعه[2]:

إنّ الحُلَيْفة ماءٌ لستُ قاربَهُ   مع الثناء الذي خُبِّرْتُ يأتيها».

وقال عن (الأزدي): «قال: الحُلَيْفة ماء لا أقربه ولا أغتر بالثناء عليه، فكتب في الموضعين بالفاء»[3]. فقد يكون أحد الاسمين مصحّفاً عن الآخر، أو أنها موضعان[☆٢].

ومنها: (الخَرُبِجة). «من مياه عمرو بن كلاب، عن أبي زياد، وقال في موضع آخر من كتابه: ولبني العجلان الخربجة»[4].

ومنها: (الخُلَيْقة). وهي «ماءة على الجادّة بين (اليمامة) و(مكة) لبني العجلان»[5]. وفي (الأزدي)[6]: «بين مكة والمدينة»[☆٣].

ومنها: «(الدَّحُول)، بفتح أوله، على وزن فَعُول... قاله (أبوحاتم)، وأنشد (لابن مقبل)[7]:

---

(١) م. ن.

(☆) محمد بن المعلّى بن عبدالله الأسدي، الأزدي، النحوي، اللغوي، أبو عبدالله، روى عن (الفضل بن سهل)، و(أبي كثير الأعرابي)، و(ابن لَنْكَك - نحو ٣٦٠هـ = ٩٧٠م)، و(الصولي - ٣٣٥هـ = ٩٤٦م)، وعن (ابن دريد - ٣٢١هـ = ٩٣٣م) إجازة. وشرح ديوان تميم بن أبي بن مقبل. له ترجمة في: (الحموي: الأدباء: ٧/١٠٧)، و(السيوطي: بغية الوعاة: ١/٢٤٧). وفي (سزكين: ٢/٢٤٣) أنه (عاش قبل سنة ٢٤٣هـ = ٨٥٧م).

(٢) ذيل ديوانه: (١/٤١٤) = (ط. TÜREK: ١٦٠/١٥٣).

(٣) الحموي: البلدان: (م. ن).

(☆٢) وهناك (الحليفة)، (بالفاء): التي يرى (ابن جنيدل: ٣/١١١٦) أنها (كمدة): وهي قرية زراعية قديمة في (وادي الدواسر)، في بطن الوادي، بين قرية (الشرافا)، وقرية (تمرة)، وسكانها: (الحقبان) من (التغالبة)، وكمدة اسم غير معروف قديماً، وتتبع إمارة وادي الدواسر.

(٤) الحموي: م. ن: (الخربجة).

(٥) م. ن: (خليقة).

(٦) التاج: (خلق).

(☆٣) ولعل «المدينة» هنا تصحيف: «اليمامة».

(٧) ديوانه: (١٥/٢٤١) = (ط. TÜREK: ٩٨/١٤).

وحَـوْمٍ رأيـنـا بـالـدَّخُـول وجلـسٍ
تَعادَى بجِنّان الدَّخُول قَنابِلُهْ»[1][☆]

ومنها: (الدَّخُول)، (بالخاء المنقوطة) على وزن فَعُول. «قال (أبو زياد): ومن مياه (بني العجلان) الدَّخُول»[2][☆2]. والدخول: هضاب حمر عالية، فيها ماء، يسمى بهذا الاسم، في شمالها، داخل في شعب من الهضاب، تقع في (المجضع) - (المضجع) قديماً - شمال (هضب الدواسر)، وجبل (حومل) واقع غرب الدخول، ومياه هذه الهضاب اليوم لقبيلة (الشيابين) من (عتيبة)، ويبعد الدخول عن (عفيف) جنوباً (٢٠٠ كيل)، ويتبع إمارة عفيف[3].

ومنها (سُرُح). وهو ماء في واد[4]، قال ابن مقبل[5]:

قالت سُليمى ببطن القاع من سُرُحٍ:
لا خير في العيش بعد الشيب والكِبَرِ

وفي (الحموي)[6]: «سُرُج»: (بالجيم)، قال: «وأنا مُشِكٌّ في الجيم»[☆3].

(١) البكري: ما استعجم: ٥٤٦. وانظر: الحموي: البلدان: (الدحول).

(☆) في ديوانه: «وحي حلال قد رأينا ومجلس». قال (الحموي: م.ن): «ذكره (نصر) وقَرَنه بالدخول هكذا، ولم أجده لغيره والله أعلم بصحته».

(٢) الحموي: م. ن: (الدخول). وانظر: المشترك: ١٧٧.

(☆٢) ولم أقف على نسبة (الدخول) إلى بني العجلان في غير كتابي (الحموي) هذين. وعبارته التي ذكرت في الحاشية ما قبل السابقة، تدل على عدم يقينه من نسبة (الدحول) و(الدخول) معاً إلى بني العجلان. والتصحيف بين هذين الاسمين كبير الاحتمال.

(٣) انظر: ابن جنيدل: ٢/ ٥١٣.

(٤) انظر: تهذيب الأزهري: ٤/ ٢٩٩، والحموي: البلدان: (سرج).

(٥) ديوانه: (١١/٧٦) = (ط. TÜREK: ١١/٣١).

(٦) م. ن.

(☆٣) وروي: «سرع»: (بالعين). و(انظر: ابن بليهد: صحيح الأخبار: ٢/ ١٧).

ومنها: (صُلْصُل)، قرب (اليمامة)، عن (أبي زياد)[1]. ويرى (ابن جنيدل)[2] أن صلصل هو ما يعرف اليوم بـ(صلاصل)، وهو ماء قديم، في (هضب الدواسر الأحمر)، غربيه، جنوب جبل (غاير)، غرب جبل (الغثوري)، وهو في دارة بين هضاب حمر تكتنفها برقة، وهو من مياه (سبيع) في هذا العهد، التابعة لإمارة (رنية)، ويبعد عنها شرقا (٢١٠ كيلا).

ومنها: (طاحِيَة). وهي بأرض (القعاقع)[3]، كثيرة النخل، عن أبي زياد[4]، وهي من مياه (الشُّرَيف)[5]، والشريف: تابع لإمارة (الدوادمي)[6].

ومنها: (طَوْعَة)، و(طُوَيْع). «قال أبو زياد: ومن مياه بني العجلان طوعة وطُوَيْع والله أعلم»[7]. ويرى (ابن جنيدل)[8] أن طوعة هي ما يعرف في هذا العهد بـ(الطُّوَيْعِيَة)، وهو ماء عذب، يقع في جبال (السوادة)، غرباً من جبل وماء (جاحد)، وبلاد السوادة حافّة ببطن (الركا) من الجنوب، وهو من مياه (قحطان)، تابع لإمارة (القويعية).

ومنها: (عُرَيْقِيَّة)، وعن أبي زياد: أن عريقية كثيرة النخل[9].

ومنها: (الوايلية). وهي مياه في جوف جبل (عماية)[10][☆].

(١) انظر: الحموي: م.ن: (صلصل)، والمشترك: ٢٨٥.
(٢) انظر: ٢/ ٨٥٤ - ٨٥٥.
(٣) القعاقع: انظر تحديدها بعد أسطر.
(٤) انظر: الحموي: البلدان: (طاحية).
(٥) انظر: الهمداني: ٢٩١ - ٢٩٢.
(٦) انظر: ابن جنيدل: ٢/ ٧٥٢.
(٧) الحموي: م. ن: (طوعة).
(٨) انظر: ٢/ ٨٨٤.
(٩) انظر: الحموي: م. ن: (عريقية)، والزبيدي: التاج: (عسلق).
(١٠) انظر: الحموي: م. ن: (الوايلية).
(☆) راجع تحديد عماية: سابقاً في جبال بني العجلان.

ومن المواضع المنسوبة (لبني العجلان): (الحُسا). قال (الحموي)(١): «قال (أبو زياد): ولبني العجلان الحُسا في جوف جبل يسمى (دفاقا)(☆)».

ومنها: (القَعَاقِع)(☆٢). «قال (أبو زياد الكلابي): القعاقع بلاد كثيرة من بلاد العجلان»(٢). قال (ابن مقبل) يصف أظعانا (٣):

جَعَلْنَ جَماجِم الوَرْكاء خَلْفا ... بغربيِّ القَعَاقِع [فالسِّتا]رِ(☆٣)

---

(١) البلدان: (حسا).

(☆) وذكر (الحموي): أن (دفاقا) موضع قرب مكة قال (الفضل اللهبي):

ألم يأت سلمى نأينا ومُقامنا ... ببطن دفاق في ظلال سلام

قال: «فدل على أنه (بخيبر)؛ لأن (سلام) من حصونها المشهورة كان، ولعله موضعان؛ لأن (ساعدة بن جؤية الهذلي) يقول:

وما ضَرَبٌ بيضاء يسقي دبوبها ... دفاق فعروان الكراث فضيمها

وقال (السكري): «هذه أودية كلها»: (البلدان: (دفاق))، و(انظر: البكري: ما استعجم: ٥٥٣)، ويبدو أن (دُفاقا) المذكور هنا، غير المذكور في ديار بني العجلان؛ فهذا واد وذاك جبل.

(☆٢) قال (الحموي: البلدان: (القعاقع)): «القعاقع: جمع القَعْقَاع، يقال: خِمْس قَعْقاع، إذا كان بعيداً والسير فيه متعباً، وكذلك: طريق قَعْقاع إذا بَعُد واحتاج السائر فيه إلى جِدٍّ سمي بذلك؛ لأنه يقعقع الركابَ ويتعبها».

(٢) الحموي: م. ن.

(٣) ديوانه: (١٩/١٥٠) = (ط. TÜREK: ١٨/٦١).

(☆٣) جماجم: جمع جُمْجُمَة، وهي البئر تحفر في سبخة. (انظر: الجوهري: (جمم)). والوركاء: موضع، ولعله هنا تصحيف (الودكاء): (بالدال)، وهي ماءة بأعلى (ختتل)، وهو واد في بلاد (بني قُرَيْط) من (أبي بكر بن كلاب)، سمي بذلك لسعته. (انظر: البكري: ما استعجم: ٥١١-٥١٢، ١٣٧٥). ويرى (ابن جنيدل: ٢/ ٨٧٣) أن الودكاء هي ما يسمى في هذا العهد بـ(طُبَيْق). و(مطابق)، وطبيق: هضاب حمر غير مرتفعة، بجانبها هضاب حمر تدعى: مطابق، فيها ماء عذب، وغربها ماء عذب يسمى (صدحة)، وهي واقعة في (حرة العرض) مما يلي هضبة (صبحا/ يذبل قديماً) جنوب بلد (الرويضة)، وهضاب (خرص) و(المغرة). والودكاء تناسب ما ذكره في البيت من المواطن، أما (الوركاء): (بالراء)، فهي موضع بناحية (الزَّوابي)، ولد فيه (إبراهيم الخليل عليه السلام)، وهو في حدود (كسكر) من بلاد (فارس)، (انظر: الحموي: البلدان: (الوركاء))، ويستبعد أن يكون هو المقصود في البيت. والقعاقع: قيل إنها أرض من بلاد باهلة أيضا. (انظر: البكري: م. ن: ١٠٨٥). والستار: الراجح أنه (ستار الشَّريف)؛ لذكره في القصيدة (برقة الأمهار) وهي غربي الشريف. ويذكر في بيته هذا (القعاقع)، وقد قيل: إنها مواضع بالشريف من بلاد قيس. (انظر: الحموي: البلدان: (القعاقع)). وبلاد (باهلة)، التي قيل: إن من بلادها القعاقع أيضاً، تحد الشريف جنوباً، والشَّريف: بلاد واسعة، طيبة المراعي، كانت قديماً (لنمير)، ومن بلدانها: (الدوادمي)، و(الشعراء) وغيرهما، وتتبع إمارة الدوادمي. (انظر: ابن جنيدل: ٢/٧٤٨-٧٤٩، ٧٥٢). وستار الشريف: «في طرف (ذي خُشُب)»: (الهمداني: ٢٩٢)، و(ابن جنيدل: ٢/٥١٥-٥١٦، ٦٦٧-٦٦٨) يرى أنه جبل قد تغير اسمه في هذا العهد، فأصبح يسمى (دِرقان)، ودِرقان في عامية نجد تعني «الستار»، وهو جبل أسود مستوي الظهر، بين هضبتي (مدقة)، و(زعابة)، صوب مطلع الشمس من بلدة (رويضة العرض)، وهو تابع لإمارة (القويعية)، غرباً عنها.

ب - بنو العجلان في الجاهلية :

ليس بين أيدينا أخبار يذكر بها (بنو العجلان) في الجاهلية، ولعل ارتباطهم في الأخبار (ببني كعب) أو (بني عامر) كان وراء عدم انفرادهم بأخبار خاصة بهم.

فعن عبادتهم في الجاهلية لا أخبار هنالك تكشف شيئاً عنها[☆]. وإن كان يمكن القول: إن (بني العجلان بن عبدالله) كانوا وثنيين كمعظم العرب إذ ذاك، حيث لم يأت عنهم ما يشير إلى أنهم قد اختلفوا عن العرب في عبادتهم، ولو حدث ذلك لعُرفوا به، إذ كان هذا يعدّ خروجاً على العبادة السائدة في ذلك العصر[☆٢].

وبالرغم من أن أحداً لم ينسب هذا الشاعر أو قبيلته إلى المجوسية - فيما نعلم - فإن ذلك الزواج المجوسي - «الضيزن» أو «المقت» - الذي كان الشاعر عليه في جاهليته، قد يحمل على الشكّ في براءته وقومه من هذه الديانة[١].

(☆) نقل (ابن حزم: ٢/ ٤٩٣)، و(ابن حبيب: المحبر: ٣١٦-٣١٧)، و(الحموي: البلدان: (السعيدة)) أن بني العجلان كانوا سدنة صنم (السّعيدة) في الجاهلية. وكانت السعيدة (لسعد بن هذيم) وسائر (قضاعة)، إلا (بني وبرة)، و(للأزد) أيضا. وكان موضعها (بأُحُد). وقيل: إنه بيت كانت العرب تحجه، وقال (ابن دريد): «أحسبه قريباً من (سنداد)»، وقال (ابن الكلبي): «هو على شاطئ (الفرات)، والقولان متقاربان»: (الحموي: م. ن). ولم نقف عليه في (ابن الكلبي: الأصنام)، ولا في ملحقاته. وبالرغم من أن هذه الكتب لم تبين من (بنو العجلان) المعنيون؟، ولم يرد في غيرها ما يبين ذلك، فإن نسبة صنم السّعيدة إلى قضاعة والأزد، يجعل بني العجلان تنصرف هنا إلى (بني العجلان ابن زيد بن غنم) من الأزد، أو (بني العجلان بن الحارثة بن ضبيعة) من بني قضاعة. (انظر: القلقشندي: نهاية الأرب: ٦٦)، لا إلى (بني العجلان بن عبدالله بن كعب).

(☆٢) وكانت (قيس عيلان) تعبد (الشعرى العبور) في الجاهلية. كما ذكر (صاعد الأندلسي: طبقات الأمم: ٤٣). وقد أتت في شعر (ابن مقبل) فيما لا ينبئ بتقديسها، حين قال - (٢٢ /٣٤٣) = (ط. TÜREK: لم يذكر) -:

[وعَرَّسْنَ والشِّعْرَى تَغُور كأنها   شهابُ غضىً يُرْمَى به الرَّجَوانِ]

(١) راجع : أولاً: ب - ١ - أسرته، وانظر: ب١ ف١ : د - ٤ - ١ المجوسية.

جـ - بنو العجلان في الإسلام

جـ - ١ - مع النجاشي الحارثي :

سبق القول في هجاء (النجاشي الحارثي) بني العجلان، واستعدائهم عليه (عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه) .

جـ - ٢ - مع بني كعب وبني كلاب :

ثم في حوالى الفتنة التي حدثت في زمن (عثمان بن عفان رضي الله عنه - ٣٥هـ = ٦٥٦م)، يتحدث الشاعر في إحدى قصائده عن نزاع نشب بين قبيلته و(بني كعب) من جهة، وبينهم و(بني كلاب) من جهة أخرى. وأغلب الظن أن بني كعب المقصودين هم (بنو كعب بن معاوية بن عبادة) جد (ليلى الأخيلية)، وهم من (بني كعب بن ربيعة بن عامر) قوم (ابن مقبل)، وقد تقدمت الإشارة إلى ما كان من خلاف بين ابن مقبل وليلى على إثر حكومتها وتفضيلها (عجيراً) على بقية الشعراء[1]، وقد ذهب محققا ديوان ليلى إلى أن القصيدة التي منها الأبيات التالية تفيد بأن ابن مقبل قد هجا ليلى[2][☆]. يقول عن النزاع الأول[3]:

وقدنازَعَتْنا من كِلابٍ قبائلٌ ... مَحاجِمُ منها ما يَفيضُ ويَنْطِفُ
قَتَلْنا، وأبكَ[ينا] حَميمَ بن جعفرٍ ... على مَشْهَدٍ من قومه، وهو مُرْدَفُ

---

(١) راجع: أولاً: ب - ٢ - ٧.
(٢) انظر: مقدمة ديوان ليلى: ٤٣.
(☆) ليس في قصيدته تلك هجاء ظاهر لليلى، ولا حتى ذِكْر اسمها، وإنما هنالك تعرّض لبني كعب هؤلاء.
(٣) ديوانه: (٢٦/١٩٥ - ٢٧) = (ط. TÜREK: ٢٦/٨٠ - ٢٧).

ويقول عن النزاع الآخر[1]:

زَجَرْنا بني كعبٍ، فأمّا خِيارهم   فَصَدُّوا، وللمعروف في الناس أَعْرَفُ
وأمّا أناسٌ فاستعاروا بعيرَنا   فَقِيْدَ لهم بادٍ به العُرُّ أَخْشَفُ

ثم يقول:

فإنْ يَكُ في بُغران قيسٍ مَعُونَةٌ
يكن لبني العجلان في الضَّرْبِ نَخْشَفُ[2].

جـ - ٣ - في صِفّين:

وكان (بنو عامر بن صعصعة) في صَفِّ (معاوية) في وقعة (صِفِّين: ٣٧هـ = ٦٥٧م)[3]، وقد مضى ذكر نقض ابن مقبل قصيدة النجاشي في تلك الوقعة[4]، ويستدل من هذا ضمناً على مشاركة بني العجلان مع قبائل عامر في صِفِّين، وإن لم ينفردوا بخبرٍ ينصّ على ذلك.

جـ - ٤ - في مرج راهط:

في سنة (٦٥هـ أو ٦٤هـ = ٦٨٤م) خرج (مروان بن الحكم) إلى (مرج راهط) لحرب (الضحّاك بن قيس) الذي أبى مبايعته وكان يدعو (لابن الزبير)، ومعه (قيس عيلان) مخالفين لمروان نازلين على طاعة ابن الزبير، فهزم أهل المرج وقتل الضحّاك، وقتل من قيس من لم يقتل منهم قطّ[5]. ولا بد أن بني عجلان

---

(١) م. ن: (١٩٠/٥-٦، ١٩٧/٣٨) = (ط. TÜREK: ٧٨/٥-٦، ٨١/٣٨).
(٢) انظر الكلام على هذه الأبيات والنزاع المذكور في: ب١ ف٢: د - ١ - مقتل عثمان.
(٣) انظر: المنقري: ٣٠٧، ٤٥٩، ٥٢٤ وغيرها.
(٤) راجع: أولاً: ب - ٢ - ١.
(٥) انظر: تاريخ الطبري: ٥/ ٥٣٥ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل: ٣/ ٣٢٨ وما بعدها، والبلاذري: ٥/ ١٣٦ وما بعدها، وأبا تمام: النقائض: ١٥ وما بعدها، والأصفهاني: الأغاني: ١٩/ ١٣٩ وما بعدها، وانظر مزيداً من التفصيل وتراجم الأعلام في: ب١ ف٢: د - ٣ - مرج راهط.

كانوا مع قيس في ذلك اليوم، ويؤيّد هذا ما تقدم من رثاء ابن مقبل (همام بن قبيصة العامري) الذي قتل يومئذ[1].

جـ - ٥ - مع بني تغلب :

ولم يكن (النجاشي) وحيداً في هجاء (بني العجلان) في العصر الإسلامي، فقد سبقت الإشارة[2] إلى هجاء (الأخطل) إياهم أيضاً، تحرّضه على ذلك الأيام التي وقعت بين (قيس) و(تغلب)، وتحرّكه كذلك ردود بعض شعراء قيس عليه، (كابن مقبل) و(نفيع بن صفار) وغيرهما . فللأخطل قصيدة في شأن تغلب وقيس، يقول منها في بني العجلان[3] :

إذا التمس الأقوامُ في الناس ذِكْرَهم ... فذكر بني العجلان من ألأم الذِّكْرِ
وقد سَرَّني من قيس عيلان أنني ... رأيتُ بني العجلان سادوا بني بَدْرِ[☆]
وقد غَبَرَ العجلانُ حيناً إذا بكى ... على الزاد ألْقَتْهُ الوَليدة في الكَسْرِ[☆٢]
فيصبح كالخُفّاش يَدْلُكُ عينه ... فقُبِّح من وجهٍ لئيمٍ ومن حَجْرِ
وكنتم بني العجلان أقصر أيدياً ... وألأمَ من أن تبلغوا عاليَ الأمرِ

---

(١) راجع: أولاً: ب - ٢ - ٥.

(٢) راجع: م.ن: ب - ٢ - ٦.

(٣) أبو تمام: النقائض: ٣٣، ٣٥-٣٦. ومطلع القصيدة:

ألا يا سْلمى يا هندُ هندَ بني بَكْرِ ... وإنْ كان حيّانا عدًى آخرَ الدّهْرِ

(☆) قال (أبو تمام) في تعليقه على هذا البيت: «(بنو بدر) من (بني ذبيان) رهط (عيينة بن حصن)، وهم بيت (فزارة)، فزعم أن بني العجلان سادوهم». وقد ذهب إلى أن هذا البيت يشبه قول الأخطل في قصيدة أخرى هجا بها قيساً إذ قال:

تعوذ هوازن بابني دُخان ... هوازن إن ذا هو الصَّغارُ

و(ابنا دخان): (غني) و(باهلة)، وهما ألأم العرب، قال (أبو تمام): «فإذا عاذت هوازن بابني دخان صارت في غاية الضعة، ومثله قول الأخطل: وقد سرني... البيت»: (النقائض: ١٢٨-١٢٩).

وقال (الجاحظ: البيان: ٤/٣٧)، بعد ذكر هذا البيت: « إن هذا البيت لم يضع بني العجلان، ولم يضر بني بدر»

(☆٢) قال (أبو تمام): «الوليدة: الأمة. الكسر: مؤخر البيت. يقول: كان إذا استطعم ألقته الوليدة إلى الكسر ولم تطعمه، والكسر ما عن يمينك ويسارك إذا دخلت المظلّة، يخبر أنه لا خير عندهم».

بني كُلِّ دَسْماء الإهاب كأنها ... كساها بنو العجلان من حُمَمِ القِدْرِ (☆)
وإنْ نزل الأقوام منزلَ عِفَّةٍ ... نزلتم بني العجلان منزلةَ الخُسْرِ (☆٢)
وشاركتِ العجلان كعباً ولم تكن ... تشاركُ كعباً في وفاءٍ ولا غَدْرِ (☆٣)

وقد نقض (ابن مقبل) هذه القصيدة بقصيدة مطلعها[١]:

خَفَرْتُ على قيسٍ فأَدَّى خَفارتي ... فوارسُ منّا غيرُ مِيْلٍ ولا عُسْرِ

ومما قاله فيها[٢]:

إذا ما لقينا تغلبَ ابنةَ وائلٍ ... بَكَيْنا بأطراف الرّماح على عمرو
فأخطلُ إنْ تَسْمَعْ خَواتي تَوَقَّني ... كما يَتَّقي فَرْخُ الحُبارَى من الصَّقْرِ
شَهِدتَ فلم تَحْفَظْ لقومك عَوْرَةً ... ولم تَدْرِ ما أُمُّ البُغاثِ من النَّسْرِ
قَرَتْ ليَ قيسٌ في حِياضٍ مَسِيكَةٍ ... وأنت شَقِيٌّ خان حوضك ما تَقْري
بأيِّ رِشاءٍ يابْن ذا الرَّجْل تَرْتَقي ... إذا غَرِقَتْ عيناك في حَوْمَةٍ غَمْرِ
بأيِّ قَناةٍ تَرفعون لواءكم ... إذا رَفَعَ الأقوام ألوية الفَخْرِ
[لقد] عَلِمَتْ قيسُ بن عيلان أنني ... غداة دعوني ما بسمعيَ من وَقْرِ
أجبتُ بني عيلان، والخَوْضُ دونهم ... بأَضْبَطَ جَهْمِ الوجه مُخْتَلِفِ الشَّجْرِ

وهاتان القصيدتان مما قيل في يوم (ماكسين ٧٠هـ = ٦٨٩ - ٦٩٠م) بين (قيس) و(تغلب)[٣]. ولابن مقبل قصيدة أخرى في هجاء (الأخطل) يوم

(☆) قال (م. ن): «دسماء: مسمة قذرة، والإهاب: الجلد، وحُمَم: سواد القِدْر».
(☆٢) قال (م. ن): «ويروى: منزلة الحقْر، أي: منزلة الذلة، والخسر: الخسران».
(☆٣) قال (م. ن): «يقول: شاركوهم في اللؤم، وكعب: ابن ربيعة بن عامر».
(١) ديوانه: (١/١٠٧) = (ط. TÜREK: ١/٤١).
(٢) م. ن: (١٠٧، ١٠٩-٣/١١٠، ٨-٩، ١١-١٤، ١٦) = (ط. TÜREK: ٤٢-٣/٤٣، ٨-٩، ١١-١٤، ١٦).
(٣) انظر: البلاذري: ٥/٣١٦-٣١٨.

ماكسين، منها[(١)]:

قُلْ لابنة الأخطل المسلوب مئزرها   يوم الفوارس لمّا راتَ فاديها
ولستُ سائلها إلا بواحدة   ما ردَّ تغلبَ عنها إذ تُناديها

وله قصيدة هجائية أيضا، يظهر أنها من شعره في تلك الأيام بين قيس وتغلب، منها[(٢)]:

أأخطلُ لِمْ ذكرتَ نساء قيسٍ   فما رُوِّعْنَ منك ولا سُبينا
ونسوةُ عامرٍ وبني سُلَيْمٍ   وأعْصُرَ ما سُلِبن ولا خَزينا
حَمَى أبضاعها الشُّمُّ الغَيارى   رَدَوا من دونها بالدّارِعينا
صَبَحْنا تغلبَ اللُّؤمِ السَّرايا   تَمَطّى بالكُماة وتَنْطَوينا

وهذا الشعر يدلّ بوضوح على مشاركة بني العجلان مع قبائل قيسٍ الأخرى في هذه المعارك[(٣)]. ومن هجاء الأخطل بني العجلان قوله أيضا[(٤)]:

تُسامونَ أهلَ الحَقِّ بابني مُحاربٍ
ورَهْطُ بني العجلان حَسْبُكَ من رَكْبِ[(☆)]

جـ - ٦ - كعب بن سعد الغنوي:

ومما هُجي به بنو العجلان أيضاً، قول (كعب بن سعد الغنوي)[(☆٢)]،

(١) البيتان مما أخلّ به ديوانه بطبعتيه. انظر: المستدرك الملحق بهذه الدراسة: النموذج ٢٨.
(٢) ديوانه: (٣١٢ - ٣١٣/١، ٣-٤، ٦) = (ط. TÜREK: ١٢٦-١٢٧/١، ٣-٤، ٦).
(٣) انظر: تفاصيل القول عن هذه المعارك وهذا الشعر في: ب١ ف٢: د - ٤.
(٤) أبو تمام: النقائض: ٩٨.
(☆) قال (م. ن): «حسبك من ركب: يهزأ بهم. ويروى: «وركب بني العجلان» ».
(☆٢) شاعر إسلامي، من (بني سالم بن عبيد بن سعد بن عوف بن كعب بن جلّان بن غَنْم بن غني بن أعْصُر). قال (البغدادي: الخزانة: ٨/ ٥٧٤): «كذا قال (البكري) في (شرح أمالي القالي) في موضعين منه وقد راجعت كتب الصحابة، وكتاب الشعراء (لابن قتيبة)، وكتاب الأغاني وغيرها، فلم أجد ترجمته في أحدها إلا ما قاله (أبو عبيد) =

وقد تناول معهم قبائل أخرى من قيس[1][☆]:

وما إنْ في الحَريش ولا عُقَيْلٍ ... ولا أولاد جَعْدَةَ من كريمِ
ولا البُرْصِ الفِقاحِ بني نُمَيْرٍ ... ولا العجلان زائدة الظَّليمِ
أولئك مَعْشَرٌ كبنات نَعْشٍ ... رواكدَ لا تسير مع النجومِ.

جـ - ٧ - الفرزدق (-١١٠هـ = ٨٢٨م) :

قال[2]:

أباهلُ ، لو أنّ الأنام تنافروا ... على : أيّهم شَرٌّ قديماً وألأَمُ؟
لفاز لكم سهما لئيمٍ عليهم ... ولو كانت العجلان فيهم وجُرْهُمُ.

جـ - ٨ - ابو الطيّب المتنبي :

فإذا ما جاء (القرن الرابع للهجرة)، مرّ لهم خبر في شعر (أبي الطيّب المتنبي)، حيث يمدح (سيف الدولة الحمداني)، ويذكر إيقاعه (ببني عُقَيْل)، و(قُشَيْر)، و(بني العجلان)، و(كلاب)، لمّا عاثوا في نواحي أعماله، وقَصْده إياهم، وإهلاك من أهلكه منهم وعفوه عمّن عفا، بعد تضافرهم وتضامّهم عن لقائه، سنة: (٣٤٤هـ = ٩٥٥ - ٩٥٦م)[3]، وممّا قال[4]:

= المذكور. والظاهر أنه تابعي». و(انظر: البكري: اللآلي: ٢/ ٧٧١، ٩٦٠)، و(الزركلي: ٥/ ٢٢٧). وذهب الأخير إلى أنه جاهلي، توفي (نحو ١٠ ق.هـ. = ٦١٢م).

(١) أبو تمام: الحماسة: ٢/ ٢٣٤. و انظر: الجاحظ: البرصان: ٨١، والبصري: الحماسة: ٢/ ٢٧٤ .

(☆) في رواية (الجاحظ) و(البصري) بعض الاختلاف عمّا في رواية (أبي تمام). والحَرِيش، وعُقَيل، وجَعدة: من عمومة العجلان. (راجع: ثانياً: أ - ٣)، ونمير: ابن عامر بن صعصعة.

(٢) الفرزدق: شرح ديوانه: ٢/ ٧٧٣.

(٣) انظر: البرقوقي: شرح ديوان المتنبي: ٣/ ٦٠.

(٤) م. ن: ٣/ ٦٦ .

فليت أبا الهَيجا يرى خلف تَدْمُرٍ طوال العوالي في طوال السَّمالِقِ (☆)
وسَوْقِ عليٍّ من مَعَدٍّ وغيرها قبائلَ لا تُعْطي القُفِيَّ لسائقِ
قُشَيْرٌ وبِلْعجلان فيها خَفِيَّةٌ كراءَين في ألفاظ ألْثَغَ ناطقِ
تُخلِّيهمُ النسوان غير فوارِكٍ وهمْ خَلَّوا النسوان غير طوالقِ

جـ - ٩ - اثر الهجاء عليهم :

هل كان بنو العجلان على هذا النحو من الضّعة التي وصفهم بها الشعراء في الهجاء؟.

لقد سبقت الإشارة إلى أن لما قيل في بني العجلان من الهجاء أسبابه، هذا فضلا عن أن الشعر ليس بمقياس للحكم على الأفراد أو الجماعات، إذ لو كان كذلك لسقطت قبائل وأناس كثيرون، ممن سلقهم الشعراء بألسنةٍ حداد. بل إن من القدماء من نصّوا على شرف (بني العجلان)، وإنْ شوّه صورتهم بعض الشعر، فمن ذلك قول (أبي تمام)(١): «بنو العجلان من (بني عامر) وكانوا أشرافاً، فلما هجاهم (النجاشي): (...) صاروا يكنون عن العجلان واتّضعوا». فإذن لم يتّضعوا إلا بسبب الشعر الذي هُجوا به وإلا فهم في المحتد والشيم كغيرهم من أشراف العرب، لم يعرف عنهم ما يخالف ذلك.

أمّا مقدار التأثير الذي تركه ذلك الهجاء على سمعتهم، فلا ريب أنه كان عظيماً، حتى إن (الجاحظ)(٢) عبّر عن ذلك بهلاك (بني العجلان) بما قاله فيهم (النجاشي) من الهجاء.

(☆) السمالق: جمع السَّمْلَق: وهو القفر.
(١) النقائض: ١٢٩-١٣٠.
(٢) انظر: البيان: ٤/٣٧.

على أن (ابن رشيق)[1]، حين تحدث عن الهجاء، قال: «ومن الذين شَقُوا بالهجاء، ومُزِّقوا كل ممزق، على تقدمهم في الشجاعة والفضل، أحياء من قيس، نحو: (غنيّ) و(باهلة) (ابني أعصر بن سعد بن قيس عيلان)، . . . ونحو (محارب بن خَصَفَة بن قيس بن عيلان). . . »، ولم يذكر بني العجلان بين أولاء الأحياء من قيس، ممّا قد يعني أن بني العجلان لم يشقوا بما قيل فيهم من هجاء، مثلما حدث لبعض أحياء قيس الأخرى. وبالتوفيق بين قولي الجاحظ وابن رشيق هذين، يبدو أن الأثر الذي وقع على هذه القبيلة، بالرغم ممّا نعته به (الجاحظ) ما كان إلى ذلك الحدّ الذي يمزق أعراضهم ويشقون به بين الأقوام.

على أن أخبارهم الخاصة قد غُيِّبت عنا في الإسلام مثلما غُيِّبت في الجاهلية، فليس أمامنا من الأخبار سوى ما فات، وأغلبه مما قيل عنهم في الشعر. وإذا كان غياب أخبارهم في الجاهلية قد فسر باندماجهم في (بني كعب) أو (بني عامر)، دون انفرادهم بأخبار خاصة[2] - مع ضخامة قبيلتهم - فإنه يظهر في الإسلام سبب أقوى من هذا، وهو ذلك الهجاء الذي قيل فيهم، على لسان (النجاشي الحارثي) خاصة، حتى إن (ابن مقبل) نفسه لا يكاد يذكرهم أو يفخر بهم في شعره، وقد تقدّم أن الرجل كان إذا سئل: ممن هو، كنّى حتى لا يذكر أنه عجلاني[3].

(١) ٢/١٨٢ .
(٢) راجع: ثانياً : ب .
(٣) راجع: أولاً: أ - ٢ .

د - من اعلام بني العجلان[☆]:

يأتي في أولهم ابن مقبل، هذا الذي تقوم دراستنا هذه على شعره. وفي (المرزباني)[١] أشعار لثلاثة شعراء من بني العجلان، رجل وامرأتين، هم: (كندة بن خالد العجلاني)، و(أُمّ الورد العجلانية)، و(هند بنت الغطريف العجلانية).

أمّا (كندة) و(هند) فقد قال (المرزباني)[٢]:

«وجدت بخط (حرمي بن أبي العلاء): قال (كندة بن خالد العجلاني) (لهند بنت الغطريف العجلانية):

سلي حائلاً عني عشية يذبل ... فقد راءَ مما قد لقيت يقين
عشية قالوا جُنّ سبحان ربنا ... وما بي ورب الراقصات جُنون

فأجابته هند:

لعمركَ لو كانت عصاك صليبةً ... وكنتَ بظهر الغيب غير ظنين
لما طفق الأعداء يتنضلوننا ... ويأتوننا من أشمل ويمين
ولكنها كانت عصا خيزرانةٍ ... إذا قلبت بين الأكف تلين[☆٢]».

(☆) قد تلتبس النسبة إلى (العجلان)؛ لأن هناك عجلانيين آخرين ينتسبون إلى غير (العجلان بن عبدالله)، كـ(العجلان بن زيد بن غنم)، بطن من الخزرج الأزديين القحطانيين، أو (العجلان بن حارثة بن ضبيعة)، من بني قضاعة القحطانيين. فمن ذلك أن (القلقشندي: نهاية الأرب: ٦٧)، بعد أن ذكر بني العجلان بن عبدالله، وأن منهم الشاعر ابن مقبل، قال: «ومنهم: (زيد بن أسلم بن ثعلبة بن عدي بن العجلان)، العجلاني البلوي، ثم الأنصاري، حليف (بني عمرو بن عوف)، شهد بدراً وأحداً»، فاستوقفتني نسبة (البلوي) هنا، إذ ليس في نسب بني العجلان اسم (بليّ)، حتى وقفت على كلام (للسمعاني: الأنساب: ١٠/ ٤٠٤) ذكر فيه من المنتسبين إلى بني العجلان: (عبدالواحد ابن أبي البَدّاح بن عاصم بن عدي الأنصاري العجلاني)، و(مرة بن الحباب بن عدي بن العجلان العجلاني) شهد بدراً، و(زيد بن أسلم بن ثعلبة بن عدي بن العجلان العجلاني) شهد بدراً، و(ثابت بن أقرم بن ثعلبة بن عدي بن العجلان العجلاني) شهد بدراً، قتله (طليحة)، و(عبدالله بن سلمة بن مالك بن الحارث بن عدي بن العجلان العجلاني)، شهد بدراً، وقتل شهيداً يوم أحد. قال: «كلهم من (مرة بن الحباب)، من ولد (هميم بن ذُهل بن هني ابن بلي)»، وبما أن بَلِيّاً من قضاعة، فأولاء النفر ينتسبون إلى (العجلان بن حارثة بن ضبيعة القضاعي)

(١) انظر: أشعار النساء: ١١٠-١١٥ .

(٢) م. ن: ١١٢-١١٣ .

(☆٢) في القافية إقواء .

ولا يُعلم متى عاش هذان الشاعران، إذ لم يذكر المؤلف شيئاً عن ذلك، ولا ترجمة لهما فيما بين أيدينا.

أمّا (أُمّ الورد العجلانية)، فممّا قاله (المرزباني)[1] عنها :

«كتب إليّ (أحمد بن عبدالعزيز)، أخبرنا (عمر بن شبة)، قال أخبرني (أبو بكر الباهلي)، قال: خَلَت أم الورد العجلانية برجل فقالت:

هل انت مطيعي يا نميريّ مرة   وتعصينيَ غدراً إذا طلع الفجرُ
فتجعلها دنيا نعيش بظلّها   فلا عين إلا العِيس والبلد القفرُ».

وذكر من شعرها أرجوزة غزلية فاحشة أيضا[2].

وذكر محققا كتاب (المرزباني) أنهما وجدا في مخطوطة (باريس)، المرقمة (٣٠٦٦ عربيات، الورقة ٣٩)، خبراً عن كتاب (النساء الشواعر: للحسن بن محمد بن جعفر بن الطرماح)، منسوباً إلى (أحمد بن أبي طاهر) في كتابه (بلاغات النساء)، قال: «قال ابن الكلبي: كانت (أُمّ الورد العجلانية) واسمها (جُمْل) شاعرة إسلامية ماجنة، فتزوجت برجل فعجز عنها، فقدمت إلى والي اليمامة فقالت له :

والله لا يمسكني بضمٍّ   ولا بتقبيلٍ ولا بشمٍّ
ولا بزعزاعٍ يسلّي همّي   تطيح منه فتخي في كمّي

ففرق بينهما، ثم تزوجت رجلاً فرضيته، وزوجت أخاها أخت زوجها فعجز عنها»[3]، وأورد لها شعراً في هجاء أخيها هذا.

---

(١) م. ن: ١١٠، ١١٢ .
(٢) انظر: م. ن: ١١٤-١١٥ .
(٣) م. ن: ١١٠-١١١ .

وقد جاء النص السابق في كتاب (ابن طيفور)[1] المطبوع، ولكن ليس في المطبوع إلا « قال (الكلبي): امرأة يقال لها: (أُمّ الورد) تزوجت برجل فعجز عنها. . . »، دون أن ينسبها (لبني العجلان)، ولم يقل: إن اسمها (جُمْل) شاعرة إسلامية ماجنة. وقد أشار محققا (أشعار النساء)[2] إلى أن في المخطوط المذكور أشعاراً جيدة لأُمّ الورد، «منها قصيدة تصف هنّ (عمارة) امرأة (السري بن عبدالله الليثي)، الذي تولّى (اليمامة) قبل سنة ١٤٣هـ»، وهذا يعني أن (أُمّ الورد) عاشت في العصر العباسي.

ومن أعلام بني العجلان: (أبو خالد العجلاني)، نقل عنه (الشيباني - ٢٠٦هـ = ٨٢١م)، وقال: إنه «من رهط (ابن مقبل) دِنْيَة»[3]. وقد نُقِلَتْ عنه بعض الروايات والتفاسير لما جاء في شعر ابن مقبل[4].

---

(١) بلاغات النساء: ١١٥-١١٦ .
(٢) ١١١ .
(٣) البكري: ما استعجم: ١٢٠٨ .
(٤) انظر مثلاً: م. ن ، والسكري: ديوان جران العود: ٣٤ ، والحموي: البلدان: (برحايا)، و(ضدوان)، و(الوحيدان)، وغير ذلك .

ثالثاً - مكانة (ابن مقبل) في الجاهلية والإسلام

أ - المكانة الاجتماعية :

مكانة ابن مقبل - في الجاهلية والإسلام - مستوحاة، في جانبها الإنساني، مما وصل إلى هذا العصر الراهن من أخبار عنه وعن سيرته، وما دام الزاد بتلك الأخبار قليلاً، فإن تَمَثُّل مكانته تلك سيأتي دون الحد الأمثل في هذا البحث. بل إن حصيلة ذلك قد لا تسعف في فهم مكانته، إلا بالاستنتاج والاستشفاف لما يرسم بعض الملامح عنها إنْ في جاهليته أو في إسلامه.

فمن الملحوظ أن قبيلة (بني العجلان) لاتكاد تُذْكر إلا اقترنت باسم ابن مقبل(١)، حتى إنهم سُمُّوا أحياناً (رهط ابن مقبل)(☆)، وكأنهم قد شُهِروا بشاعرهم هذا، أو أنه كان هو الأشهر فيهم. ولئن كانت للشعراء عند العرب تلك الحفاوة والتقدير، فإن مكانة هذا الشاعر كانت تطغى على غيره من رهط (بني العجلان)، طغياناً أخمل شعراء قبيلته الآخرين، ومنهم إخوته الشعراء المذكورون(٢). وليس أدلّ على هذا من أن الباحث عن المنتسبين لبني العجلان هؤلاء، لا يلفي منهم - غير (ابن مقبل) - إلا بضعة نَفَرٍ مغمورين، أي أن هذا الشاعر قد أخمل ذكر الأعلام بحي بني العجلان شعراء وغير شعراء.

أفلا ينبئ هذا بتسنّم ابن مقبل مكانة مرموقة غير منافس فيها من أهله؟، وهي مكانة ليست فنية فحسب، بل هي مكانة اجتماعية أيضا.

ولقد مرت بعض مواقف في أخبار الشاعر يستنبط منها أنه كان وجيهاً في

---

(١) انظر: ابن قتيبة: المعارف: ٨٩-٩٠، وابن عبد ربه: ٣/١٧، ٥/٣١٨، وابن حزم: ٢/٢٨٨، وابن رشيق: ١/٧٦، والقلقشندي: نهاية الأرب: ٦٧، والعسقلاني: ٦/٤٩٣، وغيرها.

(☆) ومن ذلك قول (النجاشي الشاعر) مثلاً: «...فعادَى بني العجلان رهط ابن مقبل».

(٢) انظر: ابن رشيق: ٢/٣٠٨.

قومه، يُلْجأ إليه لمعالجة بعض القضايا المتعلقة برهطه (بني العجلان)، أو - على نطاق أوسع - بقومه (بني كعب)، وخصوصاً في ما يتعلق منها بالشعر؛ إذ كان هو ممثلها في هذا الميدان.

فمن ذلك ما جاء في بعض الروايات، من أن (ابن مقبل) كان لسان بني العجلان لدى (عمر بن الخطاب)، في مسألة هجاء (النجاشي الحارثي) لهم[1]، بل إن قصيدة الحارثي في هجائهم قدنسبتْهم إلى ابن مقبل، حيث يقول:

إذا اللهُ عادَى أهلَ لُؤْمٍ ودقَّةٍ فعادَى بني العجلان رهطَ ابن مقبلِ

وبهذا يتبين أن ابن مقبل كان شديد الارتباط برهطه، وكذلك هم كانوا شديدي الارتباط به؛ حتى إن الشعر إذا وُجّه إليه مسّهم، وإذا وُجّه إليهم مسّه، وما ذلك إلا لوجاهته فيهم ومكانته منهم.

وكان ذا مكانة في قومه (بني كعب)، تمثّلت في مجيئهم ينتصرون به على (الأعور بن براء الكلابي)، وكان الأعور قد هجا بني كعب ومدح قومه (بني كلاب)، فكان إغضاء (ابن مقبل) عن رد الهجاء بالهجاء وراء تصالح هذين الحيين، وقد سلفت قصة ذلك[2].

ومكانة (ابن مقبل) تظهر في وجهين من ذلك الخبر:

فالوجه الأول - هو ما كان من استنصار بني كعب به ليذبّ عنهم ما قال الأعور فيهم؛ فذلك يعني أنه كان سلاحاً في قومه، يناط به أمر منافحة الهجّائين من الشعراء إذا نالوا من أهله، وفي هذا تأكيد على مكانته الشعرية في بني كعب .

---

(١) انظر: ثعلب: ٨/٣٦٣-٣٦٤، والبغدادي: الخزانة: ١/٢٣١-٢٣٣، والعسقلاني: ١/٣٧٧-٣٧٨، والموصلي (مخطوط): الورقة: ٢٢٠/ب، وابن معصوم: ٣/٦١-٦٣.

(٢) راجع: أولاً : ب - ٢ - ٢ .

أما الوجه الآخر من هذين الوجهين، فهو مسالمته وإعطاؤه المقادة، لا عجزاً ولا ذِلّة، بل حلماً وأنفة[1]، الأمر الذي أدى إلى الإصلاح بين ذوي القربى من حيي (كعب) و(كلاب)، ودفع (بالأعور) دفعاً نحو العقل ونبذ عمايات هجاء بني العمّ، فإذا هو يأتي معتذراً عمّا بدر منه، وإذا هو يُثني على من كان هجاهم من قبل، وكان السبب في هذا كله موقف (ابن مقبل) في معالجة النَّزق بفضل الحلم وحسن الإغضاء؛ منسجماً في هذا مع أصالة طبعٍ، وإحساس بمكانته في توجيه الرأي وقيادته، لا في (العجلان) قبيلته أو في (كعب) قومه فحسب، بل في سائر أحياء (بني قيس عيلان) كذلك.

وهناك الخبر الذي سقناه عن القصة بين الشاعر و(عَصَرَ العُقَيْلي) وابنتيه[2]، وكيف اهتم عَصَر لانصراف الشاعر عن داره مغاضباً؛ لِما أحسّه من ازورار ابنتي عَصَر عنه، وهزئهما بكبره وعوره، فجاز ولم يشرب، فلمّا علم عَصَر ذلك لحق بالشاعر، وأغراه بأن يُنْكِحَهُ مَن يصطفي من ابنتيه هاتين، وقيل: إن (عَصَر) قد خيّره في نصفي إبله أيضا، فعاد وقد منحه ما اصطفاه وما اختاره من أهل بيته وماله.

ولهذا الخبر معان تتجلى عن قدر مكانة الشاعر: فعلام يبالغ (عَصَر) في العذر مبالغةً، إلّا يكن هذا الشاعر في رأيه خليقاً منه بذلك؟.

وربما يقول قائل إن (عَصَرَ العُقَيْلي) - كما يبدو من نسبته - من (بني عُقَيْل ابن كعب بن ربيعة)، فهو يلتقي مع (ابن مقبل) في جَدِّه (كعب)، أي أنه ابن عمه، وأيّ عجبٍ من أن يبالغ المرء في تكريم بني عمّه؟، ولعل مخافته من لسانه

---

(١) انظر: ابن رشيق: ١/١٠٧-١٠٨، ٢/١٦٧-١٦٨.
(٢) راجع: أولاً: ب - ٢ - ٣.

كان مع السبب الأول خلف ترضّيه إياه، بغية إسكاته، عمّا قد يرسل فيه وفي أهله من سهام الهجاء.

أيّاً ما كان السبب في موقف (عَصَر) هذا، فالخبر ما ينفكّ دالاًّ على مكانة (ابن مقبل) عند قومه بخاصة، وعند العرب بعامة؛ فإذا كان السبب فيه صلة القربى، فذاك دليل مكانته في قومه، وإذا كان الخشية من قالة سوء بين الناس، فذاك دليل مكانته الشعرية عند العرب بوجه عام.

ولقد يصعب تحديد زمان بعض الأخبار المستنبطة منها منزلة الشاعر ومكانته هذه، أتعبرّ عن منزلته ومكانته في الجاهلية أم في الإسلام، إلا ما ظهر عليه دليل منها، كخبره مع (النجاشي الحارثي) واحتكامهما إلى (عمر رضي الله عنه)، فهذا إسلامي واضح، أو ما أمكن الاستدلال على تحديد زمانه بقرائن فيه، كخبره مع (عَصَر العُقَيْلي) الآنف ذكره، فالراجح أنه إسلامي أيضا، وقد سلف التعليل لذلك[1]، أمّا ما عدا ذلك فلا سبيل إلى تمييز الإسلامي منها عن غير الإسلامي. وذلك يستتبع ألّا يمكن تمييز مكانته في الجاهلية عن مكانته في الإسلام، تمييزاً معتمداً على تلك الأخبار.

بيد أن مكانته في الإسلام عند (بني العجلان) أو عند غيرهم من العرب - مما بانت بعض ملامحه في ما سبق - كانت لا جرم امتداداً لمكانته قبل الإسلام، وآية ذلك أن ما وصل من أخباره يفيد بأنه لم يفارق في العصر الإسلامي نمط الحياة أيام الجاهلية وما اعتاده فيها[2]، فلم ينتقل عن ديار العشيرة ليعيش بمصر من أمصار الإسلام المفتوحة، ولم يتبدّل من شأن حياته شيء ذو بال، اللهم إلا

---

(١) راجع : م.ن .
(٢) راجع: أولاً : ب - ٣ .

ماكان يقتضيه العصر الإسلامي وطابعه الخاص، أما ما خلا ذلك من حياة الشاعر القَبَلِيَّة، وتعلّقه ببقايا الفخر ببني قومه، وذكر مآثرهم، وذياد عوادي القول عنهم، فقد ظل جلياً في شعره، وجاء ديوانه على نحو متفق منه، لا يُلمس بين قصائده تباين فيه[1]، وذاك يؤكّد أن مكانته القَبَلِيَّة والقومية في الإسلام، ما هي إلّا صورة، إنْ لم تكن مطابقة، فهي مقاربة لما كان عليه قبل الإسلام.

ب - مكانته من الإسلام:

أسلم (ابن مقبل)، ولم ير (النبي ﷺ)[2]. وكان أول من أشار إلى إسلامه من مصادرنا (الجمحي)[3]. ونعى عليه جفاءً في الدِّين، ومرّت مناقشة ذلك[4].

وقصارى القول: إن الشاعر كان مسلماً كعامة من أسلم، لا يتضح من شعره ما ينقص من هذا أو ما يرفع منه، فهو - كما يبدو من شعره - أعرابيٌّ أسلم إسلام سواه من الأعراب، لا شيء في سيرته أو شعره ينفي نفياً عنه هذا الوصف، أو يثبت إثباتاً أن جفاءً قد ران على إسلامه. لكنّا لا نزعم أيضاً أن في أخباره أو في شعره ما ينبئ عن قوة إيمان، تشبه ما عند بعض شعراء الصدر الأول للإسلام. ولهذا أسباب أظهرها:

أولاً - أن الرجل أدرك هذا الدِّين وقد تقدّمتْ به سِنّه، وإذا كان هنالك من برّز في الإسلام، برغم إدراكه إيّاه في سن الشيخوخة، فإن طبائع الناس متباينة في هذا الشأن. ولعله ماكان من المنتظر من (ابن مقبل) أن يظهر في

---

(١) راجع: م.ن. وانظر: الجاهلية في شعره (الباب الأول - الفصل الأول).
(٢) انظر: العسقلاني: ١/ ٣٧٧.
(٣) انظر: ١٥٠، وابن رشيق: ١/ ٣٠٥.
(٤) راجع: أولاً: ب - ٣.

غزوات الإسلام أو فتوحاته، أو في أي مشاركة فعليّة ذات خطر؛ نظراً لشيخوخته، حتى إن بصره قد كُفَّ في تلك الحقبة[1].

ثانياً - ربما كان لتفريق الإسلام بينه وزوجته (دهماء) - التي خَلَفَ عليها بعد أبيه، كعادة أهل الجاهلية، وكان شديد الكَلَف بها حتى آخر عمره - ربما كان لهذا التفريق علاقة بِبُعده في شعره عن التفاعل بأحداث الإسلام وما جدّ من الأفكار أو الأحوال، فإذا شعره يأتي موسوماً بطوابع جاهلية، لا يكاد يمتاز بشيء مما امتاز به شعر بعض معاصريه من الإسلاميين.

ثالثاً - كان الشاعر شديد الارتباط برهطه وقبيلته، وهذا ما يعرب عنه شعره. وهذا الشعر يدلّ كذلك على أن لقائله نشأة أعرابي، فيها غير قليل من غلظة تلك الصحراء، التي أنفق فيها زهرة عمره، وفيها - مع هذا - عزلته عما يضطرب فيه العالم من حوله، فهو بذلك أبعد ما يكون عن التأثر بما يمكن أن يتأثر به من أمّوا الأمصار من الشعراء. جاء الإسلام وغيرّ في الأمة ما غيرّ، وبقي الشاعر على مألوفه في مجتمعه البدوي وبيئته الأُولى، معتزلاً حواضر الإسلام، كما يدلّ على ذلك شعره، وكما توحي به أخباره[☆].

إذن، ففي هذا تفسير ما يستشعره قارئ شعر (ابن مقبل) الإسلامي، من فرقٍ بين هذا الشعر وشعر معاصريه في العهد الإسلامي الأوّل، على أن هذا قد لايصلح حكماً قطعياً على الشاعر نفسه؛ لفقدان ما يسنده من شواهد الأخبار عن الشاعر، وإنْ كان لهذا الشعر دلالات يستأنس بها في معرفة حياة الشاعر ومكانته من الإسلام.

---

(١) راجع: أولاً : ب - ٤ .

(☆) ومما يشهد بعزلة هذا الشاعر أنه لم ير (النبي ﷺ). وفي الإمكان القول: إنه ربما زار في بعض حياته بعض الأمصار لماماً، إلا أن ماله ومستقره كان غالباً بادية الأعراب.

جـ - المكانة الفنية :

تنبغي الإشارة أولاً إلى أن هذا المبحث سيأتي مفصلاً في جزء مستقل لاحق من هذه الدراسة بإذن الله(١)، غير أن الحديث عن مكانة الشاعر في هذا المدخل، يقتضي إعطاء القارئ صورة موجزة لمكانته الفنية.

فقد جعله (الجمحي)(٢) في الطبقة الخامسة من طبقات فحول الشعراء الجاهليين، ووصفه بأنه «شاعر مجيد(☆) مُغَلَّب، غُلِّب عليه النجاشي، ولم يكن إليه في الشعر، وقد قهره في الهجاء...»(٣).

والمُغَلَّب: من الأضداد، «قال (أبو حاتم): المُغَلَّب: المغلوب مراراً، والمُغَلَّب: الغالب»(٤)، وقال (الأصمعي)(٥): «كان يقال: أشعر الناس مغلَّبو مُضَر: (حميد)، و(الراعي)، و(ابن مقبل)...».

على أن الأصمعي(٦) نفسه لم يعدّ ابن مقبل من الفحول، عند ما سُئِل عنه.

وبرغم الملاحاة التي كانت بين (الأخطل) وابن مقبل، فإن الأخطل لـمّا سأله (عبدالملك بن مروان): من أشعر الناس؟، قال: «العبد العجلاني(☆٢)،

---

(١) انظر: الباب الخامس.

(٢) انظر: ١٤٣-١٥٠.

(☆) وفي رواية (نشرة الألماني (جوزف هل): ٦٣): «خِنْذِيذ»، وقال (ابن منظور: (خنذ)): «الخنذيذ: الشاعر المُجيد المنقِّح المُفْلِق»، وقال (ابن رشيق: ١/ ١١٥): «قالوا: الشعراء أربعة: شاعر خنذيذ، وهو الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره، وسئل (رؤبة) عن الفحولة، قال: هم الرواة، وشاعر مُفْلِق: وهو الذي لا رواية له إلا أنه مجوِّد كالخنذيذ في شعره، وشاعر فقط: وهو فوق الرديء بدرجة، وشُعْرُور: وهو لا شيء...».

(٣) وانظر: الأصمعي: فحولة الشعراء: ١٧، وابن دريد: الاشتقاق: ٢٥، وأبا الطيب اللغوي: الأضداد: ٢/ ٥١٨-٥١٩، وابن رشيق: ١/ ١٠٦.

(٤) أبو الطيب اللغوي: م.ن: ٢/ ٥١٨.

(٥) فحولة الشعراء: ١٧. وانظر: أبا الطيب اللغوي: م.ن: ٢/ ٥١٨-٥١٩.

(٦) انظر: م. ن: ١٢، والمرزباني: الموشح: ٧٣.

(☆٢) قال (ابن منظور: (عبد)): «العبد: الإنسان، حرّاً كان أو رقيقاً، يُذْهَب بذلك إلى أنه مربوب لباريه، جل وعز...». فلعل (الأخطل) إنما قصد هذا عندما سمّاه عبداً، أو ربما عنى تحقيره، لما كان بينهما من التهاجي، فابن مقبل لم يقل أحدٌ بِرِقِّه، بل إن الذي يظهر من نسبه وأخباره هو أنه كان من سادة قومه ووجهائهم.

قال: بِمَ ذاك؟، قال: وجدته قائماً في بطحاء الشِّعر، والشعراء على الحَرْفَين. قال: أعرف ذاك له كرها. يعني (ابن مقبل)»[(1)].

ومن الأقوال السابقة يتبين أن الشاعر كان يتبوأ مكانته الفنية في الجاهلية والإسلام، ولئن اختلفت تلك الأقوال بعض الاختلاف في تقدير مكانته، فخلاصتها تنبئ أنه كان شاعراً مجيداً فحلاً، ذا مكانة رفيعة بين شعراء قومه[(☆)]، وبين الشعراء العرب بعامة، في الجاهلية والإسلام. هذا ما يحسن إثباته هنا، على أن لتفصيل القول ومناقشة الآراء مجالاً يلحق منفرداً مختصّاً في هذا الموضوع. (انظر: الباب الخامس).

وقد عني القدماء بشعر هذا الشاعر وصناعته؛ فـ(ابن النديم)[(2)] يقول: «تميم بن أبي [بن] مقبل عمله: (أبو عمرو)[(☆2)]، و(الأصمعي)[(☆3)]، و(الطوسي)[(☆4)] و(ابن السكيت)[(☆5)].

وفي موضع آخر، يذكر (ابن النديم)[(3)] (ابن مقبل) ضمن جماعة من الفحول وقطعة من القبائل، عمل (السكري)[(☆6)] أشعارها.

---

(1) ثعلب: ٩/٤١٣. وانظر كذلك: النهشلي: ٣١٠، وابن رشيق: ١/٩٧، والسيوطي: المزهر: ٢/٤٨٢.

(☆) ومن عجب أن (ابن رشيق)، في حديثه عن تنقّل الشعر في قبائل العرب، ذكر شعراء قيس وأغفل ابن مقبل، على تقدمه فيهم. (انظر: ١/٨٦-٩٠).

(2) ٢٢٤ .

(☆2) هو : أبو عمرو الشيباني؛ فقد ذكره هكذا قبل هذا النص وبعده، من السياق نفسه الذي أورد فيه أسماء الشعراء ومَن عمل شعرهم من العلماء، وهو: إسحاق بن مرار الشيباني، بالولاء، (-٢٠٦هـ = ٨٢١م). (انظر: ابن النديم: ١٠١-١٠٢)، و(الزركلي: ١/٢٩٦).

(☆3) الأصمعي: عبدالملك بن قُرَيب، (-٢١٦هـ = ٨٣١م). (انظر: ابن النديم: ٨٢)، و(الزركلي: ٤/١٦٢).

(☆4) الطوسي: «أبو الحسن علي بن عبد الله بن سنان التيمي، عالم رواية القبائل وأشعار الفحول . وكان أكثر مجالسته وأخذه من (ابن الأعرابي)... وكان الطوسي عدوّاً لابن السكيت؛ لأنهما أخذا عن (نصران الخراساني)، واختلفا في كتبه بعد موته، ولا مصنف له»: (ابن النديم: ١٠٦).

(☆5) ابن السكيت: يعقوب بن السكيت، (-٢٤٤هـ = ٨٥٨م). (انظر: م.ن : ١٠٧-١٠٨)، و(الزركلي: ٨/١٩٥).

(3) انظر: ١١٧ . وكذلك: الحموي: الأدباء: ٣/٦٣، والقِفطي: الإنباه: ١/٢٩٢-٢٩٣.

(☆6) أبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبدالله بن عبدالرحمن بن العلاء السكري، (-٢٧٥هـ = ٨٨٨م) (انظر: ابن النديم: م.ن)، و(الحموي: م.ن: ٣/٦٢-٦٤)، و(الزركلي: ٢/١٨٨).

ومن ذلك (شرح ديوان تميم بن أُبَيّ بن مقبل)، الذي وضعه (أبو عبد الله محمد بن المعلّى بن عبد الله الأسدي الأزدي النحوي اللغوي)(١).

وكان ديوان (ابن مقبل) ضمن الدواوين التي نقلها (القالي - ٣٥٦هـ = ٩٦٧م) إلى (الأندلس)، ذكره (أبو مروان ابن سراج)، مما رواه عن (أبي سهل الحراني)(٢).

ويبدو أنها كانت (لابن السيرافي - ٣٨٥هـ = ٩٩٥م) عناية بشعر هذا الشاعر؛ فـ(البغدادي)(٣) يقول عن أحد الأبيات: «أنشده ابن السيرافي لتميم ابن مقبل، ولم أره فيما كتبه، من شعره». وكتب محقق كتاب البغدادي، في «فهرس الكتب والمصادر»: «(ديوان تميم بن أبي بن مقبل) جَمْعُ ابن السيرافي»(٤). وكان ابن السيرافي(٥) أقدم من وقفنا عليه إشارة إلى ديوان ابن مقبل. وقد كان يرجع إليه في تصحيح رواية بعض الشواهد وذكر سياقاتها، فتأتي روايته لذلك مطابقة لرواية الأصل المحقّق بين أيدينا، عدا ما قد يكون من التصحيف أو التطبيع. وفي هذا ما يعزّز الثقة بصحة الأصل المخطوط الذي وصل إلى هذا العصر، متمثّلاً في ما أخرجه للناس محقَّقاً كُلٌّ من (عزة حسن)، و(أحمد توريك)، ولعله برواية أحد هؤلاء العلماء القدماء الذين قيل إنهم اهتموا بجمعه وشرحه.

---

(١) انظر الحموي: م.ن: ٧/١٠٧، والبلدان: (أحراض) وغيرها، والمشترك: ١٧، والسيوطي: بغية الوعاة: ١/ ٢٤٧، وراجع ترجمة ابن المعلّى: ثانياً: أ - ٤، في سياق الحديث عن مياه (الحليقة).

(٢) انظر: الإشبيلي: فهرست ما رواه: ٣٩٧.

(٣) الخزانة: ٨/ ١٥٤.

(٤) م. ن: ١٣/ ٥٠.

(٥) انظر: ١/ ٥٤٣-٥٤٤، ٢/ ١١٧.

وقد أخذ العلماء تفسير بعض كلمات من شعره عن ابنته (أُمّ شريك)، كما يشير إلى ذلك (البكري)[1][☆].

وإنه لمن المؤسف ألّا نجد اليوم شيئاً من تلك الأعمال التي ألّفها القدماء عن هذا الشعر، فضياعها - إذا كانت قد ضاعت حقّاً - خسارة كبيرة، وهو من سوء طالع هذا الشاعر، ولا سيما أن من نهضوا بها هم من صفوة أهل العلم في التراث العربي، وما عنايتهم هذه إلا برهان آخر على مكانة ابن مقبل الشعرية عندهم[☆٢].

وقد استأنس بعض القدماء من النقاد برأي الشاعر، فقد نقل (القرشي)[2] عن (المفضل) رأي كُلٍّ من: (الفرزدق)، و(ابن أحمر)، و(الكميت)، و(ابن مقبل)، و(ذي الرمة)، و(جرير)، و(الأخطل)، في أشعر الناس؟، وكان رأي

---

(١) انظر: ما استعجم: ١٣١.

(☆) قال (عزة حسن: المقدمة: ٢٠) إن (البكري: م.ن) قال ما يلي: «وقد أخذ العلماء بعض شعر تميم بن أبي بن مقبل عن ابنته أمّ شريك، بل إنهم رووا عنها تفسيراً لكلمات في شعره»، وأشار إلى الصفحة نفسها من كتاب (البكري). وقال (جواد علي: ٩/٧٦): «فقد جاء قسط كبير من شعر الشاعر (تميم بن مقبل) عن ابنته أمّ شريك»، ولم يذكر مرجعه في ذلك، ولعله أخذه عن نص (عزة حسن) السابق، أما (البكري: م.ن)، فلم يذكر إلا أنه «يقال: أذرع أكباد، وهي ضِلَع سوداء من جبل يقال له: أكباد. كذلك فسّرت أمّ شريك بيت أبيها تميم بن أبي بن مقبل:...».

(☆٢) كان أقدم من ذكر أعمال (أبي عمرو)، و(الأصمعي)، و(الطوسي)، و(ابن السكيت)، و(السكري)، لشعر ابن مقبل هو (ابن النديم (-٤٣٨هـ = ١٠٤٧م): ٢٢٤، ١١٧)، وربما كان قد رأى هذه الأعمال أو شيئاً منها، وإن لم يكن في كلامه ما يدل على ذلك. ثم نقل عنه (الحموي (-٦٢٦هـ = ١٢٢٩م): الأدباء: ٣/ ٦٣) ما ذكره من أعمال السكري، ومنها عمله في شعر ابن مقبل، كما ذكرها أيضاً (القِفطي -٦٤٦هـ = ١٢٤٨م): ١/ ٢٩٢-٢٩٣). أما (شرح ديوان تميم بن أبي بن مقبل: لمحمد بن المعلّى الأزدي) فكان أقدم من ذكر أنه رآه (الحموي) في كتبه المشار إليها سابقاً، وكان يكرر القول كثيراً إنه ينقل عن خط مؤلفه نفسه. ونقل عنه ذلك (السيوطي (-٩١١هـ = ١٥٠٥م): البغية: ١/ ٢٤٧)، مما يدلّ على عدم رؤيته ذلك الشرح. ومع أنّا لم نقف على شيء من تلك الأعمال، أو على إشارة ما إلى وجودها في هذا العصر، فقد يبدو من المستبعد ضياع جميع تلك الأعمال الستة، أو السبعة، إذا كان ابن السيرافي قد صنع شعر ابن مقبل أيضاً، كما أشار البغدادي أعلاه. على أن ندرة ديوان ابن مقبل تبدو قديمة؛ فبالإضافة إلى ما سبق، يلاحظ أن (العيني (-٨٨٥هـ = ١٤٥١م): المقاصد: ٤/٥٩٦-٥٩٧) ذكر ما جمعه من دواوين الشعراء المتقدمين الذين احتج بهم نحاة الأولين والآخرين، وهي ما ينيف على مئة، ولم يذكر فيها ديوان ابن مقبل، و(البغدادي: الخزانة: ١١/ ٦٠) يشير إلى أنه لم يكن لديه ديوان ابن مقبل عند تأليفه الخزانة، الذي استغرق من (غرة شعبان ١٠٧٣هـ = السبت ١٠/ ٣/ ١٦٦٣م) إلى (ليلة الثلاثاء ٢٢ من جمادى الآخرة ١٠٧٩هـ = ٢٦/ ١١/ ١٦٦٨م) و(الشنقيطي (-١٣٣١هـ = ١٩١٣م): الدرر: ٢/ ٥٧، ١٣١) يسجّل في أثناء شواهده أنه لم يعثر على أبيات لابن مقبل، وإنما ينقل عن متقدميه.

(٢) انظر: ١/ ١٠٤-١٠٥.

ابن مقبل: أن (طرفة) هو أشعر الناس.

وفي ضَمِّ ابن مقبل إلى أولئك الشعراء الإسلاميين الكبار دليلٌ على مكانته فيهم، وفي ذكر رأيه النقدي شهادة بدرايته بالشعر ومكانته النقدية عند النقّاد القدماء.

ولشعر هذا الشاعر مكانته عند اللغويين كذلك، فكتب اللغة زاخرة بشواهد شعره، حتى إنه لا يكاد يخلو كتاب لغوي قديم منه؛ لما يحفل به من الفصيح، وغريب اللغة ونادرها.

كما أن لهذا الشعر مكانته في كتب البلدان ومعاجمها، وكثيراً ما يستشهد به الجغرافيون لذكر مكان أو تحديده؛ ففيه لديهم ما يمكن أن يكوّن معجماً بأماكن شتّى من: جبال، وهضاب، وأودية، وأمواه، ومواضع مختلفة في أصقاع الجزيرة العربية(☆).

وللشاعر رأيٌ في شعره أيضاً، فلقد كان معجباً به مُدِلاً بعمله فيه، حتى إنه لا يرى تالياً بعده مثله في الدراية بالشعر ومسالكه، فيقول(١)(☆٢):

إذا مِتُّ عن] ذِكْر القوافي فلن تَرَى [لها تالياً مثلي أ]طبَّ وأشعرا
وأكثر بيتاً مارداً ضُرِبَتْ لهُ حُزونُ جبال الشعر حتى تَيَسَّرا
أغَرَّ غريباً يَمْسَحُ الناس وَجْهَهُ كما تَمْسَحُ الأيدي الأغَرَّ المُشَهَّرا

تلك هي مكانة (ابن مقبل)، إنساناً، وشاعراً، في الجاهلية والإسلام.

□□□□□

(☆) استشهد بشعره (الحموي: البلدان) نحواً من (١٥٠ مرة).

(١) ديوانه: (١٣٦/٢٦-٢٨) = (ط. TÜREK: ٥٥/٢٦-٢٨).

(☆٢) أغر: يقصد البيت الشعري. والأغر (الأخيرة): الفرس ذو الغرة البيضاء في جبهته. المشهر: المشهور. (انظر: ابن منظور: (غرر)، (شهر)).

الباب الأول

شعر (ابن مقبل):
بين الجاهلية والإسلام

الخضرمة

قال (ابن منظور)[1]:

«. . .والخَضْرَمَة: قَطْع إحدى الأُذنين، وهي سِمَة الجاهلية. . .وكان أهل الجاهلية يُخَضرِمون نَعَمَهم، فلما جاء الإسلام أمرهم (النبي ﷺ) أن يُخَضْرِموا من غير الموضع الذي يُخَضْرِم منه أهل الجاهلية، وأصل الخضرمة أن يجعل الشيء بَيْنَ بَيْنَ. . . ورجل مخضرم إذا كان نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام. وشاعر مخضرم: أدرك الجاهلية والإسلام مثل (لبيد) وغيره ممن أدركهما».

وقال (الجاحظ)[2] تحت عنوان «كلمات إسلامية محدثة»:

«وأسماء حدثت ولم تكن، وإنما اشتقّت لهم من أسماء متقدّمة، على التشبيه، مثل قولهم لمن أدرك الجاهلية والإسلام: مُخَضْرَم (كأبي رجاء العُطاردي، ابن سالمة)، و(شقيق بن سالمة)، ومن الشعراء: (النابغة الجعدي)، و(ابن مقبل)، وأشباههم من الفقهاء والشعراء. ويدل على أن هذا الاسم أُحْدِثَ في الإسلام، أنهم في الجاهلية لم يكونوا يعلمون أن ناساً يسلمون وقد أدركوا الجاهلية، ولا كانوا يعلمون أن الإسلام يكون».

وقال (ابن رشيق)[3]:

«. . . وحكى (ابن قتيبة) عن (عبدالرحمن)[☆] عن عمه، قال: أسلم قوم في الجاهلية على إبل قطعوا آذانها، فسمي كل من

---

(١) ابن منظور: (خضرم).

(٢) الحيوان: ١/ ٣٣٠-٣٣٢.

(٣) ١/ ١١٣-١١٤.

(☆) عمه هو الأصمعي. (انظر: محقق ابن رشيق).

أدرك الجاهلية والإسلام مُخَضْرَماً، وزعم أنه لا يكون مخضرماً حتى يكون إسلامه بعد وفاة (النبي ﷺ) وقد أدركه كبيراً ولم يُسْلم، وهذا عندي خطأ؛ لأن (النابغة الجعدي) و(لبيداً) قد وقع عليهما هذا الاسم، وأمّا (علي بن الحسين كُراع) فقد حكى: شاعر مُحَضْرَم - بحاء غير معجمة - مأخوذ من الحضرمة، وهي الخلط؛ لأنه خلط الجاهلية بالإسلام».

ذلك مفهوم الخضرمة، وقد كان (ابن مقبل) مخضرماً كما سلف، إلا أن شعره لاتبرز فيه فوارق بيّنه تواكب ذلك التحوّل الكبير من العصر الجاهلي إلى الإسلامي، فقد بقي الطابع الجاهلي مسيطراً على الشعر الذي أنشأه في الإسلام، وهذا جعل فصل الجاهليّ عن الإسلاميّ من شعره صعباً، ما لم تكن هناك قرائن خارجية تدلّ على عصر القصيدة.

من أجل ذلك كان الاتجاه إلى التماس ما يمتّ إلى الثقافة الجاهلية أو الإسلام بصلة في شعره، ويشمل ذلك: الأفكار، والعادات، والمعتقدات، والممارسات، ونحو ذلك من متعلقات الجاهلية أو الإسلام، في سبيل اكتشاف تأثره بكلا هذين العصرين، ومدى التفاوت في هذا التأثر، وربما أمكن بعد هذا وضع خط تأريخيّ تقريبي - يفصل بين بعض قصائده في الجاهلية وقصائده في الإسلام.

الفصل الأول

الجاهلية في شعره

الجاهلية في شعره

قال (ابن منظور)[1] في شأن الحديث «إنك امرؤ فيك جاهلية»: «هي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدِّين والمفاخرة بالأنساب والكِبْر والتجبّر وغير ذلك».

لسنا بصدد تفسير هذا الحديث هاهنا، لكنّ في تعريف ابن منظور هذا للجاهلية مدخلاً يبيّن منهج هذا الفصل؛ فـ«الجاهلية في شعره»: كل ما في شعره من أفكار، أو عادات، أو معتقدات، أو ممارسات أو جوٌّ له تعلّق بالجاهلية، بهذا المفهوم.

ويجب التنبيه إلى أن ممّا ينسب إلى الجاهلية هنا أشياء بقيت بعد الإسلام، بل قد يكون منها ما لم يرفضه الإسلام، أو حتى ما أقره وحبّبه، ولكنها تنسب إلى الجاهلية بالنظر إلى المنشإ والأصل الذي ابتدأت منه.

وقد تقدّم ما وُصف به (ابن مقبل) من جفاء في الدِّين، ونوقش ذلك في مكانه، وكانت الخلاصة أن تحقيق صحة هذا الوصف من خلال شعره - إذا جاز ذلك - يعتمد على التفريق أولاً بين شعره الجاهلي وشعره الإسلامي[2]، ولعل في هذا الفصل والذي يليه بعض ما يعين على ذلك.

أ - الأفكار

أ - ١ - الدهر:

من الأفكار الجاهلية في شعر ابن مقبل فكرة (الدهر). وقد قال تعالى:

(١) (جهل).
(٢) راجع: المدخل: أولاً: ب - ٣.

﴿وَقَالُوا: ما هيَ إلّا حَياتُنا الدُّنيا نَمُوتُ ونَحْيا وما يُهلِكُنا إلا الدَّهْرُ وماهُمْ بذلك من عِلْمٍ إنْ هُمْ إلّا يَظُنُّون﴾[١]، وقال ﷺ[٢]: «قال الله: يسب بنو آدم الدهر، وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار»، قال (الراغب)[٣]: «قد قيل معناه إن الله فاعل ما يضاف إلى الدهر من الخير والشر والمسرة والمساءة، فإذا سببتم الذي تعتقدون أنه فاعل ذلك فقد سببتموه تعالى عن ذلك».

فمن ذلك قوله في رثاء (عثمان بن عفان رضي الله عنه)[٤]:

لِيَبْكُوا على خير البَرِيَّة كلها ... تَخَوَّنَهُ رَيْبٌ من الدهر مُعْطِبُ
ويا عَجَباً للدهر أنّى أصابه ... ومِنْ مِثْلِ ما لاقى ابنُ عَفّانَ يُعْجَبُ

فالفكرة فكرة جاهلية ظلت في شعر هذا الشاعر، مثلما ظلت عالقة بالشعر العربي على مر العصور.

ونقل (الأزهري)[٥] عن (أبي عبيد)، في شأن الحديث النبوي أعلاه، قوله: «وتأويله عندي أن العرب كان شأنها أن تَذُمّ الدهر وتَسُبّه عند النوازل تنزل بهم من موت أو هَرَم، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، فيجعلون الدهر الذي يفعل ذلك، فيذمّونه، وقد ذكروا ذلك في أشعارهم، وأخبر الله عنهم بذلك، ثم كذّبهم...»، وأورد الآية سالفة الذكر.

ولفكرة الدهر بُعْد اعتقادي، تضمنت الآية الكريمة الردّ عليه، وهو ما يعتقده (الدهريون) الملحدون من إنكارٍ للخالق، وما كان يؤمن به جمهور أهل

---

(١) الجاثية: ٢٤.
(٢) صحيح البخاري: ٥/٢٢٨٦.
(٣) المفردات: ١٧٣.
(٤) ديوانه: (١٣/٨، ١٥/١٧) = (ط. TÜREK: ٦/٨، ٧/١٧).
(٥) التهذيب: ٦/١٩١-١٩٢.

الجاهلية من إنكار البعث والجزاء، وأن العالم لا يبيد، وإلّا كان مخلوقاً مبتدعاً[(1)]. ولكنّ شعر (ابن مقبل) لا يحمل ما يدلّ على اعتقاد من ذلك، بل إن في آثاره الجاهلية ما يدلّ على نقيض الدهرية وإنكار البعث (انظر مثلاً: د - ١ - ٢)، وإنما كان يجري على عادة العرب في نسبة النوائب إلى الدهر.

وأمثلة هذا كثيرة في شعره[(2)]، منها على سبيل المثال[(3)(☆)]:

لعلكما أنْ تُجْزَيا قَرْضَ مِثْلِها، على حاجةٍ، إنْ نائبُ الدهر أَطْرَدا
دعا الدهرَ يَفْعَلْ ما أراد فإنه إذا كُلِّفَ الإفسادَ بالناس أَفْسَدا

وقوله[(4)]:

إنْ يَنْقُصِ الدهرُ مني مِرَّةً لِبِلًى فالدهر أَرْوَدُ بالأقوام ذو غِيَرِ[(☆2)]

وقوله[(5)]:

ألم تَرَ أن البحرَ يَضْحَلُ ماؤه فتأتي على حِيتانه نَوْبَةُ الدهرِ[(☆3)]

---

(١) انظر: صاعد الأندلسي: ٤٤، والشهرستاني: ٣/ ٢٥٧، فما بعدها.

(٢) انظر: ديوانه: (٨٠-٨١/ ٢٥-٢٦)، (١٠٩/ ١٠)، (١٤٢/ ٤)، (٢٠٢/ ٥)، (٢٤١/ ١٤)، (٢٧٢/ ٢٣-٢٤)، (٣٢٠/ ٤٢)، (٣٣٧/ ٢) = (ط. TÜREK: ٣٢/ ٢٥-٢٦، ٤٣/ ١٠، ٥٨/ ٤، ٨٤/ ٥، ٩٨/ ١٣، ١١٠/ ٢٣-٢٤، ١٣٤/ ٤٢، ١٣٧/ ٢). وذيل ديوانه: (٣٦٨/ ٣-٤)، (٣٩٢/ ٤٣) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٤٥/ ٤٦-٤٧، ١٥١/ ٢٨).

(٣) ديوانه: (٦٠/ ١٩-٢٠) = (ط. TÜREK: ٢٤/ ١٩-٢٠).

(☆) الضمير في «مثلها» عائد على الشّدة المفهومة من سياق الأبيات السابقة. أطْرَد: أي اطّرد، ولم تذكر كتب اللغة هذه الصيغة. (انظر: عزة حسن)، و(ب٤ ف٢: أ - ٣).

(٤) ديوانه: (٧٧/ ١٦) = (ط. TÜREK: ٣١/ ١٦).

(☆٢) مِرّة: شدة وقوة، والشطر الثاني عند (الزمخشري: المستقصى: ١/ ٣١٨) مَثَل، وقال معناه: «أي يعمل عمله في سكون لا يشعر به».

(٥) ديوانه: (١٠٩/ ١٠) = (ط. TÜREK: ٤٣/ ١٠).

(☆٣) يضحل: يقل. وحيتانه: جمع حوت، ويطلق على السمك عامة، ولعله يعني ها هنا جنس الحيتان العظيمة المعروفة. (انظر: ابن منظور: (حوت)).

وقوله[(١)][(☆)]:

على تَباعدهم، يَنْزِلْ ثوابُكما والدهر بالناس ذو نَقْضٍ وإمْرارِ
لا يُعْتِبُ الدهرُ من أمسى يُعاتبه ولا يزال عليه ساخطاً زاري

١ - ٢ - حميّة الجاهلية :

هذه من السَّجايا الجاهلية، التي أبطلها الإسلام أيضاً، وتشمل عصبيات الفخر، ودعوات الثأر، والإقذاع في الهجاء.

ولئن كان - طبيعيّاً - أن تظهر الحَمِيَّة الجاهلية في شعر (ابن مقبل) الجاهلي، فلا شك في أن ظهور مثل هذه الحَمِيَّة في شعرٍ إسلاميّ أمرٌ ينبو عنه الذوق الإسلامي الداعي للأخوّة والأُلفة ونبذ القَبَلِيّات، فمن هذا قوله في رثاء (عثمان بن عفان)[(٢)][(٢☆)]:

لِيَبْكِ بنو عثمان، ما دام جِذْمُهُمْ، عليه، بأصلالٍ تُعَرّى وتُخْشَبُ
فإنّا سنبكيه بجُردٍ كأنها ضِراءٌ دعاها من سَلُوقَ مُكَلِّبُ
وموتٍ كظل الليل يَشْهَدُ وِرْدَهُ نشاشيبُ يَحْدُوهنَّ نَبْعٌ وتَألَبُ

ولو عُقِدَت مقارنة بين مرثية (ابن مقبل) هذه وبعض مراثي معاصريه،

---

(١) ديوانه: (١١٤/٧-٨) = (ط. TÜREK: ٤٥/٧-٨).

(☆) ثوابكما: الضمير عائد على صاحبيه المذكورين سابقاً، اللذين طلب منهما أن ينظرا معه هل يريا ظعائن الأحبة. ذو نقض وإمرار: أي أن ما يمرّه ويبرمه من الأمور يعود عليه فينقضه. (انظر: ابن منظور: (نقض)).

(٢) ديوانه: (١٣، ١٦/٧، ٢١-٢٢) = (ط. TÜREK: ٦،٨/٧، ٢١-٢٢).

(٢☆) جرد: جمع أجرد وجرداء، وهو الفرس القصير الشعر، وذلك فيه من علامات العِتْق. ضراء: جمع ضِرْو، وهو الكلب الضاري بالصيد. (انظر: ابن منظور: (جرد)، و(ضرا)). سلوق: موضع باليمن تنسب إليه الكلاب السلوقية، (انظر: البكري: ما استعجم: ٧٥٢)، أو ببلاد الروم، يسمى (سَلَقْيَة)، (انظر: ابن منظور. (سلق)). والمكلِّب: مدرب الكلاب. نشاشيب: سهام، جمع: نُشاب. والنبع والتألب: نوعان من الشجر تتخذ منهما القسي الجيدة، (انظر: ب٢ ف٢ : ب من الدراسة). ويحدوهن: يدفعهن، أي أن القياس المتخذة من النبع والتألب تدفع بالسهام وتحدوها.

لتَبَيَّنَ مقدار ما تحمل هذه القصيدة من جاهلية. على أنه يبدو أن الحمية في هذا المنعطف التاريخي، كانت قد بدأت تتخلّق من جديد، فما استطاع الشعراء أن ينجوا منها دائما. يقول (حسان بن ثابت) في إحدى مراثيه (لعثمان)[1]:

أتركتمُ غَزْوَ الدروب وجئتمُ   بقتال قومٍ عند قبرِ محمدِ

وقال أيضاً من أخرى[2]:

يا أيها الناس أبدوا ذات أنفسكمْ   لايستوي الصدقُ عند الله والكذبُ
إلّا تُنيبوا لأمر الله تَعْتَرِفُوا   كتائباً عُصَباً من خلفها عُصَبُ

فمرثية (ابن مقبل) لا تشبه شعر (حسان) هذا في طابعها العام، وكأنه كان يصدر عن حزبيّة ليس إلا، لا يستوحي الحكمة من تلك الفتنة، بل يرفع عقيرته داعياً إلى حرب شعواء، «كظِلِّ الليل» على الحزب الآخر، محدّقاً من زاوية عصبيّة لما يحدث، غير ملتفت إلى المعاني الإسلامية العُلْيا.

والفخر كذلك من أنماط الحَمِيّة الجاهلية، ولا سيما إذا جنح إلى المبالغة وتحريك العصبيات، ومن هذا في شعره شيء كثير، ومنه[3]:

بنو عامرٍ حَيٌّ، فلم أر مثلَهم   أَعَفَّ وأعطَى للجزيل وأَنْجَدا
كأنكَ لم تَشْهَدْ قَنابلَ خيلنا   إذ الدِّين هَرْجٌ[☆] قبل أنْ يَتَعَبَّدا

---

(١) ديوانه: ٢٨.
(٢) م. ن.
(٣) ديوانه: (٥٧/ ٤-٥) = (ط. TÜREK: ٢٣/ ٤-٥).
(☆) هرج: مختلط، ولعله في هذا يشير إلى الجاهلية، مما يدل على أن القصيدة قيلت في الإسلام.

وقوله(١)(☆):

عاد الأذلةُ في دارٍ، وكان بها　　هُرْتُ الشَّقاشِقِ ظلّامون للجُزُرِ
يا عينُ بَكّي حُنَيْفاً رأسَ حَيِّهِمُ　　الكاسرين القنا في عَوْرَةِ الدُّبُرِ

وهذان البيتان من قصيدة الراجح أنها إسلامية. ولعل الشاعر كان يلمح فيها إلى ما حدث بعد الإسلام من اختلاط المسلمين في البلاد الإسلامية. وهذه عصبية تداخل فيها الفخر باحتقار الآخرين. وقد يكون ذلك مما أغرى بوصفه بالجفاء في الدِّين. ومن الفخر قوله(٢)(☆٢):

بجَمْعٍ رأته الجِنُّ فاختشعتْ له　　وللشَّمسُ أدنَى للخُسوف وأكسفُ
وما قَدَعَتْنَا من مَعَدٍّ قبيلةٌ　　ونَقْدَعُ من شئنا ولا نتكلّفُ

ومن المغالاة في الفخر والتهديد والهجاء(٣)(☆٣):

---

(١) ديوانه: (٨١-٨٢/٢٩-٣٠) = (ط. TÜREK: ٢٣/٢٩-٣٠).

(☆) هرت: جمع هَرِيت أو أهْرَت، وهو الواسع الشدق. والشقاشق: جمع شِقْشِقة، وهي شيء كالرئة يخرجها البعير من فيه إذا هاج وهدر، شبه الخطباء إذا تكلموا بفحول الإبل إذا هدرت. (انظر: ابن السيرافي: ١/ ٢١٤)، و(أمالي القالي: ٢/ ١٠١)، و(الجوهري، والزمخشري: الأساس، وابن منظور: (هرت)، و(شدق)). ظلامون للجزر: أي ينحرونها من غير علّة، وقيل: ظلمهم الجزر: أي يعرقبونها، وإنما ينبغي أن تنحر نحرا، وأصل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه. (انظر: أبا عبيد: الأمثال: ٢٥٩)، و(الحطيئة: ١٠٣)، و(ابن قتيبة: غريب الحديث: ١/ ٢٤٨)، و(الجوهري: (ظلم))، و(ابن السيرافي: م.ن). وقال (الأنباري: الزاهر: ١/ ٢١٤) في ظلم الجزر هنا: «والقول الأول هو الصحيح؛ لأنهم بعد أن يعرقبوها لابد لهم من نحرها». وفي (ابن نشوان الحميري: الفَرْق: ٨١): «أبو الظلامة ظلامون للجزر». حنيف: جدّ ابن مقبل: «حنيف بن قتيبة بن العجلان». و(انظر: ابن السيرافي: م.ن)، و(الأسود: الفُرحة: ١٦٩-١٧٠). رأس حيهم: أي سادتهم . و(انظر: ابن السيرافي: م.ن). والعورة: مكامن القوم، وكل ما أُتيح للعدو منهم فهو عورة. والدبر: الإدبار. «يقول: كانوا سادة حيهم يحلون محل الرأس منهم، وكانوا إذا شهدوا الحرب فانكسر جيشهم كروا في أدبار المنهزمين وقاتلوا دونهم وكسروا رماحهم في حفظ عورتهم وحمايتها من عدوهم»: (الشنتمري: ١/ ٩٤). و(انظر: أبا زيد الأنصاري ٦)، و(البكري: اللآلي: ٢/ ٧٣٢-٧٣٣).

(٢) ديوانه: (٢٢/١٩٤)، (٣٣/١٩٦) = (ط. TÜREK: ٧٩/ ٢٢، ٨٠/ ٣٣).

(☆٢) القدع: الكبح والكف، ويقال: «هذا فحل لا يُقدع»، أي لايُضرب أنفه؛ إذا كان كريما (انظر: الجوهري (قدع)).

(٣) ديوانه: (٣١٤/ ١٢-١٣، ١٧) = (ط. TÜREK: ١٢٨/ ١٢-١٣، ١٧).

(☆٣) البأو: الكِبْر والفخر. (انظر: الجوهري: (بأا)).

ولو كُحلتْ حواجبُ خيل قيسٍ بكلبٍ بعد تغلبَ ما قَذينا
فما تسلمْ لكم أفراسُ قيسٍ فلا ترجوا البنات ولا البنينا
شربنا من دماء بني حبيبٍ ولو لا البَأْوُ عنهم قَد رَوينا

ويفخر بشؤم قومه وجهلهم يوم الطعان فيقول(١):

[إنّا مَشائيمُ إنْ أَرَّشتَ جاهلَنا يوم الطِّعان، وتَلقانا مَيامينا](☆)

ومع أنه كان من المعروف عن (ابن مقبل) النأي عن الهجاء حتى مع من يتعرض له به(٢)، فإنه قد أقذع في تلك المرّات التي هجا فيها، بيد أنه ينبغي ملاحظة أن هذا الإقذاع قد وجهه (للأخطل) أو (للنجاشي الحارثي)، وهما خصمان لدودان له ولقومه، كما تقدم في المدخل.

فمن هجائه الأخطل و(بني تغلب) قوله(٣)(☆٢):

فما أرضعتْ من حُرَّةٍ آلُ مالكٍ وما حملتهم من حَصانٍ على طُهر
ولكنْ رَمَتْ إحدى الإماء برأسه سَرُوقُ البِرام كالسَّلُوقِيَّةِ المُجْري
وكان أبوه التغلبيُّ إذا بكى على الزاد لم يَسْكُتْ بثدي ولانَحْرِ

(١) ديوانه: (٣٣١/٤٨) = (ط. TÜREK: ١٣٥/٤٨).

(☆) أرَّشت: أي حرشت. (انظر: ابن منظور: (أرش)). يقول: نحن مشائيم أشرار في الحرب، ميامين خيّرون في السلم. وقد أورده (البحتري: ١٦٥): «فيما قيل في اللين والشدة والمجازاة».

(٢) راجع: المدخل: أولاً: ب - ٢ - ٢.

(٣) ديوانه: (١١١-١١٢/١٩-٢٥) = (ط. TÜREK: ٤٤/١٩-٢٥).

(☆٢) البرام: جمع بُرْمة، وهي القِدْر. (انظر: الجوهري: (برم)). والسلوقية: الكلبة، نسبة إلى سَلُوق باليمن، أو سَلَقْيَة بالروم. (انظر: ابن منظور: (سلق)). المجري: أمّ الجراء. غمر: عطش. (انظر: الجوهري: (عمر)). والصميل ابن نهشل: لم نقف عليه، ويرى (عزة حسن) «أنه أحد الضُّباب، وهم من بني جعفر بن كلاب بن عامر بن صعصعة، وكان سيداً فيهم»، نقلاً عن: (ابن دريد: الاشتقاق: ٢٩٦). والوِتْر: الثأر. ومعنى البيت الأخير غير واضح تماماً، وقد اكتفى (عزة حسن) بقوله: «جذماء: أي مقطوعة. والعِشْر: قطعة تتكسر من القَدَح والقصب، كأنها قطعة من عشر قطع». والظاهر أن المقصود هو التعبير عن خسارة المهجو، حيث خسر ابنته وخسر مهرها راضياً راغماً، على أن عبارة «وكنت كذي الكفّين. . .» توحي بقصة ما خلفها أو مثل أو أسطورة، وذو الكفين: صنم كان (لدوس)، ثم (لبني منهب بن دوس)، حرقه (الطفيل بن عمرو الدوسي)، وهو يقول: يا ذا الكفين لست من عبادكا، ميلادنا أكبر من ميلادكا، إني حشوتُ النار في فؤادكا. (انظر: ابن الكلبي: الأصنام: ٣٧).

أتته، وقد نام العيونُ، بِكَسْبها ⁂ فباتا على جوعٍ، وظَلّا على غِمْرِ
فقد آب أفراسُ الصُّمَيْل بن نَهْشَلٍ ⁂ بيتك. فاطلبْ ما أصبنَ على الوِتْرِ
أَحَلَّ العَوالي فرجَها لابن نهشلٍ ⁂ فما نلتَ منها من عِقابٍ ولا مَهْرِ
وكنتَ كذي الكَفَّيْنِ أصبح راضياً ⁂ بواحدة جَذْماء من قَصَبٍ عَشْرِ

ومن هجائه (الأخطل) أيضاً قوله[1]:

قل لابنة الأخطل المسلوب مئزرُها ⁂ يوم الفوارسِ لما راثَ فاديها
ولستُ سائلها إلا بواحدةٍ ⁂ ما رَدَّ تغلبَ عنها إذْ تُناديها

ومن هجائه (النجاشي الحارثي)[2]:

[وجاءتْ به حَيَّاكَةٌ عَرَكِيَّةٌ ⁂ تنازعها في طُهرها رَجُلانِ]

هذه أمثلة على حَمِيَّة الشاعر الجاهلية، التي لم تنحصر في الجاهلي من شعره، بل حفل الإسلامي منه بأمثلة شتّى، مختلفة الأشكال متفقة الجوهر[3].

ب - العادات

ب- ١ - الخمر.. ومجالسها :

كانت العرب تعد الخمر من صفات الفتوة والشجاعة والفروسية، أمّا

(١) البيتان مما أخلَّ به الديوان بطبعتيه. (انظر: المستدرك الملحق بالدراسة: النموذج: ٢٨).

(٢) ديوانه: (٣٤٦/٣٣) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٥٧/١٤٠).

(٣) وأهم مظاهر تلك الحمية في ديوانه – عدا الأمثلة المذكورة – في : (٣-٧/١٥-٣١)، (٥٧-٥٩/٦-١٧)، (٦٧-٧٠/٢٧-٣٦)، (٨٨-٩٠/٤٤-٤٩)، (١٠٣-١٠٤/٥-١٣)، (١١٥-١١٧/١٣-٢١)، (١٢٢/١٥-١٨)، (١٣٧-١٤١/٣٢-٥٠)، (١٩٠-١٩٩/٥-٢١، ٢٣-٣٢، ٣٤-٤٦)، (٢٣٦-٢٣٧/٤٠-٤٣)، (٢٤٢-٢٤٣/١٧-٢٢)، (٣١٢-٣١٤/١-١١، ١٤-١٦، ١٨)، (٣٣٠-٣٣٤/٤٣-٤٧، ٤٩ ٥٥)، (٣٤٤-٣٤٦/٢٧-٣٢، ٣٤) = (ط. TÜREK: ٢-٤/١٥-٣١)، (٢٣-٣٤/٦-١٧)، (٢٧-٢٩/٢٧-٣٦)، (٣٥/٤٤-٤٩)، (٤٠-٤١/٥-١٣)، (٤٦-٤٧/١٣-٢١)، (٤٩/١٥-١٨)، (٥٥-٥٧/٣٢-٥٠)، (٧٨-٨٢/٥-٢١، ٢٣-٣٢، ٣٤-٤٦)، (٩٦/٣٩، ٤٠-٤٢)، (٩٩/١٦-٢١)، (١٢٦-١٢٨/١-١١، ١٤-١٦، ١٨)، (١٣٤-١٣٦/٤٣-٤٧، ٤٩-٥٥)، (الملحق: ١٥٧-١٥٨/١٣٧-١٣٨، ١٣٤، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٣٦))

الجبان فشرابه المرق لا الخمر(☆). وقد ذكر الله تعالى منافع الخمر للناس، إذ قال عنها وعن الميسر: ﴿فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس وإثمُهُما أكبر من نَفْعِهما﴾[1]، قال (ابن قتيبة)[2]: «فمن منافعها ما يصيبه الناس من أثمانها، ولو لم تعتصر الأعناب لبارت على أهلها، ومن ذلك منفعتها الجسم لأنها تدرّ الدم، وتقوّي المُنّة، وتصفّي اللون، وتبعث النشاط، وتفتق اللسان، ما أُخذ منها بقدر الحاجة، فإذا أُخذ الإفراط فكل شيء مع الإفراط يضر. وكانت الأوائل تقول الخمر حبيبة الروح».

وكانوا في الجاهلية يشربونها في الحرب؛ ولذلك اصطحبها بعض المسلمين في بدر قبل نزول الأمر باجتنابها[3].

فقد كانت إذن للخمر وظيفة اجتماعية واقتصادية وصحية في حياة الجاهليين(☆٢)، مع ما كان لهم فيها من اللذة واللهو والترفيه، بعيداً عن شظف العيش وهموم الصحراء.

و(ابن مقبل) أحد أولئك الشعراء الذين تغنّوا بالخمر، وقرنوها بالفتوّة وحسن الشمائل في الإنسان، قال[4]:

(☆) قال (عمرو بن جبلة اليشكري) في يوم (ذي قار) يحضّ قومه على القتال:

من لم يقاتل منكمُ هذا العُنُقْ ... فجنّبوه الراح واسقوه المَرَقْ

(انظر: المرزباني: معجم الشعراء: ٤٢).

(١) البقرة: ٢١٩.

(٢) الأشربة: ٦٦، وانظر: ما بعدها.

(٣) انظر: م. ن: ٦٩.

(☆٢) على أن منهم من حرمها على نفسه في الجاهلية (كأبي بكر الصديق)، و(عثمان بن عفان)، و(العباس بن مرداس)، و(أمية بن أبي الصلت). (انظر: ابن قتيبة: الأشربة: ٢٤-٢٥)، و(الأصفهاني: الأغاني: ٤/١٢٦)، و(الشهرستاني: ٣/٣٠٦ وما بعدها). «وكانت العرب في الجاهلية وصدر الإسلام يشتدون على النساء في شربها، حتى ما يحفظ أن امرأة شربت ولا أن امرأة سكرت». (ابن قتيبة: م. ن: ٣٠).

(٤) ديوانه: (٣٧/٣٧) = (ط. TÜREK: ١٥/٣٧).

وفتيان صِدْقٍ قد رَفَعْتُ عَقيرتي　　　هم مَوْهِناً، والزِقُّ ريّان مُجْبَحُ(☆)

وهو يذكر شرب الخمر هنا في معرض فخر بقوة قومه وشيكمتهم، وتباهٍ برجولته وفروسيته التي لاتهاب الصحراء، ينتهبها بالجياد والإبل انتهاباً متى شاء، وكأنّ دعوته للخمر في تلك الليلة كانت للراحة والاستعانة بها على إكمال الرحلة، حيث أعقب هذا البيت بوصفٍ تصويري لما هيّأه من مرابط للجياد، وكيف بات الوتد المربوطة به الجياد يغنّى، فقال(1):

وبات يُغَنَّى في الخَلِيجِ، كأنه　　　كُمَيْتٌ مُدَمًّى ناصع اللون أَقْرَحُ(☆2)

و(ابن منظور)(2) يقول: إن الوتد في هذا البيت بات يُغنّى بصهيل الخيل المربوطة به(☆3). لكن «يغنّى» في هذا السياق توحي بغناء الندامى، وهم الشاعر وصحابته من الفتية المدعوّين إلى هذا المجلس، حتى إن الغناء قد اجتاز بنشوته أولاء السكارى إلى الخيل، ثم اجتاز الخيل ليطرب الوتد المشقوق الرأس، كالكميت من تلك الخيل، الذي كان الشاعر قد دقّه في الأرض ليضمّنه أرسان الخيل. أو أن الشاعر أراد القول: إنّا لسنا مَنْ غُنّينا في تلك الليلة فحسب، بل الوتد قد بات يُغنّى كذلك بصهيل الخيل. ويَحمل على هذا الاستيحاء أن الشاعر لايكاد يذكر الخمر إلا وصف مجلسها وما يتلألأ به من لهو ورقص وغناء، ممعناً هنا في وصف تأثيره على الإنسان والحيوان والجماد.

(☆) رفعت عقيرتي: ناديتهم. موهناً: نحوٌ من منتصف الليل. (انظر: ابن منظور (وهن)). والزّق: وعاء الخمر. ريّان: مليء. مجبح: ملقى على الأرض.

(1) ديوانه: (38/ 40) = (ط. TÜREK: 15/ 40).

(☆2) الخليج: حبل الرسن لأنه يجبذ ما شدّ به. كميت: نعت للوتد أي أحمر من طرفاه. أقرح: أبيض، شبه الوتد لما علاه من الدم والزبد بفرس كُميت أقرح: أي أبيض الجبهة. وذهب بعضٌ إلى أن الخليج: هو الوتد؛ لأنه يخلج الدابة إذا ربطت به. (انظر: ابن دريد: الملاحن: 49)، و(الخطابي: 1/ 418)، و(ابن منظور: (خلج)).

(2) انظر: (خلج).

(☆3) تابع (عزة حسن) (ابن منظور: (م.ن)) في هذا الشرح، ولم نقف على شرحه عند أحد آخر ممن ذكروه.

وهو بما في شعره من هذا الوصف يساهم في تغيير ملامح تلك الصورة المتوارثة عن أهل الجزيرة العربية في الجاهلية، فإذا هم أولو فن وحضارة، وأولو ترف وبذخ أحياناً؛ حتى قال (فارمر)(١) عن الموسيقى في العصر الجاهلي: «**كانت الموسيقى في أيام الجاهلية كما في أيامنا هذه، صناعة بارزة ذات حيثية في الحياة العربية الخصوصية والعمومية والدينية**».

والواضح أن القيان المغنيات كنَّ يملأن الجزيرة في الجاهلية(٢)، بل بلغ بعض العرب من الترف أن ملكوا مغنيات في بيوتهم يلهّين عنهم وعن ضيفهم بألوان الطرب والرقص والشراب(٣). يصور ذلك (ابن مقبل) في وقفة بأطلال الديار بجانب (الأحفار)، فيذكر مَن حلّ بها في سالف الأعصار، وما كان بها من مجالس الغناء والشراب، فيقول(٤):

والمُسْمِعاتِ لدى الشُّروب كأنها أُدُمُ الظباء نواعمُ الأَبشارِ(☆)

والظاهر أن أهل تلك الديار كانوا من أهل الشاعر؛ لأنه يتحدث عنها بعد هذا البيت بضمير المتكلمين(٥). فكيف عرف الشاعر نعومة أبشارهن؟. إن وراء البيت صورة تتعدى المعنى السطحي البدهي: بأن أولاء المغنيات جميلات وطبيعي أن يكنّ ناعمات الأبشار، وأن يصفهنّ الشاعر بهذا ولو لم يكن باشرهن باللمس؛ ذلك أن معرفة طبيعة الغناء ومجالسه في المجتمع قبل الإسلام تحمل على

(١) تاريخ الموسيقى العربية (ترجمة/ جرجيس فتح الله المحامي): ٥٧.
(٢) انظر: الأسد: القيان والغناء في العصر الجاهلي: ٤٣.
(٣) انظر: م. ن: ٦٢.
(٤) ديوانه: (٧/١٢٠) = (ط. TÜREK: ٧/٤٨).
(☆) المسمعات: المغنيات. الشروب: جمع شارب، القوم يجتمعون على الشراب. أدم: بِيض هاهنا، جمع أدماء. والأبشار: جمع البَشَر، وهو ظاهر الجسد من الإنسان، يصفهن بالبياض ونعومة الجلد. (انظر: ابن منظور: (سمع)، و(شرب)، و(أدم)، و(بشر)).
(٥) انظر: ديوانه: (١٠/١٢٠) = (ط. TÜREK: ١٠/٤٨).

أن يفهم من هذا البيت أكثر من مدلوله الظاهر؛ لأن مجالس الطرب عندهم لم تكن للسماع والشراب فحسب، بل كانت أيضاً للفتنة والإغواء بالجسد العاري والملامسة؛ لهذا كانت المغنّية تتفنّن في ملبسها بحيث تبدو أكثر إغراء للشَّرب[1]، قال (طرفة) في وصف ثوبها[2]:

رَحيبٌ قطاب الجَيب منها، رفيقةٌ   بجَسّ النَّدامَى بَضَّةُ المُتَجَرَّدِ

قال (الشنتمري)[3]: «وإنما وصف قطاب جيبها بالسعة؛ لأنها كانت توسّعه ليبدو صدرها، فيُنظر إليه، ويُتلذّذ به». وقال: «كانت القينة تفتق فتقاً في كُمّها إلى رَفْغها، فإذا أراد الرجل أن يلمس منها شيئاً أدخل يده فلمس».

وفي إشارات، احتفاليّة طقسيّة، يصور (ابن مقبل) ليلة مع حبيبته (كبيشة) في دارة من رمل، مستضيئين بسراج سليط، وقد انتشيا عند إداوة مترعة بالخمر المعتّقة، كأنها في شفاه مكيال الخمر دم الغزال الذبيح، وقد جرّ الشاعر ثوبه طرباً وخيلاء لصوت مغنية هذا المجلس. ثم يصف هيئة المغنية، ويستأثر بانتباهه جيدها الجميل الطويل؛ ليشفع الجماليّة البصريّة بالسمعيّة، ثم يقرنها - في هذا المعرض الحسّيّ الحيّ - بالحركة، حين يصوّر رقصها بين الشَّرب، وتبذّلها في مِفْضلها، وكيف تنازع أنغامُ العود صوتَها الصافي، فيقول[4](☆):

---

(١) انظر: الأسد: م. ن: ٦٤-٦٥.

(٢) ديوانه: ٣٠.

(٣) انظر: م. ن: ٣٠-٣١.

(٤) ديوانه: (٢٥٧-٢٥٩/١١-١٩) = (ط. TÜREK: ١٠٥/١١-١٩).

(☆) الخبت: «المطمئن من الأرض فيه رمل»: (الجوهري: (خبت)). وطحال: أكيمة بحمى ضرية (انظر: البكري: ما استعجم: ٨٨٨). وهو المذكور في المثل: «ضَيَّعْتَ البِكارَ على طَحال». (وانظر: الزمخشري: المستقصى. ٢/ ١٤٩). والديّرة: رمل مستديرة وسطها فجوة، وربما قعدوا فيها وشربوا. (انظر: تهذيب الأزهري: ١٤/ ١٥٤)، وفي رواية: «بتدورة»، وقال (ابن جني: المنصف: ١/ ٣٢٤، ٣/ ٥٤): «تدورة: اسم موضع... ويقال: هو من الدوران». السليط: الزيت. الذبال: جمع ذبالة، الفتيلة التي تُسْرَج. (انظر: ابن منظور: (ذبل)). أدكن: أغبر، صفة للزّق جحل: عظيم. كراعه: طرفه، أو أراد رجله؛ لأنه مصنوع من جلد ماعز. أمرّ بمقال: ربط بحبل، وذلك لحفظ ما فيه بعد أن يصبّ منه قدر الحاجة. (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ٤٥٤)، و(ابن منظور: (كرع)، و(زقق))، و(عزة =

١- ليت الليالي يا كُبَيْشَةَ لم تكن   إلا كليلتنا بخَبتِ طحالِ
٢- في ليلة جرت النُّحوس بغيرها   يبكي على أمثالها أمثالي
٣- بتنا بدَيِّرةٍ يضيء وجوهنا   دَسَمُ السَّليط على فتيل ذُبالِ
٤- حتى انتشينا عند أَدْكَنَ مُتْرَعٍ   جَحْلٍ أُمِرَّ كُراعُهُ بعِقالِ
٥- ممّا تُعَتِّقُ في الدِّنان كأنها   بشِفاه ناطِلِها ذَبيحُ غزالِ
٦- وغناءِ مُسْمِعَةٍ جَرَرْتُ لصوتها   ثوبي، ولذة شاربٍ وفِضالِ
٧- صَدَحَتْ لنا جَيداءُ تركضُ ساقها   عند الشُّروب مجامعَ الخلخالِ
٨- فُضُلاً، تُنازعها المَحابِضُ صوتها   بأَجَشَّ لا قَطِعٍ ولا مِصْحالِ
٩- فإذا وذلك ياكُبَيْشَةُ لم يكن   إلا كحَلْمَةِ حالمٍ بخَيالِ

وقد استدل (الدكتور/ الأسد)[1] بهذه الأبيات وغيرها من الشعر الجاهلي على قيام طبقة من المغنيات، لهن بيوت عامة يجتمع إليها الناس للسماع، أو أنهن مأجورات في حانات تجمع بين الشراب والرقص والغناء، فيغوين الروّاد بالشراب والأصوات والأجساد. على أن (ابن مقبل) في أبياته هذه يذكر أن مجلسهم كان «بديّرة»، فإذا كان معنى ديّرة هنا: دارة من الرمل، أي: مستدير

= حسن). الناطل: مكيال الخمر، وقيل هو: القَدَح الصغير الذي يُري فيه الخمّار النموذج. (انظر: تهذيب الأزهري: ١٣/ ٣٤٦)، و(ابن منظور: (نطل)). ذبيح غزال: دمه، ولعله إنما خص الغزال هنا لحب العرب لهذا الحيوان، البالغ حدّ التقديس أحياناً، (انظر: د - ١ - ٤ من هذا الفصل) مسمعة: قينة مغنّية. فِضال: تَفَاضُلٌ في الفضل، والعرب تسمي الخمر فِضالا. (انظر: ابن منظور: (فضل)). والبيت (٧) و(٨) في: (ابن سلمة: الملاهي: ٨٤)، وفيه: «يركض... عند التّجار». صدحت: غنّت. جيداء: امرأة طويلة العنق حسنته. تركض: تدفع. والشُّروب: جمع شارب، القوم يجتمعون على الشراب. وعلى رواية «التّجار»: الخمّارون هاهنا. مجامع الخلخال: أي موضع مجامع الخلخال، أي تدفع بساقها ما يلي الخلخال من الثياب، يعني ذيلها، والمراد أنها ترقص. و(انظر ابن قتيبة: المعاني: ٤٧٠). وفي (ابن سلمة: م.ن): «ينازعها... رجعها بأحذّ لا صحل». وقال: «الأحذّ: الخفيف، يعني عوداً، والصَّحل والمصحال: الذي ليس بصافي الصوت، والصحل: البحوحة في الصوت»، وفي (ابن قتيبة: م.ن): «الصحل: بحة يسيرة». فُضُلاً: متبذلة في ثوب واحد. المحابض: الأوتار. (انظر: ابن قتيبة: م.ن). أجشّ: صوت فيه بُحّة، «وكان الخليل يقول: الأصوات التي تُصاغ بها الألحان ثلاثة منها الأجشّ، وهو صوتٌ من الرأس يخرج من الخياشيم فيه غلظ وبُحّة، فيتبع بخَليرٍ موضوع على ذلك الصوت بعينه، ثم يتبع بِرَنْيٍ مثل الأول فهي صياغته، فهذا الصوت الأجشّ»: (ابن منظور: (جشش)).

(١) انظر: القيان والغناء: ٦٨.

منه[☆]، دلّ على أن تلك الحانات لم تكن مقصورة في البيوت أو الدُّور، بل كانت هناك حانات متنقّلة يمكن أن يصطحبها القوم أينما ذهبوا؛ ليبلغ البذخ أقصاه واقعاً أو متخيّلا.

ويذكر (ليلى) وصهباءها الدرياقة التي تشفي السقيم، ويرسم صورة نشوته، إذ شقّت له باللذة جيب الليل، فيقول[1][☆٢]:

لـياليَ لـيلى عـلى غـانـظٍ ... وليلى هَوَى النفس ما لم تَبِنْ
سَقَتْني بصهباءَ دِرْياقَةٍ ... متى ما تليّنْ عظامي تَلِنْ
صُـهـابِيَّةٍ مُـتْرَعٍ دَنُّها ... تُرَجَّعُ من عُودِ وَعْسٍ مُرِنْ
وشَقَّتْ ليَ الليلَ عن جَيْبِهِ ... بلـذتها، وضَجيـعي وَسِـنْ

(☆) قال في (تهذيب الأزهري: ١٤/١٥٤): «الأصمعي: الدارة رمل مستدير وسطها فَجْوَة وهي الدُّورَة. وقال غيره: هي (الدُّورَة) والدُّوارَة والدَّيِّرة، وربما قعدوا فيها وشربوا. وقال ابن مقبل:...».

(١) ديوانه: (٢٩٦-٢٩٧/٢٧-٣٠) = (ط. TÜREK: ١١٩-١٢٠/٢٧-٣٠).

(☆٢) غانظ: موضع. (انظر: الحموي: البلدان: (غانظ)). صهباء: خمرة عنب بيضاء. (انظر: ابن منظور: (صهب)). درياقة: أي تشفي العليل كالدِّرياق، قال (ابن قتيبة: الأشربة: ٦٥): «والعرب تسمي الخمر درياقة، يريد أنها شفاء كالدِّرياق». صهابية: ضاربة إلى البياض. ترجّع: تحوّل من إناء لآخر للمزاج. والعود: المراد به القَدَح ها هنا. وَعْس: رمل،والرمل يصنع منه الزجاج الذي تعمل منه الأقداح. و المرنّ: الذي يصوّت حين تقرعه إذا فرغ. كذا قال (عزة حسن). وفي البيت روايات وأقوال أخرى، منها ما جاء في (ابن قتيبة: المعاني: ٤٤٦-٤٤٧) - وروايته هناك: «ترجع في عود وعسٍ مرنّ» - فقال - على اضطراب في عبارته وتصحيف، لم يصححها محققه المستشرق (سالم الكرنوكي)، فحاولنا ذلك هاهنا -: «أي ترجع الخمر في هذا القدح، تُغْرَفُ منها [= منه]، فيُوالى [= فيُوالي] عرفها ويشرب [= ويَشْرَى]، وهو ترجيعه وَعْساً: لموالاة العرف والحاجة [= والحاجِهِ]، كما تواعس أنت الأرض فتلحّ عليها وتطؤها، عود يعني قَدَحاً، والمُرِنّ: الذي يرنّ، يقول: إذا شرب أطرب صاحبه حتى يرنّ أي يتغنّى ويترنّم، ويقال: المُرِنّ: إذا قرعته سمعت له رنينا». وقال (ابن سيده: المحكم: ٢/٢١٩): «والوَغس: شجر تعمل منه العيدان التي يضرب بها، قال (ابن مقبل):

رَهـاويـة مـترع دنـــهـــا ... ترجـع في عـود وعـسٍ مـرنْ».

وقال (البطليوسي: الاقتضاب: ٣/٢٦٠): «ويروي (الأصمعي): (عن عُسِّ عود)، قال الأصمعي: كأنه كان يشرب في قارورة، فصيّرها كأنها عود، فقال: في عسّ عود أي في عسّ خشب.. وروى غيره: عن عود وَغس، وقال: أراد قَدَح زجاج، والزجاج يعمل من الرمل، والوعس: الرمل اللين الموطّى»، وفي (ابن منظور: (وعس))، «الوَغس: شجر تعمل منه العيدان التي يضرب بها؛ قال ابن مقبل:

رَهـاويـة مـتـرع دفـهـا، ... ترجـع في عـود وعـس مـرن».

وفي (الفيروز آبادي: (الوعس)): «كالوَغد شجر يُعمل منه البَرابِط والأعواد».

والليل هو الوقت المناسب لهذا الجوّ، كما يبدو من شعر (ابن مقبل)، ولعل هذا كان تقليد العرب في الغالب، حيث يفرغون بعد الغروب لملاذّهم ولهوهم، يتزوّدون بذلك ليوم حافل بمتاعب الحياة، فيقول(١)(☆):

وصهباءَ يَسْتَوْشي بذي اللُّبِّ مثلُها   قَرَعْتُ بها نَفْسي إذا الدِّيكُ أعْتَما
تَمَزَّزْتُها صِرْفاً، وقارعتُ دَنَّها   بِعُودِ أَراكٍ هَزَّهُ فترَنَّما

ويقول، ذاكراً بعض أوانيها، وطرق إعدادها، وأثرها على شاربها(٢)(☆٢):

عانقتُها، فانثنتْ طوعَ العِناقِ، كما   مالتْ بشاربها صهباء خُرْطُومُ
صِرْفٌ، تَرَقْرَقُ في الناجودِ، ناطلُها   بالفُلْفُلِ الجَوْنِ والرُّمّانِ مَخْتُومُ
يَمُجُّها أَكْلَفُ الإسْكابِ وافقهُ   أيدي الهَبانيقِ، بالمَثْناة مَعْكُومُ

ويصف ريقة (كُبيشة)، فيشبّهها بالخمرة، ومزاجها زلال ماء قراح صفّقته

---

(١) ديوانه: (٢٨٧-٢٨٨/١٩-٢٠) = (ط. TÜREK: ١١٦/١٩-٢٠).

(☆) يستوشي بذي اللب: «يستخرج ما عند ذي اللب... يقال: استوشيت الحديث من فلان أي استخرجته، قرعت بها: أي شربتها فقرعتني، ويقال بدأت بها نفسي»: (ابن قتيبة: المعاني: ٤٤٧). «وفي حديث عمر: أنه أخذ قَدَح سويق فشربه حتى قرع القَدَحُ جبينَه أي ضربه، يعني شرب جميع ما فيه»: (ابن منظور: (قرع)). إذا الديك أعتم: كناية عن حلول الظلام. تمززتها: تمصصتها قليلاً قليلاً، (انظر: ابن منظور: (مزز))، وهو إنما يتمززها تلذّذاً، أو لأنها لاذعة؛ قال (ابن قتيبة: الأشربة: ٦٤-٦٥): «يقول الشعراء للخمر مزّة للذعها اللسان ولا يريدون الحموضة. وقال بعض أصحاب اللغة: إنما هي مَزّة بفتح الميم أي فاضلة، من قولك: هذا أمزّ من هذا أي أفضل وأرفع». صِرْفاً: خالصة لم تمزج. قارعت دنها: ضربته، «قال (أبو عمرو): ضربت دنها بهذا العود فإذا طنّ علم أنه قد فرغ، يقول: غنيتُ ووقّعتُ على الدن بعود أراك فترنم الدنّ»: (ابن قتيبة: المعاني: ٤٤٧).

(٢) ديوانه: (٢٦٨-٢٦٩/٧-٩) = (ط. TÜREK: ١٠٨-١٠٩/٧-٩).

(☆٢) الضمير في «عانقتها» يعود على (دهماء) المذكورة من قبل. صهباء خرطوم: خمر سريعة الإسكار، والصهباء: «التي من عنب أبيض»، و«الخرطوم: أول ما يخرج من الدن إذا بُزِل... والخمر نفسها اسمها الخرطوم»: (الأصمعي: النخل والكرم: ٣١-٣٢). تَرَقرق: تترقرق، تتلألأ. والناجود: راووق الخمر الذي تصفّى وتعتّق فيه هاهنا. والناطل: مكيال الخمر، والفلفل الجون: الأسود. مختوم: إما أراد أن الخمرة كانت مفلفلة فعليها خاتم من الفلفل والرمان. أو أن ختامها وآخر ما يجد الشارب منها لذعة الفلفل وطعم الرمان، وهذا ما ذهب إليه (الأنباري: شرح المفضليات: ٨١٤). أكلف الإسكاب: زقّ أكلف الإسكاب، والأكلف: الأحمر في حمرته سواد. والإسكاب: «قطعة من خشب تدخل في خرق الزقّ»: (ابن منظور: (سكب))، وقال (الصّغاني: العباب: (حرف الفاء): ٢٨٦): «عُوَيْدٌ يُدَوَّر فيجعل في مكان يتخرّق فيه الخَرَق من الزقّ، ثم يُشدّ حتى لا يخرج منه شيء». والهبانيق: واحدهم: هُبنق، وهُبنُوق، وهَبَيْنَق، وهَبْنيق وهو الوصيف. (انظر: ابن منظور: (هَبْنيق)). والمثناة: رباط الزّقّ هاهنا. معكوم: مشدود.

الرياح حتى برد، فيقول(١)(☆):

وكأنها اغْتَبَقَتْ قَرِيحَ سحابةٍ بِعَرىً تُصَفِّقُهُ الرياحُ زُلالِ
قُطِبَتْ بأصفر من كوافر فارسٍ سَقَطَتْ سُلافَتُهُ من الجِرْيالِ

وتدخل العناصر الخمرية في صوره الأخرى، حينما يوظّفها في مثل قوله - مشبّهاً أصوات الدلاء في قليبٍ بأصوات قرع الكؤوس بالكؤوس، مع أنغام عزف بالعود(٢):

جُوفاً، إذا مُهِزَتْ تَرَنَّمَ جُولُها كتَرَنُّمِ المَكُّوكِ عند المِزْهَرِ(٢☆)

وفيما نُسب إليه بيتان، يعرب فيهما عن حاجته إلى الشراب، ولكنّ ذات اليد لا تعينه على ذلك، فيقول(٣)(٣☆):

---

(١) ديوانه: (٢٦٠-٢٦١/٢٣-٢٤) = (ط. TÜREK: ١٠٦/٢٣-٢٤).

(☆) اغتبقت: شربت الغبوق، وهو شراب العشيّ، وخصّه لأن الأفواه تتغير في الليل، فأراد أنها طيبة الفم حتى في ذلك الوقت، وكأنها اغتبقت بماء قراح مزجت به خمر، والقريح: الصافي، «وقريح السحاب: ماؤه حين ينزل»: (ابن منظور: (قرح)). عرى: مكان بارز بارد. و(انظر: م.ن: (عرا)). تصفقه الرياح: أي تضربه فتصفيه. (انظر: م.ن: (صفق)). قطبت: مزجت. كوافر: جمع كافرة، وهي دنان الخمر. سلافته: خالصه، وهي ما تحلّب من العصير دون عصره. والجريال: الخمر، وقيل شديدة الحمرة، وفي (الجوهري: (جرل)): «الجِرْيال: الخمر وهو دون السُّلاف في الجودة». و(انظر: الأصمعي: النخل: ٣٢). فشبه علوية ريقتها بعد النوم بماء زلال بارد مزج بسلافة خمر في دنان فارسية.

(٢) ديوانه: (٨/١٢٥) = (ط. TÜREK: ٨/٥٠).

(٢☆) جوف: واسعة، صفة للقُلُب المذكورة في بيت سابق. مُهِزت: حُرِّكت الدلاء فيها لتمتلئ. جولها: جوانبها. والمكّوك: طاس يشرب به أعلاه ضيق ووسطه واسع. والمزهر: عود الطرب. وفي (الأصفهاني. التنبيه: ١٠٤): «جاء (ابن مقبل) في شعره/بالمزهر/اسماً للإبريق، و/المزهر/ إنما هو من أسماء العود». وليس في شعره الذي بين أيدينا ذِكْر للمزهر إلا ها هنا.

(٣) ذيل ديوانه: (٣٦٣/١-٢) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٤٣/٣٤-٣٥).

(٣☆) الحانوي: بائع الخمر في الحانة. وقد استشهد بهذا البيت (سيبويه: ٣/ ٣٤١) - من غير عزو - وذلك على النسبة إلى الحانة على غير قياس، والقياس: الحاني. أغرّ: أبيض، أي رجل كريم يطلب لهم الشراب، يُشبه السيف في مضائه. وقد أضاف المحققان هذين البيتين إلى ديوان (ابن مقبل) نقلاً عن (الزمخشري: الأساس: (عين)). ووجدناهما في (المطرزي: المُعْرِب: ٢/ ٩٦) منسوبين إليه أيضاً، وفيه: «وكيف... يكن». ولكنهما في (ابن منظور، والزبيدي' التاج: (عون)) منسوبان إلى (ذي الرمة)، وهما في (ملحق ديوانه: ١٨٦٢-١٨٦٣)، مع بيت ثالث هو:

له معشرٌ بيض الوجوه مصالتٌ سما بهم آباؤهم وسما المجدُ

والبيت الثاني في (ابن منظور: (دين))، عن (شمر)، غير منسوب. هذا وقد فصّل محقق ديوان ذي الرمة تخريجهما وتحقيقهما، ولكنه لم يتوصل إلى ترجيح في نسبتهما. ويمكن القول: إنهما على أية حال لا يشبهان شعر ابن مقبل

فكيف لنا بالشُّرْب إنْ لم تكُنْ لنا ... دراهمُ عند الحانويّ ولا نَقْدُ؟
أنَدّانُ، أم نَعْتانُ، أم ينبري لنا ... أَغَرُّ كنَصْلِ السيف أَبْرَزَهُ الغِمْدُ؟

ومما تقدم يمكن الوقوف على بعض صفات الخمر عن الشاعر، فهي في شعر: «صهباء»، «صرف»، «مزّة»- وكثيراً ما يذكر هذه الصفات الثلاث - وهي أيضاً: «معتّقة»، «كأنها ذبيح غزال»، «فِضال»، «درياقة»، «صهابية»، «خرطوم»، «ترقرق في التّاجود»، «ناطلها بالفُلْفُل الجَون والرمّان مختوم»، «صفراء»، «سلافة»، «جريال».

ومن أوانيها عنده: «الزّقّ»، وصفته: «أدكن مترع جَحْل أُمِرَّ كُراعُهُ بعِقال»، و«الدَّنّ»، و« النّاطل»، و«قَدَح من عود وَغْسٍ مُرِنّ»، و«التّاجود»، و«أكلف الإسكاب»، و«المَنْاة»، و«كوافر فارس»، و«المَكّوك».

وهذه الخمر قد تستورد أحياناً، هي أو بعض أدواتها، كما هي الحال في: «كوافر فارس»، أو«الفلفل الجون».

ولهذه العناصر - في ذاتها، وفي صيغها الشعرية - إلى حمولها النفسية والاجتماعية والثقافية - حضورُها الفنّيُّ، الذي سيأخذ موقعه من هذا البحث في دراسة (المركّب الفني: الفصل الثالث - الباب الرابع).

ب - ٢ - الميسر :

أولع (ابن مقبل) بوصف الميسر والفخر به، حتى أصبح «قِدْح ابن مقبل يضرب مثلاً في حسن الأثر[1]»، ولعل هذا يعكس ولوعاً بممارسته الفعلية في حياته.

---

(١) الثعالبي: ثمار القلوب: ٢١٨.

وكان الميسر معظّماً عند العرب في الجاهلية، ومع هذا فقد قلّ في شعرهم، حتى قال (ابن قتيبة)[1]: «...لم أجد في أشعارهم شيئاً في جلالته عندهم وعظيم نفعه هو أقلّ منه»[☆].

وكانوا يلعبون بعشرة قداح، منها سبعة رابحة[☆٢]، هي: الفَذّ، والتَّوْءَم، والرَّقِيب، والحِلْس، والنَّافِس، والمُسْبِل، والمُعَلَّى. والبقية أغفال - لا حظوظ لها - وهي: السَّفيح، والمَنِيح، والوَغْد. وعلى السبعة الرابحة وسوم بمقدار حظّها: فعلى الفذّ واحد وله نصيب، وعلى التَّوءم اثنان وله نصيبان، وهكذا إلى المُعَلَّى[٢][☆٣].

وكان يقام الميسر وقت الشدّة والبرد، عند نار موقدة، قال (ابن قتيبة)[٣]: «لا يضربون بالقداح إلا عند نار لشدّة البرد فتَتَقَوَّب». قال ابن مقبل[٤]:

جَلَتْ صَنِفاتُ الرَّيْطِ عنه قَوابَهُ ... وأخلصَنَهُ مما يُصان ويُمْسحُ[☆٤]

وقال[٥]:

---

(١) الميسر والقدح: ٣١.

(☆) ولقد يكون حُذف هذا الشعر أو معظمه بعد الإسلام بدافع ديني.

(☆٢) لِمَ جعلوا الرابحة سبعة؟. لقد كان برج الثور (the pleiades) - وفيه سبعة نجوم - إلهاً حارساً في وثنية الشرق الأوسط. وعلى هذا فقد ذهب (حسن ظاظا) إلى احتمال أن عدد الأزلام عند العرب سبعة، لتمثل تلك النجوم السبعة في برج الثور. (انظر: المجتمع العربي القديم من خلال اللغة (ضمن الندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة، الجزيرة العربية قبل الإسلام - الكتاب الثاني: ١٧٨-١٧٩).

(٢) انظر: ابن قتيبة: م.ن: ٥٦ فما بعدها .

(☆٣) وذكر (أبو حيان: البحر المحيط: ٢/ ١٥٤) قولاً آخر في الأغفال، فقال: «وقيل أربعة وهي: المصدر، والمضعف، والمنيح، والسفيح».

(٣) م. ن: ٧٧.

(٤) ديوانه: (١٤/٢٧) = (ط. TÜREK: ١٢/ ١٤).

(☆٤) صنفات الريط: حواشي الثياب اللينة الدقيقة. والقواب: آثار في القداح من الحصى والنار، فيقول: إن هذا القِدْح قد أخلص من تلك الآثار لكثرة مسحه؛ لكرامته عندهم. (انظر: ابن قتيبة: م. ن: ٧٧، ٧٩-٨٠)، و(المعاني: ١١٦٧).

(٥) ديوانه: (٣٦/٨٤) = (ط. TÜREK: ٣٤/ ٣٦).

شُمُّ العَرانينِ، يُنْسيهم مَعاطِفَهمْ ضَرْبُ القِداحِ وتأريبٌ على العَسِرِ[☆]

ففي كلمة: «معاطفهم»، والكناية عن شدّة اهتمامهم بالميسر بنسيانهم إيّاها، ما يستدل به على أن الجوّ في حين المقامرة كان شتاء. وكذلك قوله[1][☆2]:

وإذا الشَّمالُ تَرَوَّحتْ بعَشِيّةٍ ترمي البيوتَ بيابس الأَحْظارِ
أَلفيتنا مرفوعةً حُجُراتها للضيف عند مَزاحفِ الأَيْسارِ

ومما يؤكّد أن الميسر كان يقام زمن البرد والشدّة قوله أيضاً[2]:

وأيساري إذا ما الحَيُّ حَلَّتْ بيوتُهمُ بكادي النبت عاري[☆3]

ويفتخر لـ(بنت آل شهاب) بإطعام نصيبه للفقراء والمساكين، إذ يقول[3][☆4]:

يا بنتَ آلِ شهابٍ هل عَلِمْتِ إذا أمسى المراغثُ في أعناقها خَضَعُ

(☆) التأريب: الإتمام، أي: أنهم يتمّمون للمعسر نصيبه من الجزور. (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ١١٥٠)، و(عزة حسن).
(١) ديوانه: (١٢٠/٩-١٠) = (ط. TÜREK: ٤٨/٩-١٠).
(☆٢) الأحظار: جمع الحَظِر، أو جمع الحظار، ونقل (ابن منظور: (حظر)): «سمعت العرب تقول للجدار من الشجر يوضع بعضه على بعض ليكون ذُرى للمال يَرُدّ عنه بَرْدَ الشَّمال في الشتاء: حَظار (فتح الحاء)؛ وقد حظر فلان على نَعَمِه».
(٢) ديوانه: (١٤٩/١٢) = (ط. TÜREK: ٦١/١٢).
(☆٣) قال (ابن منظور: (كدا)): «كدا الزرع وغيره من النبات: ساءت نِبْتَتُهُ. وكَداه البَرْد: رَدَّه في الأرض».
(٣) ديوانه: (١٧٤-١٧٥/٢٥-٢٦) = (ط. TÜREK: ٧١/٢٥-٢٦).
(☆٤) المراغث: جمع مُرْغِث، وهي المرضع. (انظر: ابن منظور: (رغث)). والخَضَع: تطامن في العنق، (انظر: الجوهري: (خضع))، كناية عن زمن الشدة. الأيسار: لاعبو الميسر. وللتتميم معان منها: إطعام نصيب القِدح للمحتاجين، وأن ينقص عدد الأيسار المتقامرين فيلعب بعضهم بأكثر من قِدح واحد، وكانوا يفخرون بذلك (انظر: ابن منظور: (تمم)). بذي أَوَد: بقِدح ذي عوج. و(انظر: م.ن: (أود)). من فرع: أي أنه من فرع شجرة (بشيحاط)، أو أن شيحاط جبل، وفرعه: أعلاه. وشيحاط: موضع (بالطائف). (انظر: البكري: ما استعجم: ٨١٨). وجاء في (الهجري: ٢٠٩/٢) أن شيحاط في هذا البيت: «بلد من غربي (ترج)، وفيه حصن (لبني مخزوم)»، وفي حديث (ابن خميس: المجاز: ٢٣٠) عن (عكاظ)، ذكر (شُرَيْحِط)، وهي أرض يمرّ بها ماء (المبعوث) وهي فوق (الفريدة والعقيلة)، ودون (العَرْج). والليط: الجلد، شبّه قشره بالجلد. (انظر: ابن قتيبة: الميسر: ٩٧). وفي (الألوسي: بلوغ الأرب: ٥٦/٣): «من فرع شوحط ضاحٍ ليطه قرع». وقَرِع أي أقرع.

أَنِّي أُتَمِّمُ أيساري بذي أَوَدٍ   من فَرْعِ شَيْحاطَ صافٍ لِيْطُهُ قَرِعُ

فمن هذا يظهر أن الميسر كان يقام في ليالي الشتاء غالبا[1]. ولعل هذا يفسر ضرورة النار؛ فمنها الدفء، والإضاءة، وطهي اللحم، وربما جعلوا علامات قداحهم بالنار - بدل «الفَرْض» وهو الحزّ - فيقال للعلامة حينئذ: «القَرْم» أو «القَرْمة»[2]، قال (ابن مقبل) يصف ناقة[3]:

فذاك دأْبي [بـ]ـها حالاً، وأَحْبِسُها   يَسْعَى بأوصالها الشُّعْثُ المَقاريمُ

على أن النار ملازمة لحياة البدو في كل زمان ومكان؛ فيها مصدر دفئهم، وإضاءتهم، وإنضاج مأكلهم، كما أنها قد أمست دليل الساري إلى منازلهم. غير أن من الباحثين من يذهب إلى أن للنار في الميسر بخاصة معناها الطقسيّ أيضا[4].

«فإذا أرادوا أن يفيضوا بالقداح أحضروها وأحضروا رجلاً يضرب بينهم يدعونه (الحُرُضَة)؛ لأنه رجل من الرجال ساقط؛ لأنه لا يأكل لحماً قط بثمن، إنما يأكله عند الناس وفي المآدب»[5].

والحُرُضَة هو أمين المقامرين كما عرّفه (الفيروزآبادي)[6]، وقال (ابن منظور)[7]:

«والحُرُضَة: الذي يضرب للأيسار بالقِداح، لا يكون إلا

---

(١) انظر: ابن قتيبة: الميسر: ١٠٦ ومابعدها. وكذلك: هارون: الميسر والأزلام: ٤٠، وأبا حيان: البحر المحيط: ٢/ ١٥٥.
(٢) انظر: ابن قتيبة: م. ن: ٧٥.
(٣) ديوان: (٣٢/٢٧٥) = (ط. TÜREK: ٣٢/١١١).
(٤) انظر: زكي: التراث الأدبي بين اللزوم والتخطي (مجلة كلية الآداب - جامعة الملك سعود، م١١، ع٢، ١٩٨٤م، ص ٤٢٧).
(٥) ابن قتيبة: الميسر: ١٢٨.
(٦) (الحرض).
(٧) (حرض). وانظر: تهذيب الأزهري: ٤/ ٢٠٥.

ساقطاً، بذلك لرذالته، قال (الطرماح) يصف حماراً:

ويظل المليء يوفي على القر ... ن عذوباً، كالحرضة المستفاض

المُسْتَفَاض: الذي أُمِرَ أن يُفيض القداح. وهذا البيت أورده (الأزهري) عقيب روايته عن (أبي الهيثم). الحُرُضة: الرجل الذي لا يشتري اللحم ولا يأكله بثمن إلا أن يجده عند غيره، وأنشد البيت المذكور، وقال: أي الوَقْب الطويل لا يأكل شيئاً»[☆].

وليس في شعر (ابن مقبل) - المرجع الأول لشعر الميسر عند الجاهليين - ذِكْرٌ لهذا «الحُرُضة»، لكن فيه ذِكْر «التأريب»؛ وذلك أنهم كانوا قبل أن يلعبوا بالقداح يجعلون فيما بينهم عَدْلاً يأخذ من كل منهم «رهناً بما يلزمه من ثمن نصيب قدحه إن خاب، ويستظهر في ذلك بما يخشى أن يلزمه من فاضل حصص السهام على أعشار الجزور»[1]. قال (ابن مقبل)[2][☆2]:

شُمُّ العَرانين يُنْسيهم مَعاطِفَهمْ ... ضَرْبُ القِداح وتأريبٌ على الخَطَرِ
لايفرحون إذا ما فاز فائزُهمْ ... ولا تُرَدُّ عليهمْ أُرْبَةُ اليَسَرِ

والتأريب على الخطر: التشديد في الرهن حتى يستوثقوا منه[3]. ولا تردّ عليهم أربة اليسر، أي: «لا يُرَدُّ عليهم ما أحكموا من الخطر لمعرفتهم بذلك

(☆) وقد ذهب (زكي (مجلة كلية الآداب - جامعة الملك سعود: م١١، ع٢: ص ٤٢٧)) إلى أن الحُرُضة هو « الكاهن الذي لا يأكل لحماً إلّا من جزور المياسرين تألّهاً». ويبدو هذا غير منسجم مع ما وُصف به من السقوط والرذالة وأنه وَقْب، أي: أحمق، «وقال ثعلب: الوَقْب الدنيء النذل. . .»: (ابن منظور: (وقب)). على أن في (تهذيب الأزهري: م ن) في النص الذي نقله عنه (ابن منظور) أعلاه: «أي الوقب الطويل عَذُوباً لا يأكل شيئاً»، وزعم محققه أن «الوقب»: (بالباء) في كتاب (ابن منظور) (تحريف).

(١) ابن قتيبة: الميسر: ١٤٦.

(٢) ديوانه: (٨٤-٨٥/٣٦-٣٧) = (ط. TÜREK: ٣٤/٣٦-٣٧).

(☆٢) في ديوانه: «على القَمير»، و«على الخطر» إحدى الروايات.

(٣) انظر: ابن قتيبة: م.ن: ١٤٧-١٤٨، والمعاني: ١١٥٠.

وفهمهم لما يلزم كل امرئ بنصيب قدحه»[1][☆].

حتى «إذا أرادوا أن يَيْسروا، اشتروا جَزُوراً[☆٢] نسيئة[☆٣]، ونحروه قبل أن يَيْسروا، وقسموه ثمانية وعشرين قسماً أو عشرة أقسام، فإذا خرج واحدٌ واحدٌ باسم رَجُلٍ رَجُل، ظهر فوز من خرج لهم ذوات الأَنْصِباء وغُرْم من خرج له الغُفْل»[2].

وقسمة الجزور إلى ثمانية وعشرين قسماً هي الطريقة التي رواها (ابن قتيبة)[3] عن (الأصمعي)، وقد خطّأ الأصمعيَّ في هذه القسمة، فقال: «ولو كان الأمر على ما قال الأصمعي لم يكن هاهنا قامر ولا مقمور، ولا فوز ولا خيبة؛ لأنه إذا خرج لكل امرئ قِدْح من هذه فأخذ حظ القدح أخذوا جميعاً تلك الأجزاء على ما اختار كل واحد منهم لنفسه، فما معنى إجالة القداح وأين الفوز والغرم، ومَن القامر والمقمور؟!».

فذهب (ابن قتيبة)[4] إلى أن الجزور تقسم عشرة أجزاء، ثم يلعبون، فإذا خرج من الرِّبابة الفذّ ثم التَّوءم ثم الرَّقيب ثم الحِلْس مثلاً، أخذوا أسهمهم واعتزلوا، وغرم ثمن الجزور صاحب النافِس، والمُسْبِل، والمُعَلَّى. هذا في حالة

---

(١) ابن قتيبة: الميسر: ١٤٩. وانظر كذلك: المعاني: ١١٥١، وابن منظور: (أرب).

(☆) بالرغم من المعنى الذي ذهب إليه (ابن قتيبة) في كتابيه السابقين، إلا أن في عبارة الشاعر ما يشير إلى أن المعنى: أن هؤلاء القوم لايندمون على شيء إذا خسروا، فلا يُرَدّ عليهم ما أحرز وأحكم غيرهم من الرهن الذي لعبوا عليه؛ لاستغنائهم عنه ومعرفتهم بأصول اللعبة، كما أنهم لا يفرحون إذا هم فازوا؛ لاعتيادهم ذلك. وذكر (ابن منظور: (أرب)، و(سفح)): أنه أراد إحكام الخطر، ولم يزد. وفي (ابن فارس: المقاييس: ١/ ٩٠): «قال الخليل وغيره: الأربة نصيب اليَسَر من الجَزُور». وفي (١/ ٩٢): «أربة القَسِر»، قال: «أي هم سمحاء لا يدخل عليهم عَسِرٌ يفسد أمورهم».

(☆٢) «وربما ضربوا بالقداح على الإبل وجعلوا مكان العُشْر من أعشار الجزور بعيراً»: (ابن قتيبة: الميسر ١٢٣)

(☆٣) أي: بدَين موخّر.

(٢) الفيروزآبادي: (اليسر).

(٣) ابن قتيبة: الميسر: ١٢٠-١٢١. وتابعه (أبو حيان: البحر: ٢/ ١٥٥)، وكذلك فعل (هارون: الميسر: ٢٥، ٥١)، وأجرى على هذا الأساس عملية حسابية بيّن فيها كيفية الغرم والغنم، (انظر: ٤٦-٤٧).

(٤) انظر: الميسر: ١٤٣-١٤٥.

استواء حظوظ السهام الفائزة مع أقسام الجزور العشرة، لكن إذا خرج مثلاً المعلّى أولاً ثم خرج بعده المُسْبل، فحظهما ثلاثة عشر نصيباً، وليس في الجزور إلا عشرة، فيأخذ صاحب المسبل الثلاثة الباقية، بعد نصيب المعلّى، ويغرم له القوم الذين لم تخرج سهامهم الثلاثة الباقية من سهمه، مع ثمن الجزور.

على أنه يمكن تصوّر طريقة أخرى تفسّر قول (الأصمعي): إن الجزور تقسّم ثمانية وعشرين جزءاً، وهذه الطريقة تُستنتج من قول (الفيروزآبادي) في نصه السابق: «فإذا خرج واحدٌ واحدٌ باسم رَجُلٍ رَجُل»، وكذلك قول (أبي حيان)[1]: «ثم يجلجلها ويدخل يده ويخرج باسم رجل رجل قِدْحاً منها فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح، ومن خرج له قدح من تلك الثلاثة لم يأخذ شيئاً وغرم الجزور كله»، فكأن إخراج القداح يكون بالأسماء، أي أن يُلعب في كل مرة باسم واحد، فيخرج له سهم بحسب حظه، فمثلاً إذا لُعب باسم من كان قد اختار (المعلّى) - وله سبعة أنصبة - فخرج قدحه فقد كسب، ولكن إذا خرج له (الفذّ) مثلاً فقد خسر جداً؛ لأنه يغرم ثمن سبعة أنصبة من الجزور، كما ضمن في بداية اللعب، على حين لا يحظى إلا بنصيب الفذّ: (واحد)، وقد يُلعب باسم صاحب الفذّ فيخرج له المعلّى فيكون قد كسب كسباً عظيماً، وهكذا اعتماداً على الحظّ. ومن هذا يتضح أنه لم يكن هناك - حسب هذه الطريقة - خاسر دون أي نصيب، ولكنّ هناك تفاوتاً في الأنصباء تبعاً للحظّ. ويكون دفع ثمن الجزور بهذه الطريقة على الجميع، كل بقدر سهمه الذي اختار، فصاحب (المعلّى) يدفع ثمن سبعة أجزاء من الجزور، يكون قد أخذها منه (العَدْل) في أول اللعب، فإذا خرج سهمه دفع لحمه للفقراء والمحتاجين، ومكسبه من ذلك الحمد والثناء، وكان هذا هو دافعهم

(١) البحر: ٢/١٥٤.

وهدفهم[☆]؛ كما قال (ابن مقبل)[١]:

في دار حَيٍّ يُهينونَ اللُّحام، وهمْ للجار والضَّيفِ يَغْشاهم مكاريمُ
قد أيقنوا أنَّ مال المرء يتبعه حَقٌّ على صالح الأقوام معلومُ

ولكن لو خرج باسمه (الفذّ) مثلاً فقد خسر خسارة مادية ومعنوية؛ إذ يكون قد ضمن ثمن سبعة أجزاء من الجزور، على حين يكون نصيبه الذي يعطيه الفقراء واحداً فقط. أمّا صاحب الفذّ فهو يبدو أفضل من غيره على أية حال؛ لأنه إذا لعب باسمه فخرج سهمه دفع لحمه إلى الفقراء بعد أن يكون قد ضمن ثمنه اليسير، وربما خرج له المعلّى، أو أي سهم من ذوات الحظّ الأعلى من حظّ سهمه، فيكسب بذلك كسباً معنوياً كبيراً، إذ لا يكون عليه من ثمن الجزور سوى ثمن نصيب واحد، بينما يكرم الفقراء بأنصبة أخرى، إضافة إلى نصيبه، قد تصل إلى ستة - إذا خرج له المعلّى - ولم يدفع من ثمنها شيئا.

هذه هي الطريقة التي يمكن تصوّرها لتأويل قول (الأصمعي) في قسمة الجزور إلى ثمانية وعشرين قسما. والغريب أن ما خطّأ (ابنُ قتيبة) (الأصمعيَّ) فيه من ذلك في كتابه (الميسر)[٢]، قد ذهب هو نفسه إليه في كتابه الآخر (الأشربة)[٣]، حيث قال: «...وهي عشرة أقدح على جزور، يجزّئونها ثمانية وعشرين جزءاً، وقد ذكرتُ هذا في كتاب الميسر وبيّنت كيف كانوا يفعلون».

فإذن، يبدو أنها كانت للميسر طريقتان، الأولى: كما وصفها ابن قتيبة في (الميسر)، والأخرى: هي التي تقسّم فيها الجزور ثمانية وعشرين جزءاً كما قال

(☆) «وربما قامروا لأنفسهم»: (أبو حيان: م. ن: ٢/ ١٥٥).
(١) ديوانه: (٢٧٥/ ٣٤، ٣٦) = (ط. TÜREK: ١١٢/ ٣٤، ٣٦).
(٢) ١٢٠-١٢١.
(٣) ٧٢.

الأصمعي ووافقه ابن قتيبة في (الأشربة)، ولعل صفتها مثلما سبق تفصيله أو قريبٌ منه.

«وأكثر الأيسار سبعة على عدد القداح» على حد قول ابن قتيبة[١]، أمّا الأغفال الثلاثة فإنما توضع مع السبعة «ليكثر بها العدد، ولتؤمن بها حيلة الضارب»[٢]. على أن في شعر (ابن مقبل) وغيره ما يدلّ على أنهم كانوا يلعبون بالأغفال، وبخاصة (المنيح) الذي يُضرب به المثل في الكسب، وإن حاول ابن قتيبة تفسير المنيح بالمستعار الممتنح وليس بذلك القدح الغفل[٣]، لقول ابن مقبل[٤]:

إذا امْتَنَحَتْهُ من مَعَدٍّ عِصابَةٌ ... غدا رَبُّهُ قبل المفيضين يَقْدَحُ[☆]

فمما يدلّ على اللعب بالأغفال قول (ابن مقبل)[٥]:

وأَزْجُرُ فيها قبل تَمِّ ضَحائها ... مَنِيحَ القِداحِ والصَّريعَ المُجَبَّرا[☆٢]

وقال (الكميت)[٦]:

أقول لكم هذا وفي النفس خِطَّةٌ ... أطيلُ بها - كرَّ المنيح - جدالَها

وقال (عروة بن الورد)[٧]:

---

(١) الميسر: ١١٠.
(٢) م. ن: ٨٣.
(٣) انظر: م. ن: ٧١، وغريب الحديث: ١/٦٢١.
(٤) ديوانه: (٣٠/٢٠) = (ط. TÜREK: ١٣/٢٠).
(☆) في (الكاتب: مواد البيان: ٤٣٢): «نزا ربه». يقول: إن صاحب القدح، لثقته بفوز قِدْحه، يقدح ناره قبل الإفاضة.
(٥) ديوانه: (١٣٤/١٨) = (ط. TÜREK: ٥٤/١٨).
(☆٢) فيها: الضمير عائد على الناقة المذكورة في بيت سابق. ضحاؤها: غداؤها. والصريع: الساقط من شجرته يابساً، وذلك أجود له. المجبّر: الذي انكسر فجبّر، مما يدل على نفاسته عندهم. (انظر: ابن قتيبة: الميسر: ١٠٠-١٠١).
هذا وفي (تهذيب الأزهري: ٢/٢٦)، جاء البيت، مع بعض التصحيف، هكذا:

وأزجر فيها قبل تَمِّ صحائها ... صريح القداح والمنيح المخيّرا

قال: «وإنما خيّره لأنه فائز مبارك...».
(٦) ديوانه: ٨٥.
(٧) ديوانه: ٧٢.

مُطِلّاً على أعدائه يزجرونهُ   بساحتهم، زَجْرَ المَنيحِ المُشَهَّرِ

وغير هذا مما يدلّ على اللعب بالأغفال، وإن كان المنيح هو المشهور في ذلك. ويؤيّد هذا قول (الفيروز آبادي)[1] في نَصّه المقتبَس آنفاً: «ظهر فوز من خرج لهم ذوات الأنصباء وغُرْم من خرج له الغفل»، وقول (أبي حيان)[2]: «فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح، ومن خرج له قدح من تلك الثلاثة لم يأخذ شيئاً وغرم الجزور كله»، فهذا يعني أن هناك من يلعب بذوات الأنصباء من القداح وهناك من يلعب بالأغفال منها.

وتأويل ذلك لا يتأتّى إلا بالتصوّر الذي مرّ وصفه، بأن يكون إخراج القداح بالأسماء فمن لُعب باسمه أخذ ما يخرج له من القداح أيّاً كان، حسب حظّه. فيكون إذن عدد القداح عشرة، بما فيها الأغفال، وعدد اللاعبين عشرة أيضاً، سواء أقسمت الجزور عشرة أجزاء أم ثمانية وعشرين قسماً، فصاحب الغفل إن خرج سهمه اعتزل ولا غرم عليه ولا غنم له، وإن خرج له أحد ذوات الأنصباء فاز بنصيبه ولم يغرم من ثمن الجزور شيئاً، وربما خرج لصاحب ذوات الأنصباء قدح من الأغفال فيخسر بذلك خسارة فادحة؛ لأنه يغرم بقدر نصيب قدحه الذي اختار ثمناً للجزور دون أن يكسب شيئاً، وهكذا.

ولعل هذا هو سبب شهرة المنيح وتمدّحهم باللعب به؛ لأن صاحبه لا غرم عليه أصلاً، وقد يحالفه الحظّ فيكسب[☆].

وقد يلعب أقلّ من سبعة، كأنْ يلعب صاحب (المعلّى) وصاحب (الرقيب) فيأخذ كلٌّ منهما نصيب ما خرج باسمه من هذين القِدْحين، أمّا إذا كانت الجزور

---

(١) (اليسر).

(٢) البحر: ٢/ ١٥٤.

(☆) بل لقد نسب (الراغب: محاضرات الأدباء: ٢/ ٧٢٤) إلى (ابن قتيبة) قوله: «والمنيح له موضعان: أحدهما لا حَظَّ له، والثاني له حظّ»، وقد جاءت كلمة «حظّ»: «خط»، بجعل النقطة على الحرف الأول، ولعله تصحيف، وحتى إذا كانت «خط» صحيحة هنا، فذو الحظّ هو الفائز بالحظّ من القداح.

ثمانية وعشرين جزءاً، أو كانت أنصباء القداح قليلة، كأن لم يكن هناك إلا (الفذّ) و(التوءم) و(الرقيب) أو (الحِلْس) مثلاً، فلا بد حينئذ من (التتميم)، وذلك بأن يلعب أحدهم بأكثر من قِدْح واحد[1]؛ يقول (ابن مقبل) مفتخراً بالتتميم[2]:

... أَنِّي أُتَمِّمُ أَيساري بذي أَوَدٍ   من فَرْعِ شَيْحاطَ صافٍ لِيْطُهُ قَرِعُ.

ب - ٢ - ١ - الإفاضة:

صفة الإفاضة كما نقل (ابن قتيبة)[3]: أن يعمد (الحُرْضة) إلى (الرِّبابة) - وهي جِلْدة رقيقة تكون فيها القداح - فيُعْصَب على يديه لئلا يُحابي أحداً، وأحياناً يعصبون عينيه، ثم يجلجل بالقداح داخل (الرِّبابة)، ثم يدفعها دفعة واحدة قُدّام ليَخرج من فم الرِّبابة الضيّق قِدْح واحد باسم لاعب من اللاعبين، كما مرّ في عبارة (الفيروز آبادي)[4]، فيقوم (الرقيب)[☆] وينظر إلى هذا القِدْح، فإن كان من الثلاثة الأغفال «ردّه إلى الرِّبابة، وقال للحُرْضَة أعد الجلجلة والإفاضة، وكان ذلك لغواً لا غُرْم فيه على أحد ولا غُنْم، وإن كان من السبعة ذوات الحظوظ دفعه إلى صاحبه، وقال: قم فاعتزل... فإذا اعتزل صاحبه قال للحُرْضة: أَعِد الجلجلة والإفاضة، فيعيد»[5]. قال ابن مقبل[6][☆٢]:

(١) انظر: ابن منظور: (تمم).
(٢) ديوانه: (٢٦/١٧٥) = (ط. TÜREK: ٢٦/٧١).
(٣) الميسر: ١٢٨-١٤٥.
(٤) انظر: (اليسر).
(☆) الرقيب: «الأمين على الضريب، وقيل: هو أمين أصحاب الميسر... وقيل: الرجُل الذي يقوم خلف الحُرْضة في الميسر، ومعناه كله سواء»: (ابن منظور: (رقب)).
(٥) ابن قتيبة: الميسر: ١٤١-١٤٢.
(٦) ديوانه: (٢٩/٣٢٥-٣٠) = (ط. TÜREK: ٢٩/١٣٣-٣٠).
(☆٢) الشطر الثاني من البيت الأول برواية (ابن قتيبة: م. ن: ١٤١)، ورواية الديوان: «فرداً يجر على أيدي المدينا». يحنّ: يصوّت، لرزانته وسلامة عوده. (انظر: ابن قتيبة: م. ن: ١٠١). الوقف: السوار. والعاج: الذَّبْل، والذَّبْل: ظهر السلحفاة البحرية، (انظر: م. ن: ١٤٢)، أي: سوار من عاج. وقال (أبو عبيدة: مجاز القرآن: ٢/ ١٠٥) في هذا البيت: «وقف عاج: موقّف، فيه طرائق من حسنه».

[حَسَرْتُ عن كَفِّي السِّربالَ آخُذُهُ   فَرْداً يُجَنُّ على أيدي المُفيضينا]
[ثم انصرفتُ به جُذْلانَ مُبْتَهِجاً   كأنه وَقْفُ عاجٍ بات مَكْنُونا]

ويحق للفائز المعتزل أن يعود للّعب بِقِدْحه إذا سأل زملاءه فأحبّوا إجابته إلى ذلك، ويسمون ذلك «التثنية»[1]؛ قال (ابن مقبل)[2]:

والضاربين بأيديهم إذا نَهَدَتْ   مثنى القِداحِ، وحُبَّتْ فَوْزَةُ الخَطَرِ[☆]

والسبب في رَدِّ القِدْح (الغُفْل) إلى (الرِّبابة) إذا خرج، دون غُنْم أو غُرْم، أن هذه الأغفال الثلاثة إنما تجعل مع تلك السبعة الرابحة «ليكثر بها العدد، ولتُؤمن بها حيلة الضارب...»[3]، كما قيل. وممّا ينسب لابن مقبل هذا البيت[4]:

وأصفرَ عَطّافٍ إذا راح رَبُّهُ   غدا ابنا عِيانٍ بالشِّواءِ المُضَهَّبِ[☆٢]

وقد تعددت الأقوال في «ابني عِيان»، فقيل: هما خَطّان يخطّونهما للعِيافة، ثم يقول الذي يخطّهما: ابني عِيان أسرعا البَيان!، وقيل: إنما سُمّيا: «ابني عِيان» لأنهم يعاينون الفوز والطعام بهما، وقيل: هما طائران يُزجر بهما، يكونان في خطّ الأرض، وإذا عُلِم أن قِدْح القامر يفوز، قيل: جرى ابنا عِيان، وقيل: إنهما قِدْحان معروفان[5].

---

(١) انظر: ابن منظور: (ثنى).
(٢) ديوانه: (٣٢/٨٣) = (ط. TÜREK: ٣٣/ ٣٢).
(☆) نهدت: أي ارتفعت. والخطر: الرهن. (انظر: الجوهري: (خطر)).
(٣) ابن قتيبة: الميسر: ٨٣.
(٤) ذيل ديوانه: (٥/٣٥٤) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٤٠/ ١٥).
(☆٢) أصفر: قِدْح أصفر، وهم يصفون القدح بالاصفرار؛ لأنه من نبع وما شاكله، ولأنه أيضاً قد يُقدُم فيصفرّ. (انظر: ابن قتيبة: م. ن: ٩٤). عطّاف: أي يعطف عن مأخذ القداح وينفرد. والمضهّب: المشويّ الذي لم يبالغ في إنضاجه. «يقول: إذا راح صاحب هذا القِدْح به علم أنه يخرج فائزاً، فإذا قمر أتى بالشِّواء»: (م. ن: ٨٩-٩٠) والبيت مع بيتين آخرين في (م.ن: ٨٩) منسوبة إلى (الراعي).
(٥) انظر: ابن قتيبة: م.ن: ٨٩، وابن منظور: (عين).

ب - ٢ - ٢ - منافعه ولَهَج (ابن مقبل) به :

قال تعالى: ﴿يسألونكَ عن الخمر والميسر قُلْ فيهما إثمٌ كبيرٌ ومَنافعُ للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾[١].

ويمكن إجمال منافع الميسر في حياة العرب في بذل تلك اللحوم التي كسبوها بالمياسرة للمحتاجين من فقراء الحيّ ومساكينه في زمن اشتداد البرد وكَلَب الجوع[٢]، وفي التقائهم عليه، في هيئة محفلٍ تكثر فيه الصلات والتسلية في تلك الليالي الشتائية الطويلة القاسية، بالرغم مما كان ينطوي عليه من خصومات ومباغضات. فللميسر إذن: وظيفة اقتصادية واجتماعية في حياتهم؛ ولهذا فاخروا به، لما يعبّر عنه من كرم وأريحيّة وحسٍّ اجتماعي، وكانوا يسمّون من لا يدخل معهم فيه «معزالا» أو «بَرَماً»[٣]، قال (متمم بن نويرة) يرثي أخاه[٤]:

ولا بَرَمٌ تُهْدي النساء لعِرْسِهِ　　　إذا القَشْعُ من بَرْدِ الشتاء تَقَعْقَعا[☆]

وذهب (ابن قتيبة)[٥] إلى أنه لم يجد أحداً أَلْهَج بذكر القداح من (ابن مقبل)، ثم (الطِّرِمَّاح) بعده، ومع هذا يقول: «ولو جمعت ما في شعر أحدهما من ذكره لم تجده بعُشْر ما فيه من وصف حمار أو بعير». وفي عبارة ابن قتيبة هذه بعض مبالغة في ما يخصّ ابن مقبل على الأقل؛ فالميسر في شعره ذو مكانة كبيرة[☆٢]؛ ومن أجل ذلك لم يكن بُدٌّ من تقديم هذا العرض المستفيض لبيان

(١) البقرة: ٢١٩.
(٢) انظر: ابن قتيبة: م. ن: ٤٣ وما بعدها.
(٣) انظر: ابن منظور: (عزل)، و(برم).
(٤) م. ن: (قشع).
(☆) القشع: بيت من أدم، وقيل بيت من جلد. (انظر: م.ن).
(٥) الميسر: ٣١.
(☆٢) وإذا كانت قد ضاعت تلك الصّناعات التي قام بها القدماء لشعر ابن مقبل، كما مضى، فلا يستبعد أن يكون لاهتمام هذا الشاعر بالميسر علاقة بذلك، وكذا ضياع بعض شعره.

صفة الميسر عند العرب؛ لأنه يتوقف عليه فهم السياق الإشاريّ للشعر الوارد فيه عند هذا الشاعر، وهو أنعت العرب للقداح[(1)]؛ حتى رويت بعض الحكايات عن شهرة قِدْح ابن مقبل، منها: أن (الكميت) لـمّا هرب من سجن (خالد القسري - ١٢٦هـ = ٧٤٣م)، متنكّراً في ثياب امرأة كانت تدخل عليه، قال:

خرجتُ خروجَ القِدْحِ قِدْحِ ابن مقبل
على الرغم من تلك النوابح والمُشْلي[(2)]

مشيراً إلى قول ابن مقبل في قدح الميسر[(3)]:

خَروجٌ من الغُمَّى إذا صُكَّ صَكَّةً بدا، والعيونُ المُسْتَكِفَّةُ تَلْمَحُ[(☆)]

ومنها: أن (عبدالملك بن مروان) كتب إلى (الحَجّاج): أنت عندي قِدْح (ابن مقبل)، فكتب إلى (قتيبة بن مسلم الباهلي - ٩٦هـ = ٧١٥م) يسأله - وكان قتيبة قد روى الشعر - فقال: أبشر أيها الأمير، فإنه قد مدحك، وأنشد شعر ابن مقبل في وصف القِدْح، ومنه بيته الآنف[(4)][(☆٢)].

---

(١) انظر: البيهقي: المحاسن والمساوئ: ٢/ ١٦٦.

(٢) انظر: الجمحي: ٣١٨-٣٢٠، والجاحظ: الحيوان: ٢/ ٣٦٤-٣٦٥، وابن قتيبة: عيون الأخبار: ١/ ٨١، والعسكري: جمهرة الأمثال: ٢/ ١١٩-١٢٠.

(٣) ديوانه: (١٨/٢٩) = (ط. TÜREK: ١٣/ ١٨).

(☆) الغُمّى: الشدة، ويقصد هنا غمّى اجتماع القداح في الرِّبابة. و(انظر: أمالي القالي: ١/ ١٥). صُكّ صَكّة: أي دفع دفعة. (انظر: ابن منظور: (صكك)). المستكفة: من استكففت الشيء، وهو أن تضع يدك على حاجبك كالذي يستظل من الشمس حتى يستبين الشيء. (انظر: تهذيب الأزهري: ٩/ ٤٥٦). أو من استكفّ القوم حول الشيء، إذا أحاطوا به واستداروا ينظرون إليه. (انظر: الجوهري: (كفف))، و(المعافري: ٢/ ١٦٥). قال (ابن قتيبة: الميسر: ٦٥) في شأن هذا البيت: «يشير إلى قِدْح كان (لبني عامر بن صعصعة) لا يُجعل في القداح إلا خرج فائزاً أبداً».

(٤) انظر: أمالي القالي: ١/ ١٥، والعسكري: الجمهرة: ٢/ ١١٩، والثعالبي: ثمار القلوب: ٢١٨، والبكري: اللآلي: ١/ ٦٦، والحموي: الأدباء: ١/ ٣٠.

(☆٢) وفي (العسكري: م.ن): أن الحَجّاج قال لقتيبة: «إن ابن مقبل من أهْلِك، وقد كتب إليّ أمير المؤمنين بكذا. معرّفني قِدْحه. فكتب إليه قتيبة: أنه فاز تسعين مرة لم يخب فيها مرة واحدة. فقال ابن مقبل فيه: خروج من الغمى...».

وهذا الشعر - الذي ضربنا بعض أمثلته - يمثل أثراً (ما قَبْليّاً) جاهليّاً، بصرف النظر عن العصر الذي قاله فيه؛ لأن الأمر قد جاء باجتنابه، في قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾[1].

ب - ٣ - من عادات الكرم:

لهداية العميان إلى منازل الكرماء، كانوا يضعون في نارهم بخوراً، قال (الآلوسي)[2]: «ربما أوقدوها بالمندل الرطب - وهو عطر ينسب إلى مندل بلد بالهند - ونحوه ممّا يتبخّر به ليهتدي إليها العميان»، قال (ابن مقبل)[3][☆]:

ولاح ببُرْقَةِ الأمْهار منها ... بعينكَ نازحٌ من ضوء نارِ
[إذا ما قلتُ زَهّتْها عِصِيٌّ ... عِصِيُّ الرَّنْدِ والعُصُفُ السَّواري]

وقد ذكر (ابن منظور)[4] خلافاً واسعاً في معنى «الرَّنْد»، وممّا قاله: «قال

---

(١) المائدة: ٩٠-٩١.
(٢) بلوغ الأرب: ١/ ٧٠.
(٣) ديوانه: (١٤٩-١٥٠/ ١٥-١٦) = (ط. TÜREK: ١١/ ١٥، والآخر في حاشية الصفحة).
(☆) صدر البيت الأول في (الحموي: المشترك: ٤٨) منسوب (للقتّال)، ولعله تصحيف (ابن مقبل). وبرقة الأمهار: موضع، ذكره في (١/ ١١٨، ٣) = (ط. TÜREK: ١/ ٤٧، ٣) مع (دمخ)، و(سلع جزار)، و(ذات الطاق)، وكلها في (عالية نجد الجنوبية)، ويذكر (ابن بليهد: صحيح الأخبار: ٤/ ٢٦٢): أن هناك في جهة المستوى هضبة يقال لها: (مهرة)، وربما أن هذه البرقة قريبة منها فأضيفت إليها. ويرى (ابن جنيدل: ١/ ٢٢١-٢٢٢) أنها (برقة صدعان)؛ لأنه ليس قرب دمخ وذات النطاق برقه شهيرة ينطبق عليها هذا التحديد سواها، وصدعان: ماء قديم تنسب إليه البرقة، وتقع جنوب شرق جبل نطاق، وشرق جبل دمخ، وجنوب (ثهلان)، في غربي (الشُّريف)، وهي أماكن متقاربة يُرى بعضها من بعض. زهتها: أي أثارت اشتعالها. وفي ديوانه (ط. عزة حسن): «السَّواري»: (بسين مشددة مكسورة)، وصحتها: «السَّواري»: جمع سارية.
(٤) (رند).

(أبو عبيد): ربما سمّوا عود الطيب الذي يتبخّر به رنداً، وأنكر أن يكون الرند الآس. ورُوي عن (أبي العباس أحمد بن يحيى) أنه قال: الرند الآس عند جماعة أهل اللغة إلا (أبا عمرو الشيباني) و(ابن الأعرابي)، فإنهما قالا: الرند الحَنْوَة وهو طَيّب الرائحة».

ومهما يكن من شيء، فإن بيت (ابن مقبل) الثاني ، من بيتيه السابقَين، يشير إلى ذلك التقليد العربي. وقد يستشف منه ما يدلّ على عمى الشاعر نفسه، وإنْ ذكر في البيت الأول: أنه لاح بعينه «نازح من ضوء نار»، لا سيما أنّ البيت الثاني قد أضيف في هذا المكان منقولاً عن (الحموي)[1]، ولم يكن في الأصل المخطوط[☆].

جـ - الأساطير

جـ - ١ - الحيّة الحاوية :

كانت للعرب في جاهليتهم اعتقادات أسطورية في الحيّة[2]، منها ما نقله (الجاحظ)[3] عنهم من أن الحيّة «كانت في صورة جمل، وأن الله تعالى عاقبها حتى لاطها بالأرض، وقسم عقابها على عشرة أقسام؛ حين احتملتْ دخول إبليس في جوفها حتى وسوس إلى آدم من فيها»[☆2]، وفي هذا قال (عدي بن زيد العبادي)[4]:

---

(١) البلدان: (برقة الأمهار).

(☆) وقد نقل (م.ن: (شوق)) عن (ابن المعلّى الأزدي) - شارح شعر ابن مقبل - البيت الأول وما بعده حسب سياق الأصل المخطوط لديوانه، دون ذكر هذا البيت.

(٢) انظر: الألوسي: بلوغ الأرب: ٢/ ٣٥٩.

(٣) الحيوان: ١/ ٢٩٧. وانظر كذلك: ٤/ ١٩٧، والراغب: محاضرات الأدباء: ٤/ ٦٨٦، وابن الأثير: الكامل: ١/ ٢٠-٢١.

(☆٢) وقد نسب الجاحظ هذه الأسطورة إلى أهل الكتاب. (انظر: م. ن: ٤/ ١٩٧).

(٤) ديوانه: ١٥٩-١٦٠.

لَم يَنْهَهُ رَبُّهُ عن غير واحدةٍ   من شجرٍ طَيّبٍ: أنْ شَمَّ أو أكلا
فكانتْ الحيَّةُ الرَّقْشاء إذْ خُلِقَتْ   كما تَرَى ناقَةً في الخَلْق أو جَمَلا
فلاطها اللهُ إذ أغوتْ خليفَتَهُ   طولَ الليالي ولم يَجعلْ لها أَجَلا

وهذه الأسطورة الجاهلية توّصل لنا تشبيه (ابن مقبل) جماجم الإبل المبتلّة بالأفاعي السود(١)، تشبيهاً مقلوباً، في قوله(٢):

كـأن حـنـاتِـمَ حـارِيَـةٍ   جَماجِمُها إذْ مَسِسْنَ ابْتِلالا(☆)

وعندئذٍ لايكون قلب التشبيه في البيت إلا مؤكّداً لقيام هذا المعنى في نفس الشاعر. بل ربما جاز القول: إنه لم يكن في هذا التشبيه قلبٌ أصلاً، فبالرغم من أن سياق الكلام عن الإبل، فإنه قد شبّه الأفاعي بجماجمها وليس العكس؛ والشيء يشبَّه بأصله أو بما هو أتمّ منه في وجه الشبه، فيقال مثلاً: كأن الولد أبوه، وزيد كالأسد، وهذا هو الأصل(٣)؛ فحيث كانت الإبل هي أصل الأفاعي - في اعتقادهم - شبّه الأفاعي بجماجم الإبل. ولو قيل بالقلب في التشبيه هنا، فإن في ذلك مبالغة؛ بحيث يتوهّم السامع أن المشبَّه به أتمُّ من المشبَّه في وجه الشبه(٤)، وأنه هو الأصل، أي أن جماجم الإبل المبتلّة أتمُّ من الأفاعي في وجه الشبه، أو أنها هي الأصل. فعلى كلا الوجهين يشي البيت بذلك التصوّر الأسطوري لدى الشاعر.

---

(١) وانظر: أبا سليم: الإبل في الشعر الجاهلي: ١/٢٤٩.
(٢) ديوانه: (٢٠/٢٣٠) = (ط. TÜREK: ٢٠/٩٤).
(☆) الحناتم: جمع حَنْتم، وهو الأسود هاهنا. والحارية: الأفعى التي كبرتْ ونقّص جسمها من الكِبَر ولم يبق إلّا رأسها ونَفَسها وسمُّها. (انظر: ابن منظور: (حنتم)، و(حري)).
(٣) انظر: القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة: ٣٥٨.
(٤) انظر: م. ن: ٣٦١.

جـ - ٢ - الجن :

ليس القول بوجود الجن قولاً جاهلياً؛ فقد أقرّه الإسلام، إلا أن الجاهلي من ذلك: ادعاء رؤيتها أو سماعها أو مخالطتها وما ينطوي عليه ذلك من تخيّلات باطلة غريبة[☆]. وهذا يستتبع: الأغوال، والدواهي، وغيرهما مما يأتي في شعر (ابن مقبل).

فمن ذلك قوله في وصف عيس سرت بهم كلّ ليلها ويومها حتى استرقّت الظهائر[١]:

فأَصبحَ بالَموماةِ رُضعاً سَريحُها فللإنسِ باقيه، وللجِنِّ نادرُهْ[☆٢]

وأيّاً ما كان المعنى الذي رمى الشاعر إليه في بيته هذا، فمن الواضح اعتقاده في مشاركة الجنِّ الإنسَ في شؤون حياتهم. وإذا صح استيحاء معنى الندرة من قوله: «وللجن نادره» - كما يقال مثلاً: «نادرة الزمان» أي: وحيده، وفي هذا تفضيل الشيء على سواه - إذا صح ذلك دلّ على تفضيل الجن وإيثارهم على الإنس عنده. وهذه العلاقة، التي انبنت عند العرب على الخوف من الجنّ، معروفة، حتى إن منهم من عبد الجنّ في الجاهلية[٢]. قال تعالى: ﴿بل كانوا

(☆) قال تعالى: ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم﴾ (الأعراف:٢٧). وكان (الشافعي) يقول: «من زعم من أهل العدالة أنه يرى الجن أبطلت شهادته»، مستدلاً بهذه الآية، قال: «إلّا أن يكون نبيّاً»: (الشبلي: آكام المرجان في أحكام الجانّ: ٢١).

(١) ديوانه: (٢٠/١٥٧) = (ط. TÜREK: ٢٠/٦٤).

(☆٢) ذهب (عزة حسن) إلى أن «رُضعاً»: جمع نادر للرّضيعة وهي سير الجلد. والسريح: جمع سَريحة، وهي نعل الناقة. والمعنى أن نعال المطيّ قد تشققت وتمزقت من شدة السير وأصبحت قطعاً كسيور الجلد. غير أن (ابن منظور: (رصع)) قد استشهد بهذا البيت على «الرصائع: مَشَكّ أعالي الضّلوع في الصلب، واحدها رُضع، وهو نادر. ..»، ومن معاني «السريح» قال: «كل قطعة من خرقة متمزقة أو دم سائل مستطيل يابس، فهو وما أشبهه سَريحة، والجمع سَريح وسَرائح. والسَّريحة: الطريق من الدم إذا كانت مستطيلة»: (سرح).

(٢) انظر: الشهرستاني: ٣/ ٢٧٢.

يعبدون الجن أكثرهم(☆) بهم مؤمنون﴾[1].

وفي وصفٍ معجبٍ بناقته القوية السريعة يقول[2]:

كأن به شيطانةً من نَجائها إذا أصبحتْ دَفْقاء بالمشي عَيْهَلا(☆٢)

كأن هذه الإشارة علاقة بنوع من التلبّسية(☆٣) (Animism) المفضية إلى مرحلة من «الطوطمية» (Totemism) القديمة؛ إذ كان من الجاهليين من يعتقد بتلبّس الأرواح الشيطانية بعض الحيوانات، حتى إن منهم من قدّس الحيوان أو عبده، للروح الشيطانية التي فيه، ومن تلك الحيوانات الإبل[3].

«ويقال إن الجن تحضر الفرس، عن (أبي عمرو)»[4]، قال (ابن مقبل) واصفاً فرساً نشيطا[5]:

يُـفَـرْفِـرُ الـفـأسَ بـالـنـابَيْنِ يَخْلَـعُـهُ
في أَفْكَلٍ من شُهُودِ الجِنِّ مُحْتَاضِرِ(☆٤)

ويستشفّ عبارة أبي عمرو، عن حضور الجن الفرس، أن الاعتقاد بذلك كان ما يزال سائداً بعد الإسلام. ولهذه الاعتقادات كانوا يضعون التمائم على

(☆) قال (الآلوسي: بلوغ الأرب: ٢/ ٢٣٢): «وهم شرذمة قليلون من أهل البوادي».

(١) سبأ: ٤١.

(٢) ديوانه: (٢١١/ ١٤) = (ط. TÜREK: ٨٧/ ١٤).

(☆٢) عيهل: أي ناقة سريعة.

(☆٣) نقترح «التلبّسية» هنا مصطلحاً بديلاً عن: الروحانية / الحيوانية / النسمية.. ونحوها.

(٣) انظر: الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب: ١٠٥-١٠٩، وعليّ الدين محيي الدين عبادة الأرواح (القوى الخفية) في المجتمع الجاهلي (ضمن الندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة، الجزيرة العربية قبل الإسلام - الكتاب الثاني: ١٥٤).

(٤) ابن قتيبة: المعاني: ٥٨.

(٥) ديوانه: (٩٨/ ٦٩) = (ط. TÜREK: ٣٨/ ٦٩).

(☆٤) في ديوانه: «محتضِر»، (بكسر الضاد)، ولعلها: «محتضَر»، (بالفتح)، بدليل قول (ابن قتيبة) أعلاه. يفرفر الفأس: يُجري فأس اللجام حتى يخلعه بنابيه. في أفكل: أي في رعدة لنشاطه. (انظر: ابن منظور: (فكل)). محتضر: أي محضور من الجن، «وفي الحديث: إن هذه الحُشُوشَ مُحْتَضَرة، أي يحضرها الجن والشياطين»، (ابن منظور: (حضر))، والمحتضَر: المجنون، أو المتلبّس بشيطان.

الخيل؛ لدفع العين أو الأرواح الشريرة عنها، وقد أبطلها الإسلام. يقول (ابن مقبل) في وصف فرسه[(١)]:

غَوْجُ اللَّبانِ ولم تُعْقَدْ تَمائِمُهُ ... مُعْرَى القِلادةِ من رَبْوٍ ولابُهُرِ[(☆)].

كما كان في تصوّر الجاهليين أن الجِنّ تسكن منازل الإنس بعد خلوّها منهم وتحميها مِن كل مَن أرادها، وتحثو في وجهه التراب، «فإن أبى الرجوع خبلوه وربما قتلوه»، مثلما حدث لمنازل الأُمّة التي كانت تسمى (وَبَار)[(٢)]، وغيرها. فيقول في منازل ليلى وأترابها الخالية[(٣)]:

خلا عهدُها بعد سُكّانها ... لِما نالها من خَبال وجِنّ

و(الخُبَّل): جنس من الجن، يخبلون الناس ويؤذونهم، والخَبال[(☆٢)]: الجنون واختلاط العقل[(٤)]، بفعل (الخُبَّل). ويبدو مما تقدم أن هذا الجنس من الجِنّ هو الذي يسكن المنازل ويخبل من رادها، مثلما أشار الشاعر في بيته، بل كأن الشاعر هاهنا يعزو خلوّ المنازل «لما نالها من خبال وجِنّ». وكان العرب يدهشون لسرعة انتقال قوم عهدوهم في مكان ما، فـ«يعتقدون أنهم الجِنّ وأن تلك خيامهم وقبابهم»[(٥)]. ومما ينسب إليه[(٦)]:

---

(١) ديوانه: (٧٣/١٠٠) = (ط. TÜREK: ٣٩/ ٧٣).

(☆) غوج اللبان: ليّنه واسعه. واللبان: مجرى اللَّبب، «ويقال للدابة - إذا جعل يتثنى في شقّيه - . إنه ليتغوّج»: (ابن قتيبة: المعاني: ١٣٦). والبهر: تتابع النفَس. (انظر: الجوهري: (بهر)). «يقول: لم يُقلَّد من داء ولا ربو، إنما قُلِّد للحسن خوفاً من العين»: (ابن قتيبة: م. ن).

(٢) انظر: الجاحظ: الحيوان: ٦/ ٢١٥.

(٣) ديوانه: (٢٦/٢٩٥) = (ط. TÜREK: ٢٦/١١٩).

(☆٢) الخبال في الأصل: الفساد، ويكون في الأفعال والأبدان والعقول. (انظر: ابن منظور: (خبل)). ولكنه في هذا البيت يعني الفساد بفعل الخُبَّل على الأرجح، ويلاحظ أن من معاني الخَبَل (بالتحريك): الجن والإنس، فربما مدّ الشاعر هنا حركة الباء لتصبح «خبال»، وبهذا يجوز أن يكون المعنى: لما نالها من جنّ الخُبَّل وسواهم من الجن، أو: لما نالها من الإنس والجن.

(٤) انظر: الرازي: كتاب الزينة: ٢/ ١٩٠.

(٥) الشبلي: ٢٣.

(٦) ذيل ديوانه: (٣١/٣٨٤) = (ط. TÜREK: لم يذكر).

بِشُقَّةٍ من نقا العَزّافِ يسكنها   جِنُّ الصَّريمةِ والعِيْنُ المَطافيلُ(☆)

وكان الأعراب إذا سمعوا صفير الرياح في الجوّ توهّموا أنه صوت عزف الجن. قال (ابن منظور: (عزف)): «عَزِيْفُ الجِنّ: جَرْسُ أصواتها، وقيل: هو صوتٌ يُسْمَعُ بالليل كالطَّبْل، وقيل: هو صوتُ الرياح في الجوّ، فتوهّمه أهلُ البادية صوتَ الجِنّ. و(العَزّاف): رمل (لبني سعد) صفة غالبة مشتقّ من ذلك، ويسمى (أَبْرَق العَزّاف)». وقال (البكري)[1]: «قال الخليل: العَزّاف: رمل لبني سعد. وقال غيره سُمّيت تلك الرملة أَبْرَق العَزّاف؛ لأن فيها الجِنّ وهي يَسْرة عن طريق (الكوفة)، قريب من (زَرود)».

وكانوا يقولون بأن ماشية الجِنّ الظباء[2]، والظباء: جمع ظبي وظبية، والظبية: تطلق على أنثى الغزال، وعلى الأتان والشاة والبقرة أيضاً[3]. وبناءً على هذا فلا يبعد أن يكون الشاعر - في بيته السابق - قد أضاف «العِيْن» - وهي بقر الوحش - إلى الجِنّ على أنها ماشيتهم.

ويستوقفنا تشبيه الظباء في الديار الدائرة بالهجان من الإبل، أهو تشبيه اعتيادي كما هو ظاهره أم أن له جذوراً متصلة بتصوّر الأعراب لمطايا الجِنّ في مقابل مطايا الإنس؟، لا سيما أنه قد ذكر مع الظباء النعام، وهي في اعتقادهم أيضاً من مطايا الجِنّ[4]. ذلك قوله[5](☆٢):

(☆) الشقة: لعله يعني بها المسافة البعيدة في ذلك المكان، و(انظر: ابن منظور: (شقق))، إلا أن (عزة حسن) ذهب إلى أن الشُّقة: الشقيقة، وهي الغلظ بين الرملتين، وجمعها الشقائق. والصريمة: الرملة المفردة. (انظر: السكري: ديوان جران العود: ٤٠). والعِيْن: بقر الوحش. المطافيل: ذوات الأولاد.

(١) ما استعجم: ٩٤٠. وانظر أيضاً: ٦٣٤، ١١٩٤. وكذلك: الدميري: حياة الحيوان الكبرى: ١/ ٢٦٤.

(٢) انظر: الشبلي: ١١٩ وما بعدها، والجاحظ: الحيوان: ١/٣٠٩، ٦/٤٦.

(٣) انظر: ابن منظور: (ظبا)، والفيروز آبادي: (الظبي).

(٤) انظر: الجاحظ: م. ن.

(٥) ديوانه: (٤-٣/١٤٧) = (ط. TÜREK: ٤-٣/٦٠).

(☆٢) الهجان: من الإبل الأبيض الكريم. (انظر: ابن منظور: (هجن)). والدوار: جمع دار. أَصَكّ: ظليم أَصَكّ، أي في =

تَـرُودُ ظـبـاءُ آرامٍ عـلـيـهـا ... كما كَرَّ الهِجانُ على الدُّوارِ
تُراعيها بناتُ أَصَكَّ صَعْلٍ ... خَفيضٍ صَوْتُهُ غير العِرارِ

ولقد كان من أسباب طوطمة الغزلان اعتقاد الجاهليين أنها ماشية الجنّ، فصنعوا لها التماثيل، اتقاءَ شرِّ أصحابها، وكان عذارى العرب - في بعض أحيائهم - يُقِمْن لها طقوساً بعد أن يزيِّنَّها ويقلِّدنها أغصان الريحان. ولهذا تفصيل لاحق. (د-١-٤).

تلك أمثلة على «الجِنّ» في شعر (ابن مقبل). وفيما يلي مجموعة أخرى من الأمثلة[1](☆):

- وبَجالسٍ تمشي الغَطارفُ بينها ... كالجِنّ ليس لَبُوسُهمْ بنِمارِ.
- بجمعٍ رأته الجنُّ فاختشعتْ له ... ولَلشَّمسُ أدنى للخسوف وأكسفُ.
- وحَيٍّ حلالٍ قد رأينا ومجلسٍ ... تَعادَى بجِنّانِ الدَّحُولِ قَنابِـلُهْ.
- يَروي قَوامِحَ قبل الصبح صادِفَةً ... أشباهُ جِنٍّ عليها الرَّيْطُ والأُزُرُ.
- وعندي الــدُّهَيْمُ لو أَحُلُّ عِقالَها ... فتُصْعِدُ لم تَعْدَمْ من الجِنّ حاديا.

= ركبتيه أثر. صعل: دقيق الرأس والعنق. والعرار: صوت النعام. (انظر: م. ن: (صكك)، و(صعل)، و(عرر)). هذا وقد جاء في (ط. عزة حسن): «خَفِيض...»، والوزن هكذا مكسور، ولعل صحته: خفيض، وكذا جاء في (ط. TÜREK).

(١) ديوانه: (٨/١٢٠)، (٢٢/١٩٤)، (١٥/٢٤١)، (ذيل ديوانه: (٢٢/٣٦٤)، (١٣/٤١٢) = (ط. TÜREK: ٨/٤٨، ٢٢/٧٩، ١٤/٩٨، والملحق: ٤٠/١٤٤، ١٧١/١٦٢).

(☆) الغطارف: جمع الغطريف، وهو السيد. (انظر: الجوهري: (غطرف)). والنمار: جمع نَمِرَة، وهي كساء من صوف، ذات خطوط بيض وسود، يلبسها الأعراب، أي: أن أولئك السادة متنعمون وليسوا أعراباً جفاة. (انظر: ابن منظور: (نمر)). الدَّحول: ماء (لبني العجلان). (راجع: المدخل: ثانيا: أ - ٤). وقال (ابن الأعرابي: البئر: ٦١): «دَحُول إذا كان في حلقها عِوَج»، يعني البئر. وجِنّان: جمع جِنّ، شبه بهم فرسان الحي. والقنابل: جمع قَنْبَل وقَنْبَلَة، وهو طائفة الخيل هنا. (انظر: ابن منظور: (قنبل)). القوامح: الإبل التي ترفع رؤوسها فلا تشرب، في الأصل، شبه بها الرجال. صادفة: أي عن الماء. والبيت في وصف زِقّ، يريد أن ذلك الزِّقّ يروي أولئك الشَّرب الذين لا يريدون الماء وإنما يريدون الخمر. (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ٤٧٢-٤٧٣). والريط: جمع رَيطة، وهي الملاءة قطعة واحدة، وقيل كل ثوب رقيق لين. (انظر: ابن منظور: (ريط)). والدهيم: الداهية. (انظر: جـ - ٤).

جـ - ٣ - الغول:

ومن أصناف الجِنّ الغول. وروي عن (النبي ﷺ) أنه قال - حين سُئل عن الغيلان -: «هم سحرة الجِنّ»[(١)].

وكانت العرب تتصوّر الغيلان، وتزعم أنها تعترض طرق أسفارها، فتتغوّل تغوّلاً، أي تتلوّن في صور شتى فتضلّهم عن السبل وتغتالهم، فأبطل (النبي ﷺ) ذلك حيث قال: ««لا عَدْوى ولا هامة ولا صَفَرَ ولا غُول»[(☆)]. . . فيكون المعنيّ بقوله لا غول أنها لا تستطيع أن تُضلّ أحدا»[(٢)]، وذهب (ابن منظور)[(٣)] وغيره إلى أن الأغوال هي السعالي.

ومما ينسب (لابن مقبل) هذا البيت[(٤)]:

فقلتُ: ما لِحُمولِ الحَيِّ قد خَفِيَتْ أَكَلَّ طَرفي، أم غالتْهُمُ الغُولُ

قال (ابن منظور)[(٥)]: «تَغَوَّلتهم الغُولُ: تُوِّهُوا». وفي قول الشاعر: «غالتهم الغول» معنى الإهلاك أيضا.

وفي شعر (ابن مقبل) مفردات أخرى، توحي بالغُول، وقد يكون «الغُول» هو أصل مادتها الاشتقاقية، فمنها قوله[(٦)(☆٢)]:

---

(١) انظر: الشبلي: ٢٠، والرازي: ١٨٢، والدميري: ٢/١١٥، وابن منظور: (غول)، والفيروز أبادي: (غاله)، والألوسي: بلوغ الأرب: ٢/٣٤٦-٣٤٧.

(☆) في (البخاري: ٥/٢١٦١): «. . . أن (أبا هريرة رضي الله عنه) قال: إن رسول الله ﷺ قال: (لا عَدْوى ولا صَفَر ولا هامة)».

(٢) ابن منظور: (غول). وانظر: الرازي: ١٨٢-١٨٣، والدميري: ٢/١١٧، والألوسي: م. ن.

(٣) انظر: (م. ن)، والرازي: ١٨٢، والدميري: ٢/١١٥ وغيرها، والألوسي: م. ن.

(٤) ذيل ديوانه: (٧/٣٧٧) = (ط. TÜREK: لم يذكر).

(٥) (م. ن).

(٦) ديوانه: (٧٠/٣٦)، (٢٠٤/١٢)، (٢٤١/١٤)، (٢٥٠/٤٧)، ذيل ديوانه: (٣٨٦/٣٩) = (ط. TÜREK· ٢٩/٣٦، ٨٤/١٢، ٩٨/١٣، ١٠٢/٤٦، لم يذكر).

(☆٢) خفّانان، وكشح، وآلات: أماكن. كانع: قريب. (انظر: الجوهري: (كنع)). والمعضد: حديدة تعضد بها الشجر،

- تَخَرَّمُ خُفَّانين، والليلُ كانعٌ، وكَشْحاً وآلاتٍ، تُغاوِلُ مِعْضَدا.
- بوادٍ حجازيّ تَغَوَّلَ طولُهُ، مزارعُ في شُطْآنِهِ نُجِلَتْ نَجْلا.
- إذ الدهرُ محمودُ السَّجيات، تُجْتَنَى ثِمارُ الهَوَى منه، ويُؤْمَنُ غائلُهْ.
- وجاوَزَهُ مُسْتَأْنِسُ الشَّأْوِ شاخِصٌ كما استأنسَ الذئبَ الطَّريدُ يُغاوِلُهْ.
- كالرُّمْحِ أَرْقَلَ في الكَفَّيْنِ واطَّرَدَتْ منه القَناةُ، وفيها لَهْذَمٌ غولُ.

جـ - ٤ - الداهية :

من الدواهي المذكورة في شعره (بنات عين)(١)، قال(٢)(☆):

تَعَلَّمْ أنَّ شَرَّ بناتِ عَيْنٍ لَشَوْقٌ عادني بقَفا السِّتارِ
وأطولُها إذا الجَوْزاء كانتْ تواليها تَعَرَّضُ للغِيارِ

ومنها (الدُّهَيْم). وفي الدهيم أقوال منها: أن (بني الزَّبان بن مُجالِد الذُّهْلي) خرجوا في طلب إبلٍ لهم، فلقيهم (كُثَيِّف بن زهير) أو (كُثَيِّف بن عمرو التغلبي)، فضرب أعناقهم، وكان فيهم (عمرو بن الزَّبّان)، ثم حمل رؤوسهم في جُوالِق، وعلّقه في عنق ناقة عمرو، ويقال لها الدُّهيم، ثم خلّاها في الإبل، فراحت على (الزَّبّان)، فلما رآها قال: أظن بَنِيّ صادوا بَيْضَ نَعامٍ، فأهوى بيده

= أي تقطع، ولعله اسم موضع هاهنا. (انظر: عزة حسن). وتُغاوِل: أي تبادر. تَغَوَّل طوله: أي تلوّن واشتبه وتَعَقَّد حتى أضل سالكه، كما كانت الغول تفعل في اعتقادهم. (وانظر: ابن منظور: (غول)). نُجِلت: حُرِثت. (انظر: م. ن: (نجل))، وفي (ط. TÜREK): «نُجِّلت»: (بتشديد الجيم). مستأنس الشأو: يريد حمار وحش، والشأو: الشوط، والاستئناس: التلفّت والتبصّر. (انظر: ابن منظور: (أنس)، و(شأي)). وفي (ابن ميمون (مخطوط): الورقة ٣٣/أ): «كما استأنس الذئبُ الطريدَ». اللهذم: السنان الحاد، وصفه بأنه غول، أي: يغتال من يظفر به.

(١) انظر: ابن الأثير: المرصع: ٢٥٣. قال: «ويقال للدموع: بنات عين».

(٢) ديوانه: (٦/١٤٨-٧) = (ط. TÜREK: ٦/٦٠-٧).

(☆) الستار: جبل بالحجاز، أسفل من النباج، (انظر: البكري: ما استعجم: ٧٢١-٧٢٢، ١٠٨٦)، وكأنه عنى بـ«قفا الستار»: خلف جبل الستار. والستار يطلق على عدة أمكنة، وقال (ابن خميس: المجاز ١٥٣): «انظر أيها القارئ خطأ البكري حين قال على ذكر الستار في أول عبارته: (وهو جبل معروف بالحجاز أسفل من النباج) فبين النباج والحجاز مسافة خمسة وعشرين يوماً لحاملات الأثقال». ولعله يقصد (ستار الشَّرِيف)، ويرى (ابن جنيدل. ٢/ ٥١٥-٥١٦، ٦٦٧-٦٦٨) أنه جبل يسمى في هذا العهد (دِرقان) غرب إمارة (القويعية) تابع لها. أطولها: الضمير عائد على بنات عين: (الدواهي). تواليها: توابعها من النجوم، والضمير للجوزاء. للغِيار: أي للغروب.

في الجُوالِقِ، فإذا رأسٌ، فلما رآها قال: «آخِرُ البَزِّ على القلوص»، فذهبت مثلاً، فجعلت العرب تقول: أثقل من حِمْل الدُّهَيم، مثلاً في الدواهي العظام، وضَرَبَتْ بالدُّهيم مثلاً في الشَرّ والشؤم والداهية[(١)]. وكأنهم اعتقدوا أن ما حدث (لبني الزبّان) كانت للدهيم علاقة سببية به؛ لأنها من الجِنّ، أو لأنها مدفوعة بإرادة الجنّ؛ ولهذا قال (ابن مقبل) - مهدّداً بالهجاء بقصيدة كالدهيم يحدوها الجِنّ - [(٢)(☆)]:

وعندي الدُّهَيْمُ لو أَحُلُّ عِقالَها ... فتُصْعِدُ لم تَعْدَمْ من الجِنّ حاديا

«يريد أن الجِنَّ تُعِيْنُ على فعل المكروه»[(٣)]. وهكذا يقدّم الشاعر «الدُّهَيْم» رمزاً للرُّعب في مقابل رمزه الحبيب (دهماء). (انظر: و).

جـ - ٥ - البوم:

«البوم والبومة: طائر، يقع على الذكر والأنثى، حتى تقول: صَدًى أو فَيّاد فيختصّ بالذكَر»[(٤)]. ومن معاني الصَّدَى: جسد الإنسان بعد موته، وهو الدماغ وحشو الرأس، وهو شِدَّة العطش أيضا. وكان العرب يزعمون أن طائراً يخرج من رأس المقتول - إذا بلي في بعض الأقوال - يصيح: اسقوني.. اسقوني!، ولا يكفّ عن صياحه حتى يؤخذ بثأر القتيل، ويسمونه الصَّدَى أو الهامة[(☆٢)]، «وإنما

(١) انظر: الجاحظ: الحيوان: ٦/ ٢٤٧، والحاتمي: ٦٠، والثعالبي: ثمار القلوب: ٣٥٤، وابن رشيق: ٢/ ١٦٧، وابن منظور: (دهم).

(٢) ذيل ديوانه: (١٣/٤١٢) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٦٢/ ١٧١).

(☆) في (الحاتمي: ٦٠): «أما الدُّهَيم: فمن أسماء الداهية، والأصل في ذلك أن ناقة كانت لبعض الملوك تسمى الدهيم، فقتل قوماً وبعث برؤوسهم عليها في غِرارة، فلما جاءت قالوا: عليها بيض نعام. فقال الرسول: انظروا عما يفرخ البيض. فلما نظر إلى رؤوس أولاده قال: ...»، وأنشد البيت.

(٣) الحاتمي: م. ن.

(٤) الجوهري: (بوم).

(☆٢) يستنتج من هذا أن «الصَّدَى» سُمي بهذا الاسم: إما لأنه تكوّن من «الصَّدَى»، أي جسد الميت، أو لأنه خرج من «الصَّدَى»، أي دماغه وحشو رأسه، أو تكوّن منه، أو لأنه شديد «الصَّدَى»، أي العطش، وكانوا يتخيلون أنه يقول: «اسقوني فإني صَدٍ». أما الهامة فـ«كانوا يقولون: إن القتيل تخرج هامة من هامته»: (ابن منظور: (هوم))، =

كان يزعم ذلك أهل الجاهلية»[1]. وكانوا يعتقدون أن عظام الميت تصير ذلك الطائر[2]، ومنهم من يزعم أن هذا الطائر ما هو إلّا نفس الميت أو المقتول، كانت منبسطة في جسمه ثم خرجت مستوحشة بعد موته، تصيح في المقابر والدّيار المعطّلة، ويزعمون أنها تخرج صغيرةً ثم تكبر حتى تمسي كالبوم، وأنها تخبر الميت بما يكون بعده[3]. ويسجل (ابن مقبل) هذا الاعتقاد في قوله[4](☆):

وخَوْقاءَ جرداءِ المَسارحِ هَوْجَلٍ ... بها لاسْتِداءِ الشَّغْشَعاناتِ مَسْبَحُ
يُبَكّي بها البومُ الصَّدَى مثلما بَكَى ... مثاكيلُ يَفْرِينَ المَدارعَ نُوَّحُ

وقال - مفتخراً بعدم الهيبة من الفلاة، يركبها سَحَراً إذا تجاوبت بوم الصَّدَى -[5]:

ولا تَهَيَّبُني المَوماةُ أركبُها ... إذا تجاوبتِ الأصداءُ بالسَّحَرِ(☆٢)

وقال أيضا[6]:

- والهامة: الرأس، فلعلها سُميت بالهامة لذلك. وقد يستنبط من هذا أن «الصَّدَى، والهامة» - أصلاً - اسمان لذلك الطائر الذي زعمه العرب، ولمّا تصوروه على هيئة بوم، جعلوا منه ذكراً وأنثى كما في البوم الحقيقي، فالصَّدَى الذكر والهامة الأنثى، ثم صارا يطلَقان على الطائر الحقيقي أيضا.

(1) ابن منظور: (صدى).

(2) انظر: م. ن.

(3) انظر: المسعودي: مروج الذهب: ٢/ ١٣٣، والقلقشندي: صبح الأعشى: ١/ ٤٠٤، والسكري: شرح أشعار الهذليين: ١/ ٤٦٩، والراغب: محاضرات الأدباء: ١/ ١٥٥، والآلوسي: بلوغ الأرب: ٢/ ٣١١.

(4) ديوانه: (٥١/ ١٤-١٥) = (ط. TÜREK: ٢٠/ ١٤-١٥).

(☆) خوقاء: مفازة واسعة لا ماء فيها. جرداء: لا نبات فيها. والهوجل: البعيدة لا أعلام فيها، وقيل: التي لا نبات فيها. (انظر: تهذيب الأزهري: ٦/ ٥٣، ٧/ ٤٥٦). الشغشعانات: جمع شغشعانة، الناقة الجسيمة، والاستداء: مدّ الإبل بأيديها في سيرها. (انظر: ابن منظور: (سدا)، و(شمع)). والمدارع: جمع مِدْرَعة: وهي الثوب.

(5) ديوانه: (٧٩/ ٢٣) = (ط. TÜREK: ٣٢/ ٢٣).

(☆٢) الموماة: المفازة الواسعة التي لا ماء بها ولا أنيس، وقوله: «ولا تهيبني الموماة» أي لا أهابها أنا، فقلب لأمن اللبس، (انظر: الزبيدي: لحن العامة: ١٤١-١٤٢)، و(الإشبيلي: ضرائر الشعر: ٢٦٩)، و(ابن هشام: مغني اللبيب ٩١٢)، و(تخليص الشواهد: ٢٢١)، وغيرها. ويقال: تَهَيَّبَني إذا خوّفني، (انظر: الأصمعي: الأضداد: ٤٩)، و(الجوهري: (هيب))، وغيرهما. والأصداء: جمع الصدى، الطائر الموصوف آنفاً، ويحتمل البيت أن يكون المعنى إذا تجاوبت الأصوات بالسحر، فيشمل الأصوات عامة.

(6) ديوانه: (٢٨٠/ ٤٧) = (ط. TÜREK: ١١٣/ ٤٧).

وزَّادُ نَقْعٍ على ما كان من وَحَلٍ لايُسْتَهَدُ إذا ما صَوَّتَ البُوم[☆]

ويُعَدُّ هذا أثراً جاهلياً منذ أن أبطل الإسلام هذا الاعتقاد، وإن بقي في شعر الشعراء، فمن ذلك قوله (ﷺ): «لا عَدْوى ولا صَفَر ولا هامة»[1].

د - الديانات

د - ١ - الوثنيات

د - ١ - ١ - البَحِيرة :

اختلف في تحديد معنى (البَحِيْرَة)، غير أن المعنى اللغوي لهذه الكلمة: «المشقوقة»؛ فبَحِيْرَة: فَعِيْلَة، بمعنى مفعولة نحو: قتيلة[2]، ويلخِّص الخلاف في معنى البَحِيْرَة قول (الفيروز آبادي)[3]: «. . . كانوا إذا نُتِجَت الناقه أو الشاة عشرة أبطن بحروها وتركوها ترعى وحرّموا لحمها إذا ماتت على نسائهم وأكلها الرجال، أو التي خليت بلا راع، أو التي إذا نتجت خمسة أبطن والخامس ذكر نحروه فأكله الرجال والنساء، وإن كانت أنثى بحروا أذنها، فكان حراماً عليهم لحمها ولبنها وركوبها، فإذا ماتت حلّت للنساء، أو هي ابنة السائبة[☆٢]، وحكمها حكم أمّها، أو هي في الشاء خاصة إذا نتجت خمسة أبطن بحرت، وهي الغزيرة أيضا، ج: بحائر وبحر»[☆٣].

(☆) النقع: محبس الماء الذي يجتمع فيه. (وانظر: ابن منظور: (نقع)). والوَحَل (بالتحريك): الطين الرقيق الذي ترتطم فيه الدواب. (انظر: م. ن: (وحل)). لا يُستهد: لا يُستضعف ولا يجبن.

(١) البخاري: ٥/ ٢١٦١.

(٢) ابن منظور: (بحر).

(٣) (البحر).

(☆٢) السائبة: الناقة إذا نتجت عشرة أبطن إناث سُيبت؛ لنذر ونحوه، فلا تُركب ولا يُجزّ وبرها ولا يَشرب لبنها إلا ضيف أو ولدها، فإذا ماتت أكلها الرجال والنساء، وبُحِرَت أذن بنتها الأخيرة، فتسمى البحيرة. (انظر: ابن منظور. (سيب)).

(☆٣) «وجاء في الحديث: أن أول من بحر البحائر وحَمَى الحامي وغيّر دين (إسماعيل) (عمرو بن لُحَيّ بن قَمَعَة بن جُنْدُب». (ابن منظور: (بحر)). و(انظر: الشهرستاني: ٣/ ٢٥٣ وما بعدها)، و(السهيلي: الروض الأُنُف: ٣/ ٣٤٩ وما بعدها).

قال (ابن مقبل)[(١)]:

فيه من الأَخْرَجِ المُرْتاعِ قَرْقَرَةٌ   هَدْرَ الدِّيافِيِّ وسْطَ الهَجْمَةِ البُحُرِ[(☆)]

وقد استشهد (ابن هشام)[(٢)] بهذا البيت على (البَحِيرة) عند العرب في الجاهلية. ومن معاني «البُحُر» هاهنا الغُزُر، جمع الغزيرة، أي في لبنها، وبهذا فسّرها (ابن قتيبة)[(٣)] في هذا البيت، وكذلك فسّرها (ابن منظور)[(٤)]، مع أنه قد روى البيت في معرض حديثه عن عادة (البَحِيرة).

والظاهر أن الشاعر يعني تلك العادة الجاهلية في البَحِيرة، ويؤكّد هذا معنى البيت العام، حيث أراد أن يصوّر أمن هذا الظليم في ذلك المكان العازب البعيد[(☆٢)] - حتى كأنه الدِّيافي وسط البُحُر الآمنة من النحر أو الركوب - مع أن الأصل فيه الجبن والارتياع.

وقد نهى القرآن الكريم عن ذلك، في مثل قوله تعالى: **﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب، وأكثرهم لا يعقلون﴾**[(٥)].

د - ١ - ٢ - البَلِيَّة:

كانوا إذا مات منهم كريم، حفروا حفرة عند قبره، وعقلوا فيها ناقته أو

---

(١) ديوانه: (٩٥/ ٦٢) = (ط. TÜREK: ٣٧/ ٦٢).

(☆) الأخرج: الظليم فيه بياض وسواد. القرقرة: الهدير. الدِّيافي: الجمل المنسوب إلى (دياف) قرية بالشام تنسب إليها نجائب الإبل، أو الضخم. (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ٣٦٣)، و(ابن منظور: (قرر)، و(ديف)). والهجمة: القطعة العظيمة من الإبل، قيل: المئة وما داناها. (انظر: الأصمعي: الإبل: ١٥٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية: ١/ ٩٣. والسهيلي: ١/ ٣٧١.

(٣) انظر: المعاني: ٣٦٣.

(٤) انظر: (بحر).

(☆٢) قال قبله: بعازب النبتِ، يَرْتاعُ الفُؤادُ لَهُ   رَأْدَ النهار، لأصواتٍ منَ النُّغَرِ.

(٥) المائدة: ١٠٣.

بعيره، وشدّوا رأسها إلى خلفها، فتُبْلَى الناقة أو البعير - أي تُتْرك - هناك لا تُعلف ولا تُسقى حتى تموت، وربما أُحْرِقَتْ بعد موتها، وقد تُسلخ ويُملأ جلدها ثماماً، وكانوا يعتقدون أن الميت يُحشر راكباً على بليته تلك، ومن لم يُبَلَ عليه حُشر ماشياً. واستُدلّ من هذه العادة الاعتقادية على إيمان بعض عرب الجاهلية بالبعث والمعاد بالأجساد[(1)(☆)]. قال (ابن مقبل)[(2)(☆2)]:

أقولُ، وقد قَطَعْنَ بنا شَرَوْرَى ... ثَوانِيَ، واسْتَوَيْنَ منَ الضَّجُوعِ
لصَحبي، والقِلاصُ العِيسُ تَثْني ... أَزِمَّتَـهـا سَـوالِـفَ كـالجُذُوعِ
أبـالِـغـةٌ بَـلِـيَّـتَـهـا الـمـنـايـا ... ولمّا أَلْقَ حيَّ بني الخَليعِ؟!

فليس للبيت الأخير معنى واضح إلا أن يشير إلى ذلك المعنى الجاهلي الذي توارد على ألسنة الشعراء عن (البليّة)، فكأن الشاعر سأل صحبه، فيما يشبه اليأس، أبالغة المنايا بَلِيّة أولاء القلاص العيس قبل أن ألقى حي بني الخليع؟، أي: أتُرانا نهلك في هذه الصحراء مسافرين فتُبَلّى علينا إبِلُنا قبل أن ألقى أولئك الحي؟.

---

(1) انظر: ابن حبيب: المحبّر: ٣٢٣-٣٢٤، وصاعد الأندلسي: ٤٤، والراغب: المحاضرات: ١/١٥٥، والشهرستاني: ٣/ ٣١٥-٣١٦، وابن منظور: (بلا)، والفيروز آبادي: (بل)، والقلقشندي: صبح الأعشى: ١/ ٤٠٤، والألوسي: بلوغ الأرب: ٢/٣٠٧.

(☆) وقد ربط (زكي (مجلة كلية الآداب - جامعة الملك سعود: م١١، ع٢: ص ٤٢٧)) هذه العادة بالميسر حيث قال عنه: «قد ارتبط بشعيرة دينية تتمها الناقة البلية التي تُعقل عند قبر الميت لتموت هزالاً، فتكون قرباناً لمعبوده، وتتحقق من ثَمّ الغاية من ضرب القداح» (؟).

(2) ديوانه: (١٦٤/٢٤-٢٦) = (ط. TÜREK: ٦٧/ ٢٤-٢٦).

(☆2) قطعن: يعني المطي. شرورى: جبل بين (التمنق) و(المغدين)، في طريق (مكة) إلى (الكوفة)، بين (بني أسد)و(بني عامر). (انظر: البكري: ما استعجم: ٧٩٤-٧٩٥). «الضَّجُوع: بفتح أوله وضم ثانية، وبالعين المهملة: موضع من (بلاد هُذيل)، و(بلاد بني سُليم)»: (م. ن: ٨٥٧). القلاص: جمع قَلوص، وهي الفتية من الإبل. (انظر: الجوهري: (قلص)). والعيس: جمع أعيس وعيساء، وهو من الإبل الأبيض تخالطه شقرة يسيرة. (انظر: ابن منظور: (عيس)). والسوالف: جمع سالفة، وهي أعلى العنق. (انظر: م. ن: (سلف)). بنو الخليع: لعلهم (الخلعاء)، وهم (بنو ربيعة بن عُقَيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة)، سُمّوا بهذا لأنهم كانوا لا يعطون أحداً طاعة. (انظر: ابن دريد: الجمهرة: ٢/ ٢٣٥)، و(الاشتقاق: ٢٢٩)، و(ابن منظور: (خلع))، و(الفيروز آبادي: (الخلع))، و(القلقشندي: نهاية الأرب: ٢٦١)، و(كحّالة: ١/ ٣٥٤). وقد نسب (عزة حسن) الخلعاء إلى قبائل (بني قشير) غلطاً.

د - ١ - ٣ - الكواكب :

وقد كانت معبودات العرب في الجاهلية مرتبطة بـالكواكب والنجوم، في معظمها. واتخذوا من الإبل أحياناً رمزاً لتلك الكواكب أو النجوم المعبودة[(١)]. وفي شعر (ابن مقبل) بعض الإشارات الغامضة التي يقرن فيها الكواكب بالإبل، مثل قوله[(٢)(☆)]:

كـأن كـواكـبَ الجَوزاء عُـوْذٌ مُـعَـطَّـفَـةٌ [حَـنَـنٌ] عـلى حُـوارِ
كَـسِيَرٍ، لا يُـشَـيِّـعُـهُـنَّ حـتـى يَحِينَ لحاقُـهُ بـعـد انـتـظـارِ.

وفي شعره كذلك إشارات إلى كواكب أخرى كـ(الدَّبَران) و(الشِّعْرَى) وغيرهما، ولكنها لا تحمل شيئاً ظاهراً من معتقدات الجاهلية، وإن لم تخل من رواسب ميثولوجية يمكن تَدَبُّرها في بعض صوره، ولذلك مبحث آخر[(٣)].

د - ١ - ٤ - العذارى.. والغزال :

في شعر (ابن مقبل) ما يستوقف القارئ أمام بعض الأبيات المُلْبِسَة، التي توحي بأن وراءها معاني لها علاقة بنسق ديني أو اجتماعي، يتعذر على البحث اليوم اكتناهها تمام الاكتناه؛ هذا لأن الشقة قد بعدت بين الحاضر والماضي، والعلم بذلك السياق الماضي ليس عميقاً دقيقاً يعوّل عليه دائماً في تفسير الشعر

(١) انظر: أبا سليم: ١/ ٢٥٣.
(٢) ديوانه: (١٤٨/٨-٩) = (ط. TÜREK: ٦٠/٨-٩).
(☆) العوذ: جمع عائذ، وهي كل أنثى في الأيام السبعة من وضعها، والمقصود هاهنا نوق. (انظر: ابن فارس: المجمل: (عوذ)). والمعطّفة: التي عطفت من النوق على غير ولدها لتدرّ. حنن: في ديوانه [حَنَتْ]، والكلمة ساقطة في (ط. TÜREK)، وقال: «هكذا في الأصل»، والوزن ينكسر باستعمال «حَنَتْ» فلعلها: «حَنَنٌ». والحوار: ولد الناقة. لا يشيعهن: أي لا يصوّت يستأخرهن للحاق بهن، من «شيّع الراعي إبله» إذا صاح بها، أو أنه لا يصحبهن بل يلحق بهن بعد حين من الانتظار، من «شيّعت فلاناً عند شخوصه». (انظر: ابن فارس: م. ن: (شيع)).
(٣) المركّب الفني: الصورة: (ب٤ ف٣).

وفهم دلالاته من حياة القوم أو معتقداتهم. ثم إن الشعر المُلْبِسَ قد تكون له صلة مفقودة لو بقيت لانكشف وجه المعنى(☆). أما والحال كهذه فلا سبيل إلا بمحاولة استنطاق النَّصّ، والتماس ما قد يكون هو المغزى الإشاريّ من أخبار العرب وأحوالهم قبل الإسلام. وهذا الشعر - وإنْ جاء أحياناً في قصائد يغلب على الظن أنها إسلامية - فإنه يبقى جاهلي (الهويّة) روحاً وإيحاء. ولا يبعد أن تلفّق قصيدة بعضها جاهلي وبعضٌ آخر إسلامي، بل لا يبعد أن يأتي الشاعر في شعره بما يتعلق بالجاهلية في الإسلام؛ وقد تقدم أن الطابع الجاهلي قد ظل مهيمناً على شعر ابن مقبل حتى فيما ينسب منه لما بعد الإسلام[1]. فمن ذلك قوله، يصف (دهماء)[2](☆2):

كأنها مارنُ العِرْنِين مُقْتَصَلٌ ... من الظباء عليه الوَدْعُ مَنْظُومُ
مُقَلَّدٌ قُضُبَ الرَّيْحان، ذو جُدَدٍ، ... في جَوْزِهِ من نِجارِ الأَدْمِ تَوْسيمُ
مِمّا تَبَنَّى عَذارَى الحَيِّ، آنَسَهُ ... مَسْحُ الأَكُفِّ وإلباسٌ وتَنْويمُ

فما هذا الغزال الذي يحظى بكل هذه العناية من عذارى الحي؟!، يُنْظَم عليه الودع، ويُقلَّد بأغصان الريحان، ويُمسح بالأكف، ويُلبس، ويُنام!، وكيف إلباس الغزال وبم يُلبس؟!، ثم لِمَ يخصّ العذارى بهذا العمل؟!.

أسئلة تتداعى عند هذه الأبيات، ولا تتأتى الإجابة عنها إلا بأسئلة أخرى: هل كان من عادة العرب تربية الغزلان وتألّفها في البيوت، والشاعر إنما

(☆) «قال (يونس بن حبيب): قال: (أبو عمرو ابن العلاء): ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير»: (الجمحي: ١٥).

(١) راجع: المدخل: ثالثاً: ب.

(٢) ديوانه: (٢٦٩/١٠-١٢) = (ط. TÜREK: ١٠٩/١٠-١٢).

(☆2) مارن العرنين: أي غزال لين الأنف. مقتصل: أي مأخوذ عن أمه صغيرا. والودع: الخرز. ذو جدد: ذو خطوط في متنه تخالف لونه. جوزه: وسطه. نجار الأدم: لون الظباء البيض. توسيم: علامات. (انظر: ابن السيرافي: ١/ ٥٤٤). وفيه: «توشيم»، (بالشين المنقوطة)، قال: «ويروى: «تسويم» أي: علامة، والسيما: العلامة». وفي البيت الأخير: «إلباس وتوسيم».

أراد هنا التعبير عن هذه العادة، وخَصَّ العذارى لأنهن - في العادة - قعيدات البيوت، وهنّ بَعْدُ أقرب إلى الاهتمام بتربية مثل هذا الحيوان الجميل؟.

الحق أنْ ليس هناك دليل يثبت هذا الوجه من التفسير، على أن عدم توفر مثل هذا الدليل هنا لا يعني نفي احتمال قيام مثل هذه العادة عند العرب[☆]. إلا أن هذا الاهتمام المفرط بالغزال لا يزال لافتاً للنظر على نحو يحمل على الاعتقاد بأن له بُعْداً أعمق من هذا المعنى الظاهر.

إن شواهد حب العرب للغزلان كثيرة في شعرهم. بل إن (ابن المجاور)[1] يحدثنا أن:

> «عرب (التهائم) من (مَوزَع) إلى أعمال (أَبْيَن) مع جميع (العقارب)، وهم عرب هذه البلاد، يُسمّون (بنو الحارث)، يدّعون المحبة لله وفي الله، وإذا وجد أحدهم غزالاً ميتة أخذوها وغسلوها وكفّنوها ودفنوها، وبقي للغزال عزاء في جميع القبائل مدة سبعة أيام، مشقّقين الجيوب، مقطّعين الشعور، يَذرّون التراب على المفارق. فقيل لهم فيما هم فيه، فقالوا: نحن نمشي على الأصل ونقول بترك الفرع. كما قال (قيس بن الملوح):
>
> فعيناك عيناها وجيدك جيدها ... ولكن عظم الساق منك دقيقُ
>
> ولم يأكل أحد من أهل هذه القبيلة خبزاً مقابل امرأة ولا يشرب ولو مات جوعاً وظمأ».

وهذا الخبر جليّ الدلالة على أن نوعاً من التقديس كان للغزال لدى بعض العرب، مقروناً ذلك بنظرة خاصة إلى المرأة.

(☆) «وقد تمكّن الإنسان من تأليف بعض هذه الحيوانات مثل الغزال والظبي، فربّاها بمقياس صغير في البيوت وفي البساتين»: (جواد علي: ٧/ ١٢٤).

(١) تاريخ المستبصر: ١٤٩-١٥٠.

ويروي (ابن هشام)[1] أن (عبد المطلب) لمّا حفر زمزم وجد بها غزالين من الذهب، قال: «وهما الغزالان اللذان دَفنت جُرهم فيها حين خرجت من مكة»، ممّا يدلّ على قِدَم تقديس هذا الحيوان عند العرب. وهذا كله قد دفع بعض الدارسين المحدثين[2] إلى القول إن الغزال كان «طوطماً» مقدّساً في الوثنية الجاهلية، وأنه يرمز للشمس المعبودة، التي كانوا يسمّونها أحياناً (الغزالة) أو (المهاة)، وأن تشبيه المرأة بهذا الرمز يحمل معنى وثنياً أيضا. وقد قال (ديتلف نيلسون)[3]: إن الشمس كانت «تُصَوّر حسب الطريقة السامية الشمالية إنساناً... وهذا الإنسان يمثّل حسناء عارية»[☆]. فأين أبيات (ابن مقبل) من هذا؟.

الحق أن تفسير ذلك التصوير الحميم للغزال في ضوء ما تقدم من فكرة تقديس هذا الحيوان يبدو أقرب تصوّراً من غيره.

ويبقى: لِمَ خَصَّ العذارى بالعناية بالغزال؟.

لا يبدو هذا أيضاً بمحض الصدفة، بل كانت له جذور في الوثنية الجاهلية؛ فهذا الغزال كان حيواناً حيّاً كما وصفه الشاعر، وقد عبدت العرب الحيوان الحيّ لجهلهم بصناعة الرسم والنحت، وما وُجِد من الأصنام المنحوتة

---

(١) انظر: السيرة النبوية: ١/١٤٦-١٤٧.

(٢) انظر مثلاً: زكي: الأساطير: ٨٣، ونصرت عبد الرحمن: ١١٤-١٢٠.

(٣) التاريخ العربي القديم: ٢١٩.

(☆) وفي (الحموي: البلدان: (الغزيل)): «الغُزَيِّل تصغير الغزال من الوحش دارة الغزيل (لأبي الحارث ابن ربيعة بن بكر ابن كلاب)». ويذهب (خان: الأساطير العربية قبل الإسلام: ٨١) إلى أن تسمية «دارة الغزيل» وغيرها مما جاء على أسماء الحيوانات يدلّ على عبادة ذلك الحيوان. وعند البحث عن نسب (بكر بن كلاب) جد «الحارث» - كما ذكر (الحموي) آنفاً - نجد «بكر بن كلاب: قبيلة تعرف بأبي بكر ابن كلاب»: (كحّالة: ١/ ٩٢)، ونسبها يتصل بـ(عامر ابن صعصعة)، فهو (أبو بكر، واسمه عبيد بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة). (انظر: النويري: ٢/ ٣٣٨). أي أنهم من قوم (ابن مقبل)، مما يؤيّد صلته بفكرة التقديس تلك.

في شبه الجزيرة العربية فهو مجلوب من البلاد المجاورة[(١)]؛ ولهذا كان لا بدّ من تخصيص قائمين على العناية به. فالظاهر إذن أن أولاء العذارى كُنّ كاهنات المعبد أو خوادمه، فقد أضافهن (امرؤ القيس) من قبل في شعره إلى الصنم «دُوار» حين قال[(٢)]:

فَعَنَّ لنا سِرْبٌ كأن نعاجه ... عذارى دُوارٍ، في المُلاءِ المُذَيَّلِ

قال (ابن منظور)[(٣)]: «... واسم ذلك الصنم والموضع الدُّوار»[(☆)].
وفي شعر امرئ القيس كذلك ما يجلّي هذه العبادة الجاهلية للغزلان واقترانها بالعذارى فيما يسمى «بيوت العذارى»، حيث قال[(٤)(☆٢)]:

وماذا عليه لو ذكرتُ أوانساً ... كغزلان رملٍ في محاريب أَقْيالِ
وبيت عذارى يوم دَجْنٍ ولجتُهُ ... يُطِفْنَ بجمّاء المَرافقِ مِكْسالِ

ومن هذا يمكن تصوّر بيوت جاهلية للعبادة تسمى «بيوت العذارى» أو «الدُّوار»[(٥)]، كان العذارى يتعبدن فيها ويُعنين بمعبوداتها، التي قد يكون من بينها الغزال؛ ولذلك نُسبت تلك البيوت إليهنّ، وخُصصن في أبيات (ابن مقبل) بالعناية بالغزال.

ولعلنا بغير هذا التصوّر، أو نحوٍ منه، لا نملك تفسيراً لمثل هذا البيت من

---

(١) انظر: خان: ٨١.
(٢) ديوانه: ٢٢.
(٣) (دور).
(☆) وقال (الفيروز آبادي: (الدار)): «والدُّوّار: ككتّان - ويضم -: الكَعْبة، وصنم، ويُخفّف».
(٤) ديوانه: ٣٤.
(☆٢) «والأقيال: الملوك، وهم يتخذون الغزلان ويربونها»: (م. ن). جمّاء المرافق: أي غائبة عظم المرفق لكثرة لحمها ونعمتها، (انظر: م.ن). ولعله يعني بها زعيمتهن التي يذكر (ظاظا (الندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة - الكتاب الثاني: ١٧٩-١٨٠)) أنها كانت تدير خادمات المعبد الشابات في الرقصة الطقسية الإباحية الصاخبة التي كانت تقام لفك الإحرام بالحج أيام الجاهلية، وقال: إن تلك الزعيمة هي الموس.
(٥) وانظر: نصرت عبد الرحمن: ٣١ .

شعره[1]:

لَياحٌ، تَظَلُّ العائذاتُ يَسُفْنَهُ كَسَوْفِ العَذارَى ذا القَرابَة، مُنْجِبُ[☆]

فقد أراد الشاعر هنا تصوير محبة الأبقار لهذا الثور الوحشي الأبيض، فجعل العائذات يسفنه لأنها حديثات عهد بالولادة، وهي لذلك أزهد ما تكون في الذكور، ومع هذا تسوفه حبّاً وتعلقاً به، ثم زاد في الصورة مبالغة فشبّه سوفها إيّاه «بسوف العذارى ذا القرابة».

فما «سوف العذارى ذا القرابة»؟. أما القرابة النَّسَبِيّة، التي تفسّر بها المعاجم العربية[☆٢] هذه اللفظة، فلا يبدو لها مَعنى هاهنا، فما المقصود بذي القرابة إذن؟، أهو الكاهن الذي يقدم القرابين؟، أم أنه الصنم نفسه؛ حيث كانوا يقولون: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[2]؟، أم أنه القربان؟، أم ترى لهذا البيت علاقة بما يصفه (حسن ظاظا)[3] من طقوس فكّ الإحرام بالحج في الجاهلية، حيث يقول:

> «وكان ذلك يتم في حفلات إباحية صاخبة جدّاً، تصدح فيها الموسيقى، وتُشرب فيها الخمور بكثرة، وتتصدر هذه الحفلة فرقة من خادمات المعبد، وهن راقصات شابّات تديرهن امرأة مدربة على هذا اللون من الطقوس، فيرقصن رقصات يمثّلن فيها لقاء المعبودين تموز وعشتروت، أو لقاء إساف ونائلة في الجاهلية العربية، وكانت كل فتاة من أولئك الراقصات تسمَّى الخريع أي «الصغيرة اللَّينة»، وتؤدي رقصتها التعبيرية في صمت (mime)، بإشراف زعيمتهن

---

(١) ديوانه: (٤١/٢١) = (ط. TÜREK: ٤١/١٠).

(☆) اللياح: الثور الأبيض. العائذات: الحديثات الولادة من أبقار الوحش. يسفنه: يشممنه. منجب: صفة للثور (انظر: الجوهري: (لوح)، و(عوذ)، و(سوف)).

(☆٢) راجعنا في هذا: (ابن منظور، والفيروز آبادي: (قرب)) خاصة.

(٢) الزمر: ٣.

(٣) (الندوة العالمية الثانية لدراسات تاريخ الجزيرة – الكتاب الثاني: ١٧٩-١٨٠).

> هذه (mimos)[*]. . . وكانت لها ولفتياتها خيام عليها رايات مميزة على مقربة من مكان الحج».

لئن كان الغموض الذي يكتنف ذلك البيت، مع شُحّ المصادر، يحولان دون المقارنة المطمئنة للصورة الجاهلية التي أومض إليها، فإنه يشي بما يختبئ وراءه من حياة الوثنية الجاهلية، وما كان للعذارى من وظيفة في تلك الحياة. متداخلاً مع نمط قول (الطفيل الغنوي)[1]:

تَسُوفُ الأَوابي مَنْكِبَيْه كأنها ... عذارى قُرَيْشٍ غير أنْ لم تَوَشَّمِ

د - ٢ - اليهودية:

كان لدين اليهود في جزيرة العرب قبل الإسلام بعض الأثر - وإن كان ضعيفاً[2] - في حياة العرب وثقافتهم. وفي شعر (ابن مقبل) إشارة يتيمة إلى اليهود، ينقل فيها لمحة من الطبّ الشعبي عندهم إذ ذاك، حيث كانوا يَسْتَشْفون من الرعاف بالحجامة، لتخفيف ضغط الدم؛ فيقول واصفاً سرعة ناقته ونشاطها[3]:

فيها مِراحٌ إذا مالَ الإِرانُ كما ... نَجّى اليَهُوديُّ يَسْتَدْمِي إذا رَعَفا[**2]

فقد شبّه سرعة ناقته بسرعة اليهودي يطلب الحجامة إذا رعف، لوقف

(*) ويلمح إلى أن (mimos) «تركت في معجمنا العربي كلمة «مومس» من الآرامية، مومس عن اليونانية. وهي تختلف عن البَغِيّ ونحوها من الألفاظ، في أنها كانت تشغل وظيفة من وظائف المعبد الجاهلي، هي الدعارة الطقسية لفك الإحرام»: (م.ن).

(١) ديوانه: ٧٧/ ٢١ .

(٢) انظر: الحوفي: الحياة العربية: ١٤٠-١٤٢.

(٣) ديوانه: (١٨٨/ ٢٧) = (ط. TÜREK: ٧٦/ ٢٧).

(**٢) المراح: النشاط. الإران: النشاط أيضاً، ومن معاني الإران: تابوت الموتى الخشبي، فلعل الشاعر يعني هنا رحل الناقة الذي يشبه الإران. نجّى: أسرع. ويستدمي: يطأطئ رأسه يقطر منه الدم. (انظر: ابن منظور: (أرن)، و(دمي)).

الدم. ويأتي هذا العلاج على لسان طبيب العرب (الحارث بن كَلَدَة الثقفي)[☆]، وذلك في نقاش (كسرى) إياه، حيث قال: «. . . والدم؟، قال: إخراجه إذا زاد. . .»[١]. وقد احتجم (النبي ﷺ) من الشقيقة وغيرها، وأقرّ الاحتجام[٢]. لكن لماذا خَصَّ الشاعرُ (اليهوديَّ)، مع ما يظهر من أن هذا العلاج كان سائداً عند غير اليهود في الجاهلية والإسلام؟، ولماذا يسرع اليهودي هذه السرعة، التي ينبئ بيت الشاعر بأنها كانت مميّزة له عن سواه من الناس، إلى درجة أنه حين أراد امتداح نشاط ناقته وسرعتها اختار أن يشبّهها بسرعة اليهودي إلى الحجامة؟.

السبب في هذا أن الدم نجس عند اليهود، وينقض الطهارة، كما هي الحال عند المسلمين؛ فسرعة اليهودي هنا لم تكن لتخفيف ضغط الدم ووقف الرعاف فحسب، بل كانت إلى ذلك للحفاظ على الطهارة اللازمة لأداء صلواته اليومية، أمّا العربي من غير اليهود فقد كان في الجاهلية في حِلٍّ من هذا، فاقترنت تلك الصورة عند العرب باليهود[☆٢].

د - ٣ - النصرانية:

كان تأثير النصرانية على العرب في الجاهلية أقوى من تأثير اليهودية، غير أن الوثنية ظلت هي الأقوى من كلتيهما[٣]. وبرغم تفشّي النصرانية في العرب،

(☆) هو الحارث بن كَلَدَة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة ابن عبدالعزى بن غِيَرَة بن عوف بن قَسِي الثقفي. قال (ابن خلكان): «يقال: . . . مات في خلافة عمر»، وقيل إنه مات (نحو ٥٠هـ). واختلف في إسلامه. (انظر: ٦/ ٣٦٢-٣٦٣)، و(ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١٦١)، و(الآمدي: المؤتلف والمختلف: ٢٦١)، و(الزركلي: ٢/ ١٥٧).

(١) ابن أبي أصيبعه: ١٦٤.

(٢) انظر: البخاري: ٥/ ٢١٥٥-٢١٥٧.

(☆٢) وكان (للأستاذ الدكتور/ حسن ظاظا، يرحمه الله) - وهو مختصّ باليهوديات - فضل في الاتجاه إلى فهم البيت على هذا النحو، وذلك في إحدى مهاتفاتي إيّاه.

(٣) انظر: الحوفي: الحياة العربية: ١٤٠، ١٤٩.

فإن (مُضَر) لم تعرف إلا دين العرب ثم الإسلام. عدا ما كان من (العِباد) الذين نزلوا (الحيرة)[1].

وفي شعر (ابن مقبل) بعض الصور عن حياة النصارى، لا تنم على عقيدة نصرانية، بل على ما شاهده في بيئته من بعض مظاهر الديانة النصرانية والمجتمع النصراني، كالمكّوك، والناقوس، والقرابين، والرهبان، والعِباديّ، وغير هذا من أحوال حياتهم وعاداتهم المختلفة. فمن ذلك قوله، واصفاً حمار وحش[2]:

جارٍ بجَحْفَلَةٍ يَمُجُّ لُفاظها، ... سُمُطٍ كَمَكُّوكِ النَّصارى المُصْفَرِ[☆]

فهنا تشبيهٌ لجسد ذلك الحمار بمكّوك النصارى الخالي. ويمكن أن يستنتج من هذا أن ذلك الإناء كان من آنية النصارى الخاصة عندئذ، فنَسَبَه إليهم.

وفي بيت آخر، يتحدث عن إيراده العيس ليلاً مع بعض الفتية، في الوقت الذي كان فيه الناقوس يدقّ، فيقول[3]:

وَرَدْتُ بعِيسٍ قد طَلِحْنَ وفِتْيَةٍ ... إذا حَرَّكَ النّاقُوسَ بالليل زاجِرُهْ[☆٢]

وكأن هذه الصورة كانت مألوفة في محيط الشاعر، مما يؤكد تفشّي النصرانية في المجتمع الجاهلي. ويرسم لـ(لعِباديّ) - ملفوفاً رأسه بالنصيف - صورة تكاد تكون «كاريكاتورية»، - تذكّرنا بصوَر (جرير) لعباءة (الأخطل)[4]: خَصْم ابن

(١) انظر: الجاحظ: وسالة الرد على النصارى: ١٥.

(٢) ديوانه: (١٨/١٢٨) = (ط. TÜREK: ١٨/٥١).

(☆) الجحفلة: الفم. واللفاظ: ما لفظ ورمي به من الفم. وسمط: كالناقة لا وسم عليها. والمكّوك: طاس يشرب به أعلاه ضيق ووسطه واسع، وهو مكيال معروف لأهل العراق أيضا. المصفر: الخالي. (انظر: ابن منظور: (جحفل)، و(سمط)، و(مكك)).

(٣) ديوانه: (١٢/١٥٥) = (ط. TÜREK: ١٢/٦٣).

(☆٢) طلحن: أعيين وجهدن وهزلن من السفر. (انظر: الجوهري: (طلح)). زاجره: الموكل بدَقّه.

(٤) انظر: مثلاً: أبا تمام: نقائض جرير والأخطل: ٤٨/٢٠٧.

مقبل- إذ يقول مشبّهاً ناقته[(١)]:

غَدَتْ كالعِباديِّ المُنَصّفِ رأسَهُ إذا ما مشى في عِطْفِهِ وتَخَيَّلا[(☆)].

وينقل صورة مأتم نسوان نبطيّات في قرية من قرى الأنباط، في معبد مُشرف مُبلّط، يصف حسنه وأنسه بالقرابين والمصابيح، وكيف أن «الجلاذي» - وهم الرهبان قارعو النواقيس - لا تفتر أيديهم عن قرعها، فيقول، مشبّهاً أصوات الحمام بأصوات أولئك النسوة[(٢)(٢☆)]:

كأن أصواتَ أبكار الحَمامِ بِهِ من كل مَحْنِيَّةٍ منه يُغَنِّينا
أصواتُ نِسوان أَنباطٍ بمَصْنَعَةٍ بَجَّدْنَ للنَّوْح واجْتَبْنَ التَّبابِينا

فمن فَرْط حُزن أولاء المثاكيل قطّعن حتى تبابينهنّ. وقد كانت هذه المناحة تقليداً عرفته النصرانية الأولى، وكانت تستمر لأيام طوال بعد الدفن[(٣)]. وهذا ما تدل عليه كلمة «بجّدن» في بيت (ابن مقبل). وهو يذكر أن مكان ذلك المأتم[(٤)(٣☆)]:

---

(١) ديوانه: (١٨/٢١٢) = (ط. TÜREK: ١٨/٨٨).

(☆) العبادي: نسبة إلى العِباد، وهم قوم من العرب نزلوا الحيرة وتنصّروا فأَنِفُوا من تسمية العبيد، فقالوا: نحن العِباد، ومنهم الشاعر: (عدي بن زيد العِبادي). المنصّف: لابس النصيف وهو الخمار. مشى في عطفه: أي متكبّراً. (انظر: ابن منظور: (عبد)، و(نصف)، و(عطف)). وتخيّل: تبختر من الخيلاء.

(٢) ديوانه: (١٦/٣٢٠-١٧) = (ط. TÜREK: ١٦/١٣١-١٧).

(٢☆) من كل محنية: من كل منعطف في الطريق. الأنباط: أمة متحضرة أقامت مملكة امتدت شمال جزيرة العرب وكانت مملكتهم قد بلغت (وادي القرى) فدخلت (مدائن صالح) في حوزتهم، وضعفت مملكتهم بعد ملكهم (الحارث الرابع ١٠٦م)، وقد اختُلف في أصلهم ويرجح أنهم من العرب. (انظر: زيدان: العرب قبل الإسلام: ٧٤-٨٣). والمصنعة: القرية. بَجّدن: أقمن ولَزِمْنَ المأتم ولم يبرحنه. (انظر: ابن منظور: (بجد)). وذهب (عزة حسن) إلى أن المعنى: لبسن البُجُد، وهو كساء مخطّط من أكسية الأعراب. (انظر: ابن منظور: (م. ن)). واجتبن: قطّعن. والتّبابين: جمع تُبّان وهو السروال الصغير. (انظر: م. ن: (تبن)). وأيّد (عزة حسن) رأيه في معنى «بجّدن»: «بدليل قول ابن مقبل «واجتبن التبابينا». واجتبن: أي قطعن التبابين ولبسنها(!)»، وإنما نقل هذا عن (ابن قتيبة: المعاني: ٢٩٧)، الذي قال - في شرح البيت -: «بجّدن لبسن البجد».

(٣) انظر: الأب داود: أديان العرب قبل الإسلام وجهها الحضاري والاجتماعي: ٢٨٢. (عن: الإنجيل: يوحنا: ١١/ ١٩، ٣١، ٣٣).

(٤) ديوانه: (٣٢٠-٣٢١/١٨-٢٠) = (ط. TÜREK: ١٨/١٣١-٢٠).

(٣☆) في مشرف: في معبد مشرف. ليط: ألصق. لياق البلاط: البلاط اللازق. والبلاط: كل ما فرشت به الدار من حجر وغيره. (انظر: ابن فارس: المقاييس: ١/ ٣٠٠-٣٠١). ساسته: القائمين عليه، ولعله هنا يعني كبار القساوسة. والقرابين: جمع قربان، وهو ما يُتقرب به إلى الله. و(انظر: الزجاج: إعراب القرآن: ٢/ ٤٦٨). ما تقرّطه: ما =

فِي مُشْرِفٍ لِيطَ لَيّاقُ البَلاطِ بِهِ ... كانتْ لساسَتِهِ تُهْدَى قَرابينا
صَوْتُ النَّواقيسِ فيه، ما تُفَرِّطُهُ ... أيدي الجَلاذي، وجُونٌ ما يُغَفِّينا
كأن أصواتَها من حيثُ تَسْمَعُها ... صَوْتُ المَحابِضِ يَخْلِجْنَ المَحارينا

ويقول أيضا[1]:

واستقبَلوا وادياً جَرْسُ الحَمامِ بِهِ ... كأنه نَوْحُ أَنْباطٍ مَثاكيلُ.

د - ٤ - للجوسية:

ليس غريباً أن يذكر (ابن مقبل) المجوسية في شعره ذكراً يدلّ على وجود بعض طقوسها في بيئته؛ ذلك أن المجوسية قد عُرفت في بعض أحياء العرب الجاهلية، هذا فضلاً عن نيران العرب الأخرى، التي تمثّل تقاليد عربية، كنار القِرى، الموقدة لهداية الضيفان، التي ربما وضعوا فيها المندل أو غيره لهداية العميان، أو نار الأُهبة للحرب، أو نار الصيد، أو نار الأسد، التي يوقدونها

= تتركه. والجلاذي: خدم الكنيسة، قال (ابن منظور: (جلذ)): «وجعلهم جَلاذِيّ لغلظهم»، وجاء في (ابن قتيبة: المعاني: ٢٩٨): «...قال (ابن الأعرابي): إنما سُمّي جلذياً لأنه حَلَق وسط رأسه فشُبّه ذلك الموضع بالحجر الأملس، وهو الجلذي». والجون: القناديل؛ قال ابن الأعرابي: ولم نزل نظن الجون في هذا البيت الحمام ما يغفين من الهدير، حتى حُدِّثت عن بعض ولد (ابن مقبل) أن الجون القناديل سُميت بذلك لبياضها. ما يغفين - وفي رواية ما يعفين بالعين المهملة - ما ينطفئن. (انظر: ابن قتيبة: م. ن)، و(ابن فارس: م.ن: ١/ ٤٧٣). المحابض: جمع مِحْبَض، وهي خشبة تكون في يد الذي يشتار العسل يقلع بها النحل إذا لصقت بالعسل، فيضرب جوانب الخلية، فيسمع لها صوت، والمحبض: مندف القطن أيضا. يَخْلجن: يجذبن. والمحارين: جمع مِحران، وهو ما حَرَن على الشهد من النحل فلا يبرح عنه، أو ما تساقط من الدَّبْر في العسل فمات فيه، والمحارين: حَبّ القطن أيضا. شبه أصوات النواقيس بأصوات العيدان التي تضرب بها النحل لتنفر من أماكنها فيتمكّن من الاشتيار؛ وقيل: كأنها أصوات منادف ينزع بها حب القطن عن القطن. كذا شرح البيت (ابن منظور: (حبض)، (حرن))، وكذلك: (ابن قتيبة: المعاني: ٦١٦)، و(ابن دريد: الجمهرة: ٢/ ١٤٥)، و(ابن فارس: المقاييس: ٢/ ١٢٩). إلا أن وجه الشبه بين أصوات النواقيس وأصوات المحابض بمعناها هذا يبدو ضعيفاً، وقد استخدم الشاعر «المحابض» في (ديوانه: (١٨/٢٥٩) = (ط. TÜREK: ١٨/١٠٥)) بمعنى أوتار عود الطرب، حيث قال في وصف مغنية:

فُضُلاً، تنازعها المحابضُ صوتها ... بأجَشَّ لا قَطِعٍ ولا مِصْحالِ

بل لقد قال (ابن قتيبة: م. ن) بعد أن شرح البيت على الوجه السالف: «وقال بعضهم: المحابض: الأوتار»، فلعل تفسير البيت على هذا الوجه أوْجَه، فيكون المعنى: أن أصوات النواقيس تحرك عُبّاد النصارى للصلاة والعبادة كما تحرّك أوتار العود بنشوة الطرب الأناس الثابتين الجامدين المحارين، تشبيهاً لهم بالنحل اللازق في العسل.

(١) ذيل ديوانه: (١٢/٣٧٨) = (ط. TÜREK: لم يذكر).

لإخافة الأسد، أو نار الوسم، لوسم الإبل، أو غيرها مما لا ينمّ على أصل اعتقادي، أو التي قد تعود إلى أصل مجوسي، كنار الاستمطار(☆)، ونار التحالف(☆٢)، أو نار الحَرَّتين، التي نُسجت حولها الخرافات(☆٣)، أو غير هذه من النيران(١).

«وقد قال العلماء إن المجوسية كان يدين بها بعض العرب (بالبحرين)»(٢). وقال (ابن قتيبة)(٣): إن المجوسية كانت في (تميم)، وذكر بعض أسماء من كانوا يدينون بها(☆٤)، وقد بقيت فيهم إلى أن جاء الإسلام(٤). بل إن زواج الشاعر بامرأة أبيه فيما سُمّي بـ«الضَّيْزَن» أو «المَقْت» - وهي عادة فارسية مجوسية - تشير إلى علاقته وقومه بهذه العقيدة(٥).

(☆) وصِفَتها: أن يعلّقوا في أذناب البقر وعراقيبها السَّلَع والعُشَر ويصعدون بها جبلاً وعراً، فيشعلون فيها النيران، ويضَجّون بالتضرع والدعاء، زاعمين أن عملهم هذا من أسباب المطر. (انظر: البغدادي: الخزانة: ٧/ ١٤٧)، و(الألوسي: بلوغ الأرب: ٢/ ١٦٤)، وفي رأي (الحوفي: الحياة العربية: ٣٣٥): أن عملهم هذا تفاؤل أو محاكاة لعبادة قديمة تتخذ البقر قرباناً للآلهة. ونقول: إن (أمية بن أبي الصلت: ديوانه: ٤٤-٤٥) قد ذكر هذا العمل، وفي أحد أبياته ما يوحي بما قد يكون سِرّ إحراق البقر على هذا النحو، إذا قال:

فرآها الإله تُرسم بالقَطْر ... وأمسى جنابهم محطورا

فكأنهم يستعطفون السماء على البقر المحرقة، فتنزل المطر لإطفاء النار، فبذلك ترتوي أرضهم؛ قال شاعرهم:

أجاعلٌ أنت بَيْقوراً مُسَلَّعة ... ذريعةً لك بين الله والمطرِ

(انظر: الراغب: محاضرات الأدباء: ١/ ١٥٣).

(☆٢) وهي نار كانوا يوقدونها عند التحالف، ويؤججونها بطرح الملح والكبريت فيها يخوّفون بها الناكث. وتفصيل صفتها في (النجيرمي: أيمان العرب في الجاهلية: ٣٤-٣٦)، و(النويري: ١/ ١٠٧)، و(البغدادي: الخزانة: ٧/ ١٤٧-١٤٨، ١٥١-١٥٢)، و(الألوسي: بلوغ الأرب: ٢/ ١٦٢).

(☆٣) وهي نار كانت في (بلاد عبس)، زعموا أنه كان يخرج منها عنق فسيح مسافة ثلاثة أو أربعة أميال، فتحرق من مرّ بها، فدفنها (خالد بن سنان العبسي)؛ فعدها بعضهم معجزة، وزعمت (عبس) أنه كان نبياً. انظر قصتها في: (ابن الأثير: الكامل: ١/ ٢١٩)، و(النويري: ١/ ١٠٩)، و(الحموي: البلدان: (سوق برير))، و(الراغب: المحاضرات: ٤/ ٦٢٤)، و(البغدادي: الخزانة: ٧/ ١٤٩)، و(الألوسي: بلوغ الأرب: ٢/ ١٦٤-١٦٥).

(١) انظر: النويري: ١/ ١٠٦-١٠٩، والبغدادي: م. ن: ٧/ ١٤٧-١٥٣، والألوسي: م. ن: ٢/ ١٦١-١٦٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل: ١/ ٣٥٨.

(٣) انظر: المعارف: ٦٢١.

(☆٤) ومنهم: (حاجب) و(لقيط) ابنا زرارة، و(الأقرع بن حابس). و(انظر: ابن الأثير: م. ن).

(٤) انظر: البستاني: دائرة المعارف: ٦/ ٢٢.

(٥) راجع: المدخل: أولاً: ب - ١.



فمجيء المجوسية في شعره إذن متساوق مع حياته والبيئة الجاهلية التي أحاطت به. إلا ما في شعره من ذلك - على قلته - لا يعبر بجلاء عن عقيدته بقدر ما ينقل ملامح من الطقوس المجوسية في بيئته.

فمن ذلك قوله، وكان قد ذكر ضوء نار أظعان نازحة لاحت له (ببرقة الأمهار)[1]:

لِمُشْـتـاقٍ يُـصَـفِّـقُـهُ وَقُـودٌ   كنار مَجُوسَ في الأَجَمِ المُطارِ(☆)

فقد أُشعلت تلك النار ببرقة الأمهار لتزيد في وقود شوق هذا المشتاق، وعنى به نفسه، فشبّه الشوق في ضراوته بنار مجوس أُشعلت في أجمة فاستطارت نيرانها. ويُستدلّ من هذا على أن تلك كانت عادة المجوس، كما شاهدها الشاعر.

وقال في صفة ثور وحشي[2]:

كأن مَجُوسِيّاً أتى دون ظِلِّها   ومات النَّدَى من جانبيه فأَضْرَما(☆٢)

«قال (الأصمعي): أراد كأنّ الثور في بياضه مجوسيّ قام دون الشجرة وعليه يَلْمَق أبيض، والمجوس لم تزل تلبس الأقبية، فشبّه الثور بذلك»[3].

---

(١) ديوانه: (١٧/١٥٠) = (ط. TÜREK: ١٦/٦١).

(☆) مجوس: فارسي معرّب، أصله: «مِنْجَ كُوش»، «وكان رجلاً صغير الأذنين، كان أول من دان بدين المجوس ودعا الناس إليه»: (ابن منظور: (مجس))، و(انظر: الفيروز أبادي: (مجوس)). والأجم: الشجر الكثير الملتف أو الغاب. (انظر: ابن منظور: (أجم)). المُطار: الذي طار فيه اشتعال النار.

(٢) ديوانه: (١٣/٢٨٦) = (ط. TÜREK: ١٣/١١٥).

(☆٢) ظلها: الضمير عائد على شجرة الأرطى التي ذكرها في بيت سابق. مات الندى: انقطع المطر فأضرم: أشعل النار، وفي ديوانه: «فأصرما»: (بالصاد المهملة). و«أضرما» (بالضاد المنقوطة) رواية (ابن قتيبة: المعاني: ٧٣٤)، ولعلها أوفق؛ لذكر للمجوسي في صدر البيت. وعلى رواية: «أصرم»: أي انقطع، تأكيدٌ لقوله: مات الندى.

(٣) ابن قتيبة: المعاني: ٧٣٤.

وفي البيت – على رواية «أضرم» – إشارة أخرى إلى أن المجوسيّ كان إذا انقطع المطر «ومات الندى» أضرم النار. ويبدو أن ذلك كان للاستسقاء، وربما كان الشاعر يرمي إلى إضرام النار في أذناب البقر، حسب الشعيرة التي وُصفت في أول هذا الموضوع. فإذا صحّ هذا، دَلَّ على أن الاستسقاء بتلك الطريقة الجاهلية كان شعيرة مجوسية.

هـ - التاريخ :

هنا محاولة للبحث عن آثار التاريخ الجاهلي في شعر (ابن مقبل)؛ فلا جرم أن حميّته التي تَقَدَّم القول فيها، ما جاءت إلا صدى للأيام القَبَلِيّة في الجاهلية أو ما أُحدث في العهد الإسلامي من وقائع ومناوشات.

على أن التاريخ يعني الدقة في التسجيل الموضوعي للأحداث، والشعر لغة أخرى، وسِجِلّ العاطفة والأهواء الشخصية، في الغالب. وشيء آخر: هو أن تبيّن الأحداث المعنية في قول الشاعر لايتهيّأ ما لم تأت في النصّ قرائن يُسْتَنَدُ عليها في نسبة تلك الأحداث إلى أصلها التاريخي. ولكي لا يقع البحث في أحد مزالق هذه المفارقات بين الشعر والتاريخ، اتجه إلى ما جاء مباشر الإشارة إلى الأحداث في هذا الشعر، أو ما دلّ عليه دليل منه أو من غيره.

هـ - ١ - الأيام

هـ - ١ - ١ - يوم شِعْب جَبَلَة :

قال(١)(☆):

١- بنو عامرٍ حَيٌّ، فلم أرَ مثلَهم	أعَفَّ وأعْطَى للجَزيلِ وأنْجَدا
٢- كأنك لم تَشْهَدْ قَنابلَ خَيْلِنا	إذِ الدِّين هَرْجٌ قبلَ أنْ يَتَعَبَّدا
٣- ومأخذَها الكِنْدِيَّ بين لَهازمِ الـ	ـعدُوِّ وعَنْزاً بين لَوْذٍ وأسْوَدا
٤- يُسامِيهِمُ عاري الأشَاجِعِ، لا يَرَى	من الغَيْبِ أهْوالاً إذا ما تَجَرَّدا
٥- ونحن قتلنا القومَ ليلة أَحْجَمَتْ	هلالٌ، وقالتْ: حَرِّزُوا، وانظروا غَدا
٦- بجمع بني عمرٍو. فَبَيَّتَ جَمْعُهُمْ	بني أسدٍ فيمن غَدا وتَجَنَّدا

---

(١) ديوانه: (٥٧-٥٨/٤-١٣) = (ط. TÜREK: ٢٣-٢٤/٤-١٣).

(☆) البيتان (١-٢): سبقا: (راجع: أ - ٢). الكندي وعنز: رجلان. لهازم العدو: أي وسطه. (انظر: ابن منظور: (لهزم)). واللَّوْذ: ماء، كما في: (البكري: ما استعجم: ٢٣٨)، وهو في ديار (بني عامر)؛ بدليل قول (م. ن: ٤٥٥) في (حضَن): جبل في ديار بني عامر، واستشهد بقول (المتلمّس):

إن العِلافَ ومن باللَّوْذِ من حَضَنٍ   لما رأوا أنه دِيْـنٌ خلابيسُ

أما أسود: فهناك جبل يُسمى أسود فقيل: أَسْوَدَة، وفي أصله بئر سمّوه أسْوِدة: (بكسر الواو)، (انظر: م. ن: ١٢٢، ١٥٢، ١٨٦)، وهناك: أسود العَين: جبل أسود في (حمى ضريّة) على طريق الحاج للمصعد، (انظر: م. ن: ٨٦٨)، وقيل: إن (أسود الحمى) هو (الأَسْوَدَة)، وهي جبال سود غير مرتفعة، بينها أودية وطرق وفيها مياه، وبعض أبارها جاهلية قديمة، وهي تقع غرب ثهلان، وشرق النِّير، ومياهما تحت يد قبيلة (العصمة)، من (عتيبة)، وهي تابعة إدارياً (للدوادمي)، وتقع غربها على بعد ستين كيلاً تقريبا، (انظر: ابن جنيدل: ١/١١٦-١١٨)، وقيل: أسود العين: جبل قُبَل (جديلة) – التي تسمى الآن (الدِّرَيْعُوّات) – بخمسة أميال، ولا وجود لاسم أسود العين أو جديلة اليوم، (انظر: ابن خميس: المجاز: ١٥٨). الأشاجع: أصول الأصابع، (انظر: الجوهري: (شجع))، وعاري الأشاجع: أي أن اللحم عليها قليل، وهي صفة مدح للبطل. (انظر: ابن منظور: (شجع)). لا يرى من الغيب أهوالاً. . . : لا يجبن. هلال: بنو هلال بن عامر بن صعصعة. حرّزوا: أي أعتقوا أسراكم. «وانظروا غدا: أي حسن المقالة غدا، أي: انظروا في العواقب»: (ابن قتيبة: المعاني: ١٠٢٦). بنو عمرو: لعلهم بنو عمرو بن كلاب بن عامر بن صعصعة. غدا: أسرع. حتى أصبح الجون أسودا: الجون الأبيض هاهنا، يريد أن السيوف اسودّت من الدماء، أو أنهم استمروا في القتال حتى غربت الشمس، أو أنه يشير إلى اشتداد المعركة واسوداد جوّها بالغبار ونحوه. الصبير: «السحاب الأبيض الذي يصبر بعضه فوق بعض درجا»: (ابن منظور: (صبر)). تهلل: تلألأ بالبرق. أبرد: أنزل البَرَد. شبه ضربهم في الأعداء بهذه الصورة. أنعمنا: أكثرنا القتل. حاجب: هو (حاجب بن زرارة بن عُدس الدارمي التميمي -نحو ٣هـ = ٦٢٥م)، سيّد (بني تميم). (انظر: الزركلي: ٢/١٥٣). صفيحة قدّ: سير عريض.

٧- فَبِتْنا نُعيدُ المَشْرَفِيَّةَ فيهمُ ... ونُبْدِئُ حتى أصبح الجَوْنُ أسودا
٨- كأن صَبِيراً فوقهم من غمامةٍ ... إذا جانبٌ منها تَهَلَّلَ أبْردا
٩- قتلنا وأَنْعَمْنا. فكل قبيلةٍ ... يُعَادُون فينا أبيض الوجه سيِّدا
١٠- فأصبح فينا حاجبٌ في يمينه ... صفيحةُ قِدٍّ قَدْ شَدَدْنا بها يَدا

وهذه الأبيات قد تكون في أكثر من يوم واحد من أيام (بني عامر)، إلا أن الظاهر من قوله: «ونحن قتلنا القوم ليلة أحجمت...» إلى الآخِر، أنها تتعلّق بيوم واحد من أيامهم. وفي البيت الأخير مفتاح التاريخ للأحداث المذكورة قبله، حيث يشير إلى أَسْر بني عامر (حاجبَ بن زرارة التميمي)، وذلك كان (يوم شعب جبلة)[١].

وكان هذا اليوم قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة، وقبل مولد (النبي ﷺ) بسبع عشرة سنة[☆]، بعد (رحرحان) بعام. وهو معدود من أعظم أيام العرب في الجاهلية[☆٢]. وسببه أن (لقيط بن زرارة) كان يجهّز لغزو (بني عامر) آخذاً بثأر أخٍ له كان أسيراً فيهم فمات، فبينا هو في ذلك بلغه أن بني عامر قد حالفت (عبساً)، فأرسل إلى كل من كان له عند عبسٍ ثأرٌ، فاجتمعت إليه (ذبيان) - وكان رئيسهم (حصن بن حذيفة) يطلب عبساً بدم أبيه، وتطلب (عبس بن بغيض) بدم أبيهم - و(بنو أسد)، وجمع من (كندة) - ومعهم (معاوية بن الجون الكندي)[☆٣] وأخوه (حسان بن الجون) وقيل: بل (عمرو) - و(بنو حنظلة بن مالك)، و(الرباب) - وعليهم رئيسهم (لقيط بن زرارة) - و(يثربي بن عدي)،

---

(١) انظر: ابن رشيق: ٢/٢٠٤، وابن الأثير: الكامل: ١/٣٥٦، والأصفهاني: الأغاني: ١١/١٤١-١٤٢.

(☆) كذا في (ابن رشيق: م. ن). وفي (ابن عبد ربه: ٥/١٤١)، و(البكري: ما استعجم: ٣٦٥) أنه كان عام مولد (النبي ﷺ)، وفي (الأصفهاني: م. ن: ١١/١٤٩): قبل الإسلام بتسع وخمسين، وقبل المولد بتسع عشرة سنة.

(☆٢) بل عده (أبو عبيدة) أعظم أيام العرب. (انظر: ابن عبد ربه: م. ن).

(☆٣) وإلى أحد هؤلاء أو أحد قومهم من بني كندة أشار (ابن مقبل) بقوله:

ومأخذها (الكندي) بين هازم الـ ... معـدو ... الـبيـت.

ومعهم (حسان بن مرة الكلبي) أخو (النعمان بن المنذر) لأمّه، هذا قول (أبي عبيدة). وقال غيره: كان مع أسد وذبيان (معاوية بن شرحبيل بن خضر بن الجون آكل المرار)، ومع بني حنظلة والرباب (حسان بن عمرو بن الجون) في جموع من كندة وغيرهم. وجاءت (بنو تميم) فيهم (لقيط، وحاجب، وعمرو ابن عمرو)، ولم يتخلّف منهم إلا (بنو سعد)، ولم يتخلّف من بني عامر إلا (هلال بن عامر)(☆) و(عامر بن ربيعة بن عامر)، واجتمع معهم ناس آخرون، فانتهى جمع بني عامر ومن معهم يومئذ بالشِّعب ثلاثين ألفا، وجاء الآخرون في عدد لا يعمله إلا الله، «ولم يجتمع قطّ في الجاهلية جمع مثله»[1].

وجاءت مع (لقيط) ابنته (دختنوس) - وكان قد تزوجها وسمّاها بهذا الاسم الفارسي(☆٢) - فكان يغزو بها ويستشيرها. ففيما هم سائرون في جمع عظيم لقيهم (كرب بن صفوان السعدي) وكان شريفاً، فشكّوا في أمره وخافوا أن يُشعر بهم أعداءهم، فاستوقفوه واستحلفوه ألّا يخبر بهم أحداً - وكان إنما خرج في طلب إبل له - فانطلق من عندهم مغضباً، فلمّا دنا من (عامر) أخذ خرقة فصرّ فيها حنظلة وشوكاً وتراباً، وخرقتين من يمانية، وخرقة حمراء، وعشرة أحجار سود، ثم رمى بها حيث يسقون ولم يتكلم؛ فأُتي بها إلى (قيس بن زهير العبسي)، فقال: «هذا رجل قد أُخذ عليه عهد على ألّا يكلمكم، فأخبركم أن أعداءكم قد غزوكم عدد التراب وأن شوكتهم شديدة، وأمّا الحنظلة فهي رؤساء القوم، وأمّا الخرقتان اليمانيتان فهما حيّان من اليمن معهم، وأما الخرقة الحمراء فهي (حاجب بن زرارة)، وأما الأحجار فهي عشر ليالٍ يأتيكم القوم

(☆) قال: ونحن قتلنا القوم ليلة أحجمتْ هلالٌ، وقالت: حَرّزوا، وانظروا غدا

(١) انظر: ابن شيق: ٢/ ٢٠٤.

(☆٢) ذلك لأنه كان مجوسياً، وقيل: إنه قُتِلَ وهي تحته، وقد مرّ أن تميماً تمجّست قبل الإسلام (راجع: د - ٤).

إليها، قد أنذرتكم فكونوا أحراراً فاصبروا كما يصبر الأحرار الكرام»[١].

فاستشاروه في أمرهم، فأحكم لهم خطة كانت بها هزيمة عدوهم، فقال: «أدخلو نعمكم (شعب جبلة)[☆] ثم ظمّؤوها هذه الأيام ولا توردوها الماء، فإذا جاء القوم أَخْرِجُوا عليهم الإبل وانخسوها بالسيوف والرماح، فتخرج مذاعير عطاشاً، فتشغلهم وتفرّق جمعهم، واخْرُجُوا أنتم في آثارها واشفوا نفوسكم»[٢]، فلما وصل لقيط بعساكره الجرّارة إلى فم الشعيب، لم يكن لهم هَمٌّ إلا الماء فقصدوه، فقال (قيس) لقومه: أَخْرِجُوا عليهم الآن الإبل، فأخرجوها وهم في أدبارها، فظَنَّت (تميم) أن الشعيب قد تَدَهْدَى عليهم، فخَبَطَتْهُم الإبل ومن معهم وأبرزتهم إلى الصحراء.

وكثرت المقتلة في تميم، وكان أول مقتول من الرؤساء (عمرو بن الجون الكندي)، وأُسِر (معاوية) أخوه، و(عمرو بن عمرو بن عدس) و(حاجب بن زرارة)، وتفرّق القوم عن (لقيط)، فصاح: «أنا لقيط»، فكثر جمعه، وكان على جرف، فانحطّ الجرف بفرسه، فحمل عليه (عنترة بن شداد) - وكان في (بني عبس) - فطعنه فقصم صلبه، فأجهز عليه قيس بضربة سيف، فمات وتمّت الهزيمة. وكان أسر (حاجب) (ذا الرقيبة مالك بن سلمة بن قشير). وهناك أقوال أخرى مختلفة في بعض تفاصيل قصة هذا اليوم، إلا أن في ما تقدم مجمل الأقوال المتواترة المشهورة فيه[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل: ١/ ٣٥٦.

(☆) وجبلة: هضبة حمراء كبيرة، ذات منظر طبيعي جميل، وذات مناكب عالية ملتفّ بعضها حول بعض، وكل جوانبها متشابهة، ويمكن الصعود إليها من جهات وطرق مختلفة، وفي ظهرها أودية ومياه، وهي تتربع على ضفة (وادي الرشاء) الشمالية، (التسرير) قديماً، في بحبوحة نجد وسرة بلاده، وتبعد عن (الدوادمي) شمالاً (٧٠ كيلاً)، تابعة لإمارته، وهي اليوم في بلاد (الروقة) من (عتيبة). (انظر: ابن جنيدل: ١/ ٢٨٠-٢٨٥).

(٢) ابن الأثير: م. ن.

(٣) انظر: ابن عبد ربه: ٥/ ١٤١-١٤٣، والأصفهاني: الأغاني: ١١/ ١٢٥-١٥٢، وابن رشيق: ٢/ ٢٠٣-٢٠٤، والبكري: ما استعجم: ٣٦٥-٣٦٦، وابن الأثير: م. ن: ١/ ٣٥٥-٣٥٨، والألوسي: بلوغ الأرب: ٢/ ٧٠-٧١.

فهل شهد الشاعر هذا اليوم؟. ليس ما يثبت ذلك، على أن قوله: «. . .إذ الدِّين هرج. . .» يشير إلى أنه قال هذه الأبيات في الإسلام. وقبل هذه الأبيات مباشرة قال[1]:

أَأَسْوَةُ باكٍ حاولتْ أُمُّ عاصمٍ   بما حَدَّثَتْني أم أرادتْ لأُكْمَدا

ثم شرع في الحديث عن (بني عامر) ويومهم هذا. وكأن حديث (أمّ عاصم) تلك كان هو هذا الذي ساق الشاعر عن (شعب جبلة)، وكمده بحديثها كان لما عُرف عنه من حنين للجاهلية[2]. فإذا صح هذا كان مؤشراً آخر على عدم شهود الشاعر شعب جبلة، بل إذا صح ما سبق من أن هذا اليوم كان قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة، فإن ابن مقبل لم يكن قد ولد أصلاً يومئذ، أو كان صغيراً على أعلى تقدير.

هـ - ١ - ٢ - يوم النسار ويوم جدود:

وفي شعره اسم مكانين كانا معتركين ليومين من أيام العرب. أولهما: (النسار)، وكان به يوم بين (تميم) ومددهم من (عامر بن صعصعة)، ومعهم (هوازن) و(سعد) من جهة، و(الرّباب) و(بني ضبة) و(أسد) و(طيئ) من جهة أخرى. وقد صبر بنو عامر في هذا اليوم صبراً مذكوراً، وانتهت الموقعة بهزيمة هوازن وسعد، ومقتل (قدامة بن عبدالله القشيري) حامي ديار عامر يومئذ، فلما رأت عامر وسائر هوازن ذلك طلبوا أن تؤخذ منهم شطور أموالهم وسلاحهم فقُبل ذلك، فسمي اليوم (يوم المشاطرة) أيضا. وسبب هذا اليوم كما يقول (ابن الأثير)[3]، أن ضبة أصابت رهطاً من تميم، فطلبتهم تميم، فانزاحت جماعة

(١) ديوانه: (٣/٥٧) = (ط. TÜREK: ٣/٢٣).
(٢) راجع: المدخل: أولاً: ب - ٣ .
(٣) انظر: الكامل: ١/٣٧٦-٣٧٧.

الرّباب – ومنهم ضبة – ولحقت ببني أسد، فاستصرختهم، فاستمدت تميم ببني عامر بن صعصعة، فكان بينهما يوم النسار(☆). قال (ابن رشيق)(١): «وبنو ضبة تزعم أن هذا اليوم قبل (يوم جبلة)، و(أبو عبيدة) لايشكّ أنه بعده».

على أن الشاعر، إذ يذكر هذا الموضع، لا يتحدث عن يوم من أيام الحرب، ولكن عن يوم رأى فيه (أمَّ سهم) بالنسار، فيقول(٢)(☆٢):

تَـزَوَّدَ رَيّـا أُمِّ سَـهْـمٍ مَحَلَّـهـا ... فُرُوعَ النِّسارِ فالبَدِيِّ فَثَهْمَدا
تراءتْ لنا (يومَ النِّسارِ) بفاحِمٍ ... وسُنَّةِ ريمٍ خافَ سَمْعاً فأَوْفَدا

وهذا يحمل على الشك في أن الشاعر كان يعني بـ«يوم النسار» ذلك اليوم

(☆) وفي (ابن عبد ربه: ٥/٢٤٨) رواية عن (أبي عبيدة) فيها اختلاف، ونحوها في: (البكري: ما استعجم: ١٣٠٦)، وفحواها: أن أسداً وطيئاً و(غطفان) تحالفت ولحقت بها ضبة و(عديّ) فغزوا بني عامر، فقُتلت بنو عامر قتلاً شديداً يوم النسار، فغضبت لهم تميم فلحقت بأسد ومن معها، فكان بينها (يوم الجِفار)، فلم تكن أحسن حظاً من بني عامر؛ قال (بشر بن أبي خازم الأسدي: ٩/١٨٠):

غضبتْ تميمٌ أنْ تُقَتَّلَ عامرٌ ... يوم النِّسارِ فأُعْتِبُوا بالصَّيْلَمِ

(١) ٢/ ٢١٠ .

(٢) ديوانه: (٦٥/ ١٨-١٩) = (ط. TÜREK: ٢٧/ ١٨-١٩).

(☆٢) ريا أم سهم: رائحتها العطرة. محلها: بدل من «ريّا»، وما بعدها بدل منها، والفاعل في بيت قبله، والتقدير: «تزود هذا الرجل برائحة أم سهم بتزوده برائحة محلّها»، أو أنه أراد: «تزوّد محلّ أم سهم رياها»، فقلب. وقال (البكري: ما استعجم: ١٣٠٧): «أي تزوّد هذا الرجل من اللهو والغزل». والنسار: «أجبل صغار، شُبِّهتْ بأنسر واقعة»: (م. ن: ١٣٠٦)، والنسار هي ما يسمى اليوم «الأنْصُر»، وهي أبارق في دماث من الأرض، تبرز فيها ثلاثة جبيلات صغار متفرّقة، غرب (شهبا خنوقة) شمال (البجادية)، على طريق (الحجاز)، غرب (الدوادمي)، تابعة لإمارتها، واقعة في بلاد (الروقة) من (عتيبة). (انظر: ابن جنيدل: ١/ ١٧٦-١٨٠). والبَديّ: واد لبني عامر. وثهمدُ جبل في حمى ضريّة. (انظر: البكري: م. ن: ٢٣٣، ٣٤٧). ويرى (ابن جنيدل: ١/ ٣٣٣ وما بعدها) أن البدي هو ما يسمى (نجهام)، وهو واد في ناحية (الجمش) الجنوبية الغربية، شمال بلدة البجادية، غرباً شمالياً من الدوادمي، وهو أحد روافد وادي (الرشا/ التسرير قديماً). أما ثهمد، فيسمى في هذا العهد (ثِرْثَة)، وهي هضبة حمراء، لها قمتان متناوحتان متسامتتان مفترقتان قريباً من الأرض، غرب النسار، ترى بالعين منه، وغرب البديّ، وكل هذه الثلاثة متقاربة في بلاد الروقة من عتيبة، تابعة لإمارة الدوادمي. (انظر: م. ن: ٢/ ٧٤٠-٧٤٣). بفاحم: بشعر فاحم السواد. وسُنّة ريم: صقالة وملاسة وجه غزال. (انظر: ابن منظور: (سنن)). خاف سمعاً: خاف مسموعاً. وأوفد الريم: رفع رأسه ونصب أذنيه. (انظر: م. ن: (وفد)).

الحربي، إضافة إلى أنه لم ينقل عن يوم النسار صورة كتلك التي نقلها عن (شعب جبلة).

أما المكان الآخر فهو (جدود). وقع فيه يوم باسمه، ولم يكن لـ(بني عامر) ضلع فيه. وكان بين (بني منقر) من (تميم) و(بكر بن وائل). وسببه أنه كان بين (الحوفزان) واسمه: (الحارث بن شريك الشيباني) من بكر، وبين (بني سليط بن يربوع) من (تميم) موادعة، فهمّ الحوفزان بالغدر بهم، فنذِروا به، فنهض إليه بنو منقر من تميم خاصة، وعليهم (قيس بن عاصم المنقري) فهزمهم، وكان هدفه الحوفزان، فلحقه حتى أدركه فلمّا خاف فوته حفزه بالرمح في وركه فنجا، وسُمّي «الحوفزان» لذلك، ثم انتقضت عليه بعد حَول فمات منها[١].

وجدود: «اسم موضع في أرض (بني تميم) قريب من (حزن بني يَرْبوع) على سَمْت (اليمامة)، فيه الماء الذي يقال له (الكُلاب)، وكانت فيه وقعتان مشهورتان عظيمتان من أَعْرَف أيام العرب، وكان اليوم الأول منها غلب عليه (يوم جدود)، وكان (لتغلب) على (بكر بن وائل)»[٢]. قال ابن مقبل[٣]:

وما لاقيتُ من يَوْمَيْ جَدُوْدٍ   كيوم أَجَدَّ حَيُّ بني دِثارِ[☆]

فما هذان اليومان اللذان يذكرهما الشاعر؟، أهما اليومان اللذان ذكرهما

---

(١) انظر: ابن عبد ربه: ٥/١٩٩-٢٠٠، وابن رشيق: ٢/٢٠٥، وابن الأثير: الكامل: ١/٣٧١-٣٧٢، والآلوسي: بلوغ الأرب: ٢/٧١-٧٢.
(٢) الحموي: البلدان: (جدود).
(٣) ديوانه: (١٠/١٤٨) = (ط. TÜREK: ٦٠/١٠).
(☆) بنو دثار: لعله يقصد (دثار بن حُنَيف بن العجلان). (انظر: الكلبي: جمهرة النسب: ٣٥٩)، وهناك (بنو دثار بن فَقْعَس بن طريف بن عمرو بن قُعَيْن بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة)، من العدنانية. (انظر: القلقشندي: نهاية الأرب: ٢٥٠)، و(كحّالة: ١/٣٧٥). والأول أرجح؛ لصلتهم بالشاعر.

(الحموي) في (جدود)، وهما (كُلاب الأول) و(كُلاب الثاني)؟، أم أنه يشير إلى (يوم جدود) الآنف وصفه؟. الشاعر لم يزد على هذا البيت؛ ولذلك فيوما جدود في بيته هذا يشبهان (يوم النسار) الذي ذكره من قبل، في أنه لم يذكر ما يلقي الضوء على المقصود بـ«اليوم»؛ مما يجعله محتملاً أكثر من معنى، ويجعل الجزم بمعنى منها غير مستندٍ على برهان.

على أن الشك هنا في أن المعنيّ (يوم جدود الحربي) أقوى من الشك في معنى يوم النسار هناك؛ وذلك لأن يوم النسار كان من أيام (عامر)، أما يوم جدود، فسواء أكان يوم جدود: بين (بكر) و(تميم)، أم يوم الكُلاب الأول: بين بكر و(تغلب)، أم الكُلاب الثاني: بين تميم و(أهل اليمن النجرانيين)، فلم نُلفِ ذكر بني عامر في أحد من هذه الأيام الثلاثة[1].

ومع هذا فإنّ تاريخ العرب كثيراً ما تداخلت أدوار القبائل فيه؛ لما كان يربط بينها من أحلاف، فيشارك بعضها بعضا في الأيام الحربية. الأمر الذي يجعل الإشارة الشعرية بـ«يوم» إلى (اليوم الحربي) احتمالاً قائما.

هـ - ٢ - دِثار بن حُنيف :

أورد (ابن الكلبي)[2] عنه ما يلي:

> «ولد دثار: (قيساً الشاعر)، و(عبد قيس)، وأمهما: (أميمة بنت عمرو بن يربوع الغنوي)، وكان بعض الملوك دفع ابنه إلى (بني عُقَيل) فأصبح قتيلاً بين (بني كعب بن ربيعة)، فقال: «لأقتلنكم أو تأتوني بنحير مكانه من أشرافكم»، فجاء دثار بابنيه من أميمة، فقال: تخيّري أيّ بنيك أدفعه، وكان عبد قيس أحبها إليه، فجاء

(١) انظر: ابن عبد ربه: ٥/٢٢٢-٢٢٣، وابن رشيق: ٢/٢٠٥-٢٠٦، وابن الأثير: الكامل: ١/٣٣١-٣٣٤، و٣٧٨-٣٨٢، والآلوسي: بلوغ الأرب: ٢/٧٢.

(٢) الجمهرة: ٣٥٩.



بها إلى الملك وقد ترّب عبدَ قيس، لطخه بالتراب؛ لينبو نظر الملك، فأخذه الملك فنحره، ورضي به من ابنه، ودفع به دثار عن قومه، وفيه يقول (ابن مقبل)[1][☆]:

لعل عُقَيْلاً تَحْسِبُ الناسَ غيرها ... عَبِيداً وأن الدهر لا بُدَّ مُرتَمَدُ
نَحَرْنا ابننا عنكم وأيُّ نَجيرَةٍ ... غلامٌ حُنَيفٌ جَدُّهُ والمُقَلَّدُ

يعني (عمرو بن يربوع)، وكان يُقلَّد الأمور.

هـ - ٣ - جرادة:

روى (الطبري)[٢] في تاريخه: أن (أرض عاد) أصيبت بقحط مخيف، بتكذيب عاد نبيهم (هوداً عليه السلام)، فجهّزوا من زعائمهم وفداً إلى (مكة المكرمة) يستسقون لهم، فلما قدموا مكة نزلوا على (معاوية بن بكر) بظاهر مكة، وكان معاوية أمير العماليق هناك، وكانت بينه وبين أولاء الوفد خؤولة ومصاهرة، فاستقبلهم وأكرمهم، وقدّم لهم الخمر والعزف، وكانت لديه قينتان شهيرتان بالغناء إذ ذاك، عُرفتا بالجرادتين[☆٢]. فأقام الوفد في خمر وغناء ونسوا ما جاؤوا من أجله شهراً كاملاً، فشَقَّ ذلك على معاوية بن بكر؛ لهلاك أخواله بسبب الجدب، وتَرْك الرسل ما أرسلوا له، واستحيا أن يأمرهم بالخروج إلى الاستسقاء، فذكر ذلك للجرادتين، فأشارتا عليه بقول شعر تغنيانهم به لايدرون مَن قائله، وفيه تنبيه لهم لعلهم يتذكرون.

وتروي القصة أنهم شرعوا أخيراً في الصلاة والاستسقاء، فأقبلت عليهم

---

(١) ديوانه: (ط. TÜREK: ١٤٣/٣٢-٣٣).

(☆) حنيف: (حنيف بن قتيبة بن العجلان)، جد ابن مقبل. وفي ديوانه: «مقلَّد»: (بفتح اللام).

(٢) انظر: ٢١٧/١-٢٢٢، وكذلك: ابن الأثير: الكامل: ٤٨/١-٤٩، والمعري: ٢٤٣-٢٤٤، وابن سلمة: الملاهي: ٨٢.

(☆٢) قال (ابن سلمة: م. ن): «وأول من اتخذ (قينة) رجل من العرب العاربة وكانت له قينتان يقال لهما: الجرادتان، وهما اللتان يضرب بهما المثل فيقال: صار حريباً للجرادتين» فساق قصة عاد.

ثلاث سحائب: بيضاء وحمراء وسوداء، ونادى مناد من السحاب: أنْ «يا قَيْل اختر لنفسك وقومك!» - وقَيْل هو: (قَيْل بن عير)[☆] المتحدث باسمهم - فقال: «قد اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر ماء»، فكان فيها دمار قومه إلا صالحيهم. قال تعالى: ﴿فلمّا رأوهُ عارضاً مُستَقْبِلَ أوديتِهِمْ قالوا: هذا عارضٌ مُمْطِرُنا، بل هو ما استَعْجَلْتُمْ به، ريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ. تُدَمّرُ كُلَّ شيءٍ بأمرِ رَبِّها، فأصبحو لا يُرَى إلا مَساكِنُهُمْ، كذلك نجزي القومَ المُجْرِمين﴾[1].

وقد أشار (ابن مقبل) إلى قصة هذا الوفد من (عاد)، وكيف ألْهتهم (جرادة) - ولم يقل جرادتين[☆٢] - بخمرها وغنائها الساحر، الذي هو - في نظره - غرور أيام ولهو ليال، فقال[2][☆٣]:

والدَّارُ قد تَدَعُ الحَزِينَ لِما بِهِ ... ويُـدِلُّ عـارِفُـهـا بـغـيـر دَلالِ
سِحْراً كما سَحَرَتْ جَرادَةُ شَرْبَها ... بـغُـرُورِ أيّـامٍ ولَهوِ لـيالي

هـ - ٤ - الكتابة والكِتاب:

بين الباحثين خلاف قديم وحديث في مقدار علم العرب قبل الإسلام بالكتابة، وفي الأصل الأم للحرف العربي المكتوب به منذ قبل الإسلام إلى الآن. ويهم هنا الإلماح إلى أن الرأي الراجح أن العرب قد عرفت الكتابة في الجاهلية،

(☆) وفي (المعري: م. ن): «قَيْل بن عِتر».
(١) الأحقاف: ٢٤-٢٥.
(☆٢) جاء في (ابن منظور: (جرد)): «وجرادة: اسم امرأة ذكروا أنها غَنَّتْ رجالاً بعثهم عاد إلى البيت يستسقون فألهتهم عن ذلك، وإياها عنى ابن مقبل بقوله: [وذكر البيت]، والجرادتان: مغنيتان (للنعمان)؛ وفي قصة (أبي رعال): فغنته الجرادتان... وكان بمكة في الجاهلية قينتان يقال هما الجرادتان مشهورتان بحسن الصوت والغناء»، وقال (المعري: ٢٤٤): إن «العرب صارت تسمّي كل قينة جرادة، حملاً على أن قينة في الدهر الأول كانت تدعى جرادة»، وفي اسمها أقوال مختلفة فصّلها (الأسد: القيان والغناء: ٧١-٧٥).
(٢) ديوانه: (٢٥٥/٢-٣) = (ط. TÜREK: ١٠٣-١٠٤/٢-٣).
(☆٣) عارفها: أي ما يُعرف من آثارها.

ومارستها في عدة أغراض، ليس هذا موضوع حديث عنها[1].

ولئن مال بعض المحدثين من عرب ومستشرقين إلى القول بأن أصل الخط العربي مشتقٌ من الآرامية أو النبطية[2]، فإن قدماء العرب يَبدون أميل للقول: إن أصل الخط العربي مشتق من المسند[☆] الحِمْيَرِي، حيث أخذه العرب عن (الحيرة)، وأخذه أهل الحيرة عن (الأنبار)، والأنبار عن (اليمن)[3]. ولهذا سمّوا الخط: جَزْماً، قال (الجوهري)[4]: «العرب تسمي خَطَّنا هذا جَزْماً»، ونقل (ابن منظور)[5]: «الجَزْم هذا الخط المؤَلَّف من حروف المعجم؛ قال (أبو حاتم) سُمّي جَزْماً لأنه جُزِم عن المُسْنَد، وهو خطّ (حِمْيَر) في أيام مُلكهم، أي قُطِع».

وفي شعر (ابن مقبل) تسجيل لهذه المرحلة من تاريخ الكتابة العربية - حسب التصوّر العربي القديم - حيث قال واصفاً رسم دار دارسة[6]:

أَوْرَدَ حِمْيَرٌ بينها أخبارَها   بالحِمْيَرِيَّةِ في كِتابٍ ذابلِ

فكأن الرسوم في تلك الدار أخبارها، أوردها حِمْيَرٌ بينها بخطّه الحِمْيَري، في كتاب قديم قد بلي وانطمست حروفه[☆2]. وتُستنبط من هذا البيت معانٍ تدل على حياة العرب، هي: أن الشاعر كان يعرف في بيئته تسجيل الأخبار

(١) انظر في هذا مثلاً: الأسد: مصادر الشعر الجاهلي: ٢٣-١٠٣، وجواد علي: ٨/٢٤٨-٢٩٠.
(٢) انظر: الأسد: م. ن: ٢٤، وولفنسون: تاريخ اللغات السامية: ١٧١.
(☆) المسند: هو المزند في الحِمْيَرية وتعني الكتابة، فمن نصٌ لأبرهة مثلاً: «سطرو ذن مزندن» أي: «سطروا هذه الكتابة». (انظر: جواد علي: ٨/٤٠٩).
(٣) انظر: الصولي: أدب الكُتّاب: ٣٠، وابن النديم: ٦-٧، وابن منظور: (جزم)، وابن خلدون: مقدمة ابن خلدون: ٣/ ٩٥١، والفيروز آبادي: (جزمه).
(٤، ٥)(جزم).
(٦) ديوانه: (٣/٢١٧) = (ط. TÜREK: ٣/٨٩).
(☆٢) كذا فسر (عزة حسن) «ذابل» في البيت، ولم نقف عليها بهذا المعنى، ولم يذكر (ابن منظور، أو الفيروزآبادي: ذبل)، إلا الذابل بمعنى: الجافّ اليابس.

بالكتابة، وأن تلك الكتابة كانت بالحِمْيَرية، وأن الكاتب كان حِمْيَرِيّاً أيضاً، وأن الكتب كانت معروفة، وأن منها القديم الذابل المطموس، ويفهم - بالمقابل - أن منها الحديث الذي لم تنطمس حروفه.

فأما الكتابة والكتب فقد أشير آنفاً إلى وجودها في مجتمع الجاهلية، وما هذا البيت إلا مؤكد لذلك.

وأما الحِمْيَرية في هذا البيت فهي مؤكدة للتصور العربي القديم لأصل الخطّ العربي، وإلا لماذا خَصَّ الشاعر هذه الكتابة إن لم تكن هي السائدة المعروفة في عصره، أو الغالبة على الأقل؟. وإذا كانت كذلك، فاشتقاق الخطّ العربي المعروف اليوم منها يبدو - من الناحية النظرية - مقبولاً، بل أقرب احتمالاً من غيره، ولعل هذا من الأسباب التي جعلت القدماء يميلون إلى هذا الرأي[☆].

ولكن ما بال الشاعر ينسب تلك الأخبار المكتوبة إلى (حِمْيَر)؟، أفلم يكن في غير حِمْيَرَ كُتّاب من عرب الشمال؟، وكيف إذن اشتقّوا الخطّ العربي المعروف عن المسند، حسب الرأي القائل بذاك؟.

إن (ابن خلدون)[1] يفسّر هذا، حيث يقول: «وكان لِحِمْيَرَ كتابة تسمّى المسند حروفها منفصلة، وكانوا يمنعون من تعلّمها إلا بإذنهم، ومن حِمْيَرَ تعلّمت (مضر) الكتابة العربية. إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذاوقعت بالبدو، فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة إلى الإتقان والتنميق؛ لبَوْن ما بين البدو والصناعة، واستغناء البدو عنها في الأكثر».

(☆) وممّن مال إلى هذا الرأي من المحدثين: (ولفنسون: ١٧١).
(١) ٣/ ٩٥٢.

ولقد كانت الكتابة بالمسند مستعملة قبل الإسلام في كل جزيرة العرب - كما تشهد بذلك الآثار المكتشفة في (نجد) و(العارض) و(الفاو) وغيرها[(١)] - وهذا يقتضي معرفة بعض العرب من غير اليمنيين بهذا الخطّ[(٢)]، إلا أن أصحاب الخطّ الأصليين كانوا أجود خطّاً منهم، ويدل على ذلك - إلى جانب قول (ابن خلدون) - شهرة الكاتب الحِمْيَري في الشعر الجاهلي، فمن ذلك قول (لبيد)[(٣)]:

فنعاف صارةَ فالقَنَان كأنها ‌ ‌ ‌ زُبُرٌ يُرَجِّعها وليدُ يَمَانِ

ومن المنسوب (لأبي ذؤيب الهذلي)[(٤)]:

عَرَفْتُ الدِّيارَ كَرقْمِ الدَّوا ‌ ‌ ‌ ةِ يَذْبِرُها[(☆)] الكاتِبُ الحِمْيَرِيّ

وغير هذا كثير مما يتفق مع بيت (ابن مقبل) السابق في نسبة الكتابة إلى الحِمْيَرِيّ.

و «كتاب»: مصدر «كتب»؛ فيحمل معنى المكتوب مطلقاً، وليس بمحصور في معنى الكتاب المعروف، بل قد يكون رسالة، أو خبراً، أو اسماً، أو غير ذلك. و«الكتاب» أيضا: ما كُتِب فيه مطلقاً[(٥)]، ومن هنا فلعل قول الشاعر: «... في كتاب ذابل» يعني أن تلك الكتابة كانت في مادة ذابلة، و«ذابل» تأتي بمعنى «جافّ يابس»، كما قيل في شرح البيت. وما وصل من آثار

---

(١) انظر: جواد علي: ٨/٢٠٤-٢٠٨.
(٢) وانظر: م. ن: ٨/٢٠٤.
(٣) شرح ديوانه: ١٣٨.
(٤) السكري: شرح أشعار الهذليين: ١/٩٨.
(☆) في (م. ن): «يذبرها»: (بالذال)، ورواية «يزبرها». وقال: «الذَّبْر: القراءة».
(٥) انظر: ابن منظور: (كتب).

المسند إلى عصرنا هذا منقوش في الحجارة أو الخشب أو المعدن[☆]، فكأنّ الشاعر يعني «بالذابل» شيئاً من تلك المواد. وليس غريباً أن يصفها بالذبول، فلقد كانوا يذهبون إلى أن الحجارة كانت رطاباً في زمنها القديم، الذي سموه «الفِطَحْل»؛ قال (رؤبة بن العجاج)[١]:

فقلت: لو عَمِّرْتُ سِنَّ الحِسْلِ، أو عُمْرَ نوحٍ زمنَ الفِطَحْلِ
والصَّخْرُ مُبْتَلٌّ كطِينِ الوَحْلِ، صِرْتُ رَهِينَ هَرَمٍ أو قَتْلِ

«وسُئل رؤبة عن قوله زمن الفِطَحْل، فقال: أيام كانت الحجارة فيه رطابا»[٢]. ومن كلامهم: حدث أيام كان كل شيء ينطق والحجارة رطبة[٣][☆٢].

إذن ففي بيت (ابن مقبل) هذا ملامح عديدة عن ثقافة العرب القديمة، بصرف النظر عن العصر الذي قاله فيه. وقال[٤]:

بني عامرٍ! ما تَأْمُرونَ بشاعرٍ تَخَيَّرَ باباتِ الكِتابِ هِجائيا

واختلف العلماء في معنى البيت قديماً وحديثا. وقد كان مما استدل به (كولد زيهر) على فرضيته في نشر الجاهليين قصائد الهجاء مكتوبة. على أن (بلاشير) لم يمل إلى هذا القول، وذهب إلى أن الأمور جرت في الجاهلية كما

(☆) ولكن هذا لا ينفي معرفتهم بالكتب المعروفة. (انظر: جواد علي: ٨/ ٢٢٩).

(١) ديوانه: ١٢٨.

(٢) ابن منظور: (فطحل).

(٣) انظر: الثعالبي: ثمار القلوب: ٦٤٢، والآلوسي: بلوغ الأرب: ٣/ ٢١٩-٢٢١.

(☆٢) ونقل (الثعالبي: م. ن: ٦٤٣) عن (مقاتل بن سليمان): «أنه كان يقول: إذ الصُّخور كانت لينة، وإذ قَدَم (إبراهيم) أثّرت في صخرة المقام، للين الصخر كله يومئذ». ومقاتل هذا هو: مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء، البلخي، أبو الحسن. (-١٥٠هـ = ٧٦٧م). وهو من المفسرين، وكان متّهماً من بعض العلماء بالكذب متروك الحديث. وله ترجمة في: (ابن خلكان: ٥/ ٢٥٥-٢٥٧)، و(الزركلي: ٧/ ٢٨١) وغيرهما.

(٤) ديوانه: (٤١٠/٨) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٦٦/١٦١).

تجري اليوم في البادية، حيث كانت رواية الشعر شفهيّة بصفة عامة(١)(☆).

وربما صح افتراض (كولدزيهر) لو أمكن الجزم بأن هذا البيت جاهليّ، لكنّ البيت قد يكون إسلامياً، وليس بغريب تدوين الشعر في الإسلام، سواء أكان هجاء أم غير هجاء، فما دمنا لا نملك ما يثبت عصره، فمن غير الجائز الاستدلال به على تدوين هجاء الجاهلية(☆٢). ولئن صحت رواية: «آيات الكتاب» بدل «بابات الكتاب»، فذلك يعني أن البيت إسلاميٌّ، وأن المقصود بآيات الكتاب آيات (القرآن الكريم)(٢). ومن هنا استدل به (بروكلمان)(٣) على أن هناك أبياتاً كتبت في داخل جزيرة العرب على عهد (محمد ﷺ).

و - المتعلقات (دهماء.. والغزل المكشوف):

ومما يتعلق بالجاهلية ذكر (دهماء) في شعره، وكانت زوجة أبيه في الجاهلية، فورث زواجها عنه في ما يسمّى زواج المقت، وقد أبطله الإسلام، وفرّق بينهما وقصة ذلك قد مرت(٤).

فمجيء دهماء في شعره ذو علاقة بالجاهلية؛ لأنه إن كان قاله في الجاهلية دلّ على تلك العادة الجاهلية، وإن كان قاله في الإسلام دلّ على تعلّقه بها وحنينه إلى جاهليته معها. ويُلمح حنينه هذا في قوله(٥):

هل عاشقٌ [نال] من دَهْماءَ حاجَتَهُ ... في الجاهلية قبل الدِّينِ مَرْجُومُ

---

(١) انظر: بلاشير: تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي: ٩٨-٩٩.

(☆) وقال (بلاشير: ٩٨) في تفسير البيت: «ولعل معناه: إنه اختار هجائي لأنه جدير بالكتابة».

(☆٢) إلا أن عدم جواز الاستدلال هنا لا ينفي احتمال فرضية (كولدزيهر)، وقد تقدمت في أول هذا الموضوع الإشارة إلى معرفة الجاهليين بالكتابة.

(٢) راجع شرح البيت: المدخل: أولاً: ب - ٣.

(٣) تاريخ الأدب العربي: ١/ ٦٣. وانظر: جواد علي: ٨/ ٢٧٤، ٩/ ٢٥٢.

(٤) راجع: المدخل: أولاً: ب - ١.

(٥) ديوانه: (٣/٢٦٧) = (ط. TÜREK: ٣/١٠٨).

وإذا كان ذِكْر دهماء – في حدّ ذاته – يعد من متعلقات الجاهلية، فإن الغزل المكشوف بها ووصف التجربة الحسية معها يضيف إلى ذلك مرشّحاً آخر، فمن ذلك قوله(١):

أَعْطَتْ ببطنِ سُهَيٍّ بعضَ ما مَنَعَتْ　　　حُكْمَ المُحِبِّ، فلمّا ناله صَرَفا(☆)

وعدم تصريحه هنا بما كان بينهما أبلغ في الإنباء به مما لو صرح. وقال(٢):

عانقتُها، فانْثَنَتْ طَوْعَ العِناقِ، كما　　　مالتْ بشاربها صَهْباءُ خُرْطُومُ

وقال(٣):

عَشِيَّةَ قالتْ لِي، وقالتْ لِصاحِبي　　　بِبُرْقَةِ مَلْحُوبِ: ألا تَلِجانِ؟(☆٢)

فلمّا وَلَجْنا أَمْكَنَتْ من عِنانِها　　　وأَمْسَكْتُ عن بعض الخلاط عناني

بل لقد بلغ من حبه (دهماء) حدًّا من التعظيم أو التقديس، حيث يقسم بأبيها في قوله(٤):

فلا وأبي دَهْماءَ زالتْ عَزِيزَةً　　　على قَوْمِها، ما فَتَلَ الزَّنْدَ قادحُ(☆٣)

وهذا يصدق على غزله المكشوفَ بعامة، الذي يعني به في الغالب (دهماء)، ولو لم يصرح باسمها، أو كنّى عنها بكنية أو اسم آخر؛ لكي لا يلام

---

(١) ديوانه: (١١/١٨٣) = (ط. TÜREK: ١١/٧٤).

(☆) سهيّ: موضع، ولعله واد. صَرَف: انصرف وذهب لسبيله.

(٢) ديوانه: (٧/٢٦٨) = (ط. TÜREK: ٧/١٠٨).

(٣) م.ن: (٩/٣٣٨-١٠) = (ط. TÜREK: ٩/١٣٧-١٠).

(☆٢) برقة ملحوب: «ماء لبني أسد، على رأس تل»: (البكري: ما استعجم: ٤/١٢٥٥).

(٤) ذيل ديوانه: (١٢/٣٥٩) = (ط. TÜREK: الملحق: ٢٦/١٤٢).

(☆٣) زالت: ما زالت، بحذف حرف النفي. ما فتل الزند قادح: أي ما قُدِحت النار، يعني: دائماً، ولصفة فتل الزند: (انظر: البغدادي: الخزانة: ٩/٢٤١).

عليه في الإسلام، كما اعترف بذلك في شعره[(١)]، فمنه هذا الوصف الحسّي لمن أسماها بـ(زينب)[(٢)][(☆)]:

خَوْدٌ مُنَعَّمَةٌ كأن خِلافَها ... وَهْناً إذا فُرِزَتْ إلى الجِلْبابِ
دعصا نقاً، رَفَدَ العَجاجُ تُرابَهُ، ... حُرٌّ، صَبيحَةَ دِيمَةٍ وذِهابِ

ويقول[(٣)][(☆٢)]:

وُعْثُ الرَّوادِفِ ما تَعْيا بِلِبْسَتِها ... هَيْلَ الدِّهاسِ، وفي أَوْراكِها ظَلَعُ
بل ما تَذَكَّرُ من كَأسٍ شَرِبْتَ بها ... وقد عَلا الرأسَ منكَ الشَّيْبُ والصَّلَعُ
من أُمِّ مَثْوَى كريمٍ هابَ ذِمَّتَها ... إن الكريمَ على عِلّاتِهِ وَرِعُ
حَوْراءُ بَيْضاءُ ما ندري أَتُمْكِنُنا ... بعد الفُكاهَةِ أم تَئْبَى فَتَمْتَنِعُ

وقال عن تجربته مع امرأة - بعد أن وصف مشيتها وجمال خدّها وجيدها، وامتلاء دماليجها وخلاخيلها، وما تحلّت به من صوغ الفضة -[(٤)]:

لَهَوْتُ بها، والدهر صافٍ قِناعُهُ ... علينا، ولم يَقْطَعْ لنا كاشِحٌ حَبْلا[(☆٣)]

---

(١) انظر: ديوانه: (٢٥/٣٤٤) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٣٢/١٥٦).

(٢) م.ن: (٢/٦-٧) = (ط. TÜREK: ١/٦-٧).

(☆) الخود: الفتاة الحسنة الخَلْق الشابة الناعمة. خلافها: رِدْفاها. فُرِزَت: كُشِفَت. والجلباب: الإزار، «وقيل: هو كالمِقْنَعة تغطي به المَرأة رأسها وظَهرها وصدرها»: (ابن منظور: (جلب)). وهناً: نحو منتصف الليل. و(انظر: م.ن: (خود)، و(فرز)، و(وهن)). دعصا نقاً: كثيبا رملٍ. رفد العجاج: أي دعم وزوّد. حُرّ: صفة «نقا»، أي لاطين فيه. ديمة: مطر، لا رعد فيه ولا برق، يدوم. والذِّهاب: الأمطار الضعيفة اللينة. و(انظر: م. ن: (حرر)، و(دوم)، و(ذهب)). شبّه ردفي تلك الفتاة بهذين الدعصين.

(٣) ديوانه: (١١/١٧١، ١٣-١٥) = (ط. TÜREK: ١١/٧٠، ١٣-١٥).

(☆٢) وعث: جمع وعثاء، وامرأة وعثاء الرِّدفين: لينتهما. ما تعيا بلبستها: أي أن جسم المرأة منهن مكتنز فتثبت الثياب عليها فلا تعيا بها. والدهاس: الرمل اللين. وهيله: ما ينهال منه. والظَّلَع: الغمز في المشية، لِعِظَم الردفين. المثوى: المنزل، وأم المثوى: المرأة. و(انظر: ابن منظور: (وَعث)، و(دهس)، و(ظلع)، و(ثوا)).

(٤) ديوانه: (٢٠/٢٠٦) = (ط. TÜREK: ٢٠/٨٥).

(☆٣) الكاشح: مُضْمِر العداوة. (انظر: الجوهري: (كشح)).

«لهوت بها»!، تجسيد لطبيعة تلك التجربة الحسية، سواء أخذت الكلمة بدلالتها الحرفية أم الإيحائية، وكأن تلك المرأة كانت لعبة يلهو الشاعر بها، كطفل يلهو بدميته. وفي تعبيره هذا خلاصة المعاني المادية لعلاقته بالمرأة، علاقة جاهلية صريحة مكشوفة القناع كبيته هذا[☆].

وإذ يصف امرأة وصفاً جميلاً، يتناول فيه تناسق جسدها، ورشاقة قدّها، وغدائر شعرها الجعد الممسّك، وبهاء هيئتها وحليّها، يقول[١]:

تَشْفِي الصَّدَى، أينما مالَ الضَّجيعُ بها ... بعد الكَرَى، رِيقَةٌ منها وتَقْبِيلُ
يَصْبُو إليها، ولو كانوا على عَجَلٍ ... بالشُّعْبِ من مَكَّةَ الشِّيبُ المَثاكيلُ

إلى أن يقول[٢]:

كأنها حين يَنْضُو النَّوْمُ مِفْضَلَها ... سَبِيكَةٌ لم تُنَقِّصْها المَثاقِيلُ[☆٢]

وهكذا، كانت معالم الجاهلية وآثارها متنوعة في شعره، منها ما هو مغرق في جاهليته، ومنها ما دون ذلك، ومنها ما لا يحسب جاهلياً إلا بالنشأة والأصل، وفي كُلٍّ صور مهمة من حياة القوم الاجتماعية وعقائدهم.

□□□□□

(☆) ومن معاني (اللهو): النكاح أيضا، ويقال التهى بامرأة، فهي لَهْوَته. واللَّهْو واللُّهْوَة: المرأة الملهوّ بها. (انظر: ابن منظور: (لها)).

(١) ذيل ديوانه: (٣٨١/٢١-٢٢) = (ط. TÜREK: لم يذكرا).

(٢) م. ن: (٣٨٣/٢٦) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٤٨/٦٨).

(☆٢) ينضو: يخلع ويلقي. والنوم: لعله أراد الرجل النائم معها، فجعل المصدر موضعه، كما قيل: الصوم للصائم، «وفي حديث (عبدالله بن جعفر): قال (للحسين)... أيها النوم أيها النوم!... أراد: أيها النائم»: (ابن منظور (نوم))، أو أراد: حين تتعرّى بالتقلب في النوم، و«قال (الأصمعي): تأتزر فتلقي الدرع، أراد: أن عليها إزاراً إذا ألقت الدرع»: (السكري: جران العود: ٣٨)، وفيه: «ينضو الدرعَ مَفْصِلها»: (بالصاد المهملة). والمِفْضَلِ: ثوب النوم والتبذّل. سبيكة: قطعة من الذهب أو الفضة شبه بها هذه المرأة العارية. والمثاقيل: جمع مثقال، وهي الموازين هاهنا. (انظر: الجوهري: (ثقل)). أي أن جسدها في لونه وتمامه كسبيكة تامّة ثقيلة في الموازين.

الفصل الثاني

الإسلام في شعره

الإسلام في شعره

هناك مقولة فحواها أن من العرب قبيل الإسلام من انصرفوا شيئاً عن الأوثان، وجعلوا يشكّون في ما كانوا يعتقدون به من شركيات، حتى ضعفت صلتهم بديانتهم، حين بدؤوا يستشعرون تفاهة تلك المعبودات الجاهلية، ويتطلّعون إلى دين أسمى من دين الطاغوت[1].

ويدل على هذا ما ظهر عهدئذٍ من بحث بعض العرب عن هذا الدين الأسمى، فاتجه بعضٌ إلى النصرانية، وبعضٌ إلى الحنيفية، وبعضٌ التمس التوحيد وظل معتزلاً أوثان العرب حتى أسلم. كأولئك النفر الذين قال (ابن إسحاق) عنهم:

> «واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظّمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويُديرون به، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجيًا، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليَكْتُم بعضكم على بعض؛ قالوا: أجل. وهم: (ورقة بن نوفل). . . ، و(عبيد الله بن جحش). . . ، و(عثمان ابن الحويرث). . . ، و(زيد بن عمرو بن نفيل). . . ؛ فقال بعضهم لبعض: تعلّموا والله ما قومكم على شيء! لقد أُخطِئوا دين أبيهم (إبراهيم)!، ما حجرٌ نُطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضرّ ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفكسم (ديناً)، فإنكم والله ما أنتم على شيء. فتفرّقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم»[2][☆].

---

(١) انظر: نكلسون: تاريخ العرب الأدبي، (ترجمة: صفاء خُلوصي): ٢٢٩، ٢٣٣-٢٣٤، وبروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، (ترجمة: نبيه فارس، ومنير البعلبكي): ٢٦-٢٧.

(٢) ابن هشام: السيرة: ١/ ٢٢٢-٢٢٣.

(☆) قال: «فأمّا ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية. . . ، وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم. . . ، وأما عثمان بن الحويرث فقدم على (قيصر) ملك الروم، فتنصّر. . . ، وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبدُ رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه»: (م. ن: ٢٢٣-٢٢٥)

فهذا مثال على ذلك القلق الفكريّ الذي كان قبيل الإسلام. وهناك أمثلة أخرى تدل على تفشّيه في بعض أحياء العرب، فمن الحنفاء مثلاً: (أمية بن أبي الصلت)، و(قس بن ساعدة)، و(أبو ذر الغفاري)، و(صِرْمة بن أبي أنس) من (بني النجار) في (المدينة)، و(عامر بن الظرب العدواني)، و(خالد بن سنان العبسي)، و(عمير بن جندب الجهني)، وغيرهم[1].

بل إن عُبّاد الأوثان أنفسهم لم يكونوا ملحدين؛ قال تعالى على لسانهم: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[2]، وقال (صاعد الأندلسي)[3]: «وجميع عبدة الأوثان من العرب موحدة الله تعالى، وإنما كانت عبادتهم لها ضرباً من التديّن بدين الصابئة في تعظيم الكواكب والأصنام الممثلة بها في الهياكل، لا على ما يعتقده الجهّال بديانات الأمم وآراء الفِرَق من أن عبدة الأوثان ترى أن الأوثان هي الآلهة الخالقة للعالم، ولم يعتقد قط هذا الرأي صاحب فكرة، ولا واريه صاحب العقل».

ولهذا يذهب (نكلسون)[4] إلى أنه كان في الشعر الجاهلي قدر لا يستهان به من آثار الشعور الدينيّ، ولم يَعُد في الإمكان عزوها إلى الانتحال بعد الإسلام. وينقل عن (الفون كريمر) وغيره: أن تلك الآثار كانت «النتيجة الطبيعية الحتمية للتأثير الواسع النطاق (وإن كان على وجه العموم سطحيّاً) للديانة اليهودية وعلى الأخص المسيحية».

فما دام الأمر كذلك، فإن من المجازفة بمكان القول إنَّ كل فكرة دينية

---

(١) انظر: ضيف: العصر الجاهلي: ٩٦-٩٧.
(٢) الزمر: ٣.
(٣) ٤٤.
(٤) انظر: ٢٣٣.

قائمة على الإيمان بالله لدى الشاعر هي من الآثار الإسلامية.

غير أنه قد تقدَّم أن ابن مقبل أسلم وعاش عمراً طويلاً في الإسلام، وهذا العمر كان كفيلاً بترك بعض الآثار الإسلامية في شعره. وفيما يأتي محاولة لرصد ما أمكن رصده من تلك الآثار.

أ - الأفكار:

لقد كانت للعرب في الجاهلية قيمٌ حميدة أقرّها الإسلام، مع بعض الأفكار الدينية المشار إليها آنفاً؛ ولهذا فمن الصعب القول إن فكرة ما هي من تأثير الإسلام على الشاعر، ما لم تكن الملامح الإسلامية فيها تشفع لهذا القول. وبالرغم من ذلك فإن نسبة تلك الفكرة للإسلام تظل ضرباً من الاحتمال المدعوم بما يجعله أقرب للرجحان.

فمن الأفكار الإسلامية في شعره فكرة الشهادة في سبيل الله، وذلك في رثائه (عثمان بن عفان رضي الله عنه) - وهو بالطبع رثاء إسلامي العصر[١]:

قَتِيلٌ سَعِيدٌ مُؤْمِنٌ شَقِيتْ بِهِ ... نُفُوسُ أعاديه شَهِيدٌ مُطَيَّبُ.

وفي الزهد في متاع الدنيا، وإيثار التقوى، يقول[٢]:

تقول: تَرَبَّحْ يَغْمُرِ المالُ أَهْلَهُ، ... كُبَيْشَةُ والتَّقْوى إلى اللهِ أَرْبَحُ[☆]

وفي القرآن آيات كثيرة تفضل التقوى على المال والمتاع، وتخصّ الخير في الآخرة بالمتقين الزاهدين في ملذات الحياة الدنيا، ومنها على سبيل المثال:

(١) ديوانه: (١٤/١١) = (ط. TÜREK: ٧/١١).
(٢) ديوانه: (٢٣/٤) = (ط. TÜREK: ١١/٤).
(☆) أورد هذا البيت (البحتري: ٢٥٠) في «الباب الحادي والمئة فيما قيل في التقى والبر».

﴿ولدارُ الآخرة خَيْرٌ ولَنِعْمَ دارُ المُتَّقين﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿لا نسألُكَ رزقاً نحن نَرْزُقُكَ والعاقبةُ للتَّقْوَى﴾[2]، وقوله: ﴿وتَزَوَّدوا فإن خَيْرَ الزادِ التَّقْوَى﴾[3]، وقوله: ﴿نَجْعَلُها للذين لا يُريدونَ عُلُوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبةُ للمُتَّقين﴾[4]، وقوله: ﴿قُلْ مَتاعُ الدنيا قَلِيلٌ والآخرةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى﴾[5]، وغير هذه من الآيات الكريمة.

ومن المنسوب إليه في هذا المعنى[6]:

وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمالِ.

ومن ذلك الإيمان بالقَدَر خيره وشره، وعدم الفرح المفضي إلى البَطَر بما ناله من الخير[7]:

وأنْ لا ألوم النفس فيما أصابني وأنْ لا أكاد بالذي نلتُ أفرحُ

قال تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتابٍ من قبل أنْ نَبْرَأَها إن ذلك على الله يَسِير . لكيلا تَأْسَوْا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم واللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُور﴾[8].

ويذكر حُكْماً إسلامياً هو (الرجم) حيث يقول[9]:

هل عاشقٌ [نال] من دَهْماءَ حاجتَهُ في الجاهلية قبل الدِّين مَرْجُومُ

---

(١) النحل: ٣٠.
(٢) طه: ١٣٢.
(٣) البقرة: ١٩٧.
(٤) القصص: ٨٣.
(٥) النساء: ٧٧.
(٦) ديوانه: (ط. TÜREK: الملحق: ١٥٠/٨٤).
(٧) ديوانه: (٨/٢٤) = (ط. TÜREK: ٨/١١).
(٨) الحديد: ٢٢-٢٣.
(٩) ديوانه: (٣/٢٦٧) = (ط. TÜREK: ٣/١٠٨).

أما على رواية «مرحوم»: (بالحاء) فكأنه يطلب الرحمة والغفران على ما فات من زواجه (دهماء) امرأة أبيه(١).

وقد نشأت في الإسلام موانع شرعية، زادت الحواجز دون (ليلى)، فيقول(٢):

طاف الخيالُ بنا رَكْباً يمانينا ... ودونَ ليلى عوادٍ لو تُعَدِّينا
منهنَّ مَعْرُوفُ آياتِ الكِتابِ، وقد ... تَعْتادُ تَكْذِبُ ليلى ما تُمَنِّينا.

ويتحدث عن الحياة والمات، وأن ذلك كله قد كُتب له في صحيفته، فيقول(٣):

وما الدهرُ إلا تارتان، فمنهما ... أموتُ، وأُخرى أَبْتَغِي العَيْشَ أَكْدَحُ
وكِلْتاهُما قد خُطَّ لي في صَحيفتي ... فلَلْعَيْشُ أَشْهَى لي، ولَلْمَوْتُ أَرْوَحُ

والفكرة الإسلامية واضحة في هذين البيتين؛ فالإنسان يكدح وقد خُطّ كدحه وعمله في صحيفته إلى يوم البعث الموعود، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الإنسانُ إنك كادِحٌ إلى ربك كَدْحاً فمُلاقيه. فأمَّا من أُوتي كتابَهُ بيمينه. فسوف يحاسَبُ حساباً يسيراً. وينْقَلِبُ إلى أهله مسروراً. وأمَّا من أُوتي كتابَهُ وراءَ ظهره. فسوف يدعو ثُبُوراً. ويَصْلَى سَعِيرًا﴾(٤).

ويُلحظ أن الشاعر في بيتيه يتفق مع تسلسل المعنى في هذه الآيات، وكأنه قد تأثر في بيتيه بها خاصّة. وهذا يدعو للوقوف عند أثر إسلامي آخر في شعره، هو الأثر القرآنيّ.

---

(١) راجع: المدخل: أولاً: ب - ١.
(٢) ديوانه: (٣١٥/١-٢) = (ط. TÜREK: ١٢٨/١-٢).
(٣) م. ن: (٢٤-٢٥/٩-١٠) = (ط. TÜREK: ١١/٩-١٠).
(٤) الانشقاق: ٦-١٢.

ب - القرآن الكريم :

في شعره أبيات تذكّر القارئ ببعض الآيات القرآنية، وتدل على تأثره بالأسلوب القرآني. فمن ذلك بعض الأبيات التي مرّت قبل قليل[(١)]:

تقول: تَرَبَّحْ يَغْمُرِ المالُ أَهْلَهُ، كُبَيْشَةُ، والتَّقْوَى إلى اللهِ أَرْبَحُ

ففي قوله: «والتقوى إلى الله أربح» ما يشبه قوله تعالى: ﴿والعاقبةُ للتَّقْوَى﴾[(٢)]، أو قوله: ﴿فإن خيرَ الزاد التَّقْوَى﴾[(٣)]، أو قوله: ﴿والعاقبةُ للمُتَّقِين﴾[(٤)]، ونحو هذه من الآيات القرآنية. وكذلك قوله[(٥)]:

وأنْ لا ألومُ النفسَ فيما أصابني وأنْ لا أكادُ بالذي نِلْتُ أَفْرَحُ
وما الدهر إلا تارتان، فمنهما أموتُ، وأخرى أبتغي العيشَ أَكْدَحُ
وكِلْتاهما قد خُطَّ لي في صحيفتي فَلَلْعيشُ أَشْهَى لي، ولَلْمَوْتُ أَرْوَحُ

وفي البيت الأخير ما يذكّر بقوله تعالى - مثلاً -: ﴿وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[(٦)]، ونحوها من الآيات.

ومضى في الصفحتين السابقتين بيان الآيات الأخرى التي يظهر أن الشاعر تأثّر بها في هذه الأبيات. ويُلحظ أنها من قصيدة واحدة، فيها من الأفكار الإسلامية والأسلوب القرآنيّ ما يبعث على الظن أنها إسلامية العصر. ذلك مع ما تضمنته أيضاً من خمر وميسر؛ لأنّ هذا قد يكون من شعر جاهلي لُفّق مع

(١) ديوانه: (٤/٢٣) = (ط. TÜREK: ١١/٤).
(٢) طه: ١٣٢.
(٣) البقرة: ١٩٧.
(٤) القصص: ٨٣.
(٥) ديوانه: (٢٤-٢٥/٨-١٠) = (ط. TÜREK: ١١/٨-١٠).
(٦) التكوير: ١٠.

إسلاميّ[☆]. أو ربما كانت القصيدة برُمّتها إسلامية؛ فشعر الخمر والميسر قد بقي بعد الإسلام في شعر بعض الشعراء[☆٢].

ومن الأبيات التي يُلمِحُ فيها ما يشبه أثراً قرآنياً لغوياً قوله[١]:

نالوا السماءَ، فأَمْسَكُوا بعِمادِها حتى إذا كانوا هناك اسْتَمْسَكُوا

قال تعالى: ﴿الله الذي رفع السموات بغير عَمَدٍ تَرونها﴾[٢]، وقال: ﴿خَلَقَ السمواتِ بغير عَمَدٍ تَرونها﴾[٣]. وكان (ابن عباس) يقول: «لعلها بعمد لا ترونها»[٤].

وإذا دعوتَ بني حَنِيفَةَ راغباً أو راهباً جاءوا إليكَ فأَوْشَكُوا

قال تعالى: ﴿ويدعوننا رَغَباً ورَهَباً﴾[٥].

ويقول[٦]:

قد أَيْقَنُوا أنّ مالَ المَرْءِ يَتْبَعُهُ حَقٌّ على صالحِ الأقوام مَعْلُومُ

قال تعالى: ﴿والذين في أموالهم حَقٌّ مَعْلُوم للسائل والمَحْرُوم﴾[٧].

ويقول[٨]:

(☆) وهذه ظاهرة نلاحظ في شعر المخضرمين. (انظر: ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ٢١).

(☆٢) فمن شعراء الميسر في الإسلام (الطرماح - نحو ١٢٥هـ)، الذي عده (ابن قتيبة: الميسر: ٣١) في المرتبة الثانية بعد (ابن مقبل) في كثرة اللهج بالميسر. أما الخمر فقد بقي القول فيها عند بعض الشعراء الإسلاميين، بل ظهر هناك من أحلّ ما دون السكر منه. (انظر: م. ن: الأشربة: ٤٥-٨٨).

(١) ديوانه: (٢٠١/٢-٣) = (ط. TÜREK: ٨٣/٢-٣).

(٢) الرعد: ٢.

(٣) لقمان: ١٠.

(٤) تفسير الطبري (ط. بولاق): ٤٢/٢١.

(٥) الأنبياء: ٩٠.

(٦) ديوانه: (٢٧٥/٣٦) = (ط. TÜREK: ١١٢/٣٦).

(٧) المعارج: ٢٤-٢٥.

(٨) ديوانه: (٢٧٣/٢٧) = (ط. TÜREK: ١١١/٢٧).

لا تَمْنَعُ المَرْءَ أَحْجاءُ البلاد ولا تُبْنَى له في السماوات السَّلاليمُ(☆)

قال تعالى: ﴿أم لهم سُلَّمٌ يَسْتَمِعُون فيه فَلْيأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بسُلْطانٍ مُبين﴾(١). وقال: ﴿فإن استَطَعْتَ أنْ تَبْتَغِي نَفَقاً في الأرض أو سُلَّماً في السماء... [الآية]﴾(٢). ونُسب إليه(٣):

أَفْسَدَ الناسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا قَطَعوا الإِلَّ وأَعْراقَ الرَّحِمْ(☆٢)

قال تعالى: ﴿فخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصَّلاة واتَّبَعوا الشَّهَواتِ فسوف يَلْقَون غَيّاً﴾(٤). وعن (الظن) يقول(٥)(☆٣):

سأَتركُ للظَّنِّ ما بعده ومَنْ يَكُ ذا أُرْبَةٍ يَسْتَبِنْ
[فلا تَتْبَعِ الظَّنَّ إن الظنون تُريكَ من الأمر ما لم يكنْ]

والآيات في النهي عن الظَّنّ كثيرة في القرآن، نضرب منها بعض الأمثلة فيما يلي:

(☆) ذكره (ابن منقذ: لباب الآداب: ٤٢٥) في (باب في الحكمة)، وقبله: «قيل سمع (كعب الأحبار رحمه الله) رجلاً ينشد قول (الحطيئة):

مَنْ يفعل الخيرَ لا يَعْدَم جَوازِيَه لايذهبُ العُرْفُ بين الله والناسِ

فقال: والذي نفسي بيده، إن هذا مكتوب في التوراة»: (٤٢٤-٤٢٥). وأحجاء البلاد: جمع حجا، وهو الطرف والناحية. (انظر: ابن منظور: (حجا)).

(١) الطور: ٣٨. وانظر: أبا عبيدة: مجاز القرآن: ٢/ ٢٣٤.

(٢) الأنعام: ٣٥. وانظر: أبا عبيدة: م. ن: ١/ ١٩٠.

(٣) ديوانه: (ط. TÜREK: ١٥٣/ ١١٢).

(☆٢) الإل: العهد والقرابة هاهنا. (انظر: الجوهري: (ألل)).

(٤) مريم: ٥٩.

(٥) ديوانه: (٢٩٨/ ٣٦-٣٧) = (ط. TÜREK: ١٢٠/ ٣٦-٣٧).

(☆٣) قال (ابن قتيبة: المعاني: ١٢٦٩) في هذا البيت: «يقول: ظني صواب، فأنا أمضي له، ولا أشك، وأترك ما بعده»، ولو كان كذلك لناقض ما بعده؛ حيث ينهى عن اتباع الظن، فلعله إنما أراد القول: «سأترك الظن لما بعده» فقلب فقال: «سأترك للظن ما بعده»، أي سأترك الظن لما ينكشف من الحقيقة بعده؛ لأن الأريب العاقل يستبين الأمور بانياً على اليقين لا يتبع الظن.

﴿يآأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾[1]. وقال: ﴿وما لهم به من عِلْمٍ إنْ يَتَّبِعون إلا الظن وإنَّ الظن لا يُغني من الحَقِّ شيئا﴾[2]. وقال: ﴿وما يَتَّبِع أكثرُهم إلا ظنّاً، إن الظن لا يُغني من الحَقِّ شيئا﴾[3].

فتأثير هذا الأسلوب القرآني على بيت الشاعر جليٌّ، ولا سيما على الأخير منهما.

وإن انطباع بصمات نَصٍّ ما على أسلوب المنشئ، شعراً كان أم نثراً، لا ريب يدلّ على صلةٍ وثقى بين المنشئ وذاك النصّ. وبما أن الأمر كذلك فلعل هذه الآثار الأسلوبية القرآنية في شعر (ابن مقبل) لم تأت إلا انعكاساً لعلاقته بالنصّ القرآنيّ، حتى لقد تسللت سمات منه إلى شعره، وهذا قد يعني - من جهة أخرى - إعادة النظر فيما يُتهم الشاعر به من جفاء في الدِّين[4].

جـ - الحديث النبوي:

يستوقف القارئ بيتٌ من شعر ابن مقبل يوحي بعلاقته بالحديث النبوي الشريف، إذ يقول[5]:

قد قُلْتُما لِيَ قولاً لا أبا لكما ... فيه حديثٌ على ما كان من قِصَرِ

والبيت من قصيدته التي قالها منفعلاً بما عابتاه به ابنتا (عَصَر العُقَيْلي)، من: عَوَره وشيخوخته، وقد تقدّم تفصيل القصة في المدخل. وقال (ابن

(١) الحجرات: ١٢.
(٢) النجم: ٢٨.
(٣) يونس: ٣٦.
(٤) راجع: المدخل: أولاً: ب - ٣.
(٥) ديوانه: (١٤/٧٧) = (ط. TÜREK: ١٤/٣١).

قتيبة)[١] في شأن هذا البيت: «أخذه من قول (امرئ القيس):

وحديث ما على قصره.

أيْ: أيُّ حديث هو على قِصَره، على التعجّب».

وبالرغم من هذا التفسير الذي ذهب ابن قتيبة إليه فإن صياغة البيت وسياقه معاً يحملان على أن يُفهم منه معنى إسلامي، ولا سيما أن قصته مع ابنتي عصر حدثت في الإسلام على الأرجح[٢]، وهو يذكر في سابق هذا البيت أنه لم يمنعه عن عيبهما ببعض ما فيهما إلا وازعه الديني، حيث يقول[٣]:

لولا الحياءُ ولو لا الدِّين عِبْتُكُما ... ببعض ما فيكما إذْ عِبتُما عَوَري

فكأنه بقوله: «في حديث على ماكان من قِصَر» يشير إلى حديث نبويّ في النهي عن ذكر المرء أخاه بما يكره، أيْ: إن قولكما فيّ منهيٌّ عنه في الإسلام، وفيه حديث بليغ الزجر عنه على ما كان عليه من قِصَر، وكان حقيقاً أن يمنعكما عني كما منعني عنكما.

وفي حديث (النبي ﷺ) كثير من أحاديث النهي عن الغيبة، ويمكن أن يكون أيٌّ منها هو المقصود في هذا البيت، «فعن (أبي هريرة رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»... رواه (مسلم)»[٤]. «و عن (عائشة رضي الله عنها) قالت: قلت للنبي ﷺ حَسْبُكَ من (صَفِيّة) كذا وكذا. قال بعض الرواة: تعني قصيرة، فقال: «لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته»... رواه (أبو

(١) الشعراء: ٤٥٦-٤٥٧.
(٢) راجع: المدخل: أولاً: ب - ١.
(٣) ديوانه: (١٣/٧٦) = (ط. TÜREK: ١٣/٣١).
(٤) النووي: رياض الصالحين: ٥٥٢.

داود) و(الترمذي)، وقال حديث حسن صحيح»[1]، قال (النووي)[2]: «وهذا الحديث من أبلغ الزواجر عنَ الغيبة».

د - التاريخ:

الإشارات التاريخية في شعره تنبثّ على نحو غير مباشر، تارة في الفخر، وتارة في الهجاء، وأحياناً تأتي عَرَضاً، غير أن دلالتها تظلّ تحيل إلى أفقها التاريخي.

وهذه الإشارات تنقسم إزاء التاريخ الإسلامي إلى صنفين، الأول منهما - عن أحداث إسلامية عامة، والآخر - عن أحداث تخصّ قبيلة الشاعر، ومع هذين الصنفين لمحات أخرى من واقع حياة العرب بعد الإسلام.

د - ١ - مقتل (عثمان رضي الله عنه):

أول ما يبرز من التاريخ الإسلامي في شعره ما يعبرّ عن عثمانيته: في خبره الذي جاء في مدخل هذه الدراسة[3]، إذ قَدِمَ (المدينة المنورة) فدخل يوماً على (عثمان رضي الله عنه)، وكان (علي رضي الله عنه) في مجلسه، وكان قد اشتدّ الطعن على عثمان، فسمعهم يذكرون أن علياً رأس ذلك الطعن، فقال حين رجع إلى بلاده[4][☆]:

---

(١) م. ن.

(٢) م. ن.

(٣) راجع: أولاً: ب - ٢ - ٤.

(٤) الخبر والأبيات في: ابن شبة: ٣/١٠٤٩. وهي مما أخلّ به الديوان بطبعتيه، انظر: المستدرك (ملحق بهذه الدراسة): النموذج ٤.

(☆) مدنف: مريض. وذو دائه: يقصد علياً رضي الله عنه. مستحجن: متكئ؛ وفي الخبر «وعلي رضي الله عنه إلى جانبه متكئ على وسادة»، ولم نقف على «مستحجن» بهذا المعنى، ولكن هناك حَجْن العود: عطفه، والاحتجان: جمع الشيء وضمه إليك، فالظاهر أن «مستحجن» مشتقة من ذلك. و(انظر: ابن منظور، والفيروزآبادي: (حجن)). غاداه: باكره وغدا عليه. طبائبه: طُرقه، جمع طبيبة: وهي الطريقة المستطيلة من الرمل، ولم نقف على جمعها على (طبائب). (انظر: ابن منظور: (طبب))، و(الفيروزآبادي: (الطب)). ويجوز أن يعني: غابت عنه وسائلُ تطبيبه فاستحال -

خرجنا وغادرنا ابنَ عفان مدْنَفاً ... من السيف لايَسْلُكْ إلى السيف ضاربُهْ
وذو دائه مُسْتَحجن بوِسادِهِ ... إذا شاء غاداهُ وغابتْ طَبائبُهْ
وبالمِصْرِ طِبٌّ إنْ أرادوا دَواءَهُ ... وبالشام لَيْثٌ تَقْشَعِرُّ مناحبُهْ
فإنْ تَقْتُلوهُ تَلْفِظِ الأرضُ بَطْنَها ... على الناس فيه فرثه وأَقاتبُهْ

فها هو ذا يقف عثمانياً، مصوّراً أجواء الفتنة بالمدينة يومئذ، وما كان من تألّب المصريين مع بعض حلفائهم من الأمصار الأخرى على (عثمان رضي الله عنه)، محذّراً من صولة ليث الشام (معاوية بن أبي سفيان)، إذا هم قتلوه، وما سيتمخّض عن ذلك من قتل وفتنة في الأرض.

وقد تحققت نبوءة الشاعر في أبياته تلك، فقُتل عثمان (سنة ٣٥هـ أو ٣٦هـ = ٦٥٦م)[1]، ولفظت الأرض بطنها على الناس بالقلاقل والفتن والاضطرابات وسفك الدماء، إلى آخر ما سجّلت كتب التاريخ عن تلك الحقبة.

ثم تأتي مرثيته في عثمان معبّرة عن موقفه مما حدث، ومصوّرة بعض ملامح تلك الأحداث التاريخية التي واكبت الفتنة، وكيف تحوّلت الأرض يباباً إلا من سيّال الدم، فيقول[2](☆):

= شفاؤه، بقرينة ما في البيت التالي، وهذا كناية عن هلاكه. مناحبه: المُناحَبَة: المُخاطرة والمُراهنة: وأصله من المُناحَبَة، وهي: المحاكمة، (انظر: ابن منظور: (نحب))، وليست الكلمة مضبوطة في كتاب (ابن شبّه)، ولعلها مُناجِبُه: أي مُشارِكُه في المُناحَبَة والمُراهنة، والوجه عند هذا أن يقول: «يقشعر مُناجِبُه»: (بالباء)، أي: فرقاً منه؛ فلم نجد: (مَناجِب) على (مَفاعِل)، والكلام كناية عن شجاعة (معاوية بن أبي سفيان). أقاتبه: لعله أراد أقتابه: جمع قِتْب وقَتَب: أي أمعاؤه، وقيل: القِتْب: ما تَحَوّى من البطن، يعني استدار، وهي الحوايا. (انظر: ابن منظور: (قتب)). ويعني أن قتله سيثير فتنة وفساداً في الأرض.

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل: ٣/ ٩٠.

(٢) ديوانه: (١١-١٢/١-٣) = (ط. TÜREK: ٦/١-٣).

(☆) بطحان: واد بالمدينة. ومِنى: المعروفة باسمها إلى الآن، قرب مكة من جهة الجنوب الشرقي. (انظر: ابن خميس: المجاز: ٣٠١-٣٠٢). وعسفان: حُنُدٌ فوق. والمقنب: جماعة الخيل والفرسان من الثلاثين إلى الأربعين. (انظر: ابن منظور: (قنب)). نعف وداع: موضع قرب نعمان، ونعمان: واد معروف وراء (عرفة) الموقف المشهور. والصفاح: في حدود الجبال المشرفة على وادي (للغمس)، وهي آخرها، عن شمال قاصد مكة، قرب نعف وداع. (انظر: الحموي: البلدان: (الصفاح))، و(ابن بليهد: صحيح الأخبار: ١/ ٢٢٧، ٣/ ١٥٧-١٥٨).

عفا بَطحانٌ من قريشٍ فيثربُ ‏ ‏ ‏ فمُلقى الرحال من مِنىً فالُمحَصَّبُ
فعُسْفانُ، إلّا أن كل ثَنِيَّةٍ ‏ ‏ ‏ بعُسْفانَ يأويها مع الليل مِقْنَبُ
فنِعْفُ وداعٍ فالصِّفاحُ فمكة ‏ ‏ ‏ فليس بها إلا دماء ومَحْرَبُ

فكل هذه الأماكن في (مكة) و(المدينة) قد خلت من (قريش)، فكُلٌّ أصبح في ظروف هذه الفتنة محتجباً معتزلاً في داره، رغبة عن التدخّل، أو إيثاراً للسلامة، أو ترصّداً لنيل مأرب. ويستكمل الصورة بما يذكره من جماعات الفرسان التي كانت تأوي ليلاً إلى ثنيات (عسفان) - وهي قرية (لبني المصطلق) من (خزاعة)، جامعة بين مكة والمدينة[1] - حتى إنها لا تُرى في تلك الديار إلا الدماء والمحاربة.

ثم يتلهّف على (عبدالله بن عامر بن كريز)[☆] - ابن خال (عثمان)، وقد ولّاه (البصرة) بعد عزله (أبا موسى الأشعري) - وكان قد استنجده مع (معاوية) وأمراء الأجناد إبّان حصاره من قِبَل المصريين، فسار إليه من البصرة (مجاشع بن مسعود السلمي)، فلما وصل جَمْعُهُ (الربذة) ونزلت مقدمتهم (صراراً) بناحية (المدينة) أتاهم قتل (عثمان) فعادوا[2]. قال[3]:

ألهفي على القوم الذي تَحَمَّلُوا ‏ ‏ ‏ مع ابن كُرَيْزٍ في النَّفِيرِ فأَوْعَبوا
ولهفي لخَلّاتٍ عُرِضْنَ عليهم ‏ ‏ ‏ كأنّ حُلُومَ الشاهديهن غُيَّبُ
خِلالٌ تأبّاها الأريبُ ولم يكن ‏ ‏ ‏ ليُبْصِرَ ما فيهن إلا المُهَذَّبُ

(١) انظر: البكري: ما استعجم: ٩٤٢-٩٤٣، ٩٥٦-٩٥٧.
(☆) هو: عبدالله بن عامر بن كُريز بن ربيعة الأموي، أبو عبدالرحمن، من الفاتحين، ولد بمكة (سنة ٤هـ وتوفي ٢٩هـ = ٦٢٥-٦٧٩م). (انظر: العسقلاني: ٥/١٦-١٨)، و(الذهبي: تاريخ الإسلام: ٢/٢٩٩-٣٠١)، و(ابن الأثير: الكامل: ٣/٤٩)، و(الزركلي: ٤/ ٩٤-٩٥).
(٢) انظر: ابن الأثير: م. ن: ٣/ ٨٥.
(٣) ديوانه: (١٢-١٣/٤-٦) = (ط. TÜREK: ٦/ ٤-٦).

ثم يتحدث عن خيوط هذه المأساة التي حلّت بالأمة الإسلامية فذهب ضحيتها إمامها[(١)]:

تَواكَلَهُ الأقتالُ: باغٍ، وخاذلٌ ⁂ بعيدٌ، وذو قربى حسودٌ مُؤَلِّبُ
فغُودرَ مقتولاً بغيرِ جريرةٍ ⁂ ألا حبذا ذاك القتيلُ المُلَحَّبُ[(☆)]

ويقول[(٢)][(☆٢)]:

فلم يرَ راءٍ مثلَ عثمانَ هالكاً ⁂ على مثلِ أيدي من تَعَطَّاهُ يُشْجَبُ
فلا وَأَلَ الناعي البعيدُ من الأذى ⁂ ولا أَفْلَتَ القتلَ القريبُ المُؤَلِّبُ

ويؤبّنه قائلاً[(٣)][(☆٣)]:

نعاءِ ابنَ عفانَ الإمامَ لمُجْتَدٍ ⁂ إذا البَرْقُ للراجي سنا البَرْقِ خُلَّبُ
نعاءِ لفضلِ الحلمِ والحزمِ والندى ⁂ ومأوى اليتامى الغُبْرِ عاموا وأجدبوا
وملجإِ مَهْرُوئين، يُلْفَى به الحَيا، ⁂ إذا جَلَّفَتْ كَحْلٌ هو الأمُ والأبُ
لديه لأَنضاءِ الخَصاصِ مَواردٌ، ⁂ بأذرائها يأوي الضَّريكُ المُعَصَّبُ

ويتهدد بالأخذ بدمه إن لم يأخذ به الأقربون من أهله[(٤)]:

---

(١) م. ن: (١٣-٩/١٤-١٠) = (ط. TÜREK: ٧/٩-١٠).
(☆) المُلَحَّب: المُقَطَّع. (انظر: الجوهري: (لحب)).
(٢) ديوانه: (١٨/١٥-١٩) = (ط. TÜREK: ٨/١٨-١٩).
(☆٢) يشجب: يهلك. وأل: نجا. (انظر: الجوهري: (شجب)، و(وأل)).
(٣) ديوانه: (١٤-١٣/١٥-١٦) = (ط. TÜREK: ٧/١٣-١٦).
(☆٣) عاموا: احتاجوا، قال (الصَّغاني: العباب: (حرف الفاء): ٧٠): «عامُوا: أي قَرِمُوا إلى اللَّبَن». الحيا: الغيث والخصب. جَلَّفَتْ كَحْل: استأصلت أموالهم سنة مجدبة، ومن الأمثال: «صَرَّحَتْ كَحْل» أي: أصابت الناس سنة شديدة، وكحل: السنة والجدب، معرفة لاتدخلها الألف واللام، وقيل: اسم للسماء. (انظر: الميداني: مجمع الأمثال: ١/ ٤٠٤-٤٠٥). أنضاء: مهازيل، مفرده: نِضْو. والخصاص: الفقر. والضريك: شديد الفقر الهالك من سوء الحال. والمعصَّب: الذي يعصب بطنه من الجوع، وقد يعصب عليه حجراً. (انظر: ابن منظور: (ضرك)، و(عصب)).
(٤) ديوانه: (١٦/ ٢٠-٢١) = (ط. TÜREK: ٨/ ٢٠-٢١).

وإلا يُبَكِّ الأقربون بِعَوْلَةٍ فراقَهُمُ عثمان يوماً ويَنْدُبُ[وا]
فإنّا سنبكيه بجُرْدٍ كأنها ضِراءٌ دعاها من سَلُوقَ مُكَلِّبُ

وإذا كان الشاعر في هذا كله يصدر عن عاطفته وميله الحزبي، فإن ذلك لم يَحُل دون بعض الصدق التاريخي في وصفه ملامح هذه الأحداث المتلاطمة في تلك الأيام.

وفي شعره قصيدة أخرى تتضمن الحديث عن قتال بين قومه و(بني كلاب) من جهة، وبين قومه و(بني كعب بن معاوية بن عبادة) من جهة أخرى، وهذه القصيدة تنطوي على إشارات إلى أن تلك الأحداث كانت في غضون الفتنة العثمانية المذكورة أو بعدها، يقول فيها[1][☆]:

زجرنا بني كعب، فأمّا خيارهم فصَدُّوا ولَلْمَعْروفُ في الناس أَعْرَفُ
وأمّا أُناسٌ فاستعاروا بعيرنا فقِيْدَ لهم بادٍ به العُرُّ أَخْشَفُ
له خَدٌّ ميمونٍ، وأَشْأَمُ ساحقٍ، فأيّها ما شئتمُ فتَعَيَّفُوا

ويذكر ما كان بينهما (ببقعاء المسالح)، فيقول[2]:

رأونا بِبَقْعاءِ المَسالِحِ دوننا من الموتِ جَوْنٌ ذو غَوارِبَ أَكْلَفُ[☆2]

---

(1) ديوانه: (١٩٠-١٩١/٥-٧) = (ط. TÜREK: ٧٨/ ٥-٧).

(☆) بنو كعب: لعلهم (بنو كعب بن معاوية بن عبادة)، جد (ليلى الأخيلية)، وهم من (بني كعب بن ربيعة بن عامر) قوم (ابن مقبل). و(راجع: المدخل: ثانياً: ج - ٢). العرّ: الجرب. والأخشف: الذي عمّه الجرب، «وقال (الليث): هو الذي يَبِس عليه جَرَبه»: (ابن منظور: (خشف)). «قال (الأصمعي): هذا مَثَل، يقول طَلبَوا شرنا فوقع في أيديهم منه بعير أجرب»: (ابن قتيبة: المعاني: ٨٦٤). ساحق: إمّا بعيد، بمعنى (سحيق)، وهذا جائز في الشعر، (انظر: ابن منظور: (سحق))، يقصد أنه طويل، أو بمعنى (سحوق) أي طويل مُبِينٌ، أو أنه اسم فاعل من (سَحَق) بمعنى دَقّ ودَرَس، فيكون وصفاً لنابه أو خُفّه أو نحوهما، وهناك «السَّحْق في العَدْو: فوق المشي ودون الحُضْر»: (م. ن)، ولم نعثر على (ساحق) في صفات الإبل. فتعيفوا: من العِيافة، أي: فتكهّنوا بما يصلح لكم من ذلك.

(2) ديوانه: (١٩٣/ ٢٠) = (ط. TÜREK: ٧٩/ ٢٠).

(☆2) في (البكري: ما استعجم: ٢٦٤): «ببقعاء المتالف»، وقال: «بَقْعاء... اسم ماء... نسبة إلى المتالف: لشدّة الحرب فيه. هكذا رُوي هذا الحرف في شعر (تميم بن أبي بن مقبل)، و(نَقْعاء)، بالنون: اسم بئر معروفة.. وقال (المبرد): =

ثم يتحدث عن نزاع نشب بين قومه و(بني كلاب) فعيّرتهم به (بنو كعب)، فيقول(1)(☆):

تُعَيِّرُنا كعبٌ كلاباً وقتلها، ... ويُقتلُ أدنى من كلابٍ وأضعفُ
وتُتْرَكُ قتلى قد علمنا مكانها ... وتعفو جراحٌ عن دم فتَقَرَّفُ
وقد نازعتنا من كلابٍ قبائلٌ ... مَحاجمُ منها ما يَفيضُ ويَنْطِف
قَتلنا، وأبكـ[ـينا] حَمِيمَ بن جعفرٍ ... على مَشْهَدٍ من قومه، وهو مُرْدَفُ
جمعنا أبا أَدَّى [وأَدَّ]ى بطعنةٍ ... فظَلَّ بَقِيٌّ فيها مُتَقَصِّفُ
طعنّا حُبَيشاً طـ[ـعنةً ظَـ]ـلَّ بعدها ... يَنُوءُ حُبَيْشٌ لليدين ويُنْزَفُ

وليس في الإمكان تحديد الزمن الذي حدث فيه هذا النزاع بين قوم الشاعر و(بني كلاب) على وجه الدقة، غير أن اقتران ذلك بما يلي من كلام على القتال الذي كان لـ(بني العجلان) على أعدائهم - فيما يمكن نسبته إلى زمن الفتنة أو ما

= نقعاء: قرية من قرى (اليمامة)»، «. . . وقال (ابن السكيت): النَّقعاء: هي خلف (المدينة)»: (م. ن: ١٣٢٢)، «وفي أصل (يَيْسُل) ماءة يقال لها نَقْعاء، بئر لا تكفّ»: (م. ن: ٧٢٢). فلعل «بقعاء المسالح» في بيت الشاعر هي نفسها «بقعاء المثالف» على الرواية الأخرى، وقياساً على كلام (البكري) في المثالف فربما كانت نسبتها إلى المسالح لكثرة الأسلحة التي استعملت فيها، وقد يكون نقعاء: (بالنون)، أحد الأمكنة المذكورة آنفاً، والراجح أنها قرب المدينة؛ بساحة أحداث الفتنة إذ ذاك. أكلف: أحمر في حمرته سواد ويكون هذا في الوجه خاصة. (انظر: ابن منظور: (كلف)). مَثَّلَ للموت الذي رآه الأعداء بعير تلك صفاته.

(١) ديوانه: (١٩٤-١٩٦/ ٢٤-٢٩) = (ط. TÜREK: ٨٠/ ٢٤-٢٩).

(☆) كعب: (كعب بن معاوية بن عبادة) المذكورون قبل قليل. وكلاب: هم (بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة). تقرّف: تقشّر عنها القِرْفة، وهي القشرة تعلو الجرح إذا يبس ويبدأ يندمل. محاجم: جمع محجم، وهو آلة الحجّام التي يمص فيها الدم كالقارورة ونحوها. ينطف: يقطر. (انظر: ابن منظور: (قرف)، و(حجم)، و(نطف)). وهذا تمثيل لما أريق بينهما من دماء. حميم بن جعفر: أحد بني كلاب، ولم نقف عليه. وهو مردف: أي أنه راكب خلفهم بعد أسره، وقد يعني أنه مردف بالمقتولين من قومه أي متبع بهم في القتل. ابو أدّى وأدّى: الظاهر أنه أحد بني كلاب وابنه، ولم نقف عليهما. بَقِيّ: جزء باق متقصف من الرمح الذي طُعنا به. حبيش: يبدو من سياق الأبيات أنه أحد بني كلاب، ولو لا السياق لأمكن احتمال أن المقصود: (حبيش بن دلجة القيني)، وكان قد سيّره (مروان بن الحكم) إلى (المدينة) لأخذها من (ابن الزبير)، فانتهى أمره بأن قتله الزبيريون في (الربذة) على يد (يريد بن سنان): (٦٥هـ = ٦٨٥م). (انظر: تاريخ الطبري: ٥/ ٦١١-٦١٢)، و(ابن الأثير: الكامل: ٣/ ٣٤٧)، وقد سبق الكلام على انضمام (قيس عيلان) إلى الزبيريين، ومخالفتهم مروان مع (الضحاك) في (مرج راهط) وغيرها. (وانظر: د - ٣). ينوء لليدين: أي يتمايل متثاقلاً ليسقط منكبّاً على يديه ووجهه.

بعدها - غير أن ذلك يجعل من المرجح أن هذا النزاع إن لم يكن في غضون تلك الفترة فهو على العموم في العصر الإسلامي، ويقوّي هذا أن القصيدة بجملتها إسلامية كما تدل على نفسها. يقول[1]:

دعاني كُلَيْبٌ بالمدينة دعوةً ... وأفناءُ قيسٍ شاهدون وخِنْدِفُ
فكان جوابي أنْ حَزَزْتُ أخاهم ... جِهاراً،وأنيابي من الحرب تَصْرِفُ
وقال كُلَيْبٌ اخْضِبُوا لِيَ لحيتي ... لو أنِّيَ غُدوّاً عند مروانَ أَعْرِفُ

ويبدو أن المعنيَّ هنا (مروان بن الحكم ٦٥هـ = ٦٨٥م)، وكان من خاصة (عثمان رضي الله عنه)، وقد اتخذه كاتباً، وكان مع (طلحة) و(الزبير) و(عائشة) حين خروجهم إلى (البصرة) عقب مقتل عثمان[2]، وقد أدرك (ابن مقبل) خلافة مروان كما قيل من قبل.

فلما دنا للباب أشْبَهَ أُمَّهُ ... وقالتْ لهم نَفْسُ المَذَلَّةِ أَزْحِفُوا
فإن يَكُ في بُغْرانِ قيسٍ مَعُونَةٌ ... يكن لبني العجلان في الضرب مِخْشَفُ[☆]
جَزَيْتُ ابنَ أَرْوَى بالمدينة قَرْضَهُ ... وقلتُ لشُفّاعِ المدينة: أَوْجِفُوا

قال (الشنتمري)[3]: «أراد بابن أروى (عثمان رضي الله عنه)، أو (الوليد ابن عقبة)، وكان أخا عثمان لأمه»[☆٢]، والراجح أن المقصود هنا عثمان لما

---

(١) ديوانه: (١٩٦-١٩٧/ ٣٤-٣٩) = (ط. TÜREK: ٨١/ ٣٤-٣٩).
(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل: ٣/ ٣٤٧-٣٤٨، والديار بكري: تاريخ الخميس: ٢/ ٣٠٧، وفيه: «وكان كاتب السرّ لعثمان وبسببه جرى على عثمان ماجرى»، والزركلي: ٧/ ٢٠٧.
(☆) معونة: أي على ديات القتلى. مخشف: ماضٍ، صفة للسيف. ولم نقف على وصف السيف من هذه المادة بمخشف، وإنما هناك: خاشف، وخشيف، وخشوف. (انظر: ابن منظور: (خشف)) وغيره، وقال (عزة حسن): «لم تذكره كتب اللغة».
(٣) ٢/ ٣٠٢.
(☆٢) هي: أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف. (انظر: ابن دريد: الاشتقاق: ٨٠)، و(ابن الأثير: الكامل: ٣/ ٩٣)، و(العسقلاني: ٥/ ١٦).

عُرف عن الشاعر من عثمانيته.

فكأنه قد عدّ قتله (كليباً) المذكور جزاء قرض عليه لعثمان بن عفان، مما يرجح أن كليباً هذا كان من أعداء عثمان، وأن هذا الذي يذكره كان في زمن الفتنة، وأغلب الظن أنه كان بعد مقتل عثمان، لما توحي به كلمة «جزيت».

ثم يعود في آخر القصيدة للحديث عن (بني ربيعة بن عامر)، مخاطباً (بني كلاب)، مذكّراً بما يجمعهم بقومه من أواصر القربى، التي تجعل من غير اللائق بهما الاختلاف والنزاع، فيقول(١)(☆):

ونحن بنو أمٍّ، نشأنا ثلاثةً، ... نقوم بأبواب الملوكِ فنُعْرَفُ
بنو أمِّكم، إنْ تَعْرِفوا الحَقَّ يَعْرِفوا ... وإنْ تَنْسِفوا يوماً عن الحَقِّ يَنْسِفوا
فلا أعرفنْ شيخاً له أم سبعةٍ ... يبارسنا يوماً إذا الناس أَجْحَفُوا

د - ٢ - صِفّين:

ويقف بـ(صِفّين: ٣٧هـ = ٦٥٧م) في صف الأمويين في نقيضته التي ردّ بها على قصيدة (النجاشي الحارثي)، التي مطلعها(٢)(☆٢):

---

(١) ديوانه: (١٩٩/٤٤-٤٦) = (ط. TÜREK: ٨٢/٤٤-٤٦).

(☆) نحن: يعني (بني كعب بن ربيعة). «نشأنا ثلاثة»: أي: (بنو عبدالله بن كعب بن ربيعة)، و(بنو عُقَيل بن كعب بن ربيعة)، و(بنو قشير بن كعب بن ربيعة). وكان يقال لبني ربيعة: (بنو مجد)، ومجد: اسم أمهم نسبوا إليها، وهي: (مجد بنت الأدرم تيم بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة)، وفيها يقول (لبيد بن ربيعة الكلابي العامري):

سقى قومي بني مجد وأسقى ... نميراً والقبائل من هلال

(انظر: الأزرقي: أخبار مكة: ١/١٧٩-١٨٠)، و(كحّالة: ٢/٤٢٢)؛ ولهذا قال الشاعر هاهنا: «نحن بنو أمٍّ». بنو أمكم: الخطاب (لبني كلاب بن ربيعة)، أي أننا (بني كعب) نلتقي معكم أيضاً في أمكم مجد؛ فنحن جميعاً (بنو مجد). تنسفوا عن الحق: أي تجوروا عنه، ولم نقف على «نسف عن الحق»، قال (عزة حسن): «لم تذكره كتب اللغة». «له أم سبعة»: أي له زوجة ولدت منه سبعة أبناء، كناية عن الكثرة والمنعة. أجحفوا: يقال: أجحف العدوّ بهم أي: دنا منهم وأخطأهم. (انظر: ابن منظور: (جحف))، وزعم (عزة حسن): أن كتب اللغة لم تذكر أجحف في هذا المعنى. ومعنى البيت أن الشاعر لايعرف قوماً مهما كانت قوتهم وكثرتهم، يمكن أن يبارسوا يوماً بني عامر بالعداء، إذا هم تآخوا ولم يتنازعوا أمرهم كما حدث بين كعب وكلاب.

(٢) انظر: المنقري: ٥٢٤-٥٢٧.

(☆٢) هذا هو مطلعها حسب رواية (المنقري) عن (نويرة بن خالد الحارثي) ابن عم النجاشي. وهي واحد وثلاثون بيتاً وفي (ابن الشجري: ٣٣-٣٤) زيادة خمسة أبيات. وقبل المطلع المذكور هنا خمسة أبيات، أولها:

أيا راكباً إمّا عرضت فبلغن ... تميماً وهذا الحيَّ من غطفان



ونَجَّى ابنَ حربٍ سابحٌ ذو عُلالةٍ　　　أَجَشُّ هَزِيمٌ والرماحُ دواني

بيد أن نقيضة (ابن مقبل) في الرد على هذه القصيدة لم تتعرض لذكر صفين إلا في أبيات جمعها محققا ديوانه، وذلك ضمن هجاء النجاشي واليمنيين. على أن جزءاً من نقيضته قد ذهب مع الخرم الذي وقع في آخر الأصل المخطوط(1)، فربما كان في هذا الجزء أشياء أخرى عن تلك الموقعة.

يقول(2)(☆):

[تمنيتَ أنْ تلقى فوارسَ عامرٍ　　　بصحراء بين السُّودِ والحَدَثانِ]
[أيا لهفتي ألا تكون شهدتَهم　　　فتُسْقَى بكأسَي ذِلَّةٍ وهَوانِ]
[ولو كنتَ جِزمَ الخُنْفُساء شهِدتَهم　　　جُعِلْتَ قناةً غير ذاتِ سِنانِ]
[ولو شَهِدَتْ أُمُّ النجاشي ضربَنا　　　بصِفِّينَ فَدَّتْنا بكل يماني]
[ونحن مَنَعْنا البحر أنْ تشربوا به　　　وقد كان منكم ماؤه بمكانِ]

وفي بيته الأخير إشارة إلى ما يروى من أن (معاوية) وجيشه من أهل الشام

---

(1) انظر: عزة حسن: ٣٣٥.

(2) ديوانه: (٣٤٥-٣٤٦/٢٩-٣٢،٣٤) = (ط. TÜREK: ١٥٧-١٥٨/١٣٤، ١٤١-١٤٣، ١٣٦).

(☆) السُّود: قرية بالشام. والحَدَثان: أحد إخوة (سلمى) لَحِق بموضع (الحَرَّة) فأقام به فسمي الموضع باسمه. (انظر: الحموي: البلدان: (الحدثان)، و(السود)). وهنا البيت وما يليه إجابة عن قول (النجاشي):

فيا حزناً ألا أكون شَهدتُهم　　　فأدهن من شحم العبيد سناني

(المنقري: ٥٢٦). و(راجع: أولاً: ب-٢-١ من مدخل الدراسة). والأبيات (٢-٤) سبقت (راجع: م. ن). والبيت الرابع يماثل قول النجاشي، من قصيدة غير نقيضة قصيدة (ابن مقبل) هذه:

ولو شهدت هند لعمري مقامنا　　　بصفين فدّتنا بكعب بن عامر

(انظر: المنقري: ٣٠٧). وهو يقصد: (كعب بن عامر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة)، أو (كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة)، اللذين ينتسب إليهم ابن مقبل. «تشربوا»: رواية (ابن برهان العكبري: ١/ ١٣٦)، ورواية الديوان: «يشربوا»، نقلاً عن (ابن منظور: (بحر)). البحر: يأتي للملح والعذب، وقد استشهد (ابن منظور: (م. ن)) بهذا البيت على البحر يطلق على الماء العذب، ونقل عن (السهيلي): أن كل نهر عظيم بحر، وعن (الزجاج). كل نهر لا ينقطع ماؤه فهو بحر، وعن (الأزهري) أن مثل دجلة والنيل وما أشبههما من الأنهار العذبة الكبار، فهو بحر. ومعروف أن صفين سهل شرقي (حلب) على نهر الفرات، وقد كانوا يدعونه بحرا. (انظر: ابن الأثير: الكامل: ٣/ ١٤٤).

منعوا ماء الفرات عن (علي) وأصحابه، وكان رأي (الوليد بن عقبة) و(عبد الله ابن سعد) أن يُمنعوا الماء كما منعوه (ابن عفان)، وقد خالفهما في رأيهما هذا (عمرو بن العاص) وغيره، فلمّا حاول (معاوية) أن يمنعهم الماء، اقتتل الجيشان على الماء، حتى صار في أيدي أصحاب (عليّ)، فقالوا: والله لانسقيه أهل الشام، ولكن علياً أرسل إلى أصحابه: «أنْ خذو من الماء حاجتكم وخلّوا عنهم...»[1].

د - ٣ - مرج راهط[☆]:

كان هذا اليوم في المحرم سنة (٦٥هـ = ٦٨٤م)، وقيل بل آخر سنة (٦٤هـ = ٦٨٤م)، بين (مروان بن الحكم) و(الضحّاك بن قيس)[☆٢]، الذي امتنع عن بيعة مروان إبان انعقادها وهو في (مرج راهط)، وكان الضحّاك في ستين ألفاً، فقاتل مروان عشرين ليلة حتى هزم أهل المرج، وقُتل من قيس من لم يقتل منهم قطّ، وقُتِل الضحّاك نفسه، وقُتل من أهل الشام مقتلة عظيمة، وكان من قتلى قيس (هَمّام[☆٣] بن قبيصة بن مسعود بن عمير العامري النمري) سيد قومه[2]، وكان مع الضحّاك، قتله (وازع بن ذؤلة الكلبي). وقال (العسقلاني)[3]: «رثاه (ابن مقبل) بقصيدة أولها:

يا جدع أنف قيس بعد همّام.

---

(١) انظر: ابن الأثير: م.ن: ٣/١٤٥-١٤٦.

(☆) انظر: تاريخ الطبري: ٥/٥٣٥ وما بعدها، وابن الأثير- م.ن: ٣/٣٢٨ وما بعدها، والبلاذري: ٥/١٣٦ وما بعدها، وأبا تمام: النقائض: ١٥ وما بعدها، والأصفهاني: الأغاني: ١٩/١٣٩ وما بعدها.

(☆٢) هو: الضحاك بن قيس بن خالد الفهري القرشي، أبو أمية، أو أبو أنيس سيد بني فهر. شهد (صفين) مع (معاوية)، وقد دعا إلى (ابن الزبير) بدمشق. فقتل سنة (٦٥هـ أو ٦٤هـ). (انظر: ابن الأثير: م.ن: ٣/ ١٥٠، ٣٢٦-٣٢٩)، و(الذهبي: ٣/٢١-٢٥)، و(الزركلي: ٣/ ٢١٤-٢١٥).

(☆٣) وفي (ابن الأثير: م.ن: ٣/٣٢٨): «هانئ».

(٢) انظر: الزركلي: ٨/ ٩٣.

(٣) انظر: ٥/ ٥٢٤.

ذكره (ابن الكلبي)». والبيت في كتابه (الجمهرة)[1]:

يا جَذْعَ أنْفِ قيسٍ بعد هَمَّامٍ   بعد المُنَبِّبِ عن أحسابها الحامي

ولم نجد تلك القصيدة التي أشار (العسقلاني) إليها في كلامه الآنف.

د - ٤ - أيام قيس وتغلب:

منها في الإسلام (يوم ماكسين)[٢]، وقد جعله (ابن الأثير)[٣] في أحداث سنة (٧٠هـ = ٦٨٩ - ٦٩٠م). وكان قد استحكم الشّر بين (قيس) و(تغلب)، فالتقيا بماكسين بـ(الخابور)، وعلى قيس (عُمير بن الحباب)[☆]، وعلى تغلب (شُعيث بن مُليل)[☆٢]، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل (عميرٌ) (شعيثاً)، وقُتل من (تغلب) خمس مئة. وقد نسب (البلاذري)[٤] (لابن مقبل) في هذا اليوم بيتين هما[٥]:

قُلْ لابنة الأخطل المسلوبِ مِئْزَرُها   يوم الفوارس لما راث فاديها

ولستُ سائلها إلا بواحدة   ما رَدَّ تغلبَ عنها إذ تُناديها؟!

والظاهر أن هذين البيتين مع أربعة أخرى، ألحقها المحققان بديوانه، من قصيدة واحدة، ومنها[٦]:

(١) ٣٧٥. وانظر: البلاذري: ١٢٦/٥. وديوانه: (ط. TÜREK: الملحق: ١١١/١٥٣).
(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل: ٤/٤، والبلاذري: ٣١٦/٥-٣١٨، والأصفهاني: الأغاني: ٢٠٣/١٢-٢٠٦، والبكري: ما استعجم: ١١٧٥-١١٧٦.
(٣) انظر: م.ن: ٢/٤.
(☆) هو. عمير بن الحباب بن جعدة السلمي، قتله بنو تغلب يوم الحشاك سنة (٧٠هـ = ٦٨٩-٦٩٠م)، وكان بطل المعارك بين قيس وتغلب في تلك الأيام. (انظر: ابن الأثير: م.ن: ٣/٤-٧)، و(الزركلي: ٨٨/٥).
(☆٢) في (الأصفهاني: م.ن): شعيب: (بالباء)، وفي (ابن الأثير: م.ن): ابن مليك: (بالكاف).
(٤) انظر: ٣١٧/٥.
(٥) البيتان مما أخل به ديوانه بطبعتيه. انظر: المستدرك: نموذج ٢٨ (ملحق بهذه الدراسة).
(٦) ذيل ديوانه: (٤١٤/٣) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٥٦/١٦٠).

فكم وَطِئنا بها من شافِهٍ بطَلٍ   وكم أخذنا من انفالٍ نُفاديها[☆]

ثم يقول[1]:

إذْ رَدَّها الخيلُ تَغدو، وهي خافضةٌ   حَدَّ النَّبارسِ مَطْرُوراً نواحيها[☆٢]

و(للأخطل) في (ماكسين) وغيره من تلك الأيام بين قيس وتغلب قصيدة مطلعها[2]:

ألا يا اسلمي يا هند هند بني بدر   وإن كان حيّانا عدًى آخر الدهرِ

وفي هذه القصيدة هجا قبائل قيس، ومنها (بنو العجلان)، فكان (ابن مقبل) من الذين ردوا عليه، بنقيضة منها[3][☆٣]:

١- خَفَرْتُ على قيسٍ فأدّى خَفارتي   فوارسُ منّا غيرُ مِيلٍ ولا عُسْرِ

(☆) الشافه: العطشان لا يجد ما يبل شفته. (انظر: ابن منظور: (شفه)).

(1) ذيل ديوانه: (٤/٤١٥) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٦٠/١٥٥).

(☆٢) الضمير في «رَدَّها» لعله عائد على ابنة الأخطل المذكورة في البيتين المستدركين. النبارس: الأسنة هاهنا جمع نبراس، مطروراً نواحيها: محددة. وقوله: «وهي خافضة»: «أي خافضة الرماح»: (تهذيب الأزهري: ١٣/١٥٥)، و(ابن منظور: (برس)).

(2) انظر: أبا تمام: النقائض: ٢٧-٣٨.

(3) ديوانه: (١٠٧، ١٠٩-١١٠، ١١٢/١-٤، ٨-٩، ١٣، ٢٣) = (ط. TÜREK: ٤١-٤٤/١-٤، ٨-٩، ١٣، ٢٣).

(☆٣) «خفرت على قيس فأدى خفارتي»: أي حميت رجلاً فلم تنقض قيس حمايتي ولم تتعرض له. (انظر: الزمخشري: الأساس: (خفر)). عُسْر: جمع أعسر، وهو الذي يعمل بشماله. والبيت (٢) في (البلاذري: ٥/٣١٨) مع بيت آخر، منسوبين (لعُبيد بن حُصين النميري الراعي)، مع اختلاف. ولم نهتد إلى (عمرو) المقصود في البيت (٣-٤)، وربما كان المقصود (عمير بن الحباب) المقتول بأيدي التغلبيين كما تقدم، إذا صح أن أصل اسمه (عمرو) فقيل: (عُمَيْر) على التصغير، وربما كان المقصود (عمرو بن سعيد بن العاص) الذي خرج على (مروان بن الحكم)، وغلب على دمشق فقتله مروان سنة (٦٩هـ) وقيل (٧٠هـ). (انظر: تاريخ الطبري: ٦/١٤٠ وما بعدها)، و(ابن الأثير: الكامل: ٣/٣٩٧ وما بعدها)، وقد تقدم خلاف قيس عيلان لمروان وآله، ومحاربتهم إياه (يوم مرج راهط). وجُبار: أي حرب جُبار، لا قود فيها ولا دية، ودم جُبار: هدر. (انظر: ابن منظور: (جبر)) وفي (الشمشاطي: ١/٣٥١): «فقِدُوا للمَلاكي». الحَوات: دويّ جناح العقاب إذا انقضّ على الصيد. (انظر. الجوهري: (حوت)). قرى الماء في الحوض: جمعه، (انظر: م.ن: (قرا))، مثّل بذلك لشرفه ومجده وثباته في الحرب. ابن ذا الرَّجل: كأنه يعني به الأخطل، وكان مقتضى النحو أن يقول: «يا ابن ذي الرَّجل». والحومة: معظم الشيء (انظر: م.ن: (حوم)). والغمر: الكثير الغامر. والوقر: الثقل في السمع. (انظر: م.ن: (وقر)). بنو عيلان: قيس عيلان، ومنهم (بنو =

٢- فنحن تركنا تغلبَ ابنةَ وائلٍ ... كمَضْروبةٍ رجلاه مُنْقَطِعِ الظهرِ
٣- إذا ما لقينا تغلبَ ابنةَ وائلٍ ... بكينا بأطراف الرماح على عمرو
٤- ستبكي على عمرو عيونٌ كثيرةٌ ... عَدَوْا لِجُبارٍ بالْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ
٥- فأخطلُ إنْ تسمعْ خَواتٍ توقَّني ... كما يتقي فرخُ الحُبارَى من الصَّقْرِ
٦- شهدتَ فلم تحفَظْ لقومكَ عَوْرَةً ... ولم تَدْرِ ما أمُّ البُغاثِ من النَّسْرِ
٧- قَرَتْ لي قيسٌ في حياضٍ مَسِيكةٍ ... وأنت شَقِيٌّ خان حوضكَ ما تَقْري
٨- بأيِّ رِشاءٍ يابْنَ ذا الرُّجْل ترتقي ... إذا غرقتْ عيناكَ في حَوْمَةٍ غَمْرِ
٩- بأيِّ قناةٍ تَرْفَعُون لواءكم ... إذا رفع الأقوامُ ألويةَ الفَخْرِ
١٠- [القدح]لمتْ قيسُ بن عيلان أنني ... غداةَ دعوني ما بسمعيَ من وَقْرِ
١١- أجبتُ بني عيلان، والخَوْضُ دونهم، ... بأَضْبَطَ جَهْمِ الوجه مختلفِ الشَّجْرِ
١٢- فقد آبَ أفراسُ الصُّمَيْلِ بن نَهْشَلٍ ... بنتكَ. فاطلب ما أصبنَ على الوِتْرِ

وله قصيدة ثالثة يهجو بها (الأخطل)، تدلّ على أنها في تلكم الأيام أيضاً، ومنها[1](☆):

أَأَخطلُ لِمْ ذكرتَ نساء قيسٍ ... فما رُوِّعْنَ منكَ ولا سُبينا
ونسوةُ عامرٍ وبني سُلَيْمٍ ... وأَغْصُرَ ما سُلِبْنَ ولا خُزِينا

= العجلان) رهط ابن مقبل. والخوض: خوض الحرب، فيما قاله (الأصمعي، وأبو عمرو) في هذا البيت، وقال (خالد ابن كلثوم): هو اسم بلد، (انظر: الحموي: البلدان: (خوض الثعلب))، والأول أرجح وأنسب. والأضبط: الذي يعمل بكلتا يديه. (انظر: الجوهري: (ضبط)). يصف فرسه. جهم الوجه: غليظه مكفهرّه، ويوصف بذلك الأسد. (انظر: الزمخشري: الأساس: (جهم)). والشجْر: ما بين أعالي اللحيين من الفرس. (انظر: ابن منظور: (شجر)). يقول إنه أجاب بني عيلان يوم القتال بفرس قوي مكفهر.

(1) ديوانه: (٣١٢-٣١٤/١، ٣-٤، ٦، ١٠، ١٢، ١٤-١٨) = (ط. TÜREK: ١٢٦-١٢٨/١، ٣-٤، ٦، ١٠، ١٢، ١٤-١٨).

(☆) عامر: عامر بن صعصعة (قوم الشاعر). وسُلَيْم: سُلَيْم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان. وأَغْصُر: اسمه مُنَبِّه بن سعد بن قيس عيلان. (انظر: كحّالة: ٢/٥٤٣، ١/٣٤-٣٥). سُلِبن: كذا في الديوان، وربما كان تصحيف «سُبِين». الأبضاع: فروج النساء، جمع بُضْع، والبُضْع: النكاح أيضا، عن (ابن السكيت)، (انظر: ابن منظور: (بضع))، والمعنى حموا نساءهم من الأعداء. رَدَوا: أي أسرعوا بخيولهم، فجعلوها ترجم الأرض بحوافرها في عَدْوها بالفرسان ذوي الدروع. و(انظر: م.ن: (ردي)).

حمى أبضاعَها الشُّمُّ الغَيارى ... رَدَوْا من دونها بالدّارعينا

وكأنه يردّ بهذا على قول الأخطل في (يوم الثرثار) وغيره من أيام (قيس وتغلب)[1]:

ألا، من مبلغٌ قيساً رسولاً ... فكيف وجدتُمُ طعمَ الشِّقاقِ؟!
أصبنا نسوةً منكم جهاراً ... بلا مَهْرٍ يعدُّ، ولا سياقِ

ثم يقول (ابن مقبل):

صَبَحْنا تغلبَ اللُّؤمِ السَّرايا ... تَمَطّى بالكُماةِ وتَنْطَوينا
كأن الخيلَ قد صَبَّحْنَ كَلْباً ... يَرَيْنَ وراءهم ما يبتغينا

فالشاعر هنا وفيما يلي من الأبيات يشير إلى المناوشات التي كانت بين (قيس) و(كلب)[☆] قبل (ماكسين)؛ وذلك أن (زُفَر بن الحارث)[☆٢] و(عمير ابن الحباب)[٢] كانا يشنّان الغارات على كلب واليمانية، طلباً بمن قُتل من قيس في (مرج راهط)، وكان القيسيون يستأوون جواري (تغلب)، ويسخرون مشايخهم من النصارى، فهاج ذلك بينهم شرّاً. ثم إن عميراً أغار على كلب، ثم رجع فنزل على (الخابور)، وكانت منازل تغلب بين الخابور والفرات ودجلة، واستمرت المنازعات حتى نشبت الحرب بين قيس وتغلب في ماكسين بالخابور، وما بعدها من المواقع[٣].

---

(١) ديوانه: ١/٧٩.

(☆) هم: كلب بن وبرة القضاعيون القحطانيون. (انظر: كحّالة: ٣/ ٩٩١-٩٩٢).

(☆٢) هو: أبو الهذيل زُفَر بن الحارث بن عبد عمرو بن معاذ بن يزيد بن عمرو بن الصَّعِق بن خُلَيد بن نُفَيل بن عمرو بن كِلاب الكلابي، كبير قيس في زمانه، وفي الطبقة الأولى من التابعين، شهد (صفِّين) مع معاوية، و(مرج راهط) مع الضَّحّاك فلمّا قُتل الضحاك تحصن بـ(قرقيسا) حتى مات نحو (٧٥هـ = ٦٩٥م). (انظر: البغدادي الخزانة: ٢/ ٣٧٢)، و(الزركلي: ٣/ ٤٥).

(٢) تقدمت ترجمته في أول هذا الموضوع (د - ٤).

(٣) انظر: ابن الأثير: الكامل: ٤/٣-٤.

ولو كُحِلَتْ حواجبُ خيلِ قيسٍ بِكَلْبٍ بعد تغلبَ ما قذينا
أثرنَ عَجاجةً في دَيرِ لُبَّى وفي الحَضْرَيْنِ شيَّبْنَ القُرونا(☆)

ويشير الشاعر هنا إلى (يوم المعارك)، وهو من أيام (قيس وتغلب) سنة (٧٠هـ)، قال (ابن الأثير)[1]: «والمعارك بين (الحضر) و(العتيق) من أرض الموصل، اجتمعت تغلب بهذا المكان فالتقوا هم وقيس فاقتتلوا به واشتد قتالهم فانهزمت تغلب... فيقال: إن يوم المعارك و(الحضر) واحد، هزموهم إلى الحضر، وقتلوا منهم بَشَراً كثيراً، وقال بعضهم: هما يومان لقيس والله أعلم. والتقوا (بِلُبَّى) فوق (تكريت) من أرض الموصل فتناصفوا، فقيس تقول: كان الفضل لنا، وتغلب تقول: كان الفضل لنا».

إذا وطئتْ سنابكُهن عبداً زهيرياً سمعتَ له أنينا

«زهيري»: من (بني زهير: من تغلب)[2]، ومنهم (مراد بن علقمة الزُّهيري)، الذي تولّى أمر بني تغلب بعد (ابن هوبر التغلبي) في (يوم الحَشّاك) بين قيس وتغلب[3].

لقد لاقتْ رحَى كلبٍ صباحاً رحَى لُقْمانَ تَلْتَهِمُ الطَّحينا(☆٢)

(☆) دير لِبّى: «دير قديم على دجلة، في الجانب الشرقي؛ وهو من منازل تغلب بالجزيرة»: (البكري: ما استعجم ٥٩٥)، وفي (الحموي: البلدان: (دير لبى)): «على جانب الفرات بالجانب الشرقي منها...»، وقد ساق البيت وما قبله بعد قوله: إن وقائع كانت هنالك بين تغلب و(بني شيبان). ولا نرى للأبيات علاقة بتلك الوقائع التي ذكر ولِبّى: (بضم اللام وكسرها)، ويروى: «لُبْنَى»: (بالنون). (انظر: م. ن). والحَضْرين: لعله يعني الحضر والعقيق حيث كان (يوم المعارك) بينهما، فثنّى تغليبا، قال (البكري: م. ن: ٤٥٣): الحَضْر: «حِصْن. قال (الهمداني): هو بجبال تكريت، بين دجلة والفرات، كان صاحبه مَلِكاً من العجم، يقال له: (الساطرون)»، وفي (تاريخ الطبري. ٢/٤٧): «بجبال تكريت بين دجلة والفرات مدينة يقال لها: الحَضْر». القرون: جمع القرن: «الذؤابة، وخص بعضهم به ذؤابة المرأة وضفيرتها»: (ابن منظور: (قرن)).

(١) الكامل: ٤/٥-٦.

(٢) انظر: أبا تمام: النقائض: ٤٤.

(٣) انظر: ابن الأثير: م. ن: ٤/٦-٧.

(☆٢) في البيت استعارة، حيث شبه الحرب بالرحى، والمقصود هنا رحى الحرب الدائرة بينهما.

قد يقصد بـ«لقمان»: (اللقامنة)، نسبة إلى (لقمان بن خليفة بن لطيف)، من (الأثبج)، من (بني هلال بن عامر بن صعصعة)[1].

شربنا من دماء بني حَبيب ... ولو لا البَأْوُ عنهم قد روينا

والظاهر أن «بني حبيب» هنا هم أحد الأحياء اليمنية[☆]، وسبق أنّ قيساً كانت تطلبهم بدماء من قتلوا منها في (مرج راهط).

بَقَرْنا منهمُ ألفي بعيرٍ ... فلم نتركْ لحاملة جَنينا

قال (ابن الأثير)[2] عن (يوم الثرثار الأول): «وبقروا [يعني التغلبيين] بطون ثلاثين امرأة من (بني سليم)»، ثم قال عن يوم (يوم البليخ): «وانهزمت تغلب وكثر القتل فيها وبُقرت بطون النساء كما فعلوا يوم الثرثار». وإلى هذا أشار الشاعر بقوله: «فلم نترك لحامله جنينا».

د - ٥ - ملامح وإشارات :

في شعره بعض الملامح والإشارات الإسلامية، التي قد تأتي صريحة الدلالة على العصر الإسلامي تارة، أو مومئة إلى ذلك تارة أخرى.

فمنها قوله[3]:

هم ملؤوا نجداً، ومنهم عساكرٌ ... تظل بها أرضُ الخليفة تَدْلَحُ[☆2]

---

(١) انظر: كحّالة: ٣/ ١٠١٤.

(☆) ومنهم: بنو حبيب بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، وبنو حبيب بن مالك بن مَيْدَعان بن مالك بن نصر بن الأزد، وبنو حبيب بن نهارة بن لَخْم بن عدي بن الحارث بن مُرة بن أُدَد بن مالك بن نهارة، وغيرهم. (انظر كحّالة: ١/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٢) الكامل: ٤/ ٤، ٦٠.

(٣) ديوانه: (٢٨/٥٤) = (ط. TÜREK: ٢٨/٢٢).

(☆٢) تدلح: من دَلَح، إذا مشى بحمله غير منبسط الخطو، لثقله عليه. (انظر: الجوهري: (دلح)).

ففي «العساكر بأرض الخليفة» ملمح إسلامي العصر واضح. ومنها قوله[1]:

كأنك لم تشهدْ قَنابلَ خيلنا إذ الدِّين هَرَجٌ قبل أن يَتَعَبَّدا

ففي قوله: «إذ الدِّين هرج . . .»، أي «مختلط»، إشارة إلى الجاهلية، تعني أن قوله هذا كان في الإسلام بعد أن تعبَّد الدِّين واستقام أمره ولم يعد هَرْجاً كما كان. ومثل ذلك قوله[2]:

هل عاشقٌ [نال] من دهماء حاجتَه في الجاهلية قبل الدِّين مَرْجُومُ

ومن ذلك قوله[3]:

فلستُ كما يقولُ القومُ إن لم تجامع داركم بدمشق داري

فهذا أشبه بأن يكون في العصر الإسلامي، وفي العهد الأموي تحديداً، إذ كانت عاصمة الخلافة في (دمشق)، وإذ ارتحل بعض العرب للإقامة بها، ومنهم «أظعان طَيْبَة» اللاتي قرّر الشاعر هاهنا اللحاق بهن إلى دمشق، وكان قد ذكر رحيلهنّ قبل هذا البيت، حيث قال[4]:

غَدَتْ أظعانُ طَيْبَةَ لم تُوَدِّعْ وخير وداعهنَّ على قَرارِ[☆]

ومثل ذلك قوله[5]:

---

(1) ديوانه: (٥/٥٧) = (ط. TÜREK: ٥/٢٣).
(2) م.ن: (٣/٢٦٧) = (ط. TÜREK: ٣/١٠٨).
(3) م.ن: (٢٣/١٥١) = (ط. TÜREK: ٢٢/٦٢).
(4) م.ن: (١٣/١٤٩) = (ط. TÜREK: ١٣/٦١).
(☆) طيبة: اسم امرأة. على قرار: القرار: المطمئن من الأرض، وهو مستقر الماء من الروضة، والقرار الاستقرار والسكون أيضا. والمعنى الأخير أرجح؛ لقوله: «لم تودّع». (انظر: ابن منظور: (قرر))
(5) ديوانه: (٨/٢٤٠) = (ط. TÜREK: ٧/٩٧).

أخو عَبَرَاتٍ سِيقَ للشام أهلُهُ ... فلا اليأسُ يسليه ولا الحُزْنُ قاتلُهْ

ومن الإشارات الإسلامية تسمية (يثرب) بـ(المدينة) في قوله[1]:

طرقتكَ زينبُ بعد ما طال الكَرَى ... دون (المدينة)، غير ذي أصحابِ[☆]

وقوله[2]:

دعاني كليبٌ (بالمدينة) دعوةً ... وأفناء قيس شاهدون وخِنْدِفُ

جزيتُ ابنَ أروَى (بالمدينة) قرضهُ ... وقلتُ لشُفَّاع (المدينة): أَوْجِفُوا

وقوله[3]:

ألا طَرَقَتْنا (بالمدينة) بعدما ... طَلَى الليلُ أذنابَ النِّجاد فأظلما[☆٢]

وكان (النبي ﷺ) قد كَرِهَ تسميتها بيثرب؛ لِما كان من لفظ «التثريب»، فقال: «تُسَمُّونها يثرب، ألا وهي طيبة»[٤]. و(المدينة): اسمها خاصة، غلبت عليها تفخيما[٥]، «وإذا قيل: المدينة غير مضافة ولا منسوبة، عُلِم أنها هي»[٦]. على أنها قد جاءت في القرآن الكريم بتسميتها: (يثرب) و(المدينة)، فقال تعالى: ﴿وإذ قالت طائفةٌ منهم: يا أهل يثرب لا مُقام لكم فارجعوا﴾[٧][☆٣]، وقال

---

(١) م.ن: (١/١) = (ط. TÜREK: ١/١).

(☆) طرقت: أي أتت ليلا.

(٢) ديوانه: (١٩٦-١٩٧/٣٤، ٣٩) = (ط. TÜREK: ٨١/٣٤، ٣٩).

(٣) م.ن: (١/٢٨٣) = (ط. TÜREK: ١/١١٤).

(☆٢) طلى الليل: أظلم، كأنه طلى الشخوص فغطّاها، فقوله: «طلى الليل أذناب النجاد»: أي غشّاها، كما يُطلى البعير بالقطران. (انظر: تهذيب الأزهري: ١٤/٢١). والنجاد: المرتفعات، جمع نَجْد. وأذنابها: أسافلها.

(٤) انظر: البكري: ما استعجم: ١٣٨٩.

(٥) انظر: ابن منظور: (مدن).

(٦) البكري: م.ن: ١٢٠١.

(٧) الأحزاب: ١٣.

(☆٣) قال في (تفسير أبي السعود: ٧/٩٤): «كأنهم ذكروها بتلك الاسم مخالفة له ﷺ».

أيضا: ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة﴾[1].

ومن هذه الإشارات إلىالعصر الإسلامي في شعره، ما يذكره في إحدى قصائده عن مرثية (لبيد بن ربيعة العامري -٤١هـ = ٦٦١م)[☆] لأخيه لأُمّه (أربد بن قيس)[☆٢]، إذ يقول[٢][☆٣]:

وإنّا وإياكم وموعدَ بيننا ... كمثل لبيدٍ يوم زايل أربدا
وحدَّثَهُ أنّ السبيل ثَنِيَّةٌ ... صعوداء تدعو كل كهل وأمردا
صعوداء، من تُلْمِعْ به اليوم يأتها ... ومن لا تَلَةً بالضَّحاء فأَورَدا

وقصة (أربد) يرويها (ابن هشام)[٣] مفصلة في (السيرة النبوية)، مع شعر لبيد في بكائه. وذلك أن أربد قدم مع (عامر بن الطفيل)[☆٤] على (رسول الله ﷺ) في وفد (بني عامر)، في السنة العاشرة للهجرة، وكان عامر يكنّ للرسول غدراً، فقال لأربد: «إذا قَدِمنا على الرجل، فإني سأشغل عنك وجهه، فإذا فعلتُ ذلك فاعْلُه بالسيف»، ولكن الله دفع كيدهما، فلمّا أبى الرسول التفاوض مع عامر وصاحبه مالم يُسْلما، قال عامر: «أما والله لأملأنّها عليك خيلاً ورجالاً»، فلمّا ولّيا دعا الرسول عليهما، فأصيب عامر بالطاعون في طريقه،

---

(١) التوبة: ١٠١.

(☆) الشاعر المشهور، أدرك فأسلم، عُمّر مئة وسبعاً وخمسين سنة، ويقال توفي في أول خلافة معاوية. له ترجمة في: (ابن قتيبة: الشعراء: ٢٧٤-٢٨٥)، و(البغدادي: الخزانة: ٢/٢٤٦-٢٥١)، و(الزركلي: ٥/٢٤٠)، وغيرها.

(☆٢) أربد بن قيس بن جزء بن خالد بن جعفر، وكان من رؤساء بني عامر. (انظر: ابن هشام: السيرة: ٢/٥٦٨).

(٢) ديوانه: (٦٤-٦٥/١٤-١٦) = (ط. TÜREK: ٢٦/١٤-١٦).

(☆٣) موعد بيننا: كذا في (ط. TÜREK)، وفي (ط. عزة حسن): «وموعدٌ بيننا»: مما يكسر الوزن ويبعد بالمعنى. تلمع به: تشير إليه.

(٣) انظر: ٢/٥٦٨-٥٧٣.

(☆٤) هو: عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري، ابن عم لبيد، أحد فتّاك العرب. كنيته (أبو علي) في السلم، و(أبو عقيل) في الحرب، ولقبه ملاعب الأسنة. (٧٠ق.هـ-١١هـ = ٥٥٤-٦٣٢م). (انظر: الجاحظ: البيان: ١/٣٤٢)، و(الثعالبي: ثمار القلوب: ١٠١-١٠٢)، و(البغدادي: الخزانة: ٣/ ٨٠-٨٢)، و(الزركلي: ٣/ ٢٥٢).

فمات، ثم لمّا قدم أربد أرض بني عامر «فقالوا: ما وراءك يا أربد؟، قال: لا شيء والله، لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن، فأرميه بالنبل حتى أقتله»، فما لبث أن أُرسِلَتْ عليه صاعقة أحرقته هو وجمله. فما فتئ (لبيد) يذكره ويبكيه في شعره(☆).

فهذا الحدث وهذا الرثاء في الإسلام، ومجيء ذلك في قصيدة (لابن مقبل) إشارة قاطعة إلى إسلاميتها.

هـ - الألفاظ والعبارات:

أسلوبه اللغوي يضم شذرات من الألفاظ والعبارات التي هي أقرب ما تكون إلى الثقافة الدينية التي جاء بها الإسلام. فمنها قوله[1]:

قتيلٌ سعيدٌ مؤمنٌ شقيتْ به　　　نفوسُ أعاديه، شهيدٌ مُطَيَّبُ
نعاءِ عُرَى الإسلام والعدل بعده　　　نعاءِ! لقد نابتْ على الناس نُوَّبُ
وأشمطَ من طول الجهاد استخفَّه　　　مع المُرْدِ حتى رأسُه اليوم أشيبُ
يدارسهم أمَّ الكتاب، ونفسه　　　تنازعه وُثقى الخِصال، ويَنْصَبُ

ومنها ما يرد في بيتيه المستشهد بهما قبل[2]:

تقول: تربَّحْ يغمر المال أهله،　　　كُبيشةُ، والتقوى إلى الله أربحُ.

(☆) من شعره فيه قوله:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالعُ　　　وتبقى الجبال بعدنا والمصانعُ
فلا جَزِعٌ إن فرق الدهر بيننا　　　وكل فتى يوماً به الدهر فاجعُ
وما الناس إلا كالديار وأهلها　　　بها يوم حلوها وغدوًا بلاقعُ
فلا تبعدن إن المنية موعدٌ　　　علينا، فدانٍ للطلوع وطالعُ

(ديوانه: ١٦٨-١٦٩، ١٧١). والظاهر أن (ابن مقبل) كان يرمي بكلامه إلى هذه القصيدة على وجه الخصوص

(١) ديوانه: (١٤، ١٧/١١-١٢، ٢٥-٢٦) = (ط. TÜREK: ٧-٨/١١-١٢، ٢٥-٢٦).

(٢) م.ن: (٢٣، ٢٥/٤، ١٠) = (ط. TÜREK: ١١/٤، ١٠).

وكلتاهما قد خُطَّ لي في صحيفتي ... فلَلْعيش أشهى لي، ولَلْموت أَرْوَحُ.

وقد يكون من ذلك قوله(١):

جزى الله سعداً بالأبارق نعمةً! ... وحَيّاً بهَبُودٍ جزى الله أسعدا!(☆)

وقوله(٢):

هل عاشقٌ [نال] من دهماء حاجته ... في الجاهلية قبل الدِّين مَرْجُومُ

ومن ذلك قوله(٣):

بني عامرٍ، ما تأمرون بشاعرٍ ... تخيَّرَ آيات الكتاب هجائيا(☆٢)

ومثله قوله(٤):

منهن معروف آيات الكتاب، وقد ... تعتاد تكذب ليلى ما تُمَنِّينا.

[حتى استبنتُ الهُدى، والبيد هاجِمة ... يخشعن في الآل غُلْفاً أو يُصلِّينا](☆٣).

[شُمٌّ مُخَصَّرةٍ، صِينَتْ مُنَعَّمَةً ... من كل داءٍ بإذن الله يَشفينا].

ويقول(٥):

---

(١) م.ن: (١/٧١) = (ط. TÜREK: ٢٩/١).

(☆) هبود: قيل: جبل في ديار (بني قفس)، وقيل: أُكيمة، وقيل: بئر، أو ماء مالح في (اليمامة)،وقيل في بلاد (تميم)، وقيل: في بلاد (نمير). (انظر: الهمداني: ٣٣٢)، و(الأصفهاني: الأغاني: ١٨/ ١١٤-١١٥)، و(البكري: ما استعجم: ١٣٤٥)، و(الحموي: البلدان: (هبود))، و(ابن خميس: اليمامة: ٢/ ٤٤٩-٤٥٠)، وقال: «ونحن لانعرف الآن عَلَماً باليمامة يحمل هذا الاسم والله أعلم».

(٢) م.ن: (٣/٢٦٧) = (ط. TÜREK: ٣/ ١٠٨). وعن رواية البيت راجع: المدخل: أولاً: ب - ١ - أسرته.

(٣) ذيل ديوانه: (٨/٤١٠) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٦١/١٦٦).

(☆٢) هذا على رواية من قال: «آياته» في هذا البيت كـ(الجاحظ: الحيوان: ٧/ ١١٢)، و(ابن رشيق: ٢/ ١٥٩-١٦٠).

(٤) ديوانه: (٢/٣١٥، ٢٢/٣٢٣، ٣٢/٣٢٥) = (ط. TÜREK: ٢/١٢٨، ٢٢/١٣٢، ٣٢/١٣٣).

(☆٣) الهدى: النهار. هاجمة: ساكنة. يخشعن: يركعن هاهنا. والآل: السراب، وقيل: هو ما تراه في أول النهار وآخره كأنه يرفع الشخوص، وليس هو السراب. (انظر: الجوهري، وابن منظور: (أول)). غلفا: معلقة بالآل. يصلِّين: يسجدن هاهنا. فشبه اضطراب الآكام والوهاد في الآل بحركات المصلِّي. (انظر: ابن منظور: (قمس)، و(هجم)، و(هدى)).

(٥) ذيل ديوانه: (١/٣٥٦) = (ط. TÜREK: لم يذكر).

وغيثٍ أسال اللهُ مُهجَةَ نَفْسِهِ   بوادٍ عَذاةٍ لا تَوارَى كواكبُهْ[☆]

وكذا يقول [١]:

لا لَيَّنَ اللهُ للمعروف حاضرَها   ولا يزلْ مُغْلِساً ما عاش باديها[☆٢]

و - متعلقات :

ويمكن أن تستنبط من هذا الشعر علامات أخرى تشير إلى الإسلاميّ منه :

فحنينه الملتهب إلى (دهماء)، وما ينطوي عليه من لواعج الفراق والنوى، قد يكون - غالباً - نتيجة لما قضى به الإسلام من الفراق بينهما، كما مضى القول. لا سيما إذا أتى هذا الحنين مشفوعاً بذكر أيام الشباب الماضية، وبالحديث عن تغيّر الزمان، مما يلازم معظم قصائده في الإسلام، هذا مع بعض بوارق توشك - أحياناً - أن تفضي صراحة بأسباب الحنين. حين يقول[٢][☆٣]:

١- دعتْنا بكهفٍ من كُنابَيْنِ دعوةً،   على عَجَلٍ، دهماء، والرَّكْبُ رائحُ

٢- فقلتُ وقد جاوزنَ بطنَ خُماصَةٍ:   جَرَتْ دون دهماء الظِّباءُ البَوارحُ

٣- وما ذِكْرُهُ دهماءَ، بعد مَزارها   بنجرانَ، إلا التُّرَّهاتُ الصَّحاصِحُ

(☆) العذاة: الأرض الطيبة التربة. والكواكب: النَّور هاهنا. (انظر: الجوهري: (عذا)، و(ككب)).

(١) ذيل ديوانه: (٢/٤١٤) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٦٠/١٥٤).

(☆٢) المغلس: الوارد ساعة الغَلَس.

(٢) ديوانه: (٤٠-٤٥/١-٢، ٤، ٧-١١، ١٣، ١٦-١٧) = (ط. TÜREK: ١٦-١٨/١-٢، ٤، ٧-١١، ١٣، ١٦ - ١٧).

(☆٣) كنابين: «قال (الأزدي): كناب: جبل، وبإزائه جبل آخر يقال له: (عُناب)، فجمعه إليه»: (الحموي: البلدان: (كنابيل)). وفي رواية: «كُنابيل»، قال (البكري: ما استعجم: ١١٣٥): «هو موضع في اليمن»، وذهب (الحموي: م.ن) إلى احتمال كونهما مكاناً واحداً. واستشهد به (ابن مالك: ١٢٥) على ما مسماه واحد ولفظه لفظ المثنى، فيحمل على المثنى. خماصة: واد بالركاء. (انظر: البكري: م.ن: ٥٠٩). وعجز البيت الثاني كناية عن تشاؤمه ويأسه من اللقاء، فالبوارح: جمع البارح: وهو ما مرّ من اليمين إلى اليسار من طير أو وحش، وهم يتطيرون به. (انظر: الجوهري: (برح)). الترهات: جمع ترّهة، وهي في الأصل الطريقة الصغيرة تتشعب عن الجادّة، فارسي معرّب، ثم استعير في الباطل، فقيل: الترهات البَسابِس، والترهات الصحاصح، أي الأباطيل التي لا أصل لها. ويقال للذي يأتي بالأباطيل: مُصَحْصِح. (انظر: الجوهري: (تره))، و(الزمخشري: الأساس، وابن منظور: (صحح)). وفي (ط. TÜREK): «الصحائح».

وفي هذا البيت الثالث إشارة إلى اليأس المطبق من اللقاء بعد فراقها المؤبّد.

ثم يقول(☆):

٤- إذا الناس قالوا: كيف أنتَ؟ وقد بدا	ضميرُ الذي بي، قلتُ للناس: صالحُ
٥- ليَرضَى صديقٌ، أو ليَبلُغَ كاشحاً	وما كل مَن سَلَّفْتَهُ الوُدَّ ناصحُ
٦- [إذا قـ]ـيل: مَن دهماءُ؟ خبرّتُ أنها	من الجنّ لم يقدحْ لها الزَّنْدَ قادحُ
٧- وكيف ولا نارٌ لدهماءَ أُوقدتْ	قريباً، ولا كلبٌ لدهماءَ نابحُ
٨- وإني ليَلْحاني على أنْ أُحبَّها	رجالٌ تُعَزِّيهمْ قلوبٌ صحائحُ
٩- أبَى الـ[ـهَجْرَ] من دهماءَ والصَّرْم أنني	مُجِدٌّ بدهماءَ الحديثَ ومازحُ
١٠- ولستُ بناسٍ قولَها إذْ لقيتُها:	أَجِدِّي نَبَتْ عنكَ الخُطُوبُ الجوارحُ؟!
١١- نبا ما نبا عَنِّي من الدهر ماجداً	أُكارِمُ من آخيتُهُ وأُسامِحُ

فهذا الأنين الأليم، وهذا الشوق الحرّاق، والقنوط المستبدّ، المنبعث من كلمات هذه الأبيات، يدلّ على أن هذا الشعر قيل في الإسلام. ويعزّز هذا اتقاؤه العاذل واللاحي، وتضليله السائل بإخباره أن المقصودة من الجِنّ. وما كان ليُلحى على شيء من هذا قبل الإسلام، بل ما كان ليتصوّر وَجْداً بامرأة هي تحته إذ ذاك، وإنما ذلك كله قد نشأ بعد الإسلام(١).

ولهذا ما كان ليصرّح باسمها في الإسلام إلّا لماماً، وإنما كان يكني عنها بـ«أم فلان»(٢)(☆٢):

(☆) البيت (٦) كناية عن بعد (دهماء) وخفائها عن عينه، حتى كأنها من الجن لا يُرون ولا تُرى أشباؤهم، وفي إجابته هذه تضليل للسائل أيضاً، وكان هذا دأبه في الإسلام، اتقاء لوم اللائمين، وسيأتي تصريحه بهذا المسلك بعد قليل يلحاني: يلومني. والصرم: القطيعة. أجِدّي: أجِداً وحقّاً؟.

(١) وهذا الحنين يظهر في قصائد كثيرة من ديوانه مثل: (٦، ٨، ١٨، ٢٤، ٣٠، ٣٩، ٤٢).

(٢) ديوانه: (٣٤٤/٢٥-٢٦) = (ط. TÜREK: للملحق: ١٥٦/١٣٢-١٣٣).

(☆٢) في (ابن هشام: شذور الذهب: ٣٧٤): «تُكنّى».

[لقد طال عن دهماءَ لَدِّي وعِذْرَتي ... وكِتْمانُها أَكْنِي بأُمِّ فُلانِ]
[جَعلتُ لجُهّال الرجال مَخاضةً ... ولو شئتُ قد بيّنتُها بلساني]

وهذا يحمل على قراءة كُنَى النساء في شعره على أنه إنّما رَمَزَ بمعظمها - إنْ لم يكن بأجمعها - لحبيبته دهماء، نموذج عشقه المستحيل.

ويقول[1]:

هل القلبُ عن دهماءَ سالٍ فمُسْمِحُ ... وتاركه منها الخَيالُ المُبَرِّحُ
وزاجرُه اليومَ المشيبُ، فقد بدا ... برأسيَ شيبُ الكَبْرَةِ المُتَوَضِّحُ
لقد طال ما أخفيتُ حُبّكِ في الحَشا ... وفي القلبِ، حتى كاد بالقلبِ يَجْرَحُ
قديماً، ولم يَعْلَمْ بذلك عالمٌ ... وإنْ كان موثوقاً يَوَدُّ ويَنصحُ

فيمزج الحنين إلى (دهماء) بالحنين إلى الشباب وبكاء الماضي.

ومن بكاء الشباب والماضي قوله أيضاً[2]:

فأمسيتُ شيخاً لا جميماً صَبابتي ... ولانازعاً من كل ما رابني يدا

وقوله[3](☆):

١- أَجِدِّي [أرى] هذا الزمانَ تَغَيَّرا ... وبطنَ الرُّكاءِ من مَوالِيَّ أَقْفَرا
٢- وكائنْ تَرَى من مَنهلٍ بادَ أهلُهُ ... وعِيْدَ على معروفه، فَتَنَكَّرا
٣- أتاه قطا الأجبابِ من كل جانبٍ ... فنَقَّرَ في أعطانه، ثم طَيَّرا
٤- وأصبحتُ شيخاً أَقصرَ اليومَ باطلي ... وأَدَّيْتُ رَيْعانَ الصِّبا المُتَعَوَّرا

---

(١) ديوانه: (٤٨/١-٤) = (ط. TÜREK: ١٩/١-٤).
(٢) م.ن: (٦٥/١٧) = (ط. TÜREK: ٢٦/١٧).
(٣) م.ن: (١٣٢-١٣٣، ١٤١/١١-١٣، ١٥-١٦، ٤٩) = (ط. TÜREK: ٥٣، ٥٧/١١-١٣، ١٥-١٦، ٤٩).
(☆) أقصر: كفّ. والصِّبا: الفتاء والشباب. وريعانه: أوله. والمتعوَّر: المستعار. (انظر: الزمخشري. الفائق. ٣/ ٤٠)

٥- وقَدَّمْتُ قُدَّامي العصا أهتدي بها وأصبحَ كَرِّي للصَّبابة أَعْسَرا
٦- ومالِيَ لا أبكي الديارَ وأهلَها وقد حَلَّها رُوَّادُ عَكٍّ وحِمْيَرا

وقد مرّ أن الشاعر أجاب بهذا الشعر من أنكر عليه بكاء الجاهلية وهو مسلم[1].

فهذه الأمثلة ونحوها مما فيها تلهّف على (دهماء)، أو بكاء على الماضي، أو حنين إلى سالف الشباب وتبرّم بالشيخوخة، هي من علامات شعره في الإسلام؛ حيث فارق زوجه، وطعن به العمر، وأخذ يحسّ بتغيّر الزمان وأهله، وفقدان التكيّف مع معطيات العصر[2].

□ □ □

(١) راجع المدخل: أولاً: ب - ٣.
(٢) وأمثلة ذلك تظهر في القصائد: (١٨، ٢٨، ٣٠) أيضا.

القصائد الإسلامية

وبعد فلعله قد تبين من العرض السابق أن الإسلام في شعر (ابن مقبل) ينشطر إلى شطرين:

الأول - يمثّل أثر الفكر الإسلامي نفسه، ومعطيات هذا الدين الجديد اللفظية والمعنوية.

والثاني - يمثّل أثر العصر الإسلامي، من حيث أحداثه التاريخية والاجتماعية العامة، وأحداثه الخاصة بحياة الشاعر ونفسيته.

وبهذا يتضح أن (الإسلام في شعره) لا يعني آثار الدين الإسلامي فحسب، بل يعني أيضاً آثار العصر الإسلامي العامة والخاصة. وكلا هذين الصنفين من الآثار يرسم أمام المستقرئ خارطة علامات وإشارات يسترشد بها لتمييز القصائد التي تمكن نسبتها إلى العصر الإسلامي، حتى وإن لم يك ذلك إلا على سبيل الترجيح.

على أنه يحسن التنبيه هنا إلى أن هذه القصائد التي تعود للعصر الإسلامي، لاتكاد تخلو من شائبة جاهلية أو أكثر.

واستناداً على تلك الدلائل الإسلاميّة والملامح، التي مضى رصدها في شعره، فإن شعر العصر الإسلامي هو[☆]:

من القصيدة: (٣) إلى: (٨)، ثم (١٠)، و(١٣)، و(١٧)، و(٢٥)،

(☆) الأرقام هاهنا أرقام القصائد في الديوان وذيله (ط. عزة حسن) فقط. وفي ملحق (ط. TÜREK)، والمستدرك، المجموع في آخر هذه الدراسة، بعض الأمثلة الأخرى المذكورة في أماكنها من هذا الفصل، ويلاحظ أن الرقم قد يكون لمقطوعة، أو لبيت واحد يتيم، أو لجزء من بيت.

و(٣٥)، ومن (٣٩) إلى: (٤٢). وفي ذيل ديوانه: القصيدة: (٥٨). والمجموع: (١٦) قصيدة.

أمّا ما يرجح انتماؤه للعصر الإسلامي فهو:

القصيدة: (١)، و(٩)، و(١٨)، و(١٩)، و(٢٤)، و(٢٦)، و(٢٧)، و(٣٢)، و(٣٧)، و(٣٨). وفي ذيل الديوان: القصيدة: (٨)، و(١١)، و(١٢)، و(٢١)، و(٢٧)، و(٥٠)، و(٥١)، و(٥٧). والمجموع: (١٨) قصيدة.

غير أن هنالك قصائد ومقطوعات يتعذّر تحديد العصر الذي قيلت فيه؛ لخلوّها من دلائل بيّنه يعتمد عليها في ذلك، وهي:

القصيدة: (٢)، و(١٢)، و(٢١)، و(٢٨)، و(٣٠)، و(٣١)،و(٣٤)، و(٣٦). وفي ذيل ديوانه: (١)، و(٣)، و(٤)، و(٦)، و(٧)، و(٩)، و(١٠)، ومن (١٣) إلى: (١٨)، و(٢٠)، ومن (٢٢) إلى: (٢٦)، ومن (٢٨) إلى: (٣٢)، ومن (٣٤) إلى (٣٧)، ومن (٣٩) إلى (٤٩)، ومن (٥٢) إلى: (٥٦). والمجموع: (٥٢) قصيدة.

وما عدا هذا من شعره فأغلب الظن أن معظمه - إن لم يكن كله - من شعر العصر الجاهلي[☆]. وهو: عشر قصائد، وثلاث مقطوعات، وبيت مفرد: (١١)، و(١٤) إلى: (١٦)، و(٢٠)، و(٢٢)، و(٢٣)، و(٢٩)، و(٣٣)، وفي ذيل ديوانه: (٢)، و(٥)، و(١٩)، و(٣٣)، و(٣٨).

(☆) على مدى الفصلين السالفين: (الجاهلية في شعره)، و(الإسلام في شعره)، تمّ استعراض مظاهر الجاهلية والإسلام في شعره بصفة عامة، وهاهنا خلاصة لتصنيف القصائد إلى جاهلي وإسلامي، دون إعادة الوقوف على مظاهر ذلك في كل قصيدة على حدة.

والمجموع: (١٤) نصًا.

وهذا الإحصاء يُظهر أن نسبة الشعر الجاهلي أقلّ من الإسلامي. بيد أن هذه النسبة ليست إلا ما يمكن إلحاقه بالعصر الجاهلي من الشعر الذي في ديوانه، وقد تُعزى هذه القلة إلى ضياع بعضه ككثير غيره من الشعر الجاهلي بعامة. هذا مع العلم بأن حياة الشاعر في الإسلام كانت أطول من حياته قبل الإسلام[1]، وهي تبدو بَعْدُ أغنى بدوافع الشعر من ذي قبل؛ لما أحاط بالشاعر فيها من أحداث وصروف خاصة وعامة. على أن شعره الجاهلي - من حيث النوع لا من حيث العصر - يظهر في شعره المنتسب للعصر الإسلامي أيضا، بل قد سبق - في أول هذا الإحصاء - التنويه إلى أنها لا تكاد تخلو قصيدة للشاعر من أثر جاهلي أو أكثر. وذلك يعني أن الأثر الجاهلي هو المسيطر بطابعه على شعره كله، وأن القصائد الإسلامية قد لا توصف بالإسلامية - في معظمها - إلا من حيث العصر فقط، وهذا يعكس بالمرآة الصادقة واقع حياة ابن مقبل وطبيعتها الذاتية والمجتمعية في الإسلام؛ إذ بقي - على الغالب - أعرابياً مع القارّين في البادية من الأعراب، يعيش الحياة التي ألفها منذ صباه، بل إن فترة شبابه التي أنفقها قبل الإسلام تبدو كفيلة وحدها ببقاء التأثير الجاهلي جلياً عليه وعلى شعره، وإن لم يبق على استقراره خارج الحاضرة في الإسلام.

□□□□□

(١) راجع المدخل: أولاً: ب - ٤.

الباب الثاني

شعر (ابن مقبل): البيئة

أولاً - الطبيعة

وتشمل أربعة فصول

الفصل الأول

التضاريس

التضاريس

كثيرة معالم التضاريس في شعر (ابن مقبل)، كثرتها في الشعر القديم بعامة، ولعل أوضح الأسباب لهذا ما تتصف به حياة البادية من القلق وكثرة الترحال طلباً للكلأ والماء، بحيث يصبح (المكان) هو المسألة الملحّة في حياة البدو على الدوام. مع أن بعض الباحثين حاولوا تعمّق دلالة هذه الظاهرة، فرأوا أنها انعكاس لنوع من الانتماء و«سلطان اللاشعور الجمعي» عند العرب[1]، أي أنّ كثرة الأماكن في هذا الشعر لا تعبرّ عن تجارب الشاعر الشخصية فيها فحسب، بل تعبرّ أيضاً عن عمق علاقته بها وانتمائه إليها، إن لم يكن واقعياً فشعوريّاً أو حتى لا شعوريّاً. وتكرار هذه الظاهرة عند الشعراء القدماء يعني اشتراك المشاعر واتحادها في هذا الإحساس، بحيث تستحيل هذه الظاهرة رمزاً للاحتواء العربي للوطن.

ويؤيد هذا الرأي ما يلاحظ من المسافات الشاسعة التي تفصل الأمكنة عن بعضها في جغرافية الجزيرة العربية، بالرغم من تتابعها في نسق واحد من شعر الشاعر في بعض الأبيات، حتى إنه ليبدو من الصعب تصوّر إلمامه بجميع تلك الأماكن واقعاً، ما لم تكن حياته رحلة مستمرة دون قرار، وما لم تكن الجزيرة سهلة المسالك آمنتها، وما لم تكن هناك حريّة في التنقل بين الأحياء العربية إذ ذاك، وما لم تكن وسائل النقل متاحة إلى الحدّ الذي يسهّل عليه القيام بجميع تلك الرحلات. فإذا فكّرنا في كل هذه الشروط كان لا بد من الحدّ من هذا التصوّر الواقعي لمعنى المكان في شعر الشاعر، بحيث يمكن القول: إن الشاعر

(١) انظر: ناصف: قراءة ثانية لشعرنا القديم: ٥٥ وما بعدها.

قد يتغنّى في بعض شعره بمواطن سمع بها ولم يشهدها قطّ، وربما صوّر مواقف في تلك المواطن وتجارب لم يعشها إلا في عالم الخيال، وقد يأتي بشيء من ذلك - مما اختزنته الذاكرة الجماعية - لاستكمال قافية أو تفعيلة بيت(☆).

وإضافة إلى ما في هذا التصوّر من مسوغات منطقية، تنسجم مع طبيعة الشعر أصلاً، من حيث هو فنّ لا جغرافيا، وما في ذلك من عرفان بالخيال العربي القديم - الذي كادت تُعَطّل ملكاته، جرّاء التفسيرات المبتسرة - فإنّ فيه تأكيداً على ما تَقَدّم من الانتماء العربي الفردي والجماعيّ إلى الجزيرة العربية بشتى أصقاعها.

هذه الفرضيات العامة حسن الاستئناس بها هنا قبل التفصيلات عن التضاريس في شعر (ابن مقبل)؛ لأن الظاهرة ليست فردية ولكنها جماعية عند الشعراء قديماً؛ وفهمها عند (الشاعر) لا يتأتّى إلا بهدي من فهم الظاهرة الكلية، وهذا الفهم يظل حبيس التقليد الأعمى ما لم يُحاول التفكير والتفسير من جديد.

وقد كفانا محققا ديوان ابن مقبل مهمة حصر الأماكن في شعره، حيث ألحق كلٌّ منهما فهرساً بأسمائها. وسبق أن استخلصنا منها ديار بني العجلان، في المدخل من هذه الدراسة. وهنا محاولة أخرى لدراسة التضاريس ومناحي توظيفها في شعره، واستنباط بعض دلالات ذلك ورموزه.

(☆) ومن أمثلة ذلك عند الشعراء - وإن كان متأخراً - ما نقله (الأصفهاني: الأغاني: ١٨/ ١١٤-١١٥) عن (ابن المُناذر - ١٩٨هـ = ٨١٣م)، قال: «قلت: «يقدح الدهر في شماريخ رضوى» ثم مكثتُ حولاً لا أدري بمَ أتممه، فسمعت قائلاً يقول: هَبُّود، قلت: وما هَبُّود؟، فقال لي: جُبيل في بلادنا، فقلت: «ويحطّ الصخور من هَبُّودِ» . وسمع أعرابي هذا البيت، فقال: ما أجهل قائله بهبّود، والله إنها لأُكَيْمَة ما تواري الخارئ، فكيف يحط منها الصخور؟!»، وعن (أبي مالك عمرو بن كركرة) أنه قال سمعته ينشد ذلك البيت فقلت له: «هبّود أيّ شيء هو؟، فقال. جبل، فقلت: سَخِنَتْ عينك، هبّود والله بئر باليمامة، وماؤها ملح لا يَشْرَبُ منه شيء خلقه الله، وقد والله خريت فيها مرّات»، ثم ذكر أنه سمعه ينشده مرة أخرى، ويقول «عَبّود»، قال: فلمّا سألته عنه قال: «جبل بالشام، فلعلك يا ابن الزانية خريت عليه أيضاً، فضحكت ثم قلت: لا ، ما خريت عليه ولا رأيته».

أ - الجبال :

الجزيرة العربية كثيرة الجبال. وإذا كانت سلسلة السراة؛ الممتدة من اليمن جنوباً إلى أطراف بادية الشام شمالاً، المسمّاة بـ(الحجاز) تعدّ أعلى وأعظم جبال الجزيرة، فإن هناك سلاسل وجبالاً أخرى في شتى أنحاء الجزيرة، اشتهر كثير منها عبر الشعر العربي أو غيره: كأُحد، وثهلان، والتوباد، ورضوى، وحضن، والنسار، ويذبل.

وورود الجبال في شعر (ابن مقبل) يأتي على نحوين: تسجيليّ - لا يعدو ذكر استفادة العرب الطبيعية من الجبال - وآخر توظيفيّ فنّي، فيه يصبح الجبل معادلاً دلاليّاً لبعض القيم النفسية. فمن الأول ما يذكره عمّا كان من استفادات العرب من تلك الجبال باتخاذها مراقب لمعرفة تحرّكات الأعداء، ومآوي للتحصّن أو الترصّد في الحرب، كما في قوله[1]:

صَخِبٌ كأنّ دعاة عبدِ منافةٍ ... في رأسه عَقِبَ الصباح الجافِلِ[☆]

أو يقول[2]:

كأنه ناشِدٌ نادى لموعِدِهِ ... عبدَ منافٍ إذا اشتَدّ الحيازيمُ[☆2]

ويتحدث عن جماعات الخيل والفرسان التي تأوي ثنيات الجبال، فيقول[3]:

---

(١) ديوانه: (٢٧/٢٢٤) = (ط. TÜREK: ٢٧/٩١).

(☆) البيت في وصف حمار وحش. صخب: صفة حلق الحمار الموصوف في البيت الذي قبله، وهو هناك مجرور، و«صخب» في (ط. عزة حسن): يرفع الآخر. وعبد المنافة: المكلّف بإنذار القوم بقدوم الأعداء، ويكون في مرقب منيف على جبل في العادة.

(٢) ديوانه: (٤٤/٢٧٩) = (ط. TÜREK: ٤٤/١١٣).

(☆٢) البيت في وصف فرس شبهه بمن ينادي عبداً في مرقبة. اشتد الحيازيم: كناية عن الجدّ في الأمر، والحيازيم: جمع حيزوم، وهو الصدر.

(٣) ديوانه: (٢/١٢) = (ط. TÜREK: ٢/٦).

فعُسفانُ إلا أنّ كُلّ ثَنِيّةٍ بعُسْفان يأويها مع الليل مِقْنَبُ

وكثيراً ما قامت الحروب حول الجبال؛ لأن الجبل يتيح للمحارب بعض المناورات والخدع، وفيه منجًى للمنهزم، فيقول[1]:

ومأخذَها الكِنْدِيَّ بين لَهازِمِ الـ ـعَدُوّ وعَنْزاً بين لَوْذٍ وأَسْوَدا[☆]

وكما جاء الجبل في صور (الحرب) جاء في صور (الحُبّ). فقد يُتخذ ملاذاً وستراً للعشّاق يأوون إلى كهوفه، على نحو ما يذكر الشاعر عن حبيبته دهماء[2]:

دَعَتْنا بكَهفٍ من كُنابَيْن دعوةً، على عَجَلٍ، دهماءُ، والرَّكْبُ رائحُ

بل قد تتخذ الجبال للسكنى، وقد مرّ (في ديار بني العجلان – المدخل) أن من جبال بني العجلان (بدوة)، وذكر (ابن مقبل) أن ديارهم كانت بها، حيث قال[3]:

ألا [يا] لقومي [للدّيـ]ـار ببَدْوَةٍ وأنّى مِراحُ المَرْءِ، والشَّيْبُ شامِلُهْ

ويحلّون جبلي (جُنَاح) أو (مُحَجّر)[4]:

ويَقْدُمُنا سُلّافُ حَيٍّ أَعِزّةٍ تَحُلُّ جَناحاً أو تَحُلُّ مُحَجِّـ[ـرا][☆٢]

وكانت دار صاحبته (كبشة) بجَنوب (ذي خُشُب)[5]:

(١) ديوانه: (٦/٥٧) = (ط. TÜREK: ٦/٢٣).
(☆) لوذ: ماء. وأسود: جبل.
(٢) ديوانه: (١/٤٠) = (ط. TÜREK: ١/١٦).
(٣) م.ن: (٥/٢٣٩) = (ط. TÜREK: ٤/٩٧).
(٤) م.ن: (٤١/١٣٩) = (ط. TÜREK: ٤١/٥٦).
(☆٢) يقدمنا: يتقدمنا. سلاف: جماعة متقدمون أمام القوم، مفردهم: سالف. وجناح: جبل في أرض بني العجلان ومحجّر: جبل. (انظر: البكري: ما استعجم: ١١٨٨-١١٨٩).
(٥) ديوانه: (١/١٢٣) = (ط. TÜREK: ١/٤٩).

يـا دارَ كَـبْـشَـةَ تـلـك لم تَـتَـغَـيَّرِ
بجُنُوب ذي خُشُبٍ فحَزْمِ عَصَنْصَرِ(☆)(1)

ويتخذونها منتجعات تجمعهم في الربيع طلباً للماء والمرعى(2):

حَيٌّ مَحاضِرهم شَتّى، ويجمعهم   دَوْمُ الإيادِ وفاثُورٌ إذا انتجعوا(☆2)

والجبال من مصادر الأخشاب والعيدان الجيّدة عندهم: كالشّوحط، والنّشَم، والنّبع، والشّرْيان، والتّألَب، وغيرها، يصنعون منها: القِسِيّ، والرّماح، والسّهام، والقِدَاح، ونحوها. يقول - واصفاً قِدْح ميسر -(3):

من فَرْع شَوحطة بضاحي هَضبةٍ   لَقِحَتْ بها لَقْحاً خِلافَ حِيالِ(☆3)

ويقول - في وصف أَتان -(4):

(☆) جنوب: جمع جَنْب، أي ناحية وسفح. ذو خُشُب: (بضم الخاء) عن: (البكري: ما استعجم: 499)، و(الزمخشري: الأمكنة: 99)، و(الحموي: البلدان: (عصنصر))، وهو جبل. (انظر: الزمخشري: م.ن)، ويذكر (ابن جنيدل: 1/37-39) أن هنالك موضعاً يسمى (أبا الجِرْفان): وهو واد كبير، له روافد كثيرة، يقع في منطقة العِرْض الغربية، غربَ وادي السرداح، وفي أعلى أبي الجرفان جبل أسود يسمى (مَدَقّة) حالياً، ولعل اسم (ذي خُشُب) كان يعم أبا الجرفان وجبل مدقّة، إلّا أنه أصبح اسماً لربع في أعلى الوادي يقال له: (الخشبي)، غرب مدقّة وشرق جنوب (طَحَيّ). وهذه المواضع واقعة اليوم في البلاد التابعة لإمارة (الرياض) عن طريق إمارة (القويعية)، وسكانها من السُّهول ومن (العُصَمَة) من عتيبة، ومن قحطان. والحزم: ما غلظ من الأرض. وعصنصر. جبل، عن (الأزدي). (انظر: الحموي: م.ن).

(1) وانظر دار كبشة أيضاً في جبال: (حِبِرّ)، و(واهب)، و(هَضْب القَليب)، و(سُواج): ديوانه: (22-23/1-3) = (ط. TÜREK: 10-11/1-3).

(2) ديوانه: (4/168) = (ط. TÜREK: 4/69).

(☆2) محاضر القوم: مكان اجتماعهم على المياه في القيظ، ويقال للمناهل محاضر: للاجتماع والحضور عليها. (انظر: ابن منظور: (حضر)). دوم الإياد: موضع. وفاثور: جبل بالسماوة. (انظر: البكري: ما استعجم: 563، 1012)، و(الحموي: البلدان: (دوم الإياد)، (فاثور))، وفيه أن فاثوراً «اسم موضع أو واد بنجد». انتجعوا: من النُّجعة وهي طلب الكلأ ومساقط الغيث في الربيع. (انظر: ابن منظور: (نجع)).

(3) ديوانه: (34/264) = (ط. TÜREK: 34/107).

(☆3) الشوحط: من أشجار الجبال. ضاحي هضبة: أي بمكان مرتفع منها. الحيال: جمع حائل، وهي الناقة التي لم تحمل؛ جعل الهضبة كالناقة.

(4) ديوانه: (11/161) = (ط. TÜREK: 11/66).

يُقَلِّب سَمْحَجاً قَبَاء تُضْحي ... كقوس الشَّوحط العُطُل الصَّنيعِ(☆)

ويصف المشقّة التي كلّفها جلب أحد قداح النبع من الجبال، وما حال دونه من الوعورة والمهالك، فيقول[1](☆٢):

تُخُيِّرَ نَبعَ العَيكتين، ودونه ... مَتالفُ هَضْبٍ تحبس الطير أوعَرا

فما زال حتى ناله مُتَغَلْغِلٌ ... تَخَيَّرَ من أمثاله ما تَخَيَّرَا

فشذَّبَ عنه النَّبعَ، ثم غدا به ... مُجَلًّى، من اللائي يُفَدَّين، مِطْحَرا

ويقول عن سهام الحرب[2]:

وموتٍ كظِلِّ الليل يَشهد وِرْدَهُ ... نشاشيبُ يَحدوهنَّ نَبعٌ وتَألَبُ

وفي وصف قانص ذي قوس من (الشِّرْيان)[3]:

خَفِيِّ الشَّخصِ، يَغْمِزُ عَجْسَ فَرعٍ ... منَ الشِّرْيان مِرْزام سَجُوعِ(☆٣)

وفي الجبال معاقل الوعول المعصمات، حتى لقد سمّوا المواضع المنيعة منها بالوعول[4]:

(☆) يقلّب: أي يسوق، والضمير لحمار وحش. سمحج: أتان طويلة الظهر. قباء: خميصة البطن. و(انظر: ابن منظور: (سمحج)، و(قبب)). عطل: لا وتر عليها. والصنيع: المصنوع. شبّه الأتان بقوس الشوحط الموصوفة.

(١) ديوانه: (١٣٤-١٣٥/١٩-٢١) = (ط. TÜREK: ٥٤/١٩-٢١).

(☆٢) العيكتان: تثنية عيكة، جبلان. (انظر: البكري: ما استعجم: ٩٨٥)، و(الحموي. البلدان: (عيكتان)). متالف: مهالك لوعورتها. والهضب: الجبال. أوعر: وعر. من اللائي يفدّين: أي أنه من القداح التي تفدّى عند فوزها. مطحر: «إذا كان يسرع خروجه فائزاً»: (ابن منظور: (طحر)).

(٢) ديوانه: (١٦/٢٢) = (ط. TÜREK: ٨/٢٢).

(٣) م.ن: (١٦٣/٢١) = (ط. TÜREK: ٦٧/٢١).

(☆٣) خفي الشخص: يعني القانص. يغمز: يجسّ. عجس: مقبض. فرع من الشِّرْيان: أي قوس مصنوع منه، والشِّرْيان: شجر جبلي تصنع منه القسي. مرزام: له حنين. سجوع: يصوّت عند الرمي.

(٤) ديوانه: (٢٩٧/٣٤) = (ط. TÜREK: ١٢٠/٣٤).

مَرابعه الخَمْر من صاحةٍ ومُصطافه في الوعول الحُزُن(☆)

وذلك يجعل لهم من الجبال مصدراً للصيد.

أما النحو التوظيفي لورود الجبال في شعر (ابن مقبل)، فمنه ما يرد كثيراً في معرض الحديث عن الأحوال الجوية، حيث يصوّر الصراع بين السيل والجبل، وتحدّيه الجبلَ، بما يمثّله من شموخ وأنفة(١):

أَمِنْ رَسْم دارٍ بالجَنَاح عرفتَها إذا رامها سَيلُ الحَوالبِ عَرَّدا

وصراع الجبل والسيل هنا لا يمثل صورة بيئية فحسب، بل أيضاً معنى ورمزاً للصراع والعلوّ والتحدي في الحياة؛ ذلك لأن الجبل عند العربي القديم نموذج لمعاني القوة والثبات، التي يتطلّع إليها بإعجاب عظيم كما سيتبين لاحقا.

ومع هذا الرسوخ الذي يراه في الجبل، فإن الجبل لا يستطيع الوقوف - دائما - في وجه قوى الطبيعة. وفي هذا مؤكد ضمني على الإيمان بقوة خفية لايقف في وجهها عظيم، يوحي برمزها حطُّ السحاب للمُعْصِمات من قنن الشعاف العالية، بالرغم من امتناعها، ومفهوم العِصْمة التي تمثّلها عند العرب - كما يظهر من شعرهم - فيقول مثلاً(٢)(☆٢):

(☆) الخُمُر: جمع خَمَر، ما واراك من شجر أو جبال أو نحوها. (انظر: ابن منظور: (خمر))، أو هو اسم مكان. (انظر: عزة حسن). صاحة: جبل أحمر بين الرُّكاء والدَّخُول، وقال (أبو زياد الكلبي): صاحة هضبتان عظيمتان، وهي من عماية. (انظر: البكري: ما استعجم: ٨٢٠)، وذكر (ابن جنيدل: ٢/ ٨٢٧-٨٣١) أن الدخول غرب عنها بعيدة، وأنها في جبال (السَّوادة)، في ضفة (الركا) الجنوبية، وهي في بلاد (قحطان) تلتقي ببلاد الدواسر في هذا العهد. الوعول: جمع وَعْلة، الموضع المنيع من الجبل. (انظر: ابن منظور: (وعل)). الحُزُن: جمع حَزْن: وهو الغليظ الخشن من الأرض.

(١) ديوانه: (١/٥٦) = (ط. TÜREK: ١/٢٢).

(٢) م.ن: (١٣٠-١٣١/٤-٧) = (ط. TÜREK: ٥٢/٤-٧).

(☆٢) طِبّق: عمّ. لوذان: موضع. (انظر: البكري: ما استعجم: ١١٦٥)، وهنالك: خشم جبل في ناحية جبل (العلم) الغربية الشمالية، وفيه رسٌ لاثذ فيه يسمى: «لوذان»، للشيابين، تابع لإمارة (الخاصرة). ومنهل مُرّ، في غربي (شهبا خنوقة)، شمال وادي خنوقة، تابع لإمارة (الدوادمي). (انظر: ابن جنيدل: ٣/١١٢٩)، وفي (ابن ميمون =

وطَبَّقَ لَوْذانَ القَبائل بعدما ... سقى الجِزْعَ من لوذان صَفْواً وأَكْدَرا
فأمسى يُحُطُّ المُعْصِمات حَبِيُّهُ ... وأصبح زَيَّافَ الغَمامة أَقْمَرا
كأنّ به بين الطَّراة ورَهْوَةٍ ... وناصفةِ الضَّبْعَين غاباً مُسَعَّرا
فغادَرَ مَلْحُوباً تُمَشِّي ضِبابُهُ ... عَباهيلَ، لم يترك لها الماءُ مَحْجَرا

وهكذا فقد تحدّى الماء - مع سيولته - تلك الجبال - مع صلابتها وشموخها، وفي هذا من معاني الصراع ما يتعدّى ظاهر وصف الطبيعة في هذا الشعر. ومن ذلك قوله(1)(☆):

وكان حياً بالشام أَيْسَرُ صَوْبِهِ، ... وأحيا حيا عامين في أرض حِمْيَرا
وبات يُحُطُّ العُصْمَ من أجبل الحِمى ... وهمّتْ رواسي صخره أنْ تَحَدَّرا(2)

وفي أبيات أخرى تأتي الجبال في تشخيص الوهم، يُرى حيّاً متحركاً، وما

= (مخطوط): الورقة: ٣٦/ب): «الوذ كل شيء جانبه»، فكأن لوذان ليس بموضع هاهنا، وفي (الهمداني: ٤٠٠) و(الزمخشري: الأمكنة: ٢٠٤): «البوان القبائل». وقال صاحب الأمكنة: «البوان القبائل: جبل». الجزع: الناحية. المعصمات: الوعول المتعصمة في الجبال، (انظر: عزة حسن)، وفي (ط. TÜREK) بفتح الصاد، ولعله يعني العصم: جمع أعصم، وهو من الوعول الذي في ذراعه بياض. (انظر: ابن منظور: (عصم)). حَبِيُّه: سحابه الداني من الأرض. (انظر: ابن دريد: وصف المطر والسحاب: ٤٤). زيّاف: خفيف. أقمر: أبيض، أي: أن السحاب أفرغ ماءه فأصبح أبيض خفيفا. الطراة: جبل بنجد معروف. (انظر: الحموي: البلدان: (الطراة))، أو موضع تلقاء صارة، وصارة: بين (فيد) و(ضرية). (انظر: البكري: م.ن: ٨٨٩، ٨٢٢). ورهوة: جبل. (انظر: م.ن: ٦٨٠). وناصفة الضبعين: موضع، والناصفة: المسيل الضخم قدر نصف الوادي، وقال (الأصمعي): «النواصف: ما بين كل جبل وكل رمل»، وناصفة أيضاً: دار (بني عُقَيْل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة) بالحجاز. (انظر: م.ن: ١٢٨٧-١٢٨٨). مسعّر: مشتعل؛ وذلك لكثرة الصواعق. ملحوب: وادي مُتالِع - عن الأصمعي - وقال غيره: ماء (لبني أسد)، على رأس تل؛ سُمي بـ(ملحوب بن لويم بن طسم). (انظر: م.ن: ١٢٥٤-١٢٥٥). عباهيل: جمع عُبْهول أو عِبْهال، أي: مهملة لا حافظ لها. (انظر: ابن منظور: (عبهل)). محجر: (بالحاء فالجيم): كذا في الأصل المخطوط، كما ذكر (عزة حسن)، وكذا في (ط. TÜREK)، و(الهمداني: م.ن)، وقد حوّلها (عزة حسن) إلى: «مجحرا»: (بجيم فحاء)، نقلاً عن: (ابن ميمون: م.ن)، ولعل الرواية الأولى أوفق، أن السيل لم يترك للضّباب عاصماً من الماء.

(1) ديوانه: (١٤٥/١٥-١٦) = (ط. TÜREK: ٥٩/١٥-١٦).

(☆) الحيا: المطر. والحيا (الأخيرة): الخصب والنماء.

(2) وانظر مثل هذا أيضاً: ديوانه: (٣١-٣٢/٢١-٢٤) = (ط. TÜREK: ١٣/٢١-٢٤).

هو سوى آلٍ في بيداء، كقوله(١)(☆):

ويـومٍ تَـقَـسّـم رَيـعـانُـهُ   رؤوسَ الإكـام تَـغَـشَّين آلا
تـرى الـبِـيـدَ تَهْدِجُ من حَرّهِ   كـأن على كل حَزْمٍ بِغـالا

ويأتي الجبل معبرّاً عن القوة والمنعة، عندما يستخدمه في تصوير هذا المعنى، في مثل قوله(٢):

وثَرْوَةٍ من رجال لو رأيتَهُمُ   لقلتَ: إحدى حِراجِ الجَرّ من أُقُرِ(☆٢)

ويصف قومه بقول(٣):

هُمُ جبلٌ يَلوذ الناس فيه   وفـرعٌ نـابـتٌ فـرعُ الـفُـروعِ

ويُنسب إليه هذا البيت(٤):

لنا حاضرٌ فَخْمٌ، وبادٍ كأنه   شماريخُ رضوَى عِزَّةً وتكَرُّما(☆٣)

---

(١) ديوانه: (٢٣٠-٢٣١/٢٢-٢٣) = (ط. TÜREK: ٩٤/٢٢-٢٣).

(☆) ريعانه: أول ارتفاعه، «وريعان السراب: ما اضطرب منه»: (ابن مظور: (ريع)). والآل: السراب، وقيل: هو ما تراه أول النهار وآخره كأنه يرفع الشخوص، وليس هو السراب، (انظر: الجوهري، وابن منظور: (أول))، وهذان البيتان يؤيدان القول الأخير، وقال (عزة حسن): «أي غَشّاها الآل، وهو السراب، فنسب الفعل إلى الإكام»، ولعل الشاعر إنما أراد تصوير ما قبل من رفع الآل للشخوص فكأن الإكام هي التي تتغشى بالآل. تهدج: تضطرب. والحزم: ما غلظ من الأرض وارتفع.

(٢) ديوانه: (٨٩/٤٨) = (ط. TÜREK: ٣٥/٤٨).

(☆٢) الحِراج: جمع حَرَجَة، وهي الشجر الكثير الملتف، وقيل: تكون من: السمر، والطّلح، والعَوْسَج، والسَّلَم، والسِّدر. (انظر: ابن منظور: (حرج)). الجَرّ: «أصل الجبل وسفحه... قال (ابن دريد): هو حيث علا من السهل إلى الغلظ»: (م.ن: (جرر))، وقيل: إذا لم يكن كثير الصخور فليس بجَرّ. (انظر: البكري: اللآلي: ٢٩٤). وأُقُر: جبل بني مُرّة. (انظر: م.ن: ما استعجم: ١٧٩)، وهو في ديار (غطفان)، ويقع في (عَدَنة)، شمال وادي الرمة، شرق الحَرّة، ويظهر أن الجبل منها، وقد يكون المقصود الوادي الذي أسفل هذا الجبل. ولم يعد اسمه مستعملاً. (انظر: ابن بليهد: صحيح الأخبار: ١/٦٦-٦٧)، و(الجاسر: شمال المملكة: ١/١١٣)، وفي (البكري: اللآلي: م.ن): أقر: «اسم جبل بين مكة والطائف».

(٣) ديونه: (١٦٤/٢٧) = (ط. TÜREK: ٦٨/٢٧).

(٤) ديوانه: (٢٨٧/١٦) = (ط. TÜREK: ١١٦/١٦).

(☆٣) الشماريخ: جمع شمراخ، وهو رأس الجبل، ورضوى: جبل ضخم من جبال تهامة، وهو من (ينبع) على يوم، ومن (المدينة) على سبع مراحل، على ليلتين من البحر، بحذاء جبل عَزْوَر، وهما شاهقا الارتفاع. (انظر: البكري: ما استعجم: ٦٥٥-٦٥٦)، ورضوى من الجبال المشهورة عند العرب. (انظر: الهمداني: ٢٦٧)

ويقول[1]:

أمّا الرُّواءُ ففينا حَدُّ تَرْئِيَةٍ مثلَ الجبال التي بالجِزْع من إضَمِ[☆]

وكذلك يجيء الجبل في معاني الجَلَد والصبر على مشقة الرحلة، مثل قوله[2]:

يَقْطَعْنَ عَرْضَ الأرض غيرَ لواغبٍ وكأنّ مُحْزِنها لَهُنَّ صَحاري[☆2]

وقوله[3][☆3]:

وصَرّح السَّيْرُ عن كُتْمانَ، وابْتُذِلَتْ وَقْعُ المَحاجِن في المَهْرِيّة الذُّقُنِ
جَعَلْنَ هَضْب أُ فَيْحٍ عن شمائلها بانتْ حَبائبُه عنه ولم يَبِنِ

فها هو ذا الجبل مقيم لا يبين، رمز الخلود والوقوف رغم عامل الزمن، فكم من القرون قد مضت وهذه الجبال ثابتات شاهدات على مسيرة العصور.

---

(1) ذيل ديوانه: (٤/٣٩٧) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٠٨/١٥٣).

(☆) الرواء: حسن المنظر في البهاء والجمال، والترئية: كذلك، اسم لا مصدر. (انظر: ابن منظور: (رأي)). الجِزْع: الجانب المتسع من الوادي. وإضم: اسم مواضع كثيرة، منها: واد دون المدينة، وجبل لأشجع وجهينة، وقيل: واد لهم به يوم للعرب، وإضم أيضاً: جبل بين اليمامة وضَرِيّة. (انظر: البكري: ما استعجم: ١٦٥-١٦٦)، و(الحموي: البلدان: (إضم))، وذكر (ابن خميس: اليمامة: ١/٨٧) أنه لا يعرف بهذه الجهة عَلَماً يحمل هذا الاسم. وواضح أن المقصود في البيت واد.

(2) ديوانه: (١٧/١٢٢) = (ط. TÜREK: ١٧/٤٩).

(☆2) لواغب: جمع لاغبة، أي تَعِبَة. محزنها: أي ما ارتفع من الأرض.

(3) ديوانه: (٣٠٣/٩-١٠) = (ط. TÜREK: ١٢٣/٩-١٠).

(☆3) كتمان: جبل في بلاد (بني عُقَيْل). (انظر: البكري: ما استعجم: ١١١٤). وزاد (ابن منظور: (كتم)): «وكتمان: اسم ناقة». المحاجن: جمع محجن، وهي «عَصاً معقّفة الرأس كالصولجان»: (م.ن: (حجن)). والمهرية: النوق الكريمة، منسوبة إلى: (مَهَرَة بن حَيْدان)، أبي قبيلة عظيمة. (انظر: م.ن: (مهر)). والذُّقُن. جمع ذَقون، وهي الناقة ترخي ذقنها في السير. (انظر: م.ن: (ذقن)). والمعنى: «ابتذلت المهرية الذقن بوقع المحاجن فيها بضربها بها، فقلب، وأنّث الوقع حيث كان من سبب المحاجن»، و«الإضافته إلى المحاجن»: (م.ن: (ذقن)، و(حجن)). وصرّح السير عن كتمان: أي جعلهم ينجلون عنه ويكشفون، أما إذا كان (كتمان) اسم ناقة، فهو يصفها بالنشاط على حين تُضرب الأخريات بالمحاجن لتدأب على السير. أُفيح: شكّ (الأصمعي) في الحاء المهملة، في رواية (أبي حاتم) عنه، ورواه (أبو نصر) عنه غير شاكّ، وهو موضع (بالعَوْر)، وقيل: بين ديار (بني القين) و(بني عَبْس). (انظر: البكري: ما استعجم: ١٧٧)، وفي (الحموي: البلدان: (أفيح)): موضع بنجد.

وهذا ماكان يجذب الإعجاب بالجبال عند العربي، لا سيما إذا رأى آثار من مضوا من الأهل والأحباب، عندها يتتابه الذهول أمام معلمين من معالم الطبيعة: الإنسان والجبل، فالإنسان يَستغل هذه الجبال في مصالحه، إلا أنه، رغم هذا التفوق المؤقّت، لا يستطيع كبح دولاب الزمن أو البقاء مثلما تبقى الجبال(١)(☆):

لمن الدِّيارُ بجانب الأحفارِ　　فبَتِيلُ دَمْخٍ أو بسَلْعِ جُزارِ
أمستْ تلوح كأنها عامِيَّةٌ　　والعهد كانَ بسالف الأعصارِ
خَلَدَتْ، ولم يخلد بها من حَلَّها،　　ذات النِّطاق، فبُرْقة الأمهارِ

وهذه المقارنة تقوده إلى التمني أن يكون حجراً في تلك الجبال، لتنبو عنه الحوادث؛ لأنه لا يرى ممتنَعاً عنها بسوى ذلك(٢)(☆٢):

[ما أطيب العيش لو أن الفتى حجرٌ　　تنبو الحوادث عنه وهو ملمومُ]
لا يُحْرِزُ المرءَ أنصارٌ ورابيةٌ　　تأبى الهوان إذا عُدَّ الجراثيمُ
لا تمنع المرء أحجاءُ البلاد، ولا　　تُبنى له في السماواتِ السلاليمُ

---

(١) ديوانه: (١١٨/١-٣) = (ط. TÜREK: ٤٧/١-٣).

(☆) الأحفار: موضع في بلاد تغلب. ودمخ: جبل من جبال ضرية بنجد، وطوله في السماء ميل، وله واديان، يقال لهما: ناعمتا دمخ، (انظر: البكري: ما استعجم: ٥٥٦)، ومازال دَمْخ على اسمه إلى اليوم، واقع غرب (عرض شمام)، شرق (العلم)، تابع لإمارة (الخاصرة)، (انظر: ابن جنيدل: ٥٣٣/٢). والبتيل: مفرد البُتْل، «كالمسايل في أسفل الوادي»: (ابن منظور: (بتل)). وجزار: موضع تلقاء دمخ. (انظر: البكري: م.ن: ٣٨٠). وسلعه: جانبه. عامية: أي أتى عليها عام فقط. ذات النطاق: «قارة معروفة منطّقة ببياض وأعلاها بسواد من بلاد بني كلاب . وقال أبو زياد: ذات النطاق قارة متصلة بثُبْرَ»: (الحموي: البلدان: (النطاق))، وهو يحمل اسمه هذا إلى اليوم، ولكن المتأخرين يقولون: «نطاق» فقط، وعليه نطاق من رمل، وهو قريب من طرف ثهلان الجنوبي، من جبال السحامية، وبعض أهل نجد يعرفون هذا الجبل بهذا الاسم. (انظر: ابن بليهد: صحيح الأخبار: ٧٦/٥) وبرقة الأمهار: موضع، وقد سبق تحديده مع دمخ، وسلع جزار، وذات النطاق المذكورة في هذه الأبيات، وهي أماكن متقاربة في عالية نجد. (راجع: ب١ ف١: ب - ٣).

(٢) ديوانه: (٢٧٣/٢٥-٢٧) = (ط. TÜREK: ١١١/٢٥-٢٧).

(☆٢) الجراثيم: جمع جرثومة: وهي الأصل.

ومن هنا تكثر الجبال في ذكرياته الغرامية، والحديث عن ديار الحبيبة، ورحلة الأظعان، كقوله[(١)]:

تَـزَوَّدَ ريّـا أُمِّ سهـمٍ مَحَلُّهـا   فروعَ النِّسار فالبَدِيَّ فثَهْمَدا
تراءتْ لنا يومَ النِّسار بفاحمٍ   وسُنَّةِ ريمٍ خاف سمعاً فأَوفَدا

والخيال الذي وافاه قد سرى إليه من مكان بعيد مجتازاً في طريقه الجبال[(٢)(☆)]:

وافَى الخيالُ، وما وافاكَ من أَمَمِ   من أهل قَرْنٍ وأهل الضَّيق من حَرِمِ
أمسَى بِقَرْنٍ، فما اخضَلَّ العِشاءُ لَهُ   حتى تَنَوَّرَ بالزَّوراء من خِيَمِ

وكأنما في ذكر الجبال في هذا المقام إشارة - غير مباشرة - إلى تلك العقبات التي كانت تحول بينه وبين من يحب[(٣)].

---

(١) ديوانه: (٦٥/١٨-١٩) = (ط. TÜREK: ٢٧/١٨-١٩).
(٢) ذيل ديوانه: (٣٩٦-٣٩٧/١-٢) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٥٢/٩٥-٩٦).
(☆) أَمَم: قرب. «وقال أبو عبيد الله السكوني: قرن: قرية بين فلج وبين مهب الجنوب من أرض اليمامة، فيها نخل وأطواء، وليس وراءها من قرى اليمامة ولا مياهها شيء، وهي لبني قُشير، وليس من العارض»: (الحموي: البلدان (قرن))، وذكر (الأصفهاني: بلاد العرب: ٢٢٤-٢٢٥) أن قرن قرية لبني قشير على فرسخ من (الزرنوق)، فيها نخيل ودور ومزارع. وعلق (حمد الجاسر) بهامشه على (أبي عبيد الله السكوني) فيما نقله عند (الحموي) فقال: «ووجه الإغراب في قوله: ليس من العارض؛ إذ العارض هو ما يعرف الآن باسم طويق، والأفلاج تنحدر أوديتها منه، في سفوحه». وقد ناقش ذلك (ابن خميس: اليمامة: ٢/ ٢٨١) ثم قال: «... ففي نظري أنه لا غرابة.. وتعريف السكوني لـ(قرن) تعريف دقيق جامع مانع»، وقال: «هي من الأفلاج قرب قاعدتها (ليلى)»، ونقل عن (وقيان بن عمر آل لحيان)، قوله: «وسألت ابن عيسوب عنها، فقال: إنها تقع شرقاً من قرية (الصُّفُو)، ويكاد خط الجنوب أن يفصل بين (الصفو) و(قرن)، بحيث تكون (قرن) شرقاً، و(الصفو) غرباً.. وبعض جرائم جدر (قرن) مازالت باقية، وقد تميل (قرن) من جهة الشرق قليلاً، فتقع جنوب شرق (الصفو)، وبها بعض الآثار التي لم يبق إلا ركام ترابها»: (م.ن: ٢/ ٢٨٠). الضيق: «من قرى اليمامة، لم تدخل في صلح (خالد) أيام قتل (مسيلمة)، ويقال لها ضيق قرقرى»: (الحموي: م.ن: (ضيق)). حَرِم: «ثنية في خِيَم، وخِيَم: جبل بعمايتين»: (البكري: ما استعجم: ٤٤٠)، وفي (الحموي: م.ن: (حَرِم)): «وقال نصر: حَرِم بكسر الراء واد باليمامة، فيه نخلٌ وزرع، ويقال: بفتح الراء، وقال أبو زياد: حَرِم فلج من أفلاج اليمامة، ورواه (ابن المعلى الأزدي): حَرُم وحَرَم بفتح الراء وضمها، جميع ذلك في موضع باليمامة» واستشهد ببيت ابن مقبل. اخضلَّ العشاء: برد وابتلّ. تنوّر: أي أبصر نارنا. والزوراء: أرض خيم بعمايتين. (انظر: الحموي: المشترك: ٢٣٥).
(٣) انظر كذلك: ديوانه: (٢٠/٣٥-٣٦) = (ط. TÜREK: ٩/٣٥-٣٦).

ويؤكد هذا قوله[1]:

بَيْضُ الأَنُوق بِرَغْمٍ دون مسكنها وبالأبارق من طِلْحام مركومُ[☆]

ففي المثل: «أَعَزُّ من بَيْض الأنوق»؛ لأنها تحرزه في أوكارها بقنن الجبال والأماكن الصعبة البعيدة، فلا يظفر به[2]. ومع هذا فالشاعر يرى الوصول إليه أدنى وأسهل منالاً من مسكن حبيبته. وهذا يحمل على القول: بأن هذه الجبال التي ترد في معرض حديثه عن بُعْدِ الحبيبة لا تعبّر - في بعضها على الأقل - عن بُعْدٍ جغرافي، بمقدار ما ترمز لحواجز اجتماعية تحول دونه ودون ذلك الحبيب[3]:

أقولُ وقد سَنَدَنَ لقَرْن ظَبْيٍ بأيّ مِراء مُنْحَدَرٍ تُماري[☆2].

في نسوةٍ من بني دَهْيٍ مُصَعَّدةٍ ومن قَنان تَؤُمُّ السَّيرَ للضَّجَنِ[☆3].

---

(1) ديوانه: (٤/٢٦٧) = (ط. TÜREK: ٤/١٠٨).

(☆) الأنوق: الرَّخَمة. ورعم: جبل في ديار بجيلة وفيه روضة. (انظر: الحموي: البلدان: (رعم)) والأبارق: جمع أبرق، وهو أرض غليظة فيها حجارة ورمل وطين مختلطة. (انظر: ابن منظور: (برق)). وطلحام: أرض، وقيل: واد، و«قال أبو حاتم: لم يصرفه لأنه اسمٌ لشيء مؤنث، ولو كان اسم واد لا نصرف»: (انظر: البكري: ما استعجم: ٨٩٣)، وجاء في (الحموي: م.ن: (طلحام)): «قال (ابن المعلّى الأزدي: طلحام بالحاء المهملة، لاتلتفت إلى الخاء المعجمة فليست بشيء، قاله (زيد) في قول ابن مقبل:...»، وقال (ابن بليهد: صحيح الأخبار: ٥/ ١٩٨): «طلحام لا أعرفه. وربما أنه تغير اسمه وانطمس خبره». أما طلخام: (بالخاء) فذكر (١/ ١٨٤): أنه لا يعلم موضعاً بهذا الاسم أو يقاربه إلا موضعين: أحدهما (طلخام) جبل في بلاد طيء، بهذا الاسم إلى اليوم، والآخر: هضبة سوداء شاهقة، على ضفة وادي الجريب الشمالية، ويليها هضبة صغيرة، يقال لها (طليخيم)، وتعرفان اليوم بـ(طلخفات). فإذا كان الشاعر قد أراد طلخام في بيته هذا، فكونها هذه الأخيرة أرجح.

(2) انظر: الميداني: ٢/ ٤٤.

(3) ديوانه: (٢٢/١٥١)، (١٦/٣٠٥)، (١٩/٣٤١) = (ط. TÜREK: ٢١/٦٢، ١٦/١٢٤، والملحق: ١٣١/١٥٦).

(☆2) سندن: صعدن. وقرن ظبي: «ماء فوق السمدية، وقيل: جبل لبني أسد بنجد». (الحموي: البلدان (قرن))، ويرى (ابن جنيدل: ٣/ ١٠٦٧-١٠٧٠) أن ما يعرف اليوم بـ(قرن وعلة) كان يعرف قديماً بـ(قرن ظبي)، وهو في بلاد قشير قديماً، في بلاد قحطان حديثاً، تابع (للقويعية)، على بعد (١٣٠كيلاً) جنوباً عنها. منحدر: أي انحدار أولئك الظعن خلف الجبل الذي صعدنه، والمعنى: لم يعد مجال للشك في بعدهن.

(☆3) بنودهي: لعلهم (بنو دهي بن مُرّة)، وهم فخذ من صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان. (انظر: النويري: ٢/ ٣٣٦، وكحّالة: ١/ ٣٩٢). ومن قنان: كأنه يعني: من أهل قنان، وقنان هي بلاد بني الحارث بن كعب، وهو من جبال النّير، والقنان: جبل في ديار بني فَقْعَس، وذكر (السكري): أنه =

[وأوْقَدْنَ ناراً للرِّعاء بأَذْرُعٍ   سيالاً وشِيحاً غير ذات دُخانِ](☆).

ومن الجبال يستمد بعض خيالاته وصوره، كأنْ يقول(١):

وحدّثَهُ أنَّ السَّبيل ثَنِيَّةٌ   صَعوداءُ تدعو كل كهل وأمردا

صعوداءُ، من تُلْمِعْ به اليوم يأتها   ومن لا تَلَةَّ بالضَّحاء فأوردا

ويأتي تشبيه سبيل الموت بالعقبة الشاقة انعكاساً للمشقة الجسدية التي كان العربي يقاسيها في تلكم الجبال، حتى نظر إليها كأنها سبيله إلى الفناء، وتولّد عن هذه المقاساة، مع مشهد الجبال الشامخة، مزيج من شعور الرهبة والإجلال لهذا الكيان العظيم، ربما بلغ حدّ الاعتقاد بقوى روحية تكمن فيه.

ومثلما استعمل الجبل في رسم صور القوة والمنعة من قبل، استعمله في فخره بعظمة شعره ومتانته، حين قال(٢):

وأكثر بيتاً مارداً ضُرِبَتْ لهُ   حُزونُ جبال ال[شِّعر حتى تَيَسَّ]را

فأبياته الشعرية تشبه في جزالتها قَطْع حزون الجبال، أو أن سامعها وقارئها

= جبل بين غطفان وطيئ أيضاً. وهكذا يبدو أن هناك أكثر من جبل بهذا الاسم، والراجح أنه هنا الواقع مع الضجن في بلاد بني الحارث بن كعب. والضجن: اسم جبل بين مكة والمدينة، وفي بلاد هذيل واد يقال له الضجن، على ليلة من مكة، وهو من بلاد بني الحارث أيضا. (انظر: الحموي: البلدان: (دهي)، و(ضجن))، و(البكري: ما استعجم: ٨٥٥، ١١٥٠، ١٣٤٠)، وفي: (الصاحب: ٣/١٦٩-١٧٠): «اللضحن»، (بالحاء المهملة)، وذكر أنه اسم بلد، قال: «وأقدّر أنه بالجيم». تؤم السير: أي تقصد به.

(☆) أذرع: يعني أذرع أكباد، وأكباد: جبل متصل بلية، وبين لية وقَرْن ليلة، وأذرع أكباد: ضِلَع سوداء منه، هكذا فسرت (أم شَريك بنت تميم بن أبي بن مقبل) أذرع أكباد في شعر أبيها، وقال غيرها: أذرع أكباد: أقيرن «صغار» من الجبال تسمى الأذرع. (انظر: البكري: ما استعجم: ١٣١)، وقال (الأزدي): أكباد الأرض، وأذرعها: نواحيها. (انظر: الحموي: البلدان: (أكباد))، وهنالك اليوم (أذيرعات) رافد من روافد جبل (طويق) يلقاك على يمين الطريق إلى الحجاز، وفي عاليه نجد (ذُرَيْع) - تصغير ذراع - جبلان متناوحان أحمران على شكل الذراعين، وبقربها أكمة سوداء فاحمة شمالها يميل إلى الشرق، تدعى: (حَمَّة ذُرَيْع). وتحف الطريق (ذريعا) من الشمال ويثنى أحياناً فيسمى (الذراعين). (انظر: ابن خميس: المجاز: ٣٩، ١١٥). والسيال: شجر. والشيح: نبات، وسيأتي الكلام عليهما في موضوع النبت والشجر.

(١) ديوانه: (٦٤-٦٥/١٥-١٦) = (ط. TÜREK: ٢٦/١٥-١٦).

(٢) م.ن: (١٣٦/٢٧) = (ط. TÜREK: ٥٥/٢٧).

لا يدرك معناها إلا بمشقة لغرابتها، كما يذكر في تالي هذا البيت. ومهما يكن مراده فالشاهد هنا أنه قد استعار من الجبال ما يصوّر به الشعر، فجعل له حزوناً كحزون الجبال لا تُسلك بيسر، إلا بمطيّة عنفجيج، كناقته - الجبل أيضا [1]:

- وعَنْفَجِيجٍ يَمُدُّ الحرُّ جِرَّتَها
حَرْفٍ طَليحٍ كَرُكْنِ الرَّعْنِ من حَضَنِ[☆].
- إذا غَشِيَتْ جَدّاً بلَيْلٍ تناولتْ عِشاشَ الغُرابِ كالهِضابِ بَوانيا[☆٢].

وبهذا يسجل الشاعر بعض الاستفادات التي كانت للعرب من الجبال: مصدراً اقتصاديّاً طبيعيّاً، للرعي، والحطب، والأخشاب، والسكنى. ومن تصويره هذا الجزء من الطبيعة تستشف نظرة العربي إلى الجبل ومعناه في وجدانه. ممّا تبدّى أثره في توظيف الجبل لصوغ عدد من الصور الشعرية.

ب - الرمال:

الرمال تغطي مساحات واسعة من أرض الجزيرة العربية متخذة أشكالاً مختلفة، سَمَّوا كل شكل منها باسم معين.

---

(١) م.ن: (٢٨/٣٠٩)، وذيل ديوانه: (٤/٤٠٩) = (ط. TÜREK: ٢٨/١٢٥، والملحق: ١٦١/ ١٦٢).

(☆) عنفجيج: ناقة ضخمة مسنّة، أو هي البعيدة ما بين الفروج، أو الحديدة المُنْكَرة. (انظر: الفيروزآبادي: (العنج)). الجِرَّة: ما تُخرجه من كرشها لتمضغه ثانية. حرف: ناقة نجيبة ماضية ضامرة صلبة شُبّهت بحرف السيف أو حرف الجبل. (انظر: ابن منظور: (حرف)). طليح: أعياها السفر. والرعن: الأنف العظيم المتقدم من الجبل، وحضن: جبل في ديار بني عامر، وفي المثل: «أنجد من رأى حَضَناً». (انظر: البكري: ما استعجم: ٤٥٥)، وقال (ابن خميس المجاز: ٢١٠) في وصفه: «بمحاذاة (البتِيلة) و(بُريم) يكون الجبل العملاق الشهير (حَضن) وقد سد الأفق الجنوبي أمامك، واستطال من الشرق إلى الغرب، وبدت قممه ورؤوسه تواكبه وسيارتك تنهب الطريق نهباً وكأنك لا تريم من مكانك لبعد ما بين طرفيه...». وقال (٢١٢): «ويسمى بهذا الاسم أمكنة أخرى، فهناك حضن بجوار أجأ في جنوبه الغربي، وحضن باهلة، وحضن نجران، وأشهرها وأذكرها جبلنا هذا...». وقال (ابن بليهد: صحيح الأخبار: ٤/٢١٧): «والذي أعلمه أنه جبل لبني هلال بن عامر وبعد رحيلهم من نجد استولته قبائل البقوم...».

(☆٢) غشيت: الضمير عائد على الإبل. جَدّ: إما بمعنى: وجه من الأرض، أو أنه اسم مكان. بواني: منتصبة، أي أن هذه الإبل تساور فروع الشجر بعِظَمها حتى تبلغ عشاش الغراب. (انظر: البكري: اللآلي: ٨١٢)، ولعله إنما خص عش الغراب هاهنا لفرط ارتفاعه.

ومن أسماء الرمال وأجزائها في شعر ابن مقبل:

الكثيب : التلّ المجتمع المحدودب(☆).

والنقا : القطعة تنقاد محدودبة.

والحِقْف : ما أعوج منه واستطال وأشرف.

والدِّعص: أقل من الحقف، وهو قُور من الرمل مجتمع مستدير.

والجَرَع : الرملة السهلة المستوية، وقيل: هي الدعص لاتنبت شيئاً، والأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل، والجَرَع: جمع الجَرَعة، وهي عندهم: الرملة العَذاة الطيّبة المنبت التي لا وعوثة فيها.

والحبل : الرمل المستطيل شبه بالحبل.

والقَعيدة : التي ليست بمستطيلة، وقيل: الحبل اللاطئ بالأرض، وقيل: ما ارْتَكَمَ منه.

واللِّوَى : ما التوى منه، وقيل: مُسْتَرَقّه، وقال (الأصمعي): اللِّوَى: منقطع الرملة.

والدَّوّار : مستدار رمل تدور حوله الوحش.

والدَّيِّرة : الدارة: رمل مستدير.

والوعس : السهل اللين، الذي تسوخ فيه القوائم.

والدكادِك: ما التبد بالأرض منه.

والطرفسان: القطعة منه.

والنَّعْف : مقدم الرملة وما استرقّ منها.

والصَّريم : القطعة المنقطعة من معظم الرمل.

(☆) في (ابن منظور: (كثب)) قول آخر، وهو أنه «القطعة تنقاد محدودبة» أي كالنقا. وقد آثرت التعريف المذكور أعلاه؛ لأن فيه تمييزاً للكثيب عن النقا، وهو بعد أقرب إلى معنى المادة الاشتقاقية: (كثب): أي اجتمع، وفي القرآن الكريم: ﴿وكانت الجبال كثيباً مهيلا﴾: (المزمل:١٤)، مما يدل على أن الكثيب أعلى وأضخم من النقا.

والصريمة: كالصريم.
والخَلّ : الطريق بين الرمل.

ومن صفاتها عنده:

النَّعِج: الأبيض. والضَّائن: اللين. والأهيم: الذي ينشف الماء نشفا. والمُنَخَّل: الذي نخلته الرياح. والوَعْث: ما غابت فيه الأرجل والأخفاف، وقيل: ما ليس بكثير جدا. والدَّهاس: اللين السهل. والهَيْل: الذي ينهال ولا يثبت. والحُرّ، والحُرّي: الجيِّد الذي لا طين فيه. والخميلة: المنهبَط الغامض منه، وقيل: رمل ينبت الشجر، وقيل: هي مسترَقّ الرملة حيث يذهب معظمها ويبقى شيء من ليّنها[1].

وقد كانت للرمال فوائد في حياة العرب، يرد بعضُها في شعر (ابن مقبل).
أولها - الإقامة عليها؛ فحبيبته الغريبة كانت إقامتها (بخَلِّ الحائل)[2]:

ماذا تَذَكَّر من وصال غريبةٍ   طالتْ إقامتُها بخَلِّ الحائلِ[☆]

وبرملة (عالج)[3]:

دعتنا عتيبةُ من عالجٍ   وقد حان منّا رحيلٌ فلـ[ـشا] لا[☆٢]

وكان ربع (كبيشة) بـ(اللِّوى)[4]:

(١) انظر: الثعالبي: فقه اللغة: ١٨٨-١٩٠، وكذلك انظر مواد هذه الأسماء والصفات في: ابن منظور، والفيروزآبدي، وغيرهما.
(٢) ديوانه: (٨/٢١٨) = (ط. TÜREK: ٨/٨٩).
(☆) الحائل: «طائفة من رمل يَبْرِين»؟ (البكري: ما استعجم: ٤١٤).
(٣) ديوانه: (١/٢٢٥) = (ط. TÜREK: ١/٩٢).
(☆٢) عالج: رمل في ديار كلب، يصل إلى الدهناء، وينقطع من دون حجاز وادي القرى وتيماء، وهو يحيط بأكثر أرض العرب. (انظر: البكري: ما استعجم: ٩١٣-٩١٤). شال: أي ارتفع.
(٤) ذيل ديوانه: (١/٤٠٨) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٦٠/١٥٨).

ألا ناديا رَبْعَيْ كُبيشة باللِّوى ... بحاجة محزونٍ، وإن لم يُناديا[☆]

وكانوا يتخذونها مصطافاً ومرتبعا[1][☆2]:

للمازنية مُصطافٌ ومُرْتَبَعُ ... ممّا رأتْ أُوْدُ فالمِقْراةُ فالجَرَعُ
منها بنَعْفِ جُرادٍ فالقَبائِضِ من ... ضاحي جُفافٍ مرًى دنيا ومُسْتَمَعُ

وربما خرجوا إلى دَيِّرة من الرمل ليلاً، فشربوا الخمر، وغنّتهم القيان ورقصن لهم، وزَجَّوا وقتهم في اللهو والمتع، كما قال - في وصف إحدى تلك الليالي -[2]:

بِتْنا بدَيِّرَةٍ يُضيء وجوهنا ... دَسَمُ السَّليط على فَتيل ذُبالِ
حتى انْتَشَيْنا عند أَدْكَنَ مُتْرَعٍ ... جَحْلٍ أُمِرَّ كُراعُهُ بعِقالِ
وغناءِ مُسْمِعَةٍ جَرَرْتُ لصَوْتِها ... ثَوْبي، ولَذَّةِ شاربٍ وفِضالِ

(☆) الربع: المنزل. اللوى: (أسماء الرمال - بداية هذا الموضوع). وإن لم يناديا: وإن لم يجيبا. (انظر: ابن منظور، والزبيدي: التاج: (ندى)).

(1) ديوانه: (١٦٧/١-٢) = (ط. TÜREK: ٦٨-٦٩/١-٢).

(☆2) المصطاف: مكان الإقامة في الصيف. والمرتبع: مكان الإقامة في الربيع. رأت: قابلت. أود: «موضع ببلاد بني مازن... وقال ابن حبيب: أود لبني يربوع بالحَزْن... قال: وقيل: أود والمقراة: حذاء اليمامة» (البكري: ما استعجم: ٢٠٩-٢١٠)، وقيل: أود واد، كان به يوم من أيام العرب. (انظر: الحموي: البلدان: (أود)). وعن أبي الفرج: المقراة ما بين أَمَرَة إلى أسود العَيْن. (انظر: البكري: م.ن: ٥٤٨). والجرع: هاهنا موضع. (انظر: الحموي: م.ن: (الجرع))، وهو في الأصل: رمل. جراد: موضع ذو كثبان كان فيه يوم لهمدان على ربيعة. (انظر: البكري: م.ن: ٣٧٣-٣٧٤)، وذكر (ابن خميس: المجاز: ٨٦-٨٨)، في حديثه عن ما بين الدوادمي وعفيف، أن (جُراد) جبل يرى من ربوة (الشريف)، وقال: «أما أبو جراد فقرن جبل أحمر منفرد كأنه مخروط هرمي يرى برأسه مثل الأنف، تراه بعد ما تنكب (البيضتين) يمينا ليس ببعيدٍ عن الطريق، وهو بلفظ الجراد المعروف، إلا أنه مضموم الأول، وهذا اسمه قديماً: (جراد) إلا أن المتأخرين كنّوه فقالوا (أبو جراد)...» واستشهد ببيت ابن مقبل هذا، ثم قال: «وهناك (جُراد) آخر وهي رملة مما يلي (حائل والمَرّوت) وربما عُنيتْ ببعض ما أوردناه من شعر في (جراد) مما لا نستطيع تمييز المراد بأيهما ...». والنَّعف: (راجع: بداية ب - الرمال). وجفاف: «أرض لأسد وحنظلة، واسعة يألفها الطير» (البكري: م.ن: ٣٨٦). ضاحي جفاف: أي ما برز منها وظهر. والقبائض: «موضع متصل بجفاف»: (م.ن: ١٠٤٧)، وجاء في: (الهجري: ٢٠٨/٢): «القبايض في شعر ابن مقبل جمع قبضة»، ولعل القبايض هنا تصحيف، وفي (الحموي: م.ن: (القبائض)): «مصانع لبني قبيصة». وربما كانت «القبائص» (بالصاد المهملة) نسبة إلى بني قبيصة. مرى: أي مَرْأى. دنيا: قريبة. ومستمع: يسمع صوتها.

(2) ديوانه: (٢٥٧-٢٥٨/١٣-١٤، ١٦-١٧) = (ط. TÜREK: ١٠٥/١٣-١٤، ١٦-١٧).

صَدَحَتْ لنا جَيداءُ تَرْكُضُ ساقُها ... عند الشُّروب مَجامعَ الخَلْخالِ

وقد تقدم الكلام في هذا الشأن[1].

ومن الرمل فراش للراحل ووسادة وثيرة، يلجأ إليهما للراحة متى شاء[2]:

أُنيخَتْ فَخَرَّتْ فوق عُوجٍ ذوابلٍ ... وَوَسَّدْتُ رأسي طِرْفِساناً مُنَخَّلا[☆]

والرمال كذلك منابت الجمال والأنوثة من الأشجار والنباتات، المرتبط ذكرها بالمرأة غالبا. ومنها عند الشاعر: الخُزامى، والأقحوان، والأرطى، والغضى، والكُرّاث، والعُنْصُل (البصل البري)[3]. فالخزامى نبات عطري، من منابته رملة عالج[4]:

كأنّ خُزامى عالجٍ طرقتْ بها ... شمالٌ رَسيسُ المَسِّ، بل هي أطيبُ[☆٢]

أو كأن لها طارقته تلك مهاة رملٍ حُرٍّ، أهدت إليه ثغراً كأقحوان الرمل النديّ المديّم[5]:

ربيبةَ حُرٍّ دافعتْ في حُقوفِهِ ... رَخاخَ الثَّرى، والأُقحوانَ المُدَيَّما[☆٣]

---

(١) راجع: ب١ ف١: ب - ١.

(٢) ديوانه: (١٦/٢١١) = (ط. TÜREK: ١٦/٨٧).

(☆) العوج: يعني قوائمها، وهي صفة مستحبة فيها. (انظر: ابن منظور: (عوج)). ذوابل: أي قليلة اللحم صلبة. طرفسان منخّل: رمل نخلته الرياح، وفي (ابن منظور: (طرفس)). «ورُوي عن ابن الأعرابي أنه قال: عنى بالطُّرفسان الطَّنْفِسَة، وبالمُنَخَّل المُتَخَيَّر».

(٣) سيجيء التعريف بهذه النباتات وغيرها على نحو أوسع في الفصل الخاص بالنبات من هذا الباب.

(٤) ديوانه: (٣٣/١٩) = (ط. TÜREK: ٣٣/٩).

(☆٢) عالج: رمل، سبق: (راجع: بداية ب - الرمال). طرقت بها: أتت بها ليلا. شمال: ريح شمالية. رسيس المس: لينة الهبوب رخاه. (انظر: ابن منظور: (رسس)).

(٥) ديوانه: (٦/٢٨٤) = (ط. TÜREK: ٦/١١٥).

(☆٣) ربيبة حُرّ: يريد بقرة وحشية، والحُرّ: رمل، لا طين فيه. حقوف: جمع حِقْف، رمل معوج مستطيل مشرف. و(انظر: ابن سيده: شرح مشكل أبيات المتنبي: ٣٥٥). رخاخ: رخوٌ لين. المديّم: الذي أصابته ديمة، وهي مطر يدوم طويلاً، ويكون في سكون. (انظر: ابن منظور: (ديم)). وقال في: (تهذيب الأزهري: ٦/٥٦٦): «أي أنه لم يصبه من الرخاخ شيء...».

وكما أن صاحبته مهاة رمل فإنه هو يشبه ذلك الشبوب من ثيرن الوحش الذي تراعيه المهاة، إلى أرطاة حقف يثيرها ، مثلما ظلّت هي تدافع الحقوف وأقحوانها المديّما[1]:

يَظَلُّ إلى أَرْطاة حِقْفٍ يُثيرها ... يُكابدُ عنها تُربها أَنْ يُهَدَّما[☆].
تُساقِطُ رَوْقاهُ، بكل خَمِيلَةٍ ... من الرمل، كُراتًا طويلاً وعُنْصُلا[☆٢].

وبذا تكتسب الرمال - بنباتاتها من الأقحوان والأرطى وغيرهما - دلالة في الصراع الإنساني/ الاجتماعي لقطبي الأنوثة والذكورة، تتعدّى الطبيعة إلى ما وراءها. (ولهذا درس موسّع عن الصورة - في الباب الرابع)، أمّا نحر (أمّ خشرم) فهو[2]:

كجَمْر الغَضَى فوق النَّقا هَبَّتِ الصَّبا ... له مَوْهِناً من عارضٍ مُتَبَسِّمِ[☆٣]

وتلكم الرمال تضم كذلك من الحيوانات أجملها؛ ففيها كُنُس الظباء والمها، تأوي إليها من شدة القيظ، يقول مثلا[3][☆٤]:

---

(١) ديوانه: (١١/٢٨٥)، (٢١/٢١٣) = (ط. TÜREK: ١١/١١٥، ٢١/٨٨).

(☆) أرطاة: شجرة أرطى. يثيرها: أي يحفر عنها التراب ليهيئ لنفسه كناساً يبيت به كما يذكر بعد هذا البيت. يكابد عنها تربها أن يهدّما: أي كلما حفر عنها التراب انهال، فهو يكابده ويغالبه.

(☆٢) الروق: القرن. وخميلة الرمل: المتهبّط الغامض منه.

(٢) ديوانه: (٦/٢٨٢) = (ط. TÜREK: ٦/١١٤).

(☆٣) موهن: «نحو من نصف الليل»: (ابن منظور: (وهن)). عارض: سحاب معترض في الأفق، وأكثر ما يكون ذلك مع إقبال الليل. (انظر: ابن دريد: وصف المطر: ٣١). متبسّم: أي يلمع فيه البرق.

(٣) ديوانه: (٢٩٢-٢٩٣/١٣-١٤)، وذيل ديوانه: (٣٨٤/ ٣٠) = (ط. TÜREK: ١١٨/١٣-١٤، والملحق: ١٤٨/٦٩).

(☆٤) خشخشت: دخلت. والعنس: الناقة القوية الصلبة. (انظر: الجوهري: (عنس)). مقيل الظباء: ساعة مقيلها، أي في الهاجرة. والصريم: القطعة المتقطعة من معظم الرمل. الحُزْن: جمع حَزْون، وهو الذي لا يبرح مكانه هاهنا جنوح: يريد الظباء، أي: جنحت من حرارة الشمس إلى شجرة حاقة: وهي شجرة يألفها بقر الوحش. (انظر: تهذيب الأزهري: ٥/٢٠٨). والجُرُن: جمع جران، وهو العنق هاهنا. ضوارب: حال، أي قد مددن أعناقهن على الأرض للراحة، كما يفعل البعير إذا برك. النعجة: بقرة الوحش. والإراخ: جمع إرْخ، وهي الأنثى الفتية من بقر الوحش. (انظر: م.ن: ٧/ ٥٤٤). أخذلها: خلّفها. إلفها: صواحبها. واضح الخدين مكحول: يعني ولدها، وواضح الخدين: أي أبيضها.

وَخَشْخَشْتُ بالعَنْسِ في قَفْرةٍ   مَقِيلَ ظِباء الصَّريم الحُرُنْ
وهُنَّ جُنُوحٌ لدى حاذةٍ   ضواربَ غِزْلانُها بالجُرُنْ.
أو نَعْجَةٌ من إراخِ الرمل أَخْذَلَها   عن إلْفِها واضحُ الخَدَّينِ مَكْحُولُ.

وفيها يدس النعام بيضه(١):

لوَى بَيْضاتِهِ بنقا رُماحِ   إلى حَرَّانَ، بالأَضيافِ هارِ(☆)

الذي قد يكون منه بُلْغَةٌ للظعائن في سفرهنّ، كما يذكر في أحد أبياته، من أنه جُلِب لهنّ بيض نعامة، بعد أن استرحن عقب رحلة شاقة(٢):

[أَتاهُنَّ لَبّانٌ ببَيض نعامةٍ   حَواها بذي اللِّصْبَيْنِ فوقَ جَنانِ](☆٢)

وكذا كانوا يصنعون من الرمال نوعاً من أقداح الخمر. وبهذا فسر بعض العلماء قول ابن مقبل(٣):

صُهابِيَّةٍ مُترَعٍ دَنُّها   تُرَجَّعُ من عُودِ وَعْسٍ مُرِنْ

فذهبوا إلى أن العود هنا: القَدَح، والوَعس: الرمل، يعني: قَدَحاً مصنوعاً من الزجاج. وقد مضى الخلاف في ذلك(٤).

---

(١) ديوانه: (٥/١٤٧) = (ط. TÜREK: ٥/٦٠).

(☆) نقا رماح: «نقاً ببلاد ربيعة بن عبدالله بن كلاب يقال له: نقا رماح»: (البكري: ما استعجم: ٦٧١)، ورُماح اليوم مدينة شمالي (الرياض) لاتزال تعرف بهذا الاسم القديم، وهي شرقي العرمة وغربي الدهناء. (انظر: ابن بليهد: ما تقارب سماعه: ١٠٥). وحَرّان: «كورة من كور ديار مُضَر معروفة، سُميت بحرّان بن آزر، أخي إبراهيم عليه السلام»: (البكري: م.ن: ٤٣٥). هار: ساقط ضعيف، والأصل هائر، فنقلت الهمزة إلى بعد الراء، كما قالوا في شائك السلاح: شاكُ السلاح، ثم عمل به ما عمل بالمنقوص، نحو: قاض وداع. (انظر: ابن منظور: (هور)). وذهب (عزة حسن) إلى أنه هنا «يصف الظليم»، ولعله إنما يصف النقا المذكور.

(٢) ديوانه: (٢٣/٣٤٣) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٢٩/١٥٦).

(☆٢) لبّان: اسم رجل. وذو اللصبين: اللصب: في الأصل المضيق في الجبل، وذو اللصبين: موضع بعينه. جنان: جبل أو واد بنجد، وكان منزلاً من منازل الخُضْر من محارب. (انظر: الحموي: البلدان: (جنان) و(لصبين)).

(٣) ديوانه: (٢٩/٢٩٦) = (ط. TÜREK: ٢٩/١٢٠).

(٤) راجع البيت: ب١ ف١: (ب - ١ - الخمر ومجالسها).

وفي الرمال أن تخيلوا - بفعل الرياح - أصوات عَزْف الجنّ، فسموا بعض أماكنها بـ«العَزّاف»، متصورين أنها مسكونة بالجن[1]، مثل قوله[2]:

بشُقَّةٍ من نَقا العَزّاف يسكنُها   جِنُّ الصَّريمة والعِين المَطافيلُ

والملاحظ أن ذكر الرمال يبرز في بعض موضوعات الشاعر بصفة خاصة. فمن تلكم الموضوعات وصف المرأة، حيث يستمدّ من الرمال - بما تعنيه من النعومة والامتلاء - ما يصور به جمال جسد المرأة وحركاتها، منتهجاً في هذا نهج القدماء عموما.

فكأن ردفي فتاته (زينب) دعصان من نقاً حُرٍّ، رفدهما العجاج بالتراب، ثم تندّيا في صبيحة مطيرة[3]:

خَوْدٌ مُنَعَّمةٌ كأنّ خِلافَها   وهناً إذا فُرِرَتْ إلى الجِلْبابِ
دِعصا نَقاً، رَفَدَ العَجاجُ تُرابَهُ،   حُرٌّ، صَبيحةَ ديمةٍ وذِهابِ

ويستطرد في وصف النقا فيقول[4]:

قَفْرٍ، أحاط به غواربُ رملةٍ   تَثْني النِّعاجَ فُرُوعُهُنَّ صِعابِ[☆]

وهذا الاستطراد في وصف النقا استطرادٌ في وصف بقية جسد الفتاة التي وصف خِلافَها في بيتيه السابقين[5].

---

(١) راجع البيت: م.ن: (ج - ٢ - الجن).
(٢) ديوانه: (٣١/٣٨٤) = (ط. TÜREK: لم يذكر).
(٣) م.ن: (٢/٦-٧) = (ط. TÜREK: ١/٦-٧).
(٤) م.ن: (٢/٨) = (ط. TÜREK: ٢/٨).
(☆) غوارب رملة: أعاليها. والنعاج: بقر الوحش. والمعنى: أن هذه الرملة صعبة عالية لاتستطيع النعاج التصعيد فيها. وصعاب: جرّها «على تصوّر قوله: «غوارب رملة» حرفاً واحداً»،وهي صفة لها»: (عزة حسن).
(٥) انظر: ب٤ ف١: أ - ٤ - الاستطراد.

ويصف نسوة منعّمات مكتنزات الأبدان ليّنات الأرداف، إذا لبست إحداهن غصنّ اللباس بجسدها، الذي يتهيّل بضاضة، كانهيال الرمال اللينة الرعديدة، والأوراك تغمز في المشية مثقلة بالكَفَل، فيقول[1]:

وُعْثُ الرَّوادِفِ ما تَغيا بِلِبْسَتِها   هَيْلَ الدَّهاسِ،وفي أوراكها ظَلَعُ

وصدر صاحبته، وقد زينته دنانير الذهب ودراهمه، كنقاً عليه جمر غضى، ألهبته الصَّبا ليلا، كما مرّ في بيته السابق عن (أُمّ خشرم).

ويصف مشية (أم سهم) وتأوّدها في خطوها، وكأنّ جسمها في ذلك نقاً متعرج الأخاديد، نديّ الرمل، في يوم مطير، ليس بالرغام المفرط في لينه؛ لأن مسّ الماء قد لبّده وثبّته، ولا بالشديد؛ لأن المها قد حركته قبل أن يتشدد، فهو بين ذلك في أحسن صوره، أشبه ما يكون بجسم حبيبته[2](☆):

قَطُوفُ الخُطَى، لا يَبْلُغُ الشِّبْرَ مَشْيُها   ولا ما وراء الشبر، إلا تَأَوُّدا
تَأَوُّدَ مظلومِ النَّقا خَضِلَتْ به   أهاليلُ يومٍ ماطرٍ فتَلَبَّدا
فلَبَّدَهُ مَسُّ القِطار، ورَخَّهُ   نِعاجُ رُؤافٍ قبل أَنْ يَتَشَدَّدا

وكأنّما هذه الأبيات التي تأخذ أواخرها بأوائلها (تَأَوُّدا - تَأَوُّدَ - فتَلَبَّدا - فلَبَّدَهُ) جسد تلك المرأة/ الظفيرة الرملية المنعقدة. وهنّ، في وئيد ميسهنّ، يشبهن المها بين الرمال[3]:

---

(١) ديوانه: (١١/١٧١) = (ط. TÜREK: ١١/٧٠).
(٢) م.ن: (٦٦/٢٠-٢٢) = (ط. TÜREK: ٢٧/٢٠-٢٢).
(☆) قطوف الخطى: متقاربة الخطو بطيئة. مظلوم النقا: الذي خدّد فيه المطر أخاديد متعرجة. خضلت به: أي أخضلته وبللته. والأهاليل: الأمطار. القطار: المطر. رخّه: وطئه فحركه وأرخاه. (انظر: تهذيب الأزهري: ٦/٥٦٦، والمعافري: ٣/٦٣). نعاج: بقر الوحش. ورؤاف: ضَفِرة رمل. (انظر: البكري: ما استعجم: ٦٢١). والضفرة: ما عظم من الرمل وتعقد بعضه على بعض. (انظر: الفيروزآبادي: (ضفر)).
(٣) ديوانه: (٢١/٣٠٦) = (ط. TÜREK: ٢١/١٢٤).

يَرْفُلْنَ في الرَّيْطِ لم يَنْقَبْ دَوابِرُهُ   مَشْيَ النِّعاجِ بِحِقْفِ الرَّمْلَةِ الحُرُنِ(☆)

وفي صورة أخرى تجمع بين وصف جسد المرأة ووصف اهتزاز أوصالها المنعّمة عند المشي، يتخذ الرملة وسيلة لنقل تفاصيلها، يقول(١)(☆٢):

[يَمْشينَ هَيْلَ النَّقا مالتْ جَوانِبُهُ   يَنْهال حيناً، ويَنْهاهُ الثَّرَى حينا]
[من رملِ عِرْنانَ أو من رملِ أَسْنُمَةٍ   جَعْدِ الثَّرى باتَ في الأمطار مَدْجونا]
[يَهْزُزْنَ للمشي أَوصالاً مُنَعَّمَةً   هَزَّ الجَنوبِ ضُحَى عَيدانَ يَبْرِينا]

وكثيراً ما استحسن النقاد القدماء هذه الأبيات(٢).

ويذكر الرمال في كلامه على المسافات التي تمتد فاصلاً يحول بينه وبين من يحب وما يحبّ. وقد يصحّ هنا ما قيل في الجبال سابقا، من أن هذه الحواجز الجغرافية التي تؤرقه ليست - أحياناً على الأقل - بسوى رموز يعبّر بها عن

(☆) الريط: جمع رَيْطة: الملاءة أو الثوب اللين الدقيق، وقيل إذا كان قطعة واحدة كلها نسج واحد. (انظر: ابن منظور: (ريط)). لم ينقب دوابره: أي لم يبل من دُبُر لكثرة الاستعمال، فهو قماش جديد. والنعاج: بقر الوحش. الحُرُن: صفة النعاج، والمفرد: حَرُون: وهي المتحيرة لا تبرح موضعها. شبه مشي أولئك النساء وميسانهن بمشي المها الوئيد في الرمال.

(١) ديوانه: (٣٢٦-٣٢٧/ ٣٥-٣٧) = (ط. TÜREK: ١٣٣-١٣٤/ ٣٥-٣٧).

(☆٢) هيل النقا: (راجع: أسماء الرمال وصفاتها - بداية هذا الموضوع). والثرى: التراب الندي. عرنان: واد بقرب (العلا) ذو رمل كثير، قال (الجاسر: في شمال غرب الجزيرة: ٥٠٠): «هناك أمكنة معدودة بالجناب ولا تزال معروفة، مثل عرنان... فعرنان يطلق على موضعين خلط بينهما المتقدمون: جبل لا يزال معروفاً يقع في الجنوب الشرقي من بلدة تيماء فيما بينها وبين الجبلين (حايل) (بقرب الدرجة ٤٢/٣٩ طولاً و١٥/٢٧ عرضاً) يدعه الطريق يمينه، والموضع الثاني: واد يقع بقرب العلا وهو ذو رمل كثير، وهو الذي ورد في شعر ابن مقبل الذي أورده البكري، والجناب واقع بين الموضعين». وأسنمة: «اسم رملة قريب من فَلْج... وهي أسفل الدهناء، على طريق فلج وأنت مصعد إلى مكة، وهو نقا محدد طويل، كأنه سنام»: (البكري: ما استعجم: ٩٣٥، ١٥٠)، وفي (القرشي: ٢/ ٨٦٠): أسنُمة وأسيِنمة: (بضم النون وكسرها)، و(انظر: الحموي: البلدان: (أسنمة)) جعد الثرى: أي في ثراه جعودة وغضون. مدجون: ممطور. الجنوب: ريح الجنوب. والعيدان: (بكسر العين) - كما هي رواية الديوان - جمع عُود، أي عيدان الشجر، وفي (ابن منظور: (ذوق)، و(عدن)): «عَيدان» (بفتح العين): جمع عَيْدانة، وهي النخلة الطويلة. (انظر: م.ن: (عدن)، و(عود))، وقد فسر (عزة حسن) «عيدان» بـ«النخل الطوال»، مع أن الرواية عنده بكسر العين، ولم يشر إلى رواية فتحها، التي يعتمد عليها هذا التفسير، ومثل ذلك في (البديبنجي ٦٥٢)، وصحة الرواية بفتح العين كما أثبتنا. (انظر: العسكري: التصحيف: ٢/ ٣٤٦)، وهو بروايته الصحيحة في (ط. TÜREK). يبرين: «رمل معروف في ديار بني سعد من تميم»: (البكري: ما استعجم: ١٣٨٧)

(٢) انظر: ب٥ ف١.

الحواجز الاجتماعية - الثقافية التي تحول دون الوصل واللقاء؛ وتلك كانت أُمّ المشكلات في سبيل حبه، وليست المسافة المكانية، وإلا كان حلّها ملك يده[1]:

أإحدى بني عبسٍ ذَكَرْتَ، ودونها سَنيحٌ، ومن رَمْلِ البَعُوضَةِ مَنْكِبُ[☆]

ويؤكد هذا التصور قوله السابق[2][☆2]:

كأن السُّرَى أَهْدَتْ لَنا بعدما وَنَى من الليل سُمّارُ الدجاج فنَوَّما
رَبيبةَ حُرٍّ دافعتْ في حُقوفِهِ رَخاخَ الثَّرَى، والأُقحوان المُدَيَّا[3]

ومأتى الرمال في حديثه عن الظعائن المسافرة[4]:

بل هل تَرَى ظُعُناً، كُبيشةُ وَسْطَها، مُتَلَنِّباتِ الخَلِّ من أَوْرالِ[☆3]

وذكره الرمال في أطلال دار الحبيبة، لا سيما (اللِّوَى)؛ وذلك لأن «اللِّوَى مُنْقَطَع الرمل، يقال: قد أَلْوَيْتم فانزلوا، إذا بلغوا منقطع الرمل»[5]، حيث صلابة الأرض، وهذا أثبت لأوتاد الأبنية، وأمكن لحفر النؤي[6].

---

(١) ديوانه: (٢٠/٣٥) = (ط. TÜREK: ٩/٣٥).

(☆) سنيح: «موضع قِبَل البعوضة، وهو من مياه بني عبس»: (البكري: ما استعجم: ٧٦٢)، وفي (الحموي: البلدان: (سنيح)): «قال الأزدي: سنيح جبل في قول ابن مقبل: ....». ورمل البعوضة: في أرض طيء. (انظر: البكري: م.ن: ٢٦١)، وقيل: البعوضة: ماءة لبني أسد بنجد قريبة القعر. (انظر: الحموي: م.ن: (البعوضة)). منكب: مرتفع منه.

(٢) ديوانه: (٢٨٤/٥-٦) = (ط. TÜREK: ١١٥/٥-٦).

(☆٢) ونى: تعب. وسمّار الدجاج: يريد الدُّيكة التي تتصايح في الليل، كناية عن الوقت المتأخر منه. ومما قيل عن البيت الأخير في (تهذيب الأزهري: ٦/٥٦٦): «وقوله: والأقحوان، أي وثغراً كالأقحوان»، أي: أهدت لنا امرأة كالمهاة، ثغرها كالأقحوان الندي.

(٣) انظر: ب٤ ف٣: ب - ٢ - ٢.

(٤) ديوانه: (٢٥٥/٤) = (ط. TÜREK: ١٠٤/٤).

(☆٣) متلنبات: التلنب: إتيان المكان من نحو ذنابته وأسفله. والخَلّ: الطريق بين الرمل. وأورال: ضفرة رمل دون مكة (انظر: البكري: ما استعجم: ٢١١).

(٥) الحموي: البلدان: (اللوى).

(٦) انظر: عزة حسن: (٦/٤٢، ١/٤٠٨).

فيقول[1][☆]:

عفا الدارَ من دَهْماءَ بعدَ إقامةٍ ... عَجاجٌ بجَنْبَي مَنْدَدٍ مُتَناوِحُ
فصِخْدٌ فشِسْعَى من عُمَيْرَةَ فاللِّوَى ... يَلُحْنَ كما لاح الوُشومُ القَرائحُ

ويقول[2]:

ألا ناديا رَبْعَي كُبيشة باللِّوَى ... بحاجة محزونٍ، وإنْ لم يُناديا

وكذا في الحديث عن رحلاته كثيراً ما يذكر الرمال. وقد تقدمت الإشارة إلى أن مساحات من الرمال واسعة تغطي جزيرة العرب. فهذه الكثرة من الرمال، التي تظهر في رحلاته تلك - مع ما تعكسه عن المحيط الذي عاش فيه - لا تعدم حمولاً نفسية عن سياقات الصور من تجسيد حالات الفراق والفقد. فمن وصف إحدى رحلاته الشاقة، مغادراً معشوقته (عُتيبة)، يقول[3][☆٢]:

بهادٍ تَـجـاوبُ أصـداؤه ... يَشُقُّ بأيدي المَطِيِّ الرمالا
كـأن مـصـاعـيـبَ أنـقـائـهِ ... جمالٌ هِجانٌ تُسامي جمالا

---

(١) ديوانه: (٤١-٤٢/٥-٦) = (ط. TÜREK: ١٧/٥-٦).

(☆) مندد: «واد باليمن، كثير الرياح شديدها»: (البكري: ما استعجم: ١٢٦٩). متناوح: يهبّ من جهات مختلفة. صخد وشسعى وعميرة: «قال أبو عبيدة: هذه كلها أودية باليمن»: (م.ن: ٨٢٦). واللِّوَى: لعله موضع هاهنا، وهناك واد من أودية بني سليم يسمى اللِّوى. (انظر: الزمخشري: الأمكنة: ٢٠٠، والحموي: البلدان: (اللوى)). والقرائح: جمع قريح، أي مقرّح: مغرّز بالإبرة ليوضع فيه الكحل، شبه آثار الدار بالوشوم.

(٢) ذيل ديوانه: (٤٠٨/١) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٥٨/١٦٠).

(٣) ديوانه: (٢٢٨/١٣-١٥) = (ط. TÜREK: ٩٣/١٣-١٥).

(☆٢) الهادي: الطريق الذي يهتدى به. (انظر: تهذيب الأزهري: ٣/ ١٣١). في (ابن ميمون (مخطوط): الورقة: ٣١/أ): «تَجاوَبَ»: (بفتح الآخر). أصداؤه: جمع صدى، وهو طائر يخرج من هامة المقتول، فيصيح اسقوني، حتى يؤخذ بالثأر، في زعم الجاهليين. مصاعيب أنقائه: جمع مُصْعَب، أي: الصعب منها، وليس بصحيح ما زعمه (عزة حسن) من أن كتب اللغة لم تذكر مُصْعَب في هذا المعنى، وإنما ذكرت الصاعب، قال (ابن فارس: المجمل: (صعب)): «ويقال في الرمل أيضاً: مُصْعَب. والجمع: مَصاعب ومصاعيب». والهجان: البيض العتاق. تسوف: تشم. النواعج: الإبل السراع، وقيل: البيض الكريمة، وقيل: التي تصاد عليها نعاج الوحش (انظر: ابن منظور: (نعج)). خلّاته: جمع خَلّة، الطريقة في الرمل. والغيارى: جمع الغَيُور. مبال: لعله يعني مكان بَوْل، ولم نقف عليه.

تَسُوفُ النَّواعِجُ خَلَّاتِهِ　　كَسَوْفِ الجِمالِ الغَيارَى مَبالا

وكقوله – واصفاً إبلاً مسافرة على طريق (دَجُوج) –[1]:

كأن ذُراها من دَجُوجَ قَعائدٌ　　نَفَى الشَّرْقُ عنها المُغْضِناتِ السَّواريا[☆]

كما يجيء ذكر الرمال في مواطن الكلام عن حالة المُناخ الطبيعي، مقترناً بمُناخات الحبّ والذكرى وهطول الغيث. ففي المثال التالي يصف ريح الشمال، التي باكرت خزامى رملة عالج – المُشْبِهَة رائحته عطر حبيبته «أرنب» – بشهباء من الصقيع والندى، في ليلة شديدة البرودة[2]:

فباكرَها حين اسْتَعانَتْ حُقُوفُها　　بشهباءَ، ساريها من القُرِّ أَنْكَبُ[☆2]

ورمل الكوحين مَناخٌ لقلاص الغيث[3]:

---

(1) ذيل ديوانه: (٦/٤١٠) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٦١/١٦٣).

(☆) ذراها: يعني ذرى الإبل: جمع ذروة، وهي أعلى السنام. (انظر: الجوهري: (ذرا)). ودجوج: رملة دون الحرّة بأرض غطفان، وهناك موضعان آخران بهذا الاسم، ولكن (البكري) استشهد ببيت ابن مقبل على الموضع الأول. (انظر: ما استعجم: ٥٤٤). قعائد: جمع قعيدة: «نسيجة تنسج كهيئة العَيْبة، شبّه بها أسنمتها»: (م.ن)، وزاد (ابن منظور: (قعد))، في وصف القعيدة، أنها يُجلس عليها، وكذلك في (الفيروزآبادي: (القعود))، والعيبة: وعاء من أدم توضع فيه الثياب والمتاع. (انظر: ابن منظور: (عيب))، والقعيدة أيضاً: من الرمل، سبق تعريفها: (راجع: بداية الموضوع). وإذا كان هذا الأخير هو معنى القعائد هاهنا عاد عليها الضمير في كلمة: «عنها». والشرق: الشمس. والمغضنات: السحب المطرة. والسواري: جمع سارية، صفة للسحب، أي: التي تمطر ليلا.

(2) ديوانه: (١٩/٣٤) = (ط. TÜREK: ٩/٣٤).

(☆2) باكرها: أي باكر ريحُ الشمال الخزامى، وقد ذكرهما فيما قبل هذا البيت. استعانت: تلبّدت بندى الليل. حقوف: جمع حقف، من الرمل ما اعوجّ واستطال وأشرف. شهباء: ليلة ذات ندى وصقيع، (انظر: الزمخشري: الأساس: (عون))؛ فيكون الجار والمجرور في قوله: «بشهباء» متعلقاً بقوله: «استعانت»، ويجوز أن يكون الجار والمجرور هاهنا متعلقاً بقوله: «باكرها»؛ فتكون شهباء بمعنى: ريح فيها بَرَد وثلج، وهذا مما ذهب إليه (ثعلب) في تفسير قول (زهير):

أتانا، وقد لفّته شهباء قرة،　　على الرحل حتى المرء في الرحل، جانحُ

(انظر: ابن منظور: (شهب))، والشبه بين قول ابن مقبل وهذا البيت واضح. ساريها: أي السائر في الليلة على التقدير الأول، أو السائر في هذه الريح ليلاً على التقدير الآخر. والقُرّ: البرد. أنكب: مائل المنكب من شدة البرد يمشي في شق. (انظر: الزمخشري: م.ن، وابن منظور: (نكب)).

(3) ديوانه: (١٠/١٣١) = (ط. TÜREK: ١٠/٥٣).

أناخ برمل الكَوْمَحَيْن إناخةَ الـ ... ـيماني قِلاصاً حَطَّ عنهن أَكْوُرا(☆)

مثلما أن رملة (زنانير) تهدي رياح المصيف لدار ليلى(١):

تُهْدي زَنانيرُ أَرْواحَ المَصيفِ لها ... ومن ثَنايا فُرُوجِ الكَوْرِ تُهْدِينا(☆٢)

إلى غير هذه من الأمثلة، التي سبق الاستشهاد ببعضها في أماكن أخرى مختلفة من هذا الموضوع.

ويلمح في خلال هذا العرض خيطٌ دلاليّ شعريّ - مباشر أو ضمنيّ - لمورد الرمال من شعر (ابن مقبل)، حين تبدو غالباً معادلة جماليّاً لأنوثة الجسد وخصبه، في المرأة والطبيعة. وهي توظّف تعبيراً عن هذه القيمة في حضورها أو في وصف مسافات غيابها.

جـ - الوديان :

الوديان هي مصارف الماء من الجبال والمرتفعات إلى الرياض وغيرها من الأراضي، وبها ينتقل فائض المياه إلى البحر.

وقد استفاد العرب من هذه الوديان التي كانت منتشرة في الجزيرة فوائد مختلفة. فمنها تزويد الرياض بالمياه، في مجار يسمونها: « القُرْيان » ، قال

(☆) أناخ: أي نزل المطر غزيراً، على سبيل الاستعارة. والكومحان: «ضَفِرتان من الرمل وراء اليمامة»: (البكري: ما استعجم: ١١٤٣)، وقال في (تهذيب الأزهري: ٤/١١٦): «حبلان من حبال الرمال معروفان». واليماني: يريد التاجر اليماني كما يبدو. قلاص: جمع قلوص: وهي الفتية من الإبل. الأكور: جمع كُور، وهو الرحل بأداته. (انظر: الجوهري: (قلص)، و(كور)).

(١) ديوانه: (٧/٣١٨) = (ط. TÜREK: ٧/١٢٩).

(☆٢) زنانير: «رملة بين بلاد غطفان وأرض طيىء... وقال ابن الأعرابي، وقد أنشد بيت ابن مقبل المذكور، زنانير: موضع باليمن»: (البكري: ما استعجم: ٧٠٣)، وقال (ابن فارس: المقاييس: ٣/ ٢٨): «الزنانير: أرض بقرب جُرَش»، وقال (ابن بليهد: صحيح الأخبار: ٢/ ٨٥): «أما زنانير فهي هضبات على وادي رنية في المتصعب بين رنية وجرش الذي يقال له اليوم: «أبا الجُرشي» يقع وادي رنية بينهن». أرواح المصيف: رياحه. والكَوْر: «جبل بين اليمامة ومكة لبني عامر ثم لبني سلول... والكَوْر أيضاً أرض بنجران»: (الحموي: البلدان: (كور)).

ابن مقبل[1][☆]:

- وغَيْثٍ تَبَطَّنْتُ قُرْيانَهُ　　تَرى النبتَ مَكَّنَ فيه اكْتِهالا.
- وغَيْثٍ تَبَطَّنْتُ قُرْيانَهُ　　إذا رَفَّهَ الوَبْلُ عنه دُجِنْ.

أو «التلاع»[2]:

وغَيْثٍ تَبَطَّنْتُ النَّدَى في تِلاعِهِ　　بِمِضْطَلِعِ التَّعْداءِ نَهْدٍ مَراكِلُهْ[☆٢]

وفيها موارد للناس والحيوان، وكثيراً ما يقصدها المسافرون للشرب، وسقي الإبل، والتزوّد بالماء، كما يصف الشاعر في معرض حديثه عن ظعن مسافرة مرت على واديي (حَوْتَنانَيْن)، فيقول[3]:

ثُم استغاثوا بماءٍ لا رِشاءَ له　　من حَوْتَنانَيْن لا مِلْحٍ ولا دَمِنِ[☆٣]

وكانت في بعضها مَراعٍ مَرِيعة، في مثل: فَلْج، ورحايا، والرَّكاء، وغيرها من الوديان الخصيبة التي ألمّ بذكرها الشاعر. ومما يدلّ على مدى خصبها ووفرة مرعاها قوله - واصفا فرساً -[4]:

---

(١) ديوانه: (٣٤/٢٣٣)، (١/٢٨٩) = (ط. TÜREK: ٣٣/٩٥، ١/١١٦).

(☆) تبطنت: يقال تبطنت الوادي: «دخلت بطنه وجولت فيه»: (ابن منظور: (بطن)). قُرْيان: جمع قَرَى أو قَرِيّ، وهو مجرى الماء من الغلظ إلى الرياض. (انظر: ابن دريد: وصف المطر: ٤٩). مكّن فيه اكتهالا: أي قوي وطال. رفّه: كَفّ هاهنا. والوبل: «المطر الكبار القَطْر الشديد الوقع»: (م.ن: ١٧). دجن: «أي ركبه دَجْن أي إلباسُ غيم ونَدًى»: (البكري: اللآلي: ٢/ ٦٨٠).

(٢) ديوانه: (٣١/٢٤٦) = (ط. TÜREK: ٣٠/١٠٠).

(☆٢) التلاع: جمع تَلْعة، وهي مسيل الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض هاهنا. (انظر: ابن منظور: (تلع)). مضطلع التعداء: قوي في الجري، يصف فرسا. ونهد: جسيم مشرف. مراكله: مكان ركل الراكب إياه، وهما مركلان يركلهما برجليه ليحثه على الركض.

(٣) ديوانه: (١٤/٣٠٤) = (ط. TÜREK: ١٤/١٢٣).

(☆٣) الرشاء: حبل الدلو، ولعله يكنّي بقوله: «لا رشاء له» عن قرب الماء وكثرته، حتى إنه لا يحتاج إلى استعمال الدلاء؛ ولهذا جاء في بعض رواياته: «ولا زَنَن»، قال في (تهذيب الأزهري: ٤/٤٤٣): «أي: ولا ضَيّق قليل». وحوتنانان: واديان في بلاد قيس، كل واحد منهما يقال له: حوتنان. (انظر: م.ن، والحموي: البلدان: (حوتنانان)، وابن منظور: (حتن)). والدِّمِن: المتدمن الذي وقع فيه شيء من الروث.

(٤) ديوانه: (٤٠/٢٧٧) = (ط. TÜREK: ٤٠/١١٢).

عَرَّجْتُهُ رائداً في عازبٍ عَرِدٍ ... جُنَّ النَّواصِفُ فيه واليَحاميمُ[☆]

ويقول، معبرّاً عن كثرة الماء والمرعى في أحد الوديان[1][☆2]:

وغَيْثٍ أَسَالَ اللهُ مُهجَةَ نفسِهِ ... بوادٍ عَذاةٍ لا تَوارَى كَواكِبُهْ

سَرَى الماء حتى لم يدعْ لإخاذه ... إخاذاً، فأضحَى الماء يَطْفَحُ جانِبُهْ

وبدهي أن يكون هذا الماء والكلأ مدعاة جذب للعرب، فاتخذوا من الوديان مقاماتهم. وكثيراً ما بكى ابن مقبل أطلال من كانوا ببعض الأودية، كصِخْد، وشِسْعَى، وعُمَيْرة، ومَنْدَد، وكُلاف، ومُنْكِف، وحَرِم، وبخاصة وادي الرَّكاء، وهو من أودية بني العجلان، قبيلة الشاعر[2]. فمن ذلك قوله مثلا[3]:

أَجِدِّي [أَرَى] هذا الزمانَ تَغَيَّرَا ... وبَطْنَ الرَّكاء من مَوالِيَّ أَقْفَرا.

والوديان مرتع للظباء، والحُمُر الوحشية، فكانت من مصادر الصيد عندهم[4][☆3]:

(☆) عرجته: حبسته يعني الفرس. (انظر: ابن منظور: (عرج)). رائداً: لعله حال من «عرجته»؛ قال (أبو حنيفة): «رادت الإبل ترود رياداً اختلفت في المرعى مقبلة ومدبرة وذلك ريادها، والموضع: مَراد»: (ابن منظور: (رود))، فالتقدير حبست الفرس يرود في المرعى الموصوف. عازب: كلأ لم يرع قط ولا وطئ. (انظر: م.ن: (عزب)). عَرِد: من عَرَد النبت يَعْرُد عُروداً إذا طلع وارتفع، وقيل: خرج عن نَعْمته وغضوضته فاشتد. (انظر: م.ن: (عرد)). وجُنّ العشب: التفّ وأخرج زهره. (انظر: تهذيب الأزهري: ٧/ ٢٠٢). والنواصف: جمع ناصفة، وهي موضع مِنْبات يتسع من الوادي. (انظر: ابن منظور: (نصف)). واليحاميم: جمع يَحْموم، أي نبت أخضر رَيّان أسود. (انظر: م.ن: (حم)).

(١) ذيل ديوانه: (٣٥٦/١-٢) = (ط. TÜREK: لم يذكرا).

(☆٢) الإخاذ: «الغُدُر، وقيل: الإخاذ واحد والجمع آخاذ، نادر، وقيل: الإخاذ والإخاذة بمعنى، والإخاذة: شيء كالغدير، والجمع إخاذ...»: (ابن منظور: (أخذ)).

(٢) راجع: المدخل: ثانياً: أ - ٤.

(٣) ديوانه: (١١/١٣٢) = (ط. TÜREK: ١١/٥٣).

(٤) ديوانه: (٤١/٢٧٨، ٤٣) = (ط. TÜREK: ٤١/١١٣، ٤٣).

(☆٣) الطرابيل: جمع طربال، وهو عَلَم يُبنى، وقيل: كل بناء عال، وقيل: كل قطعة من جبل أو حائط مستطيلة في السماء. (انظر: ابن منظور: (طربل)). شَبّه بها النبات الطويل الذي وصفه في البيت الذي قبله أحدان: جمع واحد وهو بمعنى القويّ الذي لا نظير له. والمعارف: جمع مَعْرَفة، منبت الناصية. والجُون: جمع جون، الأبيض أو -

مِثْلُ الطَّرابيلِ، أُحْدانُ الحمير به تَفْلي مَعارِفَها الجُونُ العَلاجيمُ
[حتى دُفِعْتُ لِمَسْتُوري على عَجَلٍ في جَوْزِهِ ونَصيلِ الرأسِ تَقْديمُ]

وهي مأوًى للطيور المختلفة، ويذكر الشاعر منها الحمام، إذ يقول(1):

واستقبَلوا وادياً جَرْسُ الحَمام به كَأَنَّهُ نَوْحُ أَنباطٍ مَثاكيلُ(☆)

وقد يكون في الوادي ملاذ للعاشقين عن عيون العاذلين(2):

أَعْطَتْ بِبَطْنِ سُهَيٍّ بعضَ ما مَنَعَتْ حُكْمَ المُحِبِّ فلمّا ناله صَرَفا

على أن الوادي كان رمزاً للوحشة والمجهول عند العرب، كما كان رمزاً للخصب والمأمول، حتى إن الشاعر حينما يفخر بجرأته على قطع الآماد المقفرة لا ينسى الوديان، بما فيها من الوحوش والمآسد والأهوال(3):

وأَرضٍ بها الْتاثَ السُّعُونُ قَطَعْتُها وأوديةٍ قَفْرٍ يصيحُ بها الهَدا(☆2)

وكذلك عند الفخر بعشيرته، وإلقاء الرعب بهم في نفوس الأعادي(4):

= الأسود؛ من الأضداد، وهاهنا بمعنى البيض، لأن حمر الوحش توصف بالبياض. (انظر: م.ن: (جون)). العلاجيم: جمع عُلْجوم، وهي الأتان الطويلة الكثيرة اللحم. (انظر: م.ن: (علجم)). مستوري: أي ساتري، ويجوز أن يكون مفعولاً بمعنى فاعل، كما قال تعالى: ﴿جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾: (الإسراء: ٤٥)، (وانظر: ابن منظور: (ستر))، كأن الشاعر يشير هنا إلى أنه ترصد للحمر ليصطاد منها. جوزه: وسطه، يصف فرسه، الذي كان موضوع الحديث من قبل، فعاد إليه هاهنا. ونصيل الرأس: أعلاه. تقديم: طول وارتفاع، ينعته بالعظم والنشاط، ويجوز أن يكون هذا وصفاً لحمار الوحش الذي ذكره بين هذين البيتين.

(1) ذيل ديوانه: (١٢/٣٧٨) = (ط. TÜREK: لم يذكر).

(☆) جرْس: صوت. نوح: نساء يجتمعن للبكاء على الميت. والأنباط: أمة متحضرة أقامت شمال الجزيرة العربية، اختُلف في أصلهم، ويرجح أنهم من العرب. ومثاكيل: صفة للنوح.

(2) ديوانه: (١١/١٨٣) = (ط. TÜREK: ١١/٧٤).

(3) م.ن: (١٤/٥٩) = (ط. TÜREK: ١٤/٢٤).

(☆2) التاث: يبس وانطوى. والسعون: جمع السُّعْن والسعنة، وهي قربة الماء أو الإداوة، (انظر: ابن منظور: (لوث)، و(سعن))، والتاث السعون: كناية عن شدة الحر والعطش. الهدا: الهداهد، جمع الهُدْهُد، الطائر المعروف، وإنما حذف جزء الكلمة الأخير لضرورة القافية. (وانظر: الألوسي: الضرائر: ٥٨-٦١).

(4) ديوانه: (٢٩/٦٨) = (ط. TÜREK: ٢٩/٢٨).

جُلوساً بها الشُّمُّ العِجافُ كأنهم أُسُودٌ بتَرْجٍ أو أُسُودٌ بعِتْوَدا[☆]

ويلاحظ أن ذكر الوديان يكثر في بعض موضوعات شعره دون بعضها الآخر، فيكثر في الأطلال وذكريات الحبيبة، ووصف الظعن، والرحلة، والطبيعة، والمناخ. ولا يكاد يختلف تفسير ذلك هنا عن مثيله مما تقدم في الجبال والرمال.

د - الرياض:

الرياض: جمع روضة، وهي الأرض ذات الخضرة، أو البستان الحسن، وقيل: لا تكون روضة إلا بماء معها أو جنبها، بحيث يستريض الماء فيها، أي يستنقع[١].

وكانت في الجزيرة مجموعة من الرياض، بلغت - على حدّ قول (الحموي)[٢] - مئة وستاً وثلاثين.

وهذه الرياض تكون مطمئنة، تستريض من مياه المطر، عن طريق التلاع والقُريان التي تزودها بالماء من الجبال والوديان، فتنبت ضروباً من الأعشاب والبقول والأشجار، لا يسرع إليها الذبول[٣]. فإذا نزلت الأمطار أعشبت

(☆) العجاف: جمع الأعجف، أي القليل اللحم هاهنا، وهي مِدْحة عند العرب؛ يقولون: «أشد الرجال الأعجف الضخم»: (ابن منظور: (عجف)). ترج: مأسدة ببيشة، وهي من بلاد خثعم، وفي (البكري: ما استعجم: ٣٠٩) أن ترج في بيت ابن مقبل هذا جبل بالشام. عتود: واد بالحجاز، (انظر: الحموي: البلدان: (عتود))، وفي (الهمداني: ٧٧) أن عتود بحازة عُثَّر، وعلق عققه: «عتود واد أعلاه في صبير وأسفله في تهامة»، ولا يزال باسمه حتى الآن، وقال (البكري: م.ن: ٩١٩): «جبل بالشام»، واستشهد ببيت ابن مقبل هذا، والأول أرجح؛ لأن ترج وعتود من مآسد العرب المشهورة. وقال (الهمداني: ٢٦٩): «فأما تبالة وترج وبيشة فهي من أعراض نجد ولا يكون بهذا أسد، ولم يكن، وإنما تريد العرب أسود بِيْش، ويزيدون فيه الهاء فيقولون: بِيْشة: (بفتح الباء) وهي مواضع الأسد، وبِيشة بَقطان فهي بكسر الباء...»، وفي (تهذيب الأزهري: ٢/١٩٦): «عَتْوَد - على بناء جَهْوَر - : مأسدة» واستشهد ببيت ابن مقبل هذا.

(١) انظر: ابن منظور: (روض).
(٢) انظر: البلدان: ٢/ ٨٤٠-٨٦٠.
(٣) انظر: ابن منظور: (م.ن).

ورعاها الناس، كما يذكر ابن مقبل، في وصف روضة غنّاء سقاها السِّماك الأعزل[1](☆):

وغَيْثٍ مَريعٍ لم يُجَدَّعْ نباتُه   ولَتْهُ أهاليلُ السِّماكَين مُعْشِبِ
بَسَرْتُ، وغَنَّاني الذبابُ عَشِيَّةً   بذابله، والشمس لمّا تَغَيَّبِ

وقد تكون الروضة بستان نخل، كتلك التي شبّه بها الشاعر الظعن في (جيلان) أو (هَجَر)، في قوله[2]:

ثم ارتحلنَ أُنَيّاً بعد تَضْحيَةٍ   مِثْلَ المَخاريفِ من جَيْلانَ أو هَجَرِ[☆٢]

ولذلك كانت الرياض تستقطب العرب؛ لما يجدون فيها من مرعى ومأكل

---

(١) ديوانه: (٨/١-٢) = (ط. TÜREK: ٤/١-٢).

(☆) مريع: تخصب منه الأرض. لم يجدع نباته: لم يقطع من أعلاه ونواحيه أو يؤكل منه، «ويقال: جدّع القحط النبات إذا لم يزكُ لانقطاع الغيث عنه»: (تهذيب الأزهري: ١/٣٤٦)، وفي (٢/ ٣٩٤): «لم يجدّع نباته أي لم ينقطع عنه المطر (فيجدّع كما يجدّع) الصبي إذا لم يَرْوَ من اللبن فيسوء غذاؤه ويهزل»، و(انظر: ابن قتيبة: غريب الحديث: ١/ ٦١٦-٦١٧). ولته: أي سقته الولي، وهو المطر بعد المطر، أو المطر بعد الوسمي. (انظر: ابن منظور: (ولي)). أهاليل: أمطار، لا واحد لها. (انظر: تهذيب الأزهري: ٥/ ٣٧٠). والسماكان: نجمان، السماك الأعزل وله نوء، والسماك الرامح ولا نوء له، وربما نسبوا النوء إلى السماكين معاً وهم يريدون الأعزل كما فعل ابن مقبل هنا. (انظر: ابن قتيبة: الأنواء: ٦٣)، و(البغدادي: شرح الأبيات: ٢/ ١٥١). بسرتُ: رعيته غضّاً، وكنت أول من رعاه. (انظر: ابن منظور: (بسر)). الذباب: لعله النحل هاهنا، وغناؤه في النبات من علامات الخصب وازدهار النبات، وفي حديث (عمر رضي الله عنه) عن النحل «فإنما هو ذباب غيث»: (م.ن: (ذبب))، ذابله: الضمير عائد على الغيث.

(٢) ديوانه: (٩٢/ ٥٥) = (ط. TÜREK: ٣٦/ ٥٥).

(☆٢) أُنَيّ: جاء في (الحموي: البلدان: (جيلان)): «قال محمد بن المعلى الأزدي في قول تميم بن أبي، ومن خطه نقلته: ثم احتملن أُنَيّاً...، أُنَيّ: تصغير أَنْيٍ واحد آناء الليل»، وجاء في (تهذيب الأزهري: ١٥/ ٥٥٣): «ويقال: إن خير فلان لبطيء أَنِيّ؛ قال ابن مقبل: ثُم احتملن أُنيّاً...»، ومثل ذلك في (ابن سلمة: الفاخر: ٢٧٢)، و(الأنباري: الزاهر: ٢/ ٢٢)، و(ابن منظور: (أني)). والتضحية: طعام الضحى. والمخاريف: جمع مَخْرَف ومَخْرَفة، بستان من النخل، من خرف النخلة، أي: جنى ثمرها. (انظر: أبا حنيفة: ١٥٦، وابن منظور: (خرف)). جيلان: نقل (الحموي: م.ن) عن (ابن المعلى الأزدي) قوله: «... وجيلان قوم من أبناء فارس انتقلوا من نواحي اصطخر فنزلوا بطرف من البحرين فغرسوا وزرعوا وحفروا وأقاموا هناك، فنزل عليهم قوم من بني عِجْل فدخلوا فيهم. قال (امرؤ القيس):

أطافت به جيلان عند قطافه   وردّت عليه الماء حتى تحيّرا

قال: ويدلك على صحة ذلك قول تميم بعده: طافت به العجم...». وهَجَر: ما تسمى بالبحرين قديماً، ويضرب بها المثل في كثرة النخيل والتمور.

ومشرب، فرياض (ذي بقر) كانت مأهولة كما يقول[1]:

فرياض ذي بَقَرٍ، فَحَزْمُ شَقيقةٍ ... قَفْرٌ وقد يَغْنَيْنَ غيرَ قِفارِ[☆]

وكذلك (غَوْل)[2]:

ليالِيَ بعضهم جِيرانُ بعض ... بِغَوْلٍ، فهو مَوْلِيٌّ مُريضُ[☆2]

وبستان النخيل محطّة يرتاح فيها الراحلون، كالبستان الذي مال إليه حداة ظعن (كبيشة) بعد رحلة طويلة[3]:

مالَ الحُداةُ بها لِحائشِ قريةٍ ... وكأنها سُفُنٌ بسِيفِ أُوالِ[☆3]

---

(1) ديوانه: (٤/١١٩) = (ط. TÜREK: ٤/٤٧).

(☆) ذو بقر: قرية في ديار بني أسد، وعن (الأصمعي): قاع يقري الماء، وقال يعقوب: «ذو بقر واد فوق الرَّبَذة»، وذو بقر حفائر حفرها المهدي على بعد (٢٢) ميلاً من الربذة غرباً بجنوب. (انظر: البكري: ما استعجم: ٢٦٣-٢٦٤، ٦٣٤-٦٣٥)، «قال (ابن الكلبي): سمي بـ(بقر بن جنادة): احتفره»: (البغدادي: شرح الأبيات: ٧/ ٣٢)، وذكر (ابن بليهد: صحيح الأخبار: ٢/ ٥٢) أن ذا بقر هو (أبقار): «وهي أودية وسِلْقان بين منهل عفيف ومنهل القاعية، على الطريق السالك من مكة إلى الرياض، وموضع «أبقار» بين المنهلين»، وقال (ابن خميس: المجاز: ١٤١-١٤٢): «وإذا جزنا وادي (المعلق) يستقبلنا وادي (أبقار) يقبل من الشمال إلى الجنوب، وتحف به حزون وآكام...»، وكونها في حمى الربذة أرجح في البيت؛ لأن الشقيقة: بئر في ناحية أُبْلَى من نواحي المدينة. (انظر: البكري: ما استعجم: ٩٩، والحموي: البلدان: (الشقيقة)). والحزم: ما غلظ من الأرض وأشرف. (انظر: ابن منظور: (حزم)). يغنين: يكنّ مغاني، أي مأهولات، يعني تلك الأماكن.

(2) ذيل ديوانه: (٢٨/٣٦٩) = (ط. TÜREK: الملحق: ٥٢/١٤٦).

(☆2) غَوْل: إذا أنبتت الأرض الطلح وحده سمي غَوْلاً، وقيل: الغَوْل: ماء معروف للضباب بجوف طخفة به نخل، يذكر مع قادم، وهما واديان، وقيل: غول: جبل للضباب، حذاه ماء فيسمى الجبل هضب غول، وكانت فيه وقعة للعرب لضبّة على بني كلاب، وغول: موضع في شق العراق، مجاور لماء كِنْهِل، وبها كان يوم كنهل، ويوم غول بين بني يربوع وابني هجيمة من غسّان. ويصعب التحديد لأن البيت يتيم، وإن كان القول الأول يبدو أرجح لقربه من ديار الشاعر. (انظر: الحموي: البلدان: (غول))، و(البكري: ما استعجم: ١٠٠٩، ١١٣٦-١١٣٧). مولي: أصابه الوَليّ، وهو المطر بعد المطر أو المطر بعد الوسمي. (انظر: ابن منظور: (ولي)). مُريض: يقال أراض الماء القوم إذا أرواهم بعض الري، وقال الأصمعي: أراض الرجل إذا ارتوى، (انظر: المعافري: ٣/ ٥٢)، والمعنى هنا أن ذلك المكان كثرت رياضه واستنقع فيه الماء. (انظر: ابن منظور: (روض)).

(3) ديوانه: (٧/٢٥٦) = (ط. TÜREK: ٧/١٠٤).

(☆3) الحائش: «جماعة النخل والطرفاء، وهو في النخل أشهر، لا واحد له من لفظه»: (ابن منظور (حوش)). والسِّيف: ساحل البحر. وأوال قرية من قرى السِّيف بالبحرين، وقيل: جزيرة يحيط بها البحر بناحية البحرين، فيها نخل كثير وليمون وبساتين، (انظر: البكري: ما استعجم: ٢٠٨، والحموي: البلدان: (أوال))، وجاء في (ابن المجاور. ٣٠١) أن جزيرة البحرين هي أوال، «وقال آخرون: إن جزيرة أوال هي أوسط مغاص البحرين ولا أصفى ولا أكثر ماوية من لؤلؤه، وهي جزيرة في صدر القبة، وبرّ العرب وفارس مستدار حولها». شبه الشاعر هوادج الظعن بالسفن



وهذه الرياض مراتع لحمر الوحش، فكانت من مصادر الصيد(١)(☆):

قد قُدْتُ للوحش أبغي بعض غِرَّتِها ... حتى نُبِذْتُ بعَيْرِ العانة النَّعِرِ
والعَيْرُ يَنْفُخُ في المَكْنان قد كَتِنَتْ ... منه جَحافِلُهُ، والعِضْرِسِ الثُّجَرِ
بعازِبِ النبت يَرْتاعُ الفؤاد له، ... رَأْدَ النهار، لأصواتٍ منَ النُّعَرِ

وإنما توصف الروضة بالعزوب لأن الرياض أحسن ما تكون عند العرب إذا تباعدت عن الناس وعن مراعي أنعامهم، فتكون خالية من الدمن والأبعار التي تمغثها بها السيول في حالة قربها من مرابض الغنم وأعطان الإبل(٢).

وهذه الروضة تحوي النعام، وترفرف عليها ألوان الفَراش(٣)(☆٢):

(١) ديوانه: (٩٤-٩٥/٥٩-٦١) = (ط. TÜREK: ٣٧/٥٩-٦١).

(☆) قدت للوحش: أي قدت فرسي لصيده، وكان يصف فرسه قبل هذا البيت، نُبِذْت: أي لقيت. والعانة: القطيع من حمر الوحش. والنُّعر: الذي أذته النعرة، وهي نوع من الذباب. (انظر: ف٣: ز - الحشرات). ينفخ: في ديوانه «ينفح»: (بالحاء المهملة)، ونسبها (عزة حسن) إلى الأصل المخطوط و(الأصمعي: النبات: ١٣)، وهو غلط؛ ففي الأخير: «ينفخ»: (بالمنقوطة)، وقد نبه إلى ذلك محققه: (انظر: ٥٤)، وفي (ط. TÜREK): «ينفخ»: (بالمنقوطة) كذلك، قال (ابن قتيبة: المعاني: ٦٨): «وإنما ينفخ فيه لأنه قد سنق من الكلأ»، أي شبع وبَشِم، على أن محقق المعاني قد أشار إلى أن في الأصل: «ينفح»: (بالمهملة)، سواء في البيت أو التفسير، ومهما يكن فكلاهما جائز، ولكن رواية «ينفخ»: (بالمنقوطة) أكثر في المصادر. والمَكْنان والعضرس: بقلتان غضّتان رقيقتان. (انظر: ف٢). كتنت: اسودت ولزجت، «وإنما تكتن الجحافل من رعي العشب الغضّ يسيل ماؤه فيركب وَكَبُه ولَزَنجه على مَقامّ الشاء ومشافر الإبل، وجحافل الحافر، وإنما يُعرف هذا من شاهده...»: (تهذيب الأزهري: ١٠/١٣٩). جحافل: جمع جحفلة، وهي شفة الحمار هاهنا. والثُّجَر: جمع ثُجْرَة: وهو ما تجمع في نباته، وقال (الأصمعي: م.ن): «الثُّجَر: القِطَع المتفرقة، والثُّجَر: التام الذي قد تم، [قال]: ولم أسمعه إلا هاهنا»، ويروى «الثَّجِر»: ومعناه المجتمع، (انظر: تهذيب الأزهري: ١١/١٩)، و(ابن قتيبة: المعاني: ٦٨)، وقال (أبو حنيفة: ٨٥): «ثُجْرة: والجمع الثُّجَر: وهي قطع العشب المتفرقة». عازب النبت: البعيد الذي لم يرع، رأد النهار: «حين يعلوك النهار الأكبر حتى يمضي من النهار نحو من خمسه»: (التبريزي: الكنز: ٤٢٣)، وقال محققه: «وإنما قال: «رأد النهار» لأن النعر لا تكثر ولا تصوّت إلا في ارتفاع النهار، وأحسن ما تكون الرياض إذا طلعت عليها الشمس بعد ندى الليل».

(٢) انظر: البصري: التنبيهات: ٢٩٩.

(٣) ديوانه: (٩٥/٦٢-٦٣) = (ط. TÜREK: ٣٧/٦٢-٦٣).

(☆٢) الأزرق الأصفر السربال: يصف فراشة. (انظر: ف٣: ز - الحشرات). قيد العصا: على مد العصا. والذيال: الطويل القدّ والطويل الذيل المتبختر في مشيه، وتذيّل: تبختر، (انظر: الفيروزآبادي: (الذيل))، قال (عزة حسن): «يريد ساق الزهرة»، ويجوز أن تكون صفة «ذيّال» هاهنا بمعنى متبختر، على سبيل الاستعارة؛ حيث شبه الزهر في جمال زهوه بمن يمشي يجرّ ذيله متبختراً، وهناك من الزهور ما يخرج من قلبها شبه الذيل، وربما أكثر من ذيل واحد، فقد يعني الشاعر شيئاً من هذا النوع أيضا.

فيه من الأَخْرَجِ المُرْتاعِ قَرْقَرَةٌ   هَدْرَ الدِّيافِيِّ وَسْطَ الهَجْمَةِ البُحُرِ
والأزرقُ الأصفرُ [السِّرْبالِ] مُنْتَصِبٌ   قِيْدَ العَصا فوقَ ذَيّالٍ منَ الزَّهَرَ

وعلى القُريان طير القطا[1]:

وغارَةٍ كقَطا القُرْيان مُشْعَلَةٍ   قَدَعْتُها بِسَرَنْدًى شاخِصِ البَصَرِ[☆]

وبذا لم تكن استفادة العرب - في قحولة بيئتهم وشحّها - من هذه الرياض استفادة مادية معيشية فحسب، بل أيضاً استفادة معنوية جمالية خلّدوها بشعرهم، فقد أحسّوا في الرياض رمزاً للجمال والخصب، فرسموا لوحات طبيعية لتلكم الرياض تارة، واستلهموا منها بعض لوحاتهم الشعرية تارة أخرى.

فها هو ذا يمزج عطر الطبيعة بعطر الأنوثة واللقاء، حينما يستحضر الروضة الوسمية في وصف عطر (زينب) حبيبته فيقول[2][☆2]:

طرَقَتْ برَيّا رَوْضَةٍ وَسْمِيّةٍ   غَـرِدٍ بـذابلـهـا غِـنـاءُ ذُبـابِ
بقَرارةٍ مُـتَرَاكِـبٍ خَـطْـمِـيُّـهـا   والمِسْكُ خالَطها ذكِيُّ مَلابِ

وتشترك حواسّ البصر والشمّ واللّمس في تلقّي هبة الطبيعة النادرة[3]:

خُزامَى وسَعْدانٌ كأن رياضها   مُهِدْنَ بذي البِرْبيطِياءِ المُهَذَّبِ[☆3]

---

(1) ديوانه: (٩٦/ ٦٤) = (ط. TÜREK: ٣٧/ ٦٤).

(☆) القُريان: جمع قَرِي، وهو مجرى الماء إلى الروضة. قدعتها: كففتها. والسرندى: الشديد الجريء، يصف فرسه. شاخص البصر: صفة أخرى، أي: طامح متطلع.

(2) ديوانه: (٢/ ٤-٥) = (ط. TÜREK: ١/ ٤-٥).

(☆2) الريّا: الرائحة الطيبة. وسمية: أصابها الوسمي، وهو مطر أول الربيع. ذابلها: الضمير عائد على الروضة. وغناء الذباب بها علامة خصبها. بقرار: أي هذه الروضة كائنة بمكان مطمئن يستقر فيه الماء فهي من مكارم الأرض (انظر: ابن منظور: (قرر)). والخَطمي: ضرب من النبات يُغْسَل به. (انظر: م.ن: (خطم)). والملاب: ضرب من العطر، وهو فارسي معرّب. (انظر: م.ن: (لوب)).

(3) ذيل ديوانه: (٣٥٤/ ٦) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٤٠/ ١٢).

(☆3) الخزامى: نبات عطري، له نور كنور البنفسج. والسعدان: نبت ذو شوك. مهدن: بُسِطْن وفُرِشْن، والبربيطياء: موضع ينسب إليه الوَشْي، وقال أبو عمرو: البربيطياء: ثياب. (انظر: تهذيب الأزهري: ١٤/ ٥٩) - وفيه الياء الأخيرة مشدّدة - و(الحموي: البلدان: (بربيطياء)).

وفي هذه الأمثلة وغيرها يتمازج رمز الجمال برمز الخصب، مؤكَّداً بمثل استطراد الشاعر في وصف الروضة بأنها وسمية، كثيرة النبات، يغنّي فيها الذباب، كما في بيتيه الآنفين عن ريّا (زينب).

على أن بستان النخل بنحو خاص يتضمن رمزاً آخر، على (الصبر). ولعل إحساس الجاهلي بذلك الرمز كان أحد الأوجه وراء هذا التقليد الشعري في تشبيه الظُّعن ببستان النخل. ويعانق هذا الرمزُ رمزَ الخصب في قول الشاعر[(١)(☆)]:

ثم ارتحلنَ أُنَيّاً بعد تَضحِيَةٍ　　مِثْلَ المَخاريفِ من جَيْلانَ أو هَجَرِ
طافتْ بها الفُرْسُ حتى بَذَّ ناهضَها　　عُمٌّ لَقِحْنَ لِقاحاً غيرَ مُبْتَسَرِ

ومن هنا كانت رياض العرب منابع للحسن والخيال، بقدر ما كانت في واقع الحياة مصادر للخصب والنماء. (وللصورة تحليل لاحق: ب٤ ف٣).

هـ - المياه:

تكثر الإشارة إلى المياه في ديوان الشاعر، وهذا يعكس - واقعيّاً/ نفسيّاً - حاجة العرب الملحّة والدائمة إلى الماء. ومع ذلك فإنه يذكر مصادر شتى للمياه، وفي ذلك مؤكّد على ما يذهب إليه بعض المؤرخين من أن الجزيرة العربية كانت تنعم بأمطار ومُناخ يختلف عمّا نعرفه اليوم[(٢)].

ومصادر الماء أنواع في شعره، فمنها المياه الجوفية: كالآبار، والعيون، ومنها مياه الأمطار: كالسيول، والحياض، والنُّقَر، وغيرها.

---

(١) ديوانه: (٩٢/٥٥-٥٦) = (ط. TÜREK: ٣٦/٥٥-٥٦).

(☆) بها: الضمير عائد على المخاريف في البيت الأول. طافت: أي تولتها بالعناية. بَذَّ: أعجز وناهضها. ناهض الفُرس الذي يصعدها. عُمّ: جمع عَمَم وعميم، وهو الطويل، يصف نخل البساتين بالطول، حيث أعجز متسلقيه، ثم ضرب بَسْر الفحل الناقة - وهو تلقيحها قبل أوان لقاحها - لبَسْر النخل، وهو أن يلقّح قبل أن يدرك التلقيح، فقال: إن ذلك النخل قد لقح في أنسب وقت. (انظر: الأصمعي: الإبل: ٦٧)

(٢) انظر مثلاً: ابن المجاور: ٩، ١٦ وما بعدها، ثم: ٢١٧-٢١٨، وجواد علي: ١٥٨-١٥٩.

ويدهي أن يكون الماء - على اختلاف مصدره - هدفاً إذا ظفر به العرب أقاموا حوله؛ حيث الحياة لهم ولأنعامهم، أو زرعهم في البيئات الزراعية. وأمثلة ذلك كثيرة في شعر (ابن مقبل)، ففي بكائه ديار بني (حنيف بن قتيبة بن العجلان) - جده - يقف على آبارهم المطمورة قائلا[1]:

يُذَكِّرُنِي حَيَّيْ حُنَيْفٍ كليهما ... حَمامٌ تَرادَفْنَ الرَّكِيَّ المُعَوَّرا[☆]

وكان (بنو العجلان) يقيمون على (الدَّحُول)[2]:

وحَيٍّ حِلالٍ قد رأينا ومَجْلِسٍ ... تَعادَى بجِنّانِ الدَّحُولِ قَنابِلُهْ

ومن الأمواه التي يذكر أنها كانت مأهولة أيضا: تِبْراك: ماء لبني العنبر بالجله، وثاج: ماء لبني الفزع من خثعم، ببيشة، وشقيقة: بئر في ناحية أُبْلَى من نواحي المدينة، والشرف: ماء لبني كلاب، وأحراض: ماء بالمدينة، وشَرْج: ماء لبني أسد، والإوانة: من مياه بني عُقَيْل بنجد[3].

وكانوا في سني الجفاف يتعنّون لإيراد الإبل الموارد البعيدة، ففي الأبيات التالية يصف الشاعر قلوصاً نشيطة أوردها آباراً بعيدة قليلة الماء آجنته، فيقول[4][☆٢]:

---

(١) ديوانه: (٤٨/١٤١) = (ط. TÜREK: ٤٨/٥٧).

(☆) ترادفن: أتين متتابعات. والرَّكيّ: جمع الرَّكِيّة: وهي البئر. (انظر: ابن الأعرابي: ٥٨)، و(ابن منظور: (ركا)). المعوّر: المطموم.

(٢) ديوانه: (١٥/٢٤١) = (ط. TÜREK: ١٤/٩٨).

(٣) انظر: الحموي: البلدان: (تبراك)، وابن خميس: المجاز: ٦٥-٦٦، والبكري: ما استعجم: ٣٣٣، ٩٩، والحموي: م.ن: (الشقيقة)، والبكري: م.ن: ١١٨، ٧٩٢، ٧٩١، والحموي: م.ن: (الإوانة).

(٤) ديوانه: (١٢٤-٤/١٢٥، ٦-١٠) = (ط. TÜREK: ٤٩-٤/٥٠، ٦-١٠).

(☆٢) قلوص: فتية من الإبل. مأربة: حاجة. هبابها: سرعتها ونشاطها. مورد: طريق. والموارد: جمع مورد: وهو منهل الماء. مصدر: طريق يُصْدَر منه، صفة أخرى لمورد. الفتان: غشاء يكون للرحل من أدم. والوضين بطان عريض منسوج بعضه على بعض من سيور أو شعر، يشد به الرحل على البعير. (انظر: ابن منظور: (فتن)، و(وضن)) ويلغ الفتان وضينها: كناية عن سرعة السير وشدته. غلساً: وقت الغلس، وهو ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصبح (انظر: م.ن: (غلس)). لم تُوَصِل: أي لم تأت وقت الأصيل. وكذلك «تهجر»: من الهاجرة. قُلُب: جمع قَلِيب، وهو البئر. منكّزة: من نَكَزَت البئر إذا قل ماؤها. (انظر: ابن الأعرابي: ٦٤). جوائز: جمع جائزة، وهي مقام الساقي =

١- وقَلُوصِ مَأْرُبَةٍ بَغَيْتُ هِبابَها في مَوْرِدٍ نائي الموارد مَصْدَرِ
٢- وردتْ وقد بَلَغَ الفِتانُ وَضِينَها غَلَساً، ولم تُوْصِلْ ولم تَتَهَجَّرِ
٣- قُلُباً مُنَكَّرَةً، جَوائزُ عَرْشِها تَنْفي الدِّلاء بآجِنٍ مُتَمَذِّرِ
٤- جُوفاً، إذا نُهِزَتْ، تَرَنَّمَ جُولُها كَتَرَنُّم المَكُّوكِ عند المِزْهَرِ
٥- فتَزاوَرَتْ من طَيِّه وحِياضِه ونَقِيٌّ خِيمٍ كالنساء الحُسَّرِ
٦- عَبَّتْ بمِشْفَرِها وفَضْلِ زِمامِها في فَضْلَةٍ من ماصِعٍ مُتَكَدِّرِ

ويلاحظ أن الشاعر كان يشير إلى (الغَلَس) في معظم شعره الذي يتحدث فيه عن إيراد الإبل، وهو ما يسمى بـ(التَّغْليس)[١].

وقد يكون الإيراد في أثناء السفر[٢]:

وعاودتُ أَسْدامَ المياه ولم تزل قَلائصُ تَحْتي في طريقٍ طَلائحُ[☆]

ومن مصادر المياه الحياض التي كانوا يعملونها لجمع الماء وحفظه[٣]:

نَواهِكُ بَيُّوتِ الحِياضِ إذا غَدَتْ عليه، وقد ضَمَّ الضَّريبُ الأفاعيا[☆٢]

- من البئر، أو جائز: وهو هنا الخشبة في عرش البئر. (انظر: ابن منظور: (جوز)). عرشها: «خشابتها التي يستظل بها، عليها بطرح الثُّمام»: (ابن الأعرابي: ٦٧). تنفي: من النَّفِيّ، وهو ما انتضح من الماء إذا نزع من البئر، كأنه يقول إن خشبات العرش ترتطم بالدلاء عند رفعها فتنضحها بالماء، أو أنه يقصد أن الجوائز كانت مستخدمة لرفع الدلاء فهي تنفيها وبها ماء آجن: وهو المتغير طعمه ولونه. متمذّر: قد فسد وخبث. أو بمعنى متفرق. (انظر: ابن منظور: (مذر)). تزاورت: أعرضت وانحرفت، يعني الناقة. طيه: أي طيّ البئر، وهو عرشها بالحجارة والآجرّ. (انظر: م.ن: (طوي)). والخِيم: حمض من النبات، وفي (ط. TÜREK): خَيم (بفتح الخاء): وهو ما يُبنى من الشجر والسعف، يستظل به الرجل إذا أورد إبله. (انظر: ابن منظور: (خيم)). والحُسَّر: جمع حاسر، وهي المرأة المكشوفة، شبه بهن - يتزاورن حياء عن الأعين - تلك الناقة. ماصع: متغير. (انظر: تهذيب الأزهري: ٢/ ٦٢).

(١) انظر: ابن منظور: (غلس).
(٢) ديوانه: (٤٦/ ٢٠) = (ط. TÜREK: ١٨/ ٢٠).
(☆) أسدام: جمع سُدُم، وهي البئر إذا عطّلت حتى خربت. (انظر: ابن الأعرابي: ٦٥). قلائص: جمع قلوص، وهي الفتية من الإبل. طلائح: جمع طليحة، وهي التي أعيت وكلّت من السفر.
(٣) ذيل ديوانه: (٤٠٩/ ٥) = (ط. TÜREK: لم يذكر).
(☆٢) البيت في وصف إبل. نواهك: من «نهكت الإبل ماء الحوض: إذا شربت جميع ما فيه»: (تهذيب الأزهري ٦/ ٢٣) بَيُّوت: بات في الحوض فبرد. والضريب: الصقيع، وقوله: «ضم الضريب الأفاعيا»: كناية عن شدة البرد ساعة شرب الإبل، حتى إنه ليحبس الأفاعي في أجحارها.

وكانوا حراصاً على سلامة الحوض من الخراب، فيجعلون حجراً - يسمونه «الإزاء» - في مصبّ الماء من الحوض، لئلا يخرقه، يقول في وصف أحدها[1]:

يَـذودُ الـعَـصافير عـن دائـرٍ دفين الإزاء خَـلاءٍ أَجِـنْ[☆]

وقد يضطرون إلى ورود المستنقعات الموحلة، ولو كان المُوْرَد فرساً كريماً، اعتادوا تبجيله زمن الرخاء والنعمة[2]:

وَرّادُ نَقْعٍ على ما كان من وَحَلٍ لايَسْتَهِدُّ إذا ما صَوَّتَ البُومُ

بل قد يردون النُّقَر، جمع نُقْرة: وهي حفرة في الصفاة يستنقع فيها الماء، وقد يكون ماؤها وبيئاً [3]، كما قال عن ظعائن دهماء[4]:

[فَصَبَّحْنَ من ماء الوَحيدين نُقْرَةً بميزان رَغْمٍ إذ بدا ضَدَوانِ][☆٢]

ويُلاحَظ أن الشاعر يصف المياه بالأجون والفساد في معظم الأحيان، وهذا لا شك ينبئ عن واقع بيئي تنتشر فيه مثل هاتيك المياه الوبيئة فيضطرّ الناس - غالباً - إلى أن يشربوا منها ويسقوا أنعامهم.

وكثيراً ما كانت الأيام الحربية تقوم بين ماء وجبل، فيتنافس الجيشان في الاستيلاء على الماء؛ لأن ذلك يجعلهم في مركز «استراتيجي» أفضل. وقد ذكر

---

(١) ديوانه: (١٢/٢٩٢) = (ط. TÜREK: ١٢/١١٨).

(☆) دائر: أي حوض دائر خرب. والعصافير: الإبل العصافير هاهنا وهي نجائب الإبل، ومنها عصافير (النعمان بن المنذر) المشهورة. (انظر: ابن منظور: (عصفر)). أجن: أي ذو ماء أجن، وهو المتغير الطعم واللون.

(٢) ديوانه: (٤٧/٢٨٠) = (ط. TÜREK: ٤٧/١١٣).

(٣) انظر: ابن منظور: (نقر)، و(وبد).

(٤) ديوانه: (٢٠/٣٤١) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٢٨/١٥٦).

(☆٢) الوحيدان: ماءان في بلاد قيس معروفان. ورغم: اسم جبل في ديار بجيلة وفيه روضة. بميزان رغم: أي بما يوازيه. (انظر: الحموي: البلدان: (رغم)). وضدوان: في (البكري: ما استعجم: ٨٧٨): «ضَدَيان»، قال: «وهما جبلان تلقاء الوحيدين». قال (ابن المعلى الأزدي) كان خالد يقول: الوحيدان بالحاء المهملة، وبعضهم بالجيم: الوجيدان، وصدوان بالصاد المهملة، قال وهما جبلان. (انظر: الحموي: م.ن: (ضدوان)، و(الوحيدان)).

الشاعر يوماً من تلك الأيام قام بين ماء (لَوْذ) وجبل (أَسْود)، فقال[1]:

ومَأخذَها الكِنْدِيَّ بين لَهازم الـ ـعدوّ وعنزاً بين لَوْذٍ وأَسْوَدا

وهذه المياه مأمومة بالحيوانات الوحشية على اختلافها، وبالحمام والقطا وغيرهما، ومن هنا كانت مجالاً خصباً للاصطياد.

والحمام على المياه تذكّره بأهل الماء النازحين، كما قال في مثال سابق، ومثل ذلك القطا[2].

وإذا كان الماء يعني الخصب ويرمز لبشرى الحياة والنماء، فربما عنى الغرق ورمز للهلاك والفناء، كما اتخذه الشاعر في هجائه الأخطل فقال[3]:

بأيِّ رِشاءٍ يابْن ذا الرمْجل تَرْتَقي إذا غَرِقَتْ عيناكَ في حَوْمَةٍ غَمْرِ

ولأن العرب شديدو الحاجة إلى الماء، كانوا يحتالون للحفاظ عليه بطرق شتى مر بعضها[4]. فإذا شحّت المصادر وانقطع القطر لجأوا إلى الاستمطار على نحو ما تقدم من قبل[5]، بل ذهب بعض الباحثين إلى أن الوثنية العربية قدّست الماء، قياساً على ما عُرِفَ من تقديسه في الأديان الأخرى[6].

ولكن الأمطار تنزل أحياناً شديدة، بحيث تمسي عذاباً لا رحمة، مما يضطرهم إلى اتخاذ بعض الاحتياطات الحمائية، ومنها: (النؤي)، وهو حاجز شاخص يسوّى حول الأخبية والخيام مطيفاً بها كالطّوق، يصرف عنها السيول،

(١) ديوانه: (٦/٥٧) = (ط. TÜREK: ٦/٢٣).
(٢) انظر: م.ن: (١٣/١٣٢) = (ط. TÜREK: ١٣/٥٣).
(٣) م.ن: (١٢/١١٠) = (ط. TÜREK: ١٢/٤٣).
(٤) وانظر: جواد علي: ٧/ ٢٠٠-٢١٥.
(٥) راجع: ب١ ف١: د-٤.
(٦) انظر: جواد علي: ٧/ ١٥٧ وما بعدها.

ويأتي من دونه (الأَتِيّ)، وهو حفير يكون من حَفْرِ التراب لبناء النؤي، فيجتمع فيه الماء مشكّلاً نهيراً، ويستنبط من كلمة (الأَتِيّ) أنهم كانوا يطرّقون لهذا الماء المجتمع ليصرفوه بعيداً عن النؤي[1]. يقول[2](☆):

فطامسُ النُّؤْيِ عافٍ لا يُكَلِّمُهُ — صَرْفُ اللَّيالي، ولم يُجْعَلْ بجَيّارِ
قَدُّ الوَليدة في صَلْفاءَ رابيةٍ — حَوْلَ الوَسائدِ من بيضاءَ مِعْطارِ
في ليلةٍ من ليالي القُرِّ داجيةٍ — من مائها صائمٌ بالبِيد أو جاري

ويدلّ قوله: «لم يجعل بجيار» على أنهم قد يصنعون النؤي بالجيّار.

وبهذا يتضح أن الحديث عن المياه كان ينصبّ - على الأغلب - في بعض الموضوعات بوجه خاص، فهو في ذكر الديار والأحباب، ووصف الرحلة والإيراد، وضمن الكلام على الأيام، ومن الطبيعي أن يكثر في وصف الطبيعة وحالات الجو كذلك.

ومن استيفاء الحديث عن المياه في شعره الإلمام بنصيب (البحر) و(النهر) منه. ونصيبها منه يسير؛ لأن نصيب واقعه البيئي منها يسير كذلك، وهو بعد متفق مع ما عرف عن العرب قديماً - فيما عدا أهل السواحل - من تهيّب ركوب البحر وابتعادهم عنه، حتى لقد عَرَفَ الأعاجم عنهم ذلك، فجاء في حكم

---

(١) انظر: ابن منظور: (نأي)، و(أتي).

(٢) ديوانه: (١٠٢/٢-٤) = (ط. TÜREK: ٣٩-٤٠/٢-٤).

(☆) عاف: قديم قد انمحى. صرف الليالي: حوادث الزمان، وكيف تكلّمه وقد درس وانمحى؟. والجيّار: الصاروج، وهو الجص إذا خلط بالنورة والرماد، وقيل: هو النورة وحدها، (انظر: ابن منظور: (جير))، أي أن هذا النؤي لم يصنع بالجيّار. قد الوليدة: صفة النؤي، أي: أن الوليدة هي التي شقت الأرض لبناء النؤي. والوليدة: الجارية الصغيرة أو الأمة، والأول أرجح؛ إذ أراد وصف النؤي بالضعف. والصلفاء: الأرض الغليظة، وكانوا ينزلون مثل هذه الأماكن عادة لأنها أوثق للأطناب وأقوى للنؤي، ولعله إنما أمعن في وصف الأرض بالشدة هاهنا تأكيداً للمعنى السابق في وصف النؤي بالضعف، حيث إنه قديم عاف لم يعمل بجيّار بل قدّته وليدة ضعيفة في أرض قوية شديدة في ليلة داجية. حول الوسائد: أي التي في الخباء. بيضاء معطار: أي امرأة جميلة تلك صفتها. القُرّ: البرد. داجية: اجتمع سواد ظلامها مع غيم. (انظر: م.ن: (دجا)). صائم: راكد هاهنا.

(أحيقار): «لاتُرِ العربي البحر، ولاتُرِ الصيدوني (الصيداني) الصحراء»[(١)].

وليس في الجزيرة العربية أنهار جارية وواسعة بمعناها المعروف؛ ولهذا جاء (الفرات) في شعره عابراً لا يكاد ينبئ عن شيء[(٢)].

ومع هذا فقد استلهم من البحر حكمته، بما يرمز له من العظمة والغنى والقوة، إذ قال[(٣)]:

ألم تَرَ أن البحر يَضْحَلُ ماؤه فتأتي على حِيتانه نَوْبَةُ الدهرِ؟!

وإلى جانب هذا البيت ثلاث إشارات إلى البحر، سمَّى البحر في إحداها (المهرقان)، وشبّه الظباء الراتعة في الديار بوَدْع البحر فاض به على الساحل ليلا[(٤)]، وقد جاء بهذا التشبيه في إشارته الثانية أيضا[(٥)]، وفي الإشارة الثالثة شبّه هوادج النساء بسفن على سِيف (أوال)[(٦)]. وقد كرر هذا - وذكر سفناً يرمي بها الفرات غداة ريح عاتية - في بيت لاحق بعد أسطر.

وهذا النمط الأخير من التشبيه يتكرر عند القدماء بعامة، الأمر الذي يفضي بنا إلى أن نتصوّر في البحر والنهر رمزاً آخر للغيب والمجهول والخطر، وفي ركوبهما رمزاً للمغامرة وركوب الأهوال، انطلاقاً من نظرة العربي القديم للسفر على الماء، الآنف ذكرها، فكان لهذا يحسّ شبهاً يربط بين الصحراء والبحر، وبين سفينة الصحراء وسفينة البحر؛ من حيث إن كلا هذين الجزئين من الطبيعة يمثل في واقع حياته الغيب والمجهول والخطر، وارتيادهما يعدّ ضرباً من التقحّم والجرأة على مصير غامض[(٧)].

---

(١) جواد علي: ٧/ ٢٤٥. عن: A.T Olmstead, History of the Persian Empire, P.326.
(٢) انظر: م.ن: (١٧/٣٠٥) = (ط. TÜREK: ١٧/١٢٤).
(٣) م.ن: (١٠/١٠٩) = (ط. TÜREK: ١٠/٤٣).
(٤-٦) انظر: م.ن: (١٠/٢٤٠)، (٧/٢١٨)، (٧/٢٥٦) = (ط. TÜREK: ٩/٩٨، ٧/٨٩، ٧/١٠٤).
(٧) وانظر: ناصف: ٦٨-٦٩.



وفي البيت التالي ما يعرب بجلاء عن هذا المعنى الذي استبدّ بإحساس الشاعر، فهو يفتش ببصره أعطاف الصحراء، بحثاً عن ظعائن (دهماء)، إلى أن قال - ذاكراً رفيقاتها من النسوة في تلك الرحلة -[1]:

أو من بني عامرٍ ترمي الغيوبُ بها   رميَ الفُراتِ غداة الريح بالسُّفُنِ[☆].

وقد يذكر العربُ البحرَ ويقصدون به النهر[2]، كما في قوله[3]:

[ونحن مَنعنا البحرَ أنْ تَشْربوا به   وقد كان منكم ماؤُهُ بمَكانِ]

ولعل هذا المشترك اللفظي قد جاء استناداً على نظرة عربية متشابهة - إن لم تكن واحدة - إلى كل من البحر والنهر.

□□□□□

(١) ديوانه: (١٧/٣٠٥) = (ط. TÜREK: ١٧/١٢٤).

(☆) أو من بني عامر: يريد النسوة المذكورات، وقد أخبر في البيت السابق على هذا أن بعضهن من (بني دَهْي). الغيوب: كأنه يريد بها الفلوات البعيدة. بها: الضمير عائد على حمول الراحلين.

(٢) انظر: ابن منظور: (بحر).

(٣) ديوانه: (٣٤/٣٤٦) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٣٦/١٥٧).

الفصل الثاني

النبت والشجر

النبت والشجر

الطبيعة في الجزيرة العربية حافلة بنباتات وأشجار شتى، تشهد بهذا أسماء النباتات والأشجار المتنوعة الكثيرة التي ترد على ألسنة الشعراء، وهذا يشهد كذلك على اهتمام العرب بتلك الثروة الخضراء.

١ - النبـــــات :

كانت النباتات على اختلافها مفيدة في حياة العربي القديم؛ ففيها قوت ماشيته من: غنم، وبقر، وإبل، وخيل، كما أن الحيوانات الوحشية من: حُمُر، وظباء، ووعول، ومها، وغيرها، تعيش على تلك النباتات، فينعكس هذا على حركة الصيد عند العرب، الذين كانوا يعوّلون عليها في كثير من حياتهم الغذائية. هذا إلى جانب فوائد أخرى متنوعة.

وقد سجل (ابن مقبل) ملامح عديدة من تلك الحياة النباتية، فمن ذلك يذكر (الغيث)، وهو في الأصل: المطر، ثم سمي ما ينبت به غيثاً[١]، ويخص الشاعر بالغيث - غالباً - الفرس الكريم على نحو ملحوظ، وكأنه يعرب بهذا عن مقدار كرامة الفرس عنده، إذ يختصه بهذا النبات الخصب الطيّب، فيقول[٢][☆]:

---

(١) انظر: ابن منظور: (غيث).

(٢) ديوانه: (٨-٩/١-٢، ٤) = (ط. TÜREK: ٤-٥/١-٢، ٤).

(☆) بذي ميعة: أي بفرسٍ ذي ميعة، والميعة: النشاط. سقاطه: يقال: إنه ليساقط الشد: أي يأتي منه الشيء بعد الشيء، فذلك سقاطه. رسلاً: برفق وتؤدة. والذآليل: جمع الذألان، أبدلوا النون لاماً؛ وقال (ابن سيده): «لا أعرف كيف هذا الجمع»، وهو مرّ سريع في خفة وميس، وأطلق على مشي الذئب لأنه كذلك، (انظر: ابن قتيبة. المعاني: ٣٤) و(ابن منظور: (رسل)، و(ذأل))، وقد جعله الشاعر هنا للثعلب، وشبه به جري الفرس.

وغَيثٍ مَريعٍ لم يُجَدَّعْ نباتُهُ ... ولَتْهُ أهاليلُ السِّماكَين مُعْشِبِ
بَسَرْتُ وغَنّاني الذُبابُ عَشِيّةً ... بذابله، والشمسُ لمّا تَغَيَّبِ
بذي مَيْعَةٍ، كأن بعض سِقاطِهِ ... وتَعْدائهِ رِسْلاً ذآليلُ ثَعْلَبِ

وقال[1](☆):

وغَيثٍ تَبَطَّنْتُ قُرْيانَهُ ... تَرى النبتَ مَكّنَ فيه اكْتِهالا
بنَهْدِ المَراكِلِ، ذي مَيْعَةٍ ... إذا احْتَفَلَ الشَّدُّ زاد احْتِفالا

وقال[2]:

وغَيثٍ تَبَطَّنْتُ النَّدَى في تِلاعِهِ ... بمُضْطَلِعِ التَّعْداء نَهْدٍ مَراكِلُهْ

وقال كذلك[3](٢☆):

وغَيثٍ تَبَطَّنْتُ قُرْيانَهُ ... إذا رَفَّهَ الوَبْلُ عنه دُجِنْ
بنَهْدِ المَراكِلِ ذي مَيْعةٍ ... أَزَلِّ العِثارِ مِعَنٍّ مِفَنْ

حتى إن الأسلوب ليتشابه في هذه الأبيات إلى درجة التكرار. ومن هذا نلمح للغيث قيمته الخاصة ومكانته عند الشاعر، التي قد تفسرها قيمة الفرس الخاصة ومكانته عنده، كما عند سائر العرب. وربما انطوت الصورة على معانٍ

---

(١) ديوانه: (٢٣٣-٢٣٤/ ٣٤-٣٥) = (ط. TÜREK: ٩٥/ ٣٣-٣٤).

(☆) بنهد المراكل: أي بفرس عظيم المراكل، وهما مركلان، حيث يركل الراكب الفرس برجليه يستحثه على الحركة، وهما موضعا القُصْرَيَيْن من الجنبين. (انظر: ابن منظور: (ركل)). ذو ميعة: نشيط. احتفل: أي اشتد. والشَّدّ: العَدْو والحُضْر. والاحتفال: ضرب من العَدْو، قال (أبو عبيدة: الخيل: ١٢٧): «والاحتفال أن يرى صاحبه أن قد بلغ أقصى حُضْره وفيه بقية».

(٢) ديوانه: (٢٤٦/ ٣١) = (ط. TÜREK: ١٠٠/ ٣٠).

(٣) م.ن: (٢٨٩-٢٩٠/ ١، ٤) = (ط. TÜREK: ١١٦-١١٧/ ١، ٤).

(٢☆) بنهد المراكل ذي ميعة: صفة فرس. (راجع: شرح الأبيات الآنفة). أزل العثار: أي أنه بعيد عنه قد زلّ عنه. (انظر. ابن قتيبة: المعاني: ٢٣). معنّ: يأتي من الجري ضروباً لفرط نشاطه. والمفنّ: ذو الفنون والعجائب من الجري (انظر: ابن منظور: (عنن)، و(فنن)).

أخرى أبعد من ذلك، نرجئ درسها إلى فصل خاص: (ب٤ ف٣).

و(الحَوْذان): نبات من أحرار البقل[☆]، يرتفع كقدر الذراع، وله ورقة مدورة، وزهرة حمراء، في أصلها صفرة. وزعم بعض العلماء أن ورقه شبيه بورق (الهِنْدِباء). وهو ناجع في الحافر، وتسمن عليه الخيل. وهو حلو طيّب الطعم، يأكله الناس. ومنبته السهل[١]. وما يزال معروفاً باسمه إلى اليوم. قال (ابن مقبل)، عن جُرْدٍ من الخيل[٢]:

نَزَعْنا لها الحَوذانَ حَوْلَ سُوَيْقَةٍ فقد جَعَلَتْ أَقْرابُهنَّ تَوَسَّفُ[☆٢]

وترعى الحوذان دواب أخر، في شعره منها: حمر الوحش[٣]، وبقر الوحش[٤].

و(القَتّ) من علف الدواب، لكن الشاعر ينزّه الفرس عنه، ففرسه[٥]:

مُصامِصٌ ما ذاقَ يوماً قَتّا[☆٣].

(☆) أحرار البقل: مارقّ وما عَتُق، ومعنى «عَتُق»: كَرُم، و«العِتْق»: الرِّقة، وأحرار البقل: خلاف «ذكوره»، وهي ما غلظ منه. (انظر: الأصمعي: النبات: ١٣).

(١) انظر: الأصمعي: م.ن: ١٣-١٤، وأبا حنيفة: ١٠٨-١٠٩.

(٢) ديوانه: (١٤/١٩٢) = (ط. TÜREK: ٧٩/ ١٤).

(☆٢) سُوَيقة: موضع بشق اليمامة، وهناك سويقة أخرى: على مقربة من المدينة. (انظر: البكري: ما استعجم: ٧٦٧). أقرابهن: جمع القُرُب، وهو الخاصرة، (انظر: ابن منظور: (قرب))، وفي (ط. عزة حسن): «[أقوام]ـهن»، وقد جاء في (أبي حنيفة: ١٠٩): «أقرابهن»، وكذلك في (ط. TÜREK). توسّف: «يطير عنا الشَّعر الأول، لما سمنت وارتعت وأنسَلَتْ»: (أبو حنيفة: م.ن).

(٣) انظر: ديوانه: (١٥/١٦٢) = (ط. TÜREK: ٦٦/ ١٥).

(٤) انظر: ذيل ديوانه: (٤٢/٣٨٧) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٤٩/ ٧٤).

(٥) ذيل ديوانه: (١/٣٥٧) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٤٢/ ٢٢).

(☆٣) مصامص: صفة الفرس. قال (أبو عبيدة: الخيل: ١٠٧): «وأما الورد المصامص فتستقري سراته جُدّة سوداء ليست بالحالكة لونها السواد وهو وَرْد الجنبين وصَفقتي العنق والجران والمَرَاقّ»، وفي (ابن منظور: (مصص)): «فرس مُصامِص شديد تركيب العظام والمفاصل»، وله معان أخرى. والقَتّ: الفِصْفِصَة، وهي الرطبة من علف الدواب، وخص بعضهم به اليابسة منها، وقيل: القت يكون رطباً ويكون يابساً. (انظر: م.ن: (قتت)).

أمّا (الخِيم) فجاء في شعره مرعى للإبل[١]، وهو حِمض من النبات[٢]. وكذلك (العازب الرغد)[٣]: وهو الكلأ البعيد الكثير الذي لم يرعه أحد[٤]. و(الخَلَى)[٥]: «وهو النبت الرقيق كله مادام رطبا»[٦].

و(العِضْرَس): بقلة غَضَّة رقيقة، وهي من أحرار العشب، إذا يبست فتناثر ورقها اختلط بقمم العشب فلم يتميز منها، وله نَوْر أحمر إلى السواد[٧]. وقال (الأصمعي)[٨]: «العِضْرَس شجر إلى السواد»، ونقل (ابن منظور)[٩] عن (أبي حنيفة) قوله: «العِضْرَس عشب أشهب إلى الخضرة يحتمل الندى احتمالاً شديدا...». ويقترن العضرس في شعره بحمر الوحش، فمن ذلك قوله[١٠]:

على إثْرِ شَحّاجٍ لطيفٍ مَصِيرُهُ يَمُجُّ لُعاعَ العِضْرِسِ الجَوْنِ ساعِلُهْ[☆]

بل لقد سُمّي حمار الوحش نفسه بـ(العضرس)[١١].

---

(١) انظر: ديوانه: (٩/١٢٥) = (ط. TÜREK: ٩/٥٠).
(٢) انظر: ابن منظور: (خيم).
(٣) انظر: ديوانه: (٣٠/٣٠٩) = (ط. TÜREK: ٣٠/١٢٥).
(٤) انظر: ابن منظور: (رغد).
(٥) انظر: ديوانه: (٣٢/٣١٠) = (ط. TÜREK: ٣٢/١٢٦).
(٦) الأصمعي: النبات: ٢٨.
(٧) انظر: تهذيب الأزهري: ١٠/١٣٩، ١١/١٩، وابن قتيبة: المعاني: ٦٨.
(٨) النبات: ١٣.
(٩) (عضرس).
(١٠) ديوانه: (٤٣/٢٤٩) = (ط. TÜREK: ٤٢/١٠٢).
(☆) على إثر: متعلق بالبيت السابق، حيث تحدث عن فرسه السريع الذي أرسله على إثر هذا الحمار الوحشي شحّاح: صفة غالبة للحمار الوحشي، والشّحيج: صوته. والمصير: المِعَى. واللعاع: أول النبت، و«بقل ناعم في أول ما يبدو»: (ابن قتيبة: المعاني: ٦٩٩)، «واللعاعة: كل نبات لينّ من أحرار البقول فيه ماء كثير لزج»: (تهذيب الأزهري: ١/١٠٨). الجَون: الأسود هاهنا، ساعله: فمه. (انظر: ابن منظور: (شحج)، و(مصر)، و(لعع)، و(عضرس)، و(سعل)).
(١١) انظر مثلاً: ابن منظور، والفيروزآبادي: (عضرس).

و(المَكْنان): يشبه العضرس، فهو بقلة غَضّة رقيقة، من أحرار العشب، إذا يبست تناثر ورقها واختلط بقمم العشب فلم يتميز منها[1]، وهو من خير النبت[2]، ينبت بأرض قيس، واحدته مَكْنانة، شجرة غبراء صغيرة، من نبات الربيع[3]. وقد ذكره الشاعر مع العضرس مرعى لحمار الوحش، فقال[4]:

والعَيْرُ يَنْفُخُ في المَكْنانِ قد كَتِنَتْ   منه جَحافِلُهُ، والعِضْرِسِ الثُّجَرِ

ومن مراعيها عنده أيضاً: (عازب النبت)[5]، أي البعيد منه، و(زخاريّ النبات)[6]: وهو الطويل الكثير الملتفّ، «ويقال: أخذ النبات زخاريّه: إذا تفتّحت أنواره واتّقى ببهجته»[7]. و(اللَّوِيّ)[8]: وهو «من البقل الذي قد يَبِس بعض اليُبْس وفيه ندى، ويكون أيضاً بعضه أخضر وبعضه يابسا»[9]. و(تؤام البقل)[10]: وهو الذي ينبت ثنتين ثنتين، وغير ذلك من المراعي والنبات الحافل بهما شعره.

ومن النباتات التي ترعاها بقر الوحش، ومذكورة في شعره: (المَكْر)[11]: جمع المَكْرَة، وهي «نبتة غبيراء مليحاء إلى الغبرة، تُنْبِت قَصَداً كأن فيها حمضاً حين تمضغ، تنبت في السهل والرمل، لها ورق وليس لها زهر»[12]. و(الرخامى)[13]:

(١) انظر: تهذيب الأزهري: ١٠/١٣٩.
(٢) انظر: الأصمعي: النبات: ١٣.
(٣) انظر: ابن منظور: (كتن).
(٤) ديوانه: (٩٤/٦٠) = (ط. TÜREK: ٣٧/٦٠).
(٥) انظر: م.ن: (٩٥/٦١) = (ط. TÜREK: ٣٧/٦١).
(٦) انظر: م.ن: (١٦٢/١٤) = (ط. TÜREK: ٦٦/١٤).
(٧) أبو حنيفة: ٢٠٦-٢٠٧. وانظر: تهذيب الأزهري: ٧/٢٠٢.
(٨) انظر: ديوانه: (١٦٢/١٥) = (ط. TÜREK: ٦٦/١٥).
(٩) الأصمعي: النبات: ٢٨.
(١٠) انظر: ديوانه: (١٦١/١٠) = (ط. TÜREK: ٦٦/١٠).
(١١) انظر: م.ن: (٢١/٣٩) = (ط. TÜREK: ١٠/٣٩).
(١٢) ابن منظور: (مكر).
(١٣) انظر: ديوانه: (٢٨٥/٨) = (ط. TÜREK: ١١٥/٨).

من ذكور البقل، وهي غبراء الخُضْرة لها زهرة بيضاء نقيّة، وتنبت في الأرض الرخوة، ولها عروق بيض، تتبعها الثيران تحفر عنها فتأكلها[1]. و(الشُّقّارَى)[2]: من ذكور البقل، ولها نَوْر أحمر[3]، «وورقها لطيف أغبر، تشبه نبتتها نبتة القضب، وهي تحمد في المرعى، ولا تنبت إلا في عام خصيب»، وقيل: تنبت في الرمل[4]. و(الحوذان): وقد سبق وصفه قبل فقرات. و(اللَّقَط)[5]: وهو «نبات سُهْلِيّ يَنْبُتُ في الصيف والقَيظ في ديار عُقَيْل يشبه الخِطْرَ والمَكْرَةَ، إلا أن اللقَط تشتدّ خُضرته وارتفاعه، واحدته لَقَطَة... وهي بقلة تتبعها الدوابّ فتأكلها لطيبها وربما انتتفها الرجل فناولها بعيرَه، وهي بُقول كثيرة يجمعها اللَّقَط»[6].

ويسجّل شعره الإشارة إلى بعض مراعي الجزيرة إذ ذاك، فـ(رحايا) مرعًى للظباء[7]:

رعتْ بِرَحايا في الخريفِ وعادةٌ لها برحايا كل شَعْبانَ تُخْرَفُ[☆]

وكذلك (تياس)، و(البراعيم)[8]:

من بعد ما نَزَّ تُزْجِيْهِ مُرَشِّحَةٌ أخلَى تِياسٌ عليها فالبَرَاعِيمُ[☆٢]

(١) انظر: الأصمعي: النبات: ٢١-٢٢، والبكري: اللآلي: ١/٢٠٧، وما استعجم: ٦٤٦، وابن مظور: (رخم)
(٢) انظر: ديوانه: (٩/٢٨٥) = (ط. TÜREK: ٩/١١٥).
(٣) انظر: الأصمعي: النبات: ١٥.
(٤) انظر: ابن منظور: (شقر).
(٥) انظر: ديوانه: (١٦/١٠٥) = (ط. TÜREK: ١٦/٤١).
(٦) انظر: ابن منظور: (لقط).
(٧) ديوانه: (٤/١٩٠) = (ط. TÜREK: ٤/٧٧).
(☆) رعت: الضمير لأمّ خِشْف شبه بها حبيبته قبل هذا البيت. رحايا: واد، قال (الحموي: البلدان: (رحايا)): «قال ابن المعلّى الأزدي: رحايا موضع، قال: وكان خالد يروي بُرَحايا يعني أنه لم يجعل الباء زائدة للجر» (وانظر م.ن: (بُرَحايا)). تخرف: أي يُنْبِت لها الخريف ما ترعاه. (انظر: ابن منظور: (خرف)).
(٨) ديوانه: (١٣/٢٧٠) = (ط. TÜREK: ١٣/١٠٩).
(☆٢) نَزّ: أي عدا وصوّت، والضمير لغزال ذُكِر قبل هذا البيت. تزجيه: أي تدفعه أمامها. مرشحة: ظبية ذات ولد، إذا خالطها ومشى معها وسعى خلفها ولم يعنّها. (انظر: ابن منظور: (رشح)). أخلى: أنبت الخَلَى، وهو النبات الرقيق مادام رطبا. (انظر: الأصمعي: النبات: ٢٨). وتياس: موضع في بلاد بني تميم، وهو الذي مات فيه (العلاء بن -

ومن نباتات تلك المراعي (الحُلَّب): نبت ينبسط على الأرض، وتدوم خضرته، له ورق صغار مُرّ، وقضبان صغار، وأصل يُبعِد في الأرض، وله لبن يهراق من أصل كل ورقة ومكسر كل خطرة، سهلي، وأكثر نباته حين يشتدّ الحر. ويتخذ للدباغة. والحُلَّب ترعاه الظباء فتسمن عليه، حتى قيل: تيس الحُلَّب، وروي عن (الأصمعي) أنه قال: «إنما قيل: تَيس الحُلَّب، وهو التيس من الظباء؛ لأن الحُلّب مما يتربّل، فأرادوا أنه اتصل له الربيع بالربل فدام له المرتع فأخصب وقوي فهو أشد له»، وقد أكثر الشعراء من ذكره[1]، قال (ابن مقبل)، واصفاً فرساً[2]:

كـأن ذُنـابـاهُ ومَـنْـسِـجَ مَـتْـنِـهِ
مَداحِضُ وَقْعِ القَطْرِ عن تَيسِ حُلَّبِ[☆]

ومن ثَمَّ أضحت هذه المراعي مصدراً لصيدهم؛ إذ يسمن الوحش على نباتاتها، وحيثما تكون تلك النباتات - التي قد عرفوها مرتعاً للوحش - ترصّدوا لصيده في أرضها، كما أخبر الشاعر في مثال سابق[3].

وكانت لهم في بعض النباتات فوائد أُخَر، كالطيب الذي كانوا يستمتعون به من (المَرْدَقُوش)، وهو (المَرْزَجُوش)، و(العَنْقَز)، و(السَّمْسَق)، و(حبق

= الحضرمي)، (انظر: البكري: ما استعجم: ٣٢٨)، وقال (الحموي: البلدان: (تياس)): «قال أبو أحمد: وقد يفتح، وقيل: هو ماء للعرب بين الحجاز والبصرة. . . وقال نصر: تياس جبل قريب من أجأ وسلمى جبلي طيء، وقيل: هو من جبال بني قشير، وقيل: جبل بين البصرة واليمامة، وهو إلى اليمامة أقرب». والبراعيم: جمع البُرْعُوم، موضع في ديار بني أسد. (انظر: البكري: م.ن: ٢٤١)، و«قيل: هو جبل، في شعر ابن مقبل»: (الحموي: م.ن: (براعيم)).

(١) انظر: أبا حنيفة: ١٠٤-١٠٥.

(٢) ديوانه: (٩/٦) = (ط. TÜREK: ٥/٦).

(☆) ذناباه: منبت ذنبه. ومنسج متنه: حاركه، وهو ما شخص فوق فروع كتفيه إلى أصل عنقه ومستوى ظهره، ويستحب إشرافه في الخيل. (انظر: أبا عبيدة: الخيل: ٧٢). ومداحض: مزالق. والقطر: قطر المطر. وتيس حلب: الذكر من الظباء، وقيل: هو أسرع الظباء. (انظر: ابن منظور: (حلب)). شبه تلك المواضع من جسم الفرس - لامتلائها واستوائها وملاستها - بجسم تيس الحلب الذي قد سمن على نبات الحلب.

(٣) راجع: ب٢ ف١: د - الرياض.

الفتى)، و(حبق الفيل)، وقيل أيضاً: هو (الزعفران). وهو ضرب من الرياحين لينّ الورق، إذا بلغ احمرّت أطرافه، فيوصف بالورد، وأغصانه كثيرة، ينبسط على الأرض في نباته، وله ورق مستدير دقيق عليه زَغَبٌ، وزهر أبيض، طيّب الرائحة جدّاً، ومنه طِيبٌ تجعله المرأة في مشطها يضرب إلى الحمرة والسواد، لكنه ليس ممّا ينبت بأرض العرب[1]، قال (ابن مقبل)، واصفاً جميلات (بني دهي) أو (بني عامر)[2]:

يَعْلُونَ بالمَرْدَقُوشِ الوَرْدِ ضاحِيَةً ‏‏ على سَعابيبِ ماء الضَّالةِ اللَّجِنِ[☆]

وقال، في مزيج من المردقوش والمسك والكافور تطلّت به صاحبته (ابنة المكتوم)[3]:

---

(١) انظر: الأصمعي: النبات: ٣٢، وابن السكيت: الإبدال: ١٠٦، وتهذيب الأزهري: ٩/ ٣٨٠، ٤٢٢، وابن سيده: المخصص: ١٠/ ١٩٤-١٩٥، والجواليقي: المعرب: ٣٥٧-٣٥٨، والفيروزآبادي: (المردقوش)، والخفاجي: شفاء الغليل: ٢٤٠، وأدّى شير: معجم الألفاظ الفارسية المعرّبة: (المرزنجوش)، والمنجّد: المفصل في الألفاظ الفارسية المعرّبة: ٧١-٧٢.

(٢) ديوانه: (٣٠٧/ ٢٣) = (ط. TÜREK: ١٢٤/ ٢٣).

(☆) المردقوش: النبات الموصوف أعلاه، والاسم فارسي معرّب، وهو بالفارسية: «مُرْدَقُوش»، أي: ميت الأذن، أو لينّ الأذن، أو هو بالفارسية: «مُرْزَنْ كُوش»، فـ«مُرْزَنْ» تعني: «فأر»، و«كوش»: «أذن»؛ سمي به لأنه شبيه بأذن الفأر. (انظر: الأصمعي: النبات: ٣٢)، و(تهذيب الأزهري: ٩/ ٣٨٠، ٤٢٢)، و(الجواليقي: المعرّب: ٣٥٧)، و(ابن منظور: (مرد))، و(الفيروزآبادي: (المردقوش))، و(أدّى شير: (المرزنجوش)). والورد: الأحمر. ضاحية: أي جعلنه ظاهراً فوق كل شيء يعلون به المشط، (انظر: ابن السكيت: الإبدال: ١٠٦-١٠٧)، وقيل: ضاحية: بارزة للشمس. (انظر: ابن بري: التنبيه: (لجز)). والسعابيب: ما يمتد شبه الخيوط من العسل والخطمي ونحوه. وماء الضالة: أراد ماء الآس، شبه خضرته بخضرة ماء السدر، ونساء الحضر يمتشطن بالآس، ويمتشطن بالسدر أيضا، ومع هذا فماء الآس غير متلزج ولا متلجن وإنما السدر هو المتلزج، (انظر: ابن سيده: المخصص: ١٠/ ١٩٥)، وقال (ابن السكيت: م.ن: ١٠٧): «يغسلن رؤوسهن بالسدر ثم يعلينها بالمرزنجوش»، ولعل هذا هو الأرجح في معنى البيت، ولم تزل عادة غسل النساء شعورهن بالسدر معروفة إلى زمن قريب فيما نعرف، على أنه قدجاء في (تهذيب الأزهري: ١٢/ ٣٥٣) أن السدر البريّ، وهو الضال، لا يصلح ورقه للغسول. واللجن: المتلزج، (انظر: ابن السكيت: م.ن)، و(تهذيب الأزهري: ٢/ ١١٩)، وجاء في (ابن منظور: (سعب)): «هذا البيت وقع في الصحاح، وأظنه في المحكم أيضا ماء الضالة اللجز، بالزاي؛ وفسره فقال: اللجز المتلزج، وقال الجوهري: أراد اللزج، فقلبه، ولم يكفه أن صحّف، إلى أن أكّد التصحيف بهذا القول. قال ابن بري: هذا تصحيف تبع فيه الجوهري ابن السكيت، وإنما هو: اللجن بالنون، من قصيدة نونية...»، (انظر: الجوهري، وابن بري: (لجز))، والذي في (ابن بري): «صوابه: اللجن بالنون، وقبله:...»، هذا ورواية ابن السكيت في الإبدال: «اللجن»: (بالنون)، وكذلك في (ابن سيده: المخصص: ١٠/ ١٩٤).

(٣) ديوانه: (١٨٢/ ١٠) = (ط. TÜREK: ٧٤/ ١٠).

[خَوْدٌ تَطَلَّى بوَرْدِ المَرْدقُوشِ على الـ ـمِسْكِ الذَّكِيِّ بها كافورةٌ أُنُفا](☆)

و(الكافور): «نبت طَيّب، نَوْره كنَوْر الأقحوان»، وهو أيضًا: «طِيْب... يكون من شجر بجبال بحر الهند والصين، يُظِلّ خلقاً كثيراً، وتألفه النمورة، وخشبه أبيض هشّ، ويوجد في أجوافه الكافور، وهو أنواع، ولونها أحمر، وإنما يَبْيَضّ بالتصعيد»(١).

ومن تلك النباتات العطرية (الريحان)، يقول، واصفاً طِيْب فراش فتاته كبيشة (٢):

خَوْدٌ كأن فِراشها وُضِعَتْ به أضغاثُ ريحانٍ غداةَ شَمالِ(☆٢)

وربما كانوا يضعون الريحان في الفرش لتطييبها. على أن الشاعر قد سجّل للريحان وظيفة أخرى في حياة الناس عهدئذ، حيث يتخذون من قضب الريحان قلائد للغزلان، وقد مضى الكلام على ذلك(٣).

ومن النباتات ما اتخذوه وقوداً كـ(الشِّيح)(٤): «نبات سُهْلِيّ... وهو من الأمرار، له رائحة طيّبة وطعم مُرّ، وهو مرعى للخيل والنعم، ومنابته القيعان والرياض»(٥)، ووصف الشاعر ناره بأنها «غير ذات دخان»(☆٣).

(☆) خود: فتاة حسنة الخلق، شابة، ناعمة. والكافور: أخلاط من الطيب، تركّب من كافور الطلع، وهو نبات وشجر أيضاً كما ذكر أعلاه. أنف: لم يسبق استعمالها. (انظر: ابن منظور: (خود)، و(كفر)، و(أنف)).

(١) الفيروزآبادي: (الكفر).

(٢) ديوانه: (٢٢/٢٦٠) = (ط. TÜREK: ٢٢/١٠٦).

(☆٢) خود: فتاة حسنة الخلق شابه ناعمة مالم تصر نَصَفاً. (انظر: ابن منظور: (خود)). وفي (المعافري: ٤/ ١٧٦): «مُتِثَتْ به» مكان «وُضِعَتْ به»، وقال: «ومغثت الشيء: مرسته، ولينته... ومغثت الشيء: دلكته»، وجاء كذلك في: (القالي: البارع: ٣٧٦). أضغاث: جمع ضِغْث، وهو ما ملأ قبضة الكف من النبات. (انظر: ابن منظور: (ضغث)). غداة شمال: أي غداة هبّت فيها ريح الشمال، وهي ريح باردة.

(٣) راجع: ب١ ف١: د - ١ - ٤.

(٤) انظر: ديوانه: (١٩/٣٤١) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٣١/١٥٦).

(٥) ابن منظور: (شيح).

(☆٣) أورد (الجوهري: (زحف)) اتخاذ الشيح وقوداً، حيث قال: «ونار الزحفتين: نار الشيح والألاء، لأنه يسرع الاشتعال فيها فيزحف عنها...»، فيبدو أنه يُجعل في النار لتوبيشها وإثارة اشتعالها، وإلا فإنه نبات ولا حطب له

و(الغُلّان): جمع (الغالّ)، وهو ضرب من النبت[1]، يأتي في حديثه عن الأمطار والمناخ[2].

و(الكُرّاث) و(العُنْصُل): من ذكور البقل[3]، فالكراث: نبات ممتدّ، أهدب، إذا تُرِك خرجت من وسطه طاقة فطارت[4]. أما العنصل: فهو البصل البري، وأصله شبه البصل، وورقه كالكراث أو أعرض منه، وله نَوْر أصفر، كان صبيان العرب يتخذونه أكاليل[5]. ومنبت الكراث والعنصل الرمل؛ ولهذا جاء ذكرهما في حديثه عن الثور الوحشي الذي يؤالف الرمال. وقد مرّ ذلك في الحديث عن الرمال عند العرب. (راجع: ب٢ ف١: ب).

ومما تقدم يمكن الاستنتاج أن بعض النباتات كانت تعبّر في شعر هذا الشاعر عن معنى: (الخصب)؛ إذ ترد في هذا المعنى كلّما طرقه، ومنها: (الغيث)، و(زُخاريّ النبات)، و(العِضْرَس)، و(المَكْنان)، و(العازب الرَّغِد)، و(العازب العَرِد)، و(الحَلَّب)، و(اليَحاميم) من النبات.

وممّا جاء لديه في معنى الخصب كذلك: (الخطميّ)[6]: وهو من أحرار البقل، يغسل به[7]، قال (أبو حنيفة)[8]: «...وهو الغَسول والغسّول والغِسل، وأنواعه كثيرة، ومنابته السهول... وقال (ابن الأعرابي): سمعت (أبا مُجيب) يقول: أجدبَت الأرض جاد الخطميّ، قال: وذلك لأنه لا يختلط به

(١) انظر: ابن منظور: (غلل).
(٢) انظر: ديوانه: (٣٢/٢٤) = (ط. TÜREK: ١٣/٢٤).
(٣) انظر: الأصمعي: النبات: ١٦.
(٤) انظر: ابن منظور: (كرث).
(٥) انظر: تهذيب الأزهري: ٣/ ٣٣٤-٣٣٥، وابن منظور: (عنصل).
(٦) انظر: ديوانه: (٢/ ٤-٥) = (ط. TÜREK: ١/ ٤-٥).
(٧) انظر: الأصمعي: م.ن: ١٤، وابن منظور: (خطم).
(٨) ١٦١-١٦٢.

عشب غيره، وواحدة الخطميّ: خطميّة».

وفي مقابل نباتات (الخصب) هذه ما يرد في شعره دالاًّ على (الجدب): كـ(اللَّوِيّ) السابق وصفه، و(كادي النبت)[(١)]: وهو الذي ساءت نبتته أو أبطأ[(٢)].

بينما (الغيث العازب) يشير به إلى الجرأة، إذ يفخر بارتياده برغم ما يعترض طريقه من خوف أو شدة[(٣)]:

بعازبِ النبتِ، يَرْتاعُ الفُؤادُ لهُ، رأدَ النهار، لأصواتٍ من النُّعَرِ

فيما (النبت بعد الإثمار) اتخذه لتصوير الضعف، إذ شبّه به - وقد ثار به العجاج ففرّقه - مَلِكاً منهاراً أمام قوة الشاعر وقومه، فقال[(٤)]:

فذاكَ أصبحَ قد هاجتْ مَعارِمُهُ هَيْجَ العَجاجِ بنبتٍ بعد إثمارِ[(☆)]

وكذلك (ضغث الخلى)، شبّه به جنين الناقة الضعيف الطّاوي، في قوله[(٥)]:

تَحْمِي ذِمارَ جنينٍ قَلَّ ما معه طاوٍ كضِغْثِ الخَلَى في البطنِ مُكْتَمِنِ[(☆٢)]

و(اللعاع من الحوذان) مثال عنده على النعومة والرطوبة في النبات؛ ولهذا

---

(١) انظر: ديوانه: (١٢/١٤٩) = (ط. TÜREK: ١٢/٦١).

(٢) انظر: ابن منظور: (كدا).

(٣) ديوانه: (٦١/٩٥) = (ط. TÜREK: ٦١/٣٧).

(٤) م.ن: (١٣/١٠٤) = (ط. TÜREK: ١٣/٤١).

(☆) ذاك: يشير إلى ملك مذكور في أبيات سابقة. هاجت: ثارت وتفرقت. ومعارمه: لعلها قُواه من العُرام، قال (عزة حسن): «ولم تذكر كتب اللغة المعارم»، ولم نقف عليها.

(٥) ديوانه: (٣٢/٣١٠) = (ط. TÜREK: ٣٢/١٢٦).

(☆٢) تحمي: الضمير عائد على ناقة ذكّرها من قبل. والذّمار: كل ما يلزم المرء حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه وإن ضيّعه لزمه اللوم. (انظر: ابن منظور: (ذمر)). قلّ ما معه: يريد ضعفه. طاو: صفة الجنين، أي خميص البطن، أو مطويّ في أحشاء أمه. وضغث الخلى: ما ملأ قبضة الكف من الخلى، وهو النبات الرقيق مادام رطبا. (انظر: الأصمعي: النبات: ٢٨).

فإنه، عندما أراد المبالغة في تصوير حزن بقرة وحشية على وليدها المأكول، قال[1]:

كاد اللُّعاعُ من الحَوذانِ يَسْحَطُها ورِجْرِجٌ بين لَحْيَيْها خَناطيلُ(☆)

أي: أنها كادت تغصّ بما لا يُغَصّ بمثله.

واستمد من (عِيدان الحصاد المنحصم) صورة تشبيهية للشيب، حيث قال[2]:

وبياضاً أحدثته لِـمَّـتي مثلَ عِيدانِ الحَصادِ المُنْحَصِمْ(☆٢)

ويجمع بين (الخزامى) و(السَّعْدان) في لوحة بصرية تصف الرياض. والخزامى: من ذكور البقل، طيّب الريح، سيأتي وصفه[3]. والسَّعْدان: من أحرار البقل، ذو شوك، منبته سهول الأرض، وهو من أطيب مراعي الإبل ما دام رطبا[4]. يقول[5]:

(١) ذيل ديوانه: (٣٨٧/٤٢) = (ط. TÜREK: الملحق: ٧٤/١٤٩).

(☆) اللعاع: «بقل ناعم في أول ما يبدو»: (ابن قتيبة: المعاني: ٦٩٩)، وأول النبت، وكل نبات ليّن من أحرار البقول فيه ماء كثير لزج»: (تهذيب الأزهري: ١٠٨/١)، و(انظر: ابن السكيت: الإبدال: ٦٣)، و(أبا الطيب اللغوي: الإبدال: ٢/ ٣٨٧)، و(البكري: اللآلي: ١/ ٥٧٣)، و(ابن منظور: (لعع)). والحوذان: سبق وصفه قبل صفحات. يسحطها: أي يغصها ويذبحها ويقتلها. (انظر: ابن قتيبة: م.ن)، و(ابن دريد: الجمهرة: ٢/ ١٥٢)، و(تهذيب الأزهري: ٤/ ٨٠)، و(ابن السكيت: م.ن)، و(أبا الطيب اللغوي: م ن)، و(البكري: م.ن). والرجرج: اللعاب يترجرج، (انظر: ابن قتيبة: م.ن)، و(ابن دريد: م.ن)، و(ابن السكيت: م.ن)، وفي (البكري: م ن): «الرجرج أيضاً من ناعم البقل». خناطيل: قطع متفرقة متلزجة من الرجرج. (انظر: ابن السكيت: م.ن)، و(ابن دريد: م.ن). قال (ابن قتيبة: م.ن): «كانت ترعى فلمّا سمعت صوت ولدها وعلمت أن الذئب قد أصابه كادت تغصّ بالحوذان الرطب، أي تغصّ بما لا يغصّ بمثله، من الحزن على ولدها».

(٢) ذيل ديوانه: (٤٠١/٣) = (ط. TÜREK: الملحق: ١١٧/١٥٤).

(☆٢) اللِّمة: شعر الرأس، إذا كان فوق الوَفْرة، وقيل: إذا جاوز شحمة الأذن، وقيل. إذا ألمّ بالمنكب، وهناك أقوال أخرى. (انظر: ابن منظور: (لمم)). والمنحصم: المتكسر. (انظر: ابن فارس: المقاييس: ٢/ ٦٨-٦٩). شبّه شيب رأسه بعيدان زرع قد أحصد وتكسّر.

(٣) انظر: د - الأزهار.

(٤) انظر: ابن منظور: (سعد).

(٥) ذيل ديوانه: (٣٥٤/٦) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٢/١٤٠).

خُزامَى وسَعْدانٌ كأن رياضَها مُهِذْنَ بذي البِرِينِطياءِ المُهَذَّبِ

على حين يستعمل كلّاً من (المردقوش)، و(الكافور)، و(الريحان)، في صوره العطريّة الغزليّة. إلى جانب بعض أزهار النباتات كـ(الخزامى). و(للريحان) عنده ميزة أخرى، تتمثل في رمزيته التقديسية، حيث يشير إلى صناعتهم منه قلائد للغزلان[1].

ب - الأشجار:

مثلما كانت للنباتات فوائد في حياة العرب كانت للأشجار. فمن تلك الفوائد في شعر (ابن مقبل) صناعة الأسلحة، فـ(النَّبع): من أشجار الجبال، أصفر العود، رزينه، ثقيله في اليد، وإذا تقادم احمرّ[2]، ومنه سجّل الشاعر اتخاذهم (القسيّ) في أكثر من موضع من شعره[3]، وقياس النبع مشهورة عند العرب لما تمتاز به من القوة والمرونة، وهي لهذا مفضّلة على ما سواها عندهم[4]. ويتخذون منه (القداح)[5]، و(الرماح)[6]، ومن أغصانه[7] (السّهام)[8]، وكلها موصوفة بالصلابة والعِتْق.

و(الشَّوْحَط): من أشجار الجبال كذلك[9]، وقيل: هو ضرب من النبع[10]، وقال (أبو حنيفة): أخبرني العالم بالشوحط أن نباته نبات الأرز،

(١) راجع: ب١ ف١: د - ١ - ٤.
(٢) انظر: الأصمعي: النبات: ٣٦، وابن منظور: (نبع).
(٣) انظر: ديوانه: (١٦/٢٢، ١٧/١٥٦) = (ط. TÜREK: ٢٢/٨، ١٧/٦٤).
(٤) انظر: ابن منظور: (م.ن).
(٥) انظر: ديوانه: (١٢٥/٢١-٢٢) = (ط. TÜREK: ٥٤/٢١-٢٢).
(٦) انظر: م.ن: (١٩/١١٧، ٨/١٩١) = (ط. TÜREK: ١٩/٤٦، ٨/٧٨).
(٧) انظر: ابن منظور: (م.ن).
(٨) انظر: ذيل ديوانه: (٥٣/٤٠٥) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٥٥/١٢٣).
(٩) انظر: الأصمعي: م.ن.
(١٠) انظر: ابن منظور: (شحط).

قضبان تسمو كثيرة من أصل واحد، قال: وورقه فيما ذُكر رِقاق طِوال وله ثمرة مثل العنبة الطويلة إلا أن طرفها أدق، وهي لينة تؤكل. وقال مَرَّة: الشوحط والنبع أصفرا العود رزيناه ثقيلان في اليد، إذا تقادما احمرّا، واحدته شوحط[1].

ومن الشوحط تصنع (القياس)[2] أيضاً، لما يمتاز به عوده من الجودة واللِّين. ويُذكر أن (النبع) و(الشوحط) من أشجار جبال (السراة)[3].

و(الشِّرْيان): من أشجار جبال (نجد)[4]، وهو من العِضاه[☆]، واحدته شِرْيانه، قال (أبو حنيفة): «نبات الشريان نبات السِّدر يَسْنو كما يَسْنو السدر ويتّسع، وله أيضاً نبقة صفراء حلوة»[5]. وتُعمل من الشريان (القياس)[6] الجيدة، وقوسه» سوداء مشربة حمرة وهو من عُتُق العيدان، وزعموا أن عوده لايكاد يعوجّ»[7].

وذكر (المبرد) أن «النبع والشوحط والشريان شجرة واحدة، ولكنها تختلف أسماؤها بكَرَم منابتها، فما كان منها في قلة جبل فهو النبع وما كان في سفحه فهو الشريان، وما كان في الحضيض فهو الشوحط»[8]. فأمّا أن النبع والشوحط واحد، ولكن الأول مايَنبت في الجبل والآخر ما ينبت في السفح،

---

(١) م.ن.

(٢) انظر: ديوانه: (٣٤/٢٦٤)، (١١/١٦١) = (ط. TÜREK: ٣٤/١٠٧، ١١/٦٦). وراجع: ب٢ ف١: أ - الجبال.

(٣) انظر: الأصمعي: م.ن.

(٤) انظر: م.ن: ٢٤.

(☆) العضاه: كل شجر له شوك. (انظر: م.ن: ٢٣).

(٥) ابن منظور: (شري).

(٦) انظر: ديوانه: (٢١/١٦٣) = (ط. TÜREK: ٢١/٦٧). وراجع: ب٢ ف١: أ - الجبال.

(٧) ابن منظور: (م.ن).

(٨) ابن منظور: (شحط). وانظر: (شري)، و(نبع).

فقد ذهب إليه من العلماء غير المبرّد[☆]، «وأما الشريان فلم يذهب أحد إلى أنه من النبع إلا المبرّد، وقد رُدّ عليه ذلك»[1].

و(التألب): من أشجار الجبال، ومما ينسب إلى (السراة)[2]، ومنه يتخذون (القسيّ)[3]، قال (أبو حنيفة)[4]: «الواحدة تألبة، وهو من عتق العيدان التي تتخذ منها القسيّ... ومنابته جبال اليمن، هذا قول الرواة... وأخبرني أعرابي: أن للتألب قطراناً... قال: وللتألب عناقيد كعناقيد البُطْم[☆2]، فإذا أدرك وجفّ اعتُصر للمصابيح، فهو أجود لها من الزيت».

و(الجوز): هو (الضَّبِر) وينبت في جبال السراة، حسبما ذكر (الأصمعي)[5]، وقال (أبو حنيفة)[6]:

> «شجر الجوز كثير بأرض العرب من بلاد اليمن ويحمل ويُرَبَّى، وبالسروات شجر جوز لا يُرَبَّى، وذكر الأصمعي أنه الضَّبر، وسألتُ عنه بعض أهل السراة فعرف الضَّبر، وقال: هو شجر عظام، ثم أنكر أن يكون جوزاً أو يشبهه، وقد ذكرناه في وصف الأثل في الشِّيزَى من الجفان والقصاع والمحال أنها من خشب الجوز، ولكن تسودّ بالدسم فنسبت إلى الشيز، وإنما هي من خشب الجوز[7]، وأصل الجوز فارسيّ، وقد جرى في كلام العرب وأشعارها، وخشبه موصوف عندهم بالصلابة والقوة».

(☆) ومنهم (الأصمعي: الأسلحة (مجلة المورد، م ١٦، ع ٢، سنة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م، ص٩٢))، وما يعرفه الناس اليوم في جبال (فيفا) - من جبال السّراة منابت النبع والشوحط، بجنوب السعودية - أنهما شجرتان مختلفتان وإن تشابهتا، فما في قلل الجبال يعرف بالشوحط وما في السفوح يعرف بالنبع، أي عكس ما ذهب إليه المبرد وغيره.

(١) ابن منظور: (شحط).

(٢) انظر: الأصمعي: النبات: ٣٦.

(٣) انظر: ديوانه: (١٦/ ٢٢) = (ط. TÜREK: ٨/ ٢٢).

(٤) ٦٧-٦٨.

(☆٢) البطم: مما ينبت بجبال نجد، وهو حبة الخضراء، واحدته: بُطْمة، وأهل اليمن يسمونه: الضَّرْو. (انظر الأصمعي: م.ن: ٢٤)، و(ابن منظور: (بطم)).

(٥) انظر: م.ن: ٣٦.

(٦) ٨٦-٨٧.

(٧) انظر: م.ن: ١٤-١٥.

وقد أشار (ابن مقبل) إلى اتخاذهم (التروس) من خشب الجوز، ووصفه بالصلابة، حينما قال[1]:

وما انتَقَصَتْ من حالبَيْهِ ومَتْنِهِ　　　صفيحةُ تُرْسٍ جَوْزُها لم يُنَقَّبِ[☆]

ويشير إلى مصنوعات أخرى من بعض الأشجار: كـ(المَيْس): وهو شجر تتخذ منه (الرِّحال)[2]، قال (أبو حنيفة): «الميس شجر عظام شبيه في نباته وورقه بالغَرَب، وإذا كان شاباً فهو أبيض الجوف، فإذا تقادم اسودّ فصار كالآبِنُوس ويغلظ حتى تتخذ منه الموائد الواسعة وتتخذ منه الرحال»[3]، قال (ابن مقبل)[4]:

لنا حُجُراتٌ تنتهي الحاجُ عندها　　　وصُهْبٌ على أثْباجِها المَيْسُ طُلَّحُ[☆☆2]

---

(١) ذيل ديوانه: (٢/٣٥٣) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٤٠/١٤).

(☆) البيت في وصف فرس. حالباه: عرقان يكتنفان السرة. وفاعل «انتقصت» إما أن يكون الضمير المتصل العائد على الرحلة الموصوفة من قبل، أو على محذوف؛ حيث إن البيت قد جاء فيما استدركه المحققان في ديوانه، وليس قبله ما يظهر فيه ما يمكن أن يعود عليه هذا الضمير، وكذلك إذا صحّ أنه من القصيدة (٢) بعد البيت (٦) من ديوانه، وربما كان الفاعل هاهنا «صفيحة ترس»، غير أن «صفيحة ترس» خبر «كأن» التي في البيت السابق على هذا، إذ شبه الشاعر بعض أعضاء الفرس في القوة بـ«صفيحة ترس». وقوله: جوزها: يعني خشب الجوز الذي صنعت منه، كما ذهب إلى ذلك (أبو حنيفة: ١٥-١٦)، وربما أراد: وسطها، «أي كأن متنه وما وصف من هذه المواضع صفيحة ترس» صلبة لم تثقب. (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ١٤٠-١٤١).

(٢) انظر: الأصمعي: النبات: ٣٥.

(٣) ابن منظور: (ميس).

(٤) ديوانه: (٥٥/٣٢) = (ط. TÜREK: ٢٢/٣٢).

(☆☆٢) حجرات: بضم الحاء والجيم وفتحها في (ط. عزة حسن)، وفي (ط. TÜREK) بضمها، وفي (ابن ميمون (مخطوط): الورقة: ٣٤/ب): بفتح الجيم، وقد أشار (TÜREK) إلى رواية (ابن ميمون) في حاشية تحقيقه، والظاهر أن المراد «حُجُرات» كما في (ط. TÜREK) وهي رواية الأصل المخطوط على ما يبدو، أو «حُجَرات» كما عند (ابن ميمون)، وكلاهما لغة في جمع: حُجْرَة، وهي حضيرة الإبل هاهنا، أما: «حَجَرات» - حسب أحد الأوجه التي رواها (عزة حسن) - فلم ينسبها إلى مصدر، ولم نقف عليها، وهي: جمع حَجْرَة، وحَجْرَة القوم: ناحية دارهم. (انظر: ابن منظور: (حجر)). والحاجُ: جمع حاجة. وصهب: جمع أصهب، وهو من الإبل الذي قد خالط بياضه حمرة، وهو من خير الإبل عندهم. (انظر: م.ن: (صهب)). أثباجها: ظهورها، جمع ثَبَج. وقوله: «الميس»: أي الأكوار المصنوعة من شجر الميس. طلّح: جمع طليح، وهو من الإبل الذي أجهده السير وهزله. يقول: لنا حظائر إبل تُقْضَى بها حاجات الطعام، وإبل أخرى معدة للأسفار.

وكـ(العُشَر): واحدته عُشَرَة، وهو شجر له صمغ، ويخرج له مثل القطن، يسمى (الخُرْفُع) يقتدح به[1]، قال (أبو حنيفة):

«العُشَر من العضاه، وهو من كبار الشجر، وله صمغ حلو، وهو عريض الورق ينبت صُعُداً في السماء، وله سكّر يخرج من شُعَبه ومواضع زهره، يقال له: سكّر العُشَر، وفي سكّره شيء من مرارة، ويخرج له نُفّاخ كأنها شقاشق الجمال التي تهدر فيها، وله نَور مثل نَور الدِّفْلى مُشْرب مُشْرق حسن المنظر وله ثمر»[2].

ومن العُشَر كانوا يصنعون (الخَذاريف) جمع (خُذْروف)، لعبة من لعب صبيان العرب[3]، ويُشَبَّه الفرس بالخذروف لسرعته، قال ابن مقبل يصف فرسا[4]:

هَرْجَ الوَليدِ بخيطٍ مُبْرَمٍ خَلَقٍ ... بين الرَّواجِبِ في عُودٍ من العُشَرِ[☆]

وكثيراً ما يذكر في شعره أن (قداح الميسر) كانت من النبع[5] أو من الشوحط[6]؛ وذلك لما تمتاز به عيدانها من الجودة كما أسلفنا.

وكـ(الطَّلْح)، وهو: حسب قول (أبي حنيفة):

«أعظم العضاه وأكثره ورقاً وأشده خضرة، وله شوك ضخام طوال وشوكه من أقل الشوك أذًى، وليس لشوكته حرارة في

(1) انظر: الأصمعي: النبات: ٣٥، وأبا حنيفة: ١٤٦-١٤٧، وابن منظور: (عشر).

(2) ابن منظور: (م.ن). وانظر: أبا حنيفة: م.ن.

(3) انظر وصفها: ب٢ ف٥: ط.

(4) ديوانه: (٧٨/١٠١) = (ط. TÜREK: ٧٨/٣٩).

(☆) الهرج: كثرة القتل. خلق: بال، يريد الخذروف، وجعل خيطه خلقاً لأنه أسلس وأخف. والرواجب: سلاميات الأصابع. وجعل الخذروف من العشر لأن العشر أخف من غيره، شبه فرسه بخذروف الوليد في دُرُور عَدْوه. (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ٤٤)، و(ابن منظور: (هرج)).

(5) انظر: ديوانه: (١٣٤-١٩/١٣٥، ٢١، ٢٣)، (٣٣/٢٧٥) = (ط. TÜREK: ١٩/٥٤، ٢١، ٢٣، ١١٢/ ٣٣).

(6) انظر: م.ن: (٣٤/٢٦٤)، (٢٧/٣٢٤) = (ط. TÜREK: ٣٤/١٠٧، ٢٧/١٣٢).

الرجل، وله بَرَمَة(☆) طيبة الريح، وليس في العِضاه أكثر صمغاً منه ولا أضخم، ولا ينبت الطلح إلا بأرض غليظة شديدة خصبة، واحدته طلحة. . .»[1].

ومما نقله (الأزهري)[2]: أن الطلح شجرة حجازية جناتها كجناة السَّمُرة، ولها شوك أحجن، وأن منابتها بطون الأودية، وهي من أصلب العِضاه عوداً، وتسمَّى أيضاً (شجر أم غيلان)، وشجرته طويلة لها ظِلّ يستظل بها الناس والإبل، وورقها قليل، ولها أغصان طوال عظام تنادي السماء من طولها، ولها ساق عظيمة لا تلتقي عليه يد الرجل، تأكل منها الإبل أكلاً كثيراً، وتنبت في الجبل. ومن الطلح كانوا يتخذون (الآلات) وهي الخشبات التي تبنى عليها الخيمة[3]. يشير الشاعر في بيت منسوب إليه إلى ذلك حين يقول في وصف ناقته[4]:

وتُعْرَفُ إنْ ضَلَّتْ، فتُهدى لربِّها، لموضعِ آلاتٍ من الطَّلْحِ أربعِ(☆٢)

وكـ(الضَّال): جمع ضالة، وهو السّدر البرّي[5]، وما كان منه عِذْياً(☆٣)، وهو من شجر الشوك[6]، قال (أبو حنيفة): «الضَّال ينبت في السهول والوعور، وقوس الضَّال إذا بُرِيَتْ بُرِيَتْ جَزْلة ليكون أقوى لها، وإنما يحتمل

(☆) بَرَمة: جمعها بَرَم: وهي ثَمَر العِضاه، ويجمع أيضاً: بِراما. (انظر: أبا حنيفة: ٥٣، ٩٣).
(١) ابن منظور: (طلح). وانظر: الأصمعي: النبات: ٢٣.
(٢) انظر: تهذيب الأزهري: ٤/ ٣٨٣.
(٣) انظر: ابن منظور: (أول)، و(قمع).
(٤) ذيل ديوانه: (١/٣٧١) = (ط. TÜREK: غير مذكور).
(☆٢) تعرف: الضمير للناقة. «يقول: أثر قوائم هذه الناقة في الأرض إذا بَرَكَتْ كأثر عيدان من الطلح فيستدل عليها بهذه الآثار»: (ابن منظور: (قمع)).
(٥) انظر: الأصمعي: النبات: ٢٣.
(☆٣) العِذْي: ما لا يُسقى إلا من ماء المطر لبعده عن المياه. (انظر: ابن منظور: (عذا)).
(٦) انظر: م.ن: (ضيل).

ذلك منها لخفة عودها»[١]، وقد أشار الشاعر في مثال سابق[٢]، إلى اتخاذ النساء ورق الضال غَسُولاً لرؤوسهن[٣].

وكـ(الطَّرْفاء): واحدته طَرَفة، وله ورق ليس بعريض وإنما هو خُوْصة، أي مما يسمى (الهَدَب)[٤]، وقال (أبو حنيفة): «الطَّرفاء من العِضاه، وهُدْبُه مثل هُدْب الأَثْل، وليس له خشب وإنما يخرج عصياً سَمْحة في السماء، وقد تتحمّض بها الإبل إذا لم تجد حمضاً غيره...»[٥]. وقد أشار الشاعر إلى اتخاذهم الأوتاد من شجر الطرفاء، حينما وصف وتداً ضمّنه أرسان الجياد، فشبهه بالفرس الكميت الأقرح؛ لأن عود الطرفاء أحمر، فلمّا دُقّ رأسه ابيضّ، فأشبه الفرس الكميت الأقرح[٦]:

وبات يُغَنَّى في الخَلِيجِ، كأنه كُمَيْتٌ مُدَمًّى ناصعُ اللونِ أَقْرَحُ

أمّا (النخلة): فكانت تمثّل مصدراً غذائياً رئيساً عند العرب، حتى لقد اتخذ الشاعر من بستان النخل المثمر رمزاً للخصب والصبر، إذ شبه الظعائن بمخاريف النخل الجيلانية أو الهَجَرِيّة - جرياً على عادة القدماء في ذلك - فقال[٧]:

ثم ارتحلنَ أُنَيّاً بعد تَضْحِيَةٍ مثلَ المَخاريفِ من جَيْلانَ أو هَجَرِ

و(الرَّند): هو الآس[٨]، وقال (أبو حنيفة)[٩]: «... وزعم قوم أن

---

(١) م.ن.
(٢) راجع: أ - النبات: في الكلام على المردقوش. وانظر: ابن السكيت: الإبدال: ١٠٦-١٠٧.
(٣) وانظر: شجر (السدر)، بعد صفحات.
(٤) انظر: الأصمعي: النبات: ٢٨، ٣٤.
(٥) ابن منظور: (طرف).
(٦) ديوانه: (٤٠/٣٨) = (ط. TÜREK: ٤٠/١٥).
(٧) م.ن: (٥٥/٩٢) = (ط. TÜREK: ٥٥/٣٦).
(٨) انظر: الأصمعي: النبات: ٣٢.
(٩) ٢٦، وانظر: ١٨٥-١٨٦.

الآس يسمى الرند، وأنكر ذلك أبو عبيدة، وأنكره غيره من العلماء، وزعموا أن الرند شجر طيب الريح وليس بالآس»، وقيل هو العود الذي يُتَبَخَّر به، وقيل: شجر من أشجار البادية طيّب الرائحة يستاك به، وليس بالكبير، وله حَبّ يسمى الغار، واحدته رَنْدَة. وروي عن (ثعلب) أنه قال: «الرند الآس عند جماعة أهل اللغة إلا (أبا عمرو الشيباني) و(ابن الأعرابي)، فإنهما قالا: الرند الحَنْوَة وهو طيّب الرائحة»[1]. و«الآس بأرض العرب كثير ينبت في السهل والجبل، وخضرته دائمة أبداً، يسمو حتى يكون شجراً عظاماً. . . وللآس برمة بيضاء طيّبة الريح، وثمرة تسودّ إذا أينعت وتحلو، وفيها مع ذلك عُلَيقمة وتسمى الفَطْس[☆]، ذكر ذلك بعض الرواة»[2]. وكانوا يتخذون الرند بخوراً، وقد مرّ في شعره عند حديثه عن نار الظعائن المشعلة بعصيّ الرند، وكأنه في ذلك يسجّل عادة إيقاد النار بالبخور، التي كان العرب يتوسّلونها لغاية كرمية، هي هداية الأعمى من المحتاجين إلى منازل الكرماء[3].

وكانت للشجر الملتفّ (الأجم) أهمية دينية عند المجوس في الجاهلية؛ إذ يوقدون فيه نارهم المقدسة، كما أشار الشاعر في أحد أبياته - مشبّهاً وقود شوقه بوقود نارهم - فقال[4]:

لِمُشْتاقٍ، يُصَفِّقُهُ وقودٌ   كنار مَجُوسَ في الأَجَمِ المُطارِ

واعتمد الوقود عند العرب على الحطب، ومن الأشجار ما يمتاز بجودة الوقود، حتى اشتهر عندهم بتلك الميزة، مثل (الغضى): وهو مما ينبت في

---

(١) انظر: ابن منظور: (رند).
(☆) الفطس: جمع فَطْسة: وهو حب الآس. (انظر: م.ن: (فطس)).
(٢) أبو حنيفة: ٢٦.
(٣) راجع: ب١ ف١: ب - ٣.
(٤) ديوانه: (١٧/١٥٠) = (ط. TÜREK: ١٦/٦١).

الرمال من الشجر، وورقه من نوع (الهَدَب)، وهو ما ليس بعريض إنما هو خُوْصة[1]، وهو يشبه الأرطى، وهدبه كهدبه، غير أن الغضى أعظم، وله خشب تسقف به البيوت[2]، ويكثر في نجد حتى سُمّوا «أهل الغضى»، ووقوده من أجود الوقود عند العرب[3]. وقد شبّه الشاعر في أحد أبياته بشهاب نار الغضى نجمَ (الشِّعرى)، فقال[4]:

[وعَرَّسْنَ والشِّعْرَى تَغُورُ كأنها ... شهابُ غَضًى يُرْمَى به الرَّجَوانِ][☆]

وفي بيت آخر شبّه تلألؤ دنانير الذهب ودراهمه على صدر صاحبته بجمر الغضى فوق النقا هبّت عليه الصَّبا بعد مضيّ ساعة من الليل[5].

وأجود الحطب ما كان جزلاً غير خوّار ولا نَخِر، كما قال[6]:

[باتتْ حوا] طبُ ليلى يَلْتَمِسْنَ لها ... جَزْلَ الجِذا غيرَ خَوّارٍ ولا دَعِرِ[☆٢]

---

(١) انظر: الأصمعي: النبات: ٢١، ٢٨.
(٢) انظر: أبا حنيفة: ٢٤-٢٥.
(٣) انظر: ابن منظور: (غضا).
(٤) ديوانه: (٢٢/٣٤٣) = (ط. TÜREK: لم يذكر).
(☆) عرسن: أي الظعائن، نزلن في آخر الليل للاستراحة. (انظر: ابن منظور: (عرس)). والشعرى: الواو حالية، والشعرى: «كوكب نَيِّر يقال له: (المِرْزَم)، يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدة الحر، وهما الشعريان: العَبُور التي في الجوزاء، والغُمَيْصاء التي في الذِّراع؛ تزعم العرب أنهما أختا سهيل»: (م.ن: (شعر)). تغور: تغيب. شهاب غضى: أي شعلة من نار الغضى. والرجوان: تثنية رجا، وهو الناحية من كل شيء، ويقال: «رُمي به الرجوان»: أي استهين به وطرح في المهالك، وقد تكرر هذا التعبير عند عدد من الشعراء. (انظر: الزمخشري: المستقصى: ٢/ ٢٦٩-٢٧١)، و(ابن منظور: (رجا)).
(٥) راجع: ب٢ ف١: ب - الرمال.
(٦) ديوانه: (٩١/ ٥٤) = (ط. TÜREK: ٣٦/ ٥٤).
(☆٢) الحواطب: النسوة يجمعن الحطب، والجزل: الغليظ القوي. والجذا: «أصول الشجر العظام العادِيّة التي بَلِيَ أعلاها وبقي أسفلها... واحدته: جَذاة»: (ابن منظور: (جذا))، وفي (المعافري: ٣/ ٣٣٤) و(أبي حنيفة: ٩١): «الجِذى»، وقال (أبو حنيفة): «جِذى: جمع جذوة، وهو أصل العود الغليظ تبقَى في طرفه النار، وهو أيضاً جذوة وإن لم تكن فيه نار، وهي بمنزلة الجِذل»، وجاء في (ابن منظور: (م.ن))، تعليقاً على «الجذا» في بيت ابن مقبل: «قال ابن سيده: قال أبو حنيفة: ليس هذا بمعروف، وقد وهم أبو حنيفة؛ لأن ابن مقبل قد أثبته وَهُوَ مَنْ هُوَ...»، و(انظر: ابن سيده: المخصص: ١١/ ٢٣، ١٥/ ١٥٦). والخوّار: الضعيف. والدَّعِر: «الكثير الدخان ويكون المسوس أيضا»: (أبو حنيفة: م.ن)، وفي (تهذيب الأزهري: ٢/ ٢٠٣): «دُعَر»: (بضم الدال وفتح العين)، بمعنى «دَعِر». (وانظر: ابن منظور: (دعر))، و(المبرد: الكامل: ٦٨٢-٦٨٣).

ومن أشجار الوقود كذلك (السَّيال): من العِضاه[1]، «شجر سبط الأغصان عليه شوك أبيض أصوله أمثال ثنايا العَذارى»[2]، «قال أبو عمرو: السَّيال يُبْرِم ثم يُحْبِل»[3]. وقد ذكر الشاعر في مثال سابق أن السَّيال يتخذ وقوداً، ووصف ناره بأنها «غير ذات دخان»[4].

و(الأراك): جمع أراكة، من العِضاه وهي شجرة طويلة خضراء ناعمة كثيرة الورق والأغصان، عودها خوّار، وتنبت بالغَور[5]، قال (أبو حنيفة)[6]: «هي أفضل ما استيك بفرعه وبعِرقه من الشجر، وأطيب ما رعته الماشية رائحةَ لَبَن»، وللأراك ثمرة تسمى (البَرير) جمع (بَريرة)، يأكلها الناس والإبل والغنم[7]. وقد ذكر الشاعر الاستياك بالأراك في وصفه (دهماء)، إذ قال[8]:

وأَشْنَبَ تَجْلُوهُ بعُودِ أراكَةٍ، ورَخصاً عَلَتْهُ بالخِضابِ مُسَيَّرًا[☆]

وجاء أيضا عند حديثه عن مقارعة دَنّ الخمر، إذ قال[9]:

تَمَزَّزْتُها صِرْفاً، وقارعتُ دَنَّها بعُودِ أراكٍ هَزَّهُ فتَرَنَّما

و(الحناء): شجر معروف ، «من ذوات الفلقتين عديدة التويجيات»[10]. ويتخذ من أوراقه الخضاب. وقد سجّل الشاعر اختضاب النسوة به في أكفهن،

---

(١) انظر: الأصمعي: النبات: ٢٣.
(٢) ابن منظور: (سيل).
(٣) أبو حنيفة: ٥٣.
(٤) راجع: ب٢ ف١: أ – الجبال، في معرض الحديث عن البُعد والظّمن.
(٥) انظر: ابن منظور: (أرك).
(٦) ٢ .
(٧) انظر: م.ن: ٣، ٩–١٠.
(٨) ديوانه: (٨/١٤٣) = (ط. TÜREK: ٨/٥٨).
(☆) أشنب: أي ثغر أشنب، وهو الذي فيه رقة وبرد وعذوبة، وقيل غير ذلك. (انظر: ابن منظور: (شنب)). رخص: أي بنان رخص، وهو الناعم اللين. والمسيّر: المخطّط بالخضاب.
(٩) ديوانه: (٢٠/٢٨٨) = (ط. TÜREK: ٢٠/١١٦).
(١٠) خياط: معجم المصطلحات العلمية والفنية: (حنا).

في عدد من أبياته، ومنها بيته الآنف[١].

وفي هذه الأشجار فوائد شتى للحيوان والطير، ألمّ الشاعر ببعض منها، كالمرعى والمقيل والمَكْنِس.

فـ(العِضاه): كل شجر له شوك يعظم، وقيل: الشجر العظام لا ذوات الشوك خاصة[٢]، من مراعي الإبل، حتى قيل: «ناقة عاضِهَة وعاضِه»، و«بعير عاضِه وعَضِه»، و«جمال عواضِه»، و«أَعْضَهَ القوم»: إذا رعت إبلهم العِضاه[٣]. قال (ابن مقبل)[٤]:

ألم تعلمي أنْ لايَذُمُّ فُجاءَتي ... دخيلي إذا اغْبَرَّ العِضاهُ المُجَلَّحُ[☆]

و(السَّراء): مما ينبت في جبال السراة[٥]، وهو من كبار الشجر، من عُتُق العيدان، تتخذ منه القسيّ العربية، واحدته: سَراءة[٦]. يذكره (ابن مقبل)[٧] مرعًى لأمّ الخشف التي شبّه بها صاحبته سليمى:

رآها فؤادي [أُمَّ خِشْفٍ] خَلَا لها ... بقُوْرِ الوِراقَيْنِ السَّراءُ المُصَنَّفُ[☆٢]

---

(١) وانظر كذلك: ذيل ديوانه: (٣٧٩/ ١٤، ٣٨٩/ ٤٥) = (ط. TÜREK: لم يذكرا).
(٢) انظر: الأصمعي: النبات: ٢٣، وأبا حنيفة: ٥٣.
(٣) انظر: ابن منظور: (عضه).
(٤) ديوانه: (٢٣/ ٥) = (ط. TÜREK: ١١/ ٥).
(☆) فجاءتي: إتياني فجأة. ودخيلي: ضيفي، «أي إذا أتاني ولم استعده»: (ابن قتيبة: المعاني: ٤١٠)، وقال (ابن بري: (جلح)) - شارحاً هذا البيت -: «دخيله دُخْلُله وخاصته، وقوله: فجاءتي، يريد وقت فجاءتي، واغبرار العِضاه: إنما يكون من الجدب، وأراد بقوله: أنْ لا يذم، أنه لا يذم، على حد قوله تعالى: ﴿أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا﴾ تقديره: أنه لا يرجع». والمجلح: «الذي أكلته الإبل حتى ذهبت بغصونه فبقي كالرأس الأجلح»: (ابن قتيبة: م.ن. ١٢٣٩).
(٥) انظر: الأصمعي: م.ن: ٣٦.
(٦) انظر: ابن منظور: (سرا).
(٧) ديوانه: (١٨٩/ ٣) = (ط. TÜREK: ٧٧/ ٣).
(☆٢) الهاء في «رآها» عائدة على (سليمى) المذكورة في بيت سابق. أم خشف: ظبية، والخشف ولد الظبية. وقور جمع قارَة، وهي الأكمة والجُبَيل الصغير، وهناك أقوال أخرى. (انظر: ابن منظور: (قور)). والوراقان: ذهب (البكري: ما استعجم: ١٣٧٦): إلى الظن أنه تثنية (الوراق)، وهو هضبة لبني الطماح من بني أسد يقال لها: هضب الوراق في حمى فيد. (انظر: م.ن: ١٠٣٤). والمصنّف: المخضرّ، وقال (أبو حنيفة): «صَنَّفَ الشجر إذا بدأ يورق صنفين صنف قد أورق وصنف لم يورق»: (ابن منظور: (صنف)).

و(السِّدْر): شجر النبق، واحدتها: (سِدْرَة)، وهو من شجر الحجاز، قال (الأصمعي)[1]: «فما كان بريّاً فهو (ضال)، وما كان ينبت في الأنهار فهو (عُبْرِيّ)». وقال (أبو حنيفة): «قال (ابن زياد): السِّدْر من العِضاه، وهو لونان: فمنه عُبْرِيّ، ومنه ضال، فأمّا العبري فما لا شوك فيه إلا ما لايضير، وأما الضال فهو ذو شوك، وللسِّدْر ورقة عريضة مدوّرة، وربما كانت السِّدْرة مَحْلالاً... قال: ونبق الضال صغار...»[2]. وقد ذكر الشاعر أن السِّدر والضَّال من مراعي الظباء، حيث قال[3]:

وطافتْ بنا مُرْشِقٌ حُرَّةٌ ... بهِرْجابَ تَنْتَابُ سِدْراً وضالا[☆]

والضَّال تألفه حمر الوحش، حتى لقد أضافها الشاعر إلى الضّال في بيتين من شعره؛ فقال[4]:

وكأن نابَيْها بأَخْطَبَ ضالَةٍ ... مُسْتَنْقِعانِ على فُضُولِ المِشْفَرِ[☆٢]

وقال[5]:

---

(١) النبات: ٢٣.

(٢) ابن منظور: (سدر). وانظر: م.ن: (ضيل)، وتهذيب الأزهري: ١٢/ ٣٥٣.

(٣) ديوانه: (٦/٢٢٦) = (ط. TÜREK: ٦/٩٢).

(☆) المرشق من الظباء: التي تمدّ عنقها وتنظر، فهي أحسن ما تكون، والمرشق من الظباء والنساء: التي معها ولدها، (انظر: ابن منظور: (رشق))، والشاعر هنا يشبه صاحبته بظبية تلك صفتها. حرة: أسيلة، صفة الظبية، والحرّ من كل شيء أعتقه وأفخره، (انظر: م.ن: (حرر))، وفي (م.ن: (هرجب)): «بجَأبة» مكان «حرّة»، «ويقال للظبية حين يطلع قرنها: بجَأبة المِدْرَى... وإنما قيل: جأبة المدرى لأن القرن أول ما يطلع يكون غليظاً ثم يدق، فنبه بذلك على صغر سنها»: (م.ن: (جاب)). وهرجاب: موضع في ديار قيس، (انظر: البكري: ما استعجم: ١٣٥٠)، و(الحموي: البلدان: (هرجاب))، و(ابن منظور: (هرجب))، وذكر (عزة حسن) أن هرجاب: اسم واد. تنتاب: أي تقصدها للمرعى مرة بعد مرة.

(٤) ديوانه: (١٣/١٢٦) = (ط. TÜREK: ١٣/٥١).

(☆٢) الهاء في «نابيها»: عائدة على ناقته المذكورة في أبيات سابقة. أخطب: أي حمار وحش أخطب، وهو الذي له خط أسود على متنه، وقيل: الذي تعلوه خُطْبه، وهو لون يضرب إلى الكدرة، مشرب حمرة في صفرة؛ وبعض حمر الوحش كذلك، وقيل غير ذلك، (انظر: ابن منظور: (خطب))، شبه ناقته بحمار وحش. مستنقعان: يعني أن نابي الناقة مستنقعان في اللُّغام،وقيل: مصوّتان. (انظر: تهذيب الأزهري: ١/ ٢٦٥).

(٥) ديوانه: (١٤/٢١٩) = (ط. TÜREK: ١٤/٩٠).

أُجُدٍ كأن صَرِيفَ أَخْطَبَ ضالةٍ ... بين السَّدِيسِ وبين غَرْبِ البازلِ(☆)

ومن الضّال تتخذ الظباءُ كُنُسَها ومساكنها(١):

[كأنهن الظباءُ الأُدْمُ أسكنَها ... ضالٌ بغُرَّةَ، أو ضالٌ بدارينا](☆٢)

وتنسب الذئاب إلى (الغضى)؛ وقيل: «أخبث الذئاب ذئب الغضى»؛ «لأن الغضى إذا اجتمع بمكان فهو خَمَر»(☆٣)(٢). قال (ابن مقبل)، واصفا فرسه(٣):

كسِيْدِ الغَضَى في الطَّلِّ بادرَ جِرْوَهُ ... أهاليبَ شَدٍّ، كلها مُتَسَرِّحُ(☆٤)

وقال(٤):

(☆) أجد: وصف ناقة، والناقة الأجد: متصلة الفقار تراها كأنها عظم واحد، قوية موثقة الخلق. (انظر: ابن منظور: (أجد)). والصريف: صوت الأنياب هاهنا، وهو من الناقة يدلّ على كلالها ومن البعير على نشاطه أو غُلْمته. (انظر: م.ن: (صرف)). أخطب: راجع شرح البيت السابق. والسديس: السن التي بعد الرباعية، وذلك في السنة الثامنة. والبازل: ناب الناقة، يبزل اللحم ويطلع إذا طعنت في السنة التاسعة، وربما بزل في الثامنة، فهي بازل، والذكر: بازل أيضاً وليس بعد البازل سن تسمى. (انظر: الأصمعي: الإبل: ٧٦-٧٨)، و(الجوهري، وابن منظور: (سدس)، و(بزل)). وغَرْب البازل: أعلاه شبه صريف أنياب الناقة بصريف أنياب حمار الوحش من نشاطه وحدته.

(١) ديوانه: (٣٤/٣٢٦) = (ط. TÜREK: ٣٤/١٣٣).

(☆٢) الأدم: جمع أدماء، والأدمة في الظباء لون مشرب بياضاً وفي الإنسان السمرة. (انظر: ابن منظور: (أدم)). غُرَّة: موضع، رجّح (عزة حسن) أنه واد، وفي (الحموي: البلدان: (غرة)): «غُرَّة: أُطُم بالمدينة لبني عمرو بن عوف بُني مكانه منارة مسجد قباء»، وفي (البكري: ما استعجم: ٣٠٥، ٥٣٨): «تثليث» مكان «غرة»، واستدلّ بالبيت على أن تثليث أرض شجيرة، وتثليث: واد عملاق شمال نجران، على (٣٢٠ كيلاً) منها، ما يزال باسمه، سبق تحديده (راجع: المدخل: أولاً: ب - ٢ - ١). ودارين: قرية في بلاد البحرين، على شاطئ البحر، وهي مرفأ سفن الطيب الهندية، وقد استشهد (البكري: م.ن: ٥٣٨) بهذا البيت على دارين هذه، غير أن (عزة حسن) رجح أن دارين هاهنا واد، وليست هي القرية المذكورة.

(☆٣) الخَمَر: «كل ما واراك فخمرك من شجر أو غيره»: (أبو حنيفة: م.ن).

(٢) انظر: أبا حنيفة: ١٥٥، وابن منظور: (غضا).

(٣) ديوانه: (٣٦/٣٧) = (ط. TÜREK: ٣٦/١٥).

(☆٤) السِّيد: الذئب. والطل: المطر الصغار القطر الدائم، وقيل: هو الندى، وقيل: فوق الندى ودون المطر. (انظر: ابن منظور: (طلل)). جروه: ولده الصغير. أهاليب: جمع أهلوب، وهو الأسلوب والفن، وقيل: الأهلوب: الالتهاب في الشد وغيره، مقلوب عن ألهوب أو لغة فيه، فيقال: أهلب في عدوه إهلاباً، وألهب إلهاباً، وعدوه ذو أهاليب (انظر: م.ن: (هلب)). متسرح: سهل سريع. شبه فرسه بذئب غضى يعدو نحو صغيره في الطل فيأتي بأفانين من العدو، كلها تتصف بالخفة والسرعة.

(٤) ديوانه: (٤٥/١٤٠) = (ط. TÜREK: ٤٥/٥٧).

أَقَبُّ كسِرْحانِ الغَضَى راحَ مُؤْصِلاً   إذا خاف إدراكَ الطَّوالبِ شَمَّرا[☆]

و(الأرطى): من أشجار الرمال[١]، وله هدب، وهو ما كان من الورق ليس بعريض إنما هو «خوصة»[٢]. وهو و(الغضى) متشابهان غير أن الغضى أعظمهما، وينبت الأرطى عصياً من أصل واحد يطول قدر القامة، وله نَور مثل نَور الخِلاف الذي يقال له: البلخيّ، واللون واحد، ورائحته طيبة، وعروقه حمر شديدة الحمرة. وقد أكثر الشعراء من ذِكر تعوّذ (ثيران الوحش) بالأرطى ونحوها من شجر الرمل، واحتفار أصولها للكنوس بها من الحَرّ، والانكراس فيها من المطر والبرد؛ لأن تربة غيرها من شجر الجَلَد تستعصي على احتفارها[٣]. قال (ابن مقبل)، في وصف ثور وحشي[٤]:

يَظَلُّ إلى أَرْطاةِ حِقْفٍ يُثِيرُها   يُكابِدُ عنها تُرْبَها أنْ يُهَدَّما

و(الحاذ): أيضاً من أشجار الرمال، واحدته: حاذة، وهو من غير ذكور النبت[٥]، ويعد من شجر الحمض، وهو ناجع في الإبل تُخْصِب عليه رطباً ويابساً. والحاذة شجرة ضخمة، وصف الشعراء التجاء (بقر الوحش) إليها، تحتفر عند أصولها مستظلاً لها أو مستكنا[٦]، كما قال الشاعر[٧]:

كَنَعْجَةِ الحاذَةِ الحَوّاءِ أَلجأها   حامي الوَدِيقَةِ بين السَّاقِ والفَنَنِ[☆٢]

(☆) أقب: فرس ضامر. والسرحان: الذئب. مؤصلاً: في وقت الأصيل. والطوالب: الخيل التي تطلب إدراكه في السباق. وشمر: أسرع.

(١) انظر: الأصمعي: النبات: ٢١، وأبا حنيفة: ٢٤-٢٥.

(٢) انظر: الأصمعي: م.ن: ٢٨.

(٣) انظر: أبا حنيفة: م.ن.

(٤) ديوانه: (١١/٢٨٥) = (ط. TÜREK: ١١/١١٥).

(٥) انظر: الأصمعي: م.ن: ١٩.

(٦) انظر: أبا حنيفة: ١١٨-١١٩.

(٧) ديوانه: (١٩/٣٠٦) = (ط. TÜREK: ١٩/١٢٤).

(☆٢) النعجة: بقرة الوحش هاهنا. والحواء: صفة النعجة، وهي الحمراء تضرب إلى السواد، وفي (أبي حنيفة: ١١٩): «الحوراء». والوديقة: حر نصف النهار، قيل: سميت وديقة لأنها وَدَقَت إلى كل شيء أي وصلت إليه، (انظر: ابن منظور: (ودق))، وفي (أبي حنيفة: م.ن): «حر الظهيرة». والفنن: الغصن.

وتأوي (الظباء) أيضاً إلى الحاذ من شدة الحَرّ؛ قال، واصفاً رحلته عند مقيل الظباء إلى كنسها وقت الهاجرة[(١)]:

وهُــنَّ جُـنُـوحٌ لــدى حــاذةٍ ... ضـــواربُ غِــزلانُها بـــالجُرُنْ

و(الأراكُ) يَضُمّ بيض (الهُدْهُد)، في قوله[(٢)]:

واستقبلوا وادياً ضَمَّ الأَراكُ بِهِ ... بَيْضَ الهُداهِدِ ضَمَّ المَيْتِ في الجَنَنِ[(☆)]

ومن خلال هذا العرض للأشجار في شعره، وتتبّع المناسبات التي يأتي فيها كل صنف منها، وما أشار إليه من أضرب الاستفادة منها، يتبين أن بعضها يرمز في شعره للقوة والصلابة، ويطّرد ذكره في معانيها بصفة غالبة، وذلك: كـ(النبع)، و(الطلح)، و(التألب)، و(الطرفاء)، و(الجوز)، و(الميس). وبعضها للطول: كـ(الشوحط). أو للمرونة: كـ(النبع)، و(الشوحط)، و(الشريان). أو للخفة: كـ(العُشَر). أو للعِظَم: كـ(الأثل). والأثل يُشْبِه (الأثأب)، ويقال: ما نبت منه في الجبال فهو (نُضار)، وورقه من الهَدَب، وهو ما كان من الورق ليس بعريض إنما هو خوصة[(٣)]، وقيل: يشبه (الطرفاء)، وذهب (الجوهري)[(٤)] إلى أنه نوع من الطرفاء، ومما نقله (أبو حنيفة)[(٥)]: أن الأثل من العِضاه[(☆٢)]، وأنه طوال في السماء مستقيم الخشب جيّده، يُحمل إلى

(١) ديوانه: (١٤/٢٩٣) = (ط. TÜREK: ١٤/١١٨).
(٢) م.ن: (١١/٣٠٤) = (ط. TÜREK: ١١/١٢٣).
(☆) الأراك: شجر سبق وصفه قبل صفحات. الهُداهد: الهُدْهُد، وربما كان الهَداهد: (بفتح الهاء)، جمع هُدْهُد. الجنن: القبر لستره الميت، وهو الكفن أيضا. (انظر: ابن منظور: (جنن)).
(٣) انظر: الأصمعي: النبات: ٢٨، ٣٤.
(٤) انظر: (أثل).
(٥) انظر: ١٣-١٤. وابن منظور: (أثل).
(☆٢) الظاهر أن أبا حنيفة يعني بالعضاه هنا الشجر العظام لا ذوات الشوك خاصة، كما قال في معنى العضاه في كتابه: (٥٣)؛ لأنه قال بعدئذٍ: وليس له شوك.

القُرى، فيُبنى عليه بيوت المَدَر، وورقه هدب طوال دقاق، وليس له شوك، وله ثمرة حمراء كأنها أُبَنَة، يعني عُقْدة الرّشاء. ولسموّ الأثلة واستوائها وحسن اعتدالها شبّه بها الشعراء المرأة إذا تم قوامها واستوى خلقها. ومن الأثل تصنع القِصاع والجفان. وقد ذكر (ابن مقبل) (الأثل والطلح) في معنى (العِظَم) فقال(١):

كأن صَريعَ الأَثْلِ والطَّلْحِ وسْطَهُ بَخاتِيُّ جُوْنٌ ساقَها مُتَرَبِّحُ(☆)

ومن الشجر ما جاء في شعره يعبّر عن معنى (الكثرة)، كـ(الحِراج) و(الحَرَج): جمع حَرَجَة، وهي الشجر الملتف، وقيل: موضع من الغيضة تلتف فيه شجرات قدر رمية حجر، وقيل: سُمّيت بذلك لالتفافها وضيق المسلك فيها(٢):

وثَرْوَةٌ من رجالٍ لو رأيتَهُمُ لقلتَ: إحدى حِراجِ الجَرِّ من أُقُرِ(٣)

وقال(٤):

بَعْدَ المُرَوِّحِ والعَزيبِ كأنه حَرَجُ السَّليلِ، مُمَنَّعُ الأَدْبارِ(☆٢)

---

(١) ديوانه: (١٣/٥٠) = (ط. TÜREK: ١٣/٢٠).

(☆) الطلح: شجر سبق وصفه قبل صفحات من هذا الموضوع. وسطه: وسط السيل المذكور في بيت سابق. بخاتي: جمع بُخْتِيّة، وهي الناقة من البُخْت، وهي جِمال طوال الأعناق. (انظر: ابن منظور: (بخت)). جُوْن: جمع جَوْن أو جَوْنة، وهي بمعنى: سود أو بيض، من الأضداد، ولعلها بمعنى: سود هاهنا. متربح: تاجر. شبه الأثل والطلح الصريع في السيل لعِظَمه بإبل من البُخْت سود محملات ببضائع التجارة.

(٢) انظر: ابن منظور: (حرج).

(٣) ديوانه: (٤٨/٨٩) = (ط. TÜREK: ٤٨/٣٥).

(٤) م.ن: (٥/١١٩) = (ط. TÜREK: ٥/٤٨).

(☆٢) بعد: متعلق ببيت سابق، ذكر فيه إقفار الديار من أهلها. والمروّح: ما يروّح من الماشية بالعشي إلى مُراحة، وهو مأواه. (انظر: ابن منظور: (روح)). والعزيب: ما يعزب من الماشية في المرعى، يبيت به لا يروح. (انظر: م.ن: (عزب)). والسليل: وسط الوادي حيث يسيل معظم الماء، وقيل: السليل واد واسع غامض يُنبت السَّلَم والضَّعَة واليَنَمة والحَلَمة والسَّمُر، وجمعه سُلّان. (انظر: م.ن: (سلل)). ممنع الأدبار: محميّ من غارات الأعداء. شبّه كثرة ماشية القوم بالحرج في الأودية الواسعة.

و(الخِضب) و(الصَّبِرْ): يعبرٌ عنهما (بالنخيل)، فسيلاً كان أم مخاريف أم غيرهما. وذلك من خلال اتخاذه مشبَّهاً به للظعائن بخاصة[1]، وللمرأة بعامة[2]. ويأتي (السَّراء المُصَتّف) عنده في معنى (الخصب) كذلك[3]. أمّا (اغبرار العِضاه) فيجيء دالاًّ على حالة (الجدب والشدة)[4].

ومنها ما جاء في شعره يعبرّ عن (النأي والغربة)، كالطّلح، السابق وصفه، و(التَّنْضُب): وهو شجر له شوك قصار، دخانه أبيض يشبّه به الغبار[5]، وذكر (أبو حنيفة)[6]: أنه من شجر القِفاف، وتتخذ منه القسي، وهو شجر ضخام ليس له ورق، يسوّق ويخرج له خشب ضخام وأفنان كثيرة، وإنما ورقه قضبان، تمشق الإبل والغنم أعاليها، وشوكه صغير قليل تأكله الإبل والغنم، ونقل (ابن منظور)[7]: أن التنضب ينبت على هيئة (السَّرح)، وعيدانه بيض ضخمة، وورقه متقبّض، وشوكه مثل شوك (العوسج)، ولا تراه إلا كأنه يابس مغبرّ، وله ثمر مثل العِنَب الصغار، يؤكل وهو أُحَيْمر، وتألفه (الحَرابي). وقيل: إنما سمي بالتنضب لقلة مائه. وليس من شجر الشواهق، ينبت بالحجاز، وليس بنجد منه شيء إلا جزعة واحدة بطرف (ذِقان)، عند (التُّقَيِّدة). واحدته: تَنْضُبَة. وقد جاء (التنضب) و(الطلح) للتعبير عن (النأي والغربة)، حيث قال[8]:

---

(١) انظر: ديوانه: (٥٥/٩٢)، (١١/٢٠٤)، وذيل ديوانه: (٣٢/٣٧١)، (٤٦/٣٩٣) = (ط. TÜREK: ٣٦/ ٥٥، ١١/٨٤، والملحق: ٦١/١٤٧، ٩٠/١٥١).

(٢) انظر: ديوانه: (٣٧/٣٢٧) = (ط. TÜREK: ٣٧/١٣٤).

(٣) راجع: (السراء).

(٤) راجع: (العِضاه).

(٥) انظر: الأصمعي: النبات: ٣٤.

(٦) انظر: ٦٦-٦٧.

(٧) انظر: (نضب).

(٨) ديوانه: (٣٧/٢٠) = (ط. TÜREK: ٣٧/١٠).

وبِن دون حيث اسْتَوْقَدَتْ من ضَنِيْدَةٍ   تَناهٍ بها طَلْحٌ غَريبٌ وتَنْضُبُ(☆)

وإنما جاء بالطلح والتنضب في هذا المعنى، تأكيداً لبعد المسافة التي تمتد بينه وبين صاحبته؛ لأن الطلح والتنضب مما ينبت في الحجاز؛ ولهذا وصفهما بالغرابة لأنهما لا ينبتان في أرضه.

وبعض الأشجار يأتي في حديثه عن (النار) والوقود: كـ(الغضى)، و(السَّيال)، السابق وصفهما.

واستعار الشاعر (الصَّبِر) لتصوير مرارة الحرب والموت. والصَّبِر: كنبات السَّوْسَن الأخضر، غير أن ورقه أطول وأعرض وأثخن كثيراً، وهو كثير الماء جداً، وقيل: ورقه كقرب السكاكين طوال غلاظ، في خضرتها غبرة وكُمْدة مُقْشَعِرّة المنظر، ويخرج من وسطها ساق عليه نَور أصفر. وعصارة شجر الصَّبِر مُرّة[1]، يضرب بها المثل في المرارة. وقد استعاره الشاعر لتصوير مرارة[2]:

يَسْقِي الكُماةَ سِجالَ الموتِ بَدْأَتُنا   وعند كَرَّتِنا المُرَّى منَ الصَّبِرِ(☆٢)

وأمّا (الضَّال) فقد استخدمه في وصف (نظافة المرأة) وعنايتها بشعرها. كما جاء (الأراك) في وصف (ثغرها) وصفاء أسنانها. و(الحناء) في (جمال كفيها).

(☆) استوقدت: يعني صاحبته المذكورة في أبيات سابقة، أي من دون الموضع الذي أقامت به وأوقدت نارها فيه. وضنيدة: موضع رمل بقرب وَدّان وأصله: ضنيد. (انظر: البكري: ما استعجم. ٨٥٠-٨٥١). تناه: جمع تَنْهاة، وتَنْهية، وهي حيث ينتهي الماء من الوادي. (انظر: ابن منظور: (نهي)). وقوله: «غريب» لأنها لا تنبت بأرضهم. (انظر: البكري: م.ن: ٨٥١).

(١) انظر: ابن منظور: (صبر).

(٢) ديوانه: (٤٩/٩٠) = (ط. TÜREK: ٤٩/٣٥).

(☆٢) الكماة: جمع الكَمِيّ، وهو الفارس الشجاع المتكمّي في سلاحه. سجال: جمع سَجْل، وهو الدلو الضخمة المملوءة ماء، وسِجال الموت: استعارة. بدأتنا: حملتنا الأولى في القتال. والمُرَّى: مؤنث الأمرّ، والمُرَّى من الصَّبِرِ: استعارة أيضا. شبه ما سيلقاه الأعداء عند كرتهم من القتل بعصارة الصَّبِرِ المُرَّى.

بينما جاء (الرَّنْد) معبرّاً عن (الكرم الواسع)، إذ تزهّى به النار؛ لكيلا يقتصر الكرم على الضيف المبصر الذي يهتدي برؤية النار، بل يشمل الأعمى الذي يهديه بخور الرَّنْد.

جـ - الشــــوك:

ويقلّ ذكر الشوك في شعره. والمراد هنا الشوك نفسه لا شجر الشوك، فقد مضى وصف كثير من أشجار الشوك في شعره.

فمن الشوك المذكور في شعره: (السفى)، وهو شوك البُهْمَى والسُّنْبُل وكل شيء له شوك، وقيل: هي أطراف البهمى، واحدته: سفاة[1]، و(البهمى): تكون واحدة وجمعاً وألفها ألف تأنيث[2]، وهي من خير أحرار البقول رطباً ويابساً، وتنبت أول شيء بارِضاً، فإذا خرجت من الأرض نبتت كما ينبت الحَبّ، حتى تصير مثله، فإذا يبست خرج لها شوك مثل شوك (السنبل)، وإذا وقع في أنوف الإبل أو الغنم أَنِفَتْ منه حتى يُنزع من أنوفها وأفواهها، وترتفع نحو الشِّبْر، ونباتها ألطف من نبات البُرّ، وهي أنجع المرعى في الحافر ما لم تُسْفِ، وهي صَمْعاء، ما لم تَنْشَقَّ غضّةً، فإذا يبست فيبيسها (العِرْب)، وقيل: العِرْب: يبيسها خاصة، ويبيس كل بقل، وقيل: هو شوكها، واحدته: عِرْبة[3]. وقد جاء (السَّفَى) و(العِرْب) في شعره في وصف حمار الوحش، حيث قال عنه[4]:

وَصّامِ أوساطِ السَّفَى مُتَعَلِّقٍ ... أَرْساغُهُ بحَصادِ عِرْبٍ ناصِلِ(☆)

---

(١) انظر: ابن منظور: (سفا).

(٢) انظر: سيبويه: ٣/ ٢١١.

(٣) انظر: الأصمعي: النبات: ٥، وأبا حنيفة: ٥٤-٥٩، وابن منظور: (عرب).

(٤) ديوانه: (١٨/٢٢١) = (ط. TÜREK: ١٨/٩١).

(☆) في ديوانه: «قصّام»: (بالقاف)، اعتماداً على الأصل المخطوط، إلّا أن في (الأصمعي: النبات: ٥): «وصّام» (بالواو)، والأصمعي أقدم وأوثق. والوصم: «الصدع في العود من غير بَيْنونة»: (ابن منظور: (وصم)). أرساغه: =

ويشبه هذا قوله، في وصف فرس [1]:

فَصَامَ، شوكُ السَّفَى يَرْمِي أشاعِرَهُ، نيطَتْ بأرساغِهِ منه أَضاميمُ(☆)

ويرد في شعره شوك (الأفاني)، والأفاني: من العشب، وهي غبيراء، لها زهرة حمراء، وهي طيبة، تكثر، لها كلأ يابس. وقيل: هي شيء ينبت كأنه حمضة، وتشبه بفرخ القطا حين تُشْوِك. وقال بعض الأعراب: «الأفانية تبدأ بقلة ثم تصير كالشجرة خضراء غبراء مثل فرخ الحمامة»، فإذا يبست وابيضّت شوّكت، وشوكها الحماط، وهذا غير الحماط الذي هو تين الجبل، وورقها مليس، وعيدانها شبه الزَّغَب، وشوكها لاتكاد تستبينه، فإذا وقع على جلد الإنسان وجده كأنه حريق النار، وربما شري منه وسال منه الدم. والأفاني من أحرار البقل، واحدته: أفانية، وقيل: يقال ليبيسه: (الجريف)، ومنابته السهل [2]. «ولخشونتها وشوكها يقول ابن مقبل، في وصف إبل [3]» [4]:

بِـأَلْحٍ وأَشْـداقٍ سِـبـاطٍ كـأنها سُبُوتُ النِّعالِ ما تُشاكُ الأفانيا(☆٢)

= جمع رُسغ، وهو الموضع المُسْتَدِق الذي بين الحافر ومَوْصِل الوظيف من اليد والرجل، وكذلك هو من كل دابة»: (م.ن: (رسغ)). «وحصاد البقول البرية ما تناثر من حبتها عند هَيْجتها»: (م.ن: (حصد)). والناصل: ذو الشوك، شبه شوكه بالنصال.

(١) ديوانه: (٤٦/٢٨٠) = (ط. TÜREK: ٤٦/١١٣).

(☆) صام الفرس: قام ساكناً لا يطعم شيئاً، (انظر: ابن منظور: (صوم))، وربما كان فصَام أو قصَام أو وصَام، كالبيت السابق. أشاعره: جمع أشعر، وهو «ما استدار بالحافر من منتهى الجلد حيث تنبت الشعيرات حوالي الحافر، وأشاعر الفرس: ما بين حافره إلى منتهى شعر أرساغه»: (م.ن: (شعر)). نيطت: بمعنى علقت والأضاميم: جمع إضمامة، وهي الحزمة.

(٢) انظر: أبا حنيفة: ٢٧-٢٩، وابن منظور: (أفن).

(٣) أبو حنيفة: ٢٨.

(٤) ديوانه: (ط. TÜREK: الملحق: ١٦٠/١٥٧).

(☆٢) ألح: جمع لَحْي، وهما لَحْيان في الإنسان والحيوان، وهما حائطا الفم، العظمان اللذان فيهما الأسنان. وأشداق: جمع شِدْق، وهما شدقان في الإنسان والحيوان كذلك، وهما جانبا مَشَقّ الفم. سباط: جمع سَبط، وهو الطويل الواسع هاهنا. سبوت: جمع سِبْت: وهو كل جلد مدبوغ، وقيل: المدبوغ بالقرظ خاصة، وقيل غير ذلك، وتصنع منه النعال السِّبْتِيَّة. (انظر: ابن منظور: (لحا)، و(شدق)، و(سبط)، و(سبت)). شبه ألحي الإبل وأشداقها - وقد غلظت وأكتبت فلا تبالي بالشوك - بجلد النعال القوية التي لا تبالي بشوك الأفاني. (وانظر: أبا حنيفة ٢٨).

فدلّ هذا البيت على شدة شوك الأفاني؛ حتى إنه عندما أراد وصف الإبل بغلظ ألحيها وأشداقها، دلّ على ذلك بأنها لا تشاك بالأفاني.

د - الأزهـــــار:

وكذلك تقل الأزهار في شعره. ويذكر منها: (الأقحوان): واحدته أقحوانة، والجميع الأقاحي (بتشديد الياء وتخفيفها)، وذكر بعض الأعراب: أنه (البابونج) أو (البابونك) عند الفُرس. وينبت في الغلظ واللين، وهو من العشب، طيّب الريح على كل حال[1]، وهو من ذكور البقل[2]، والأقحوان من نبات الربيع مفرّض الورق دقيق العيدان، زهره أبيض، كأنه ثغر فتاة حدثة السن[3]، ونقل (الأزهري)[4] أن الأقحوان هو (القُرّاص) عند العرب. وقد جاء الأقحوان في شعره مرتين، شبه به - في كلتيهما - ثغر المرأة، فقال[5]:

سَبَتْكَ بمَأْشُورِ الثّنايا كأنه ... أقاحي غَداةٍ بات بالدَّجْنِ يُنْضَحُ[☆]

وقال[6]:

كأن الثَّرَى أهدتْ لنا بعد ما وَنَى ... من الليلِ سُمَّارُ الدَّجاجِ فنَوَّما
رَبيبَةَ حُرٍّ دافعتْ في حُقُوفِهِ ... رَخاخَ الثَّرَى، والأُقْحُوانَ المُدَيَّما

واستمداد صورة بياض زهر الأقحوان البليل وهيئته لوصف أسنان المرأة

(١) انظر: أبا حنيفة: ٢٩-٣٠.
(٢) انظر: الأصمعي: النبات: ١٥.
(٣) انظر: ابن منظور: (قحا).
(٤) انظر: تهذيب الأزهري: ٣٦٦/٨.
(٥) ديوانه: (٦/٤٩) = (ط. TÜREK: ١٩/٦).
(☆) الثنايا: جمع ثنية، وهي الأسنان الأربع التي في مقدم الفم، ثنتان من فوق وثنتان من أسفل. (انظر: ابن منظور (ثني)). والمأشور: من الأشر، وهو حِدّة ورِقّة في طرف الأسنان، وإنما يكون في أسنان الأحداث، وتفعله المرأة الكبيرة تتشبه بالأحداث، وذلك بأن تفلّج أسنانها وتحدّدها. (انظر: م.ن: (أشر)). والدجن: المطر الكثير هاهنا
(٦) ديوانه: (٢٨٤/٥-٦) = (ط. TÜREK: ١١٥/٥-٦).

تقليدٌ دأب عليه العرب، حتى إن المصادر قد استعانت بهذا التشبيه لوصف الأقحوان، كما سبق في تعريفه.

ومن الأزهار في شعره: (الخزامى)، التي كانت من أطيب الطيوب عندهم[(١)]. والخزامى: من العشب، طويلة العيدان، صغيرة الورق، حمراء الزهرة، طيّبة الريح، قال (أبو حنيفة)[(٢)]: «ولم نجد من الزهر زهرة أطيب نفحة من زهرة الخزامى»، وقال بعض الرواة: الخزامى خيري البَرّ، وقيل: أحسن ما تكون في حِقْف رمل ولم تُرَ في جَلَد قط، ومن منابتها الرياض[(٣)]، وهي من ذكور البقل[(٤)]. وقد وجد الشاعر في طول عيدان الخزامى وحمرة زهرها ما شبّه به طول الإبل الظاعنة، وعليها هوادج الظعائن، مكلّلة بستائر حمر، وربما لمح في وجه الشبه هنا معنى العطر والخصب في طرفي هذا التشبيه، فقال[(٥)]:

وُقُـوفٌ بـه تحتَ أَظْـلالِـهِ ... كُهُولُ الخُزامَى وُقُوفَ الظُّعُنْ[(☆)]

ومنها: (برعم الحوذان)، الذي جاء في حديثه عن الخيل حيث قال[(٦)]:

تَعْتادُها قُرَّحٌ مَلْبُونَةٌ خُنُفٌ ... يَنْفُخْنَ في بُرْعُمِ الحَوْذانِ والخَضِرِ[(☆٢)]

---

(١) راجع ما قيل عنها في: ب٢ ف١: ب - الرمال، ب٢ ف٢: أ - النبات.
(٢) ١٥٧.
(٣) انظر: م.ن: ١٥٦-١٥٧.
(٤) انظر: الأصمعي: النبات: ١٥.
(٥) ديوانه: (٢/٢٨٩) = (ط. TÜREK: ٢/١١٧).
(☆) الضمير في كلمة «به» عائد على الغيث المذكور في بيت قبله، وكذلك في كلمة «أظلاله». كهول الخزامى: إذا انتهى النبت منتهاه فقد اكتهل، فهو نبات كهل. (انظر: الزمخشري: الأساس: (كهل)) والظعن: جمع الظعينة، وهي المرأة في هودجها.
(٦) ديوانه: (٤١/٨٦) = (ط. TÜREK: ٤١/٣٤).
(☆٢) قرح: جمع قارح، وهو الفرس هاهنا، الذي تمّت أسنانه، وإنما تتم في خمس سنين، فإذا استتم الخامسة ودخل السادسة فهو قارح. (انظر: ابن منظور: (قرح)). ملبونة: تسقى اللبن. خنف: جمع خنوف، وهو «الذي يثني رأسه ويديه في شقّ إذا أحضر»: (أبو عبيدة: الخيل: ١٣٠-١٣١). والحوذان: (راجع: أ - النبات) والخَضِر واحدته خَضِرة، قيل: هو بُقَيلة خضراء خشناء ورقها مثل ورق الدخن، وكذلك ثمرتها، ترتفع ذراعاً، وهي تملأ فم البعير، والخَضِر أيضاً: كل خضراء. (انظر: أبا حنيفة: ١٤٩-١٥٠)، و(ابن منظور: (خضر)).

وكذا (براعيم العضرس)، في وصف حمار وحش[١]:

يَمُجُّ بَراعيمَ من عَضْرَسٍ   تَرواحَهُ القَطْرُ حتى مَعِنْ[☆]

وجاء (الزهر) - دون تحديد النوع - في وصف ابتسامة المرأة كما جاء الأقحوان من قبل. إلا أنه يلتفت في هذه المرة إلى طيب الريح، بالإضافة إلى اللون والابتلال في طرفي التشبيه، حيث نُسب إليه أنه قال[٢][٢☆]:

كأن ضَحْكَتَها يوماً إذا ابْتَسَمَتْ   بَرْقٌ سحائبُهُ غُرٌّ زَهاليلُ
كأنه زَهَرٌ جاء الجُناةُ بِهِ   مُسْتَطْرَفٌ طَيِّبُ الأرْواحِ مَطْلُولُ

ويأتي الزهر - بالطبع - في وصف الرياض، كقوله[٣]:

وغيثٍ أسالَ اللهُ مُهجَةَ نفسِهِ   بوادٍ عَذاةٍ لا تَوارَى كواكِبُهْ

وقال أيضاً في لوحةٍ لونيّة تصف فراشة في روضة[٤]:

والأزرقُ الأصفرُ [السِّرْبالِ] مُنْتَصِبٌ   قِيْدَ العَصا فوقَ ذَيّالٍ منَ الزَّهَرِ

ومن هذا يتضح أن الزهر في شعره كان عنصراً تعبيرياً عن معنى الجمال الحسّيّ والخصب في الطبيعة والإنسان.

(١) ديوانه: (٨/٢٩١) = (ط. TÜREK: ٧/١١٧).
(☆) يمجّ: الضمير لحمار الوحش. والعضرس: (راجع: أ - النبات). تراوحه: تعاقب عليه. والقطر: المطر. مَعِن: رَوِيَ بالمطر. (انظر: ابن منظور: (معن)).
(٢) ذيل ديوانه: (٣٨٢/٢٤-٢٥) = (ط. TÜREK: لم يذكرا).
(٢☆) غُرّ: بيض. زهاليل: جمع زُهْلول، وهو الأملس. (انظر: ابن منظور: (زهل)). قال (السكري: ديوان حران العود: ٣٨) في البيت الثاني: «يعني الثغر، وإن لم يجر له ذكر».
(٣) ذيل ديوانه: (١/٣٥٦) = (ط. TÜREK: لم يذكر).
(٤) ديوانه: (٦٣/٩٥) = (ط. TÜREK: ٦٣/٣٧).

هـ - الثمـــار:

هي أكثر في شعره من الأزهار والشوك، ومقدار أهميتها - الطبيعية والفنّية - وراء ذلك. وقد ألمّ في شعره باستفادة العرب من بعض الثمار، مثل: (الفُلْفُل): ولا ينبت في أرض العرب، والاسم فارسي، قال (أبو حنيفة):

«أخبرني من رأى شجره فقال: شجره مثل شجر الرمان سواء، وبين الورقتين منه شِمْراخان مَنْظومان، والشِّمْراخ في طول الأصبع وهو أخضر، فيجتنى ثم يُشَرُّ في الظل فيسودّ وينكمش وله شوك كشوك الرمان، وإذا كان رطباً رُبِّب بالماء والملح حتى يُدْرِك ثم يؤكل كما تؤكل البقول المُرَبَّبة على الموائد فيكون هاضوماً، واحدته: فُلْفُلة»[1].

و(الرمان): واحدته رمانة، وهو حمل شجرة معروفة من الفواكه، وجبليّه: (المَظّ)، كثير بالسراة ولا يُرَبّى، ويظهر فيه هناك المَذْخ، وهو عسل تجرسه النحل ويتمذّخه الناس، وتأكله الإبل مع نوره أكلاً ذريعا[2]. وقد ذكر اتخاذهم (الفلفل الجون) و(الرمان) في (الخمر) فقال[3]:

صِرْفٌ تَرَقْرَقُ في النَّاجُودِ، ناطِلُها   بالفُلْفُلِ الجَوْنِ والرُّمّانِ مَخْتُومُ

و(الشعير): جنس من الحبوب معروف، واحدته شَعيرة، وقد جاء في شعره اتخاذه طعاماً للخيل، إلا أنه نزّه الفرس الكريم عنه، فقال[4]:

مُصامِصٌ ما ذاقَ يوماً قَتّا

ولا شعيراً نَخِراً مُرْفَتّا[☆]

---

(١) ابن منظور: (فلل).

(٢) انظر: أبا حنيفة: ٢٠٠.

(٣) ديوانه: (٨/٢٦٨) = (ط. TÜREK: ٨/١٠٩).

(٤) ذيل ديوانه: (٣٥٧/١-٢) = (ط. TÜREK: الملحق: ٢٢/١٤٢).

(☆) مرفتّ: متكسر متدقق.

وجاء في شعره (حَبّ الأراك)، ولعله يعني به (البَرير)، وهو ثمر الأراك، واحدته: (بَريرة)، وهو أعظم حبّاً من الكَباث وأصغر عنقوداً منه، وعجمته مدوّرة صغيرة صلبة أكبر من الحِمّص قليلاً، وعنقوده يملأ الكفّ، والبَرير حلو يؤكل[1].

و(حَبّ الضّال): ولعله يعني به (نبق السدر البري)، وهو يختلف عن (نبق السدر العُبْرِيّ)، في أنه أصغر منه، وطعمه عَفِص لا يؤكل[2].

وقد ذكر أن (حَبّ الأراك) و(حَبّ الضّال) ترتعيه الظباء بدَنَن، فقال[3]:

يَثْنِينَ أعناقَ أُدْمٍ يَرْتَعِينَ [بها] حَبَّ الأراكِ وحَبَّ الضّالِ من دَنَنِ[☆]

و(المَرخ): شجر من العضاه ينفرش ويطول حتى يستظلّ به، وليس ورقٌ ولا شوك، عيدانه سَلِبة قُضبان دقاق، وهو ينبت في شُعَب وفي خَشَب[4]. والمرخ كثير النار، يتخذ منه الزّناد، وفي الأمثال: «في كل شجر نار، واسْتَمْجَد المرخ والعفار»[5]. وأخبر بعض أعراب عُمان: أن المرخ خوّار خفيف العود. وللمرخ ثمرة طويلة كالإصبع كأنها الباقِلي، إلا أنها أعرض محددة الأطراف، لها سِنف إذا يبس سقط حبه وبقي في المرخة قِشرة ذاك[6]. وقد أورد (ابن مقبل) سنف المرخ في وصف أذن الفرس، فقال[7]:

---

(١) انظر: أبا حنيفة: ٣، ٩-١٠.

(٢) راجع: ب - الأشجار.

(٣) ديوانه: (٢٢/٣٠٧) = (ط. TÜREK: ٢٢/١٢٤).

(☆) الضمير في «يثنين» للنسوة اللاتي ذكرهن في أبيات سابقة، وقد شبههن بالظباء. أدم: جمع أدماء، والأدمة في الظباء: لون مشرب بياضا. (انظر: ابن منظور: (أدم)). ودنن: بلد بعينه، وقيل: ماء قرب نجران. (انظر: الحموي: البلدان: (دنن)).

(٤) انظر: البصري: التنبيهات: ٢٢٨، وابن سيده: المحكم: ٥/١١٨.

(٥) انظر: الأصمعي: النبات: ٣٤.

(٦) انظر: ابن قتيبة: المعاني: ١١٣، والبصري: م.ن: ٢٢٨-٢٢٩.

(٧) ديوانه: (٦٧/٩٧) = (ط. TÜREK: ٦٧/٣٨).

أُرْخِي العِذارَ، وإنْ طالتْ قَبائلُهُ، عن حَشْرَةٍ مثلِ سِنْفِ المَرْخَةِ الصَّفِرِ(☆)

فدلّ تشبيه أذن الفرس بثمرة المرخ على أنها محدّدة الأطراف[1]. وقال أيضا[2]:

تَقَلْقَلُ عن فأسِ اللُّجامِ لَهاتُهُ تَقَلْقُلَ سِنْفِ المَرْخِ في الجَعْبَةِ الصِّفْرِ(☆٢)

وروى (الصّغاني)[3] أن «السنف مثل الكِمام على فم البعير يكون في المرخة كأنه ثمرة».

و(الدُّبّاء): هو القَرَع، واحدته دبّاءة، وهو كثير بأرض العرب، وقد شبّه به الشعراء الخيل؛ لأنه يستحبّ منها أن تطول أعناقها وتكون مآخيرها أعظم من مقاديمها، وهذا في الإناث والذكور سواء[4]، فقد وصف (ابن مقبل) ذَكَراً منها فقال[5]:

(☆) العذار: ما وقع من اللجام على خد الفرس، وقوله: «أرخي العذار...»: يدل على طول خد الفرس. قبائله: جمع قَبِيلة، وهي السيور. حشرة: أذن رقيقة منتصبة. الصفر: الذي لا شيء فيه. (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ١١٣).

(١) انظر: البصري: م.ن.

(٢) ديوانه: (٧/١٠٨) = (ط. TÜREK: ٧/٤٢).

(☆٢) تقلقل: تضطرب. فأس اللجام: حديدته القائمة في الحنك. واللهاة: لحمة حمراء معلقة مشرفة على الحلق. والجعبة: كنانة السهام. (وانظر: ابن منظور: (لها)، و(جعب)). الصفر: الخالية. هذا وقد نفى (البصري: التنبيهات: ٢٢٨) أن يكون هذا البيت لابن مقبل بل هو للجعدي، وإنما لابن مقبل البيت السابق، وأنكر أن يكون معنى (السنف) هاهنا: (الورقة) - حسبما ذهب إلى ذلك (أبو عبيد) عن (أبي عمرو) في (كتاب الغريب المصنّف)، وكذلك في (ابن فارس: المجمل: (سنف))، ورواية في (المقاييس: (سنف))، و(ابن سيده: المخصص: ١٠/٢١٧)، ورواية في (الصغاني: العباب: (حرف الفاء): ٢٩٣) - لأن المرخ لا ورق له، فالسنف وعاء ثمره لا غير، ثم نقل عن (أبي حنيفة) قوله: «والمرخ خوّار خفيف العود، لخفته قال الجعدي في وصف الفرس:... تَقَلْقُلَ عود المرخ في جعبة صفر»، فالرواية: «عود المرخ» لا «سنف المرخ»، وهو بهذه الرواية أيضاً في (ابن المعتز: ٦٩)، و(العسكري الصناعتين: ٣٧٥)، و(الشمشاطي: ١/٣٥١)، ورواية في (الصغاني: م.ن). ونقل (الشمشاطي: م.ن) عن (الأصمعي) قوله: إن هذا البيت «أحسن ما قيل في صلصلة لجام بلسان فرس». وعده (العسكري: م.ن) من الغلوّ.

(٣) العباب: (حرف الفاء): ٢٩٣.

(٤) انظر: أبا حنيفة: ١٧٢، وابن قتيبة: المعاني: ٦٠-٦١.

(٥) ديوانه: (٧٢/٩٩) = (ط. TÜREK: ٧٢/٣٨).

كَـأنّ دُبّـاءَةً شُـدَّ الحِزامُ بها ... في جَوْفِ أهْوَجَ بالتَّقْرِيبِ والحَضَرِ(☆)

«والدباء من اليقطين الذي ينفرش ولا ينهض كجنس البطّيخ والقثاء»[١].

و(الخَرْفَع): ثمر العُشَر، وله جلدة إذا انشقّت عنه ظهر منه القُطن، يُشَبَّه به لغام البعير[٢]. وقيل: «يخرج للعشر نُفّاح كأنه شقاشق الجمل التي يهدر فيها، ويخرج من جوف ذلك النُّفّاح حُرّاق لم يقتدح للناس في أجود منه، ويحشونه المخادّ والوسائد»[٣]. وقيل: حشوه زغب مثل القطن، ولبياضه وتنفُّشه شبّه الشعراء به الزَّبَد الذي يخطم خراطيم الإبل. وقال بعض الرواة: إن للعشر ثمرة كأنها كيس، فإذا كشفتَ عنها وجدت أطباقاً ليّنة بعضها على بعض، فهو حُرّاق الأعراب. وزعم بعضهم أنه يقال له أيضاً: الخِرْفِع (بالكسر)، وقيل: والقطن يسمى الخِرْفِع[٤]. وقد شبّه به الشاعر لغام الناقة في قوله[٥]:

يُضْحِي على خَطْمِها من فَرْطِها زَبَدٌ ... كأن بالرأسِ منها خُرْفُعاً خَشِفا(☆٢)

و(القطن): يعظم شجره حتى يكون مثل شجر المشمش، ويبقى عشرين سنة، وأجوده الحديث[٦]، وهو بأرض العرب كثير[٧]. وقد أورده في وصف حمار الوحش، فقال[٨]:

(☆) جوف: هكذا عند (أبي حنيفة: م.ن) وفي حاشية (ابن قتيبة: م.ن: ٦٠)، وديوانه (ط. عزة حسن)، أما في (ط.TÜREK) ففيها: «جون»، وذكر في الحاشية رواية ثالثة هي: «جوز». ولعل «جوز» أوفق هاهنا؛ أي أن الحزام مشدود في وسط الحصان. أهوج: نشيط. والتقريب والحضر: ضربان من عدو الخيل. شبه جسم الحصان في الهيئة والامتلاء بالدباءة.

(١) أبو حنيفة: م.ن.

(٢) انظر: الأصمعي: النبات: ٣٥.

(٣) أبو حنيفة: ١٤٧.

(٤) انظر: م.ن.

(٥) ديوانه: (٢٨/١٨٨) = (ط. TÜREK: ٧٧/٢٨).

(☆٢) خطمها: مقدم أنفها وفمها. من فرطها: أي من نشاطها. خشف: يابس. (انظر: ابن منظور: (خشف)).

(٦) انظر: ابن منظور: (قطن)).

(٧) انظر: أبا حنيفة: ٥٢.

(٨) ديوانه: (١٠/٢٩٢) = (ط. TÜREK: ١١٧/٩).

غدا يَنفُضُ الطَّلَّ عن مَتْنِهِ تَسِيلُ شَراسِفُهُ كالقُطُنْ(☆)

و(الكُرْسُف): هو القطن أيضا، واحدته كُرْسُفة. وجاء عنده في وصف الرياح والعجاج الذي غطّى رَبع (كبيشة) بالرمال، حيث قال(١):

كأنَّ بها من كُرْسُفٍ مُتَخَرِّقٍ على كلّ إجْرِيًّا من الرّيحِ مُنْخُلا(☆٢)

واستمد من صورة (عناقيد الكرم) تشبيه (شَعر دهماء)، فقال(٢):

وأَسْحَمَ مُجّاجَ الدِّهانِ، كأنه عناقيدُ من كَرْمٍ دنا فتَهَصَّرا(☆٣)

كما اتخذ مفردة (ثمر) للتعبير عن الشباب ومعنى السعادة والنعيم، حينما قال(٣):

وكُنَّا اجْتَنَيْنا مَرَّةً ثَمَرَ الصِّبا فلم يُبْقِ منهُ الدهرُ إلا تَذَكُّرا

وبهذا يستخلص أن (الثمار) في شعره ترمز - بوجه عام - للذّة، والسعادة، والنعيم، والجمال. على أنّ لكل نوع منها معنى خاصّاً يمكن أن

(☆) الطل: الندى هاهنا. شراسيفه: جمع شُرْسُوف، وهو غضروف معلق بكل ضلع، وقيل: أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن، ويقال شاة مُشَرْسَفَة: إذا كان البياض قد غطى شراسيفها. (انظر: ابن منظور: (شرسف)). شبه قطرات الطل التي تسيل بها شراسيفه بنديف القطن، أو أنه أراد تشبيه شراسيفه نفسها بالقطن المنقوع لبياضها وسيلانها بالماء.

(١) ديوانه: (٤/٢٠٨) = (ط. TÜREK: ٤/٨٦).

(☆٢) الإجريا: الوجه الذي تأخذ فيه وتجري عليه. (انظر: ابن منظور: (جرا)). وتقدير الكلام: كأن بها منخلاً من قطن متخرق على كل وجه تجري فيه الريح، شبه عمل الريح وما تهبّ به من العجاج على ربع (كبيشة) بمناخل من قطن متخرق تذرو الرمال عليه من كل جهة.

(٢) ديوانه: (٧/١٤٣) = (ط. TÜREK: ٧/٥٨). وانظر كذلك: ذيل ديوانه: (١٧/٣٨٠) = (ط. TÜREK: لم يذكر).

(☆٣) أسحم: أي شعر أسود. مجاج الدهان: أي أن شعرها - لكثرة ما فيه من طيب ودهن - ينضح به. دنا: أي من الينوع، أو دنا وقرب من متناوله، كما قال تعالى: ﴿قطوفها دانية﴾. وتهصّر: أي مالت أغصانه لثقل ثمره. شبه شعر تلك المرأة - لسواده وطوله وغزارته - بعناقيد الكرم الموصوفة.

(٣) ديوانه: (٤/١٤٢) = (ط. TÜREK: ٤/٥٨).

يلمحه القارئ من خلال السياق والاستخدام(☆).

□ □ □ □ □

(☆) من المفيد في ختام الحديث عن النبت والشجر في شعر ابن مقبل أن نشير إلى مرجعين حديثين ضمّا صوراً لبعض ما سبق الحديث عنه منهما، وهما:

- (Migahid: FLORA OF SAUDI ARABIA).

ومع أن الكتاب باللغة الإنجليزية إلا أنه قد أُلحق بفهارس بالأسماء العربية الفصيحة والعامية لما فيه من الأشجار والنباتات والأزهار.

- و(الحمدان: صَبا نجد). وقد ضمّ أكثر من خمسين منظراً وصورة عن نجد ونباتاته وأشجاره.

النبت والشجر(*)

(*) (ث) = ثمر.
(ز) = زهر.
(ش) = شجر.
(ك) = شوك.
(ن) = نبات.

T = طبعة TÜREK.
م = ملحق طبعة TÜREK.
+ = انفردت به الطبعة المشار إليها دون الأخرى.
ذ = ذيل طبعة عزة حسن.
ح = حاشية .

الفصل الثالث

الحيــوان

الحيــوان

هذا الكَمُّ المتنوّع من الحيوان في شعر (ابن مقبل) ينقل لإنسان اليوم صورة عن ماضي الجزيرة العربية ومقدار ما كانت تحفل به من أصناف الحيوانات المختلفة، يجد أمامه منها ما ندر وما انقرض وما قد لا يعرفه في هذا العصر. وسيَعجب: كيف جمع هذا الديوان كل ذلك؟!، بل سيَعجب كيف كانت الجزيرة ثم كيف انقلبت؟!، غير أنه قد يدرك أن له دوراً فيما آل إليه الحال؛ فلقد كان آباؤه أبناء بيئتهم، ينمُّون مواردها، ويستغلّون ثرواتها، ويَحْنون عليها. ومن أبرز أجزاء البيئة عندهم الحيوان، الذي رافق العربي طويلاً، فكان ينمّيه ويحفظه، بل يؤثره أحياناً على نفسه؛ ليستخدمه في عمله ورحلته، ويستفيد منه في طعامه وشرابه. كما كان يصارع بعض أنواع الحيوان، فيقتله أو يصطاده إذا كان وحشياً، حتى قلّ الوحشي إزاء الكثرة في الأليف والمستألف منه. فلمّا هجر العربي بيئته الأمّ قلّت بعض الكثرة الأليفة أيضاً، وشحّت موارد الطبيعة، تلك التي يرسمها الماضي المقروء في مثل هذا الديوان.

أ - الحيوان الأليف

أ - ١ - الإبــــل:

كانت الإبل أهم الحيوانات في حياة العربي؛ ولذلك حظيت في شعر (ابن مقبل) بمكانة خاصة، لا ينافسها فيها صنف آخر من الحيوانات، اللهم إلا الخيل. وهذان الحيوانان أثيران لدى العربي قديماً، يشهد على ذلك ما يزخر به أدبه من شعر ونثر في وصفهما وذكر خصالهما، حتى انفرد بذلك دون غيره من

الآداب[1]، وحتى عُدّ الفَرس والنّاقة معاً مظهر النموّ العقليّ والروحيّ في الشعر الجاهلي[2].

لقد وجد العربي في الإبل رفيقاً هيّأ الله في خلقه من الصفات ما يناسب الحياة العربية، وكأنه قد خُصّ به، فكانت له فيه فوائد جمّة، لا يشملها جميعاً هذا الشعر، لكنه يقف على أبرزها. فقد كان هذا الحيوان هو المُعين على الهمّ والرحلة[3]:

فكَلّفْ حَزازَ النّفْسِ ذاتَ بُرايَةٍ ... إذا الخَرْقُ بالعِيْسِ العِتاقِ تَخَيّلا[☆]

ومع أنها قوية (ذات بُراية) فإنها:

من المُعْقِباتِ العَدْوَ مَشْياً مُواشِكاً ... إذا طَيُّ نَسْعَيْها عن الرَّحْلِ أَفْضَلا[☆٢]

ووصف الإبل بالضمور يقترن - عادة - بوصفها بالصَّبر على مشاق السفر والرحلة. وهي مكلَّفة بالرحلة لا تكاد تستريح أو تُناخ[☆٣]:

---

(١) انظر: الكومي: الصراع بين الإنسان والطبيعة: ٦٣.

(٢) انظر: ناصف: ٩٥.

(٣) ديوانه: (٢٠٨-٢١٣/ ٥-٢٠) = (ط. TÜREK: ٨٦-٨٨/ ٥-٢٠).

(☆) حزاز النفس: همها. ذات براية: ناقة ذات براية، والبراية: القوة على السير، ويقال ناقة ذات براية أي بقاء على السير، والبراية: الشحم واللحم. (انظر: الجوهري: (برا)). والخرق: الفلاة الواسعة، سميت بذلك لانخراق الريح فيها. (انظر: ابن منظور: (خرق)). والعيس: جمع أعيس وعيساء، وهو من الإبل الأبيض تخالطه شقرة يسيرة. (انظر: م.ن: (عيس)). والعتاق: جمع عتيق، وهو الكريم الرائع. تخيّل: أي تخيّل الخرق بالعيس، وهو ما يريهم من تلونه بالآل. (انظر: الزمخشري: الأساس: (خيل)).

(☆٢) مواشك: سريع. والنسع: سير يظفر وتشدّ به الرحال. (انظر: ابن منظور: (نسع)). أفضل: أي زاد لضمور الناقة. (انظر: الزمخشري: الأساس: (فضل)).

(☆٣) تحللت: أي أناخت قليلاً، كالذي يتحلل من يمين، ثم واصلت سيرها مع الركب الراحل. المراخ: موضع في ديار عَضَل، وقد ورد مُراح، وورد مُراخ. (انظر: البكري: ما استعجم: ٤/ ١٢٠٤-١٢٠٥). وأذناب: جمع ذنب، وهذا يدل على أن المراخ هاهنا، واد، فذنب الوادي: ما ينتهي إليه السيل منه. (انظر: ابن منظور: (ذنب)). وبُرَيم: واد، وقال (الأصمعي): هو اسم جبل، (انظر: البكري: م.ن: ٢٤٦)، وفي (الحموي: البلدان: (بريم)): «قال الأصمعي (لبني عامر بن ربيعة) (بنجد) بَرِيم، وهم شركاه (بني جُشَم بن معاوية بن بكر بن هوازن)، فيه قال (ابن مقبل)...» ولم يذكر البيت، وقال (ابن خميس: المجاز ٢٠٩): «وفوق (البتيلة) غربها ودون (حَضَن) جبل هنالك أسود يراه الرائي على الطريق وكأنه عالق (بحضن) شماليه، وقد سدّ (حضن) الأفق الجنوبي خلفه، أما هو فمنفصل من (حضن) هذا الجبل هو (بَرِيم)... وبه منهل معروف كان لبني عامر بن ربيعة وتشاركهم فيه بنو جُشم بن معاوية ابن بكر بن هوازن»، واستشهد ببيت ابن مقبل هذا، وبريم اسمه منذ الجاهلية ومازال، ويسكنه اليوم بنو محمد بطن من البقوم. (انظر: ابن بليهد: ما تقارب سماعه: ١٧٣-١٧٤). وقوله: أعجلت بريا: أي أن الناقة أدركته فأعجلت فيه. وقوله: حجاج الشمس: مجاز، أي طرفها، كما يقال: حاجبها. (انظر: الزمخشري: الأساس: (حجج))

أُنِيخَتْ بِبابِ البيتِ حتى تَحَلَّلَتْ ... فراحتْ مع الرَّكْبِ الذي قد تَحَلَّلا
فأمستْ بأذنابِ المِراخِ فأَعْجَلَتْ ... بُرَيْناً حَجاجَ الشمسِ أنْ يَتَرَجَّلا

فيستطرد في وصف نشاطها وسرعتها قائلا(☆):

(☆) غدت: أي الناقة. والفنيق: الفحل المكرم المودع للفِحْلَة، لا يُركب ولا يُهان لكرامته عليهم. (انظر: ابن منظور: (فنق)). المستشير: السمين الحَسَن؛ لأنه يشار إليه كأنه طلب الإشارة. (انظر: الزمخشري: الأساس: (شور)). السُّنان: من سانَّ البعير الناقة إذا عارضها وطردها حتى يُنَوِّخها ليسفدها. وأرقل: أسرع. يقول: سانَّ ناقته ثم انتهى إلى العدْو فأرقل. (انظر: الجوهري، وابن منظور: (سنن)). الشكيمة: في اللجام الحديدة المعترضة في فم الفرس التي فيها الفأس. (انظر: ابن منظور: (شكم)). والشأو: الزمام. والحطاط: أن يعتمد البعير على أحد شقيه في الزمام. (انظر: م.ن: (حطط)). بغَّل: مشى مشياً فيه سعة، وقيل: هو مشي فيه اختلاف واختلاط بين العَمْلَجَة والعَنَق. (انظر: م.ن: (بغل)). المسوح: جمع مِسْح، وهو البلاس، كساء من الشعر. (انظر: م.ن: (مسح)). والملويات: من ألْوَى بالشيء إذا ذهب به، أي النوق الملويات بالمسوح، التي تطير مسوحها لشدة عدوها. والذعاف. سم ساعة. والجوزل: السم أيضاً، وفي (الجوهري: (جزل)): «قال أبو عبيدة: لم يسمع ذلك إلّا في قول ابن مقبل يصف ناقة...»، وقال في (تهذيب الأزهري: ١٠/ ٦١٤): «قال شمر لم أسمع الجَوْزَل بمعنى السم لغير ابن مقبل»، وفي (الأصفهاني: التنبيه: ١٠٥): «وحكى التوزي عن أبي عبيدة أن ابن مقبل جاء بكلمتين لم يأت بهما عربي: جعل/ الجوزل/ السم، وهو عند العرب الفرخ. وسمى خُلفي الناقة/ توأبانيين/ ...». يريد أن هذه الناقة تُجيب - لقوتها ونشاطها - النوق النشيطة التي تسير معها. تيمّمت: قصدت. صحاح الطريق: ما اشتد منه ولم يسهل ولم يوطأ. (انظر: ابن منظور: (صحح)). تسهّل: تتسهل، أي أنها تأبى - لقوّتها وعزتها - إلا أن تقصد مصاعيب الطرق ضغنها: نزاعها وعسر انقيادها، وجاء في (م.ن: (ضغن)): «وإذا قيل في الناقة هي ذات ضغن فإنما يراد نزاعها إلى وطنها... وكذلك البعير». تقادعني: تنازعني وتجاذبني. والفرط: شدة السرعة. الجونة الكدراء: القطاة السوداء. باتت مبيتها: باتت تسير مسير الناقة. جعجاع أرض غليظة لا أحد فيها. (انظر: ابن منظور: (جعع)). والكلكل: الصدر. قال (ابن قتيبة: المعاني: ٣١٧): «أي باتت القطاة تسير كما تسير الناقة، ضعفت عن ذلك وأناخت، والجعجاع المحبس، ويقال: بات فلان سائراً»، ورجح (عزة حسن) أن المقصود بـ«الجونة الكدراء» هاهنا: الشمس، أي: إذا غابت.. كناية عن أول الليل. أظراب: جمع ظَرِب، وهو الجُبيل المنبسط أو الصغير. وهرّ: موضع. توأبانيان: رأسا الضرع من الناقة أو قادمتاه، قال في (تهذيب الأزهري: ١٤/ ٣٣٣): «والتاء في التوأبانيين ليست أصلية»، وفي (ابن فارس: المقاييس: ١/ ٣٦٥): «ويمكن أن تكون التاء زائدة والأصل الوأب، والوأب: المقعّب»، و(انظر: الجوهري، وابن منظور: (تأب))، وقال (الجوهري): «كأن الباء مبدلة من الميم»، وحُكي عن (أبي عبيدة) قوله: إن ابن مقبل سمى خلفي الناقة توأبانيين ولم يأت به عربي. (انظر: الأصفهاني: م.ن) لم يتفلقلا: أي لم يظهرا ظهوراً بيّناً أو لم تسودّ حلمتاهما. (انظر: الجوهري: (تأب)، و(فلل))، و(تهذيب الأزهري: م.ن)، و(السيوطي: المزهر: ١/ ٢٥٢). تبرّع: أي تتبوع، تبسط باعها وتوسع خطوها في العدو. رسلاً: على مهل. نجا: أسرع. أحم: أسود. والشوى: القوائم، جمع شواة، ويعني بـ«أحم الشوى»: ثوراً وحشياً. وأجاد: جمع جُدّ وهو ما ارتفع من الأرض وصلب. (انظر: ابن منظور: (جدد)). وحومل: اسم رملة تركب القُفّ، بأطراف الشقيق وناحية الحَزْن، لبني يربوع وبني أسد. (انظر: البكري: ما استعجم: ٤٧٧)، وقال (ابن خميس: المجاز: ٧٩): «هو في عالية نجد الجنوبية، مع الدخول ودارة جلجل حول (هضب آل زايد) موطن امرئ القيس». شبه الناقة في نشاطها وسرعتها بثور وحشي فريد بأجاد حومل. سراة: ظهر. ولياح: ثور أبيض. (انظر: ابن منظور: (ليح)). أكلف الوجه: أسفعه، فيه سواد خفي. (انظر: م.ن: (كلف)). شبّه الناقة بالثور.

١- غدتْ كالفَنِيقِ المُسْتَشِيرِ إذا غدا　　سَما فتَناهَى عن سِنانٍ فأَرْقَلا
٢- برأسٍ إذا اشْتَدَّتْ شَكِيمَةُ شَأْوِهِ　　أَسَرَّ حِطاطاً، ثم لان فبَغَّلا
٣- إذا المَلْوِياتُ بالمُسُوحِ لَقِيْنَها　　سَقَتْهُنَّ كأساً من ذُعافٍ وجَوْزَلا
٤- إذا وَجَّهَتْ وَجْهَ الطَّرِيقِ تَيَمَّمَتْ　　صَحاحَ الطريقِ عِزَّةً أنْ تَسَهَّلا
٥- وأَحْجُزُها عن ضِغْنِها، وكأنما　　تُقادِعُني كَفِّي من الفَرْطِ مِغْوَلا
٦- كأن بها شيطانةً من نَجائها　　إذا أصبحتْ دَفْقاءَ بالمشي عَيْهَلا
٧- إذا الجَوْنَةُ الكَدْراءُ باتتْ مَبِيتَها　　أناختْ بجَعْجاعٍ جَناحاً وكَلْكَلا
٨- أُنِيختْ فَخَرَّتْ فوقَ عُوجٍ ذوابلٍ　　ووسَّدْتُ رأسي طِرْفِساناً مُنَخَّلا
٩- فمَرَّتْ على أَطْرابِ هِرٍّ عَشِيَّةً　　لها تَـوأَبـانـيّانِ لم يَـتَـفَـلْـفَـلا
١٠-غدتْ كالعِباديِّ المُنَصِّفِ رأسَه　　إذا ما مشَى في عِطْفِهِ وتَخَيَّلا
١١-تَبَوَّعُ رِسْلاً في الزِّمامِ كما نَجا　　أَحَمُّ الشَّوَى فَرْدٌ بأَجْمادِ حَوْمَلا
١٢-كأن حِبالَ الرَّحْلِ منها تَوَشَّحَتْ　　سَراةَ لَياحٍ أَكْلَفِ الوجهِ أَكْحَلا

وكانت الناقة من أصحابه في الغربة، بما تملكه من شدّة الجسم، وجَلَدِ الصّبْر، وإخلاص الخدمة[(١)(☆)]:

طرقتكَ زينبُ بعدما طال الكَرَى　　دونَ المدينةِ غيرَ ذي أصحابِ
إلا عِـلافِيّاً، وسـيفاً مُـلْطَفاً　　وضِـبـرَّةً وَجْـنـاءَ ذاتَ هِـبـابِ

---

(١) ديوانه: (١/١-٢) = (ط. TÜREK: ١/١-٢).

(☆) العلافي: أعظم الرحال أخَرَة وواسطاً، نسب إلى علاف، رجل من الأزد، وهو زَبّان أبو جَرْم من قضاعة كان يصنع الرحال، قيل: هو أول من عملها. (انظر: ابن منظور: (علف)). ملطفاً: ملصقاً بالجنب. وضبرة: أي ناقة شديدة وثّابة. وجناء: تامة الخلق غليظة لحم الوجنة صلبة شديدة، وقيل: الوجناء: الضخمة، شُبهت بالوجين، وهو متن من الأرض ذو حجارة صغيرة. والهباب: النشاط، ما كان. (انظر: م.ن: (ضبر)، و(وجن)، و(هبب)). يقول: ليس لي - في ذلك المكان - أصحاب إلا رحلاً وسيفاً وناقة شديدة نشيطة.

وهي في الخدمة ليلاً ونهارا[1][☆]:

وليلةٍ مثلِ لَونِ الفِيْلِ غَيَّرَها   طُمْسُ الكواكبِ والبِيْدُ الدَّيامِيمُ
كَلَّفْتُها عَنْدَلاً في مَشْيِها دَفَقٌ   تَفْرِي الفَرِيَّ إذا امْتَدَّ البَلاعِيمُ

وليس البعير بمنأى عن رحلة العربي، وإن كان يبدو - كما في هذا الديوان - أكثر تعويلاً على (الأنثى)، الناقة[2][☆2]:

ومُضْطَرِبِ النِّسْعَيْنِ مُطَّرِدِ القَرَى   تَحَدَّرَ رَشحاً لِيتُهُ وفَلائِلُهْ
رَمَيْتُ به المَوْماةَ يَرْجُفُ رأسُهُ   إذا جال في بحرِ السَّرابِ جَوائِلُهْ.

وقد كان من عنايتهم بالإبل أن اتخذوا لها نعالاً يجدّونها كلّما أخلقتها[3]:

رَجِيْعَةِ أَسفارٍ، سَريعٍ أَبِيقُها   إذا أَخْلَقَتْ نَعْلاً نُجِدُّ لها نَعْلا[☆3].

---

(1) ديوانه: (٢٧٠-٢٧١/١٥-١٦) = (ط. TÜREK: ١٠٩-١١٠/١٥-١٦).

(☆) غيّرها: في (الجاحظ: الحيوان: ٧/ ١٠٤): «غُبّرها»، وقال محققه (عبدالسلام هارون): «غُبَّرها: بضم أوله وتشديد الباء، أي بقيتها وغُبّرُ كل شيء بقيته، وفي الأصل « غيرها » محرفة ». وقوله: «ليلة مثل لون الفيل»: « أي سوداء لا يهتدى لها، وألوان الفِيَلة كذلك »: (ابن منظور: (فيل)). كذا قال (ابن منظور) عن ألوان الفيلة، وما نعهده أن ألوانها رمادية لا سوداء. والدياميم: جمع ديمومة، وهي المفازة الدائمة البعد. أي أن الكواكب الضعيفة الضوء مع بياض الصحارى قد غيرت لون الليل المظلم. العندل: الناقة العظيمة الرأس الضخمة. (انظر: ابن فارس: المجمل، وابن منظور: (عندل)). دفق: سرعة وتدفق في المشي. (انظر: م.ن: (دفق)). تفري الفري: أي تجيد في عملها وتأتي منه بالعجب. (انظر: م.ن: (فرا)). والبلاعيم: جمع بلعوم، وهو «مسيل يكون في القُفّ داخل في الأرض»: (ابن منظور: (بلعم)). يعني أنه اعتمد في رحلته على ناقة عظيمة تجدّ في سيرها مهما امتدت أمامها السبل أو خشنت.

(2) ديوانه: (٢٤٤-٢٤٥/٢٦، ٢٨) = (ط. TÜREK: ١٠٠/٢٥، ٢٧).

(☆2) النسع: سَيْر يُضفر على هيئة أعنة النعال تشدّ به الرحال. واضطراب النسعين: لضمور البعير. والقَرى: الظهر، مُطَّرد القَرى: أي متتابع العظام قوي الظهر. ليته. صفحة عنقه. والفلائل: جمع فَليلة، وهو الشعر المجتمع. (انظر: ابن منظور: (نسع)، و(قرا)، و(طرد)، و(ليت)، و(فلل)). جوائله: لعلها من الجَوْل، وهو الحبل، وربما سمي العِنان بجَوْلا. (انظر: م.ن: (جول)). أي أنه يسافر على هذا البعير الضامر القوي عبر القفار الموحشة عند اشتداد الحر ورؤية السراب كالبحر.

(3) ديوانه: (٨/٢٠٣) = (ط. TÜREK: ٨/٨٤).

(☆3) رجيعة أسفار: أي قد رجعت من سفر إلى سفر حتى كلّت. (انظر: ابن منظور: (رجع)) أبيقها: أي أَبْقها، وهو اللحاب والإبعاد، (انظر: م.ن: (أبق))، وقال (عزة حسن): «لم تذكره كتب اللغة»، ولم نقف عليه. أخلقت: أبلت. والمعنى: أن هذه الناقة برغم سفرها الدائم فإنها ما تزال قوية سريعة، فنُجِدّ لها النعل كلما أبلته.

وكانت لهم من الإبل وسيلة نقل تجارية[(١)]:

كأنّ صَريعَ الأَثْلِ والطَّلْحِ وَسْطَهُ   بَخاتِيُّ جُونٌ ساقَها مُتَرَبِّحُ.
أناخَ برملِ الكَوْكَبَيْنِ إناخَةَ الـ   يماني قِلاصاً حَطَّ عنهنَّ أَكْوُرا.

وكانت «للكَلّاء» وسيلةَ نقل كذلك، كما يشير في التشبيه التالي[(٢)]:

تمشي بها حِزَقُ النَّعامِ كأنها   بُعْرانُ كَلَّاءٍ يَلُحْنَ بأَيْصَرِ[(☆)]

وكان في لحوم الإبل طعام لهم ولضيفهم، يفخرون به[(٣)(☆٢)]:

يا جارتَيَّ على ثاجٍ، طريقُكُما،   سيراً حثيثاً، ألّا تَعلما خبري؟
أنّي أُقَيِّدُ بالمَأْثُورِ راحلتي   ولا أُبالي، ولو كُنّا على سَفَرِ
لا تأمنُ السَّيفَ، إذ رَوَّحْتُها، إبلي   حتى تَرَى نِيبَها يَضْمِزْنَ بالجِرَرِ
ما يُصِبِ السيفُ ساقَيْهِ فحُقَّ لَهُ   وما تَدَعْ ضربتي لا يُنْجِهِ حَذَري

ومن يلاحظ مكانة الإبل عند العربي قديماً - إذ كانت أصل ماله وعماد حياته - يدرك كم كان الشاعر يحسّ بالفخر في هذه الأبيات؛ ذلك أن نحر الإبل

---

(١) ديوانه: (١٣/٥٠)، (١٠/١٣١) = (ط. TÜREK: ١٣/٢٠، ١٠/٥٣).

(٢) م.ن: (٣/١٢٣) = (ط. TÜREK: ٣/٤٩).

(☆) بها: الضمير عائد على دار كبشة المذكورة قبل. حزق: جمع حِزْقة، وهي القطيع. (انظر: ابن دريد: الجمهرة: ١/١٥٨). والكلّاء: الذي يحشّ الكلأ ويجمعه، وقال (عزة حسن): «لم تذكره كتب اللغة»، ولم نقف عليه بهذا المعنى. والأيصر: كساء فيه حشيش ولا يسمى أيصراً حين لا يكون فيه الحشيش، ولا الحشيش أيصراً حتى يكون في ذلك الكساء. (انظر: ابن منظور: (أصر)). شبه جماعات النعام بالبعران تحمل الحشيش.

(٣) ديوانه: (٧٧-٧٩/١٨-٢١) = (ط. TÜREK: ٣١-٣٢/١٨-٢١).

(☆٢) النيب: جمع ناب، وهي المسنة من النوق؛ لأنه قد طال نابها وعظم. يضمزن: أي يمسكن من الفزع عن الاجترار. والجرر: جمع جِرّة، وهو ما يخرجه الحيوان المجترّ من كرشه فيمضغه ثم يبلعه ثانية. (انظر الجوهري، وابن منظور (نيب)، و(ضمز)، و(جرر)). «ساقيه»: كذا في (ط. TÜREK)، وأخبر أن في المخطوط: «ساقته»، وفي (ط. عزة حسن): «ساقه». أي أن إبله لا تأمن النحر حتى ترى علامات الفزع على المسانّ منها فتدرك أنه سيذبح منها، ولكن ما نجا منها في إحدى المرات فسيأتيه نصيبه لا محالة.

لم يكن بالأمر الهيّن عليهم في حياة الاستقرار، وهو يعدّ عندهم في غاية الكرم، لكن الشاعر لم يكتف بهذه المفخرة، حتى قال: إنه لينحر راحلته ولا يبالي، ولو كان مسافرا[1].

ومن الكرم أيضاً ضرب قداح الميسر على الإبل[2]:

وقُولي: فتًى تَشقَى به النابُ رَدَّها ... على رغمِها أيسارُ صِدْقٍ وأَقْدُحُ[☆]

وقد مضى تفصيل القول في ذلك: (ب١ ف١: ب - ٢).

ومن الإبل اللبن شراباً لهم ولخيلهم الكريمة، كما في الإشارتين التاليتين[3][☆2]:

فللعَفوِ أقوامٌ، وللجَهلِ غيرُهمْ، ... إذا لم تُوَفِّ البُزَّلُ الكُومُ مِرْفَدا.
وجُرْدٌ جَعلناها دَخِيلَ كَرامةٍ ... تُباشِرُ ألبانَ اللِّقاحِ وتُلْحَفُ.

ولها وظيفتها في الحروب، في القوة المحاربة، وما قد يتمخض عن الحرب

(١) انظر: ابن رشيق: ١/٢٧٨-٢٧٩، وجواد علي: ٧/١١٢-١١٣.

(٢) ديوانه: (١٢/٢٥) = (ط. TÜREK: ١٢/١٢).

(☆) ردها: أي «من المرعى بعد أن سرحت، أيسار صدق يضربون عليها بالقداح وينحرونها»: (ابن قتيبة: المعاني: ١١٥٣).

(٣) ديوانه: (١٧/٥٩)، (١٣/١٩٢) = (ط. TÜREK: ١٧/٢٤، ١٣/٧٨).

(☆٢) البزل: جمع بزول، وهي الناقة إذا بزل نابها أي شق اللحم وطلع، وذلك إذا طعنت في التاسعة، وربما كان في الثامنة، وليس بعد ذلك سن تذكر. (انظر: الأصمعي: الإبل: ٧٦-٧٨)، و(الجوهري، وابن منظور: (بزل)). والكوم: الإبل ذوات الأسنمة العظيمة، جمع كوماء. والمرفد: القَدَح الضخم تحلب فيه الناقة ويقرى فيه الضيف. (انظر: م.ن: (كوم)، و(رفد)). «إذا لم توف...»: أي إذا لم تملأ المرفد في حلبتها، وذلك من الجدب. (وانظر: الأصمعي: الإبل: ١٤٣). جرد: جمع أجرد، وهو من الخيل قصير الشعر وذلك من علامات عتقه وكرمه. (انظر: الجوهري، وابن منظور: (جرد)). دخيل: دَخَل، وهو الثأر، وقال (عزة حسن): «لم تذكر كتب اللغة دخيلا»، ولم نقف عليه. واللقاح: جمع لَقوح، وهي الحلوب، وإنما تكون لقوحاً أول نتاجها شهرين أو ثلاثة. (انظر: الجوهري. (لقح)). وتلحف: تغطى من البرد والريح. يفخر بخيل قومه التي أعدت للثأر ويذكر أنها كانت تُسقى لبن الإبل وتُغطى من البرد والريح لكرامتها عندهم.

من ديات وتبعات أُخَر. وهنا ملامح من تلك الوظيفة[(1)(☆)]:

● وضربٍ إذا العَوْدُ المُذَكّي عَدا بِهِ   إلى الليلِ حتى قُنْبُهُ يَتَذَبْذَبُ.
● بَقَرْنا منهمُ ألفَيْ بَعِيرٍ   فلم نَتْرُكْ لحامِلَةٍ جَنِينا.
● فإنْ يَكُ في بُعْرانِ قيسٍ مَعُونَةٌ   يكنْ لبني العجلانِ في الضربِ مِخْشَفُ.

ففي هذه الأبيات وغيرها إشارات إلى مقدار ما كان للإبل من مكانة في الحرب. وفي البيت الثاني - إلى جانب ذلك - تعبير عن الخسارة التي كان العدوّ يتكبدها بقتل إبله، على حين يجد الشاعر في هذا مفخرة يغيظ بها أعداءه، لا سيما أن قتل هذه الإبل يعني أيضاً القتل والإجهاض والسبي، كما يعني الاستيلاء على ما تحمل من عتاد الجيش المواجه ومتاعه.

وإلى جانب هذه الاستخدامات فهنالك بعض الاعتقادات والأساطير الجاهلية حول الإبل، جاء منها في شعره: (البَحِيرة)، و(البَلِيّة)، و(الدُّهيم)، و(تلبّس الجن بالإبل)، وغير تلك من التصورات الجاهلية التي سبق تناولها في الحديث عن الجاهلية في شعره. (راجع: ب١ ف١: ج - ١، ج - ٤، د - ١ - ١، د - ١ - ٢).

وقد جاء في شعره باسمي ناقتين، نسبتا إليه في بعض الروايات، هما: (كُتْمان)، و(المَرانة)، حيث قال[(2)]:

وصَرَّحَ السَّيْرُ عن كُتْمانَ، وابتُذِلَتْ   وَقْعُ المَحاجِنِ في المَهْرِيَّةِ الذُّقُنِ

---

(١) ديوانه: (١٦/٢٤)، (١٨/٣١٤)، (٣٨/١٩٧) = (ط. TÜREK: ٨/٢٤، ١٨/١٢٨، ٣٨/٨١)

(☆) العود: البعير الهرم، الذي جاوز في السن البازل والمُخْلف. (انظر: الجوهري، وابن فارس: المجمل: (عود)) والمذكي: المسن أيضا. والقنب: وعاء قضيب الدابة. (انظر: الجوهري، وابن منظور: (ذكا)، و(قنب)). والبيت في وصف الحرب التي هدد بها للأخذ بدم (عثمان رضي الله عنه) فقال: «فإنّا سنبكيه بجرد...»، ثم قال هنا: «وضرب...».

(٢) ديوانه: (٩/٣٠٣) = (ط. TÜREK: ٩/١٢٣).

وقال(١):

يا دارَ ليلى خلاءً لا أُكَلِّفُها   إلا المَرانَةَ حتى تَعْرِفَ الدِّينا

وكأنما «كتمان» و«المرانة» هنا قد صارتا تعبيرين عن المعنى اللغوي لمادتهما الاشتقاقية؛ بما يبيّنانه من توتّر دلاليّ شعوريّ عن مقابلة الأولى بـ«التصريح»، في البيت الأول، ومقابلة الأخرى بـ«التكليف»، في البيت الأخير.

ومن هذا المنطلق كان معجباً بعظمة خلقة الإبل وارتفاع قاماتها، لا بالمعنى الظاهريّ فقط، قال(٢):

إذا غَشِيَتْ جَدّاً بِلَيْلٍ تَناوَلَتْ   عِشاشَ الغُرابِ كالهِضابِ بَوائِيا

وكذا يوظّف الإبل في رسم بعض صوره ذات البُعد النفسي. فمن ذلك تشبيه كواكب الجوزاء بنوق حديثات الولادة حنَنّ على حوار، في قوله(٣):

كـأن كـواكـبَ الجَوزاءِ عُوذٌ   مُـعَـطَّـفَـةٌ [حَنَنَّ] عـلى حُـوارِ
كَـسِـيرٍ لا يُـشَـيِّعُـهُـنَّ حتـى   يَجِنُّ لحَاقُـهُ بـعـد انـتـظـارِ

وفي وصف قوس، يشبه حنينها بحنين الناقة المسنّة، يقول(٤):

إذا غُـمِـزَتْ تَـرَنَّـمَ أَبْهَراهـا   حَنِيْنَ النَّابِ بالأُفُقِ النَّزُوعِ(☆)

وفي وصف مشية مأتم من نساء (قريش) و(عامر) و(غطفان) يقول(٥):

---

(١) ديوانه: (٦/٣١٧) = (ط. TÜREK: ٦/١٢٩).
(٢) ذيل ديوانه:(٤/٤٠٩) = (ط. TÜREK: ١٦١/١٦٢).
(٣) ديوانه: (٨/١٤٨-٩) = (ط. TÜREK: ٨/٦٠-٩).
(٤) م.ن: (٢٢/١٦٣) = (ط. TÜREK: ٢٢/٦٧).
(☆) أبهراها: تثنية أبهر، وهو من القوس ما بين الطائف والكُلْيَة، وقيل: كبدها، وهو ما بين طَرَفي العِلاقة، ثم الكلية تلي ذلك، ثم الأبهر يلي ذلك، ثم الطائف، ثم السِّيَة، وهو ما عطف من طرفيها، وهما أبهران. (انظر: ابن منظور: (بهر)). والناب: المسنة من النوق؛ لأنه طال نابها وعظم. (انظر: الجوهري، وابن منظور: (نيب)). والأفق: المكان البعيد عن وطنها. النزوع: التي تنزع إلى وطنها وتشتاق. (انظر: م.ن: (نزع)).
(٥) ديوانه: (٤/٢٨٣) = (ط. TÜREK: ١٤/١١٤).

يَمِحْنَ بأَطْرافِ الذُّيُولِ عَشِيَّةً كما بَهَرَ الوَعْثُ الهِجانَ المُزَنَّما[☆]

وباستقراء مواطن ذكر الإبل في شعره يُلاحظ أن أغلب ما يذكرها حين يصف الرحلة ومشقَّتها، ولا غرو فإن أهمّ ما كانت الإبل تؤديه في مجتمع الأعراب يتمثل في مساعدتهم على حياتهم الرحّالة.

من أجل ذلك كانت الإبل عندهم تمثّل معنى: القوة، والصبر، والكتمان، والمرانة، والحنين، وترمز للهمّ - بصفة عامة [١]. مثلما ترمز للعظمة والشدّة، حتى شبّهوا بها السادة المعظّمين من الرجال[٢]:

وكـم مـن قُـرُومٍ لها سـاقَـةٌ يُرِدْنَ إذا ما التَقَيْنا الصِّيالا[☆٢]

وبما أن الإبل كانت هي أصول أموالهم فقد كانت لديهم الحدّ الفارق بين الفقر والغنى[٣]:

قد كنتُ راعيَ أَبكارٍ مُنَعَّمَةٍ فاليومَ أَصْبَحْتُ أَرْعَى جِلَّةً شُرُفا[☆٣]

وبين العزّ والذلّ [٤]:

(☆) يمحن: يتمايلن. بهر: أعيا وقطع النَّفَس. والوعث: «المكان السهل ذو الرمل، تغيب فيه القوائم، يَشُقّ على من يمر فيه»: (ابن فارس: المجمل: (وعث)). والهجان: من الإبل الأبيض الكريم. والمزنم: المقطوع طرف الأذن، وإنما يُفعل ذلك بالكرام منها. (انظر: ابن منظور: (زنم)). «شبه مشي النساء بمشي إبل في وعث قد شق عليها»: (تهذيب الأزهري: ٦/ ٣٧٤).

(١) وانظر: ناصف: ١١٥.

(٢) ديوانه: (٤٠/٢٣٦) = (ط. TÜREK: ٣٩/٩٦).

(☆٢) قروم: جمع قَرْم، وهو السيّد، شُبّه بالقرم من الإبل، وهو الفحل المكرم لا يحمل عليه، بل يترك للفِحْلة. (انظر: ابن فارس: المجمل: (قرم)). والساقة: مؤخّرة الجيش الذين يسوقونه ويكونون من ورائه يحفظونه. (انظر: الجوهري (سوق)). والصيال: القتال.

(٣) ديوانه: (١٩/١٨٥) = (ط. TÜREK: ١٩/٧٥).

(☆٣) أبكار: جمع بِكْر، وهي الناقة ما لم تلد، أو ولدت بطناً واحداً، وبكرها ولدها. (انظر: ابن فارس: المجمل، وابن منظور: (بكر)). والجلة: الإبل المسانّ. والشُّرُف: جمع شارف، وهي المسنة من الإبل. (انظر: ابن فارس: م. ن: (جل)، و(شرف))، و(الآمدي: الموازنة: ١/ ١٠١)، و(الصغاني: العباب: (حرف الفاء): ٣١٢).

(٤) ديوانه: (٩/١٩١) = (ط. TÜREK: ٩/٧٨).

لَنا عَكَرٌ حَوْمٌ، وعِزٌّ عَرَنْدَسٌ، فنَمضي إذا شئنا، ونأبى فنَزْحَفُ[☆]

ولذا كان العرب - إذ ذاك - يَعْنون بـ«المال» الإبل بخاصة[1]. وهذا كله كان وراء الاهتمام البالغ الذي خصّوا به هذا الحيوان، والقيم الشعورية والأسطورية التي منحوها صوره.

أ - ٢ - الخيـــــل :

لم تكن العرب في الجاهلية تصون شيئاً صيانتها الخيل، حتى إن أحدهم ليبيت طاوياً ويُشبع فرسه ويُؤْثِرُهُ على نفسه وأهله وولده، هكذا يقول (أبو عبيدة)[2]. ولمّا كان الإسلامُ كرّم الخيل تكريماً عظيماً لم يحظ بمثله حيوان سواه[3].

فالظاهرة إذن عامّة، وما في شعر (ابن مقبل) ليس إلا نموذجاً من تلك الظاهرة. ومن خلال هذا الشعر يقف القارئ على صور متعددة وأسباب مختلفة لذلك الاهتمام، لعلها تمثّل أهم ما يقال عن فوائد الخيول للعرب، ومقدار احتفائهم بها. وأبرز تلك الفوائد - كما يتضح من شعره - التسلّح بها في الحرب، إذ كانت أداة رئيسة فيها، فيقول[4]:

أمّا الأَداةُ ففينا ضُمَّرٌ صُنُعٌ جُرْدٌ عَواجِرُ بالأَلْبادِ واللُّجُمِ[☆٢]

(☆) عَكَر: جمع عَكَرَة، وهي الخمسون إلى الستين إلى السبعين من الإبل. (انظر: الأصمعي: الإبل: ١١٦). والحوم: القطيع الضخم منها. (انظر: ابن فارس: المجمل: (حوم)). وعز عرندس: ثابت. (انظر: ابن منظور: (عردس)).

(١) وانظر مثلاً: ديوانه: (١٢/٤٤) = (ط. TÜREK: ١٢/١٧).

(٢) انظر: الخيل: ٢.

(٣) انظر: م.ن: ٤-١٥، وابن الكلبي: أنساب الخيل: ٦ وما بعدها.

(٤) ذيل ديوانه: (٦/٣٩٨) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٠١/١٥٢).

(☆٢) الأداة: يعني أداة الحرب. ضمّر: خيل ضمّر. صنع: جمع صنيع، وهو الفرس الذي صنعه أهله بحسن القيام عليه جرد: قصيرة الشعر. عواجر: أي عليها ألبادها ولجمها، وفي رواية: «اللحم» (بالحاء المهملة): يصفها بأنها سمينة وأنها ترفع أذنابها من نشاطها، ويمكن أن تكون «عواجر» من عَجَر إذا مرّ سريعاً. (انظر: ابن فارس: المجمل: (صنع))، و(ابن منظور: (عجر)).

فهي تتمتع بتلك الصفات المستحبّة في الخيل: ضمور، ودُرْبة، وقصر شعر، وسرعة في العدو، مما يؤهّلها لأنْ تكون أداة حرب فعّالة. وحياة العرب - قديماً - تبدو في معظم شعرهم حرباً أو كالحرب، حتى كأن مبدأهم أنْ لا حياة بلا حرب[1]. وكان الفَرَس من أهم أسلحتهم؛ ولذلك كان الحديث عنه في أغلب شعر (ابن مقبل) حديثاً عن الحرب[2].

وكان الفَرَس وسيلة صيد أيضاً؛ لما يمتاز به من السرعة والقوة، كما يصف في الأبيات التالية[3][☆]:

فـدلَّـيتُ نَهّامـاً كـأن هُـوِيَّـهُ ... هُوِيُّ قُطامِيٍّ تَلَـتْـهُ أجادِلُهْ
على إثْرِ شَحّاجٍ لَطِيْفٍ مَصِيرُهُ ... يَمُجُّ لُعاعَ العِضْرِسِ الجَوْنِ ساعِلُهْ
مُفِجٌّ مِنَ اللّائي إذا كنتَ خَلْفَهُ ... بدا نَحْرُهُ من خَلْفِهِ وجَحافِلُهْ
إذا كان جَرْيُ العَيْرِ في الوَعْثِ دِيْمَةً ... تَغَمَّدَ جَرْيَ العَيْرِ في الوَعْثِ وابِلُهْ
فلمّا اجتمعنا في الغُبارِ حَبَسْتُهُ ... مَدَى النَّبْلِ يَدْمَى مِرْفَقاهُ وفائلُهْ

وكثيراً ما تكون الخيل للنزهة في الرياض، فيقترن ذكر الرياض بوصف

---

(١) انظر: ناصف: ١٠٨.

(٢) انظر مثلاً: ديوانه: (٥-٧/٢٣-٢٩، و١٢/٢، و١٦/٢١، و٣٥-٣٦/٣٠-٣٥، و٥٣/٢٣، و٣١٢-٣١٤/٥-١٥) = (ط. TÜREK: ٣-٤/٢٣-٢٩، و٦/٢، و٨/٢١، و١٤-١٥/٣٠-٣٥، و٢١/٢٣، و١٢٧-١٢٨/٥-١٥)، وغير هذا كثير.

(٣) ديوانه: (٢٤٩-٢٥٠/٤٢-٤٦) = (ط. TÜREK: ١٠١-١٠٢/٤١-٤٥).

(☆) نهّام: أي فرس يخرج صوتاً من صدره حين يجري. والقطامي: الصقر. والأجادل: جمع أجدل، وهو الصقر أيضا. (انظر: الجوهري، وابن منظور: (نهم)، (جدل))، و(ابن فارس: المجمل: (قطم)). مفج: متباعد العُرقوبَين، يصف الفرس. وجحافل: جمع جحفلة، وهي شفة حمار الوحش هاهنا. (انظر: ابن منظور: (فجج)، و(جحفل))، يقول: إنه يخالِف برأسه في جريه من نشاطه فترى نحره وجحفلته من خلفه، وهذه من علامات الجَوْد في الخيل، (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ٢٩، ١٠٩). الوعث: «المكان السهل ذو الرمل، تغيب فيه القوائم، يَشُقّ على من يمر فيه»: (ابن فارس: م.ن: (وعث)). يقول: إن جري الفرس يفوق جري حمار الوحش ويتغمده كما يتغمد الوابل الديمة. يدمى مرفقاه: من دم الحمار الذي طارده. والفائل: واحد الفائلَين، وهما ما سفل من الكاذتين إلى قريب من المأبضين، وهما دائرتا الفخذين. (انظر: أبا عبيدة: الخيل: ٣٦).

الخيل، نحو قوله، في وصف روضة(١)(☆):

غدونا له في رائدِ الخيلِ غُدْوَةً   غِشاشاً، وضَوْءُ الفجرِ يَبْرُقُ حاجِبُهْ
بصافٍ شديد الرُّسْغِ أَصْمَعَ كَعْبُهُ   مُـداخَـلَـةٌ أصـلابُـهُ وشَراجِـبُـهْ

وكانت الخيل للظعن والرحلة أيضا(٢):

حتى إذا احتَملوا كانتْ حَقائبُهُمْ   طَيَّ السَّلُوقيِّ والمَلْبُونَةِ الخُنُفَا(☆٢)

واستقى الشاعر من الحصان، وما يرمز له من القوة والعتق، ما رسم به بعض صوره الشعرية، كقوله واصفاً شِعْرَه(٣):

أَغَرَّ غريباً يمسحُ الناسُ وجهَهُ   كما تَمْسَحُ الأيدي الأَغَرَّ المُشَهَّرا

فشبّه البيت من شعره بالحصان الأغر المشهّر. وفي بيت آخر شبّه الخصم بالفرس الجموح، فقال(٤):

وكُنّا إذا ما الخَصْمُ ذو الضِّغْنِ هَرَّنا   قَدَعْنا الجَمُوحَ، واخْتَلَعْنا المُعَذَّرا(☆٣)

---

(١) ذيل ديوانه: (٣٥٦/٣-٤) = (ط. TÜREK: لم يذكرا).

(☆) رائد الخيل: الخيل المتقدمة. غشاشاً: على عجلة. (انظر: ابن فارس: المجمل: (غش)). وحاجبه: مجاز، أي أوله، تشبيهاً بحاجب الإنسان. (انظر: الزمخشري: الأساس: (حجب)). صاف: أي فرس صافي اللون. أصمع: صغير. (انظر: ابن فارس: م.ن: (صمع)). وأصلابه: فقار ظهره. وشراجبه: يريد قوائمه، والشَّرْجَب: الطويل، وقيل: الطويل القوائم، العاري أعالي العظام، وهذا نعت للفرس الكريم. (انظر: ابن منظور: (شرجب)). وقال (عزة حسن): «نراه بمعنى قوائمه، ولم تذكره كتب اللغة بهذا المعنى»، وشَرْجَب مذكور بمعنى الطويل، كما سبق، فكأن التقدير: مداخلة أصلابه وقوائمه الشراجب، أي الطويلة. يصف هذا الفرس بالشدة وأنه وثيق الخلق.

(٢) ديوانه: (١٨١/٦) = (ط. TÜREK: ٧٤/٦).

(☆٢) السلوقي: الدروع الجيدة، نسبة لسلوق باليمن، أو سَلَقْيه بالروم. والملبونة: الخيل تُسْقَى اللبن. والخنف: جمع خنوف، وهو الذي يثني يديه ورأسه في شقّ إذا أحضر من النشاط. (انظر: البكري: ما استعجم: ٧٥١-٧٥٢)، و(الصغاني: العباب: (حرف الفاء): ١٧٧)، و(ابن منظور: (خنف)).

(٣) ديوانه: (١٣٦/٢٨) = (ط. TÜREK: ٥٥/٢٨).

(٤) م.ن: (١٣٩/٣٩) = (ط. TÜREK: ٥٦/٣٩).

(☆٣) قدعنا: كففنا. والمعذّر: «سن الفرس الذي عليه العذار، والفرس إذا خلع عذاره لا يعدو، وهذا مَثَل، أي: نقطع الخصم»: (ابن قتيبة: المعاني: ٨٢٦).

وهكذا يتضح من عرض مواطن ذكر الخيل في شعره، أنها تأتي في حديثه عن القوة والحرب بصفة غالبة، ثم في وصف الرياض والصيد، ثم في وصف الرحلة، ثم في أماكن أخرى ترد فيها عَرَضا.

وباستقراء الخيل في شعره تنثال أوصاف شتى، تجسّد الفرس الأمثل لديه، بل لدى العرب جميعا. فمن تلك الأوصاف في شعره: أنه طويل، ضامر البطن، لاحق الأقراب، لحمه قد تحسّر، نهد المراكل، عبل المقلّد، مغرّز العنق في الكاهل، رفيع الصدر، قويّ المتن، أملسه، مشرف الجنبين، مفتول، شديد، رفيع القذال، واسع الشدقين، متباعد العرقوبين، صغير الكعب، صلب الأوظفة، قصير الشعر، مقصوص الذنب، شاخص البصر، كأنه الهيكل المرفوع، مُطَهّم، رائع.

وهو - مع تلك الامتيازات الجسمية - : نشيط، فَزِع، جريء، كأنه يسبح في جريه، مثل: القطامي، أو السِّرحان، أو الثعلب، يثني يديه ورجليه في شِقّ إذا أحضر من المرح والنشاط والتبختر، نَهّام: يُخرج من صدره صوتاً شبه الزحير حين يعدو، ويثير النقع في ذرى الروابي، لايَعْثُر، سريع[1]:

يكادُ برِجْلَيْهِ يطيرُ، وبَطْنُهُ بطَيٌّ رداءِ الرَّاكِبِ المُتَلَبِّبِ[☆]

وهو أَنِف كريم؛ إذا وقع الذباب عليه وَقَصَه بصفق جفنيه أو بعطاسه[2].

وهو ذو نسب أصيل: من آل (أعوج)، أو من نسل (الوجيه)[☆2].

(١) ديوانه: (١٠/٧) = (ط. TÜREK: ٥/٧).

(☆) المتلبب: المتحزم.

(٢) وانظر: الجاحظ: الحيوان: ٧/ ٢٣٢.

(☆٢) الأعوج: فحل كريم، وهما أعوجان: (أعوج ابن الديناري)، صار إلى (بهراء)، وهو مسمى باسم أعوج الأكبر، أما (أعوج الأكبر) فهو (لبني هلال بن عامر)، وقيل: (لبني عامر بن صعصعة)، أمه (سَبَل) من حُوش وَبار وأبوه منها، وهو سيّد الخيل المشهورة، والمقصود في الشعر. (انظر: ابن الكلبي: أنساب الخيل: ١٦-٤٣) و(ابن قتيبة المعاني ٦٧). والوجيه: (لغنيّ بن أعصر). (انظر: الأسود الغندجاني: أسماء خيل العرب: ٢٥١).

أما لونه: فهو صافي اللون، أبلق، أو جَوْن، أو أَحْوى.. كُمَيت، أو أشقر، أو وَرْد. وهو أقرح، ذو غُرّة، رمادي المراكل، على سراته جُدّة سوداء ليست بحالكة، وَرْد الجنبين، وصفقتي العنق، والجِران، والمراقّ، يعلو أوظفته سواد ليس بحالك.

وأما سنّه فهو قارح- في الأغلب - وهو الذي انتهت أسنانه، وذلك في الخامسة من عمره، أو عجعاج: وهو النجيب المسن، أو مُهْر، أو فلو: وهو المُهْر الصغير إذا فطم.. قيل: في الثانية[1].

ولأنه عظيم المنزلة فقد عُنوا بتدريبه وصناعته، واهتمّوا بالحفاظ عليه؛ فهو ملحوف من البرد والمطر، ملبون، مخصوص بأطيب الغذاء[2]:

مُصامِصٌ ما ذاقَ يوماً قتّا
ولا شعيراً نَخِراً مُرَفّتا

وبعد.. فإذا حاولنا استنباط ما ترمز له الخيل في شعر (ابن مقبل) فسنخرج منه برمزين: الأول - القوة، والآخر - الخصب، فهذا الرمزان يتجاذبان الحديث عن (الخيل) في مختلف أبيات ذِكْرها عنده. (ولموقعها الفنّي من شعره عَوْد: ب٤ ف٣: ب - ٢ - ٤).

أ - ٣ - الكـــــلاب:

وكانت للعرب منافع من الكلاب أيام الجاهلية، فلمّا جاء الإسلام أباح لهم من ذلك ما يتخذونه لحراسة أو صيد، بل بلغ من أمره أن فرض لها دية: أربعين درهما[3].

(١) انظر: ابن منظور: (قرح)، والفيروزآبادي: (عج)، وأبا عبيدة: الخيل: ٤٣.
(٢) ذيل ديوانه: (٣٥٧/١-٢) = (ط. TÜREK: الملحق: ٢٢/١٤٢).
(٣) انظر: كشاجم: المصايد والمطارد: ٢٥.

وقد أشار الشاعر إلى الكلب حارساً عندما قال[(١)]:

وكيف، ولا نارٌ لدَهْماءَ أُوْقِدَتْ   قريباً، ولا كلبٌ لدهماءَ نابِحُ

وكانت الظروف البيئية - إذ ذاك - تجعل لخدمة الكلب هذه أهميتها الخاصة، إذ يستعينون به للحفاظ على أنفسهم وماشيتهم وبيوتهم وأموالهم من غائلات الصحارى. على أنّ في هذا البيت إشارة أخرى إلى أن الكلب - وكذلك النار - كانا دليل الضيوف على المنازل، ودليل أهل المنازل على الضيوف، كما كان فيهما أُنسٌ للمدنف الحيران[(٢)]، ويظهر ذلك أيضاً في البيت التالي[(٣)]:

ولو تُشْتَرَى منه لَباعَ ثِيابَهُ   بِنَبْحَةِ كلبٍ أو بنارٍ يَشِيمُها[(☆)]

وأشار إلى اتخاذ الكلاب للصيد في قوله ، واصفاً ظبيا [(٤)]:

المُسْتَضافِ، ولمّا تَفْنَ شِرَّتُهُ   من الكِلابِ وضِيفِ الهَضْبَةِ الضَّرَرِ[(☆٢)]

وقد ضرب الكلاب مثلاً (للمضاء) في قوله[(٥)]:

فإنّا سَنَبْكِيهِ بجُرْدٍ كأنها   ضِراءٌ دعاها من سَلُوقَ مُكَلِّبُ

فشبّه خيول المعركة بكلاب ضارية مدرّبة سلوقية دعاها مدرّبها (المكلِّب) إلى الصيد. وكلاب سلوق مشهورة في الصيد، وهي سلالة عدّاءة نسبت إلى (قرية سلوق) باليمن، وقيل: إلى (سَلَقْيَة) موضع بالروم، هي بالفرنسية:

---

(١) ديوانه: (٤٣/ ١٠) = (ط. TÜREK: ١٧/ ١٠).

(٢) انظر: الظاهري: النصف الأول: ٢٣٣ - ٢٣٦.

(٣) ذيل ديوانه: (٣٩٢/ ٤٤) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٥١/ ٨٩).

(☆) يشيمها: يراها. و(انظر: ابن سيده: شرح مشكل أبيات المتنبي: ٧١-٧٢)، وفيه: «لباع بناته».

(٤) ديوانه: (١٠٠/ ٧٥) = (ط. TÜREK: ٣٩/ ٧٥).

(☆٢) المستضاف: صفة للظبي المذكور في بيت سابق، وقد شبه به حمار الوحش، والمستضاف: من الصيد الذي أتته الكلاب من ضِيفَي الوادي وهما ناحيتاه. (انظر: ابن فارس: المجمل: (ضيف)). شرته: نشاطه. وضيف: لعلها «بضِيف». والضرر: الضيق.

(٥) ديوانه: (١٦/ ٢١) = (ط. TÜREK: ٨/ ٢١).

"Séleucie"[(١)]. ولهم فيها أنساب كما للخيل[(٢)].

وضَرَبَها مثلاً للشراهة، في هجائه الأخطل بقوله[(٣)]:

ولكنْ رَمَتْ إحدى الإماءِ برأسِهِ ... سَرُوقُ البِرامِ كالسَّلُوقِيَّةِ المُجْري

فشبّهه في شراهته للطعام بالكلبة أُمّ الجراء. وهذا كل ما في ديوانه عن هذا الحيوان.

أ - ٤ - البغـــــال:

في ديوانه إشارتان فقط إلى البغال، يُلْمِح في الأولى إلى اعتمادهم عليها في حمل الأثقال، حينما يشبّه اضطراب الأكام بالآل في البيداء ببغال محمّلة قد عقرتها الرحال من ثقل أحمالها[(٤)(☆)]:

تَرَى البِيْدَ تَهْدِجُ من حَرِّهِ ... كأن على كل حَزْمٍ بِغالا
بِغالاً عَقارَى يُغَشِّينَهُ ... فكُلٌّ تَحَمَّلَ مِنْهُ فَزالا

والإشارة الأخرى أتت في خطابه طيف حبيبته (ليلى)، لمّا أخبر بأنه سرى من (سرو حمير)، حيث «أبوال البغال»[(٥)]:

من سَرْوِ حِمْيَرَ أبوالُ البِغَال بِهِ ... أنّى تَسَدَّيْتَ وَهْناً ذلك البِينا[(☆٢)]

(١) انظر: البكري: ما استعجم: ٧٥١، وخياط: (سلق).
(٢) انظر: كشاجم: ١٣١-١٤٢.
(٣) ديوانه: (٢٠/١١١) = (ط. TÜREK: ٢٠/٤٤).
(٤) م.ن: (٢٣/٢٣١-٢٤) = (ط. TÜREK: ٩٤/٢٣-٢٤).
(☆) عقارى: أي قد عقرتها الرحال من ثقل ما عليها.
(٥) ديوانه: (٤/٣١٦) = (ط. TÜREK: ٤/١٢٩).
(☆٢) السرو: من الأرض مثل النعف والخيف، وهو هبوط وارتفاع بين سفح الجبل والسهل، (انظر: ابن منظور: (سرا))، ومنه سرو حمير، وهو محلة أعلى بلاد حمير. وأبوال البغال: «قال الأصمعي: يقال لنطف البغال أبوال البغال، ومنه قيل للسراب «أبوال البغال» على التشبيه. وإنما شبه بأبوال البغال لأن بول البغال كاذب لا يلقح والسراب كذلك، قال ابن مقبل:...»: (ابن فارس: المقاييس: ١/٣٢١)، والشاعر - في هذا البيت وما قبله - =

ويلاحظ من الأبيات السابقة ربط العربِ البغالَ بالآل والسراب[☆]؛ ولهذا كانوا يسمّون السراب «أبوال البغال»، كما قال (الأصمعي) في تفسيره المثال الأخير. (انظر: حاشية شرحه أدناه).

ا - ٥ - الغنـــــم :

ليس في شعره عن الغنم عدا لمعة باهتة في قوله[(١)]:

قَطَعْتُ إذا لم يستطعْ قَسْوَةَ السُّرَى ۞ ولا السَّيْرَ راعي الثَّلَّةِ المُتَصَبِّحُ[(☆٢)]

وأخرى في قوله[(٢)]:

حتى تَشُولَ لِقاحاً بعد قارِحِها ۞ تَحَرَّبُوها كحَرْبِ الذِّئْبِ للغَنَمِ[(☆٣)]

وواضح في هذين المثالين معنى الضعف والعجز في الراعي والغنم . وقلّة ذكر الغنم في شعره يعكس قلة أهميتها في بيئته البدوية ، إذ لم يكن البدو - يومئذ - أهل غنم بقدر ما كانوا أهل إبل؛ وذلك لقلة كلفة الإبل وعظيم

= يذكر سُرى الطيف ليلاً، ولا يناسب هذا ذكر السراب هاهنا، فلعل ما في هذا البيت إشارة إلى كثرة البغال في اليمن، ولا غرو فهم أهل تجارة وبيئتهم تتطلب هذا الحيوان؛ ولهذا قيل في تفسير البيت: إنه «خصّ البغال؛ لأنها أقوى على حمل الأثقال وبُعْد السفر»: (العكبري: ١/ ١٢٤). تسديت: (بكسر التاء)، يعني ليل، و(فتحها) - عن (القرشي: ٢/ ٨٥٤)، و(نشوان الحميري: ٨٠) - يعني الطيف، أي كيف جزت. وهناً: نحو منتصف الليل. والبين: قدر مدّ البصر من الأرض، وقيل: الغلظ منها، وقيل: الفصل بين الأرضين. (انظر: ابن دريد: الاشتقاق: ٧٠)، و(الجمهرة: ١/ ٣٣٢)، و(تهذيب الأزهري: ١٥/ ٥٠٠)، و(ابن فارس: م.ن: ٣/ ١٥٤)، و(المجمل: (بين))، و(المرتضى: ١/ ٢٩١)، و(البكري: ما استعجم: ٧٣٧)، و(نشوان الحميري: ٨٠)، و(العكبري: ١/ ١٢٣).

(☆) اختلفوا في (الآل)، فقيل: هو السراب، وقيل: إنما هو الذي يرفع الشخوص في الضحى. (انظر: ابن منظور: (أول)).

(١) ديوانه: (١٧/٥٢) = (ط. TÜREK: ٢١/ ١٧).

(☆٢) الثلة: القطيع من الضأن. والمتصبّح: الذي ينام إلى طلوع النهار، أو شارب الصبوح، أو الوارد صباحا. (انظر: ابن منظور: (ثلل)، و(صبح)).

(٢) ذيل ديوانه: (١١/٤٠٠) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٠٧/١٥٣).

(☆٣) تشول: أي الناقة ترفع ذنبها للفحل، جعل الناقة مثلاً للحرب، وأول ما تلقح الناقة فهي قارح. تحربوها: أي جعلوها حرباً بتحريشها. والبيت مرتبط بالبيت السابق من القصيدة، ويقول فيها: إن الحرب لا تكون شديدة حتى تثار فتكون كحرب الذئب للغنم. (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ٩٩٥-٩٩٦).

نفعها مقارنة بالغنم؛ ولهذا يقول (جواد علي)[1]: «والأغنام عند الحضر وأشباههم... ولحاجتها إلى الماء والكلأ والعلف بصورة دائمة، صارت من ماشية أهل الحضر والمراعي».

ب - الحيوان الوحشي

ب - ١ - الحمار الوحشي :

جاء ذِكْر (الحمار الوحشي) في شعره كثيراً نسبيًا. ويمكن أن يتبين القارئ منفعة هذا الحيوان - الوحيدة - للعرب قديماً من خلال هذا الشعر؛ فهو فيه - كما في غيره - صيد من صيدهم، الذي عادة ما يصوّرونه وهو يخوض صراع البقاء مع الإنسان أو الطبيعة.

والشاعر غالباً ما يتخذ تشبيه الناقة بحمار الوحش مدخلاً لوصفه، وتصوير حياته وصراعه، الذي هو في حقيقته استمرار في وصف ناقته بأسلوب غير مباشر[2]. ولعله بسوى هذا لا يمكن تصوّر سبب مقبول لذلك الانقطاع المفاجئ من الناقة (المشبّهة) إلى الحمار (المشبه به) - ثم الإسهاب في وصفه إلى حدّ يفوق نصيب الناقة من القصيدة أحيانا - مهما بلغ اتهام الشاعر القديم بالسذاجة[3]. يقول مثلا[4][☆]:

١- عُذافِرَةٍ أَضَرَّ بها سِفاري وأَعْيَتْ من مُعايَنَةِ القَطِيعِ
٢- كجَأْبٍ يَرْتَعِي بجُنُوبِ فَلْجٍ تُؤَامَ البَقْلِ في أَحْوَى مَرِيعِ

(١) ٧/ ١١٦.
(٢) انظر: ب٤ ف٣: ب - ٢ - ٣.
(٣) وانظر: م.ن.
(٤) ديوانه: (١٦٠-١٦٤/٩-١٣، ١٦، ١٨-٢١، ٢٣) = (ط. TÜREK: ٦٦-٦٧/٩-١٣، ١٦، ١٨-٢١، ٢٣).
(☆) عذافرة: ناقة شديدة وثيقة ظهيرة. والقطيع: السوط يقطع أربع طاقات ثم يلوى. (انظر: ابن منظور. (عذف)، و(قطع)). يقول: إن تلك الناقة الشديدة قد أضرّت بها أسفاري وأعيت من النظر إلى السوط خوفاً من وقوعه عليها. الجأب: الصلب الشديد من حمر الوحش. وفلج: واد بين البصرة وحمى ضرية من منازل (بني تميم)، يسلك منه طريق البصرة إلى مكة. وجنوبه: أطرافه. تؤام البقل: ما ينبت ثنتين ثنتين. أحوى: من الحُوّة، وهي سواد إلى =

٣- يُقَلِّبُ سَمْحَجاً قَبّاءَ تُضْحِي ... كَقَوْسِ الشَّوْحَطِ العُطُلِ الصَّنِيعِ
٤- يَظَلَّانِ النهارَ برأسِ قُفٍّ ... كُمَيْتِ اللونِ ذي فَلَكٍ رَفيعِ
٥- ويرتعيانِ ليلَهما قَراراً ... سَقَتْهُ كلُّ مُغْضِنَةٍ هَمُوعِ

ثم بعد أن قلّ النبات ساق الحمارُ أتانه إلى المورد:

٦- وهَيَّجَها الطريقَ، فأَصْحَبَتْهُ ... بِرِجْلٍ رَأْدَةٍ ويدٍ ضَبُوعِ
٧- تَصُكُّ النَّحْرَ والدَّأياتِ منهُ ... بضربٍ لو تَوَجَّعَهُ وَجِيعِ
٨- فأَوْرَدَها مع الإبصارِ ضَحْلاً ... ضَفادِعُهُ تَنِقُّ على الشُّرُوعِ

فإذا الصياد كامن لهما:

٩- ولمَّا يَنذَرا بِضُبُوءِ طِمْلٍ ... أخي قَنَصٍ بِرِزِّهِما سَمِيعِ
١٠- خَفِيِّ الشَّخْصِ، يَغْمِزُ عَجْسَ نَزْعٍ ... مِنَ الشِّرْيانِ مِرْزامٍ سَجُوعِ
١١- فلم تكُ غيرَ خاطئةٍ، وولَّى ... سريعاً أو يزيدُ على السَّريعِ

وغالباً ما تصحب الحمارَ أتانُه في مختلف مواطن ذِكْره، وهو موصوف بشدة الغيرة عليها[1].

وقد تأتي حمر الوحش في وصف الرياض، حيث يكون تجمّعها، فيستغلّ

= خضرة. مربع: خصيب. (انظر: ابن فارس: المجمل: (جأب))، و(البكري: ما استعجم: ١٠٢٧-١٠٢٨)، و(الحموي: البلدان: (فلج))، و(ابن منظور: (حوا)، و(مرع)). القف: ما ارتفع من متن الأرض. كميت: ليس بأشقر ولا أدهم. الفَلَك: ما استدار وارتفع من الأرض عما حوله. (انظر: ابن فارس: م.ن: (قف)، و(كمت)، و(فلك))، و(تهذيب الأزهري: ١٠/ ٢٥٥). القرار: المطمئن الكريم من الأرض. معضنة: مطر دائمة. هموع: سكوب. (انظر: ابن منظور: (قرر)، و(غضن)). رأدة: لينة. ضبوع: تمد بضبعيها - وهما عضداها - في عَدْوِها. (انظر: م.ن: (رأد))، و(ابن فارس: م.ن: (ضبع)). الدأيات: ضلوع الصدر، وقيل: غير ذلك. (انظر: ابن منظور: (دأي)). مع الإبصار: مع الصبح. وضحل: ماء ضحل. والشروع: ورود الماء. (انظر: م.ن: (شرع)). ضبوء: من ضبأ إذا لصق بالأرض. والطمل: الفقير القَشِف القبيح الهيئة الأغبر، وقيل: العاري، وأكثر ما يوصف به القانص. رزهما: صوتهما، يريد صوت الحمار وأتانه. (انظر: ابن فارس: م.ن: (ضبأ))، و(ابن منظور: (طمل)، و(رزز)). لم تك غير خاطئة: أي رمية الصائد. ولّى: أي الحمار.

(١) انظر: كشاجم: ١٥٧.

الصياد ذلك لصيدها. وتقترن كثيراً بوصف الفرس، الذي يطاردها به الصائد، وقد مرّ في (الخيل) مثال على ذلك.

وجاءت في الهجاء، تشبيهاً بها في الفزع والتبلّد، حيث نُسب إليه[١]:

وقد ضَمَزَتْ بجِرَّتِها سُلَيْمٌ مَخافَتَنا كما ضَمَزَ الحمارُ[☆]

وربما كان الحمار الوحشي من (بنات الأخدر)[☆٢]، فيكون شديد القوة والخفّة[٢].

وإذا كانت الحمر الوحشية تعبرّ في شعره عن الضعف والفزع، فإنها تعبرّ أيضاً عن السرعة والنشاط، كما تبين من توظيفها في وصف الناقة.

ب - ٢ - المها:

المها: جمع مهاة، وهي في الأصل: البِلَّوْرة، والدُّرَّة، وسميت بها بقر الوحش - على التشبيه - لبياضها[٣].

ولم ترد المهاة في ديوانه إلا في وصف المرأة، فشبّه بعينيها عيني حبيبته، والمهاة ذات عينين سوداوين، يضرب المثل بحسنها[٤][٥]:

ترنو بعينَي مهاةِ الرملِ أَفْرَدَها رَخْصٌ ظُلُوفَتُهُ إلا القَنا ضَرَعُ[☆٣]

---

(١) ذيل ديوانه: (٢٤/٣٦٥) = (ط. TÜREK: الملحق: ٣٩/١٤٤).

(☆) ضمز: يقال للبعير إذا أمسك عن جرته قد ضمز، فزَعاً أو انشغالاً، والحمار ضامز أصلاً فلا يجتر، فضربه مثلاً لهم: أي أنهم قد أذعنوا وأمسكوا من مخافتنا. (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ٩٣٥)، و(ابن منظور: (ضمز)).

(☆٢) الأخدر: من الحمر، منسوب إلى فحل يقال له الأخدر، قيل: هو فرس، وقيل: هو حمار. (انظر: ابن منظور: (خدر)).

(٢) انظر: ديوانه: (١٤/١٢٧) = (ط. TÜREK: ١٤/٥١).

(٣) انظر: ابن منظور: (مها).

(٤) وانظر: القلقشندي: صبح الأعشى: ٢/ ٤٢.

(٥) ديوانه: (١٨/١٧٢) = (ط. TÜREK: ١٨/٧١).

(☆٣) أفردها: أي أفردها عن اللحاق بالقطيع. رخص: ليّن. وظلوفته: لعله يعني بها ظلوفه، وهي قوائمه، يصفها بالضعف، وقال (عزة حسن): «لم تذكر كتب اللغة الظلوفة، وإنما ذكرت الأظلاف والظلوف»، ولم نقف عليه، وفي =

وبخدودها خدود النساء[1]:

وبِيضٍ مَباهِيجٍ كأنّ خدودَها خدودُ مهاً آلَفْنَ من عالِجٍ هَجْلا[☆]

وبمشيتها في الرمال مشيتهن، والمها موصوفة بالاختيال والتبختر[2][3]:

يَرْفُلْنَ في الرَّيْطِ لم يَنْقَبْ دوابِرُهُ مَشْيَ النِّعاجِ بحِقْفِ الرَّمْلَةِ الحُرُنِ

إلى غير هذا من أمثلة تشبيه المرأة بالمها في شعره.

وفي وصف المهاة يمعن في تصوير ضعفها، وشفقتها على صغيرها «المسيكين»، الذي يقع فريسة الذئب، والمهاة معروفة بدفاعها المستميت عن ولدها[4]، فيقول[5][☆2]:

١- أو نَعجَةٌ من إراخِ الرملِ أَخْذَلَها عن إِلْفِها واضِحُ الخدَّينِ مَكْحُولُ

٢- قالتْ لها النَّفسُ: كوني عندَ مَوْلِدِهِ إنَّ المُسَيْكِيْنَ إنْ جاوَزْتِ مأكولُ

٣- فالقلبُ يَغْنَى برَوْعاتٍ تُفَزِّعُهُ واللحمُ من شِدَّةِ الإشفاقِ مَخْلُولُ

= (ابن ميمون (مخطوط): الورقة: ٣٥/أ): «ظلوفته»: (بفتح الظاء)، ومثله في (ط. TÜREK). والقنا: جمع قناة، وهي الصلب. ضرع: صغير ضعيف. (انظر: ابن منظور: (قنا)، و(ضرع)).

(١) ديوانه: (١٧/٢٠٥) = (ط. TÜREK: ١٧/٨٥).

(☆) بيض: نساء بيض. مباهيج: جمع مِبْهاج، وهي امرأة ذات بهجة غالبة وحسن غالب. آلفن: ألفن. وعالج: رمل بالدهناء بين جبلي طيء وأرض فزارة، وقد تقدم: (راجع: ب٢ ف١: ب - الرمال). هجل: مطمئن بين الجبال. (انظر: الزمخشري: الأساس، وابن منظور: (بهج))، و(ابن فارس: المجمل: (هجل)).

(٢) انظر: الجاحظ: الحيوان: ٥/٢١٨.

(٣) ديوانه: (٢١/٣٠٦) = (ط. TÜREK: ٢١/١٢٤).

(٤) انظر: الجاحظ: م.ن: ٢/١٩٩.

(٥) ذيل ديوانه: (٣٨٤-٣٨٩/ ٣٠، ٣٢-٣٦، ٤١-٤٢، ٤٤-٤٥) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٤٨/ ٦٩-٧١، ٧٣-٧٤، والبقية لم تذكر).

(☆٢) كوني عند مولده: أي معه في مكانه. مخلول: واهن ضعيف. (انظر: ابن منظور: (خلل)). عير مقتسم: لا همّ له غير ولدها. ودرة: حليب. والأحاليل: جمع إحليل، وهو مخرج اللبن هاهنا. لم تخوّنها: لم تنقص لبنها. والبيت (٥): برواية (ابن قتيبة: المعاني: ١٨١)، و (ط. TÜREK) وفي (ط. عزة حسن): «بالجوّ... سمعمع أهرت الشدقين زهلول». واحتوى بكرها: أي افترس ولدها. والجزع: منعطف الوادي. مطّرد: قوي قويم. هملّع: خفيف. كهلال الشهر: في دقته وضمره. وهذلول: سريع. (انظر: ابن منظور: (طرد))، و(ابن قتيبة: المعاني: ١٨١-١٨٢)، و(البكري: اللآلي: ١/ ٥٧٤). شدّ المماضغ: أي أكله من كل منصرف. وفي الخرطوم تسهيل: أي =

٤- تَغْتادُهُ بفؤادٍ غيرِ مُقْتَسَمٍ ... ودِرَّةٍ لم تَخَوَّنْها الأَحـالـيلُ
٥- حتى احتوَى بِكْرَها بالجِزْعِ مُطَّرِدٌ ... هَمَلَّعٌ كهِلالِ الشَّهرِ هُذْلُولُ
٦- شَدَّ المَاضِغ منهُ كلَّ مُنْصَرَفٍ ... من جانبَيه، وفي الخُرْطُومِ تُسهِيلُ
٧- لمّا ثَغا الثَّغْوَةَ الأولَى فأَسْمَعَها ... ودونَهُ شُقَّةٌ: مِيلانِ أو مِيلُ
٨- كاد اللُّعاعُ من الحَوذانِ يَسْحَطُها ... ورِجْرِجٌ بين لَحْيَيْها خَناطِيلُ
٩- حتى أتتْ مَرْبِضَ المِسكينِ تَبحَثُهُ ... وحَولَها قِطَعٌ منهُ رَعابِيلُ
١٠- بحثَ الكَعابِ لقُلْبٍ في ملاعبِها ... وفي اليدينِ من الحِنّاءِ تَفْصِيلُ

فشبّه المرأة بمهاة فتيّة، ثم استطرد في وصف تلك المهاة، التي أخّرها عن رفيقاتها ولدها الصغير الجميل، الذي حدّثتها نفسها: ألّا تفارقه، وإلّا فإنه مأكول. ومع شدّة خوفها عليه وعنايتها به فقد وقع المحذور، حيث افترس ذلك المسكين ذئب قوي شرس. أما أُمّه البائسة فقد كادت، لمّا سمعت صياحه عن بعد، تموت غصّة عليه، فأقبلت مسرعة وَلْهَى تبحث عنه، كما تبحث صَبِيّةٌ مُحَنّأة عن سوارها الضائع، لكنّ المهاة لا تجد غير مربضه وقطعاً حولها منه ممزقة. وبهذا تبدو واشجة قوية تصل المهاة بالمرأة في ذهن الشاعر ووجدانه[١]، وأثناء ذلك تظهر رابطة بين المهاة والرمال، وتَقَدّم أن المها تأوي إلى الرمال متخذة منها المرابض والكنس[٢].

وبذا تُستخلص من أمثلة المهاة عنده رموز: الجَمال، والضعف، وحنان الأمومة، التي تُعبّر عنها المها في جميع ديوانه.

- طول. شقة: مسافة. والميل عندهم قدر منتهى البصر. (انظر: ابن فارس: المجمل: (ميل)). رعابيل: قطع متفرقة. (انظر: البكري: م.ن: ١/ ٥٧٤). الكَعاب: الصبية التي نهد ثدياها وأشرفا. والقُلب: السوار. تفصيل: أي أنها قد خضبت مكاناً من يديها وبقي مكان آخر غير مخضوب. (انظر: السكري: ديوان جران العود: ٤٢).

(١) انظر: ب٤ ف٣: ب - ١ - ٣.

(٢) راجع: ب٢ ف١: ب - الرمال.

أما (الثور الوحشي): فقد جاء في وصف الفرس والصيد، حيث قال[1]:

وكم من إرانٍ قد سَلَبْتُ مَقِيلَهُ إذا ضَنَّ بالوَحْشِ العِتاقِ مَعاقِلُهُ[☆]

وشبّه به ناقته في النشاط والسرعة، إذ قال[2]:

كأن حبالَ الرَّحْلِ منها تَوَشَّحَتْ سَراةَ لَباحٍ أكْلَفِ الوجهِ أكْحَلا
تُساقِطُ رَوْقاهُ بكلِّ خَمِيلَةٍ من الرملِ، كُرّاثاً طويلاً وعُنْصُلا

وجاء أيضاً في ذكر البُعد والتناهي التي تفصله عمّن يحب، فقال عنها[3][☆2]:

يَظَلُّ بها ذَبُّ الرِّيادِ كأنهُ سُرادِقُ أعْرابٍ بحَبلَينِ مُطْنَبُ
غدا ناشطاً كالبَرْبَرِيِّ وما احْتَشَى لُماعَةَ مَكْرٍ في دَكادِكَ مُرْطَبُ
تَحَدَّرُ صِبْيانُ الصَّبا فوقَ مَتْنِهِ كما لاحَ في سِلْكٍ جُمانٌ مُثَقَّبُ

---

(١) ديوانه: (٢٥٤/٥٥) = (ط. TÜREK: ١٠٣/٥٤).

(☆) الإران: الثور الوحشي؛ لأنه يؤارن البقرة أي يطلبها. مقيله: استراحته في الظهيرة. معاقل: جمع معقل، وهو الملجأ الذي يأوي إليه الوحش فينجو من أعدائه. (انظر: ابن منظور: (أرن)). يعني أنه يطلب ثيران الوحش للصيد في أي وقت وأينما كانت.

(٢) ديوانه: (٢١٣/٢٠-٢١) = (ط. TÜREK: ٨٨/٢٠-٢١).

(٣) م.ن: (٢١/٣٨-٤١) = (ط. TÜREK: ١٠/٣٨-٤١).

(☆٢) ذبّ الرياد: الثور الوحشي؛ سمي بذلك لأنه يرود ويذبّ عن نفسه ولا يستقرّ في موضع. والسرداق: كل ما أحاط بالشيء من حائط أو خباء، وبيت مُسَرْدَق: أعلاه وأسفله مشدود كله. (انظر: ابن منظور: (سردق)). مطنب: مشدود. (انظر: كراع: ٢٠٤)، و(ابن قتيبة: المعاني: ٧٣٥)، و(ابن دريد: الجمهرة: ١/ ٢٧). البربري: لعله يعني به التيس الهائج، أو الشخص الغاضب كثير الصياح والبربرة، شبّه به هذا الثور في النشاط والهياج. و(انظر: ابن منظور: (برر)). وفي (ط. عزة حسن): «وفي الحشا»، وعلّق: «في الأصل المخطوط: وما احتشا (؟)»، ولعلها: «وما احتشى»، كما في (ط. TÜREK)، أي أنه لم يملأ جوفه. واللماعة: أول ما يبدو من البقل ما لم يغلظ بعد. والمكر: جمع مَكْرة، وهو نبت له ورق ولا زهر له، يعيش في السهل والرمل، سبق وصفه في الفصل الثاني عن النبت والشجر. والدكادك: جمع دَكْداك، وهو من الرمل ما التبد بالأرض فلم يرتفع. (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ٦٩٩)، و(ابن السكيت: الإبدال: ٦٣)، و(أبا الطيب اللغوي: الإبدال: ٢/ ٣٨٧)، و(البكري: اللآلي: ١/ ٥٧٣)، و(ابن فارس: المجمل: (دك)). صبيان الصَّبا: أي ما سقط من المطر الذي ساقته ريح الصَّبا فتحبّب وتحدّر على ظهر الثور كالجمان الصغار. والجمان: شبيه باللؤلؤ، من فضة. شبه ما تحدر على ظهر الثور من قطرات المطر بحبات جمان منظومة في سلك. (انظر: ابن قتيبة: م.ن: ٧٥٥)، و(الزمخشري: الأساس: (صبو)).

لَياحٌ، تَظَلُّ العائذاتُ يَسُفْنَهُ ... كَسَوْفِ العَذارَى ذا القَرابَةِ مُنْجِبُ

وقال كذلك(١):

أَتَى دونَها ذَبُّ الرِّيادِ كأنَّهُ ... فتًى فارِسِيٌّ في سَراويلَ رامِحُ(☆)

ويدخل الثور ضمناً في وصف المهاة التي شبّه بها المرأة، إذ تراعي المهاة ثوراً شاباً قوياً كأنه (سُهَيْل)، تبقى (الرخامى) في مرتعه غضة بعد أن حفر عنها الأرض وأكلها في أمسه، وقد حشا جوفه بـ(الشقارى) أيضا. وهو يبيت قنوعاً بزاده سواء أشبع أم لم يشبع. وتراه يكابد الرمال ليهيّئ لنفسه كِناساً يأوي إليه عند أصول (الأرطى)(☆٢)، فيبيت على الرمال الناعمة وكأنه لبياضه مجوسيّ قام دون الشجرة وعليه يَلْمَق أبيض، وأشعل النار عند انقطاع الأمطار. ثم يغدو كالسيف مضاء، برغم الأهوال التي تورّعه من دون طموحه وهمه(٢). وكأنه بهذا يكمل رمزية الشاعر لصراع العربي في عصره، بجنسيه: الأنثى - التي رمز لها بالمهاة، والذكر - الذي رمز له بالثور الوحشي المكافح(٣). ويؤكّد هذا الاستخدامَ لعناصر البيئة في التعبير عن الإنسان، أنه - في الغالب - يبدأ بالحديث عن الإنسان ليعود إليه، بحيث يبدو هو المحور وإن لم يفصِح عنه مباشرة. وفي هذا افتنان جميل، تقابسه الشعراء قديما.

وبذا يمكن القول: إن الثور الوحشي قد مثّل في شعره معنى النشاط

---

(١) ديوانه: (٣/٤١) = (ط. TÜREK: ٣/١٦).

(☆) ذبّ الرياد: الثور الوحشي، راجع شرح الأبيات السابقة. رامح: صاحب رمح. شبه الثور بفارسي ذي سراويل، للسواد الذي في قوائمه، والعرب تقول للثور الوحشي: مُسَرْوَل لذلك، وكلمة سراويل: فارسية معرّبة، (انظر: ابن منظور: (سرل))، وسراويل: يذكّر ويؤنث، وهو واحد جمعه سراويلات، وفي النحويين من يزعم أنه جمع سِرْوال وسِرْوالة، وقد احتج بهذا البيت في ترك صرف (سراويل)، (انظر: سيبويه: ٣/٢٢٩)، و(الجوهري: (سرل))، و(ابن مالك: ٨٥٠). والبيت في (العسكري: ديوان المعاني: ٢/١٣٢) منسوب (للراعي).

(☆٢) الرخامى، والشقارى: نباتان، والأرطى: شجر، وقد سبق وصفها: (راجع: ب٢ ف٢).

(٢) انظر: ب٤ ف٣: ب - ٢ - ٢.

(٣) انظر: م.ن.

والكفاح، إلى جانب اقترانه في بعض المواطن بالبعد والفاصل الصحراوي، الذي كان يحول دونه ودون ما يهوى.

ب - ٣ - الظباء:

وكالمها، يشبّه النساء بالظباء، فقد شبّه بها حبيباته: (دهماء)، و(عتيبة)، و(سليمى)، و(أمّ سهم)، وشبّه بها مغنيات مجلس الخمر، والظعائن، والمرأة بعامة. فهي مثلها في (العين)(١):

[كأن أَعْيُنَ غِزْلانٍ، إذا اكْتَحَلَتْ ... بالإِثْمِدِ الجَوْنِ، قد قَرَّضْنَها حِينا](☆)

وفي (الجِيد)(٢):

يَثْنِينَ أَعْناقَ أُدْمٍ يَرْتَعِينَ [بها] ... حَبَّ الأَراكِ وحَبَّ الضَّالِ من دَنَنِ.

وكما شبّه المرأة بالظباء في (العَيْن) و(الجِيد) بخاصة، شبّهها بها في ملامح أخرى مادية ومعنوية، مراعياً في ذلك وجه الجمال والعاطفة. وقد استحوذ هذا الجانب على معظم أبيات الظباء في ديوانه.

وشبّه بها فرسه في السرعة والفزع، فقال(٣):

فأَغْصَمْتُ عنه بالنُّزُولِ مُجَلِّحاً ... كتَيْسِ الظِّباءِ أَفْزَعَ القَلْبَ حابِلُهْ(☆٢)

---

(١) ديوانه: (٣٣/٣٢٦) = (ط. TÜREK: ٣٣/١٣٣).

(☆) الإثمد: الكحل. والمعنى: أن هؤلاء النسوة إذا اكتحلن فكأنهن استعرن أعين الغزلان لحسن أعينهن. وفي (ط.TÜREK): «قرّضنه»، دون إشارة من أيٍّ من المحققين إلى خلاف في رواية الكلمة، وفي (القرشي ٢/٨٦٠): «قرّطنه»: (بالطاء المهملة)، وذكر محققه أن في بعض النسخ: «قرّضنه»، وفي بعضها «قرّصنه»: (بالصاد المهملة). على أن «قرّضنها» أنسب للسياق.

(٢) ديوانه: (٢٢/٣٠٧) = (ط. TÜREK: ٢٢/١٢٤).

(٣) م.ن: (٤٨/٢٥١) = (ط. TÜREK: ٤٧/١٠٢).

(☆٢) مجلّح: مسرع. والحابل: الصائد. (انظر: ابن فارس: المجمل: (جلح))، و(ابن منظور: (حبل)). شبه فرسه بالظبي المذعور من الصائد.

وفي المقابل شبّه بظباء الحرم الآمنة الإبل المهملة في مرعاها، فقال[١]:

يَسْقِي بأَجْدادِ عادٍ هُمَّلاً رَغداً مثلَ الظِّباءِ التي في نالَةِ الحَرَمِ[☆]

وبدم الغزال شبّه لون الخمر[٢]:

مِمّا تُعَتَّقُ في الدِّنانِ كأنها بشِفاهِ ناطِلِها ذَبِيحُ غَزالِ

وكان يزعم بعض حكمائهم أن دم التيس منها ينفع في السموم والبواسير وغيرها[٣].

وجاءت الظباء في الوقوف على الأطلال، التي أمست مرتعاً للوحش بعد أهلها وذكرياته بها[٤]. كما أتت في فخره بالارتحال ساعة لا تطيق الحيوانات سَورة القيظ[٥]. ومثلما استعمل المها في التعبير عن بُعْد من يحبّ استعمل الظباء[٦].

وقد تقدم ما كان للغزال - بخاصة - من منزلة حميمة عند العرب بلغت حدّ التقديس في بعض الحالات[٧].

وهكذا ارتبطت الظباء في شعره بمعاني: الجمال، والسرعة، والبُعْد عن الأهل والأحبة.

---

(١) ذيل ديوانه: (٣/٣٩٧) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٥٣/١٠٥).

(☆) أجداد: جمع جُدّ وهي البئر، ونسبها هاهنا إلى عاد لِقِدمها. والهمّل: الإبل المهملة في المرعى. رغد: أي ماء كثير ونالة الحرم: ساحته وباحته. (انظر: ابن فارس: المجمل: (جد))، و(ابن منظور: (همل))، و(تهذيب الأزهري، ١٥/٣٧٣).

(٢) ديوانه: (١٥/٢٥٨) = (ط. TÜREK: ١٥/١٠٥).

(٣) انظر: كشاجم: ٢٠٩.

(٤) انظر: ديوانه: (٣/١٤٧) = (ط. TÜREK: ٣/٦٠).

(٥) انظر مثلاً: م.ن: (٣٦/١٧٨) = (ط. TÜREK: ٣٦/٧٣).

(٦) انظر: م.ن: (٢/٤٠) = (ط. TÜREK: ٢/١٦).

(٧) راجع: ب١ ف١: د - ١ - ٤.

ب - ٤ - الوعـــول :

أكثر ما ترد الوعول في شعره في وصف المطر، إذ يعبّر عن غزارتها بحطّها العُصْم من الجبال، كما في قوله، يصف السحاب [(١)]:

فأمسَى يَحُطُّ المُعْصِماتِ حَبِيُّهُ   وأصبحَ زَيَّافَ الغَمامَةِ أَقْمَرا.
وباتَ يَحُطُّ العُصْمَ من أَجْبُلِ الحِمَى   وَهَمَّتْ رَواسِي صَخْرِهِ أنْ تَحَدَّرا.

وجاءت بعد ذلك في الحديث عن فتنة جَمال المرأة وسحرها الآسر، حتى إنها لو بذلت حُسنها لوعل لخلبت لُبّه [(٢)(☆)]:

ولو بَذَلَتْ حُسْنَ ما عندَها   لِـبارِحِ أَرْوَى نَـوارٍ مُسِـنْ
قَـرُوعِ الـظِّـرابِ بـأَظْـلافِـهِ   رَشُوفِ الفَراشِ بِسَامٍ رَكُنْ
شَـبُـوبٍ كـأَن قَـرا ظَـهْـرِهِ   من الزَّيْتِ بعد دِهانٍ دُهِنْ
مَـرابِعُـهُ الخُمْرُ من صاحَةٍ   ومُصْطافُهُ في الوُعُولِ الحُزُنْ
لَـظَـلَّ يُـنـازِعُـهـا لُـبَّـهُ   نِزاعَ القَرِينِ حِبالَ الرُّهُنْ

وشبّه بالوعل الفرس القويّ الخفيف المروع، فقال [(٣)]:

رَحِيبِ الجَوفِ، وَهْواءٍ، تَراهُ   إذا ما قِيدَ كالصَّدَعِ المَرُوعِ [(٢☆)]

---

(١) ديوانه: (١٣٠/٥، ١٤٥/١٦) = (ط. TÜREK: ٥٢/٥، ٥٩/١٦).
(٢) م.ن: (٢٩٧-٢٩٨/٣١-٣٥) = (ط. TÜREK: ١٢٠/٣١-٣٥).
(☆) البارح: ما ولّاك مياسره، هذا هو الأشهر، وهم يتشاءمون به، وعند أهل الحجاز عكس ذلك. (انظر: البصري: التنبيهات: ١٢٤-١٢٧). والأروى: وعول الجبال. نوار: نفور. (انظر: ابن فارس: المجمل: (برح)، و(أرو)، و(نور)). الظّراب: جمع ظَرِب، الحجارة الثابتة الحادة. الفَراش: جمع فَراشة، الماء القليل. ركن. أستقرّ ورسا، صمة الجبل. (انظر: م.ن: (ظرب)، و(فرش)). شبوب: مسنّ هاهنا. وقرا ظهره: وسطه. (انظر: ابن منظور: (شبب)، و(قرا)). القرين: الأسير هاهنا. والرُّهن: جمع رَهْن، وهو الرهينة هاهنا. (انظر: ابن منظور: (قرن)، و(رهن)). أي أن هذا الوعل لو رأى حسنها لملكت عليه لبّه فأصبح كالأسير الرهين ينازع حباله
(٣) انظر: ديوانه: (١٦٦/٣٢) = (ط. TÜREK: ٦٨/٣٢).
(٢☆) رحيب الجوف: واسعه يصف فرسا. وهواء: نشيط يكاد يفلت من كل شيء من حرصه على الجري. (انظر: كراع: ٣٥٠)، و(تهذيب الأزهري: ٤٨٦/٦). والصَّدَع: من الوعول الوسط ليس بالعظيم ولا الصغير. (انظر: الجوهري: (صدع)).

ومن هنا يتبين ما كانت (الوعول) ترمز إليه في شعره من: العِصْمة، والنفور، وعدم الأُلفة؛ ولهذا كان انحطاطها من معتصمها في الجبال دليل شدة المطر، وإذعانها للمرأة - بالرغم من نفورها - علامة على فتون جمال المرأة وتناهيها في ساحر الحسن والتأثير. وفي ذلك النفور ما أحبّ العربي أن يراه في الفرس.

ب - ٥ - الذئـــب:

وشبّه بالذئب الخيل، في مثل قوله[(١)]:

جُرْدٌ تُبارِي الشَّبا، أُزْقٌ مَراكِلُها، ... مِثْلُ السَّراحِيْنِ من أُنْثى ومن ذَكَرِ[(☆)]

وشبّه بخفته الرمح في قوله[(٢)]:

وذي عَسَلانٍ لم تُهَضَّمْ كُعُوبُهُ ... كما خَبَّ ذئبُ الرَّدْهَةِ المُتَأَوِّبُ[(☆٢)]

وكذلك شبّه - في مثال سابق - إثارةَ الناسِ الفتنَ بحرب الذئب للغنم[(٣)]. مثلما شبّه به نفسه في صبره وتمرّسه بالحرب، فقال[(٤)]:

لا تَحْلُبُ الحَرْبُ منّي بعد عِيْنَتِها ... إلا عُلالَةَ سِيدٍ ماردٍ سَدِمِ[(☆٣)]

---

(١) ديوانه: (٤٢/٨٧) = (ط. TÜREK: ٤٢/٣٥).

(☆) جرد: جمع أجرد، وهو الفرس قصير الشعر، وذلك من علامات عتقه. (راجع: أ - ٢ - الخيل). والشبا: جمع شَباة، وشباة كل شيء حده، ولعله يعني هاهنا حد السيوف والرماح، (انظر: ابن فارس: المجمل: (شبو))، أي أن الخيل في جريها تباري حد الأسلحة المشرعة بأيدي فرسانها إلى الأعداء. أزق: جمع أَوْرَق، وهو الذي يخالط بياضه سواد. (انظر: ابن منظور: (ورق)). مراكلها: جمع مَرْكَل، وهو موضع ركل الفارس الفرس حين يستحثه للركض، وهما مركلان في الفرس. و(راجع: أ - ٢ - الخيل). والسراحين: جمع سِرْحان، وهو الذئب.

(٢) ديوانه: (٢٣/١٦) = (ط. TÜREK: ٢٣/٨).

(☆٢) العسلان: اهتزاز الرمح. وذو عسلان: أي رمح ذو عسلان. لم تهضّم كعوبه: أي أن كعوب هذا الرمح لم تكن مكسّرة. خَبّ: جرى الخَبَب، وهو ضرب من العدو. والردهة: شبه أكمة خشنة كثيرة الحجارة، والردهة: اسم جبال أيضاً، ذكرها (ابن خميس: المجاز: ٢٨٥) فيما بين الطائف ومكة، فقال: «حينما نتكب جبلي (الدماغة) و(الشق) خلفنا نحاذي جبال (صار) و(ريع الأخراص)، جبال متداخلة ينحدر سيلها على (نعمان) يليها غرباً جبال (الردهة)...». والمتأوّب: الراجع. (انظر: ابن فارس: المجمل: (عسل)، و(خب)، و(رده)).

(٣) راجع: أ - ٥ - الغنم.

(٤) ذيل ديوانه: (٩/٣٩٩) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٠٤/١٥٣).

(☆٣) عينة الحرب: مادتها. (انظر: ابن منظور: (عين)). والعلالة: بقية اللبن في الضرع، وبقية الجري، ويقصد هنا بقية قوة السِّيد على الجري. والسِّيد: الذئب. والمارد: الشديد العاتي. والسدم: الهائج. (انظر: ابن فارس: المجمل: (عل)، و(سدم)).



إضافة إلى مجيئه في وصف الأطلال المقفرة حينما يقول عنها[1]:

سَخاخاً يُزَجِّي الذئبُ بينَ سُهُوبِها وفَحْلُ النَّعامِ رِزُّهُ وأَزامِلُهْ[☆]

وإتيانه في الحديث عن المها وحمر الوحش، التي يطاردها ويفترسها[2]. وأحياناً يَنْسِبُ الذئب إلى (الغضى)، وذئب الغضى أخبث الذئاب كما قيل من قبل[3]. كل هذا يوضح أن الذئب في شعر (ابن مقبل) كان يمثّل: صورة الخفّة والشرّ، مع شدّة الصبر والممارسة.

ب - ٦ - الأســـد:

أما الأسد فشحيح الدلالة في صوره الشعرية. لم يرد في ديوانه إلّا في ثلاث صور، ولم يَعْدُ فيها تعبيره النمطيّ عن معاني القوة والشدّة والجرأة. منها وصفه قومه بأنهم كأسود (ترج) أو أسود (عتود)، وكان هذان الموضعان مأسدتين، فقال[4]:

جُلُوساً بها الشُّمُّ العِجافُ كأنهمْ أُسُودٌ بتَرْجٍ أو أُسُودٌ بعِتْوَدا

وقال كذلك[5]:

كمْ فيهمُ من أَشَمِّ الأنفِ ذي مَهَلٍ يأبَى الظُّلامَةَ مثلَ الضَّيْغَمِ الضَّارِي[☆٢]

وفي بيت آخر شبّه بمخلبي الأسد نابي جمل الظعن الشديد، فقال[6]:

---

(١) ديوانه: (١٢/٢٤١) = (ط. TÜREK: ١١/٩٨).

(☆) السخاخ: الأرض اللينة الحرة. يزجي: لعله يعني يتمشى في خفة ورفق أو يعدو. وسهوب: جمع سُهْب، وهي الفلاة. والرِّزّ: الصوت. وأزامل: جمع أزمل، وهو الصوت أيضا. (انظر: ابن فارس: المجمل: (سخ)، و(سهب)، و(رز)، و(زمل))، و(ابن منظور: (زجا)).

(٢) انظر: ديوانه: (٤٧/٢٥٠)، وذيل ديوانه (٣٨٤/ ٣٠-٠٠) = (ط. TÜREK: ٤٦/١٠٢، الملحق: ١٤٨/ ٦٩-٠٠).

(٣) يراجع: ب٢ ف٢: ب - الأشجار: (الغَضَى).

(٤) ديوانه: (٢٩/٦٨) = (ط. TÜREK: ٢٩/٢٨).

(٥) م.ن: (١٣/١١٥) = (ط. TÜREK: ١٣/٤٦).

(☆٢) ذو مهل: أي رزين أنيّ.

(٦) ديوانه: (٥/١٨١) = (ط. TÜREK: ٥/٧٤).

إذا تَشاءَبَ أَبْدَى مِخْلَبَي أَسَدٍ   قدعاديا الحَنَكَ الأَعْلَى وما عَطَفا[☆].

ب - ٧ - الفيـــــل :

لا نجد ما يدل على أنها كانت هنالك فيلة في الجزيرة العربية، ومع ذلك فقد ذكر الفيل مرتين في شعره، شبّه في المرة الأولى بلونه لون الليل، فقال[١]:

وليلةٍ مِثْلِ لَوْنِ الفِيْلِ غَيَّرَها   طُمْسُ الكَواكِبِ والبِيْدُ الدَّيامِيمُ

وكانوا يشبّهون بلون الفيل الليلة السوداء التي لا يهتدى فيها، وألوان الفِيلَة كذلك[٢]. وقد جاء هذا البيت في معرض كلام (الجاحظ)[٣] على «بعض خصائص الفيل وضخامته».

والمرة الأخرى - التي ذكر الشاعر فيها الفيل - كانت في الوعيد، إذ أنذر خصمه ببطش يشبه خَبْط الفيل، فقال[٤]:

أَمْ اخْبِطُ خَبْطَ الفِيلِ هامةَ رأسِهِ   بحَرْدٍ، فلا يُبْقِي من العَظْمِ باقِيا[☆٢]

واستشهد به الجاحظ[٥] كذلك في حديثه عن (صولة الفيل)، المضروبة مثلاً لدى العرب، منذ خبط الفيلة ملكهم (النعمان بن المنذر) على يد كسرى.

فالفيل في شعره إذن يجسّد: لون الليل تارة، وشدة البطش تارة أخرى.

(☆) عاديا الحنك الأعلى: أي أذياه لطولها.
(١) ديوانه: (١٥/٢٧٠) = (ط. TÜREK: ١٥/١٠٩).
(٢) انظر: ابن منظور: (فيل).
(٣) الحيوان: ٧/١٠٤.
(٤) ذيل ديوانه: (١٢/٤١٢) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٧٠/١٦١).
(☆٢) بحرد: بغضب، وفي (الجاحظ: م.ن: ٧/١١٢): «بجرد فلا أُبقي من الرأس».
(٥) انظر: م.ن ٧/١١٢.

ب - ٨ - السباع والضباع :

وعبّرا في شعره عن معاني الشرّ والعدوان والهلاك، فجاءت السباع - دونما تحديد - في تصوير استباعها صغار المها وإجفالها النعام[(١)]، أمّا الضباع ففي كلامه على الحروب، حيث قال[(٢)]:

فإمّا تَرَيْنا أَلْحَمْتنا رِماحُنا وخِفَّةُ أَحْلامٍ ضِباعاً وأَنْسُرا[(☆)]

ب - ٩ - الثعلـــــب :

وشبه به فرسه في خفته ومَيْسه - في مشاكلة تزدوج نمطيّاً بصورة الذئب[(٣)]- عندما قال[(٤)]:

بذي مَيْعَةٍ، كأن بعضَ سِقاطِهِ وتَعْدائِهِ رِسْلاً ذآليلُ ثَعْلَبِ.

ب - ١٠ - القـــرد :

أمّا في تصوير القيم النفسية والأخلاقية فاستخدم من الحيوان (القرد)، حين هجا قوماً فشبّه قِدْرهم في الصغر بكفّ القرد[(☆٢)]، فقال[(٥)]:

وقِدْرٍ ككَفِّ القِرْدِ لا مُسْتَعِيرُها يُعارُ، ولا مَنْ يَأْتِها يَتَدَسَّمُ[(☆٣)]

---

(١) انظر: ديوانه: (٧/٣٣٨، ٢٤/١٧٤) = (ط. TÜREK: ٧١/٢٤، ٧/١٣٧).

(٢) ديوانه: (٣٢/١٣٧) = (ط. TÜREK: ٥٥/٣٢).

(☆) ألحمتنا: أطعمت لحمتا، وذهب (عزة حسن) إلى أنه يعني: أطعمتنا اللحم، بيد أن الشاعر في سياق هذا البيت يتحدث عن الماضي وعِزّه، وما آل إليه قومه من ضعف وفرقة، وهو في بيته هذا يذكر تفانيهم في الحروب، التي كانت سبباً في أن تكون لحومهم طعاماً للضباع والأنسر، وجواب هذا البيت في قوله بعده: «فما نحن إلا من قرون تُنُقِّصت...». أحلام: جمع حِلم: (بكسر الحاء).

(٣) قارن بالذئب: راجع: ب - ٥.

(٤) ديوانه: (٤/٩) = (ط. TÜREK: ٤/٥).

(☆٢) والعرب تشبه كف البخيل بكف الضب أيضا. (انظر: ابن منظور: (ضبب)).

(٥) ذيل ديوانه: (٤٨/٣٩٥) = (ط. TÜREK: الملحق: ٩٤/١٥١).

(☆٣) يتدسم: ينال من دسمها، أي للؤمهم فقِدْرهم صغيرة ككف القرد ومع ذلك فهي لا تعار ولا يطعم فيها. (انظر: الشنتمري: ١/٤٤٢). والبيت منسوب في (الراغب: المحاضرات: ٢/ ٦٦٢): لـ(معن بن زائدة)، وفيه وفي (ابن الأنباري: البلغة: ٧٧): «ولا من ذاقها»، واستشهد به الأخير على أن القِدْر مؤنثة.

فضرب (كفَّ القرد) مثلاً لصغر الإناء وبخل أهله. ومما رُوي في حلم (الأحنف بن قيس): أنه أشرف عليه رجل، وهو يعالج قِدْراً يطبخها، فأنشد الرجل بيت ابن مقبل هذا، فقيل للأحنف ذلك، فقال: «يرحمه الله لو شاء لقال أحسن من هذا»[1].

ب - ١١ - القنفذ:

كما استخدم القنفذَ في معرض مناقضته الهجائية مع خصمه (النجاشي الحارثي)، فقال[2]:

أحارِ بنَ كَعْبٍ، إنما أنتَ قُنْفُذٌ   بمَدْرَجَةٍ يَأْوِي إلى شَرِّ مَعْقِلِ

وإلى جانب ما يعنيه القنفذ من قباحة الخلقة ودناءة القَدْر، فقد كانت العرب تشبّه به النمّام من الناس، الذي يسهر في هتك أعراضهم، فتقول: «ما هو إلا قنفذ ليل»؛ لأن القنفذ لا ينام على زعمهم، فيسمى لذلك «الدَّرّاج»؛ لأنه يدرج ليلته جمعاء، وهي صفة غالبة عليه[3].

جـ - الطيــــــور:

الطيور في شعره أقلّ نسبيّاً من سائر أنواع الحيوانات؛ وهذا منسجم مع طبيعة بيئته الصحراوية التي تلائم حياة الحيوانات البرّية أكثر من الطيور.

وفي شعره منها: (الدجاج). فهو يذكر الديك في وصف رحلاته وقوة ناقته على السُّرى، في مثل قوله[4]:

---

(١) انظر: ابن سلمة: الفاخر: ٢٩٨.
(٢) ديوانه: (٣/٢٦٥) = (ط. TÜREK: ٣/١٠٧).
(٣) انظر: ابن منظور: (درج)، و(قنفذ).
(٤) ديوانه: (٢٣/١٨٦) = (ط. TÜREK: ٢٣/٧٦).

هَوْجاءُ تَجْتابُ أَوْساطَ الجَهادِ بِإِرْ (م) قالٍ قَذافٍ إذا دِيكُ القُرَى هَتَفا(☆)

والشاعر في هذا المثال ينسب الديك إلى القرى، ممّا يدلّ على أن الدجاج - إذ ذاك - إنما كان عند أهل المدر والريف؛ لارتفاع ثمنه على الفقراء، حتى عُدّ من طعام المترفين، بل لقد كان الرعاة يزدرون تربيته، فعُرف عند النبط والمتنبطة من العرب(١).

وإذا كان الدجاج قد جاء مقترناً في شعره بالسُّرى والبكور، فقد جاء أيضاً في ذكر الخمر وموعدها من الليل، حين يشربها إذا الديك أَعْتَم - كناية عن الليل - كما مرّ من قبل(٢).

ومما يكثر في شعره: (النعام). ويبدو أنه كان كثيراً في شبه الجزيرة العربية، ولعل من أسباب ذلك عدم احتياجه إلى الماء، فهو لا يشرب(٣)، لكنه الآن قد اختفى(☆٢). وبالإضافة إلى استفادة العرب من لحم النعام كانوا يستفيدون ببيضه، كما أشار الشاعر في أحد أبياته(٤).

وكثيراً ما شبّه ببيضة النعام المرأةَ، كما فعل غيره من القدماء(٥)، ومثال ذلك قوله عن (دهماء)(٦):

(☆) هوجاء: أي ناقة هوجاء، وهي الشيطة السريعة. تجتاب: تقطع. والجهاد: الأرض الصلبة. والإرقال: ضرب من السير سريع. قذاف: سريعة. (انظر: ابن فارس: المجمل: (جهد)، و(رقل)، و(قذف)). وقوله: «إذا ديك القرى هتفا»: كناية عن البكور في الرحلة، أي أنه يسير في الفجر.

(١) انظر: جواد علي: ٧/١٠٨-١٠٩، ١١٧.

(٢) راجع: ب١ ف١: ب - ١.

(٣) انظر: الباشا: الصيد عند العرب: ٢٢٢.

(☆٢) آخر مرة صيد فيها كانت سنة ١٩٣٨م، وكانت زنة النعامة حينئذ (٣٠٠ رطل). (انظر: أبا العلا: جغرافية شبه جزيرة العرب: ٢/١٤٠).

(٤) انظر: ديوانه: (٢٣/٣٤٣) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٢٩/١٥٦).

(٥) انظر: ابن منظور: (نعم).

(٦) ديوانه: (٦/٣٣٧) = (ط. TÜREK: ٦/١٣٧).

كبَيْضَةِ أُدْحِيٍّ يُوَحْوِحُ فَوقَها ... هِجَفَّانِ مُرْتاعا الضُّحَى وَحَدانِ(☆)

وفي مكان آخر شبّه برئال النعام، تكَسَّر بيضُه، قِطعَ السحاب «الرباب»(١).

ولِما اشتهر به من سرعة العدو، يشبّه به ناقته(٢). كما اتخذه للتعبير عن سرعة الرحيل، فقال مثلا(٣):

... رأيتُ الحَيَّ خَفَّ نَعامُهُمْ(☆٢)

ويأتي ذكره في وصف الأطلال(٤)، وكذلك في وصف الرياض(٥).

والخلاصة أن بيض النعام كان يمثّل في شعره جمال اللون الأبيض وغضارة المتصف به، من المرأة، أو السحاب. والنعام بعامة يرمز لسرعة الانتقال والتحوّل، مع إتيانه في سياق الأطلال والقفر تارة، وفي معنى الخصب والنعيم تارة أخرى.

ومن أبرز الطيور في شعره: (الحمام)، الذي يذكّره بالماضي ويلهب فيه جذوة الحنين إلى الوطن(٦):

يُذَكِّرُنِي حَيَّيْ حُنَيْفٍ كِلَيْهما ... حَمامٌ تَرادَفْنَ الرَّكِيَّ المُعَوَّرا

(☆) الأدحي: الموضع الذي يفرّخ النعام فيه؛ لأنه يدحوه برجله يوحوح: يصوّت فوقها، إذا رئمها وأظهر ولوعه بها. هجفان: تثنية هجف، وهو الضخم الكبير الثقيل الكثير الريش. مرتاعا الضحى: أي مرتاعان في الضحى. وحدان: منفردان. (انظر: ابن فارس: المجمل: (دحو))، و(تهذيب الأزهري: ٥/ ٢٨٢)، و(كشاجم: ٢١٨).

(١) انظر: ديوانه: (٣/١٢٩) = (ط. TÜREK: ٣/٥٢).

(٢) انظر: ديوانه: (٤١/٣٨)، وذيل ديوانه: (١/٣٩٠) = (ط. TÜREK: ٤١/١٦، والملحق: ٧٩/١٤٩)

(٣) ديوانه: (٦/٦٢) = (ط. TÜREK: ٦/٢٥).

(☆٢) على أن من معاني (النعامة): جماعة القوم أيضا. (انظر: ابن منظور: (نعم)).

(٤) انظر: ديوانه: (٣/١٤٧-٤)، (٣/١٢٣)، (١٢/٢٤١) = (ط. TÜREK: ٣/٦٠-٤، ٣/٤٩، ١١/٩٨).

(٥) انظر: م.ن: (٦٢/٩٥) = (ط. TÜREK: ٦٢/٣٧).

(٦) م.ن: (٤٨/١٤١) = (ط. TÜREK: ٤٨/٥٧).

وقد اختلفوا في الحمام واليمام أيهما الأليف، وقيل: إنما الحمام عند العرب القطا والقماري ونحوهما، ولا تعرف حمام الأمصار، وإنما يسمونه الحضر[١]. ومهما يكن فمن الواضح من وصف الشاعر هذا الطائر أنه برّي.

و(القطا): ضرب من الحمام، أكثر الشاعر من ذكره. ولا عجب فهو أكثر طير البادية عددا[٢]، فكأنّ مبركَ ناقته[٣]:

مَبِيتُ خَمْسٍ من الكُدْرِيِّ في جَدَدٍ   يَفْحَصْنَ عَنْهُنَّ باللَّباتِ والجُرُنِ[☆]

والقطا لونان: الكُدْري، والجُوني، فالكدري منها: غُبْرُ الألوان، رُقْش الظهور والبطون، صُفْر الحلوق، قصار الأذناب، وهي ألطف من الجوني، والجونية: بكدرتين، سود البطون، سود بطون الأجنحة والقوادم، وأرجلها أضلع من أرجل الكدري، وصدرها أبيض، وبه خطان أصفر وأسود، والظهر أغبر أرقط[٤].

والقطا إذا اجتمع أصدر وغراً، شبَّه به صوت حداء الإبل، فقال[٥]:

في ظَهْرِ مَرْتٍ عَساقِيلُ السَّرابِ بِهِ   كأن وَغْرَ قَطاهُ وَغْرُ حادِينا[☆٢]

وشبَّه بسرب القطا الوارد غارة الخَيل المنتشرة[٦]، وهي من أحب الفِكَر

---

(١) انظر: ابن منظور: (حم)، وكشاجم: ٢٧٤-٢٧٥.

(٢) انظر: كشاجم: ٢٧٨.

(٣) ديوانه: (٣٥/٣١٠) = (ط. TÜREK: ٣٥/١٢٦).

(☆) جدد: أرض مستوية. واللبات: الصدور. والجرن: مقدم الأعناق. أي أنهن يحفرن التراب لتهيئة مبيتهن فيه. (انظر: ابن فارس: المجمل: (جد)، و(جرن)).

(٤) انظر: كشاجم: ٢٧٧.

(٥) انظر: ديوانه: (١٥/٣١٩) = (ط. TÜREK: ١٥/١٣٠).

(☆٢) في ظهر مرت: أي الطريق الذي ذكر في أبيات سابقة، والمرت: «أرض مستوية لانبت بها»: (العكبري ٢/ ٨٣٣). وعساقيل السراب: قِطَعُه لا واحد لها، وقيل: جمع عُسْقول. (انظر: ابن منظور: (عسقل)). والوغر: الصوت وجاء في (م. ن: (وغر)): «والألف في آخره للإطلاق»، يقصد في كلمة «حادينا»، أي أنها جمع «حاد»، غير أنه يجوز أن يكون الحادي واحداً هاهنا، و«نا»: ضمير المتكلمين، كما قال قبل هذا البيت: «أرى منازل ليلى لاتحيينا».

(٦) انظر: ديوانه: (٦٤/٩٦) = (ط. TÜREK: ٦٤/٣٧).

وأقربها إلى الشاعر القديم[1].

ويرد ذكرها عنده في وصف الرحلة، وجدّ السفر في سواد الليالي الطوال، أو قيظ الأيام المشمسة، إذ ينفّرها مبكّراً[2]، أو يشاركها وإبله في الهواجر الاستظلال بالأشجار حين «تَوَسَّدُ أَلْحِي العيس أجنحةَ القطا»[3]، وكأنها قد اتخذها رمزاً لحياة الجدّ والجَلَد.

ومن الطيور ما اتخذته العرب رمزاً للقوة، وهي الجوارح: كـ(النسر)، و(العقاب)، و(الصقر)، و(البازي). ومنها ما اتخذته رمزاً للضعف: كـ(البغاث)، و(الحبارى)، ونحوهما. فالنسر في شعر (ابن مقبل) يلازم معنى القوة والحرب، وكذا الصقر. ومن ذلك قوله، في هجاء (الأخطل)[4]:

فأخطلُ إنْ تَسمَعْ خَواتِيَ تَوَقَّني ... كما يَتَّقِي فَرْخُ الحُبارَى منَ الصَّقْرِ
شَهِدْتَ فلم تَحْفَظْ لقَوْمِكَ عَوْرَةً ... ولم تَدْرِ ما أُمُّ البُغاثِ منَ النَّسْرِ

والصقر مما استخدموه للصيد، ولعل أشهر صيده الحبارى، كما يشير الشاعر في بيته الأول، ولكنهم قد يطلقون اسم الصقر على كل طائر يصيد، عدا النسر والعقاب[5].

وقد شبّه بهذه الجوارح - جملةً - ملكاً مستكبراً، فقال عنه[6]:

---

(١) انظر: السديس: القطا في اللغة والشعر العربي القديم (مجلة كلية الآداب - جامعة الملك سعود، م ١٢، ع ١، ١٩٨٥م: ص ١٢).
(٢) انظر: ديوانه: (١/١٥٨) = (ط. TÜREK: ١/٦٤).
(٣) انظر مثلاً: م.ن: (٢٤٥/٢٩-٣٠) = (ط. TÜREK: ١٠٠/٢٨-٢٩).
(٤) م.ن: (١٠٩/٨-٩) = (ط. TÜREK: ٤٢/٨-٩).
(٥) انظر: كشاجم: ٨٤، والصيد والطرد عند العرب: ٣٤.
(٦) ديوانه: (١٠/٩) = (ط. TÜREK: ٥/٩).

بدا كعَتِيْقِ الطَّيْرِ قاصِرَ طَرْفِهِ ... مُسَرْبَلَ دِيْباجِ القَمِيْصِ المُطَيَّبِ(☆)

وبانقضاض الصقر «القُطاميّ» يشبّه سرعة الفرس، كما مر في مثال سالف[1]. ولأنه موصوف بحدة البصر قال، في حِسٍّ تعويضيّ عن عَوَره، يفخر بإبصار عينه[2]:

راقَتْ على مُقْلَتَي سُوْذانِقٍ خَرِصٍ ... خاوٍ، تَنَفَّضَ من طَلٍّ وأَمْطارِ(☆٢)

وفي صورة حركية معبّرة عن ظلّ جناحي (مَضْرَحِيّ) - وهو الصقر، وقيل: النسر[3]- قال[4]:

وظِلٍّ كَظِلِّ المَضْرَحِيِّ رَفَعْتُهُ ... يطيرُ إذا هَنَّتْ لَهُ الرِّيحُ طائِرُهْ(☆٣)

فصوّر حركة ذلك الظل بحركة ظل المضرحي الطائر.

وهكذا فقد جاءت الطيور الجارحة تعبّر عنده عن العِظَم والقوة، بمختلف معانيها الحسية والنفسية.

ومن الطيور في شعره: (الغُراب)، غير أنه لا يذكره على نحو مباشر فيما

(☆) عتيق الطير: الجوارح منها. قاصر طرفه: أي لا يمدّه لِكِبْرِه. (انظر: ابن فارس: المجمل: (عتق))، و(ابن قتيبة: المعاني: ٤٧٤).

(١) راجع: أ - ٢ - الخيل.

(٢) ديوانه: (٥/١١٣) = (ط. TÜREK: ٥/٤٥).

(☆٢) راقت: زادت. وسوذانق: صقر، فارسي معرّب، وهو بالفراسية: «سَوْذَناه». خاو: جائع. والخَرِص: الذي يجد البرد مع الجوع، (انظر: ابن منظور: (روق)، و(سلق)، و(خرص))، وفي (ط. TÜREK): «حصر». وتلمح من الفخر بالعين في هذا البيت مع سابقه إشارة إلى عَوَرِهِ، تعكس إحساسه النفسي بهذا النقص.

(٣) انظر: ابن منظور: (ضرح).

(٤) ديوانه: (١٥/١٥٦) = (ط. TÜREK: ١٥/٦٤).

(☆٣) ظل رفعته: كأنه يقصد أنه عمل ظلة يستظل بها أصحابه المذكورون بعد هذا البيت، حيث قال بعده «البيض الوجوه أدلجوا كل ليلهم...»، وذهب (عزة حسن) إلى أنه يريد بالظل ناقته، شبهها بظل المضرحي لسرعتها. هنّت: حنّت وقوله «يطير طائره»: أي أن ذلك الظل معمول من الثياب، فهو يتحرك مع الريح، كما قال في بيت آخر: (٢٦١/٢٧) = (ط. TÜREK: ١٠٦/٢٧):

وظِلالِ أَبْرادٍ بَنَيْتُ لِفِتْيَةٍ ... يَخْفِقْنَ بينَ سَوافِلٍ وعَوالي

اعتادت العرب ذكره فيه، من مواقف البَين والتشاؤم، وإنْ كان يومئ في إحدى صوره إلى ما يشبه تحدّي رمزيته تلك؛ بمجازاة البَين بالبَين، وذلك في حديثه عن ناقته المسافرة بليل، التي بلغ من ارتفاعها أنها تساور عشاش هذا الطائر المرتفعة[1].

أما (البوم) أو (الصدى)، فجاء في فخره بقطع المهامه الموحشة، غير خَوّار إذ يسمع تجاوب الأصداء بالسَّحَر[2]. وقد كان هذا الطائر عند العرب رمزاً للشؤم ونذيراً بالهلاك، ولهم فيه اعتقادات أسطورية، مضى تبيانها[3].

وجاء (الهُدهُد) في كلامه على الأرض اليباب التي قطعها في شدة الحرّ والجفاف، وقد نشفت أداوى الماء وانطوت، والهداهد تصيح في الأودية القفر[4]، وقد قيل إذا فُقد الماء في البريّة دلّ عليه الهدهد؛ لأنه إذا نقر وجه الأرض عرف ما بينه وبين الماء[5]. ولعل الشاعر إلى ذلك كان يشير.

وجميع هذه الطيور ما تزال موجودة في الجزيرة العربية - بتفاوت - في هذا العهد[6].

ومن الطيور في شعره: (القَواري الخُضْر)، جمع القارية، وهو طائر أخضر اللون، أصفر المنقار، طويل الرجل، تحبّه العرب وتتيمّن به، وتشبّه به الرجل السخيّ[7]. وقد جاء عنده في وصف الأمطار والخصب، موحياً بتلك النظرة العربية، حينما قال[8]:

(١) انظر: ذيل ديوانه: (٤٠٩/٤) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٦١/١٦٢).
(٢) انظر: ديوانه: (٧٩/٢٣) = (ط. TÜREK: ٣٢/٢٣).
(٣) راجع: ب١ ف١: جـ - ٥ - البوم.
(٤) انظر: ديوانه: (٥٩/١٤) = (ط. TÜREK: ٢٤/١٤).
(٥) انظر: الراغب: المحاضرات: ٤/٦٧٨.
(٦) وانظر: أبا العلا: ٢/١٤٠.
(٧) انظر: الجوهري، وابن منظور: (قرا)، وكراع: ٩١.
(٨) ديوانه: (٣١/٢٢) = (ط. TÜREK: ١٣/٢٢).



لِجَوْنٍ شَآمٍ كلَّما قُلْتُ قد مَضَى ... سَنا، والقَواري الخُضْرُ في الماءِ جُنَّحُ[☆]

ومنها: (ابن الماء)، نوع من الطير[١]. وطير الماء من أهم صيدهم، حتى قيل: إن أكثر صيد الصقر عندهم كان طير الماء والأرانب[٢].

وأحياناً يجيء الطير في شعره بلا تحديد، فيكون معبّراً في بعضه عن المكان الوعر الذي لا ترتاده إلّا الطيور[٣]، أو عن الخصب والأمطار الغزيرة[٤]، أو على العكس من ذلك حينما يوظّفه لتصوير حالة الجدب وشدة الزمان، كقوله[٥]:

إذا الطيرُ أمستْ وهي عُبْسٌ جَوانِحٌ ... فُوَيْقَ بُيوتِ الحَيِّ تَهْفُو وتَخْطَفُ

وجاءت مبشِّرة بالغارة، التي ستحظى بطعام من لحوم قتلاها[٦]:

جَدَّتْ قَرِينَتُهُمْ على ما خَيَّلَتْ ... وغَدَتْ تُبَشِّرُ طَيْرُهم بغِوارِ[٢☆]

كما سجّل في أحد أبياته ما كانت الإبل تتعرض له من بعض الطيور، حيث قال، واصفاً ناقة[٧]:

غَدَتْ عن جَبِينٍ تَمْزُقُ الطيرُ مَسْكَهُ ... كمَزْقِ [اليَماني] السَّابِريَّ المُقَدَّدا[٣☆]

(☆) بجون: أي سحاب أسود، وهو للمطر. سنا: أضاء. جنّح: من جنح الطائر إذا كسر من جناحيه، ثم أقبل كالواقع اللاجئ إلى موضع. (انظر: ابن منظور: (سنا)، و(جنح)).

(١) انظر: ديوانه: (٨/١٣١) = (ط. TÜREK: ٥/٥٢).

(٢) انظر: كشاجم: ٨٤.

(٣) انظر: ديوانه: (١٩/١٣٤) = (ط. TÜREK: ١٩/٥٤).

(٤) انظر: م.ن: (١٨/١٤٦) = (ط. TÜREK: الملحق: ٤٣/١٤٥).

(٥) م.ن: (٤٣/١٩٨) = (ط. TÜREK: ٤٣/٨١).

(٦) م.ن: (١٥/١٢٢) = (ط. TÜREK: ١٥/٤٩).

(٢☆) القرينة: النفس، أي أنهم أخذوا بالجدّ استعداداً للغارة. على ما خيلت: أي ظنت. والغوار: مصدر غاور، أي الغارة. (انظر: ابن فارس: المجمل: (قرن))، و(ابن منظور: (غور)).

(٧) ديوانه: (٢٦/٦٧) = (ط. TÜREK: ٢٦/٢٧).

(٣☆) مسكه: أي جلده. واليماني: أي التاجر اليماني. والسابري: من الثياب الرقاق، وهو من أجود الثياب. المقدد: المشقق. (انظر: ابن فارس: المجمل: (مسك))، و(ابن منظور: (سبر)).

ولئن كان قد استعمل (بيض النعام) في وصف المرأة فيما مضى عرضه من شعره، فلقد استعمل (البيض) في سياقات أخرى، منها: رحلة الظعائن، التي مرّت بوادٍ قد ضَمّ به شجرُ الأراك (بيضَ الهدهد)، كضمّ الميت في الكفن[1]، في إيحاء بالموات والفقد، لا سيما للمفارقة الناشئة عن كون الهدهد بشير الماء، كما مرّ في ذِكْره. ومنها: (بيض الأَنُوق)، الذي رمز به لبُعد حبيبته وتعذّر اللقاء بها، حيث عُرف عن (الأنوق) - وهو الرَّخَمَة - إحراز البيض في رؤوس الجبال، حتى قيل: «أعزّ من بيض الأنوق»[2].

د - الزواحــــف:

من الزواحف في شعره: (الأفاعي). وعلى الرغم من قلّة ذكرها في شعره فإن كثرتها في الجزيرة العربية اليوم - وبخاصة الكوبرا[3] - تحمل على الاعتقاد بأنها كانت في زمن الشاعر أكثر منها اليوم، استناداً على ما رأينا من أن الجزيرة قديماً كانت - في العموم - أغنى بالحيوان من واقعها الحاضر. وقد أتت مصوِّرة شدة الزمان مع كَلَب الشتاء القارس، حين قال، ممتدحاً كرم (بني الخليع) في مثل تلك الظروف القاسية[4]:

مَقارٍ حينَ تَنْكَفِئُ الأَفاعِي ... إلى أَجْحارِهِنَّ منَ الصَّقِيعِ[☆]

ووردت كذلك في وصف الإبل، التي تشرب جميع ما في الحياض من الماء، مع أن البرد والجليد لشدته يحبس الأفاعي في أجحارها[5].

(١) انظر: ديوانه: (١١/٣٠٤) = (ط. TÜREK: ١١/١٢٣).
(٢) انظر: الميداني: ٢/٤٤.
(٣) انظر: أبا العلا: ١/٦٢.
(٤) ديوانه: (٢٨/١٦٥) = (ط. TÜREK: ٢٨/٦٨).
(☆) مقار: جمع مِقْراء، وهو الذي اعتاد أن يطعم الضيفان ويكرمهم. (انظر: ابن منظور: (قرا)).
(٥) انظر: ذيل ديوانه: (٥/٤٠٩) = (ط. TÜREK: لم يذكر).



و(الحناتم الحارية): هي الأفاعي السود التي قد كبرت ونقص جسمها من الكبر، فلم يبق منها إلا الرأس والنفس والسم. وقد شبّه بها رؤوس المطايا المبتلّة بالماء، فيما يبدو على علاقة بالأسطورة الزاعمة بأن الحية كانت في الأصل جَمَلاً لاطه الله بالأرض. وقد تقدّم بيان ذلك[1].

و(الحِرْباء): ذكر (أُمّ حُبَيْن)، دويبة أعظم من الوزغ، بطيء الحركة، منضغط الجسم من الجانبين، ذو رأس مثلث، وظهر محدّب، وذنب بطول الجسم تقريباً، يقبض به على الغصون، وعيناه كبيرتان يستطيع تحريك كلٍّ منهما في اتجاه يختلف عن اتجاه الأخرى، قيل: إنه إذا انتصف النهار علا في رأس شجرة كراهبٍ في صومعة، واستقبل الشمس، فيكون معها كيف دارت، يقال: إنما يفعل ذلك ليقي جسده برأسه، ويتلوّن ألواناً بحرّ الشمس، ليشابه ما يحيط به في اللون[2]. وقد سجّل الشاعر صورة استقبال الحرباء الشمس، فيما كان يصف رحلته في شدة حرّ الظهيرة، فقال[3]:

... أَنّيَ أَنْفَرُ قامُوصَ الظَّهِيرَةِ، والـ   حِرْباءُ فوقَ فُروعِ السَّاقِ يَمْتَصِعُ(☆)

ومن الزواحف المذكورة في شعره: (الضَّبّ)، جاء مرة فريدة. وما قيل عن نسبة وجود الثعابين في جزيرة العرب قديماً وحديثاً يقال عن الضَّبّ؛ فكثرته اليوم تبعث عن اعتقاد كثرته على عهد الشاعر، وإن لم يأت إلا مرة واحدة في

(١) راجع: ب١ ف١: جـ - ١.
(٢) انظر: ابن منظور: (حرب)، و(عظي)، وخياط: (حرب).
(٣) ديوانه: (٣٧/١٧٨) = (ط. TÜREK: ٣٧/٧٣).
(☆) قامرص: قد يعني به الجراد، وفي (ابن منظور: (قمص)): «القَمَص: الجراد أول ما يخرج»، وقال (عزة حسن): «لم تذكره كتب اللغة»، ولم نقف عليه. ويمتصع: قال (عزة حسن): «أي يحرك ذنبه ويضطرب ولم تذكره كتب اللغة أيضا»، ولم نقف عليه بهذا اللفظ، ولكن لعله أراد بـ«يمتصع»: أنه يتلوّن في الشمس كما ذُكر في وصفه، وقد استعمل كلمة «ماصع» مرتين في شعره بمعنى «متغيّر»، واصفاً لون الماء: (انظر: ديوانه: ١٠/١٢٥، ١٧/٢٢٩) = (ط. TÜREK: ١٠/٥٠، ١٧/٩٤)، وفي (المعافري: ٤/١٥٢): «مَصَعَ الشيء مُصُوعاً [ومَصْعاً]: بَرَق، ومَصَعَ أيضاً: تغيّر لونه».

شعره. فقد وصف السحاب، الذي لم تترك مياهه للضِّباب مدّخلاً تأويه، فقال[1]:

فغادَرَ مَلْحُوياً تُمَشّي ضِبابُهُ　　　عَباهِيلَ، لم يَتْرُكْ لها الماءُ مَحْجَرا

وهو إنما خص الضَّبَّ دون غيره في هذا البيت، للدلالة على شدة غزارة تلك الأمطار وبالغ تأثيرها؛ ذلك أن الضَّبَّ يوصف بالكَيس؛ لأنه لا يبني بيته إلا على رابية، خشيةَ السيل[2]، ومع هذا فقد أدركه السيل.

هـ - البرمائيـــات :

منها في شعره: (الضفادع). جاءت في إشارة عابرة، معرضَ كلامه على ماء ضحل ورده حمار الوحش وأتانه، حيث قال[3]:

فأَوْرَدَها معَ الإبْصارِ ضَحْلاً　　　ضَفادِعُهُ تَنِقُّ على الشُّرُوعِ

و - الحيتـــان :

فيما مضى وقفنا على علاقة العرب بالبحر قديماً[4]، تلك العلاقة التي قد تعلّل عدم اهتمام الشاعر بالبحر وحيواناته. إذ لم يأت في ديوانه شيء من ذلك سوى (حيتان البحر)، التي ذكرها في أحد أبياته، محذّراً من نَوبة الدهر، التي لا ينجو منها كائن، حتى البحر وحيتانه[5]:

ألم تَرَ أنَّ البَحْرَ يَضْحَلُ ماؤُهُ　　　فتأتي على حِيتانِهِ نَوْبَةُ الدَّهْرِ

وأغلب الظن أنه يعني بالحيتان في هذا البيت تلك المخلوقات البحرية

---

(١) ديوانه: (٧/١٣١) = (ط. TÜREK: ٧/٥٢).
(٢) انظر: الراغب: المحاضرات: ٤/٦٨١.
(٣) ديوانه: (١٩/١٦٣) = (ط. TÜREK: ١٩/٦٧).
(٤) راجع: ب٢ ف١: هـ - المياه.
(٥) ديوانه: (١٠/١٠٩) = (ط. TÜREK: ١٠/٤٣).

الهائلة وليس السمك المعروف؛ وذلك مبالغة في تصويره نوبة الدهر.

ز - الحشـــــرات :

أكثر الحشرات في شعره (الذباب)، جاء تسع مرات، ولا غرو فالجزيرة العربية مذبوبة إلىاليوم[1]، إضافة إلى أن الذباب عنده يشمل بعضاً من أصناف الفصيلة الذبابية: كالنحل، والنُّعَر.

وقد جعله رمزاً للخصب ست مرات، حينما وصف الرياض الغناء، التي يغنِّي فيها الذباب، علامة على خصبها ونعمتها، والشاعر يعني بالذباب في بعض هذا السياق: (النُّعَر)، أو (النحل)، فمن ذلك قوله ، عن (زينب)[2]:

طَرَقَتْ برَيّا رَوْضَةٍ وَسْمِيَّةٍ غَـرِدٍ بـذابِلِـها غِـناءُ ذُبـابِ

والنُّعَر: جمع النُّعَرَة، ذباب ضخم أزرق العين أخضر، له إبرة في طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة، وربما دخل في أنف الحمار أو الفرس، فينزو ويركب رأسه ولا يرده شيء[3]؛ قال في وصف فرسه[4][☆]:

تَرَى النُّعَراتِ الخُضْرَ تحتَ لَبانِهِ فُرادَى ومَثْنَى أَصْعَقَتْها صَواهِلُهْ
فَرِيساً ومَغْشِيّاً عليه كأنهُ خُيُوطَةُ مارِيٍّ لَواهُنَّ فاتِلُهْ

---

(١) وانظر: أبا العلا: ١/ ٦٢.
(٢) ديوانه: (٢/ ٤) = (ط. TÜREK: ١/ ٤).
(٣) انظر: الجوهري، وابن منظور: (نعر)، والمرتضى: ٢/ ١٩١، وتهذيب الأزهري: ٢/ ٣٤٢، وأضداد الأنباري: ٣٠٢، والعكبري: ٢/ ٧٧٧-٧٧٨.
(٤) ديوانه: (٢٥٢-٢٥٣/ ٥٣-٥٤) = (ط. TÜREK: ١٠٣/ ٥٢-٥٣).
(☆) لبانه: صدره. أصعقتها: غُشي على بعضها وقُتل الآخر. وصواهله: جمع صاهلة، مصدر على فاعلة بمعنى الصهيل، وهو الصوت. (انظر: تهذيب الأزهري: ٦/ ١١١). وهذا البيت نسبه (المعافري: ٣/ ٤١٦) لـ(ذي الرمة). فريس: أي مقتول. وفي (ابن قتيبة: المعاني: ١٠٦): «الماري: الكساء الذي له خيوطة مرسلة، والخيوطة: الخيوط، شبه النعرات للخطوط التي فيها بهذا الكساء المخطط بسواد وبياض، ويقال: الماري: صائد القطا، شبهها بالخيوط التي تكون في شبكته، والقطاة يقال لها: مارية»، والشاعر في البيت قد شبه تلك الذبابات الصريعة بخيوط الكساء الماري المهدّب، التي لواها فاتلها حتى صارت عُقَداً في طرف الكساء، أي أنه يقول: إن هيئة تلك الذبابات الصريعة تشبه تلك العقد الصغيرة التي في طرف الماري.

قال (الجاحظ)[1] - عن مثل هذه الصورة -: «يصيح الحمار فتُصعق [منه] الذبابة فتموت».

وكأن ريق (دهماء)، لحلاوته وبرودته، عسل النحل ممزوجاً بالثلج[2]:

كأن على فِيها جَنَى رِيقِ نَحْلَةٍ ... يُباكِرُهُ سارٍ منَ الثَّلجِ أَمْلَحُ(☆)

ومن الحشرات في شعره: (الأزرق الأصفر السربال)، ويعني به الفراشة. وقال (ابن قتيبة)[3]: «يقال: هو اليَسروع، وهو يكون في الخصب، ويقال: إن اليسروع إذا سلخ صار فراشة»، وأورده الشاعر في معنى خصب روضة وبهجة ألوانها، إذ قال[4]:

والأزرقُ الأصفرُ [السِّرْبالِ] مُنْتَصِبٌ ... قِيدَ العَصا فوقَ ذَيّالٍ منَ الزَّهَرِ

و(الدَّبا): صغار الجراد، قبل أن يطير، وهو صغار النمل أيضاً[5]. وقد شبّه بمكان دبيبه في أرض مستوية صلبة، سيوف قومه الصافية الخالصة من الأوشاب، فقال[6]:

ومُخْلَصَةً بِيضاً كأن مُتُونَها ... مَدَبُّ دَباً طِفْلٍ تَبَطَّنَ جَدْجَدا(☆٢)

أي أنها لصفائها لا تكاد تُرى فيها آثار، مثلما أن الأرض المستوية الصلبة لا تكاد ترى فيها آثار الدبا الصغير.

---

(١) الحيوان: ٧/ ٢٣٢.
(٢) ديوانه: (١١/٥٠) = (ط. TÜREK: ١١/٢٠).
(☆) أملح: قيل: الأبيض الذي ليس بخالص البياض، وقيل: الأبيض النقي البياض، ولعل الأخير أرجح هاهنا (انظر: ابن منظور: (ملح)).
(٣) المعاني: ٦٠٧.
(٤) ديوانه: (٦٣/٩٥) = (ط. TÜREK: ٦٣/٣٧).
(٥) انظر: ابن منظور: (دبي).
(٦) ديوانه: (٣١/٦٩) = (ط. TÜREK: ٣١/٢٨).
(☆٢) جدجد: أرض صلبة مستوية. (انظر: الجوهري، وابن منظور: (جدد)). وتبطّن جدجدا: أي سار فيه.

وجاء (قاموص الظهيرة) في تباهيه بالرحلة في شدّة الحرّ، ولعله يعني بالقاموص الجراد أول ما يخرج، كما سلف[1].

و(القَرَنْبى): «دويبة فوق الخنفساء ودون الجعل، وهو والجعل يتْبعان الرَّجل إلى الغائط»[2]. شبّه العرب بدبيبه دبيب الرجل إلى المرأة للجنس[3]، وكذلك فعل (ابن مقبل)، فاخراً بعفته عن جاراته، في قوله[4]:

ولا أَطْرُقُ الجاراتِ بالليلِ قابعاً　　قُبُوعَ القَرَنْبى أَخْطَأَتْهُ مَحافِرُهْ[☆]

و(أولاد السمال): بنات الماء، أي الدَّعاميص، جمع دُعْمُوص: دويبة تكون في مستنقع الماء، وقيل: دودة لها رأسان، تراها في الماء إذا قلّ[5]. شبّه بها النعاج حيث قال[6]:

كـأن نِـعـاجَـهـا بِـلِـوَى سُـمارٍ　　إلى الخَرْماءِ أولادُ السَّمالِ[☆٢].

ولعل القارئ يقدّر بعد هذا العرض لأصناف الحيوان في شعر (ابن مقبل) تلك المنزلة الكبيرة التي كانت للثروة الحيوانية والحياة الفطرية في حياة العرب وشعرهم.

□ □ □ □ □

(١) راجع البيت وشرحه في: د - الزواحف.
(٢) الجاحظ: الحيوان: ٢٣٨/١.
(٣) انظر: ابن منظور: (قرنب).
(٤) ديوانه: (٨/١٥٤) = (ط. TÜREK: ٨/٦٣).
(☆) في (المعافري: ٢/ ١٠٣): «ولا أتبع». والقبوع: الاجتماع والتقبض، وهو من الإنسان أن يُدْخِلَ رأسه في قميصه أو ثوبه. (انظر: الجاحظ: الحيوان: ١٣٨/١)، و(ابن قتيبة: المعاني: ٦٢٨)، و(تهذيب الأزهري: ١/ ٢٨٣). أخطأته محافره: أي ضل مأواه. «يقول: لا آتي الجارات ليلاً لريبة مستخفيا»: (ابن قتيبة: م.ن).
(٥) انظر: ابن قتيبة: المعاني: ٦٨٢، وابن منظور: (دعمص).
(٦) ذيل ديوانه: (٣٩١/ ٤٠) = (ط. TÜREK: الملحق: ٨٦/١٥٠).
(☆٢) نعاجها: هذه رواية (ابن قتيبة: م.ن)، ورواية (الحموي: البلدان: (الخرماء)، و(سمار))، و(ابن منظور (سمل)): «سخالها»، وقد أورده (ابن قتيبة) بعد قوله: «وقال ابن مقبل وذكر نعاجا: ...». وسمار: رمل بأعلى بلاد قيس، طوله قدر سبعين ميلا. واللوى: منقطع الرمل. (انظر: ابن فارس: المجمل: (لوى)). والخرماء: أرض (لبني عبس ابن ناج) من عَدْوان. (انظر: الحموي: م.ن). والسمال: بقايا الماء في الغدران، (انظر: ابن قتيبة م.ن)، وفي (ابن منظور: (م.ن)): «السَّمال»: (بفتح السين)، وقال: «السَّمال: الدود الذي يكون في الماء الناقع».

الحيـوان(*)

(*) يشمل بعض صفاته وأسنانه وألوانه ونحو ذلك مما يتعلق به.
(أ) = حيوان أليف.
(ب) = برمائي.
(ح) = حشرة.
(ز) = زاحف.
(س) = سمك.
(ط) = طائر.
(ط.أ)= طائر أليف.

ما بين قوسين من الأرقام هو ما فيه وصف للحيوان، دون ذكر اسمه.
T ، م ، + ، ذ: (راجع فهرس النبت والشجر).

(خ)

(ن)

الفصل الرابع

المناخ والنجوم والكواكب

المناخ والنجوم والكواكب

أ - المنـــاخ :

تقع معظم أجزاء الجزيرة العربية في الإقليم المداري الحار، وهي - بصفة عامة - في نطاق الرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة ؛ ولهذا كان مناخها جافاً، ومتّصفاً بالقاريّة. وتهبّ على شمالها ووسطها الرياح الشمالية، والشمالية الغربية، وتارة الجنوبية، والجنوبية الشرقية، والجنوبية الغربية(١).

وقد حدّثنا (ابن مقبل) في شعره عن مختلف هذه الأحوال الجوية، فالشمال نذيرة البرد وشدة الشتاء، ويحلو له الفخر بكرم قومه ولعبهم الميسر في مثل هذه الظروف(٢)، على حين أن الجنوب تهب بـ«الهَيف» - وهي الرياح الحارة - على السحاب، الذي توزّعه ريح نجد أو «الصَّبا»؛ ومن هنا كانت الجنوب والصَّبا في شعر العرب فألاً للخصب والخير؛ يقول(٣)(☆):

تَأَمَّلْ خليلي هلْ تَرَى ضَوْءَ بارِقٍ   يَمانٍ، مَرَتْهُ ريحُ نَجْدٍ فَفَتَّرا

---

(١) انظر: أبا العلا: ٢/ ٦٤-٦٥، ٦٧-٦٨.

(٢) راجع: ب١ ف١: ب - ٢ - الميسر.

(٣) ديوانه: (١٢٩/١-٣) = (ط. TÜREK: ٥١-٥٢/١-٣).

(☆) مرته: استدرّت مطره. فتر: قال (حماد الراوية): «أي أقام وسكن»، وقال (الأصمعي): «مَطَرَ وفَرَّغَ ماءه وكفّ وتحيّر». (انظر: تهذيب الأزهري: ١٤/ ٢٧٢)، و(ابن منظور: (فتر)). غور تهامة: المنخفض بين الحجاز والبحر وما يلي اليمن. وشعفان: قرنان أحدهما أبيض يضرب إلى حمرة والآخر أسود في منبسط من الأرض يسمى (الحَزْم)، على بعد (٢٣ كيلاً) تقريباً شمال وادي (الحَزْمة)، وبينهما يمر الطريق بين (المويه الجديد) والحُزمة، وشعفان: معروفان باسمهما إلى اليوم، ويقال أيضاً: (شَعَف). (انظر: البكري: ما استعجم: ١٣)، و(الزمخشري: الأمكنة: ١٧٥)، و(ابن خميس: المجاز: ١٨٦)، و(ابن جنيدل: ٢/ ٨١٤ وما بعدها). يقول: إن هذا السحاب أمطر بغور تهامة، ثم لما أتى جهة شعفين فترت عن سوقه الريح فسكن وأمطر. الرباب: السحاب الذي تراه كأنه متعلق بالسحاب. والرئال: جمع رأل، وهو فرخ النعام. شبه بها، قد تكسّر بيضها، قطع السحاب. (انظر: ابن دريد: وصف المطر ١٩)، و(ابن فارس: المجمل: (رأل)).

مَرَتْهُ الصَّبا بالغَوْرِ غَوْرِ تِهامَةٍ ... فلمّا وَنَتْ عنه بشَعْفَيْنِ أَمْطَرا
يَمانِيَةٌ تَمْرِي الرَّبابَ كأنهُ ... رِئالُ نَعامٍ بَيْضُهُ قد تَكَسَّرا

وقد تحدث الشاعر عما كانت الأمطار تحدثه من الآثار، كقوله مثلا[1]:

فأمْسَى يَحُطُّ المُعْصِماتِ حَبِيُّهُ ... وأَصْبَحَ زَيّافَ الغَمامَةِ أَقْمَرا
كأن بِهِ بينَ الطَّراةِ ورَهْوَةٍ ... وناصِفَةِ الضَّبْعَيْنِ غاباً مُسَعَّرا
فغادرَ مَلْحُوباً تُمَشِّي ضِبابُهُ ... عَباهِيلَ، لم يَتْرُكْ لها الماءُ مَحْجَرا
أَناخَ بِرَمْلِ الكَوْمَحَيْنِ إناخَةَ الـ ... ـيماني قِلاصاً حَطَّ عنهنَّ أَكْوُرا

وقال[2](☆):

وبات يَحُطُّ العُصْمَ من أَجْبُلِ الحِمَى ... وهَمَّتْ رَواسي صَخْرِهِ أنْ تَحَدَّرا
وغادرَ بالتَّيْهاءِ من جانبِ الحِمَى ... من الماءِ مَغْمُورَ العَلاجِيمِ أَكْدَرا

وفي مقابل هذه الصورة التدميرية للمطر، استعمل السحاب في وصف جمال المرأة، فشبّهها بالمزنة، وشبّه ضحكتها ببرق السحاب الأغرّ، وريقتها بقريح سحابة بارد[3]:

وكأنها اغْتَبَقَتْ قَرِيحَ سَحابَةٍ ... بِعَرَى تُصَفِّقُهُ الرِّياحُ زُلالِ

في إشارة إلى ما كان في الرياح لهم من تصفية المياة وتبريدها، ولا سيما (الشمال) الباردة.

---

(١) ديوانه: (١٣٠-١٣١/٥-٧، ١٠) = (ط. TÜREK: ٥٢-٥٣/٥-٧، ١٠).
(٢) م.ن: (١٤٥-١٤٦/١٦-١٧) = (ط. TÜREK: ٥٩/١٦-١٧).
(☆) التيهاء: المفازة يتيه الإنسان فيها. والحمى: حمى ضرية. العلاجيم: جمع عَلْجَم، وهو الغدير الكثير الماء. (انظر: ابن فارس: المجمل: (تيه))، و(ابن منظور: (علجم)). يقول إن مياه الأمطار غمرت الغدران وكدّرتها.
(٣) ديوانه: (٢٦٠/٢٣) = (ط. TÜREK: ١٠٦/٢٣).

كما شبّه جري العير بـ(الديمة)، بينما جري الفرس بـ(الوابل)[1]. وفي ظاهرة اقتران الفرس بالماء عند الشاعر القديم، ما لفت بعض الدارسين إلى العناية بها، ومحاولة تفسيرها على أساس ملاحظة رمز «الخيرية» في الماء والفرس، المتصل بالبعد الميثولوجي للاثنين في الثقافة القديمة[2].

وإذا كانت فروسية الفرس وَبْلاً، فإن للبلاغة فروسية وَبْلاً كذلك، ففي مقام الفخر بقدرته البلاغية في الردّ على الخصماء يقول[3]:

وخَطِيْبِ أَقْوامٍ عَبَأْتُ لنارِهِ مَطَرِي، فأَطْفَأَها بديْمَةِ وابِلِ[☆]

وبين قيمتي السلب والإيجاب تتدرج صورٌ أخرى مَطَرِيَّة، كتشبيهه بضحل الديمة السراب[4]. في حين جاء (الوسمي) - وهو مطر أول الربيع - في وصف روضة وسمية خصيبة[5]. ودعا بـ(السّماكي) - وهو مطر نوء نجم السماك، الذي سيأتي لاحقاً[6] - لحبيبته (دهماء)[7].

ومما سلف تَمْثُل رموز: العنف في الطبيعة، والخصب، والخير، التي جاءت السحب والأمطار مفصحة عنها في ديوان هذا الشاعر، على أنها قد جاءت أحياناً - مع الرياح - في صور الأطلال، فكانت معبرة عن العفاء، والدثور، بعد ما كان من الخير وحياة الاستقرار والنعيم.

---

(١) راجع: ف٣: أ - ٢ - الخيل.
(٢) انظر مثلاً: ناصف: ٧٥-٨٣، وانظر: ب٤ ف٣: ب - ٢ - ٤ من هذه الدراسة.
(٣) ديوانه: (١٢/٢١٩) = (ط. TÜREK: ١٢/٩٠).
(☆) الديمة: المطر لا يقلع أياماً، ليس فيه رعد ولا برق، وابل: مطر كبير القطر شديد الوقع. (انظر: الجوهري، وابن فارس: المجمل: (ديم))، و(ابن دريد: وصف المطر: ١٧).
(٤) انظر: ديوانه: (١٦/٥١) = (ط. TÜREK: ١٦/٢٠).
(٥) انظر: م.ن: (٢/٤-٥) = (ط. TÜREK: ١/٤-٥).
(٦) انظر: ب - النجوم والكواكب (من هذا الفصل).
(٧) انظر: ديوانه: (١٢/١٤٤) = (ط. TÜREK: ١٢/٥٩).

وهناك مظاهر أخرى للمناخ في شعره: كشدة الحر، والسراب، والجدب، والعجاج، وكحدة البرد والصقيع، غير أن الرياح، والسحاب، والأمطار، تحتلّ أكبر قدر من شعره في هذا الجانب. ولعل لهذا دلالته المناخية في ذلك العهد.

□ □ □ □ □

المنـاخ(*)

(أ)

(*) يشمل فصول العام والأزمنة التي لها علاقة بالمناخ.

(ب) = برد.
(ث) = ثلج.
(ج) = جدب.
(ح) = حر أو سراب.
(ر) = ريح.
(س) = سحاب.
(ص) = ضباب.
(غ) = غبار.
(ق) = رعد أو برق.
(م) = مطر.
(ن) = ندى.
T ، م ، + ، ذ ، ح : (راجع فهرس النبت والشجر: نهاية الفصل الثاني من هذا الباب).

(ض)

(ط)

(ظ)

(و)

وابل (م): ٢٥٠/ ٤٥T١٠٢/ ٤٤

= ديمة

وبل (م): ٣٢/ ٢٣T١٣/ ٢٣

٢٨٩/ ١T١١٦/ ١

وديقة = حامي

وسمي (م): ٢/ ٤T١/ ٤

(ي)

يصبح: ٢٦٢/ ٣٠T١٠٧/ ٣٠

٣١٩/ ١٤T١٣٠/ ١٤

يقيظ (ح): ١٨٠/ ١T٧٣/ ١

٢٢٠/ ١٦T٩٠/ ١٦

يمانية (ر): ١٢٩/ ٣T٥٢/ ٣

٢٠٧/ ٢T٨٦/ ٢

يوم: ١٥٦/ ١٦T٦٤/ ١٦

٢٣٠/ ٢٢T٩٤/ ٢٢

+ ذ ٣٧٦/ ٣-٤

+ آم ١٦٢/ ١٧٣

يوم الصيف (ح): ١٧١/ ١٢T٧٠/ ١٢

يوم قديديمة الجوزاء (ح): ٢٧٩/ ٤٥

T١١٣/ ٤٥

يوم ماطر (م): ٦٦/ ٢١T٢٧/ ٢١

ب - النجوم والكواكب:

أكثر ما جاء منها في شعره: (الشمس)، وهذا يوحي بدرجة تعلّق العرب بها في حياتهم قديماً؛ حيث تعتمد عليها مختلف نشاطاتهم، وتقوم عليها جميع تقديراتهم في حساب الزمن وتنظيم الأوقات. ولذلك كانت تأتي عند هذا الشاعر لتحديد الوقت أكثر من أي سبب آخر: «الشمس لمّا تغيّب»[(١)]، «حتى كادت الشمس تغرب»[(٢)]، «إذا الشمس أعرضت»[(٣)]، «وقد مات شطر الشمس والشطر مدنف»[(٤)]، «فأعجلتْ... حجاج الشمس أن يترجّلا»[(٥)]، «بعد ما دَفَعَنا شُعاع الشمس، والطرف مجنح»[(٦)]، «حتى يوافي قرنَ الشمس ترجيلُ»[(٧)]. وهكذا فقد اتخذ العربي قديماً من الشمس ساعته، التي يضبط بها الوقت ويقيسه، بقدرٍ من الدقة والإتقان.

هذا إلى موقعها من تصوّر الشاعر وخياله الفني، فقد رسم مثلاً لأشعة الشمس لوحة معبّرة حينما قال، مصوّراً مشهد الغروب[(٨)]:

وِلِلشمسِ أَسْبابٌ كأن شُعاعَها ... تَمَدُّ حِبالٍ في خِباءٍ مُطَنَّبِ[(☆)]

وفي لوحة أخرى شبّه إطلالة حبيبته (زينب) بطلوع قرن الشمس بعد الضباب، فقال[(٩)]:

---

(١) انظر: ديوانه: (٢/٨) = (ط. TÜREK: ٢/٤).
(٢) انظر: م.ن: (٢٨/١٧) = (ط. TÜREK: ٢٨/٩).
(٣) انظر: م.ن: (٢٣/٤٧) = (ط. TÜREK: ٢٣/١٩).
(٤) انظر: م.ن: (١٩/١٩٣) = (ط. TÜREK: ١٩/٧٩).
(٥) انظر: م.ن: (٨/٢٠٩) = (ط. TÜREK: ٨/٨٦).
(٦) انظر: ذيل ديوانه: (١٤/٣٦٠) = (ط. TÜREK: الملحق: ٢٨/١٤٣).
(٧) انظر: م.ن: (٢٩/٣٨٤) = (ط. TÜREK: الملحق: ٦٦/١٤٧).
(٨) ديوانه: (٣/٩) = (ط. TÜREK: ٣/٤).
(☆) أسباب: يريد أشعتها وقد مالت للمغيب. مطنّب: مشدود بالأطناب، وهي حبال الخباء التي تشد بالأوتاد واحدها طُنُب. (انظر: ابن دريد: وصف المطر: ٢٣). شبه هيئة أشعة الشمس عند الغروب بممد الحبال في الخباء المشدود إلى الأوتاد.
(٩) ديوانه: (٣/١٢) = (ط. TÜREK: ٢/١٢).

تَبْدُو لغِرَّتِنا، ويَخْفَى شَخْصُها ... كطُلُوعِ قَرْنِ الشمسِ بعدَ ضَبابِ[☆]

وفي تصوير كثافة الجيش من قومه، زعم أن الشمس كانت أدنى للكسوف؛ لما أثاره زحفهم من غبار المعركة[1].

ومن خلال هذه الإلمامة يظهر أن «الشمس» عند الشاعر كانت معبرّاً عن الزمن في المقام الأول، ثم معادلاً رمزيّاً وجماليّاً. وهو ما سيُدرس في الجزء المخصّص للصورة الفنية: (ب٤ ف٣).

ويأتي بعد الشمس (السّماكان)، وهما: نجمان نيّران، أحدهما الأعزل، والآخر: الرامح، وسمي الأعزل بذلك لأنه لا شيء بين يديه من الكواكب، كالأعزل الذي لا رمح معه، وقيل: لأنه لا يكون في أيامه ريح ولابرد، وهو من منازل القمر، ومن كواكب الأنواء إلى جهة الجنوب، أما الرامح: فليس من المنازل، ولا نوء له، وهو إلى جهة الشمال، وهما في برج الميزان، وطلوع الأعزل مع الفجر يكون في (تشرين الأول)، لخمس ليال يمضين منه، وسقوطه لأربع من (نيسان)، ونوءه أربع ليال، وهو غزير، قلّ ما يخلف[2]. ويجيء السّماك عنده في الكلام على الأمطار، وربما نسب النوء إلى السماكين معاً - كما فعلوا في الذراعين والشعريين - وهو يريد الأعزل[3]، كقوله[4]:

وغَيْثٍ مَرِيعٍ لم يُجَدَّعْ نَباتُهُ ... وَلَتْهُ أَهاليلُ السِّماكَيْنِ مُعْشِبِ

ثم (الجوزاء): وهي من بروج السماء، يقال: إنها تعترض في جَوْزِها، وقيل: سميت بذلك تشبيهاً بالشاة الجوزاء، وهي البيضاء الوسط. والجوزاء

(☆) الغرة: الغفلة، أي أنها تبدو إذا غفلت عينه عنها حياء.
(١) انظر: ديوانه: (٢٢/١٩٤) = (ط. TÜREK: ٢٢/٧٩).
(٢) انظر: ابن قتيبة: الأنواء: ٦٢-٧٠، وابن منظور: (سمك).
(٣) انظر: ابن قتيبة: م.ن: ٦٣، والبغدادي: شرح الأبيات: ٢/ ١٥١.
(٤) ديوانه: (١/٨) = (ط. TÜREK: ١/٤).

على صورة إنسان على كرسي عليه تاج؛ ولهذا تُسَمَّى «الجبّار»، وتعدّ في الكواكب اليمانية[(١)]. وقد شبّه كواكب الجوزاء بنوق عُوذ حننّ على حوار، كما سلف[(٢)]. وتَطْلُعُ الجوزاء في أشدّ ما يكون الحرّ[(٣)]؛ ولذلك قال، واصفاً فرسه[(٤)]:

يَثْنِي على حامِيَيْهِ ظِلَّ حارِكِهِ   يومٌ قُدَيْدِيمَةَ الجَوزاءِ مَسْمُومُ[(☆)]

وجاء في شعره (سُهَيل): وهو كوكب أحمر يمان، وكانوا يزعمون أنه كان عشّاراً ظلوماً على طريق اليمن فمسخه الله كوكباً، وطلوعه في قرب البرد بالغداة، عن يسار مستقبل قبلة العراق، ويطلع بالحجاز لأربع عشرة ليلة من (آب). وقيل: إنه يُرى في جميع بلاد العرب، وبين رؤية أهل الحجاز ورؤية أهل العراق إيّاه عشرون يوماً[(٥)]. وقد شبّه الشاعرُ به الثورَ الوحشي، في قوله، متحدثاً عن بقرة وحشية[(٦)]:

تُراعي شَبُوباً في المَرادِ كأنهُ   سُهَيلٌ بَدا في عارِضٍ من يَلَمْلَما[(☆٢)]

أمّا (الدَّبَران): فنجم بين الثريا والجوزاء أحمر منير، من منازل القمر،

---

(١) انظر: ابن قتيبة: م.ن: ٤٥، وابن فارس: المجمل، والزمخشري: الأساس: (جوز).
(٢) راجع: ب١ ف١: د - ١ - ٣.
(٣) انظر: التبريزي: شرح المفضليات: ١٣٤٨/٣.
(٤) ديوانه: (٤٥/٢٧٩) = (ط. TÜREK: ٤٥/١١٣).
(☆) «الحاميان: جانبا حافره. والحارك: فروع كتفيه، وإذا قام ظلّ كل شيء تحته، صار ظل الحارك على حامي حافره»: (ابن قتيبة: الأنواء: ١٤٥). قديديمة: في (ابن ميمون (مخطوط): الورقة: ٣٠/أ) بضم الأخر، تصغير قُدّام على أنها مؤنثة، وهو شاذّ لأن الهاء لا تلحق الرباعي في التصغير. ويوم مسموم: فيه سموم وهي ريح حارة، تكون بالنهار وقد تكون بالليل. (انظر: الأنباري: شرح المفضليات: ٨١٩)، و(الجوهري: (قدم))، و(ابن منظور: (سمم))
(٥) انظر: ابن قتيبة: الأنواء: ١٥٢-١٥٧، وابن منظور: (سهل).
(٦) ديوانه: (٧/٢٨٤) = (ط. TÜREK: ٧/١١٥).
(☆٢) الشبوب: الشاب هاهنا، يعني ثوراً وحشيًا. والمَراد: المكان الذي ترود فيه وترعى. والعارض: الجبل ولعله يعني هنا المكان البارز منه. ويلملم: جبل على ليلتين من مكة، من جبال تهامة، في طريق اليمن إلى مكة، وهو ميقاتهم. (انظر: ابن منظور: (شبب)، و(رود)، و(عرض))، و(البكري: ما استعجم: ١٣٩٨-١٣٩٩).

سُمِّي دبراناً لأنه يدبر الثريا، أي يتبعها، وقيل: الدبران خمسة كواكب من الثور، يقال: إنه سنامه، وطلوعه لِسِتّ وعشرين ليلة تخلو من (أيار)(١). وقد كان الدبران معبوداً في (بني تميم)(٢). وكان العرب يهتدون بالنجوم، ويسيرون بطلوعها وغروبها، كلما غرب نجم ركب واحد ونزل آخر(٣). فمن ذلك قوله(٤):

[وأَصْبَحْنَ لم يَتْرُكْنَ من ليلةِ السُّرَى   لذي الشَّوْقِ إلا عُقْبَةَ الدَّبَرانِ]

«كأنهم جعلوا لمدى سُراهم طلوع نجوم معلومة، وكان الدبران آخرها. فقضوا عقب تلك النجوم كلها، إلا عقبة الدبران فإنهم قطعوا السيرحين بلغوه، وكان المشتاق يهوى ألا يقطعوه»(٥).

وجعل غروب (النجم العراقي) دالاًّ على الوقت المتأخر من الليل، فقال(٦):

ولكنَّما ليلَى بأرضٍ غَريبَةٍ   تُقاسي إذا النَّجْمُ العِراقِيُّ غَوَّرا(☆)

وكذلك استخدم (الشِّعرى)(٧). وهو نجم يقال له: (المِرْزَم)، يطلع بعد الجوزاء، في شدة الحر، وهما الشِّعريان: العَبُور، التي في الجوزاء، والغُمَيْصاء، التي في الذِّراع، وتزعم العرب أنها أختا (سُهَيل)(٨). وقد كانت (قيس) تعبد

---

(١) انظر: ابن قتيبة: م.ن: ٣٧-٤١، والجوهري، وابن منظور: (دبر).
(٢) انظر: صاعد الأندلسي: ٤٣.
(٣) انظر: ابن قتيبة: م.ن: ١٨٦.
(٤) ديوانه: (٢١/٣٤٢) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٥٦/١٣٠).
(٥) المرزوقي: الأزمنة: ٢/٢٢٢.
(٦) ديوانه: (٣١/١٣٧) = (ط. TÜREK: ٣١/٥٥).
(☆) غوّر: غرب.
(٧) انظر: ديوانه: (٢٢/٣٤٣) = (ط. TÜREK: لم يذكر).
(٨) انظر: ابن منظور: (شعر).

الشعرى العبور كما تقدم[١].

عسى أن تكون اتضحت - عبر هذه الوقفة الاستقرائية مع الشاعر - ملامح من اعتماد العربي قديماً على النجوم والكواكب، وما كانت تمثّله في بيئته وترمز إليه في شعره.

وفي نهاية هذا المطاف في أرجاء الطبيعة في شعر (ابن مقبل)، تنبغي الإشارة إلى أن ما تقدم ليس سوى نماذج بارزة؛ إذ الطبيعة في شعره من الغنى بحيث نقدّر استئهالها دراسة مستقلة، أبعد غوراً واتساعاً وشمولا[☆].



(١) راجع: للدخل: ثانياً: ب.
(☆) ويمكن للاستزادة من بعض المعلومات أو الصور، حول ما قيل عن أجزاء الطبيعة، الاطلاع مثلاً على كتاب (غالب: الموسوعة في علوم الطبيعة: م ١-٢).

النجوم والكواكب والمنازل والبروج(*)

(ث)

ثريا: + T م ١٥٧/ ١٣٥

(ج)

جوزاء = قديديمة
= كواكب

(ح)

حجاج الشمس: ٢٠٩/ ٨T٨٦/ ٨

(د)

دبَران: ٣٤٢/ T٢١ م ١٥٦/ ١٣٠

(س)

سماك: ٣٢/ ٢٣T١٣/ ٢٣
١٤٤/ ١٢T٥٩/ ١٢
سماكان: ٨/ ١T٤/ ١
+ ٢٣٩/ ٣
سهيل: ٢٨٤/ ٧T١١٥/ ٧

(ش)

شعاع الشمس: ذ ٣٦٠/ ١٤Tم ١٤٣/ ٢٨
شعرى: + ٣٤٣/ ٢٢

شمس: ٣/ ١٢T٢/ ١٢
٨/ ٢T٤/ ٢
٩/ ٣T٤/ ٣
١٧/ ٢٨T٩/ ٢٨
٤٧/ ٢٣T١٩/ ٢٣
١٩٣/ ١٩T٧٩/ ١٩
١٩٤/ ٢٢T٧٩/ ٢٢
ذ ٣٨٤/ T٢٩ م ١٤٧/ ٦٦
= حجاج
= شعاع

(ط)

طمس الكواكب: ٢٧٠/ ١٥T١٠٩/ ١٥

(ق)

قديديمة الجوزاء: ٢٧٩/ ٤٥T١١٣/ ٤٥

(ك)

كواكب = طمس
كواكب الجوزاء: ١٤٨/ T٦٠/ ٨

(ن)

النجم العراقي: ١٣٧/ ٣١T٥٥/ ٣١
نجوم الليل: + ذ ٣٨١/ ١٩

(*) استدراك وتوسّع في الفهرس الذي عمله (عزة حسن) في طبعته للديوان.
ذ، +، T، م: (راجع فهرس النبت والشجر: نهاية الفصل الثاني من هذا الباب).

ثانياً - الحضارة

الفصل الخامس

الحضارة

الحضـــارة

لا يناقض مفهوم «الحضارة» هنا كون الشاعر ينتمي إلى البيئة البدوية، فلكل مجتمع حضارته المواتية، أيّاً ما كان مستواها، وقد حوى شعر (ابن مقبل) كثيراً من معالم الحضارة في عصره: كأدوات بناء البيوت، والأواني، والأطعمة، والأشربة، والثياب، والملبوسات، والحلي، والجواهر، والأطياب، وبعض أشياء الزينة، وأدوات الكتابة، والملاهي، والآلات، والأصباغ، وعُدَد المراكب والأسفار، والأسلحة، إلى غير هذا مما يمثّل التقنية العربية في زمن الشاعر.

١ - الأبنيـــــة :

لقد عني العرب ببيوتهم، حتى يقوها من الظواهر الطبيعية، فمن ذلك: (النؤي)، الذي يحيطون به بيوتهم، وقد يجعلونه بـ(الجيّار)، كما تقدم من قبل[١]. وكذلك كانوا يُعنون بمكان البيت وتوثيقه بالأطناب. وفي الحواضر كانت (الطرابيل): وهي المباني العالية تعمل بالحجارة[٢]. و(الآطام): وهي الحصون[٣]، لكن الشاعر نسبها إلى (الروم) في قوله[٤]:

بتُرْسٍ أَعْجَمَ لم تَنخَرْ مَناقِبُهُ ... مِمَّا تَخَيَّرُ في آطامِها الرُّومُ[☆]

---

(١) راجع: ب٢ ف١: هـ - المياه.
(٢) انظر: ديوانه: (٤١/٢٧٨) = (ط. TÜREK: ٤١/١١٣).
(٣) انظر: الجوهري: (أطم).
(٤) ديوانه: (٣٩/٢٧٧) = (ط. TÜREK: ٣٩/١١٢).
(☆) بترس أعجم: يصف فرساً شبه جسمه - في قوّته - بالترس، ويعني بالأعجم هاهنا الرومي، وخصّ تِرَسة الروم لأنها معروفة بكبرها وشدتها. (انظر: عزة حسن)، و(جواد علي: ٥/ ٤٣٤).

وفي بيت آخر نسب تشييد آطام الطين إلى فارس، فقال[(١)][(☆)]:

فِي كُلِّ ذلكَ يا كُبَيْشَ بُيُوتُنا   حِلَقُ الحُلُولِ ثَوابِتَ الأَطْنابِ
آطامُ طِيْنٍ شَيَّدَتْها فارِسٌ   عندَ السُّيُوحِ رَوافِدٍ وقِبابِ

أمّا بيوت الحميريين فكانت مبنية بـ(اللَّبِن)، كما قال، مفتخراً بالوفادة على ملوكهم ومدحهم[(٢)]:

بِبابِ المَقاوِلِ من حِمْيَرٍ   تُشَدَّدُ أَعْضادُهُ باللَّبِنْ[(☆٢)]

هذا إلى جانب تصوير بعض معابد النصارى، المبلّطة بليّاق البلاط، التي ينسبها إلى الأنباط. وكذا وصف الحياض وكيفية الحفاظ عليها. وغير ذلك مما مضى درسه[(٣)].

ب - النـــار:

لقد كانت للنار حيثيّتها من حياة العرب واعتقاداتهم. وقد عرضنا من قبل جانباً من ذلك في: نار المجوس، ونار الميسر، ونار الاستسقاء، ونار الأضياف، وغير هذه من استخدامات النار ومكانتها في حياة العرب[(٤)]. وهنا وقفة استكمال لذلك في إشارتين من شعر (ابن مقبل).

---

(١) ديوانه: (٤/١٩-٢٠) = (ط. TÜREK: ٣/١٩-٢٠).

(☆) الحلول: جمع حال، وهو المقيم. وحِلَق: جمع حَلْقَة، وهي الجماعة من الناس مستديرون كحلقة الباب، أي أنهم مجتمعون متحلقون. ثوابت: في (ط. TÜREK) برفع الأخر. والأطناب: جمع طنب وهو حبل الخباء ونحوه. (انظر: ابن منظور: (حلل)، و(حلق)، و(طنب)). والكلام كناية عن عزتهم ومنعتهم. السيوح: جمع السَّيح، وهو الماء الجاري. والقباب: قباب الأطام. (انظر: ابن فارس: المجمل: (سيح)). والشاعر في سياق هذين البيتين يتحدث عن حدود بيوت قومه، فذكر أنها من حمص إلى حضرموت، وهنا كأنه يقول: إنها تصل إلى نواحي العراق كذلك.

(٢) ديوانه: (٣٠٠/٤٥) = (ط. TÜREK: ١٢١/٤٥).

(☆٢) المقاول: جمع مِقْوَل، وهو القَيْل، ويعني بلغة أهل اليمن: الملك. وحمير: قبيلة من اليمن. أعضاده: أعضاد الباب، وعاضدتا الباب: الخشبتان المنصوبتان عن يمين الداخل منه وشماله. (انظر: ابن منظور: (قول)، و(عضد)).

(٣) راجع: ب١ ف١: د - ٣ - النصرانية، ب٢ ف١: هـ - المياه.

(٤) راجع: ب١ ف١: د - ٤ - المجوسية.

الأولى اعتمادهم عليها في الطبخ، إذ يستعملون لها «جزل الجذا غير خوّار ولا دعر»[1]، كـ(الغضى) ونحوه من الحطب الذي يحتفظ بالجذوة أطول وقت[2]. ويستقدحونها بـ(الزّنْد): باستخدام خشبتين، السفلى: زَنْدَة، وهي التي فيها الفُرْضَة، والعليا: زَنْد، وهي التي يقتدح بها النار[3]. حتى لقد اتخذوا «الزند الواري» كناية عن الكرم، في مثل قوله[4]:

فَرَّجْتُ عنه بِلا جافٍ ولا وَكَلٍ يومَ الحِفاظِ، كَرِيمٍ زَنْدُهُ واري[☆]

والثانية ما يذكره من أدوات استخدامها في (الإضاءة)، مستعملين (الذُّبالة) و(السَّلِيط)[5]:

بِتْنا بدَيْرةٍ يُضِيء وُجُوهَنا دَسَمُ السَّلِيطِ على فَتِيلِ ذُبالِ

إلى غير ذلك من الاستعمالات الثانوية الأخرى في شعره.

جـ - الآنيــــة :

تلفِتُ مستقرئ الآنية في هذا الشعر كثرة ما يتصل منها بالماء، كـ(الأداوى)، و(الدلاء)، ونحوهما مما يجلب به الماء أو يحفظ فيه. ولا غرو فكثرة أوانيها طبيعي، لا سيما في تلك البيئة الصحرائية، التي يغلب عليها الجفاف وحرارة الجو[6]، مع ازدياد الحاجة للماء لوجود الماشية، وعدم الاستقرار.

وقد استعمل الشاعر بعض هذه الأواني في صورٍ تراوح بين وجهي

---

(١) ديوانه: (٩١/٥٤) = (ط. TÜREK: ٣٦/٥٤).
(٢) راجع: ب٢ ف٢: ب - الأشجار.
(٣) انظر: ابن منظور: (زند)، والبغدادي: الخزانة: ٩/٢٤١.
(٤) ديوانه: (١٠٤/١٠) = (ط. TÜREK: ٤٠/١٠). وانظر كذلك: (١١٦/١٥) = (ط. TÜREK: ٤٦/١٥).
(☆) الجافي: غليظ الطبع. وكل: يَكِلُ أمره إلى غيره، يوم الحفاظ: أي يوم الحرب. يفخر بنصرة الصديق، وعدم التواني في بذل معروفه له.
(٥) ديوانه: (٢٥٧/١٣) = (ط. TÜREK: ١٠٥/١٣).
(٦) راجع: ب٢ ف٤.

الإيجاب والسلب الدلالي، مادياً ومعنوياً، في سياق الإشارة إلى قيمة السعة والعطاء تارة، والإشارة إلى الضيق والإمساك تارة أخرى. فمن ذلك قوله في الفرس[(١)]:

يَـزَعُ الـدَّارِعُ مـنـهُ مِـثْـلَ مـا ... يَزَعُ الدَّالِي منَ الدَّلْوِ الوَذِمْ[(☆)]

ويشبّه دموعه على الظُّعن «كالفسيل المكمّم» ببضيض الماء من (مزادة) واهية الكُلى متخرّمتها، في قوله[(٢)]:

تُبَادِرُ عَـيـنـاكَ الـدُّمُـوعَ كـأنها ... تَفِيضَانِ من واهِي الكُلَى مُتَخَرِّمِ[(٢☆)]

و(الغُمَر): القَدَح الصغير[(٣)]، تسقى فيه الخيل - الموصوفة بالعِتْق، وسبوطة الخدود، ولطافة الأفواه[(٤)] - اللبنَ[(٥)]؛ لأنها تضمّر[(٦)].

و(المِرْفَد): قَدَح ضخم، يقرى فيه الضيف[(٧)]. وقد كنى بعدم امتلائه بحَلْبة الناقة، عن الجدب وضيق ذات اليد[(٨)].

و(الكأس) في شعره تأتي بمعناها المعنوي لا المادي، في مثل قوله[(٩)]:

---

(١) ذيل ديوانه: (٩/٤٠٣) = (ط. TÜREK: الملحق: ١١٣/١٥٤).

(☆) يزع: يكف ويرفق. والدارع: لابس الدرع. الوذم: الذي انقطع وذمه، وهو السير الذي بين آذان الدلو وعراقيها تشدّ بها. أي أن الدارع يكف هذا الفرس لحدته ونزقه، كما يرفق الدالي بالدلو يخاف على أوذامها. (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ٥٦-٥٧)، و(ابن منظور: (وذم)). وأورده مؤلّف المعاني في كتاب الخيل، في «ما يشبّه به حدة نفسه ونزقه ونبض فؤاده».

(٢) ذيل ديوانه: (٢/٣٩٤) = (ط. TÜREK: الملحق: ٩١/١٥١).

(٢☆) الكلى: جمع الكُلْيَة، وهي جليدة مستديرة تحت عُرْوة المزادة قد خُرِزَت. (انظر: ابن فارس: المجمل: (كلوى)).

(٣) انظر: الجوهري: (غمر).

(٤) انظر: تهذيب الأزهري: ٤/ ٣٠٠.

(٥) انظر: ديوانه: (٤٣/٨٧) = (ط. TÜREK: ٣٥/ ٤٣).

(٦) انظر: ابن قتيبة: المعاني: ٨٩.

(٧) انظر: الجوهري: (رفد).

(٨) انظر: ديوانه: (١٧/٥٩) = (ط. TÜREK: ٢٤/ ١٧)..

(٩) م ن: (١٣/١٧١) = (ط. TÜREK: ٧٠/ ١٣). وكذلك انظر: (٣٠/٣٤٥) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٤١/١٥٧).

بل ما تَذَكَّرُ من كَأْسٍ شَرِبْتَ بها　　　وقد علا الرأسَ منكَ الشَّيْبُ والصَّلَعُ

وإذا كان قد اتخذ (القِدْر) الصغيرة - «ككفّ القرد» - رمزاً للشحّ، فيما سلف من شعره[1]، فهو قد جعل القدر العظيمة «المغطغطة» باللحم، رمزاً للجود، يفخر به في قومه[2]:

ولا تزالُ لهمْ قِدْرٌ مُغَطْغِطَةٌ　　　كالرَّأْلِ تَعْجِيلُها الأَعْجازُ والقَمَعُ[☆]

وكذلك ترد (الجفنة الجوفاء) الواسعة، يجلس إليها البؤساء، زمن الشتاء والقحط[3].

وفي هجائه الأخطل يعيّره بجدّه «سروق البرام»، وهي القدور[4].

و(المِسْطَح): «حصير يسفّ من خوص الدوم»[5]، ومنه تشبيهه[6]:

إذا الأَبْلقَ المَحْزُوُّ آضَ كأنهُ　　　منَ الحَرِّ في جَهْدِ الظَّهِيرَةِ مِسْطَحُ[☆٢]

والمسطح: الموضع الذي يجفف فيه التمر[7]، وهو المربد أيضا[8].

و(المِجْمَر): الذي يوضع فيه الجمر والعود وتبخّر به الثياب، وقد شبّه

---

(١) راجع: ب٢ ف٣: ب - ١٠ - القرد.

(٢) ديوانه: (٢٩/١٧٦) = (ط. TÜREK: ٢٩/٧٢).

(☆) مغطغطة: شديدة الغليان. والرأل: ولد النعام. تعجيلها: طبخها اللحم على عجلة. والقَمَع: جمع القَمَعَة، وهي رأس السنام. (انظر: الجوهري: (غطط)، و(عجل)، و(قمع)). يقول: إن قدرهم لاتزال تغلي، فتعجل بطبخ اللحم للأضياف.

(٣) انظر: ديوانه: (٤١/٢٩٩) = (ط. TÜREK: ٤١/١٢١).

(٤) انظر: م.ن: (٢٠/١١١) = (ط. TÜREK: ٢٠/٤٤).

(٥) تهذيب الأزهري: ٢٧٩/٤.

(٦) ديوانه: (٤٣/٣٩) = (ط. TÜREK: ٤٣/١٦).

(☆٢) الأبلق: الذي فيه سواد وبياض، ولعله يعني به الطريق، ففي رواية أخرى «الأمعز». والمحزوّ: المرفوع آض: صار شبه الطريق بالمسطح. وقد يقصد بـ«الأبلق المحزوّ»: الفرس الأبلق المرتفع الكيان، أي أن شدة حر ذلك الوقت تجعل الفرس الرفيع كالمسطح، مبالغة في وصف الحر في جهد الظهيرة. وفي (السجستاني: النخل: ٩٦): «إذا الأمعَزُ... على النَّشْز في حدّه».

(٧) انظر: الأصمعي: اشتقاق الأسماء: ٨٠.

(٨) انظر: السجستاني: النخل: ٩٥.

بزُرْفِيْنه إذا فتح لهاةَ حمار الوحش، في قوله[1]:

لم يَعْدُ أنْ فَتَقَ النَّهِيْقُ لَهاتَهُ ‏ ‏ ‏ ‏ ورأيتُ قارِحَهُ كَلَزِّ المِجْمَرِ[☆]

وإلى جوار هذه الآنية مجموعة من أواني الخمر وأدواتها، التي أتى تفصيلها فيما مضى من البحث[2].

د - الأطعمة والأشربة:

أسماء الأطعمة قليلة في شعره، ولعل في ذلك ما يعكس واقع الحياة العربية يومئذ، حيث لم تك لهم عناية بالمآكل، فحسب امرئ منهم تميرات، أو قطعة لحم، أو قَدَح من لبن، أو نحو هذا من سريع الطعام الذي يتفق مع غالب الأحوال من عيشة القلق، وضيق ذات اليد.

ومن ذلك ما ورد قبل سطور، من القدر المغطغطة بـ(الأعجاز والقمع). و(الشواء المُضَهَّب)، الذي فاز به قِدْح الميسر، في قوله[3]:

واصفرَ عَطّافٍ إذا راحَ رَبُّهُ ‏ ‏ ‏ ‏ غَدا ابْنا عِيانٍ بالشِّواءِ المُضَهَّبِ

وفي شعره إشارة نمطية إلى (ملح الطعام) والاتّجار به، وذلك قوله، مشبّهاً زبد السيل ببقايا الملح في مكان نزول تاجِرِه[4]:

تَرَى كُلَّ وادٍ جالَ فيهِ كأنَّما ‏ ‏ ‏ ‏ أناخَ عليهِ راكِبٌ مُتَمَلِّحُ[☆2].

---

(1) ديوانه: (١٥/١٢٧) = (ط. TÜREK: ١٥/٥١).

(☆) لهاته: أي اللحمة الحمراء في الحنك المشرفة على الحلق. قارحه: السن التي يصبح بها قارحاً، وذلك إذا انتهت أسنانه في خمس سنين. (انظر: ابن منظور: (لها)، و(لزز))، و(الزمخشري: الأساس: (لزز))، و(الجوهري: (قرح)).

(2) راجع: ب١ ف١: ب - ١ - الخمر.

(3) ذيل ديوانه: (٥/٣٥٤) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٥/١٤٠).

(4) ديوانه: (٢٦/٣٣) = (ط. TÜREK: ٢٦/١٤).

(☆2) المتملح: صاحب الملح. (انظر: الصاحب: ٣/ ٣٣٣). وأورده (ابن أبي عون: ١٦٥)، مع التشبيهات الجياد في وصف المزن والروض.

أمّا الأشربة، فتتمثل لديه في: (الخمر)، التي تم الكلام عليها من قبل[١]. خلا ذكره (الدِّرَّة) في قوله[٢]:

مِن كُلِّ عِتْرِيْفَةٍ لم تَعْدُ أنْ بَزَلَتْ ... لم يَبْغِ دِرَّتَها راعٍ ولا رُبَعُ[☆]

أو (العسل)، الذي شبّه به ريق حبيبته، في مثال سبق[٣].

هـ - الاكسية والملبوسات:

كثيرة الأكسية المذكورة في شعره، ومنها ما كان ينسبه إلى بيئته نفسها، وما يورده في أثناء الكلام على الأمم المجاورة: كالأنباط، والفرس، وقد تكون مما عرفه مجلوباً إلى بيئته أيضا. ومن يتتبع الأكسية والملبوسات في شعر هذا الشاعر، يخرج بتصوّر تقريبي عام عن هذا الجانب من البيئة المادية عهدئذ.

و(الرِّيْط) أبرز ما يأتي من القماش في ديوانه، وهو: جمع رَيطة، وهي الملاءة إذا كانت قطعة ونسيجاً واحداً ولم تكن لفقين، وقيل: كل ثوب رقيق ليّن[٤]. وقال (الأزهري)[٥]: «لا تكون الريطة إلا بيضاء». والريط في شعره يلزم معنى الرفاه والنعيم، ويصوّره سابغاً على الأقدام غالبا. وقد نسبه إلى (اليمن) في قوله، مادحاً (بني الخليع)[٦]:

---

(١) راجع: ب١ فـ١: ب -١.
(٢) ديوانه: (٣٩/١٧٩) = (ط. TÜREK: ٣٩/٧٣).
(☆) العتريفة: الناقة الشديدة، العزيزة النفس التي لا تبالي الزجر، وهي القليلة اللبن أيضا. (انظر: تهذيب الأزهري: ٣/ ٣٥٤)، و(الصاحب: ٢/ ٣١٥-٣١٦). بزلت: صارت بازلاً، بأن فطر نابها، وذلك في السنة التاسعة، وربما في الثامنة. والدرة: اللبن. والرُّبَع: ولد الناقة الذي ولدته في الربيع. (انظر: الجوهري: (بزل))، و(ابن منظور: (ربع)).
(٣) راجع: ب٢ فـ٣: ز - الحشرات.
(٤) انظر: الجوهري، وابن فارس: المجمل، والزمخشري: الأساس، وابن منظور: (ريط).
(٥) تهذيب الأزهري: ١٤/ ١٥.
(٦) ديوانه: (٢٩/١٦٥) = (ط. TÜREK: ٢٩/٦٨).

تَـرَى الـرَّيْـطَ الـيَماني دانـياتٍ ... على أقدامِهِمْ وَقْتَ الشُّروعِ[☆]

ويقول، في الفخر بقومه[1]:

وإنّا لَنَزَّالُونَ تَغْشَى نِعالَنا ... سَوابِغُ من أصْنافِ رَيْطٍ ورَفْرَفِ[☆٢]

والريط من ملابس النساء أيضا[2]:

يَرْفُلْنَ في الرَّيْطِ لم يَنْقَبْ دَوابِرُهُ ... مَشْيَ النِّعاجِ بِحِقْفِ الرَّمْلَةِ الحُرُنِ

ويتخذون منه ستراً للظعائن في الهوادج، كما قال[3]:

لَبِسَتْ جَلابِيبَ الحَرِيرِ، وخَدَّرَتْ ... بالرَّيْطِ فوقَ نَواعِجٍ وجِمالِ[☆٣]

و(الحرير) من ملابس النساء كذلك، كما في بيته الآنف، وكما في قوله، عن إحدى حبيباته[4]:

رَقيقةُ سِرْبالِ الحَرِيرِ، يَضُوعُها ... غِناءُ الحَمامِ الوُرْقِ بالمُتَهَوَّمِ[☆٤]

و(السابري): ضرب من الثياب رقيق، وهو من أجودها؛ ولهذا يقال في المثل: «عَرْض سابري»؛ لأنه يرغب فيه بأدنى عرض[5]. وأشار الشاعر إلى

(☆) الشروع: ورود الماشية. ويعني أنهم يرفلون في الريط عند الإيراد، إذ يشمّر الناس ثيابهم عادة، وهذا يقتضي أنهم أكثر رفاهاً في غير هذا الوقت، أو أنهم مخدومون، فلا يحتاجون إلى الإيراد بأنفسهم، والأخير أقرب.

(1) ديوانه: (٤٠/١٩٨) = (ط. TÜREK: ٤٠/٨١).

(☆٢) الرفرف: الرقيق من الديباج، أو جوانب الدرع وما تدلى منه. (انظر: ابن منظور: (رفف)). ولعل الأخير أقرب، لحديثه في هذا السياق عن الشجاعة والنزال، أي رفاهيتهم لا تؤخرهم عن لبس الدروع ومنازلة الأعداء.

(2) ديوانه: (٢١/٣٠٦) = (ط. TÜREK: ٢١/١٢٤).

(3) م.ن: (٥/٢٥٦) = (ط. TÜREK: ٥/١٠٤).

(☆٣) خَدَّرت: أي اتخذت خدراً، وربما كانت «خُدِّرت»، أي أنه سُتر هودجها بالريط. والنواعج: من الإبل السراع. (انظر: الجوهري: (نعج)).

(4) ديوانه: (٢/٢٨١) = (ط. TÜREK: ٢/١١٤).

(☆٤) السربال: القميص. يضوعها: يقلقلها ويفزعها. والمتهوم: لعله يعني به النوم الخفيف، من تهوّم، أي أن صوت الحمام يقلقلها أول نومها. (انظر: الجوهري: (سربل)، و(ضوع))، و(ابن منظور: (هوم))، ويرى (عزة حسن) أن «المتهوّم»: موضع بعينه.

(5) انظر: الجوهري: (سبر).

اتّجار أهل (اليمن) به، في قوله[1]:

غَدَتْ عن جَبِيْنٍ تَمْزُقُ الطَّيْرُ مَسْكَهُ كمَزْقِ [اليَماني] السَّابِرِيَّ المُقَدَّدا

و(النِّمار): جمع نَمِرَة، وهي كساء من صوف، ذات خطوط بيض وسود، يلبسها الأعراب[2]؛ ولهذا نفى الشاعر أن تكون النمار من لبوس قومه؛ عندما أراد أن يصفهم بالترف، وأنهم ليسوا جفاة كالأعراب[3].

و(الديباج): الثياب المتخذة من الإبريسم «أصله بالفارسية: «ديوباف»، أي نساجة الجنّ»[4]، سمي بذلك لجودته البالغة[5]، وذكره في وصف ملك عظيم[6].

و(العبقريّة): نوع من الثياب أو البُسُط، قيل: نسبت إلى (عبقر): قرية باليمن، توشّى فيها الثياب والبُسُط، وثيابها من أجود الثياب، وقيل: هو الديباج، وقيل غير ذلك[7].

و(القطوع): جمع القِطْع، ضرب من الثياب الموشّاة. وقد شبّه بـ«جياد العبقرية والقطوع» الرياض المزدهرة، فقال، في وصف قرار رعته حمر الوحش[8]:

زُخارِيِّ النباتِ كأن فيهِ جِيادَ العَبْقَرِيَّةِ والقُطُوعِ[☆]

(١) ديوانه: (٢٦/٦٧) = (ط. TÜREK: ٢٦/٢٧).
(٢) انظر: ابن منظور: (نمر).
(٣) انظر: ديوانه: (٨/١٢٠) = (ط. TÜREK: ٨/٤٨).
(٤) الجواليقي: المعرّب: ١٨٨.
(٥) انظر: ظاظا: كلام العرب: ٧٢.
(٦) انظر: ديوانه: (٩/١٠) = (ط. TÜREK: ٩/٥).
(٧) انظر: ابن منظور: (عبقر)، وانظر: ب٤ ف٢: أ - ٤ - المعرّب.
(٨) ديوانه: (١٤/١٦٢) = (ط. TÜREK: ١٤/٦٦).
(☆) زخاري النبات: الذي طال والتف وأزهر.

و(البريبطياء): ثياب، سميت بموضع ينسب إليه الوشي[1]. شبّه بها كذلك رياضاً من الخزامى والسَّعدان[2].

و(الماري): الكساء المخطّط بسواد وبياض، وله خيوط مرسلة[3]. وقد جاء في شعره في وصف الفرس، حيث شبّه النُّعَرات التي أصعقها بصهيله بالخيوط التي عقدها فاتل في طرف الماري[4].

ومن أنواع الملبوسات في شعره: (التبابين): جمع تُبّان، وهو سروال صغير، مقدار شبر، يستر العورة المغلظة فقط، يكون للملاحين[5]. جاء في ذكر نسوان أنباط اجتمعن للنوح، فمزقن تبابينهن من فرط حزنهن[6].

ومنها: (سراويل الفتى الفارسي الرامح)، الذي شبّه به الثور الوحشي المُسَرْوَل[7].

ومنها: (القمصان)، وقد أورد، في وصف ملك عظيم، أنه «مسربل ديباج القميص المطيب»[8]. وكنّى في بيت آخر عن تحفّز البطل للمزاولة بتشمير القميص عن يديه[9]. وأحياناً يسميه (السربال)، وعبّر بانحساره عن الأيدي عن جِمَى وطيس القهار[10]، كما قال - قبل قليل -: إن حبيبته «رقيقة سربال الحرير»[11]. أما (الجلابيب) ففيها أقوال، منها أنها: القمصان، وقيل: إنها

---

(١) انظر: تهذيب الأزهري: ١٤/٥٩، والحموي: البلدان: (بريبطياء)، وانظر: ب٤ ف٢: أ - ٤ - المعرّب.
(٢) انظر: ذيل ديوانه: (٦/٣٥٤) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٢/١٤٠).
(٣) انظر: ابن قتيبة: المعاني: ١٠٦، ٦٠٦، وفي (ابن منظور: (مرا)): «الماري: الثوب الخلَق».
(٤) انظر: ديوانه: (٢٥٢-٥٣/٢٥٣-٥٤) = (ط. TÜREK: ٥٢/١٠٣-٥٣).
(٥) انظر: الجوهري: (تبن).
(٦) راجع: ب١ ف١: د - ٣ - النصرانية.
(٧) انظر: ديوانه: (٣/٤١) = (ط. TÜREK: ٣/١٦).
(٨) م.ن: (٩/١٠) = (ط. TÜREK: ٩/٥).
(٩) انظر: م.ن: (٣٦/٢٤٧) = (ط. TÜREK: ٣٥/١٠١).
(١٠) انظر: م.ن: (٢٤/١٣٦) = (ط. TÜREK: ٢٤/٥٤).
(١١) راجع: الكلام على (الحرير).

الأُزُر، وقيل: الجلباب كالمقنعة تغطي به المرأة رأسها وظهرها وصدرها، وقيل غير ذلك[1]، ولم يذكر الشاعر الجلباب إلا للمرأة[2]، وكأنه يقصد به المقنعة دون غيرها.

و(المِفْضل): الثوب الواحد الذي تتفضل فيه المرأة وتتبذل، كالخيعل، وهو قميص لا كُمّ له[3]. جاء في وصف امرأة جميلة منعّمة[4].

و(المِدْرَعة): ضرب من الثياب التي تلبس، وقيل: جُبّة مشقوقة المقدم. والمدرعة والمدرع واحد، وقيل: المدرعة: ضرب آخر، ولا تكون إلا من الصوف خاصة[5]. وأتت لدى الشاعر في وصف مأتم من النساء يقطّعن مدارعهن[6].

و(الإزار): المِلْحَفَة[7]. وقد عبّر الشاعر بلطف المآزر ورقتها عن شرف قومه ورفاههم، في قوله[8]:

يَمْشِي إليها بَنُو هَيْجا وإخوَتُها ... شُمٌّ مَخامِيصَ لا يَعْكُونَ بالأُزُرِ[☆]

و(المِنْديل): هو المعروف، الذي يُتمسح به[9]. شبّه به الدماء التي على

(١) انظر: ابن منظور: (جلب).
(٢) انظر: ديوانه: (٢/٦، ٢٥٦/٥) = (ط. TÜREK: ١/٦، ١٠٤/٥).
(٣) انظر: الجوهري: (فضل)، و(خعل).
(٤) انظر: ديوانه: (٣٨٣/٢٦) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٤٨/٦٨).
(٥) انظر: الجوهري، وابن منظور: (درع).
(٦) انظر: ديوانه: (٥١/١٥) = (ط. TÜREK: ٢٠/١٥)..
(٧) انظر: ابن منظور، والفيروزآبادي: (أزر).
(٨) ديوانه: (٨٣/٣٤) = (ط. TÜREK: ٣٣/ ٣٤).
(☆) إليها: إلى الإبل المذكورة في البيت السابق من القصيدة، أي يمشون إليها لينحروها. والهيجا: الحرب، يقصر ويمد. (انظر: الجوهري: (هيج)). مخاميص: جمع مخماص، وهو الخميص الضامر البطن، وعظم البطن معيب. (انظر ابن منظور: (خمص)). لايعكون: أي لا يرخون حجز أزرهم، ولا يغلظون معاقدها ويشدونها قالصة عن بطونهم لئلا تسترخي لضخم بطونهم، أي أنهم مخاميص لطاف البطون، وليسوا عظامها، فيرفعوا مآزرهم عنها. وقيل. بل أراد أنهم أشراف يلبسون رقاق الثياب. (انظر: المعافري: ٣١٣/١)، و(ابن منظور: (عكا)).
(٩) انظر: ابن منظور: (ندل).

ذئب وَصَفَه، وقد يدلّ هذا التشبيه على أن المنديل في بيئته كان معروفاً بحمرته. قال[1]:

كـأنـما بَيْنَ عَـيـنَـيْـهِ وزُبْـرَتِـهِ　　　من صَبْغِهِ في دِماءِ القَومِ مِنْدِيلُ[☆]

واستخدموا بعض الأقمشة لأغراض أخرى غير اللبس، كعمل (الأَيْصَر)، وهو كساء يُجمع فيه الكلأُ الحشيش[2]، وبنوا منها (الظلال)، كما يسجل في قوله[3]:

وظِـلالِ أَبْـرادٍ بَـنَـيْـتُ لِـفِـتْـيَـةٍ　　　يَخْفِقْنَ بينَ سَوافِلٍ وعَوالي[☆2]

ثم قال[4]:

سَلَفاً لها الخُنُفُ المَراخِي تَبْتَغِي　　　جُوْنَ المَساحِلِ، والبِطاءُ تَوالي[☆3]

ومن الملبوسات الأخرى في شعره: (التاج)[5]:

وعاقِدِ التَّاجِ، أوسامٍ لهُ شَرَفٌ　　　من سُوْقَةِ الناسِ، نالَتْهُ عَوالِينا[☆4]

---

(1) ذيل ديوانه: (٣٨/٣٨٦) = (ط. TÜREK: الملحق: ٧٢/١٤٨).

(☆) زبرته: موضع الكاهل، وهو ما بين الكتفين. من صبغه: أي مما يأكل ويكرع في الدماء. (انظر: الجوهري: (زبر)، و(كهل))، و(ابن قتيبة: المعاني: ١٨٤)، و(السكري: جران العود: ٤١).

(2) انظر: ديوانه: (٣/١٢٣) = (ط. TÜREK: ٣/٤٩)، وابن منظور: (أصر).

(3) م.ن: (٢٧/٢٦١) = (ط. TÜREK: ٢٧/١٠٦).

(☆2) أبراد: جمع بُرْد، وهو ثوب فيه خطوط، وخص بعضهم به الوشي. (انظر: ابن منظور: (برد)).

(4) ديوانه: (٢٩/٢٦٢) = (ط. TÜREK: ٢٩/١٠٧).

(☆3) سلفاً: حال من الخنف، ويعني الإبل التي تسير متقدمة في أول الركب. لها: كأن الضمير عائد على امرأة جاء هذا البيت في سياق حديثه عنها. والخنف: جمع خَنُوف، وهي اللينة اليدين في السير. والمراخي: جمع مرخاء، وهي السريعة في لين. جون: بيض هاهنا، جمع جَوْن. والمساحل: جمع مِسْحَل، وهو الثوب النقي من القطن، ولعله يقصد الأبراد التي قال - قبل - إنه قد بناها للقادمين، أي: أن الإبل تبتغي الوصول إليها، أو يعني ما ألقي على الإبل السالفة المتقدمة، من الثياب التي تبتغي هذه الظعينة اللحاق بها، ورأى (عزة حسن) أنه أراد بالمساحل: الطرق، على التشبيه بالثياب البيض. و(انظر: ابن منظور: (سلف)، و(رخا)، و(سحل))، و(ابن فارس: المجمل: (خنف))

(5) ديوانه: (٤٩/٣٣٢) = (ط. TÜREK: ٤٩/١٣٥).

(☆4) عاقد التاج: ملك. وسوقة الناس: مَن دونَ الملك. (انظر: ابن منظور: (سوق)). عوالينا: رماحنا.

ومنها: (النعال)، التي ذكرها قبل قليل فيما قال عن ترف قومه[1]. وقد ضرب مدة عقد زمام النعل مثلاً لقصر الوقت في قوله، عن سرعة حاديي الحي البائن[2]:

إذا لَبَّثا عَقْدَ القِبالِ لحاجَةٍ   بدَيْمُومَةٍ غَبْراءَ خَبَّا وخَوَّدا[☆]

تلك هي أهم الأكسية والملبوسات المرصودة في شعره.

و - الحلــى والجواهــر:

يضم شعر (ابن مقبل) أسماء مجموعة من الحلى وبعض الجواهر. وأبرز الحلي عنده: (الخلاخيل)، و(الأساور)، وأكثر إيراده إياهما في تصوير الريّ في ساقي المرأة ومعصميها. على حين يجيء (الوشاح) في وصفها بدقة الخصر، مثال ذلك قوله[3]:

وقد دَقَّ منها الخَصْرُ حتى وِشاحُها   يَجُولُ، وقدعَمَّ الخَلاخِيلَ والقُلْبُ[☆٢]

وشبه بحَنْي الصانع (الوَقْف) انعطاف المهاة إلى وليدها في قوله[4]:

---

(١) راجع: الكلام على (الرَّبط).

(٢) ديوانه: (٣/٦١) = (ط. TÜREK: ٣/٢٥).

(☆) القبال: الزمام الذي يكون بين الإصبع الوسطى والتي تليها. وعقد القبال: أي كمُدّة عقده. والديمومة: المفازة، أي دائمة البعد. خب: من الخبب، وخوّد: من التخويد، والخبب والتخويد: ضربان سريعان من السير. (انظر: الجوهري: (قبل)، و(ديم)، و(خبب)، و(خود)).

(٣) ذيل ديوانه: (١/٣٥١) = (ط. TÜREK: الملحق: ٣/١٣٩).

(☆٢) الوشاح: ما ينسج من أديم عريضاً، ويرصع بالجواهر، وتشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها، فيستبطن الصدر والبطن، وينصبّ جانبه على الظهر حتى ينتهي إلى العجز، ويلتقي طرفاه على الكشح الأيسر، فيكون من المرأة في موضع حمائل السيف من الرجل، وقيل هو: كِرْسان من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر. عَمّ: امتلأ ههنا. والقُلْب: السوار، وقيل: ماكان قَلْداً واحداً، أي من طاق واحد لا من طاقين. (انظر: الجوهري، وابن منظور: (وشح)، و(عمم)، و(قلب))، و(تهذيب الأزهري: ٩/ ١٧٤)، و(الآمدي: الموازنة ١/١٤٨). وفي (ط. TÜREK): و«القلبا»، عن (العسكري: الصناعتين: ١٢٧).

(٤) ديوانه: (٢٢/١٧٤) = (ط. TÜREK: ٢٢/٧١).

إلا مَهاةٌ إذا ما ضاعَها عَطَفَتْ كما حَنَى الوَقْفَ للمَوْشِيَّةِ الصَّنَعُ[☆]

وفي بيت آخر ذكر (وَقْف العاج)، وهو السوار منه، إذ شبه به، في قيمته قِدْح ميسره الفائز[١].

و(الأخراص): جمع خرص، وهي الحلقة من الذهب أو الفضة، تحلى بها الأذن[٢]. استعملها الشاعر في التكنية عن طول جِيْد محبوبته (أرنب)، حيث قال[٣]:

مِنَ الهِيْفِ مِبْدانٌ تَرَى نَطَفاتِها بمَهْلِكَةٍ أَخْراصُهُنَّ تَذَبْذَبُ[☆٢]

وفي وصف (أم خَشْرَم)، يعرض ما زيّن نحرها من دنانير الذهب ودراهمه، التي أخبر أنها كانت مضروبة في بلاد فارس، وذلك قوله[٤]:

ونَحْرٍ جَرَى من ضَرْبِ فارسَ فَوقَهُ بما شِئْتَ من دِينارِ عَيْنٍ ودِرْهَمِ[☆٣]

و(الكُرُوم): جمع (كَرْم)، ضرب من الحلي، وهو قلادة من فضة، كانت تلبسها نساء العرب[٥]. ضمّنها الشاعر - مع الأساور - وَصْفَ نساء مترفات[٦].

(☆) الكلام على مهاة وولدها، فقال: إن السرب من المها بعيد عن هذا الولد الصغير إلا أمه. ضاعها: حرّكها وهيّجها ودعاها. والوقف: الخلخال هاهنا. والموشية: البقرة، وقيل: التي بذراعيها توقيف كالوشي. والصنَع: الصانع الحاذق. (انظر: كراع: ٢٤٥)، و(الجوهري: (صنع))، و(ابن قتيبة: المعاني: ٦٩٨). وقال (عزة حسن): «الوقف: السوار. والموشية: المرأة التي بذراعيها وشم كالوشي».

(١) راجع: ب١ ف١: ب - ٢ -١.

(٢) انظر: الجوهري، وابن منظور: (خرص).

(٣) ديوانه: (٣١/١٨) = (ط. TÜREK: ٣١/٩).

(☆٢) الهيف: جمع هيفاء، وهي المرأة ضامرة البطن والخاصرة. مبدان: مكتنزة البدن. قال (الآمدي: الموازنة ١/ ١٤٩): «ومن عادة العرب أنها لاتكاد تذكر الهَيَف وطيّ الكشح ودقة الخصر إلا إذا ذكرت معه من الأعضاء ما يستحب فيه الامتلاء والري والغلظ»، واستشهد بهذا البيت ضمن شواهده على ذلك، وقال معلقاً عليه: «فجعلها هيفاء، وهي الخميصة البطن، [ثم] قال «مبدان»؛ فصار البدن لا يمنع من الهَيَف، ولا يضادّه» (١/ ١٥٠). نطفاتها: جمع نَطَفة وهي القرط. بمهلكة: أي كأنها مشرفة على مكان سحيق، كناية عن طول الجيد. (انظر: الجوهري: (هيف)، و(نطف)).

(٤) ديوانه: (٥/٢٨١) = (ط. TÜREK: ٥/١١٤).

(☆٣) العَين: الذهب هاهنا. (انظر: ابن منظور: (عين)).

(٥) انظر: ابن منظور: (كرم).

(٦) انظر: ديوانه: (١٨/٢٠٦-١٩) = (ط. TÜREK: ١٨/٨٥-١٩).

وبـ(السبيكة) الثمينة شبه جسم المرأة الجميلة، في أحد أبياته[١].

و(الجمان): جمع (جمانة)، حبة تعمل من الفضة كاللؤلؤ، وقيل: الجمان خرز يبيض بماء الفضة[٢]. وشبه بسقوط الجمان من سلكه، اصطفاق جفني الفرس، لما يتساقط بذلك من النُّعَرات الخضر تحته، فقال[٣]:

حَسِبْتَ الْتِقاءَ مَأْقِيَيْهِ بِطَرْفِهِ ... سُقُوطَ جُمانٍ أَخطَأَ السِّلْكَ واصِلُهْ[☆]

وكذا شبه بالجمان المثقب يلوح في سلكه، قطرات الندى على متن ثور وحشي[٤].

و(الودع): جمع (وَدْعَة)، وهي خرزة بيضاء جوفاء، في بطنها شق كشق النواة، تتفاوت في الصغر والكبر، تخرج من البحر[٥]. ولذا شبه بالودع ظباء بيضاً وعفراً، في قوله مثلا[٦]:

يَلْقَيْنَ آرامَ الشَّقِيقِ وعُفْرَهُ ... كالوَدْعِ أَصْبَحَ في مَنَشِّ السَّاحِلِ[☆٢]

وفي بيت آخر سجل نظم الودع على الغزال[٧].

و(الدُّر): هو ما عظم من اللؤلؤ[٨]. شبّه به أسنان نساء، فقال[٩]:

---

(١) انظر: م.ن: (٢٦/٣٨٣) = (ط. TÜREK: الملحق: ٦٨/١٤٨).

(٢) انظر: الجوهري، وابن منظور: (جمن).

(٣) ديوانه: (٥٢/٢٥٢) = (ط. TÜREK: ٥١/١٠٣).

(☆) مأقي العين: طرفها مما يلي الأنف. (انظر: الجوهري: (مأق)).

(٤) راجع: ب٢ ف٣: ب - ٢ - المها.

(٥) انظر: الجوهري، وابن منظور: (ودع).

(٦) ديوانه: (٧/٢١٨) = (ط. TÜREK: ٧/٨٩). وانظر كذلك: (١٠/٢٤٠) = (ط. TÜREK: ٩/٩٨).

(☆٢) آرام: جمع رئم، وهو الظبي الخالص البياض، تسكن الرمال. والشقيق: موضع في ديار بني سُلَيم، وقيل: الشقيق جمع شقيقة، وهو كل غلظ بين رملين، والشقيق أيضاً: ماء لبني أسيد بن عمرو بن تميم، ويبدو الأول أرجح في البيت. وعفر: جمع أعفر، وهو الظبي الذي يعلو بياضه حمرة، قصير العنق، وهو أضعفها عدواً، ويسكن القِفاف وصلابة الأرض. والمنشّ: ما انحسر عنه الماء. (انظر: ابن منظور: (رأم))، و(البكري: ما استعجم: ٨٠٦)، و(الحموي: البلدان: (الشقيق))، و(الجوهري: (عفر))، و(الزمخشري: الأساس: (نشش)).

(٧) راجع: ب١ ف١: د - ١ - ٤ - العذارى.. والغزال.

(٨) انظر: ابن دريد: الجمهرة: ١/٧٢.

(٩) ديوانه: (٤٠/٣٢٩) = (ط. TÜREK: ٤٠/١٣٤).

[إذا نَطَقْنَ رأيتَ الدُّرَّ مُنْتَثِراً وإنْ صَمَتْنَ رأيتَ الدُّرَّ مَكْنُونا]

ومن هذا يتضح أن الحلي والجواهر كانت تسهم - غالباً - في رسم الجمال، أو تصوير القيمة المادية، أوهما معاً، حسب المعنى الذي يعرضه الشاعر.

ز - العطور وأشياء الزينة :

أهم العطور ذكراً في شعره: (المسك)، يتكرر أكثر من غيره، وفي معان متنوعة. وأغلب ذلك في وصف المرأة، مشتركاً في هذا مع أنواع أخرى، كـ(الملاب)[(١)]: وهو ضرب من الطيب كالخلوق[(٢)]، أو (العنبر): ضرب منه أيضاً، قيل: هو الزعفران، وقيل: الورس[(٣)]. قال مثلاً[(٤)]:

أَناةٌ كأن المِسْكَ دونَ شِعارِها يُبَكِّلُهُ بالعَنْبَرِ الوَرْدِ مُقْطِبُ[(☆)]

أو مع (المردقوش): نبات تم وصفه[(٥)]، و(الكافور)[(٦)]: أخلاط تجمع من الطيب، وتركّب من كافور طلع النخل، أو من شجر الكافور[(٧)].

وساقَ المسكَ في وصفه (بني الخليع) المنعمين، عندما قال[(٨)]:

ويوماً باكَرُوا مِسْكاً، ويوماً تَرَى بثِيابِهِمْ [صَدَا] [الدُّ]روعِ[(☆٢)]

---

(١) انظر: م.ن: (٢/٥) = (ط. TÜREK: ١/٥).
(٢) انظر: الجوهري: (لوب).
(٣) انظر: ابن منظور: (عنبر).
(٤) ديوانه: (١٩/٣٢) = (ط. TÜREK: ٩/٣٢).
(☆) أناة: أي امرأة أناة، وهي التي فيها فتور عن القيام وتأنّ، وقيل: المرأة المباركة الحليمة المواتية، وقيل: هي الرزينة لا تصخب ولاتفحش. وشعارها: ما ولي شعر جسدها دون ما سواه من الثياب. يبكّله: أي يخلطه. والورد: لون أحمر يضرب إلى صفرة حسنة. مقطب: مازج. (انظر: ابن منظور: (أني)، و(شعر)، و(بكل)، و(ورد))، و(المعافري: ٢/٥٣)، و(تهذيب الأزهري: ٩/٤).
(٥) راجع: ب٢ ف٢: أ - النبات.
(٦) راجع: م.ن.
(٧) انظر: ابن منظور: (كفر)، والفيروزآبادي: (الكفر).
(٨) ديوانه: (١٦٥/٣٠) = (ط. TÜREK: ٦٨/٣٠).
(☆٢) أي أنهم يجمعون بين الرفاه والنعيم وبين الشجاعة والإقدام في الحروب.

ووظّف المسك في الإعراب عن نفاذ الرائحة وطيبها، نحو قوله[(١)]:

ولا أَصْطَفي لَحمَ السَّنامِ ذَخِيرَةً إذا عَزَّ رِيحَ المِسْكِ بالليلِ قاتِرُهْ[(☆)]

وفي وصف مهاة - شبه بها (دهماء) - قال[(٢)]:

تَرَعَّى جَناباً طَيِّباً، ثم تَنْتَحِي لأَعْيَطَ من أَقْرابِهِ المِسْكُ يَنْفَحُ[(☆٢)]

و(الزعفران): الصبغ المعروف، وهو من الطيب[(٣)]. أتى في وصف قِدح ميسر[(٤)]:

يُطِيعُ البَنانَ غَمْزُهُ، وهوَ مانِعٌ، كأن عليهِ زَعْفَراناً مُعَطَّرا[(☆٣)]

ويضاف إلى هذه الأطياب المصنّعة تلك النباتات والأشجار العطرية التي كانت تستعمل لأغراض مختلفة، وقد تم القول فيها من قبل: (ب٢ ف٢).

وهكذا يضيف الشاعر بالعطر عنصراً من عناصر التكوين الجمالي الذي يصوّره في شعره.

ومن أشياء الزينة في شعره: (الإثمد)، وهو حجر يتخذ منه الكحل، وقيل: ضرب من الكحل، وقيل: الكحل نفسه، وقيل: شبيه به[(٥)]. ونقل

---

(١) ديوانه: (٦/١٥٣) = (ط. TÜREK: ٦/٦٣).

(☆) عز: غلب. وقاتره: من القتار، وهو ريح الشواء. «يقول: في أزمان الجدب يكون ريح القتار أطيب من ريح المسك، يقول: لا أصطفي السنام لنفسي وأطعم ما سواه»: (ابن قتيبة: المعاني: ٤٢٢)، و(انظر: الجوهري: (قتر))، و(المرزوقي: الأزمنة: ٢/٣٠٢).

(٢) ديوانه: (٨/٤٩) = (ط. TÜREK: ٨/٢٠).

(☆٢) جناب: ناحية. تنتحي: تميل. أعيط: طويل العنق. يريد ولد المهاة. وأقراب: جمع قرب، وهو الخصر من الشاكلة إلى مراقّ البطن. (انظر: الجوهري: (جنب)، و(نحا)، و(عيط)، و(قرب)).

(٣) انظر: ابن منظور: (زعفر).

(٤) ديوانه: (٢٢/١٣٥) = (ط. TÜREK: ٢٢/٥٤).

(☆٣) وهو مانع: أي شديد مع لينه، وقد ذكر قبلاً أنه من (النبع)، والنبع أصفر العود، وإذا تقادم احمر. (راجع. ب٢ ف٢: ب - الأشجار)، ولهذا شبه لونه بالزعفران.

(٥) انظر: ابن منظور: (ثمد).

اكتحال النسوة به، في الحديث عن مأتم منهن، اكتحلن بالإثمد الجون، فأشبهت أعينهن أعين الغزلان[1].

وفي بيت آخر شبّه بالإثمد، الذي تناثر من أيدي القينات على الأرض، بقايا رماد الجمر في عرصات الدار المهجورة[2]:

كأن خَصِيفَ الجَمْرِ في عَرَصاتِها مَرَاجِفُ قَيْناتٍ تَجاذَبْنَ إثْمِدا[☆]

و(الخضاب): يجيء في نعت الجمال في يدي المرأة، تزدادان بخضاب (الحناء) حسناً، على أن هذا النوع من التزيّن قد يكون شغلها الشاغل عن حاجة الحيّ[3]:

مِنْ كُلِّ بَدّاءَ في البُرْدَيْنِ يَشْغَلُها عن حاجَةِ الحَيِّ عُلّامٌ وتَحْجِيلُ[2☆]

ومن أشياء الزينة أيضاً (الدهان)، الذي قال - في وصف (دهماء)- : إنه ينضح من غدائر شعرها الأسود[4].

وأشياء الزينة هذه تنضمّ إلى عناصر التعبير الجمالية عند الشاعر.

---

(١) راجع: ب٢ ف٣: ب ٣ - الظباء.
(٢) ديوانه: (٢/٥٦) = (ط. TÜREK: ٢/٢٢).
(☆) خصيف الجمر: رماده، الذي فيه سواد وبياض. والقينات: جمع قينة، وهي الأمَة، مغنية كانت أو غير مغنية. ولعله إنما خصّ القينات لأنهن المثنيات بالتزيين عادة. (انظر: الزمخشري: الأساس: (حذو))، و(الجوهري: (قين)).
(٣) ذيل ديوانه: (١٤/٣٧٩) = (ط. TÜREK: لم يذكر).
(☆٢) البدّاء: من النساء، الضخمة الإسكتين المتباعدة الشفرين، وقيل: البداء: المرأة الكثيرة لحم الفخذين، أو العظيمة الخلق، وذهب (السكري) إلى أن البداء هنا: «الواسعة الصدر»: (جران العود: ٣٦). عُلّام: حناء. والتحجيل: أن تكون في الحَجَلة وهو بيت للجواري يزين بالستور، (انظر: م.ن)، والتحجيل أيضاً: لبس الحجول، وهي الخلاخيل، والتحجيل: أن تضمّد المرأة برجة من بنانها بعجين وأخرى بحناء، فيخرج بعضه أحمر وبعضه أبيض، ويبدو هذا أقرب للمعنى هاهنا. (انظر: ابن منظور: (بدد)، و(حجل))، و(الجوهري: (علم))، و(الزمخشري. الأساس: (حجل)).
(٤) انظر: ديوانه: (٧/١٤٣) = (ط. TÜREK: ٧/٥٨).

هـ - الكتـــــب :

هنا استيفاء لما تفرّق الإلمام به سلفاً من موضوع الكتابة والكتب في هذا الشعر. حيث سجّل الاستعمال القديم للكتابة الحميرية: (المسند)، وذكر كذلك (القرآن الكريم)، أو أشار إليه في أكثر من بيت، إلى غير هذا أو ذاك مما يتعلق ببيئته الجاهلية أو الإسلامية[(١)]. ويضاف إلى هذا استخدامه الكتابة في تصوير الآثار في الديار الدارسة، على غرار غيره من الشعراء القدماء، كقوله[(٢)]:

دَوائِـرُ بينَ أَرْمـامٍ وغُـبْرٍ   كباقي الوَحْيِ في البَلَدِ القِفارِ[(☆)]

وكذا[(٣)]:

ولِلدَّارِ من جَنْبَيْ [قَرَوْرَى] كأنها   وُحِيٌّ كِتابٍ أَتْبَعَتْهُ أَنامِلُهْ[(☆٢)]

وقوله[(٤)]:

تَوَضَّحْنَ في عَلْياءِ قَفْرٍ كأنها   مَهارِيْقُ فَلُّوجٍ يُعَرِّضْنَ تاليا[(☆٣)]

كل ذلك يبين مكانة هذا الجانب الحضاري في بيئة الشاعر.

---

(١) راجع: ب١ ف١: هـ – ٤.

(٢) ديوانه: (٢/١٤٧) = (ط. TÜREK: ٢/٦٠).

(☆) أرمام: جمع رُمّة، وهي قطعة الحبل البالية. وغبر كل شيء: بقيته، ولعله يعني بقية الآثار، ورأى (عزة حسن) أنه يريد الأثافي أو رماد الموقد. والوحي: الكتاب والكتابة، وهو يعني على الصخر أو على الأرض؛ لقوله: «في البلد القفار»، هذا على أن الجار والمجرور هنا متعلق بـ«باقي الوحي». (انظر: ابن منظور: (رمم)، و(غبر))، و(الجوهري: (وحي)).

(٣) ديوانه: (٦/٢٣٩) = (ط. TÜREK: ٥/٩٧).

(☆٢) قروري: «اسم موضع»: (البكري: ما استعجم: ١٠٦٩)، وكأنه جبل، قريب من (بدوة): جبل بنجد لبني العجلان، حيث قال في سابقه: «ألا يا للديار بيدوة...»، ثم قال: «وللدار من جنبي قرورى..»: (راجع المدخل: ثانياً: أ – ٤ – ديار بني العجلان). وُحِيّ: جمع وَحْي، وهو الكتابة. أنامله: أنامل الكاتب. وفي (البكري: م ن): «...كأنها قريح وشوم أتبعته أنامله»، قال: «أي أتبعت التقريح بالنُّؤور»

(٤) ذيل ديوانه: (٢/٤٠٨) = (ط. TÜREK: لم يذكر).

(☆٣) توضحن: ظهرن، يعني آثار الديار. علياء قفر. أي في مكان مرتفع منها. مهاريق: جمع مُهْرَق، وهي الصحيفة البيضاء يكتب فيها، فارسي معرّب، وقيل: المهرق ثوب حرير أبيض يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه، وهو بالفارسية: «مُهركَرْد». والفلوج: الكاتب. يعرّضن تاليا: «أراد يُعَرِّضْهُنّ تال يقرؤهن»: (تهذيب الأزهري ١/ ٤٦٩). و(انظر: ابن منظور: (عرض)، و(هرق)، و(فلج)).

ط - اللعب :

أولها في شعره: (الميسر)، وقد تقدمت دراسته: (ب١ ف١: ب - ٢).

ثم (الخذروف): وهو عويد أو قصبة مشقوقة يفرض في وسطه، ثم يشد بخيط، فإذا مدّ الخيط دار الخذروف، وسمع له حنين، ويسمى أيضاً: (الخَرّارة)، وشبهوا به الفرس في سرعته(١)(☆)، وكذلك فعل (ابن مقبل)، وجعل الخذروف من شجر (العُشَر)؛ لأنه أخف، وجعل الخيط خلقاً؛ لأنه أسلس(٢). وفي مكان آخر شبه رؤوس القتلى، التي قطعتها أسياف قومه، بالخذاريف، فقال(٣):

لأَسْيافِهِمْ في كُلِّ يومٍ كَرِيهَةٍ ... خَذاريِفُ هامٍ أو مَعاصِمُ سُنَّحُ(☆٢)

ومن اللعب عنده: (القُلَة)، وهما عودان يلعب بهما الصبيان، فالمقلاء: العود الكبير الذي تضرب به القلة، والقُلَة: الصغير الذي ينصب، وهو قدر ذراع، والقالي: اللاعب الذي يضرب القُلَة بالمقلاء(٤). وقيل في وصفها: إنك ترمي بها في الجو، ثم تضربها بالمقلاء، فتستمر القُلة ماضية، وإذا وقعت كان طرفاها ناتئين على الأرض، فتضرب أحد طرفيها فتستدير وترتفع، ثم تعترضها

---

(١) انظر: ابن منظور: (خذرف)، وابن فارس: المجمل: (الخذروف)، وباشا: لعب العرب: (الخذروف).

(☆) وقال (نصرت: ٥٨): إن «الخذروف لعبة مألوفة يستمتع بها الطفل اليوم»، ووصفها بأنها«لعبة مكونة من قطعة مستديرة من المعدن أو غيره، مثقوبة ثقبين، ويمر في الثقبين خيط، ويربط طرفاه، ويمسك كل طرف بكف، وتدار القطعة بتحريك في اتجاه دائري، حتى إذا ما فتل الخيط تحرك الكفان باتجاهين متضادين». وهذه اللعبة معروفة إلى اليوم في مجتمعات عربية مختلفة، وإن تفاوتت في بعض الأدوات والطرق.

(٢) راجع: ب٢ ف٢: ب - الأشجار: (العُشَر).

(٣) ديوانه: (٥٤/٢٦) = (ط. TÜREK: ٢١/٢٦).

(☆٢) هام: جمع هامة، وهو الرأس. سُنَّح: جمع سانح، وهو ما اتجه من اليسار إلى اليمين. (انظر: الجوهري. (سنح)). أي أن معاصم العدو تتطاير في هذا الاتجاه، وهو اتجاه الضرب عادة، وذكر (عزة حسن) عكس هذا. والعرب تتيمن بالسانح

(٤) انظر: تهذيب الأزهري: ٩/٢٩٦، وابن منظور: (قلا)، وباشا: لعب العرب: (القلة).

بالمقلاء فتضربها في الهواء، فتستمر ماضية[(١)][(☆)].

ومنه قوله[(٢)]:

كأن نَـزْوَ فِـراخِ الهامِ بينَهُـمُ   نَزْوُ القُلاتِ زَهاها قالُ قالينا[(☆٢)]

ي - الأدوات والآلات:

منها في شعره: (مصابيح المعبد النصراني)، التي وصفها بعدم الانطفاء في قوله[(٣)]:

صَوْتُ النَّواقِيسِ فيه، ما تُفَرِّطُهُ   أيدي الجلاذِيِ، وجُونٌ ما يُغَفِّينا

ومنها: (الرَّحى)، التي وظّفها في تصوير الحرب[(٤)]. و(المِرْضَح): وهو

---

(١) انظر: ابن سيده: المخصص: ١٣/ ١٧.

(☆) لعل في هذا الوصف بعض الاضطراب. وقد ذكر (الخفاجي: ٢١٧) أن هذه اللعبة كانت معروفة في عهده: (٩٧٧-١٠٦٩هـ = ١٥٦٩-١٦٥٩م)، «والعوام تسميها: حقلة، وهو غلط». وقد عرفت هذه اللعبة، أو قريباً منها، في (جبال فيفا - جنوب السعودية)، وتسمى (مزاقَرَة)، والعود الصغير: (مِزْقَرَة)، وهي تشبه إلى حد ما لعبة (الغولف)، وقد وصفها المستشرق (فلبي Philby) في كتابه: "Arabian High Lands: 493"، حيث ذكر أنه شاهد مباراة فيها أثناء زيارته لتلك المنطقة: (١٩٣٦م = ١٣٥٥هـ): فقال: إنهم يستعملون عصاً طولها (٣٠ بوصة) تقريباً، فتُرمى عالياً قطعة عود أصغر: (٤-٦ بوصات)، فيضربها صاحب العصا بقوة جهة اللاعبين، الذين تكون مهمتهم التقافها بقطعة من القماش، تُمْسَك مفتوحة بكلتا اليدين، فيردّونها بأسرع ما يمكن إلى صاحب العصا، الذي يخسر إذا فشل في ردها بعصاه. والظاهر أن لها طرقاً أخرى، ولكن المعروف من ذلك أنهم يسندون العود الصغير إلى مكان ناتئ من الأرض، ثم يضربون طرفه الأعلى فيستدير ويرتفع، فيعترضه اللاعب بضربة قوية، وقال بعض من شاهدها، إن اللاعب المقابل يحاول إمساكها، فإذا استطاع عُدّ فائزاً، ولعب مكان المُرسِل، وإلا أخذها وقذفها إلى حفرة تكون وسط الملعب، فإذا وقعت في الحفرة عُدّ فائزاً أيضاً ولعب مكان المرسِل، ولكن المرسل يحاول أن يتلقفها بعصاه لكيلا تقع في الحفرة، فإذا استطاع كَسِبَ وسجّل على ندّه نقطة، وعلى هذا يستمرون. ووصف (نصرت: ٥٨) نحواً من هذا، وقال: إن صبية الريف مازالوا يلهون بها.

(٢) ذيل ديوانه: (٥٥/٤٠٧) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٥٦/ ١٢٦).

(☆٢) فراخ الهام: الرؤوس. والقلات: جمع قلة، وهو العود الصغير الموصوف آنفاً، وذهب (ابن قتيبة: المعاني: ٩٨٧) إلى أن القلة هنا: الدوامة، وتابعه (عزة حسن). زهاها: رفعها وأطارها. والقال: هو المقلاء، العصا الطويلة. والقالون: الذي يلعبون بها. (انظر: تهذيب الأزهري: ٩/ ٢٩٦)، و(المعافري: ٢/ ١٢٩)، و(ابن منظور: (طير)، و(قلا)).

(٣) ديوانه: (١٩/٣٢١) = (ط. TÜREK: ١٩/١٣١).

(٤) انظر: م.ن: (١٦/٣١٤) = (ط. TÜREK: ١٦/١٢٨).

حجر يرضح به النوى، أي يدق[1]، وشبه به خف الناقة، في قوته في الأماكن الخشنة، فقال[2]:

يَصُكُّ الحَصَى عن يَعْمَلٍ كأنهُ، إذا ما عَلا حَدَّ الأَماعِزِ، مِرْضَحُ[☆]

وكذا (الملاديم) في قوله[3]:

رَضْخَ الإماءِ النَّوى رَدَّتْ نَوازِيَهُ إذا اسْتَدَرَّتْ بأيديها المَلاديمُ[☆٢]

وجاء (الجَلَم) - وهو المقص - في وصف نياق الظعن، حين قال[4]:

كَسَوْنَ السَّدِيلَ كُلَّ أَدْماءَ حُرَّةٍ وحَمْراءَ لا يَحْذِي بها جَلَمانِ[☆٣]

وفي الاعتداد بعزة قومه يشبههم بقناة[5]:

لا تَسْتَطِيعُ (المَباري) أنْ تُؤَيِّسَها ولا البُرَاةُ إذا ما جَسَّها الباري[☆٤]

و(المِعْوَل): فأس عظيمة، ينقر بها الصخر[6]. شبه بها ناقته في قوة

---

(١) انظر: ابن منظور، والزبيدي: التاج: (رضح)).

(٢) ديوانه: (٤٢/٣٩) = (ط. TÜREK: ٤٢/١٦).

(☆) يصك: يقصد وضيف الناقة المذكور في بيت سابق. عن: بمعنى «به» هاهنا. يعملي: مطبوع على العمل يريد خفها (انظر: ابن منظور: (عمل)).

(٣) ديوانه: (٢٢/٢٧٢) = (ط. TÜREK: ٢٢/١١٠).

(☆٢) رضخ النوى: دقه لعلف الإبل. والملاديم: جمع مِلْدم: حجر يرضخ به النوى، وهو المرضاخ أيضا. واستدرت: أي اشتد بها الدق. (انظر: الجوهري: (لدم)). يقول في هذا البيت وما قبله: إن الحصى يتطاير من وقع أخفاف ناقته كما ينزو النوى ويتطاير من وقع المراضخ.

(٤) ديوانه: (١٦/٣٤٠) = (ط. TÜREK: ١٦/١٣٨).

(☆٣) كسون: أي النساء. والسديل: ما أسبل على الهودج من الثياب. الأدماء: من الإبل، شديدة البياض. والحرة: الكريمة. حمراء: أي ناقة حمراء، «ويقال أجلد الإبل وأصبرها الحمر»: (الأصمعي: الإبل: ١٤٩) يحذي: يقطع (انظر: الجوهري: (سدل)، و(أدم)، و(حرر)، و(حذا)).

(٥) ديوانه: (٢٠/١١٧) = (ط. TÜREK: ٢٠/٤٧)، وانظر كذلك: ذيل ديوانه (٥٣/٤٠٥) = (ط. TÜREK الملحق: ١٢٣/١٥٥).

(☆٤) المباري: جمع مِبْراة، وهي حديدة تبرى بها السهام. تؤيسها. تؤثر فيها، وفي (ابن ميمون (مخطوط): الورقة ٣٥/ب): «يُؤَبِّسها» بـ(الباء الموحدة)، وقال: «يؤبسها: يذللها». البراة: جمع بار، وهو الذي يبري. (انظر: الجوهري: (برا))، و(ابن منظور: (أيس)).

(٦) انظر: الجوهري: (عول).

اندفاعها[١]. كما شبهها بـ(القَدُوم): التي ينحت بها[٢]، في قوله[٣]:

وتَهْوِي إذا العِيسُ العِتاقُ تَفاضَلَتْ　　　هُوِيَّ قَدُومِ القَيْنِ جالَ فِعالُها[☆]

و(المحاجم): جمع (مِحْجَم)، من الأدوات الطبية القديمة، يمصّ بها الحجام الدم من المحجوم، كالقارورة أو نحوها[٤]، وذلك للاستشفاء من ضغط الدم[٥]. وقد مضى تمثيله لما أريق من الدماء في الحروب، بدماء المحاجم الفائضة[٦].

و(المثال): قالب يقدّر على مثله[٧]. وأتى في نعت أعناق الإبل، تشبه سبوتاً ثنيت على مثال[٨]:

يُصابِيْنَها وهْيَ مَثْنِيَّةٌ　　　كَثْنِي السُّبُوتِ حُذِينَ المِثالا[☆٢]

ومن ذلك الآلات الموسيقية، التي مرّ تناولها ضمن الكلام على مجالس الشراب والغناء والرقص عنده[٩]. ومنها: يصرح بـ(المزهر)، وهو آلة العود

---

(١) راجع: ب٢ ف٣: أ - ١ - الإبل.
(٢) انظر: الجوهري: (قدم).
(٣) ذيل ديوانه: (٢/٣٩٠) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٤٩/ ٨٠).
(☆) العتاق: الكرام. تفاضلت: أي في سيرها. والقين: الحداد. جال: هذه رواية (تهذيب الأزهري: ٢/ ٤٠٥)، وفي ديوانه بطبعتيه: «حال» (بالمهملة)، نقلاً عن (ابن منظور: (فعل)). فعالها: نصابها، وهو العمود الذي يجعل في خُرْتها، يعمل به. (انظر: تهذيب الأزهري، وابن منظور: (م.ن))، وقال (الزبيدي: لحن العامة: ١٢٤). «أخبرني أبو علي أنه يقال لنصاب القَدُوم: [الفعال]، ولم أسمع هذا من غيره ولا رأيته لأحد من اللغويين. قال أبو بكر ثم ألفيته في شعر ابن مقبل...».
(٤) انظر: ابن منظور: (حجم).
(٥) راجع: ب١ ف١: د - ٢ - اليهودية.
(٦) راجع: ب١ ف٢: د - ١ - مقتل عثمان، وانظر: ديوانه: (٢٦/١٩٥) = (ط. TÜREK: ٢٦/٨٠).
(٧) انظر: ابن منظور: (مثل).
(٨) ديوانه: (٢١/٢٣٠) = (ط. TÜREK: ٢١/٩٤).
(☆٢) يصابين: أي يمايلن، ويريد جماجم المطايا. والسبوت: جمع سِبْت، وهي جلود البقر المدبوغة بالقَرَظ، تُحذى منها النعال السِّبتية. حذين: أي قدرت على مقدار المثال. (انظر: تهذيب الأزهري: ١٢/ ٢٥٦)، و(ابن منظور: (صبا))، و(الجوهري: (سبت)، و(حذا)).
(٩) راجع: ب١ ف١: ب - ١ - الخمر ومجالسها.

المعروفة. و(المحابض): ويعني بها أوتار العود. وقد شبه بأنغام المزهر مع أصوات كؤوس الخمر، أصوات الدلاء في البئر[١]. ووصف تناغم نبرات صوت المغنية مع نغمات المحابض في بيت آخر[٢].

وفيما نقل عن المعابد النصرانية: (النواقيس)، التي يخبر أنه كان يسمعها ليلا[٣].

و(الجلجل)، وهو الجرس الصغير الذي يعلق في أعناق الدواب وغيرها[٤]، شبه بصوته صوت حمار وحش، في قوله[٥]:

رَباعٍ كأن جُلْجُلاً في لَهاتِهِ ... إذا اعْتادَهُ شَجْوٌ من الليلِ صَلْصَلا[☆]

و(المحابض): المشاور أيضا، وهي أخشاب تكون مع مشتاري العسل، يُقلع بها ما يلصق بالعسل من النحل، بضرب جوانب الخلية. وقد سلف الكلام في هذا: (ب١ ف١: د - ٣).

وورد (المنخل) في وصف ربع كبيشة، حيث شبه ما تهبّ الريح به عليه من العجاج، بمناخل من قطن متخرق، تذروا عليه الرمال من كل وجه[٦].

وذكر (السلاسل) في قوله، مفاخراً بالماضين من قومه[٧]:

---

(١) راجع: م.ن.
(٢) راجع: م.ن.
(٣) راجع: ب١ ف١: د - ٣ - النصرانية.
(٤) انظر: ابن منظور: (جلل).
(٥) ديوانه: (٢٣/٢١٤) = (ط. TÜREK: ٢٣/٨٨).
(☆) الرباعي: الحمار الذي دخل السنة الرابعة، فألقى رباعيته. واللهاة: لحمة حمراء معلقة مشرفة على الحلق. شجو: هم وحزن. صلصل: صوت. (انظر: ابن منظور: (ربع)، و(لها))، و(الجوهري: (شجا)). «وحمار جُلاجِل بالضم، أي صافي النهيق»: (الجوهري: (جلل)).
(٦) انظر: ديوانه: (٤/٢٠٨) = (ط. TÜREK: ٤/٨٦).
(٧) م.ن: (١٨/٢٤٢) = (ط. TÜREK: ١٧/٩٩).

مَصالِيتُ، فَكَّاكُونَ للسَّبْيِ بعدَما تَعَضُّ على أيدي السَّبِيِّ سَلاسِلُهُ[☆]

و(الإران): التابوت، وهو خشب يشد بعضه إلى بعض، تحمل فيه الموتى. شبه به المطية، على نهج العرب[1]، فقال[2]:

على كُلِّ وَخّادِ اليدَيْنِ مُشَمِّرٍ كأن مِلاطَيْهِ ثَقِيفُ إرانِ[☆٢]

تلك هي أبرز الأدوات والآلات في شعر (ابن مقبل)، ومع قلتها النسبية فإنه يظهر تنوع وظائفها، فمن أدوات الإنارة، إلى أدوات الدقّ والطحن، ومن أدوات القطع والبري، وأدوات الزراعة، أو الصناعة، إلى أدوات الطب، أو القياس، ثم آلات الموسيقى، إلى غير ذلك من الاستعمالات المتفرقة.

ك - الأصبـــاغ :

منها: (الزعفران)، الذي سبق ذكره مع العطور[3]. ويجيء عند الشاعر في وصف قداح الميسر، كقوله[4]:

أَوِدٍ، كأن الزَّعْفَرانَ بلِيطِهِ، بادِي السَّفاسِقِ مِخْلَطٍ مِزْيالِ[☆٣]

(☆) مصاليت: جمع مِصْلَت (بكسر الميم)، الماضي في الأمور. (انظر: الجوهري: (صلت)).
(١) انظر: ابن منظور: (أرن).
(٢) ديوانه: (١٥/٣٤٠) = (ط. TÜREK: ١٥/١٣٨).
(☆٢) وخّاد اليدين: اي بعير وخّاد اليدين، والوخد: ضرب من السير، وهو أن يرمي البعير بقوائمه، كمشي النعام، وذلك بسرعة وسعة في الخطو. مشمر: ماض سريع. وللملاطان من البعير: جنباه أو عضداه وكتفاه. ثقيف: أي بيّن الثقافة، وهي الصناعة والتسوية الحسنة. (انظر: الجوهري: (وخد))، و(ابن منظور: (وخد)، و(ملط)، و(ثقف)).
(٣) راجع: ز - العطور وأشياء الزينة: (الزعفران).
(٤) ديوانه: (٣٣/٢٦٣) = (ط. TÜREK: ٣٣/١٠٧).
(☆٣) أود: أي قِدْح أود، يريد أنه لين إذا غمز اعوج، ثم يُردّ فيستقيم. والليط: الجلد، شبه ظاهره بالجلد، يريد أنه أصفر كأنه طلي بالزعفران. والسفاسق: طرائق تكون في القداح في لون العود، كما تكون في الخَلَنْج وأعواد السروج، وأشباه ذلك من جيد الخشب، وتوصف بها القداح. مخلط مزيال: أي أنه يخالط القداح حتى يجلجل، ثم يزول عنها ويخرج بارزاً، وكذلك يقال للرجل اللطيف الرفيق في الأمور: «مخلط مزيال»، كما يقال: «مدخال مخراج». (انظر: ابن قتيبة الميسر: ٩٦-٩٧)، و(المعاني: ١١٥٩، ١١٦٢).

و(الدَّفْل): ما غلظ من القَطِران[١]، وهو الزِّفت[٢]. وقد أورده الشاعر طلاء للإبل، في قوله[٣]:

تَمْشِي بِهِ الظِّلْمانُ كالدُّهْمِ قارَفَتْ ... بزَيْتِ الرُّهاءِ الجَوْنِ والدَّفْلِ طاليا[☆]

قال (البصري)[٤]: «وأخبرني بعض الأعراب: أن قَطِران العَرْعَر أجود، وهو يشفي من العُرّ ويلين الجلد، وأن قَطِران العتم قد يشفي أيضاً، ولكنه يعقب الجلد خشونة وتشقّقاً، وأن قطران التألب يجرب، ولكنهم يُغشّون به الجِير ليثخن؛ قال: والناس يعجبهم ثخونته؛ قال: وقطران العتم أبلغ وأحدّ في الجرب، والإبل عليه أقل صبرا».

و(القار): «صعد يذاب فيستخرج منه القار، وهو شيء أسود تطلى به الإبل والسفن، يمنع الماء أن يدخل، ومنه ضَرْب تحشى به الخلاخيل والأسورة... وقيل: هو الزفت»[٥]. وشبّه بلونه الظلام، في قوله[٦]:

دَأَبْنَ شَهْرَيْنِ يَجْتَبْنَ البِلادَ إذا ... كان الظَّلامُ شَبيهَ اللَّوْنِ بالقار[٢☆]

و(الحُصّ): الورس، ويقال: الزعفران[٧]. وكالزعفران شبّه بلونه لون

---

(١) انظر: ابن فارس: المجمل: (دفل).
(٢) انظر: البصري: التنبيهات: ٢٧٠.
(٣) ذيل ديوانه: (٣/٤٠٩) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٦٠/١٦١).
(☆) به: أي بالمنزل الذي يصف آثاره. والظلمان: جمع ظليم، وهو ذكر النعام. والدهم: جمع أدهم، وهو الأسود من الإبل. قارفت: خالطت. والرهاء: مدينة من أرض الجزيرة، بين الموصل والشام، فوق حرّان، بينهما ستة فراسخ، سميت بـ(الرُّهاء بن البَلَنْدَى)، من ولد (مدين بن إبراهيم عليه السلام)، وقيل: اسمها بالرومية: «أذاسا». والجون: الأسود هاهنا. شبه النعام فيه بإبل دهم قد جربت فطليت بعكر الزيت والزفت. (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ٣٣٢)، و(البكري: ما استعجم: ٦٧٨)، و(الحموي: البلدان: (الرهاء))، و(ابن فارس: المقاييس: ٢/٣٥٦)، وفيه: «الذفل» (بالمنقوطة).
(٤) التنبيهات: ٢٧٠-٢٧١.
(٥) ابن منظور: (قير).
(٦) ديوانه: (١٢/١١٥) = (ط. TÜREK: ١٢/٤٦).
(٢☆) دأبن: أي قلاص ذكرهن في البيت الذي قبله.
(٧) انظر: ابن منظور: (حصص).

قِدْح، إذ قال[١]:

تَخَيَّلَ فيها ذو وُسُومٍ، كأنما يُطَلَّى بحُصٍّ، أو يُصَلَّى فيُضْبَحُ[☆]

وهنا يلحظ أن الأصباغ في شعره تنحصر في لونين: الأسود والأصفر.

ل - عُدد الركوب:

فيما مر من دراسة الإبل والخيل في ديوان (ابن مقبل) بعض إشارات إلى عُدد ركوبها، وهنا استيفاء وتركيز على أهم تلك العدد وأبرزها في هذا الديوان.

فمنها: (اللجم الشقيّة): نسبة إلى قرية (شَقّ)، من قرى (فَدَك)، وكانت تعمل فيها اللجم[٢]. قال، في كتائب الخيل[٣]:

مُتَسَرْبِلاتٍ في الحَدِيدِ تَكُفُّها شَقِّيَّةٌ يُقْرَعْنَ بالأنيابِ

وفي أماكن أخرى ينسب اللجم إلى (فارس)، كقوله[٤]:

بكُلِّ أَشَقَّ مَقْصُوصِ الذُّنابَى بشَكِّياتِ فارسَ قد شُجِينا[٢☆]

و(السِّناف): سير يجعل من وراء اللَّبَب لئلّا يزل[٥]، واللبب: ما يشد على صدر الدابة، يمنع الرحل أو السرج من الاستئخار[٦]. وجاء السناف في

---

(١) ديوانه: (١٣/٢٦) = (ط. TÜREK: ١٢/١٣).

(☆) فيها: أي في القداح. ذو وسوم: أي قدح فيه علامات. يُصَلَّى: يقدم إلى النار. فيضبح: يشوى فتُغيِّرُ النار لونه دون أن تبالغ فيه. يريد أنه لصفرته كأنه طلي بورس، أو ضبح بنار حتى اصفرّ، وهم يصفون القدح بالاصفرار؛ لأنه من نبع أو ما شاكله؛ أو قد قُدِّم فاصفر. (انظر: ابن قتيبة: الميسر: ٩٤-٩٥)، و(المعاني: ١١٦٦)، و(الجوهري: (ضبح)).

(٢) انظر: الحموي: البلدان: (شق).

(٣) ديوانه: (٥/٢٤) = (ط. TÜREK: ٣/٢٤).

(٤) م.ن: (٥/٣١٢) = (ط. TÜREK: ٥/١٢٧).

(٢☆) أشق: فرس طويل. والذنابى: الذنب. وشكّيات فارس: اللجم المصنوعة في فارس، والمفرد شكّيّ، وهو اللجام العَسِر، وقال (الأصمعي) هو منسوب إلى قرية بأرمينية، يقال لها: (شكى). (انظر: الزبيدي: التاج: (شك)). شجين: أي قهرن وغلبن؛ لأنهن يكبحن عن الجماح باللجم. (انظر: الجوهري: (شقق))، و(ابن منظور: (شجا)).

(٥) انظر: ابن منظور: (سنف).

(٦) انظر: الأصمعي: (مجلة المورد: م ١٦، ع ٢، ص ١١٤)، وابن منظور: (لبب).

وصفه خيلاً قائلاً[1]:

دعاهُنَّ داعٍ بالبُكاءِ، فسُرِّحَتْ أَديمَ الضُّحَى تُنْضَى إليه وتُسْنَفُ[☆]

و(البريم): «حبل مفتول يكون فيه لونان، وربما شدته المرأة على وسطها [وعضدها]»[2]. قال، في وصف الخيل أيضاً، بعد بيته الآنف[3]:

على كُلِّ مِلْواحٍ يَجُولُ بَرِيمُها تُباري اللِّجامَ الفارِسِيَّ وتَصْدِفُ[☆2]

وكانوا يتخذون للإبل نعالاً كما تقدم[4]، ومن ذلك قوله عن (السرائح)، وهي سيور نعال الإبل، جمع سريحة، وهي: النعال نفسها أيضا[5][6]:

تَظَلُّ تُغَشِّي ظِلَّها سَدِراتِها وتُعْقَدُ في أَرْساغِهِنَّ السَّرائِحُ[☆3]

وكذلك تتخذ النعال للخيل، قال في وصفها[7]:

نُقَدِّمُها، إذا نَكَصَتْ، عليهمْ ونَحْذُوها السَّرِيحَ إذا وَجِينا[☆4]

---

(1) ديوانه: (15/192) = (ط. TÜREK: 79/15).

(☆) دعاهن بالبكاء: أي استصرخهن للنجدة، والمقصود الخيل. أديم الضحى: وقت اشتداده وارتفاعه. تنضى: أي يوضع نِضْو اللجام في فمها، والنضو حديدة اللجام بلا سير، قال (عزة حسن): «ولم تذكر كتب اللغة الفعل»، ولم نقف عليه بهذا المعنى. وتسنف: تلبس السناف. (انظر: الزمخشري: الأساس: (أدم))، و(ابن منظور: (نضا)).

(2) الزبيدي: لحن العامة: 54.

(3) ديوانه: (16/193) = (ط. TÜREK: 79/16).

(☆2) ملواح: ضامر. (انظر: ابن منظور: (لوح)). تصدف: تميل. وفي (ط. TÜREK): «يحول»: (بالحاء)، وذكر أنه كذا في الأصل. وفي (الزبيدي: لحن العامة: 53): «يزل... تعاطي».

(4) راجع: ب2 ف3: أ - 1 - الإبل.

(5) انظر: ابن منظور: (سرح)، وابن ميمون (مخطوط): الورقة: 30/أ.

(6) ديوانه: (21/46) = (ط. TÜREK: 18/21).

(☆3) سدراتها: أي سدرات القلائص المذكورة من قبل، ويعني عيونها. (انظر: ابن ميمون (مخطوط): الورقة: 30/أ)، ويقال: سَدِرَ البعير، إذا تحيّرَ من شدة الحر، فلم يكد يبصر. (انظر: ابن منظور: (سدر)). يقول: إن تلك القلائص تميل رؤوسها إلى ظلها، وتُشدّ في أرساغها النعال، من شدة الحر.

(7) ديوانه: (8/313) = (ط. TÜREK: 8/127).

(☆4) السريح: السرائح الموصوفة آنفا. وجين: من الوجى، وهو أن يجد الفرس وجعاً في حافره. (انظر: الجوهري: (وجى)).

و(العِلافيّ): الرحل العظيم، وقيل أعظم ما يكون منها أَخَرَة وواسطاً، منسوب إلى رجل اسمه (عِلاف)، وهو: (زَبّان أبو جَرْم)[☆] من (الأزد)؛ لأنه أول من عمل هذا النوع من الرحال[١]. قال في ناقته[٢]:

أَبْقَى سِفاري ونَصِّي من عَرِيكَتِها ... مِلءَ العِلافيِّ لا نَيّاً ولا عَجَفا[☆٢]

وقد ورد في بيت سالف أنها تصنع من خشب (الميس)[٣].

و(القَرَبوس): حِنْو السرج، وله قَرَبوسان: المقدَّم، وفيه العضدان، وهما رِجلا السرج، ويقال لهما حنواه، وما قدامهما دفّته، والقربوس الأخر: فيه رِجلا المؤخرة، وهما حنواه[٤][☆٣]. قال (ابن مقبل)[٥]:

قَرَبُوس السَّرْجِ من حاركه ... بتليل كالهَجِيْن المُخْتَرَمْ[☆٤]

وشبه الفرس بـ(الهودج) في قوله[٦]:

وهَيْكَلٍ كشِجارِ القَرّ مُطَّرِدٍ، ... في مِرْفَقَيْهِ وفي الأنساءِ تَجْرِيمُ[☆٥]

(☆) في (ابن رشيق: ٢/ ٢٣٢): «زبان بن جرم».

(١) انظر: الجوهري، وابن منظور: (علف)، والفيروزآبادي: (العلف).

(٢) ديوانه: (١٨٧/ ٢٥) = (ط. TÜREK: ٧٦/ ٢٥).

(☆٢) النصّ: السير الشديد بالناقة حتى يستخرج أقصى ما عندها. والعريكة: بقية السنام هاهنا. والنيّ: الشحم، يقال: نوت الناقة نيّاً: أي سمنت. والعَجَف: الهزال. (انظر: الجوهري: (نصص)، و(عرك)، و(نوى)، و(عجف)).

(٣) راجع: ب٢ ف٢: ب - الأشجار: (الميس).

(٤) انظر: الأصمعي: (مجلة المورد: م١٦، ع٢: ص ١١٥)، وابن منظور: (قربس).

(☆٣) «والعامة تقول: «قرْبوس»، بسكون الراء وهو خطأ»: (القالي: البارع: ٥٥١)، و(انظر: الأصمعي: م.ن).

(٥) المستدرك الملحق بهذه الدراسة: النموذج ١٩.

(☆٤) الحارك: «من الفرس: فروع الكتفين، وهو أيضاً الكاهل»: (الجوهري: (حرك)). التليل: العنق، وهو الهادي والهجين: من الخيل الذي ولدته برذونة من حصان عربي، وقيل: الهجين مأخوذ من الهجنة، وهي الغِلَظ. (انظر القالي: البارع: ٥٥٠-٥٥١)، و(ابن منظور: (هجن)).

(٦) ديوانه: (٢٧٦/ ٣٧) = (ط. TÜREK: ١١٢/ ٣٧).

(☆٥) هيكل: أي فرس طويل ضخم. والشجار: خشب الهودج. والقر: الهودج هاهنا. مطرد: قوي قويم. والأنساء جمع النسا، وهو «عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين، ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الحافر، فإذا سمنت الدابة انفلقت فخذاها بلحمتين عظيمتين وجرى النسا بينهما واستبان، وإذا هزلت الدابة اضطربت الفخذان وماجت الربلتان وخفي النسا»: (الجوهري: (نسا)). تجريم: أي عِظم، وذلك لما وصفه من ضخامة هذا الفرس، حيث تستبين =

و(الفِتَان): غشاء يكون للرحل من أَدَم[١]. و(الوضين): بطان عريض منسوج بعضه على بعض، من سيور أو شعر، يشد به الرحل على البعير[٢]. وقد كنى - في بيت متقدم - ببلوغ الفِتَان الوضين عن سرعة سير ناقته وشدته[٣].

وجاء في شعره: (عذار لجام الفرس)، ووصفه بالقصر، و: (عذار الرسن)، ووصفه بالطول، وذلك قوله[٤]:

[هَرِيتٍ قَصِيرِ عِذارِ اللِّجامِ   أَسِيلٍ طَوِيلِ عِذارِ الرَّسَنْ][☆]

و(النِسع): سير يضفر على هيئة النعال، تشد به الرحال[٥]. ويكني الشاعر بقلق النسوع على الإبل عن هزالها واشتدادها في السير، نحو قوله[٦]:

= الأنساء كما قيل. (انظر: الجوهري: (هكل)، و(قرر))، و(ابن منظور: (شجر)، و(طرد)). شبه هذا الفرس بأخشاب الهودج، في ضخامته وإشرافه وقوته.

(١) انظر: ابن منظور: (فتن).

(٢) انظر: م.ن: (وضن).

(٣) راجع: ب٢ ف١: هـ - المياه.

(٤) ديوانه: (٥/٢٩٠) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٥٢/١٥٩).

(☆) وقع في نسبة هذا البيت خلاف واسع، فنسب إلى ابن مقبل، والأعشى، والطفيل الغنوي، حيث جاء بروايات متشابهات، وما أثبت أعلاه هو ما جاء منها منسوباً إلى (ابن مقبل)، ولعل الروايتين الأخريين بيتان آخران في الأصل، ومثل هذا التشابه معهود في الشعر القديم، مما قد يوقع الرواة في اللبس عند النسبة. (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ١٢٣-١٢٤)، و(البكري: اللآلي: ٢/٨٧٨-٨٧٩)، و(ابن رشيق: ١/ ٣١٥)، و(البطليوسي: ٣/ ٩٧)، و(ابن منظور: (رسن))، و(الزبيدي: التاج: (قبل))، و(ديوانه: ط. TÜREK: ١٥٩/ الحاشية). وقد ضبط (عزة حسن) البيت بخفض «هريت» وما بعدها؛ لأن قبله: «بنهد المراكل...»، وهذا جائز، ولكن الرفع على القطع أمدح، كما قال (البطليوسي: م.ن)، إضافة إلى أنه قد جاء بالرفع في كل المصادر التي وقفنا عليها. هريت: واسع شق الفم، من هَرّت الثوب وهرده: إذا خرقه. والأسيل: الذي في خده طول وملاسة. (انظر: البطليوسي: م.ن)، و«لم يُرد بقوله: قصير عذار اللجام أنه قصير الخد، وكيف يكون ذلك وهو يقول: أسيل طويل عذار لجامه، ثم قال: طويل عذار الرسن، ولكنه أراد أنه هريت، وأن مشق شدقيه من الجانبين مستطيل، فقد قصر عذار لجامه، ثم قال: طويل عذار الرسن؛ لأن الرسن لا يدخل في فيه شيء منه، كما يدخل فأس اللجام، فعذار رسنه طويل لطول خده»: (ابن قتيبة: م.ن: ١٢٤).

(٥) انظر: ابن منظور: (نسع).

(٦) ديوانه: (٧/١٦٠) = (ط. TÜREK: ٧/٦٥).

وعندي العَنْسُ يَصْرِفُ بازِلاها   عليها قاتِرٌ قَلِقُ النُّسُوعِ(☆)

م - السلاح :

وُصِف ابن مقبل بأنه أوصف الشعراء للسلاح، والحرب ذات الكفاح(١). وأهم السلاح لديه: (السيف)، ولا مشاحة في أن السيف كان أخطر أسلحتهم وأعزها في نفوسهم.

و(المشرفي): السيف المنسوب إلى (المشارف): قرى من أرض اليمن، أو من أرض الريف، أو (مشرف): قرية باليمن كانت السيوف تعمل فيها، وقيل: مشرف جاهلي وهي من صنعته(٢)(☆٢). و(المذكر): المصنوع من ذَكَر الحديد، وهو أيبسه وأشده وأجوده، وهو خلاف الأنيث، وقيل: هو ذو الماء، وقيل: هي سيوف شفراتها حديد ذَكَر، ومتونها أنيث، وكان يقول الناس إنها من عمل الجن(٣). قال الشاعر(٤):

شَهِدْنا، فلم نَحْرِمْ صُدُورَ رِماحِنا   مَقاتِلَها، والمَشْرَفيَّ المُذَكَّرا(☆٣)

ولم يقتصر استعمالهم السيوفَ على الحرب، بل استعملوها في حياتهم اليومية، ومن ذلك قوله(٥):

(☆) العنس: الناقة القوية. بازلاها: ناباها، ويزل النابُ اللحمَ ويطلع إذا طعنت الناقة في السنة التاسعة، وربما في الثامنة. ويصرف: أي يصوّت هاهنا، وصريف أنياب الناقة يدل على كلالها. القاتر: الرحل الجيد الوقوع على ظهور الإبل، وقيل: اللطيف منها، وقيل: هو الذي لا يستقدم ولا يستأخر، وقيل: أصغر الرحال، ورحل قاتر: أي قلق لا يعقر ظهورها، وهذا القول الأخير يبدو أدناها إلى معنى البيت. (انظر: ابن منظور: (بزل)، و(صرف)، و(قتر))

(١) انظر: البيهقي: ٢/١٦٦.

(٢) انظر: ابن منظور: (شرف)، والبكري: ما استعجم: ٧٩٣، وابن قتيبة: المعاني: ١٠٣٦.

(☆٢) قال (ابن رشيق: ٢/ ٢٣٢): «وليس قول من قال إنها منسوبة إلى مشارف الشام أو مشارف الريف بشيء عند العلماء، وإن قاله بعضهم»، ومنهم: (الأصمعي: (مجلة المورد: م١٦، ع٢، ص٧٩)).

(٣) انظر: الجوهري، وابن منظور: (ذكر).

(٤) ديوانه: (٣٨/١٣٩) = (ط. TÜREK: ٣٨/٥٦).

(☆٣) شهدنا: أي شهدنا الحرب.

(٥) ديوانه: (٣١/٢٧٤) = (ط. TÜREK: ٣١/١١١).

ويُنفِرُ النِّيبَ سَيفِي بينَ أَسْوُقِها   لم يَبْقَ من سِرِّها إلا شَرَاذِيمُ(☆)

ومن السيف اشتقّ بعض صوره الشعرية، كقوله، واصفاً ثوراً وحشيا(١):

غدا كالفِرِنْدِ العَضْبِ يَهتَزُّ مَتْنُهُ   منَ العِتْقِ لو لا لِيتُهُ لَتَحَطَّا(☆٢)

وشبّه بما لاح من بقايا فرند السيف القديم بقايا رسوم الدار، في قوله(٢):

عَرَّجتُ أَسْأَلُها بقارِعَةِ الغَضا   وكأنها أَلْواحُ سَيفٍ ثامِلِ(☆٣)

وشبّه بها ألحاظ فواتنٍ بيض، عندما قال(٣):

[بِيضٌ يُجَرِّدْنَ من أَلْحَاظِهِنَّ لنا   بِيضاً، ويُغْمِدْنَ ما جَرَّدْنَهُ فينا]

وبـ(الحسام) شبّه نفسه، في كرمه وحزمه، فقال(٤):

مثلَ الحُسامِ كَرِيماً عندَ خِلَّتِهِ   لِكُلِّ إِزْرَةِ هذا الدَّهرِ ذا إِزَرِ(☆٤)

وطول نجاد السيف كناية عن طول صاحبه، كما هو دأب الشعر القديم،

(☆) النيب: جمع ناب، وهي المسنة من النوق؛ لأنه قد طال نابها وعظم. سرها: أي خالصها. (انظر: الجوهري، وابن منظور: (نيب))، و(ابن فارس: المجمل: (سر)). يقول: إن سيفي ينفر نوقي خشية النحر، ولم يبق من خالصها إلا القليل، حيث اعتدتُ نحرها في سبيل الكرم.

(١) ديوانه: (١٤/٢٨٦) = (ط. TÜREK: ١٤/١١٦).

(☆٢) الفرند: هاهنا السيف نفسه، وهو أيضاً وشيه وجوهره وماؤه الذي يجري فيه، وطرائقه التي عليه. العضب: القاطع. والعتق: الكرم والجمال. والليت: صفحة العنق. (انظر: ابن منظور: (فرند)، و(عتق)).

(٢) ديوانه: (٢/٢١٦) = (ط. TÜREK: ٢/٨٩).

(☆٣) قارعة الغضا: موضع، والغضا: أرض في ديار بني كلاب، كانت بها وقعة لهم، والعضا: واد بنجد. ألواح سيف: أي ما لاح منه من بقية فرنده. ثامل: قديم العهد بالصقال والتعاهد، حتى ذهب فرنده وحسنه (انظر: الحموي: البلدان: (الغضا))، و(أمالي القالي: ١/١٨)، و(البكري: اللآلي: ١/ ٨٤).

(٣) ديوانه: (٣٩/٣٢٨) = (ط. TÜREK: ٣٩/١٣٤).

(٤) م.ن: (٢٦/٨١) = (ط. TÜREK: ٢٦/٣٢).

(☆٤) مثل الحسام: مفعول قوله: «أبقى» في البيت الذي قبله في القصيدة. خلته: أي مصادقته وموادته وإخاؤه، ويؤيده الشطر الثاني، وهو يحتمل أيضاً أن يعني عند ضربته، على أن الضمير في «خلته» عائد إلى «الحسام»، أو أن يعني عن حاجته وخصاصته، على عودة الضمير إلى الشاعر نفسه. (انظر: ابن منظور: (خلل))، و(عزة حسن). إزرة: حالة. وإِزَر: جمع أزر، وهو القوة. (انظر: ابن منظور: (أزر)). ولعل المعنى: أنه كريم كالسيف، في مضائه إلى المكارم، يؤازر صاحبه في كل حالات الدهر.

ومن ذلك بيته[1]:

أنّا نَقُومُ بجُلّانا، ويَحْمِلُها مِنّا طويلُ نِجادِ السَّيْفِ مُطَّلِعُ[☆]

ومن الأسلحة في شعره: (الرماح)، وقد نسبها في بعض أبياته إلى (رُدَيْنَة): وهي امرأة كانت تقوّم الرماح، مع زوجها (سَمْهَر)، بخطّ (هَجَر)[2]. قال[3]:

وقَوْمٌ بأيديهِمْ رِماحُ رُدَيْنَةٍ شَوارِعُ تَسْتَأْني دماً أو تَسَلَّفُ[☆٢]

وتنعت الرماح بزرقة السنان، واهتزاز العامل ولدانته، وفي هذا يقول[4]:

وكمْ من كَمِيٍّ قد شَكَكْنا قَمِيصَهُ بأزرقَ عَسّالٍ إذا هُزَّ عامِلُهْ[☆٣]

و(الزاعبي) من الرماح: الذي إذا هُزَّ كأن كعوبه يجري بعضها في بعض، للينه، والسنان الزاعبي: منسوب إلى (زاعب): بلد، وقيل: رجل من الخزرج كان يصنعها[5]. قال فيه[6]:

---

(١) ديوانه: (٣١/١٧٦) = (ط. TÜREK: ٧٢/ ٣١).

(☆) جملة «أنّا...» وما بعدها مفعول قوله: «هل علمت» في البيت السابق من القصيدة. الجلى: الأمر العظيم. ونجاد السيف: حمائله، وقيل: ما وقع على العاتق منها. مطلع: مضطلع، وأصلها مضتلع، أدغمت الضاد في التاء فصارتا طاء مشدّدة، من الضلاعة، وهي القوة، أي أنه قوي على حمل عظائم الأمور، وقيل: لا يقال: في «مضطلع»: «مطلع» (بالإدغام)، وإنما «مطلع» من الاطلاع، بمعنى العلو، أي أنه عال لذلك الأمر مالك له. (انظر: ابن منظور: (جلل)، و(نجد)، و(ضلع))، و(الجوهري: (نجد)).

(٢) انظر: الجوهري: (ردن)، (سمهر).

(٣) ديوانه: (٢١/١٩٤) = (ط. TÜREK: ٧٩/ ٢١).

(☆٢) شوارع: أي مسددة نحو الأعداء. تستأني: تنتظر. تسلف: تتسلف، من السُّلفة، وهي ما يتعجله الإنسان من الطعام قبل الغداء، شبه به الرماح التي تنتظر دم الأعداء أو تتعجله. (انظر: الزمخشري: الأساس: (أنى))، و(الجوهري: (سلف)).

(٤) ديوانه: (٢٠/٢٤٢) = (ط. TÜREK: ٩٩/ ١٩).

(☆٣) الكمي: الشجاع المتكمّي في سلاحه. والقميص: الدرع هاهنا. شككنا: أي خرقناه بالرمح وانتظمناه به. أزرق: أي رمح أزرق السنان، وهو الأبيض. (انظر: الأصمعي: (مجلة المورد: م١٦، ع٢، ص٨٦)). والعسال: الرمح الذي يهتز ويضطرب. وعامله: صدره دون السنان. (انظر الجوهري: (كمي)، و(شكك)، و(عسل))، و(ابن منظور: (قمص)، و(عمل)).

(٥) انظر: الأصمعي: (مجلة المورد: م١٦، ع٢، ص ٨٣)، وابن منظور: (زعب).

(٦) ديوانه: (٣٥/١٣٨) = (ط. TÜREK: ٥٦/ ٣٥).

لقد كان فينا مَنْ يَحُوطُ ذِمارَنا   ويَحْذِي الكَمِيَّ الزَّاعِبِيَّ المُؤَمَّرا[☆]

ويستمد الشاعر من اهتزاز الرمح ما يصوّر به مشية المرأة، نحو قوله، واصفاً (دهماء)[١]:

بِمَشْيٍ كَهَزِّ الرُّمحِ، بادٍ جَمالُهُ   إذا جَدَفَ المَشْيَ القِصارُ الدَّحادِحُ[☆٢]

وكذلك استعمل الرمح رمزاً للعزة والمنعة، في ممدوحه، إذ قال[٢][☆٣]:

يَأْبَى على الناسِ إن رامُوا ظُلامَتَهُ   عُودٌ نَما في صَفاةٍ ظَهْرُها عاري
[تَأْبَى عليهِمْ قَناةٌ مالَها أَوَدٌ   أَلْوَى بها فَرْعُ نَبْعٍ غَيْرُ خَوّارِ]

ومن أسلحتهم: (الأقواس)، وكانوا يتخذونها من (النبع)[٣]، يقول عن أصحابه[٤]:

فأَضْحَوا تَشاوَى بالفَلا بينَ أَرْحُلٍ   وأَقواسِ نَبْعٍ هُزَّ عَنّا شَواجِرُهْ[☆٤]

وفي مواطن أخرى يذكر اتخاذ القسيّ من (الشوحط)[٥]، أو من (الشّريان)[٦]. وفي وصف صوتها يقول مشبّهاً ترنمها بحنين الناقة المسنة[٧]:

(☆) الذمار: كل ما يلزم حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه. ويحذي: يطعن. والكمي: الشجاع المتكمّي في سلاحه. والمؤمّر: المسلّط على الأعداء، أو بمعنى المحدد. (انظر: ابن منظور: (ذمر)، و(حذا)، و(كمي)، و(أمر)).

(١) ديوانه: (١٥/٤٤) = (ط. TÜREK: ١٥/١٨).

(☆٢) جدف المشي: أي مشين مَشْي القِصار. والدحادح: جمع دَحْداحة، وهي القصيرة السمينة. (انظر: ابن منظور: (جدف)، و(دحح)).

(٢) ديوانه: (١١٦-١١٧/١٨-١٩) = (ط. TÜREK: ٤٦/١٨-١٩).

(☆٣) أود: اعوجاج. ألوى بها: أي تمايل بها. (انظر: ابن منظور: (لوي)). والنبع: شجر من أشجار السراة، أعواده جيدة تتخذ منه الأسلحة، تقدم وصفه في هذا الباب. (راجع: ف٢: ب - الأشجار). خوّار: ضعيف.

(٣) راجع: ب٢ ف٢: ب - الأشجار.

(٤) ديوانه: (١٧/١٥٦) = (ط. TÜREK: ١٧/١٦٤).

(☆٤) الشواجر: المتشابكة المتداخلة، كناية عن كثرتها. (انظر: ابن منظور: (شجر)).

(٥) انظر: ديوانه: (١١/١٦١) = (ط. TÜREK: ١١/٦٦).

(٦) انظر: م.ن: (٢١/١٦٣) = (ط. TÜREK: ٢١/٦٧).

(٧) م.ن: (٢٢/١٦٣) = (ط. TÜREK: ٢٢/٦٧).

إذا غُـمِـزَتْ تَـرَنَّـمَ أَبْهَراهـا   حَنينَ النّابِ بالأُفُقِ النَّزُوعِ

و(الدروع): من أهم عُدَدِهم في الحرب، تقيهم ضربات الأعداء، وقد أشار الشاعر إلى صناعتها من (الماذيّ): وهو خالص الحديد وجيده، وقيل: الدروع الماذية: البيضاء، أو السهلة اللينة السابغة(١). قال، في تعداد أسلحة قومه(٢):

وبِيضٍ منَ الماذِيِّ حامٍ قَتيرُها   حَرابِيُّها كالقَطْرِ أو هِيَ أَلْطَفُ(☆)

ونسب الدروع إلى (داود عليه السلام)، الذي اشتهر بعملها، فقال(٣):

ونَسْجُ داوُدَ من بِيضٍ مُضاعَفَةٍ   من عَهْدِ عادٍ، وبعدَ الحَيِّ من إِرَمِ(☆٢)

ولم تك دروع العرب سلاحاً في الحروب فحسب، بل في رحلاتهم أيضاً، تحسّباً لما قد يعترضهم فيها، يقول(٤):

حتى إذا احْتَمَلُوا كانتْ حَقائِبُهمْ   طَيَّ السَّلُوقِيِّ والمَلْبُونَةَ الخُنُفا

فنسب تلك الدروع إلى (قرية سلوق) باليمن، أو (سَلَقْيَة) بالروم، وهي بالفرنسية: "Séleucie"(٥).

---

(١) انظر: الأصمعي: (مجلة المورد: م١٦، ع٢، ص١٠٤)، وابن منظور: (مذي).
(٢) ديوانه: (١٩١/١٠) = (ط. TÜREK: ٧٨/١٠).
(☆) بيض: دروع بيض. والقتير: رؤوس المسامير في الدروع. حرابيها: جمع حرباء، وهو مسمار الدرع، وقيل: رأس المسمار في حلقة الدرع. (انظر: الأصمعي: (مجلة المورد: م١٦، ع٢، ص ١٠٧))، و(الجوهري: (قتر)، و(حرب))، و(ابن منظور: (حرب)).
(٣) ذيل ديوانه: (٣٩٨/٧) = (ط. TÜREK: الملحق: ١٠٢/١٥٢).
(☆٢) بيض مضاعفة: دروع بيض ضوعف حلقها ونسجت حلقتين حلقتين. (انظر: الأصمعي: (مجلة المورد: م١٦، ع٢، ص١٠٥)). إرم: والد عاد الأولى، وقيل: إرم عاد الأخيرة. (انظر: ابن منظور: (أرم)). وأراد المبالغة في جودتها، حيث تتوارثها الأجيال منذ القدم. وانظر: تعليق (ابن رشيق: العمدة: ٢٦٨/٢) على البيت، ووصفه بالإحالة
(٤) ديوانه: (١٨١/٦) = (ط. TÜREK: ٧٤/٦).
(٥) انظر: البكري: ما استعجم: ٧٥١، وخياط: (سلق).

ومن الأسلحة في شعره: (السهام)، التي أنبأ عن صناعتها من أشجار (النبع) و(التألب)، فيما مرّ من شعر[1].

و(المِرّيخ) منها: لم يسمع له بجمع، سهم طويل له أربع قُذَد، يُغْلَى به[☆]، وهو أسرع السهام ذهاباً[2]. شبّه به سرعة الظبي، فقال[3]:

كأنه مَتْنُ مِرّيخٍ أَمَرَّ بِهِ ... زَيْغُ الشِّمالِ وحَفْزُ القَوْسِ بالوَتَرِ[☆2]

ومن عُدَد القتال: (التروس)، وقد نسبها إلى (الروم) في بيت سابق؛ وذلك لماتعرف به تِرَسة الروم من كبرها وشدتها[4]. وشبّه نفسه بـ(المجنّ)، في دفعه عن قومه، فقال[5]:

هل كنتُ إلا مِجَنّاً تَتَّقُونَ بِهِ ... قد لاحَ في عِرْضٍ من باذأَكُمْ عَلَبي[☆3]

ومن العُدَد كذلك: (البَيْض)، جمع بَيْضَة، وهي الخوذة، سميت بيضة لأنها على شكل بيضة نعام[6]، قال[7]:

وبَيْضٍ منَ الماذِيِّ كَرَّهَ طَعْمَها ... إلى المَشْرَفِيّاتِ القَتِيرُ المُعَقْرَبُ[☆4]

---

(1) راجع: ب١ ف١: أ - ٢.

(☆) أي أن راميه يستطيع إيصاله المدى القصي بسهولة. (انظر: ابن منظور: (غلا)).

(2) انظر: الأصمعي: (مجلة المورد: م١٦، ع٢، ص٩٥)، والجوهري: (مرخ)، وابن قتيبة: المعاني: ٤٤.

(3) ديوانه: (٧٦/١٠١) = (ط. TÜREK: ٧٦/٣٩).

(☆2) زيغ الشمال: أي حيث انحرفت شماله أرسل سهمه. والحفز: الدفع. (انظر: ابن قتيبة: المعاني: ٤٤).

(4) راجع: أ - الأبنية، من هذا الفصل.

(5) ذيل ديوانه: (٣/٣٥٣) = (ط. TÜREK: الملحق: ٧/١٣٩).

(☆3) المجن: الترس. باذأكم: من البذاء، وهو الفحش والإقذاع. والعَلَب: الأثر، وحرك اللام هنا للضرورة. (انظر: الزمخشري: الأساس: (بذا))، و(القالي: ٣/ ٢٣).

(6) انظر: ابن منظور: (بيض).

(7) ديوانه: (٢٧/١٧) = (ط. TÜREK: ٢٧/٨).

(☆4) الماذي: خالص الحديد وجيده. والمشرفيات: السيوف. (راجع: أول هذا الموضوع عن السلاح). والقتير: رؤوس المسامير في الدروع. والمعقرب: المعطوف المعوجّ. (انظر: ابن منظور: (مذي)، و(قتر)، و(عقرب)). وربما كانت كلمة «بَيض»: «بِيض» (بكسر الباء)، أي دروع بيض، وقد مر قبل قليل بيت شبيه بهذا البيت. (راجع: الكلام على الدروع).

ويصف (كتيبة) جيش مدجّجة بالسلاح، بقوله[1]:

وشَهْباءُ تَنْبُو النَّبْلُ عنها كأنها ... صَفاً زَلَّ عن أَرْكانِهِ المُتَزَحْلِفُ[☆]

هذه نماذج من أبرز الأسلحة وعُدَد الدفاع في شعر (ابن مقبل)، التي تمثّل جانباً من أهم جوانب الحياة المادية في ذلك العصر.

ومن خلال هذا الشعر نتبين مقدار غنى البيئة المادية وتنوّعها إذ ذاك، وما سيق هنا من أمثلة ليس سوى شذرات مصطفاة من خضمٍ زاخر، يلمسه القارئ في (فهرس الحضارة) اللاحق.

ويبقى من البيئة بعدئذ، الوجه الآخر، وهو البيئة الروحية، ولعل هذا الوجه قد استوفى نصيبه من الدرس في الباب الأول، المتصل بالجاهلية والإسلام في شعره، فهو يعد مكمّلاً لصورة البيئة الشاملة، التي رسمها الشاعر في ديوانه.

□□□□□

(١) ديوانه: (١١/١٩١) = (ط. TÜREK: ٧٨/ ١١).

(☆) شهباء: أي كتيبة شهباء؛ لما فيها من الدروع والبَيض، وبياض السلاح والحديد. (انظر: الأصمعي: (مجلة المورد م١٦، ع٢، ص١١١)). والصفا: العريض من الحجارة الأملس. زل عن أركانه: أي هوى عن أركانه. والمتزحلف: المتدحرج. (انظر: ابن منظور: (صفا)). شبه الكتيبة لصلابتها بصفاً أملس، لا يعلق به شيء، بل يتدحرج عن جوانبه، وذهب (عزة حسن) إلى أن «زل عن أركانه» يعني: «هوى عن أركانه في الجبل».

الحضـــارة (*)

(*) يشمل مظاهر الحضارة المادية المختلفة.
(آ): الآنية .
(ب): الملبوسات .
(ث): الثياب .
(ح): الحلي والجواهر .
(د): الآلات والأدوات .
(ر): عدد الركوب .
(ز): أشياء الزينة .
(س): السلاح وما يتعلق به .
(ش): الأشربة .
(ص): الأصباغ .
(ط): الأطعمة .
(ع): العطور .
(ك): الكتب وما يتعلق بها .
(ل): اللعب .
(م): الأبنية .
(و): النار وعدة الإيقاد .
ذ+،T،م: (راجع: فهرس النبت والشجر)

(خ)

(ش)

(غ)

(ف)

(ن)


مطابع الحميضي

منشـــورات نادي جـــازان الأدبي

مطابع الحميضي
تلفون: ٤٥٨١٠٠٠ - فاكس: ٤٥٩٢٣١٢

ردمك : ٠-٨٦٦-٣٤-٩٩٦٠